النُسخة الفَريدة الكاملة والمُحققة والمهذبة لكتاب

دَعوةُ المقاوَمةِ الإسلاميّةِ العالميّة

من أجل الجيل الثالث من الجهاديين

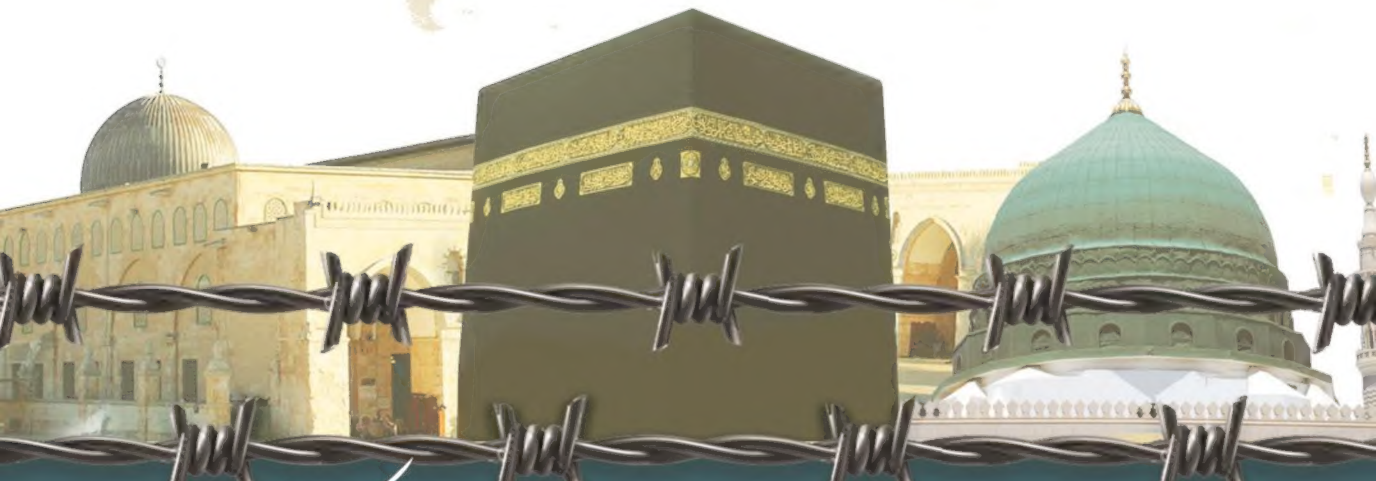
تأليف

الشَّيخ عُمر عبدُ الحَكيم أبو مُصعَب السُّوري

"فك الله أسره"

حققهُ وهذّبهُ

أبو العباس القلموني



مكتبة الجيل الثالث

النسخة الإلكترونية

٢٠١٨م - ١٤٣٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

دعوة المقاومة الإسلامية العالمية

الفصل الثالث

جُذُور النّظام الدّولي ومسار الصِّرَاع

من «قابيل» إلى «جورج بوش»

مكتبة الجيل الثالث

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة]

روى أبو داود عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قَالَ:

«يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ».

«رواه أبو داود وصححه الألباني»

الفَصْلُ الثّالِث

﴿ جُذُور النّظام الدّولي ومسار الصِّرَاع من قابيل إلى جورج بوش(١) ﴾

يشكل الاستعراض الموجز لمسار الصِّرَاع منذُ تقاتل ولدا آدم ﷺ وقتل الشرير منهما (قابيل) أخاه الصّالح (هابيل)، وإلى قيام النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكيّة عَلى مبادئ (صِرَاع الحضارات) وحتمية تصفية بعضها لبعض، يشكل ملخصا لجُذُور النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد، وبمعنى أدق استعراضا لتاريخ النّظام الدّولي وصراع أطرافه إلى أن استقر صراعا بين المُسلِمِين والرُّوم كأبرز أوجه الصِّرَاع الدائم في تاريخ البشرية الوسيط والحديث.

وسأوجز في هذه النبذة تحت هذا العنوان ما يُؤَدِّي الغرض كتوطئة تارِيخِيَّة لأفكار هذا الكتاب الّذي يشتمل عَلى دعوة المُقاوَمة الإِسْلَاميّة العَالَمِيّة ومنهجها وطريقتها.

بدايات الصِّرَاع ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ :

لقد قص علينا القرآن الكريم خبر اعتداء ولد آدم الأوّل عَلى أخيه وقتله إياه بعد وعيده الصريح وإقدامه بذلك عَلى سن سنة القتل في بني البشر، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة]

---

(١) فكرة الربط بين قابيل وجورج بوش، ووحدة شعارهما (لأقتلنك)، سمعتها في درس للشيخ (أبو الوليد المصري) – مصطفىٰ حامد –، ومن الأمانة أن أذكر له هٰذا هنا، وقد استعرت الفكرة لعنوان هٰذا الفَصل، والرجل من عباقرة الكتاب والمفكرين ومن الدرر الّتي ضاع قدرها وقيمتها في بحر الأمواج المتلاطمة لمسار الجِهَاد العربيّ قي أفغانستان، وهو صحفي محترف وكاتب ومؤرخ، ومفكر استراتيجي علىٰ مستوىٰ عال، ولا أدري ما مصيره بعد الأحداث، وأسأل الله أن يكون في عافية، ويبلغه مني السَّلام، وأن يدعو لي بظهر الغيب .[المؤلف]

وبصرف النَّظر هنا عما خاضت فيه بعض روايات التفاسير من أسباب القتل، والاكتفاء بالسبب الظَّاهِر الّذي ذكرته الآيات حيث اتقدت نار الحقد في صدر الشرير فصرخ متوعدا أخاه بقوله (لأقتلنك)! فإنا نجد أن تلك النار المتأججة في صدره لم يخمدها رد الأخ الصّالح بما احتواه من الوعظ واللين والتذكير بالله والتخويف من النار، فطوعت له نفسه فعلا أن يقدم عَلى أول جريمة عَلى سطح الأرض.

وهكذا سارت مسيرة الشر مع قسم من أولاد آدم فحملوا مهمة سفك الدِّماء والعدوان والظُّلم عبر مسار البشرية إلى أن وصلت تلك الرّاية المضمخة بالدِّماء إلى أيدي الحضارة الغربيّة ووريثتها المتجبرة أمريكا لتتبنى نظريَّة صِرَاع الحضارات، تلك النَّظريَّة الّتي مفادها أن الأرض لا تتسع لحضارات متناقضة، ولابد من أن الصِّرَاع الحتمي سيجعلها تصفي بعضها بعضاً، وأنه إن كانَ بإمكان الحضارة الغربيّة ذات الطابع النّصراني الصّليبيّ والنَّظريَّة الاقتصاديَّة الرأسمالية والفلسفة العلمانيّة الإباحية والنهج السّياسيّ القائم عَلى الدِّيمقراطيَّة، بإمكانها أن تتعايش مع بعض الحضارات فإن صدامها مع الحضارة الإِسْلَاميّة عدوها الّذي افترضته بعد قضائها عَلى حضارة الشّرق السُّوفيتيّة هو صدام حتمي، حيث اعتقدت أمريكا وراحت تجر وراءها أوروبّا الغربيّة وروسيا المنهارة ودول (حلف وارسو) اللاهثة من أجل دخول النّاتو للاعتقاد بأن عليها إزالة حضارة الإِسْلَام والمُسلِمين وفرض سياستها وهيمنتها وثقافتها وفلسفتها الكافرة عَلى شعوبهم.

وهكذا استعلن بوش بأنه يقود حرباً صليبيّة مقدرة له من قبل الرب الّذي اختاره لها بعد أن شفاه من الإدمان عَلى الخمر!! كما استعلن معاونوه الصّليبيّون المتصهينين بالقول بأنهم ورثة الحضارة الرُّومانية المسيحية وأن أعداءها في التّاريخ ـ يقصد المُسلِمِين ـ هم أعداؤها في الحاضر والمستقبل.

ومن هنا تحركت أمريكا عَلى كافّة الصعد لتفرض عَلى العالم ما أسموه (النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد) منذُ انفراط عقد الإتحاد السُّوفيتيّ مطلع العقد الأخير من القرن العِشرين.

ليسير وفق أحلام المنظرين المتصهينين الأمريكان من أمثال (كيسنجر) و(هينينغتون) و(ولف) وغيره، الّذين صرحوا بأن عَلى أمريكا أن تعمل ليكون القرن الحادي والعشرين مطلع الألفية الثّالثة

قرنا أمريكيا، وهكذا، عاد شعار الشر (لأقتلنك) ليرتفع مع رايات الإجرام الأمريكيّة مهددا كلّ من يقف في وجه هجمة الطمع والطّغيان الأمريكيّة المعاصرة وخاصة كلّ قوى المُقاوَمة والمُوَاجَهة في ديار الإِسْلَام والمُسلِمين.

****

محطات من تاريخ الصِّرَاع وجُذُوره من خلال قصص الأنبياء وأتباعهم:

انتشر أبناء آدم، وعبدوا الله عَلَى دين التّوحيد كما علمهم أبوهم عليه السلام، ثمّ تطاول العهد واجتالتهم الشياطين يمينا وشمالا عن الصراط السوي ودب فيهم الشرك والظُّلم والطّغيان.

فأرسل الله الرسل تباعا، مبشرين ومنذرين في كلّ أمة كما أخبر تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر]

لقد كانَ من أكبر أسباب تمسك المشركين بشركهم: تقليد الآباء، وطاعة الكبراء، والتزام العادات وما ألفته النفوس، وإتباع الشَّهَوَات، وأساس كلّ ذلك جري السادة والملأ من الكبراء ورجال الدّين الفاسدين وراء المصالح، وتعطيل العامّة لعقولهم وإتباعهم لكبرائهم رهبا ورغبا، وهكذا أخبرنا تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٤٤﴾ [المؤمنون]

لقد كانت خُلاصة دعوة الأنبياء وأساس عقيدتهم واحدة:

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ [النحل] وكذلك كانت ردود الكفرة والملحدين عَلَى رسلهم متشابهة واحدة، وتنوعت أشكال الصِّرَاع وقصص تلك المواجهات الدامية، ولكن أساس صورتها كانت شديدة التشابه، فأهل الحقّ يعبدون الله ويوحدونه ويريدون تعبيد الخلق له، والكفار بزعامة سادتهم وكبرائهم وكهانهم وعلماء سلاطينهم وأصحاب المصالح فهم يعبدون الطواغيت والأهواء ويريدون صرف النّاس عن الحقّ، فيعذبون أهله ويطاردونهم.

وتكررت شعارات الشر ووعيده، لنخرجنكم، لنرجمنكم، لنقتلنكم، لنسجننكم، وهكذا كانَ منذُ قالها الأخ الشرير لأخيه الصّالح: (لأقتلنك).

فأما نوح عليه السلام أول الرسل فقد صبر عَلى قومه قرابة ألف سنة وكان جزاؤه وعيدهم الدائم ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ١١٦﴾ [الشعراء] وهَؤُلَاءِ قوم إبراهيم عليه السلام يقولون لأبي الأنبياء كما قص علينا تبارك وتعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٤﴾ [العنكبوت]. حتَّى أبوه قَالَ له ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ٤٦﴾ [مريم]، وهَؤُلَاءِ قوم شعيب عليه السلام يتهددونه وأتباعه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨﴾ [الأعراف] وزادوه من الوعيد: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ٩١﴾ [هود] وأما قوم لوط عليه السلام فكذلك قولهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [النمل]، إلى أن جاء موسى عليه السلام وقص القرآن علينا قصة صراعه الطويل مع فرعون وقومه حيث أعلن الفرعون عن أصل المشكلة: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ٢٩﴾ [الشعراء] ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف].

ثمّ أخبرنا القرآن الكريم بما كانَ من سلوك بني إسرائيل وكبرائهم وكهانهم الفسقة الفاسدين مع أنبيائهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة].

إلى أن جاء نبي الله عيسى عليه السلام فمكر به الأحبار والرهبان من اليَهُوْد وسعوا إلى الحاكم الرُّوماني لقتله وصلبه فنجاه الله منهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: ١٥٧] فطاردوا أتباعه عَلى مدى قرنين من الزّمان قتلا وتشريدا حيث ذكر القرآن إحدى صور تلك المعاناة في قصة أصحاب الأخدود: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٨﴾ [البروج]

إلى أن جاءت الرّسالة الخاتمة فكان من أمر كفار قريش مع نبي الرحمة ﷺ ومع أتباعه ما غطته روايات السيرة وخلدته آيات القرآن ونصوص السنة ليتلخص التهديد بإخباره تَعَالَى بخلاصة مكر أعداء الله بالمُؤمِنِين في كلّ زمان ومكان: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال]، سجن أو قتل أو تشريد وهذا ما يحصل اليَوْم من قبل أمريكا وحلفائها من الكفّار والمرتدّين في كلّ من يفكر بمقاومتهم والوقوف في وجه طغيانهم.

****

عبر وملاحظات:

إن الدارس لقصص الأنبياء بدءا من دعوة نوح عليه السلام وانتهاء بالسيرة العطرة لسيدنا المصطفى عليه الصّلاة والسَّلام كما غطتها نصوص القرآن والسنة النّبويّة عَلى صاحبها أفضل الصّلاة والسَّلام يخرج بعبر ودروس لا تنتهي عن مسير الصِّرَاع مع البَاطِل، كما أن دراسة التّاريخ البشري عموما والإِسْلَاميّ خُصُوصَاً تعطي أفضل الدُّروس وأوضحها عن مسيرة هذا الصِّرَاع عبر التّاريخ وفي حدود الإيجاز الّذي نحن بصدده نذكر من ذلك:

عدم إمكانية عيش قوى الخير والشر في مكان واحد:

فرغم أن أسرة آدم عليه السلام كانت صغيرة جدا بل الأسرة الوحيدة في الأرض لم تتسع الأرض بكاملها لذلك الأخ الشرير كي يتحمل وجود أخ صالح يتقبل الله منه معه فيها، فلقد كانَ بإمكانه أن يقول لأخيه لا أريدك بقربي أخرج إلى أرض أُخرى، إلى جبل آخر، إلى إقليم آخر، إلى قارة أُخرى، ولكن لم يجد إلا مقالة: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فالشر لا يتحمل وجود الخير عَلى ظهر الأرض كلها إن استطاع، وهذه لفتة تفيدنا أن من العبث حقيقة، ومن مصادمة السنن الكونية ومنطق التّاريخ أن يتخيل بعض أهل الحقّ أن أهل البَاطِل وقوى الشر تتحمل جوارهم بل مجرد وجودهم.

ومن هنا تسقط كلّ نظَريّات التعايش بينهما عَلى كافّة الأصعدة.

فلم يمكن لحاكم طاغية عبر التّاريخ أن يتحمل وجود من يوحد الله في شعبه ولا يعبده، حتَّى ولو تركه وشأنه وطغيانه، كما لا يمكن لدولة جرثومية في بنيتها وفكرتها مثل إسرائيل أن تتحمل قيام دويلة فلسطينية في خاصرتها ولو بمواصفات ممسوخة عَلى جزء من أرض فِلَسطِين، حتَّى ولو سلمت هذه الدويلة لإسرائيل بكل ما سلبته منها واعترفت بشرعيتها الغير مشروعة أصلا، وهذا ما أثبته المسار السخيف لاتفاقيات السَّلام بدءا من (أوسلو) ومرورا بـ (مدريد) وغيرها وانتهاء بـ (خارطة الطّريق) إلى الهاوية.

كما أثبتت التَّجَارب السّياسيّة في كافّة الدّول الإِسْلَاميّة أن قوى الكفر والعلمنة والإلحاد والتغريب لم تتحمل وجود قوى أصوليَّة وأحزاب إسلاميّة معها تحت قبة البرلمان، إلا ممسوخة مدجّنة مسيّرة، وقد رفضتها حتَّى مع حالتها هذه في الغالبيّة السَّاحقَة من التَّجَارب، فمن السذاجة أن يتصوُّر بعض الإِسْلَاميّين تلك الرقعة المحدودة تحت قبة البرلمان تتسع لقوى الإيمان والكفر بالله في ألوهيته وربوبيته، وهي تتعايش بسلام، حيث لم تتسع الأرض كاملة لجوار الحقّ والبَاطِل، حيث ما لبث البَاطِل أن صرخ بالحق ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

****

إن الشر لا يندفع بالمواعظ وتحريك الضمير وإنما بمقاومته وقطع دابره:

فلم ينفع قابيل أن ذكّره أخاه بأنه مسالم له، وأنه لم يحرك يده ضده، وتذكيره بالخوف من الله، وتوعّده بالنار جزاء للظالمين.

فقال تَعَالَى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة] ثمّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة]

ولأن العبرة في الجرأة عَلى القتل لا بكمية القتل، فمن قتل نفسا زورا وطغيانا وظلما فهو مستعد لقتل غيرها لنفس الدوافع، وهذا ما أثبتته هذه الحضارة الغربيّة البربرية الهمجية الّتي تسود صفحات تاريخها بقصص مروعة من الجرائم.

فمنذ انطلقت حملة الكشوف الجغرافيّة بتفويض ومباركة من بابا الفاتيكان مطلع القرن السَّادس عشر، تركت الدّول النّصرانية الأوروبية وراءها قصصا من القتل والفتك بالبشر في القارات الخمسة الأخرى تشيب لها الولدان.

لقد أباد الغرب أعراقا وأمما بكاملها في الأمريكيّتين وأستراليا، وارتكب عبر التّاريخ منذُ ذلك الوقت وإلى يومنا هذا فضائع جاوزت ضحاياها مئات الملايين من البشر، بل لقد أباد الأوروبيون بعضهم بعضا في صراعهم عَلى عائدات الاستعمار وعلى المصالح والسياسات المختلفة فقتل في الحَرب العَالَمِيّة الأولى نحو ٨ مليون نسمة، وأفنى الأوروبيون فيما بينهم بالإضافة للروس والأمريكان واليابان نحو ٨٢ مليون إنسان في الحَرب العَالَمِيّة الثّانية، حيث قصفوا المدن عَلى رؤوس المدنيين وجعلوهم حقل تجارب لمخترعاتهم العسكريّة الفاتكة وانفردت أمريكا بتجريب أول قنبلتين نوويتين في التّاريخ الحديث فقتلت زهاء ربع مليون نفس في لحظات!

ولعلم الله بأن في بني الإنسان أمثال هَؤُلَاءِ، شرع الجِهَاد والدفع فقال تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج] وقال تَعَالَى عنهم: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة]، ولذلك قَالَ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ البقرة] ولهذا شرع الجِهَاد وفرض الإعداد، إعداد القوّة بهدف (الإرهَاب)، نعم إرهاب هذا الجنس النكد المعتدي من أبناء آدم حيث ما وجدوا، ولذلك أمر تَعَالَى بوضوح وصراحة ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ وحدد الهدف بصراحة مكملاً ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]

والآيات بهذا المعنى كثيرة، لقد علم الله أن هذا الجنس الشرير القاتل من بني البشر يجب أن يردعوا، وأن تستأصل شأفتهم إن لم يردعوا، وألا يسمح لهم بالعيش إلا تحت الذلة والصغار يدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون، وأن أكثره لا يستقيم إلا ما دمت عليه قائما، وهكذا أثبت التّاريخ وصدق الله العظيم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]

****

الصِّرَاع بين الحقّ والبَاطِل أزلي، كانَ وسيستمر، وأعداء الحقّ عَلى مر التّاريخ هم الملأ المستكبرون من الحاشية والأعوان وكهنة السُّلطَان:

منذُ نشأ الشرك، وقامت نواة السّلطة وتكون الطّغيان ارتبطت مصالح السُّلطَان والطَّاغوت بمصالح أهل الأموال والدُّنيَا بزيف سدنة الضلال من الكهان، فصار لهم الملأ، وحرسهم الأعوان، وكثيرا ما أطلق القرآن الكريم عَلى هذه الثلة أداة الشّيطان في وجه أهل الحقّ لفظ ﴿الْمَلَأُ﴾ أو لفظ ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أو لفظ ﴿الّذينَ أُترِفُوا﴾.

نعم بدأ هذا الصِّرَاع منذُ قابيل واستمر مع المتكبرين من قوم نوح ثمّ ما تلاه من الأنبياء عليهم السَّلام ممن قص علينا القرآن ذكرهم إلى تفصيلات ذلك في قصة موسى عليه السلام مع عد والله فرعون إلى قوى الكفر وأصحاب المصالح ممن سـعوا في قتل المسيح فأنجاه الله، وصولا لدعوة خاتم الأنبياء عليه الصّلاة والسَّلام، واستمر بعد ذلك كما سنبين عبر التّاريخ الإِسْلَاميّ بين دول الكفر ودولة الإِسْلَام، وبين قوى الحقّ والصلاح وقوى الاستكبار والظُّلم والجور داخل دولة الإِسْلَام ذاتها، منذُ أن افترق السُّلطَان والقرآن، كما أخبر سيد المرسلين ﷺ.

قَالَ الله تَعَالَى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣]

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف]

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف]

ثمّ إلى قصة فرعون وملئه وموقفهم من سيدنا موسى عليه السلام إلى قريش والسادة الملأ الّذين استكبروا وتجبروا حتَّى قذفوا بالقليب وهكذا، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

****

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف]

هكذا أخبر ربنا تبارك وتعالى عن أهل الحقّ بأنهم الثّلة والقلّة في كلّ قوم عبر التّاريخ عَلى مستوى الأرض وعلى مستوى كلّ قوم وإزاء كلّ دعوة حقّ، وهكذا أثبتت عبر تاريخ كلّ الدّعوات المؤمنة وكل دعوة حقٍّ، فقد دعا نوحٌ قومه ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً، فما آمن معهُ إلا قليلٌ.

وقد ذكر المفسرون أرقاماً أقلّها أولاده الثّلاثة، وأعلاها ثمانون، وأقواها اثـني عشر مؤمنًا!! فالمسلمون في الكفّار قليلٌ، والمُؤمِنُون في المُسلِمِين قليلٌ، وقليل من عبادِ الله الشَّكورُ، والمقرَّبون ثلّة من الأولين وقليلٌ من الآخرين، وأصحاب اليمين في أهل الإِسْلَام ثلّةٌ من الأولين وثلّةٌ من الآخرين.

****

إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ولا رابطة بين مؤمن وكافر:

أخبر الله ﷻ رسوله ﷺ بأنه يهدي من يشاء وأنه ليس له من الأمر شيء وقال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص] والآيات في هذا المعنى كثيرة جدّاً والله أعلم بمن هو أهل للرَّحمة والهُدى، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر]

كما قررت العَقِيْدَة بصرامة أن لا رابطة بين مؤمنٍ وكافرٍ، فقال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وكذلك: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وهكذا انفصلت علاقة الأبوّة عَلى أساس الكفر والإيمان فقال تَعَالَى يقطع العلاقة بين نوح ﷺ وابنه الكافر: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ﴾ [هود: ٤٦].

كما انفصلت علاقة البنوة بين إبراهيم وأبيه فقال تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

وكذلك بين الزوج وزوجه ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم]، وبين ﷻ أن هذا هو سبيل الأسوة الحسنة فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة] وكذلك أثنى الله تَعَالَى عَلى صحابة رسوله عندما تمثلوا ذلك وأنزل القَاعِدَة فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

هذه نقطة أساسية لفهم الصِّراع بين الحقّ والبَاطِل من منظور أهل الإيمان.

وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة].

****

نمو التَّجَمُّعات البشرية وقيام الممالك، ونشوء السّلطة وقيام النموذج الفرعوني المتكرر عبر التّاريخ (حاكم. كاهن. أعوان):

في بؤر التجمع البشري الأولي بدأت تتكون نويات العشائر من الأسر المتقاربة نسبا ومسكنا، من أولاد الأب الواحد وأولادهم، ومع تناميها بدأت تتكون القبائل من تجمع العشائر أولاد الجد الواحد.

وبشكل فطري وطبيعي قامت الحاجة لنشوء السّلطة، الّتي تكونت بشكل تلقائي من كبير الأسرة أو جدها أو شيخها المطاع الّذي ترجع إليه القبيلة في شؤونها وحاجتها.

ولما كانَ اجتماع القبائل عَلى موارد الغذاء والرزق من المياه والمراعي ومواطن الصيد، سرعان ما ضاقت المواقع بأهلها فتباعد النّاس في المساكن بحثا عن موارد الرزق نتيجة الحاجة والصِّراع عَلى تلك الموارد.

فكانت السّلطة في تلك المَرحَلَة مكونة من شيخ القبيلة وكبير رجال الدّين أو الكهان فيها وكبار رؤوس العشائر أو الأسر وأهل المال أو القوّة والبأس.

ومع تفاوت القبائل في حجمها سيطرت القوية منها عَلى من حولها من الأسر والقبائل الضعيفة إما بالتزاوج أو التَّحالف أو بالبطش والسّيطرة، وبدأت القبائل المتضخمة تأخذ شكل الممالك الصغيرة، وسرعان ما برزت الحاجة لمستلزمات المُلْك من الأعوان والسّلاح والحصون، ونشأت طبقة الملأ والأعوان، وأدوات الملك ونويات مؤسساته.

وكما حصل في تضخم بعض القبائل، تضخمت بعض الممالك لتبتلع من حولها أو تهجِّرها وتسيطر عَلى أرضها، ومكنت كثرة العدد والموارد بعضها من أن تتحول إلى ممالك قوية تقوم عَلى نظام

إقطاعي يسود فيه كبار القادة والملاك الّذين يشكلون كبار أعوان الملوك، الّذين اتسع مع اتساع الموارد والسلطان مدى نفوذهم وبالتالي مظاهر سلطانهم من كثرة الجند والسّلاح وإنشاء القلاع والحصون والأسوار عَلى مدنهم وممالكهم، ونشأ ت أنظمة اجتماعيَّة واقتصاديَّة وسياسيّة بحسب حال كلّ مملكة، وبالطبع كانَ لكل مملكة دينها ومعتـقداتها وبالتالي نشأت طبقة رجال الدّين والكهان الّذين يديرون الحياة الدّينيّة لكل مملكة.

وكما توسعت القبائل توسعت المالك، وقام الصِّرَاع عَلى النفوذ والسلطان أو الموارد والأراضي وسوى ذلك من متاع الدُّنيَا، فقامت الحُرُوب بين المالك وابتلع الأقوياء الضّعفاء فبدأت تتكون المالك الكبرى الّتي ازدهرت فيها حضارات عظيمة في مختلف مناطق الأرض عَلى يد أولئك الملوك الأقوياء، واضطرت المالك الصغرى إلى الدخول في حمايتها أو الذوبان فيها أو الرحيل من جوارها إلى مناطق أُخرى، فتوسعت تلك المالك لتصل إلى حجم الإمبراطوريات في بعض الأحيان.

ونتيجة الظُّلم، والتـنوع العرقي والدّيني في مكوّنات الإمبراطوريات، أو المالك الكبرى، ونتيجة الصِّرَاع فيما بينها، تفككت في كثير من الأحيان تلك الإمبراطوريات والمالك الكبيرة إلى مكوّنات أُخرى من المالك الصغيرة، وعادت إلى مستوى المملكة أو الإمارة أو حتَّى القبيلة لتعاود دورة التّاريخ سيرها معها بأشكال مختلفة فتتسع وتمتد ثمّ تتفكك وتتحلل، وهكذا دواليك.

*** قيام النموذج الفرعوني ومثلث السّلطة: (الحاكم- الكاهن - الأعوان):**

حكم الملوك والزعماء شعوبهم ورعاياهم بالترغيب والترهيب، فالعطايا والمناصب والمكاسب لمن يطيع السُّلطَان، والبطش والقتل والنكال لمن يخالفه، ومع الوقت أدرك الملوك والطغاة ما للسيف والذهب، أو العصا والجزرة ـ من أثر ناجع في سياسة النّاس،

إلا أن دهاة الساسة والملوك الطواغيت، لفت نظرهم طاعة النّاس لرجال لا يملكون سيفا ولا ذهبا، ولا حراسا ولا أعوانا، ولا شيئا من هيلمان السُّلطَان! إنهم رجال الدّين والكهان الّذين يقبعون في معابدهم، حيث يأتيهم النّاس طواعية ليدفعوا لهم الصدقات ويقربوا بين أيديهم القرابين بلا إجبار،

ويقضون لهم المهام والخدمات، بل ويهبون لهم حياتهم بكل اختيار، حيث لا يحصل الملوك عَلى ذلك من النّاس إلا بالسيف والسوط.

فالنّاس يطيعون الكهان بسبب دواعي الفطرة الكاملة الّتي فطرها الله في قلوب النّاس من السعي لعبادة خالقهم وإرضائه.

فإما يعبد النّاس ربّهم وفق هدي الأنبياء، ثمّ ورثتهم من العُلَماء، فيوصلونهم إلى الله عَلى الطّريق المستقيم لا يريدون منهم جزاءا ولا شكورا، وإنما هداة ربانيين يبتغون الأجر من الله تَعَالَى، وإما أن تجتال الشياطين النّاس ذات اليمين وذات الشمال فيعبدون الطّاغوت ويشركون بربهم، وتقودهم في هذا الضلال شياطين الإنس والجن من السحرة والكهان ورجال الدّين المنحرفين، فينحرف النّاس في دروب الضلالة كلّ أمة بحسب شيطانها وضلالها، ذلك منذُ عبد النّاس حجارة الطوطم والكواكب والظواهر الطبيعيّة والحيوانات والنار والأصنام، أو عبدوا البشر والطواغيت إلى آخر أشكال الشرك المتطورة بحسب تطور المجتمعات.

إن النّاس يطيعون كهانهم ورجال الدّين فيهم ظنا منهم أنهم يوصلون إلى طاعة خالقهم، فتستريح فطرتهم في عبادة ذلك الخالق، حيث لا تستريح فطرة ولا تستقر نفس إلا بالركون إلى معبودها بالحق أو بالضلالة.

ولذلك ترى الإنسان مهما سما في مراتب العلم والمعرفة والذكاء، يخلع عقله وتفكيره مع حذائه عَلى باب المعبد، ويستعد في غالب الأحيان نفسيا، لطاعة رجل الدّين القابع في داخله، ليدله عَلى رضا معبوده ويعلمه كيف يعبده ويطيعه، وهو عَلى استعداد لبذل كلّ غال ونفيس في سبيل هذه الراحة، وهكذا مازلت ترى اليَوْم حامل شهادة دكتوراة في أرقى العلوم، يثني ركبتيه ويبسط راحتيه ساجدا لبقرة أو فأرة أو نار، أو تمثال أصم مزركش! فيما يرش عليه الكاهن بعض رذاذ الماء من يده المتعفنة، ويطلق دخان البخور لتغطي عَلى نتنه ونتن معبده، أو ربما يتبع هذا الحصيف فتوى عوجاء من رجل دين منافق لسلطانه، حتّى ولو كانت لا تدخل في عقل عنزة، من قبيل إضفاء الشّرعيَّة عَلى احتلال

النّصَارى لبلاد الحرم بدعوى الاستعانة، وجعل من جاهدهم مفسدا في الأرض!! وهكذا كانَ وما زال ديدن البشر.

وحتى لما ثار النّاس مؤخرا عَلَى رجال الدّين وانخلعوا من أديانهم، وفروا إلى ظلمات الإلحاد، لم تستقر نفوسهم وما زالوا يتيهون في ظلمات السحر والكهانة والبحث في المغيبات، والاعتقاد في الأوهام والأشباح والأطباق الطائرة! حتَّى يسكن هذا العطش الفطري لعبادة ربّ قادر مهيمن يلجؤون إليه في المهمات!

أدرك الساسة ودهاة الطواغيت هذه الظَّاهِرة، وأدركوا أن استيعاب هَؤُلَاءِ المستحوذين عَلَى الطاعة بلا سلطان ولا أعوان أفضل من مواجهتهم، وعلموا أنهم إن خضعوا إليهم خضع لهم القطاع الأكبر من النّاس الّذين لم يتمكن السّيف والسوط ولا الذهب من إخضاع أكثرهم إلا مؤقتا، حيث يكون الأصل في النّاس هو التفلت والبغض للسلطان وسيفه وذهبه لولا الخوف والحاجة.

فقرّب رجالُ المُلْك رجالَ الدّين، وأغدقوا عليهم الذهب والعطايا، وأوعدوا من أبى منهم السّيف والعذاب، فطوعوا أكثرهم، فأنشؤوا لهم هيلمانا كهيلمان الملك، فارتفعت قباب المعابد كما ارتفعت أبراج القصور، وصار لهم الحراس والأعوان والأتباع والخدم، وهكذا انضم رجال الدّين إلى الملأ من كبار القواد والأمراء والأعوان وشكلوا الحاشية، وقام التزاوج النكد بين الملوك والكهان ورجال الدّين، هذا التزاوج الّذي دمر مستقبل البشرية في معظم تاريخها، وعبّد النّاس للطاغوت بدل أن يعبدوا ربّهم.

وبهذا اكتمل مثلث السّلطة الّذي قام عَلَى (**الحاكم والكاهن والأعوان**)، وشكل كبار الكهان وكبار الأعوان وجنودهم الظُّلمة ما اصطلح عليه القرآن بلفظة ﴿الملأ﴾ أو ﴿الّذينَ استكْبَرُوا﴾ أو ﴿الّذينَ أُتْرِفُوا﴾، وحاز هَؤُلَاءِ ما شاؤوا، واستولوا عَلَى ما أرادوا من دنيا النّاس والشّعوب المسحوقة طوعا أو كرها.

وتنوعت أشكال مثلث السّلطة بحسب تنوع وتطور المجتمعات والممالك والحضارات، ولكن التّاريخ وآثاره وما تركته تلك الحضارات من شواهد مكتوبة أو ملموسة، وكذلك ما أخبرتنا به الكتب

الدّينيّة السَّابقة ثمّ القرآن الكريم، دلت جميعها عَلى أن مثلث السّلطة كانَ مكونا من هذا الحلف: **(الحاكم والكاهن والأعوان)**، حيث كانَ صلاح الملأ والحاشية دائما بصلاح ذلك السُّلطَان، والعكس بالعكس، فالملوك العادلون قربوا العُلَماء الصّالحين ورجال الدّين المخلصين، واستقام تبعا لذلك مسلك الجند والأعوان، وأما الطغاة فقد قربوا المجبرين والفاسدين، وكان النّاس دائما عَلى دين ملوكهم.

وهكذا قام الساحر المشعوذ يهيج النار إلى جانب رئيس القبيلة، ويدير الطقوس في المجتمعات البدائية، ثمّ تطورت الحضارات فقام النموذج الفرعوني الّذي فصل القرآن وأفاض في تركيبته وأحواله، فوقف النمرود وكهان الأصنام لسيدنا إبراهيم عليه السلام حتَّى رموه في النار ثمّ هجّروه بعد نجاته، ولما جاء موسى عليه السلام إلى فرعون وقف في وجهه حلف السحرة والأعوان من الملأ إلى جانب الفرعون، ثمّ وقف الأحبار والرهبان من اليَهُوْد إلى جانب الملوك الطغاة ضدّ الصّالحين في كثير من تاريخهم، فجاء نموذج (بلعام بن باعوراء) الّذي قصَّ الله قصَّته مع القوم الجبَّارين وملكهم ضدّ نبيّ الله والمُؤمِنِين من بني إسرائيل، ثمّ جاء اليونان وقامت حضارتهم الوثـنيَّة، فكان لها أباطرتها وكهانها وآلهتها وجندهم وملوكهم، ثمّ جاء الرُّومان فورثوا حضارة اليونان بحذافيرها، وقامت حضارات كثيرة في المشرق والمغرب، وكلها تدل آثارها عَلى نفس المسالك والبنية في مثلث السّلطة، **(حاكم وكاهن وأعوان)**، ولما جاء سيدنا عيسى عليه السلام وقف الأحبار والرهبان والملأ من بني إسرائيل وأرباب الدُّنيَا والمصالح مع الحاكم الرُّوماني وسعوا في قتله فأنجاه الله منهم، ثمّ طارد القياصرة والملوك أتباعه وقتلوهم حتَّى حفروا لهم الأخدود الّذي ذكره القرآن، وطاردوا أصحاب الكهف وأمثالهم، حتَّى سمي القرن الأوّل والثّاني الميلادي في التّاريخ المسيحي بعصر الشّهداء.

ثمّ غزت النّصرانية الإمبراطورية الرُّومانية، بعد أن شوهها الرهبان والأحبار اليَهُوْد ومزجوها بالوثنية وبعض تعاليم اليَهُوْدية.

وتكررت السنّة فكان البابا كبير الرهبان والأحبار النّصَارى إلى جانب الإمبراطور القيصر، ونشأ له ما هو معروف من المؤسسة الدّينيّة وسلطانها، واكتمل عَلى يد النّصَارى الهيكل الدّيني الّذي

صار البابا الأكبر فيه إمبراطورا دينيا متوجا يضاهي الإمبراطور الرُّوماني وملوك أوروبّا في ملكهم وذهبهم وحراسهم وحشمهم، وشهدت أوروبّا كثيرا من الحُرُوب والنزاعات بين الملوك والأباطرة العظام وبين البابا وكبار كرادلته ورهبانه وكانت الغلبة دائما للباباوات، حتَّى ثار بعض الملوك واتخذوا لأنفسهم باباوات فرعيين غير البابا المركزي.

والتّاريخ الأوروبي والكنسي يقص الفظائع من أفعال مثلث السّلطة هذا (الحاكم والكاهن والأعوان) وما فعلوا بالشّعوب مما يشيب له الولدان، ويشابه الأساطير، فقد استلبوا الأموال، وسفكوا الدِّماء، واستحلوا من الأعراض ما شاؤوا، حتَّى بلغ بهم أن يبيعوا النّاس إقطاعات في الجنّات من عالم الآخرة! حتَّى ثار النّاس عَلى دين البابا، وإله البابا، وكفروا وألحدوا ورموا الدّين جانبا، لتقوم الحضارة الغربيّة عَلى مزيج من الإلحاد والعلمانيّة والنّصرانية المتهودة الملوثة، كما يشهدها العالم منذُ أكثر من قرنين من الزَّمن، فلما جاء دين الله الخاتم وشريعته المحمّدية، ركزت العَقِيْدَة عَلى ربط العبد بربه وأزالت وألغت دور الكاهن في حياة المسلم الإيمانية، فكان للدين علماء بمنزلة ورثة أنبياء يهدون النّاس إلى ربّهم بلا جزاء ولا أجر ولا إلزام، حيث يستطيع أي أحد من النّاس أن يسلك سبيل طلب العلم ليكون من أهل العلم، كما قـننت الشّريعة للسلطان دوره وحقوقه وصلاحياته، وكانت الشّريعة فوق الحاكم والمحكوم.

ولكن الّذي حصل في أرض الواقع هو ما أخبر به رسول الله ﷺ من أن أهل الإِسْلَام سيتبعون سنن من كانَ قبلهم حذو القذة بالقذة، قالوا يا رسول الله اليَهُوْد والنّصَارى؟ قَالَ:« فمن؟»[1] (أي فمن إلا هم؟!) لقد تبعهم أهل الإِسْلَام في كثير من الأمور وكان شر ذلك؛ الإتباع في النّظام السّياسيّ وهيكله، من قيام الملوك والسلاطين ونظامهم الوراثي، ونشأ هيكل شبيه بهيكل الأحبار والرهبان إلى جانب كلّ سلطان، وتماما كما أخبر رسول الله ﷺ في أحد أحاديث معجزات النبوة فيما روي عنه من

(١) أخرج مسلم (٢٦٦٩) والبخاري (٣٤٥٦) بمعناه ولفظه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﵁، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: اليَهُودَ وَالنَّصَارَى، قَالَ: «فَمَنْ؟» .

حديث حذيفة ﷺ: «تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ سَكَتَ»(١)، **وفي رواية غاية في الأهمّيّة أوردها أبو عمرو الداني في كتاب السنن الواردة في الفتن من حديث أنس ﷺ قَالَ:** «إِنَّهَا ثمّ .. ثمّ مُلكٌ عَضُوض ثُمّ جَبريّة ثمّ طَواغِيت»(٢)، وفي رواية: **عن أنس بن مالك قَالَ:** «إِنَّهَا سَتكُونُ مُلُوكٌ ثُمَّ الجُبَابِرَةُ ثُمَّ الطَّوَاغِيتُ»(٣).

وهذا الّذي حصل في المُسلِمِين منذُ رحيل الإستعمار وقيام حُكُومَات الطواغيت لترعى مصالحه وتحكم بشرائعه إلى يومنا هٰذا، وهكذا سن بنو أمية سنة الملك في الأُمّة المحمّدية وتبعهم بعدهم سلاطين المُسلِمِين وخلفاؤهم (كما اصطلح عَلى تسميتهم اصطلاحاً)، وكذلك كانَ دأب الملوك والأمراء المُسلِمِين لما تفرقت ممالك بلاد الإِسْلَام إلى دول وممالك شتّى.

فكانت النبوة فينا كما حفظت قصتها لنا كتب السيرة العطرة ونصوص السنة، وكان النبيّ ﷺ هو الحاكم السّياسيّ كما أنه مصدر التّشريع والتلقي.

فلما قامت الخِلافَة الرّاشدة عَلى منهاج النبوة، قام خليفة رسول الله ﷺ بأعباء الحكم والسّياسة والريادة الدّينيّة، يعاونه أهل الحلّ والعقد من علماء الصّحابة والتّابعين.

فلما انقلب الأمر كسروية قيصرية، وانتقل إلى الملك العضوض، فالملك الجَبريّ استلزم الملك والسلطان مقوّمات مثلث السّلطة من الكهان والأعوان.

---

(١) رواه أحمد (١٨٤٠٦) وحسن إسناده الأرنؤوط، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥).

(٢) انظر السنن الواردة في الفتن للداني (٤١٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الشيبة في المصنف ورقمه (٣٠٥٦٥، ٣٧١٩٣) عن أَبُي أُسَامَةَ عَنْ زَائِدَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ شِمْرٍ عَنْ أَنَسٍ ﷺ، والحديث موقوف على أنس ، ورجاله ثقات.

فسلك أهل الإِسْلَام في ذلك سنة من كانَ قبلهم، فما بالك عند ما تحقق ما ورد به رسول الله ﷺ من قيام الطواغيت؟

وهكذا كانَ إلى جانب كلّ ملك صالح علماء صالحون وأعوان مقسطون، ونادرا ما مر هذا في التّاريخ الإِسْلَاميّ، وكذلك قام إلى جانب ملوك الجور من الخُلَفَاء والسلاطين والأمراء المُسلِمِين، علماء سلطان منحرفون عَلى قدر جور أمرائهم.

إلى أن قام الطواغيت يحكمون المُسلِمِين، فطغى علماؤهم وابتدعوا وزادوا ونقصوا في دين الله قدر ما استطاعوا، ولم يسلم من عبثهم إلا القرآن الكريم، الّذي تكفل الله بحفظه، وما حفظ من سنته ﷺ ، ومع ذلك لعب علماء السوء دورهم في تحريف الكلم عن مواضعه وسوء التَّأويل ولي أعناق النّصوص، لتوافق أهواء الملوك، وكان الجند والأعوان من أعوان الظُّلمة وأصحاب السّيطرة رهن إشارة الملوك الّذين انتهبوا من دين أولئك العُلَماء وفتاويهم ما شاؤوا قدر ما استطاعوا.

وهكذا حصل ما أخبر به رسول الله ﷺ من افتراق القرآن والسلطان، ومن نعمة الله عَلى أهل مكّة الإِسْلَام أن حفظ لهم القرآن بحفظه وقيض لهم من حفظ السنة ونقحها، وأنعم عليهم ببعض العُلَماء والعاملين المخلصين في كلّ ظروف من تقوم بهم حجة الله عَلى خلقه، فوقفوا بالمرصاد لذلك الإنحراف وتحملوا في سبيل الله جبروت الملوك وضريبة مُوَاجَهة فُقَهَاء السّلاطين وعلماء الضلالة وجهالات وطغيان الجنود والأعوان من أتباع السادة والكبراء.

وهكذا كانَ إلى جانب كلّ سلطان من أمثال المأمون والمعتصم أمثال أحمد بن أبي دؤاد وأصحابه ممن يقول للمعتصم محرضا له عَلى قتل أحمد بن حنبل: (اقتله يا إمام ودمه في عنقي) حتَّى كانَ في خلفهم من شيوخ الأزهر في مصر من يفتي بقتل سيد قطب وإخوانه، ومن هيئة كبار العُلَماء في السّعُودِيّة ومن يفتي بقتل المُجَاهدين للأمريكان ويحكم بأنهم لا يروحون رائحة الجنّة!!

إن فهم هذه السنة الكونية أساسٌ هام جدا لفهم طبيعة صِرَاع الحقّ والبَاطِل عبر التّاريخ عامة، وفي زماننا هذا خاصّة، حيث ترزح كافّة بلادنا تحت احتلال قوى الكفر مباشرة وبصورة غير مباشرة، كما مر معنا في الفَصل الأوّل، حيث ينوب عنهم ويقوم عَلى حراسة مصالحهم ويشاطرهم المكاسب

حُكَّام مرتدون تترسوا خلف علماء ضلالة، فأسبغوا الشَّرعيَّة عليهم وعلى الإحتلال الصّليبيّ بل واليَهُوْدي، وأفتوا بقتل المُجَاهدين وحرمة التّعاون معهم، ليصبحوا جُزءاً من الحملة الأمريكيّة لمُكَافحَة الإِرهَاب، وهكذا تكرر عبر الأزمان وعلى مر الحضارات والممالك النموذج الفرعوني لمثلث السّلطة الّذي فصل فيه القرآن وبين وأفاض بطريقة تبعث عَلى الدهشة والعجب.

* النموذج الفرعوني من خلال نصوص القرآن:

لقد قص الله ﷻ قصة فرعون من خلال مساحة واسعة في القرآن بصورة تختلف من حيث الشرح والاختصار في ٢٧ سورة من سور القرآن، حيث ورد ذكر فرعون زهاء ٧٦ مرّة، وغالبا ما جاء مقترنا بذكر السحرة أو الملأ أو الجند والأعوان، ولعلّ أكثرها تفصيلا ما جاء في سور ﴿الأعراف ، يونس ، طه ، الشعراء ، القصص ، الزخرف﴾، وانظر إلى الإعجاز المذهل في تصوير السّلطة الفرعونية وأركانها في كلّ زمان ومكان، وأساليبها في الصِّرَاع مع الحقّ وأدوار أركانها الثّلاثة (الحاكم – الكاهن – الجند والأعوان)، وحيثيات المُوَاجَهة ودور الأجهزة السلطوية، وأداء أهل الحقّ والبَاطِل عَلى مسرح الحدث من خلال مشاهد الصِّرَاع ونختار من تلك النّصوص وقفة سريعة مع ما جاء في سورة الشعراء الآيات :

أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ

﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ
أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ
رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ
﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿٣٤﴾
يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾
يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ

(٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟
بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ
(٤٦) قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ
رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٥١) ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ
بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا
لَغَآئِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّآ ۖ
إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ
(٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ [الشعراء]

****

* وهكذا جاء دور السحرة وعلماء الفرعون:

ابتدأ الحوار بين موسى عليه السلام وفرعون عقديا، فلما بين موسى أن لهم ولآبائهم ربا هو مالك الملك ورب المشارق والمغارب، دب في فرعون شيطان الطّغيان فاتهمه بالجنون، ثمّ هدده بالسّجن إن هو اتخذ ربا يطيعه ويدين له بدلا عن طاعة الملك ودينه، ثمّ عرض موسى عليه السلام المعجزات والدلائل المفحمة، وهنا أسقط في يد الفرعون، فهذه معجزات لا تناقش، ولا توضع في السّجن، عندها ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥)﴾ اتهمه بقدرة السحر، واستنجد بالملأ يستفز فيهم حرصهم على الملك ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ ويظهر الدِّيمقراطيَّة الآن رغم أنه الآمر الناهي الّذي قال لهم يوميا ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر]، حتَّى بلغ أن يقول لهم ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]!! الآن يخاطب أعوانه باللين ومنطق المشاركة ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ وهكذا هم في كلّ زمان كما يفعلون اليوْم في مسرحيات الإصلاح السّياسيّ بعد زلازل العراق.

وهكذا أدرك الملأ أن المسألة مسألة خوارق وعقائد تحتاج أهلها، فاستنجدوا بعكاز الفراعنة في كلّ زمان المَشَايخ و(رجال الدّين)، ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ أي أجل حواره الآن ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧﴾ بكل مقتدر من الكهان، سحار كثير السحر عليم به، وهنا تأتي لفتة هامة وما أشبهها بما يحصل اليَوْم ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨﴾ ، وكم تذكرت هذه الآية عندما قرأت ذات مرّة بيانا لهيئة كبار العُلَماء بعد أن فجر المُجَاهدون مواقع للأمريكان في **(الخبر والرِّيَاض)** في السّعُودِيّة، فجاء في مطلع بيان هيئة كبار العُلَماء: (بناءا عَلى دعوة من وزير الداخليَّة سمو الأمير نايف بن عبد العزيز، اجتمعت هيئة كبار العُلَماء في دورتها الطارئة بتاريخ..)، فسبحان الله كيف تشابهت الأمور.

لقد أرسل فرعون وزارة الداخليَّة إلى هيئة كبار العُلَماء حاشرين، فاجتمعوا في دورتهم الطارئة لميقات يوم معلوم! وقيل للنَّاس يومها: إن هَؤُلَاءِ الّذين ضربوا الأمريكان في السّعُودِيّة شرذمة قليلون، وأنه لولي الأمر غائظون، وأن الجميع حاذرون، وأن عَلى كلّ مواطن أن يكون رجل أمن.

فلماذا يجتمع السحرة؟! إنهم يجتمعون لتطويع النّاس للفرعون ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩﴾ لماذا؟ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠﴾ وهنا لفتتان هامتان:

أولاهما: أن الملأ يتبعون فرعون في العادة، فكيف رضي لهم الفرعون وللنَّاس أن يتبعوا السحرة ؟! ما كانَ ذاك إلا لعلمه أن إتباعهم للسحرة هو في نهايته طاعة للفرعون لأَنّهم سيأمرونهم بهٰذا.

ثانيها: أن شرط طاعة النّاس للسحرة ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠﴾، **فالنّاس تتبع الحجة والبرهان الشَّرعيّ منهم إن غلبوا أو أوهموا النّاس بغلبتهم**، ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١﴾ فهم يعملون للدنيا والأجر، فما أجرهم؟ لقد اختار لهم الفرعون أعلى الأجر وأحبه إلى النفوس المتعلقة بالدنيا، فقال: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢﴾ **الأجر هو القرب من السُّلطَان، لأن بالقرب منه تقضى الحوائج، ويتقرب بعدها النّاس لهم بما شاؤوا من النِّسَاء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، أما الفرعون فهو يضمن بقربهم فسادهم لأنه كما جاء في الحديث**

«وَمَا ازْدَادَ عَبْدٌ مِنَ السُّلْطَانِ قُرْبًا، إِلَّا ازْدَادَ مِنَ اللهِ بُعْدًا»(١)، وهو يعلم هذا وكل السّلاطين والحكام يعرفونه.

فلما اتفقوا عَلَى أن يلقوا، استعلنوا بالشعار كما يستعلن عباد السّلاطين اليَوْم ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾، فلما غُلبوا وتبين الإعجاز الإلهي لهم، وعرفوا لأن الله كانَ قد كتب لهم السعادة ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾.

أدرك الفرعون أن عكاز السُّلطَان الأوّل قد انصدع وتكسر وتخلى عنه، فأشهر عكازه الثّاني وهم (الجند والأعوان) وأخذ بالتهديد والوعيد ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٩﴾.

فلما آمن من آمن وشرعوا بالهِجرَة والاختفاء، جاء دور الآلة الإعلاميَّة ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾، وما أشبه تلك البارحة بهذه الليالي، وما تديره آلة الإعلام اليَوْم فيما يسمونه (مُكَافحَة الإرهَاب).

فسبحان الله، وكما تشابه المسار ستتشابه النَّتِيجَة بإذن الله، فالعاقبة للمتقين، وقعر اليم لكل جبار عنيد.

*** أما الملأ:**

من المستشارين والأعوان والحاشية والجند، فهم كما جاؤوا في سياق القرآن شركاء في كلّ شيء، شركاء في التسلط والطّغيان، شركاء في الجرم، كما أنهم شركاء في حكمهم الشَّرعيّ، وكذلك شركاء في العاقبة والمصير.

فقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم ثلاثين مرّة، وكلها للتعبير بحسب سياق الآيات عن كبار أعوان الملك ومستشاريه وقادته والمقربين منه، وقد مرت في أكثر آيات قصص الأنبياء كما سبق في بعض الشواهد بصفتهم الأعوان الواقفين دفاعا عن الطَّاغوت دائما في وجه الأنبياء وأتباعهم، فهم كما وصفهم تَعَالَى:

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٥٩) وأحمد (٩٦٨٣، ٨٨٣٦) وضعفه الأرنؤوط، وحسنه الألباني – الصحيحة (١٢٧٢).

المتكبرين: ﴿ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ٧٥]، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٦]

والمترفين: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود]

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ]

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء]

والمتتبع لأمرهم في الآيات لاسيما في قصص فرعون المتكررة يلاحظ أمورا ثلاثة:

١. **أن السُّلطَان يرتكز إليهم وأنهم يرتكزون إليه.**

٢. **أن دورهم مباشر في تثبيت أركان الفرعون، وفي التخطيط والتآمر، وبتنفيذ الحَرب ضدّ حزب الإيمان.**

٣. **أن القرآن الكريم قد قرنهم إلى الفرعون في الحكم الشَّرعيّ وكذلك العقاب والمصير.**

- فهم يباشرون المؤامرة، قَالَ تَعالَى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص]

- وهم أركان ألوهية الفراعنة وعباد طاغيتهم: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ولذلك شملهم موسى بدعائه عَلى الفرعون لما قَالَ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس]

- كيف لا وهم شركاء في الظُّلم كما قَالَ تَعالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف]

- وهم المتكبرون معه، قَالَ تَعالَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون]

- وقد كانت الدّعوة إلى فرعون ولهم سواء بسواء: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص]

ولكنهم استكبروا وتولوا مهمة فتنة المُؤمِنين ومطاردتهم، قَالَ تَعالَى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس]

فلما استجاب الله دعاء موسى، أخذهم العذاب الأليم وغرقوا معه، وسبحان المنتقم العادل والجزاء من جنس العمل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود]

* وأما الجند وصغار الأعوان:

فحالهم حال الملأ وهم جزء منهم، والطّبقة السفلى من تكوينهم، وينسحب عليهم ما سبق من الملاحظات، فهم السند الحقيقي عددا وعدة، في تثبيت أركان الفرعون والملأ، وهم المباشرون لعذاب المُؤمِنين ونكالهم، وهم الّذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم من أجل بعض الفتات، ولذلك أشارت الآيات أيضا إلى اشتراكهم في الجرم وقصدهم بالدّعوة واشتمالهم عَلى عقاب طاغوتهم معه، في الدُّنيَا والآخرة، والآيات واضحة لا تحتاج إلى تعليق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء] فالقتال مع المُؤمِنين في سبيل الله علامة عَلى الإيمان، والقتال في سبيل الطّاغوت علامة عَلى الكفر.

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص]، فخطيئتهم واحدة جملة وهل كانت خطيئة الفرعون إلا الكفر بالله ومحاربة أوليائه.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص] فهم شركاء في الاستكبار، شركاء في الجحود، ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: ٩٠] فهم الأداة، أداة جريمة الفرعون ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ [البروج] فما فرعون وثمود لولا الجنود؟ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه] شراكة العقاب في الدُّنيَا ومثلها قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص] تأكيد لسابقتها

وكذلك قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص]

وهكذا رأى الجند والأعوان من العقاب مع فرعون وهامان ما كانوا يحذرون.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩﴾ [هود]، وهذه أسوأ ما ينتظرهم من شراكة المصير في الآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [الأحزاب]، فجند الطَّاغوت في مقابلة جند الله وملائكته، ومصيرهم هو مصير زعيمهم إبليس وكل جنده، ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥﴾ [الشعراء] فهكذا اشتركوا في المصير إلى النار.

وهكذا فهم عسكر إبليس مع كلّ طاغية جبار، وحّدهم الجرم ووحّدهم العقاب في الدُّنيَا والمصير في الآخرة إلا ما شاء ربّك، وهكذا أعود لأؤكد.

من أَنّي أعتقد كما اعتقدت دائما، أن مشكلة أهل الإيمان والجِهَاد في هذا الزّمان كما كانت في معظم الأزمان، وهي اليَوْم أوضح وأكبر، في كهنة هذا الزّمان علماء السُّلطَان المجرمين الّذين لبسوا عَلَى النّاس دينهم، وشرّعوا للكفر وجوده، وحاربوا من وقف في وجههم، وكانوا نكالا ووبالا عَلَى أمة الإِسْلَام ودعاتها إلى الله ومُجَاهديها المستضعفين، ولا عجب أن يخصهم القرآن بأشد آيات الوعيد والعقاب كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩﴾ [البقرة] **وقوله:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٤﴾ [البقرة]
وكذلك هَؤُلَاءِ الّذين يدَّعون أنهم أتباع مستضعفون، عبيد مأمورون، لا ذنب لهم، من الجند والشّرطة وصغار الأعوان والإستخبارات، فكذلك لا عجب أن يجمعهم الله تبارك وتعالى في جهنم إلى أسيادهم وكبرائهم الّذين اجتمعوا إليهم في الدُّنيَا، ولا تنفعهم إذ ذاك براءتهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟

مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة]

****

نشوء الممالك وزوالها ونظريَّة ابن خلدون في قيام الحضارات، ونظريَّة توينبي في تنقلها بين المشرق والمغرب:

تدل الدراسات التارِيخِيَّة والآثار في مختلف أنحاء المعمورة عَلى أن حضارات كثيرة وممالك لا حصر لها قد قامت وبادت هنا وهناك، والمجهول منها أكثر من المعروف، ولم يبق لنا منها إلا ما تدل عليه بعض الحفريات الأثرية، وما دوّن في بعض الأدبيات القديمة وما أشارت إليه بعض الكتب المقدّسة.

وقد قامت ممالك وتوسعت حتَّى وصلت حد الممالك العظيمة والاتساع الإمبراطوري، ثمّ دبت فيها عوامل الضّعف والفناء، واجتاحتها ممالك أقوى منها، فأدى ذلك إلى تحللها إلى مكوّناتها وقيام ممالك أصغر أو أكبر منها بحسب أمواج وتفاعلات التّاريخ البشري، وقد تقصى العلامة الباحث العبقري ابن خلدون رحمه الله، نشأة تلك الممالك وزوالها، وقيام الحضارات والعمران واندثاره، وأسباب ذلك وعوامله وأطواره ومراحله، فتوصل إلى نظَرِيَّات أساسية في علم التّاريخ والاجتماع والسّياسة.

وقد ضمن نظريته تلك كتابه المشهور بـ (مقدمة ابن خلدون)، وبمقتضى تلك النَّظريَّات أو الملاحظات، فإنه أثبت أن الممالك والحضارات تولد وتتطور، وتشب وتهرم وتموت بأطوار شبيهة جدا بالأطوار الّتي يمر بها الإنسان.

ويجدر بالإشارة أن فهم منطق التّاريخ وسياقه في ذلك، يهمنا جدا في فهم أسباب ومراحل قيام النّظام الدّولي والصِّرَاع التّاريخي بين الممالك والحضارات، لأن هذا يساعدنا عَلى فهم أسباب النهضة والهزيمة في تاريخ المُسلِمِين، ماضيهم وحاضرهم، ولنفهم ونستنبط ما يشير من الأدِلَّة إلى أن الحضارة الغربيّة المعاصرة، وآخر مراحلها الحالية بقيادة أمريكا آيلة إلى زوال لا محالة، وأن حضارة الإِسْلَام ماضية إلى بزوغ شمسها وقيام نهضتها بإذن الله، مما يدفعنا للأمل والجد والعمل، فالمستخلص من كلام

ابن خلدون رحمه الله أنه كما أن الإنسان يولد ضعيفا مرميا عَلى الأرض لا يستطيع حراكا ولا سعيا ويحتاج غيره في كلّ حاجاته، ثمّ يتطور فيحبو عَلى أربع، ثمّ ينمو فيشب عَلى قدميه ويسير متعثرا، حتَّى يستقيم له المسير، ثمّ يصير غلاما يرتع ويلعب، ثمّ شابا جلدا صلب العود، فرجلا تاما المدارك والقوى، فإذا ما بلغ الأربعين بلغ أشده وذروة قواه البدنية والعقليَّة، ثمّ يبدأ به الهبوط والتراجع في كافّة القوى، فيكتهل ثمّ يصبح شيخا، ثمّ شيخا فانيا، كما قَالَ تَعَالَى:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠﴾ [النحل]

وهكذا يشيب الشعر، ويرق العظم، وينحني الظهر، وهي رسل ملك الموت تؤذن بالرحيل، ثمّ يسير عَلى ثلاث ؛ رجليه وعكازه، وقد يحبو عَلى أربع ليقضي حاجته كما بدأ، ثمّ ينطرح في فراشه أرضا لا حراك به حتَّى يدركه الموت، فيعود من حيث أتى، ونسأل الله حسن الختام.

وقد رأى ابن خلدون؛ - وأثبتت حوادث الأيّام ما رأى – أن الدّول كذلك تمر بهذه الأطوار، فهي تنشأ وتشب وتستوي قواها ثمّ تذبل وتضعف، وتنهار قواها، ثمّ تموت ليتقاسم إرثها وحضارتها وأراضي شعوبها دول أُخرى، وهكذا وكما تتفاوت أعمار الإنسان، تتفاوت أعمار الدّول، وكما يموت البعض بسبب أمراض داخليَّة أو عدوى أمراض خارجية، فكذلك الدّول في الغالب، وكما يختطف موت الفجأة أو القتل بعض البشر، فربما هلكت دول بمفاجأة قوى أكبر منها، أو بالعوارض الطبيعيّة، وقد تعمر بعض الدّول أشهرا أو سَنَوات، وقد مر في التّاريخ دولا وحضارات قد عمرت آلاف السنين أو مئاتها، وصدق الله العظيم: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران]

ومن المهم الّذي أشار إليه ابن خلدون أن الدّول تنشأ لاجتماع مؤسسيها عَلى عصبية ما (يقصد رابطة)، قد تكون ملِكا، أو قرابة، أو دينا، أو عرقا قوميا، أو مصالح مشتركة، فتنشأ عصبية المُلْك، وتبدأ أمرها بقيامهم عَلى العصبية فيما بينهم، وعلى الخشونة والبأس والتَّضحِيَة في سعيهم.

وغالبا ما يكون المؤسسون الأوائل زاهدون في المتاع، منصرفون إلى الحَرب والجد والبناء، ثمّ يتلوهم جيل يولد في القوّة والنعيم فيكتسب صفات من قبله لقربه منها ويحافظ عَلى الملك ويطوره،

ولكن بشيء من الترف والمتعة في الملك، ثمّ يتلوه جيل أقل صلابة وأكثر ترفا وبعدا عن الكد والتعب، وهكذا حتَّى تقوم أجيال قد انحلت لديها العصبية، وأرخت قواها ومفاصلها أثار الترف والنعيم، فيدب الضّعف للدولة، فتطمع بها دول أو عصبيات أُخرى فتعدوا عليها وتستلب ملكها لتبدأ الدَّورة مع الجدد من جديد، وقد تكون أسباب السُّقوط داخليَّة أو خارجية وقد تجتمع كلّ العوامل.

وهكذا وباستعراض تاريخ الأمم والملوك القريب المعروف لدينا منذُ دون الإنسان آثاره أي منذُ نحو ٦٠٠٠ –٧٠٠٠ عام تقريبا نجد أن حضارات الصين والهند والسند واليونان والرُّومان والفراعنة وسواها، وما تخلل ذلك من ممالك ثانوية، قد مرت كلها في هذه الأطوار وصدقت ما ذهب إليه ذلك العلامة العظيم رحمه الله.

ويجب أن نعلم أن هذه السنة ما تزال سائرة في النظم والدّول الحديثة، وقد مرت بها الحضارة الإِسْلَاميّة إلى أن دب بها الضّعف، وتناهبت إرثها ممالك الحضارة الأوربية، الّتي انفردت بالسيادة منذُ نحو٢٠٠ سنة، إلى أن قام النّظام العَالَمِيّ الحديث بعد الحَرب العَالَمِيّة الثّانية فنشأت أمريكا وروسيا كوريثـتين لإرث المُستَعمرات الأوروبية، إلى أن أزالت أمريكا وحلفائها حضارة الشّرق السُّوفيتيّة، ليقوم (النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد) عَلى أساس القطب الأوحد المنفرد بالسلطة والقوة لأول مرّة في تاريخ البشر المعروف.

وقد قام المؤرخ الإنجليزي المعروف (أرنولد توينبي) المتوفى سنة ١٩٦٣م بإضافة ملاحظة عَلى منطق سير التّاريخ.

إذ لاحظ وتنبأ بناء عَلى ملاحظته أن الحضارة قد تداولت بين الشّرق والغرب أربع مرات وهي سائرة للخامسة بلا شك، فقال أن الحضارة ولدت في الشّرق في ممالك السند والهند والصين وفارس القديمة وحضارات العراق ومصر واليمن ثمّ انتقلت للغرب إلى اليونان ثمّ الرُّومان، ثمّ انتقلت للشرق عَلى يد المُسلِمين وقامت الحضارة الإِسْلَاميّة، ثمّ انتقلت للغرب عَلى يد الحضارة الغربيّة الأوروبية فالأمريكيّة، وقال أنها تسير ولا شَّكَّ للعودة للشرق والمُسلِمين بناء عَلى نذر الإنهيار والتحلل في الحضارة الغربيّة وبذور النهضة والإشراق في الشّرق الإِسْلَاميّ.

وهذا ثابت لدينا في البشائر النّبويّة وحتى في نبوءات كتب أهل الكتاب القديمة، وقد أوضح كتاب وفلاسفة غربيون معاصرون ذلك بصورة أصرح، بل كتب بعض الكتاب الأوروبيين والأمريكان مؤخرا كتبا تـنبؤوا فيها بسقوط أمريكا والحضارة الغربيّة في خلال عشرين سنة، وقد مضى عَلى بعض تلك الكتابات نحو عشر سنين، فسقوطهم لا شَّكَّ قادم، ونهوضنا لا شَّكَّ قائم، وهو غيب في علم الله، نسأل الله أن يشهدنا إياه، أو أن يجعلنا ممن عمل له عملا ينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

****

الحضارات والنّظام الدّولي القديم إلى ظهور الإِسْلَام:

رغم أن الدراسات الأثرية تشير إلى أن حضارات قديمة موغلة في القدم قد قامت وازدهرت في كلّ أنحاء الأرض وكافة قاراتها، إلا أنه لم يمكن معرفة تاريخ الإنسان بشئ من تفاصيله إلا عندما بدأت الكتابة ويرجع ذلك إلى نحو ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ عام، ومن أشهر الحضارات القديمة المعروفة، تلك الّتي قامت في بلاد الصين والهند وفارس، وحضارات العراق القديمة من الآشورية والكلدانية والبابلية وغيرها، وحضارات بلاد الشّام كالفنيقية والسومرية والكنعانية، وحضارات جَزِيرَة العَرَب، كعاد وثمود، وحضارات اليمن كسبأ وحمير وقوم تبع، وكذلك حضارات مصر الفرعونية ووادي النيل، وحضارات شمال إفريقيا وقرطاجة، وكذلك حضارة اليونانية، ثمّ الحضارة الرُّومانية، وكذلك حضارات الهنود الحمر وقدماءهم في الأمريكتين ولاسيما الجنوبية فيها حيث قامت حضارات متطورة وراقية.

ومع تطور الحضارات وقيام التّواصل بينها عبر علا قات السلم والحَرب، بدأ ما يمكن تسميته بـ**النّظام الدّولي**، حيث تمكنت حضارات وممالك عظمى من بسط سيطرتها عَلى ما جاورها، وكان لها نظما سياسيّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة وثقافية، كما كانَ لها سياسات عسكريّة داخلها وفي جوارها، ومنازعات مع من جاورها من الإمبراطوريات القوية.

ومن أشهر ذلك ما قام في العالم القديم آسيا وأفريقيا وأوروبّا ـ وهو العالم المتواصل جغرافيا وحضاريا مثل ما كانَ بين حضارة فارس القديمة الّتي عمرت عدّة آلاف من السنين، وحضارة اليونان وصراعها عَلى خط التماس في الشّرق الأوسط، وهي مناطق بلاد الشّام والعراق وتركيا (أو ما يعرف بهضبة الأناضول أو آسيا الصغرى)، وقد شهدت تلك المَرحَلَة انتصار فارس وتفكك حضارات اليونان وضعفها وتمزقها، ثمّ نهوضها مرّة أُخرى وتوحدها عَلى يد القائد التّاريخي الإسكندر المقدوني، الّذي جمع اليونان ثمّ غزا بهم المشرق ودحر الفرس ووصل إلى تخوم الصين، كما دخل مصر الفرعونية ومعظم بلاد المشرق.

ثمّ نهضت فارس ثانية وأقامت إمبراطورية امتد ملكها من بلاد الرافدين في العراق إلى بلاد فارس (إيران) والسند (باكستان) وأفغانستان وأجزاء من وسط آسيا، وفي ذلك الحين نهضت الإمبراطورية الرُّومانية في شبه الجَزِيرَة الإيطالية وورثت حضارة اليونان وتمددت لتشمل كلّ البلاد المحيطة بالبحر المتوسط: الشّام ومصر وشمال إفريقيا وأجزاء من الأنضول وكافة القارة الأوروبية.

وهكذا آل النّظام الدّولي القديم إلى وجود **حضارتين متنافستين، تتحاربان أيضا عَلى خطوط التماس في الشّرق الأوسط، في الشّام والعراق!**

وكان لذلك النّظام الدّولي كثيرا من صفاته في الوقت الحاضر، من نفوذ الدّولتين العظميين عَلى جيرانهم، وتدخلهم في شؤونهم الداخليَّة، وقيام نظام الحُرُوب بالوكالة بين أتباع الإمبراطورية الفارسية من أعراب العراق وبلاد الرافدين وهم ملوك المناذرة الّذين كانوا عَلى دين أسيادهم الفرس مجوسا يعبدون النار مثلهم، وبين أتباع الإمبراطورية الرُّومانية البيزنطية الّتي آلت عاصمتها إلى القُسطَنْطينيَّة وهم عرب الشّام الغساسنة وكانوا عَلى دين أسيادهم الرُّومان نصارى مثلهم.

وقد تبادل الرُّوم والفرس النّصر والهزيمة مرات عدّة في حُرُوب طاحنة أيضا، كما قامت بينهم في أيّام السلم علاقات التبادل الحضاري والإقتصادي.

و في ذلك الوقت كانَ عرب جَزِيرَة العَرَب يعيشون في عزلة سياسيّة تامة عن الجوار، في نظام بدائي متفكك مستقل عما حوله يقوم عَلى تجمعات قبلية وعشائرية متحاربة فيما بينها متفرقة سياسيّاً

لا يجمعها ملك ولا نظام، فقد كانت متفرقة دينيا تعبد كلّ قبيلة آلهتها وأوثانها، وكان للعرب في الجَزِيرَة نظام اقتصادي بدائي يقوم في معظمه عَلى الرعي، وشيء من الزراعة حول واحات مياه الصَّحرَاء، وعلى التجارة وخطها القديم الّذي يعبر مكّة والمدينة والعقبة من اليمن إلى الشّام ويربط بين تجارة المشرق القادمة من الصين والهند بحرا إلى اليمن، وتجارة الغرب القادمة من بلاد الرُّومان من الأناضول وشمال الشّام، ولم يكن في جَزِيرَة العَرَب نظام موحد ومستقل إلا في اليمن، حيث قامت ممالك وطيدة الأركان، إلى أن غزاها الأحباش النّصَارى حلفاء الرُّومان، ثمّ غلب عليها ملوك ارتبطوا بفارس الّذين عينوا عليهم حكاما تابعين لهم.

هذه هيَ الأحوال السّياسيّة وما يمكن أن نسميه اصطلاحا بـ(النّظام الدّولي) في قلب العالم القديم، أوروبّا وشمال أفريقيا ونصف آسيا الغربيّ.

وفي هذه الأجواء في بدايات القرن السَّابع الميلادي (٦١٠ ميلادي)، بزغ شمس الإِسْلَام، وبعث سيد ولد آدم، وخير الأولين والآخرين، سيدنا محمّد صلوات الله وسلامه عليه، وبزغت شمس الحضارة الإِسْلَاميّة حيث قامت نواة دولة الإِسْلَام وتوحدت جَزِيرَة العَرَب خلال باقي حياته وبعثته ﷺ الّتي امتدت ٢٣ سنة.

لتدخل دولة الإِسْلَام بذلك معترك النّظام الدّولي الّذي صار يتشكل من ثلاثة أقطاب هم: الرُّوم والفرس ودولة الإِسْلَام، منذُ القرن السَّابع الميلادي.

****

أهمية معرفة التّاريخ:

من الضَّروري جدا من أجل فهم أحداث الحاضر، واستقراء المستقبل، وفهم جدلية صِرَاع الحقّ والبَاطِل، سواء عَلى الصعيد الداخلي (بين المُسلِمِين)، أو عَلى الصعيد الخارجي، (مع أعدائهم وخاصة الرُّوم)، الإلمام ولو بشكل عام، بالمحطات التارِيخِيَّة الّتي مررنا بها نحن المُسلِمِين، وكذلك تاريخ أعدائنا بشكل عام، والمحطات المشتركة بيننا وبينهم، كما أن لهذا فائدة كبرى في فهم سنن النّصر

والهزيمة، وأسباب القوّة والضّعف، مما يساعد المسلم عامة والمُجَاهد خاصّة، وقياداتهم الواعية – كما يفترض – عَلى وجه الخصوص، عَلى التّحرّك في صراعاتنا القائمة والقادمة عَلى بصيرة.

كما أن معرفتنا بتاريخنا المجيد، تزودنا بدافع قوي، عَلى المضي قدما عَلى آثار خطى أجداد أماجد طاولوا الثريا رفعة وعزا، عندما فهموا أنّنا قوم أعزنا الله بالإِسْلَام، ومهما ابتغينا العز في سواه أذلنا الله، كما قَالَ سيدنا عمر رضي الله عنه(١)، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]

ولذلك نعرض في الصفحات المقبلة لنبذة مختصرة من محطات تاريخنا المجيد وما فيه من دُروس وعبر لا تحصى.

ونلي ذلك بلمحة عابرة عن تاريخ أعدائنا الأزليين الرُّوم (بني الأصفر)، قاتلهم الله.

****

النّظام الدّولي زمن البعثة النّبويّة (صِرَاع الفرس والرُّوم):

ولد رسول الله ﷺ سنة ٥٧٠م، وأوحي إليه كما هو معروف سنة ٦١٠ ميلادية، وكان الرُّوم والفرس يقتسمان سيادة العالم المحيط بالجَزِيرَة العربيَّة، وكان كلّ منهما يطمع في الاستيلاء عَلى منطقة النفوذ الممتدة من شاطئ الفرات إلى سواحل البحر المتوسط، ويعمل عَلى تحطيم قوة خصمه العسكريّة، ومن أجل ذلك كانت الحُرُوب متصلة بينهما، وكانت سجالا تقطعها مهادنات لا تطول، وقد اتسمت تلك الحُرُوب بضروب القسوة، من تقتيل وتدمير وتخريب.

وقد اشتد ذلك الصِّرَاع بين الدّولتين في عهد الملكين:

جوستنيان الأوّل الّذي نصب إمبراطورا عَلى الرُّوم عام (٥٢٧م).

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٠٧، ٢٠٨) وقال صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي، ولم يجرح به الوادعي وأورده الألباني كشاهد في الصحيحة (٥١). ومن الألفاظ الواردة : «.. إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللهُ».

كسرى الأوّل (أنوشروان) الّذي نصب ملكاً عَلى فارس عام (٥٣١م)، ففي عام (٥٤٦م) شن كسرى أنوشروان حربا عَلى الرُّوم وانقض عَلى سوريّة الشمالية فاستولى عَلى أنطاكية عاصمة الشّرق آنئذ، واستولى عَلى الرها (أوذيسا) وقنسرين وحلب ومدن أُخرى، ونقل آلاف الأسرى من أنطاكية إلى مدينة بناها عَلى غرارها بالقرب من المدائن دعاها (أنطاكية) وعرفت باسم (الرُّومية)، وولي عليها رجلا من نصارى الأهواز.

لم يستطع جوستنيان صد كسرى عن بلاده لاشتغاله بحُرُوبه مع قبائل (الآفار) و(السلاف) الّذين كانوا يغيرون عَلى حدود مملكته من جهة أوروبّا، وقد اضطر أن يعقد صلحا مع كسرى، وفي عام (٥٦٣م)، تمَّ هذا الصُّلح عَلى أن ينسحب كسرى من البلاد الّتي احتلها لقاء فدية كبيرة وجزية سنوية يدفعها الرُّوم.

وفي عام (٥٦٥م) مات جوستنيان الأوّل وخلفه جوستنيان الثّاني فنقض الصُّلح الّذي أبرمه سلفه مع كسرى، فارتد كسرى عَلى سوريّة فدمرها، ويموت جوستنيان الثّاني عام (٥٧٨م) فيخلفه الإمبراطور (تيبريوس) فيصالح كسرى عَلى مال وجزية.

وفي عام (٥٧٩م) يموت كسرى أنوشروان فيخلفه ابنه (هرمز)، ويموت كذلك (تيبريوس) فيخلفه الإمبراطور (موريس) وتتألب قبائل الترك في الشمال الشرقي لفارس بعد موت كسرى، فيرسل هرمز لحربهم جيشا بقيادة قائد يدعى (بهرام) فيهزمهم ويغنم أموالهم، ويغريه النّصر فينقلب عَلى مليكه هرمز ويخلعه ويسمله، ويستولي عَلى الملك.

ويحاول **كسرى الثّاني (أبرويز)** ابن هرمز أن يسترد عرش أبيه فلم يفلح، فيلجأ إلى إمبراطور الرُّوم (موريس) يستنصره عَلى (بهرام)، فيكرمه الإمبراطور ويستجيب لنصرته ويزوجه ابنته ويمده بجيش عظيم يتغلب به عَلى (بهرام) ويسترد عرش أبيه ويخلفه في الملك.

وفي عام (٦٠٢ م) يغتال القائد البيزنطي (فوكاس) الإمبراطور (موريس)، ويستولي عَلى الحكم وينصب نفسه إمبراطورا ويقتل أبناء موريس إلا واحدا منهم استطاع النجاة والهرب، فلجأ إلى كسرى

أبرويز يستنصره عَلى (فوكاس) كما نصره أبوه عَلى (بهرام) من قبل، فيطلب كسرى من الرُّوم تنصيبه ملكا خلفا لأبيه ويهددهم بحرب إذا لم يفعلوا فيرفضون،

ويشن كسرى إبرويز حربا ضروسا عَلى الرُّوم ويستولي فيها عَلى بلاد الشّام ومصر والنوبة، ويحمل خشبة الصليب (المزعوم) من بيت المَقْدِس إلى المدائن عاصمة الفرس، ثمّ يوجه جيشا كثيفا إلى القُسطَنْطينيَّة فيحاصرها ويستعين عَلى حصارها بقبائل (الآفار) و(السلاف)، أعداء البيزنطيين، فيحاصرونها من جهة أوروبّا، ويتمكن (هرقل) قائد الجيش البيزنطي من فك الحصار عن القُسطَنْطينيَّة، حيث استطاع بمحالفة الترك، أعداء الفرس، طرد جيش كسرى من بلاد الرُّوم.

وفي عام (٦١٠ م) وهو عام البعثة النّبويّة، يخلع (هرقل) الإمبراطور (فوكاس)، لما شاع من فساد حكمه، ويدفعه إلى الشعب فيقتله وينصب الجيش هرقل لتغلبه عن الفرس وخلعه ملكا ضالا، ويشن هرقل حربا عَلى الفرس يسترد بها ما كانوا قد استولوا عليه من بلاد الرُّوم، ثمّ يهاجمهم في بلادهم ويكسر جُيُوشهم في وقعة (نينوى) عام (٦٢٧ م) ويحمل كثيرا من أموالهم ويفرض عليهم جزية سنوية.

وقد كانت هذه الوقعة آخر الحُرُوب بين الفرس والرُّوم، وهي الّتي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم] وبعد هذه الوقعة جاء دور المُسلِمين فاكتسحوا الدّولتين في آن واحد بقوة الواحد الأحد.

****

خُلاصة تاريخ الدّول والممالك في التّاريخ العربيّ والإسْلاميّ

منذ قيام الدّولة النّبويّة وإلى أيّامنا هذه

(١هـ-٦٢٢م /١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤م). (١)

(١) [المؤلف] اعتمدت في كتابة هٰذا الفَصل (الفَصل الثّالث) الّذي يحوي الملخص التاريخي، علىٰ عدد من الأقراص الإلكترونية الّتي تحوي بَرَامج في التاريخ الإِسْلَاميّ، بالإضافة لعدد من المراجع التارِيخِيَّة. وقد قمت بإعادة صياغة ما نقلته عن تلك البَرَامج والمراجع بتصرف كبير جدا، لأن غالبها كتب بأيد غير إسلامية، أو ربما معادية للإسلام حاقدة علىٰ تاريخ المُسلِمِين أو بعض صناعه. وقد افتقرت للأمانة أحيانا، وقد تخلل مادتها شيء من التزوير أحيانا، ولم تحترم قداسة بعض الشخصيات ذات المكانة الدّينيّة (كالصحابة) رضوان الله عليهم. ولا مكانة بعض الخُلَفَاء والملوك والصّالحين المشهود لهم بحسن السيرة والمكانة. وأكثرها كتب بنفس قومي علماني، وليس إسلامي ولا محايد.

وقد استفدت من تلك المراجع في المعلومات العامّة والتواريخ، ونقل بعض النّصوص الّتي لم يتخللها ما يشين في التاريخ الإِسْلَاميّ. وقمت بتعديل كلّ ما استوقفني من تشويه أو صيغة غير مناسبة. بما يشبه عمليَّات التجميل الجراحية الدقيقة. وقد ساعدني علىٰ ذلك ما قد يسر الله لي من دراسة التاريخ دراسة أكاديمية، ثمّ تعمقي فيه بجهود دراسية ذاتية وخاصة في التاريخ الإِسْلَاميّ، وكتب التاريخ السّياسيّ المعاصر.. وعملي في مجال الصحافة والإعلام.

وعموما وللأمانة العلمية، فإني أذكر هنا أهمّ مراجع هٰذا الفَصل هيَ:

١- برنامج تاريخ الإِسْلَام -إنتاج مؤسسة حرف- بتصريح من الأزهر (الّذي كانَ شريفا). - كما وصفه الشَّيْخ ابراهيم عزت ﷺ - وهو مصدر أساس النّص، وعليه تمت التعديلات والتصحيح بتصرف واسع جدا.

٢- برنامج التاريخ الإِسْلَاميّ - إنتاج مؤسسة صخر.

٣- كتاب تاريخ الدّولة العُثْمَانِيّة - لفريد بك المحامي. وهو فيما يبدو مصري من أصل تركي كتب كتابه سنة ١٩٠٩. ويتضح فيه نفسه الماسوني، وحقده علىٰ السُّلطَان عبد الحميد ﷺ، ونفسه الشّعوبي التركي، وتأييده لجَمعيَّة الإتحاد والترقي اليَهُوْدية الماسونية. وكتابه منشور في برنامج الألفية المعروف.=

٤- كتاب البداية والنهاية لابن كثير ﷺ وهو المرجع الّذي اعتمدته في تصحيح كثير مما مر من أخطاء في ما سبق من مراجع.

الدّولة النّبويّة (١-١١هـ)

في اليَوْم الثّاني عشر من ربيع الأوّل (٢٤ أيلول- سِبتَمبر ٦٢٢ م) من السنة الثّالثة عشرة للبعثة، وصل رسول الله ﷺ إلى يثرب لتكون أول عاصمة لدولة الإِسْلَام وتسمى المدينة المنورة، وتصبح منطلقا لجُيُوش المُسلِمِين الفاتحة، حيث اعتبرت سنة الهِجرَة في عهد عمر رضي الله عنه بداية لتاريخ الإِسْلَام.

أهمّ أحداث العصر النبوي من هِجرَة الرَّسُول ﷺ إلى وفاته:

و يمكن تلخيص أهمّ المحطات في تلك الفترة بالنقاط التّالية:

وقعة بدر(٢ هـ):

في رمضان من السنة الثّانية للهِجرَة، علم النبيّ ﷺ أن قافلة كبيرة قادمة من الشّام عليها أبو سفيان ابن حرب، وأنها ستمر ببدر تستقي من مائها وتريح فيها.

فجهز النبيّ ﷺ حملة من ثلاثمائة رجل ونيف، واتجه بها إلى بدر ليفجأ القافلة، وراع قريشا ما سمعوا وتنادوا إلى حرب المُسلِمِين، ومع أن أبا سفيان أرسل بعد ذلك يخبرهم أنه تحول إلى الساحل ونجا من المُسلِمِين ودعاهم إلى الرجوع إلى مكّة إلا أن كبراء قريش عزموا عَلى قتال المُسلِمِين.

وفي ١٧ رمضان من تلك السنة التقى الجمعان في أول معركة تفجرت فيها طاقة الإيمان وانتصر فيها المُسلِمُون عَلى قلة عددهم وقتلوا نحو سبعين من أبطال قريش ورءوسهم، وأسروا مثل ذلك.

لقد كانت وقعة بدر فاتحة التّاريخ الإِسْلَاميّ، فلم تكن حربا بين متكافئين في العدد والعدة، وإنما كانت حربا بين حب العَقِيْدَة الّتي تطلب من أجلها الشَّهَادة، وبين حب المال الّذي تطلب من أجله الحياة، **ولا يمكن لطالب الحياة أن يقهر طالب الشَّهَادة.**

٥- مؤلفات شهيد الإِسْلَام الشَّيْخ عبدالله عزام، ولاسيما كتبه (خط التّحول التاريخي، أضواء علىٰ القوميّة العربيَّة، السرطان الأحمر.)

٦- مراجع أُخرىٰ، ومعلومات خاصّة جمعتها من وسائل الإعلام ومن مصادر معلوماتية أُخرىٰ....(المُؤلّف).

وهذا هو العامل الأساسي الّذي جعل العَرَب بعد إسلامهم يغلبون بأعداد قليلة جُيُوش الدّول العظمى من حولهم - بفضل الله - في حُرُوب الفتوح.

نقض اليَهُوْد عهد النبيّ:

عاد النبيّ ﷺ إلى المدينة فوجد اليَهُوْد قد تغيرت قلوبهم، فقد آلمهم نصر المُسلِمِين ببدر، ولم يحتسبوه ولم يصبروا عَلى كتمان ما في نفوسهم.

وكان بنو قينقاع أكثر اليَهُوْد سخطا لهذا النّصر وتهوينا من شأنه، فأخذوا ينفسون عَلى المُسلِمِين ما نالوا من فوز ويتحدونهم ويتحرشون بهم، فحاصرهم رسول الله ﷺ في حصونهم، فاستسلموا له واكتفى النبيّ ﷺ بإجلائهم عن المدينة وإبعادهم إلى بلاد الشّام.

وقعة أحد (٣ هـ):

ثارت ثائرة اليَهُوْد لما حلّ ببني قينقاع، فأخذوا يغرون الأعراب بالإغارة عَلى المدينة والاعتداء عَلى المُسلِمِين، كذلك أخذوا يحرضون قريشا عَلى حرب المُسلِمِين ليثأروا لقتلاهم في وقعة بدر ووعدوهم بمظاهرتهم في الحَرب، وكان أشد المحرضين اثنان من رؤساء يهود بني النضير وهما: **كعب الأشرف**، **وسلام ابن أبي الحقيق** .

فتطوع فريق من الأنصار لاغتيالهما بأمر رسول الله ﷺ فقتلوهما.

تأثرت قريش بتحريض اليَهُوْد، فجهزت جموعها لحرب المُسلِمِين، وتوجهت قريش بمن حشدت نحو المدينة يقود حشدها أبو سفيان ابن حرب.

ولما علم النبيّ ﷺ بذلك جهز جيشا وخرج بهم إلى جبل أحد القريب من المدينة ووضع خيرة الرماة في أعلى الجبل لحماية ظهور المُسلِمِين.

وظهرت طلائع النّصر وتراجعت قريش يتبعهم المُسلِمُون ويجمعون ما غنموه منهم، وظن رماة المُسلِمِين أن المَعْرَكة قد انتهت فأخلوا أماكنهم وسارعوا لينالوا نصيبهم من الغنائم، واهتبل **خالد بن الوليد** الفرصة، وكان يقود رماة المشركين، فصعد الجبل من الخلف وأخذ يمطر المُسلِمِين بوابل من

السهام، وارتدت جموع قريش عليهم، فأصبحوا بين نارين واضطربت صفوفهم وعم الذعر فيهم حتَّى قتل بعضهم بعضا وانهزم من نجا من القتل.

وقد قتل في هذه الوقعة أكثر من سبعين رجلا من الْمُسلِمِين بينهم بطل الإِسْلَام **حمزة بن عبد المطلب** عم النبيّ، قتله (وحشي) أحد رماة الأحباش، وأصيب النبيّ ﷺ بجرح في وجنته وشج رأسه الشريف، وصاح صائح قريش أن محمّدا قد قتل، وصدق المشركون وكفوا عن القِتَال وانسحبوا، فقد نالوا – بظنهم– ما كانوا يبتغون.

الْيَهُوْد يحاولون اغتيال النبيّ ﷺ:

لم يهنأ يهود بني النضير بنجاة النبيّ ﷺ ، فعقدوا العزم عَلى اغتياله أخذا بثأر ابن الأشرف وابن أبي الحقيق، ففشلوا وانكشف أمرهم وعلموا أن النبيّ ﷺ سيعاقبهم فآووا إلى حصونهم.

فحمل عليهم النبيّ ﷺ وحاصرهم، ولما استيأسوا طلبوا أن يأذن لهم بالخروج من المدينة كما خرج بنو قينقاع، فاستجاب لهم وخرجوا بأموالهم، ونزل فريق منهم في خيبر وانضموا إلى يهودها، وتابع الآخرون مسيرتهم إلى بلاد الشّام.

وقعة الخندق (٥هـ):

لم يبق من يهود المدينة سوى بني قريظة، وقد آلمهم ما حلّ بإخوانهم بني قينقاع وبني النضير، ورأوا أن يؤلبوا قريشا وأحلافهم من قبائل العَرَب عَلى حرب الْمُسلِمِين والقضاء عَلى دولتهم، وتعهدوا بمظاهرتهم في هذه الحَرب.

وحشدت قريش ونادت أحلافها وأحزابها فجاءوها برجالهم يلبون نداءها، وبلغ الحشد عشرة آلاف مقاتل.

وعلم النبيّ ﷺ بخبر هذه الحملة العظيمة فاستشار أصحابه فأشاروا عليه أن يقف الْمُسلِمُون موقف المدافع عن مدينتهم، وأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق حول المدينة يقف الرماة دونه، يمنعون من يحاول اجتيازه من المشركين.

وجاء من يخبر النبيّ ﷺ بما فعل بنو قريظة فأرسل إليهم سيدين من سادة الأنصار هما سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج لتذكيرهم بعهد النبيّ ﷺ ونهيهم عن الغدر بالمُسلِمين وتحذيرهم عاقبته، فسخروا منهما وأظهروا عزمهم عَلى مظاهرة قريش.

ولما وصل جيش المشركين وقف دون الخندق ولم يستطع الدخول إلى المدينة وأخذ رماة المُسلِمين يصرعون من يحاول اجتياز الخندق، ودام الحصار شهرا حتَّى برم حلفاء قريش (الأحزاب) بطول الانتظار وفوت ما كانوا يأملون من الغنائم، ووقع الخلف والشقاق بينهم وبين قريش.

وهنا يسر الله إسلام زعيم من زعماء العَرَب هو نعيم بن مسعود الأشجعي، وكان قد قدم مع قومه بني الأشجع لقتال المُسلِمين مع من قدم من أحلاف قريش، فأعلن إسلامه وطلب من النبيّ ﷺ أن يشترك مع المُسلِمين في الدّفاع عن المدينة فطلب منه الرَّسُول أن يخفي إسلامه وأن يخذل قريشا وبني قريظة ويوقع بينهما الشقاق، ففعل ونجحت الخطة.

ثمّ أرسل الله ريحا عاتية عَلى جيش قريش والأحلاف فانتزعت الخيام وكفأت القدور وملأت الأفواه والعيون بالرماد، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العون الإلهي بقوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩﴾ [الأحزاب] وكان الأحزاب قد سئموا الانتظار وطول الحصار، فأخذوا يتراجعون، وارتدت قريش وهي تتجرع غيظها، وفي ذلك يقول الله تَعَالَى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]

تحكيم سعد بن معاذ بما فعل يهود بني قريظة: فور انتهاء غزوة الخندق جهز النبيّ ﷺ سرية وتوجه إلى بني قريظة ليعاقبهم عَلى نقضهم العهد، فتحصنوا في حصونهم، ولما اشتد عليهم الحصار طلبوا تحكيم **سعد بن معاذ** وكانوا حلفاءه، واستجاب النبيّ ﷺ لطلبهم، فحكم سعد بقتل رجالهم وسبي نسائهم وأطفالهم، ونفذ النبيّ ﷺ حكم سعد فيهم.

تحول المُسلِمين من حالة الدّفاع إلى حالة الهجوم:

بعد أن خلت المدينة من اليَهُوْد، وسلم الإِسْلَام من منافسة اليَهُوْدية، وسلم المُسلِمُون من مكر اليَهُوْد وخداعهم، تحول المُسلِمُون من حالة الدّفاع إلى حالة الهجوم.

وبدأ النبيّ بغزو القبائل المشركة الموالية لقريش ليثبت أن بالمُسلِمين قوة وأنه لم يصبهم وهن بعد وقعة أحد ووقعة الخندق، فانتصر وعاد بمغانم كبيرة، وعلمت القبائل أن لا طاقة لها بقتال المُسلِمين.

صلح الحديبية (٦هـ):

في أواخر شهر شوال من السنة السَّادسة للهِجرَة، أعلن النبيّ ﷺ أنه يريد المسير إلى مكّة لأداء العمرة، وأذن في أصحابه بالرحيل إليها لأدائها معه، ففرحوا وطابت نفوسهم بزيارة الكعبة وقد حرموا منها، وكان المُهَاجِرون قد اشتد شوقهم إلى ديارهم ومن خلفوا فيها من أهلهم.

وسار النبيّ ﷺ بألف وخمسمائة من المُهَاجِرين والأنصار، لا يحملون من آلات الحَرب إلا السيوف في القرب، ولبسوا لباس الإحرام ليؤكدوا لقريش أنهم يريدون العمرة ولا يقصدون الحَرب، وما حملوا من سيوف إنما كانَ للحماية مما قد يعترضهم في الطّريق.

ووصلت قافلة المُسلِمين إلى الحديبية القريبة من مكّة، ولما علمت قريش بقدوم نبينا محمّد ﷺ وصحبه رفضت السماح لهم بدخول مكّة وكان شهر ذي القعدة قد حل، وهو من الأشهر الحرم الّتي يمتنع فيها القِتَال.

وأرسل النبيّ ﷺ عثمان بن عفان ليفاوض قريشا، وتأخرت عودته وأشيع أنه قتل، وهنا عزم النبيّ ﷺ عَلى دخول مكّة.

واستجاب المُسلِمُون لما عزم عليه النبيّ ﷺ وبايعوه عَلى الموت وهو جالس في ظل شجرة، وقد أثنى الله عَلى المبايعين ورضي عنهم في آية نزلت بهذه المناسبة:

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح] ومن ثمّ دعيت هذه المبايعة ببيعة الرضوان.

لم يقتل عثمان رضي الله عنه، كما كانَ أشيع وعاد إلى الحديبية، وكان قد تأخر في مفاوضة قريش وفي إزالة مخاوفها، وكان المطلب الأساسي لقريش أن يعود المُسلِمُون ذلك العام عَلى أن يدخلوا مكّة معتمرين في العام المقبل، لكي لا يقول العَرَب أن قريشا استذلت للمسلمين فيصيبها من ذلك معرة.

ووافق النبيّ ﷺ عَلى مطلب قريش، وعلى أساسه عقد اتفاقا بينه وبين قريش عرف بصلح الحديبية وبمقتضاه عقدت هدنة بين الطّرفين مدتها عشر سَنَوات.

وقد تضمن عقد الصُّلح شروطا منها أن يرد المُسلِمُون من يأتيهم من قريش مسلما بدون إذن وليه، وألا ترد قريش من يعود إليها من المُسلِمِين، وأن من أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد محمّد من غير قريش دخل فيه، والدخول في العهد محالفة توجب مناصرة الحليف إذا ما استنصره واستنجد به، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

غزو المدن اليَهُوْدية:

أتاحت الهدنة بين النبيّ ﷺ ، وبين قريش، أن يفرغ النبيّ لحرب من تبقى من اليَهُوْد في جَزِيرَة العَرَب، فقد كانَ إلى جانب يهود المدينة جاليات يهودية تقطن في خيبر ووادي القرى وفي فدك وتيماء، وهي مدن تقع عَلى الحدود الفاصلة بين شمال بلاد العَرَب وبلاد الرُّوم.

وقد كانَ يهود تلك المدن يثيرون الأعراب عَلى المُسلِمِين، فجهز النبيّ ﷺ حملة عَلى أولئك الأعراب فأخضعهم، وتوجه بعد ذلك إلى خيبر فافتتحها واستسلم يهود المدن الأخرى دون حرب.

وكان النبيّ ﷺ متسامحا مع اليَهُوْد، فأبقاهم في أراضيهم واستعملهم في الزراعة عَلى أن يجليهم متى شاء.

عمرة القضاء (٧ هـ):

ومضت السنة الأولى من الهدنة، فتوجه النبيّ ﷺ مع جميع المُسلِمِين إلى مكّة لقضاء العمرة، وأمضوا فيها ثلاثة أيّام، ثمّ خرجوا منها كما قضى بذلك صلح الحديبية.

وقد عاين رجال قريش سلوك المُسلِمِين عن كثب، فوجدوا فيهم قوما آخرين، صاغهم الإِسْلَام صوغا جديدا، وأخذ كثير منهم يفكرون ويتدبرون مبادئ الإِسْلَام، وسرعان ما أقبل جماعات منهم إلى المدينة مُسلِمِين، ومن هَؤُلَاءِ **خالد بن الوليد** وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة ﷺ، وهم من سادة قريش وأبطالها، ممن شاركوا في قتال المُسلِمِين من قبل.

الرَّسُول ﷺ يوجه رسائل إلى ملوك وأمراء الدّول المجاورة:

أخذ الإِسْلَام ينتشر في جَزِيرَة العَرَب بعد الانتصارات الّتي حققها النبيّ ﷺ في أعقاب صلح الحديبية ورأى النبيّ ﷺ أن تبلغ دعوته مسامع ملوك وأمراء الدّول المجاورة، فأرسل إليهم كتبا مع سفراء يدعوهم إلى الإِسْلَام، فاستجاب البعض لدعوته كالمنذر بن ساوى أمير البحرين ورد الآخرون السفراء.

فمنهم من كانَ رده جميلا كملك الرُّوم والمقوقس صاحب مصر، ومنهم من كانَ رده قبيحا ككسرى أبرويز ملك فارس فقد مزق كتاب النبيّ ﷺ، وكذلك شرحبيل أمير غسان الّذي سخر من الدّعوة للإسلام، وقتل سفير رسول الله ﷺ (الحارث بن عمير الأردي رضي الله عنه).

الرَّسُول ﷺ يجهز حملة انتقام لقتل سفيره الحارث بن عمرو: وقعة مؤتة:

كانَ قتل هذا السفير شديد الوقع عَلى رسول الله ﷺ، فجهز حملة عدتها ثلاثة آلاف رجل لحرب الغساسنة، وجعل قيادتها لزيد بن حارثة، ولما علم الغساسنة بأمرها استنجدوا بحلفائهم الرُّوم فانجدوهم بجيش عظيم، وكان اللقاء في (مؤتة).

وفي تلك المَعْرَكة قتل زيد بن حارثة قائد الجيش، وقتل من بعده عبدالله بن رواحة ثمّ جعفر ابن أبي طالب ﷺ، ثمّ انتدب النّاس خالد بن الوليد لتولي قيادته، وأدرك أن في استمرار المَعْرَكة فناء جيش المُسلِمِين، فانسحب بخطة عسكريّة باهرة، إذ أثار الغبار خلف جيشه المنسحب، فأوهم الرُّوم أن مددا ضخما جاء من المدينة وأرهبتهم حيلة خالد فتوقفوا عن تتبع الجيش المنسحب.

وبهذا الانسحاب ظهرت مهارة خالد الحَربية وارتقى إلى صف القادة الّذين رفعوا راية الإِسْلَام، وكانت وقعة مؤتة فاتحة النضال للفتوحات الإِسْلَاميّة خارج الجَزِيرَة، **وبداية الصِّرَاع بين المُسلِمِين والرُّوم.**

القوى العالمية التي أنفذ إليها الرسول ﷺ كتبه ورسائله
٨ هـ - ٦٢٩ م



فتح مكّة (٨ هـ):

وجاءت السنة الثَّامنة للهِجرَة وقد كثر عدد المُسلِمِين بدخول كثير من القبائل في الإِسْلَام، ويشاء الله أن تنقض قريش عهدها مع المُسلِمِين، فقد عدت قبيلة بني بكر عَلى قبيلة خزاعة، وكان بنو بكر قد دخلوا في عهد قريش ودخل بنو خزاعة في عهد النبيّ ﷺ، فانتصرت قريش لحلفائها واستنجدت خزاعة بالنبيّ ﷺ، وحانت بذلك فرصة لفتح مكّة.

فقد أصبحت قريش في عزلة بعد أن أسلمت أكثر القبائل العربيَّة وفقدت قريش في حُرُوبها مع المُسلِمِين كثيرا من رجالها، ولحق بالمُسلِمين جمع من أبطالها المغاوير.

أعد النبيّ ﷺ جيشا عظيما من المُهَاجِرين والأنصار وانضمت إليه القبائل الّتي أسلمت، وأعلن النبيّ ﷺ أنه يريد مكّة لحرب قريش الّتي نقضت عهدها.

وسار الجيش يتبع قائده العظيم عليه الصّلاة والسّلام، وعسكر خارج مكّة ورأت قريش أن النبيّ ﷺ جاء ومعه جمع كبير من العَرَب وأنه لا طاقة لها بحربهم، فاستسلمت، وجاء العبّاس، عم النبيّ ومعه أبو سفيان فأسلما وفتحا له أبواب البلد الحرام، وقبل أن يدخلها استعرض الجيش بحضورهما، فمرت سَرايَاه أمامهما وهي تهتف: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء]

ودخل النبيّ ﷺ مع الجيش إلى مكّة وتوجه إلى الكعبة راكبا ناقته بتواضع جم، فأخذ بتحطيم الأصنام ومحو الصُّور من جدران الكعبة، ثمّ أمر بلالا الحبشي أن يصعد إلى سطح الكعبة فأذن بالنّاس معلنا هزيمة الشرك.

غزو ثقيف وهوازن (٨ هـ):

انضمت قريش إلى صفوف المُسلِمِين وانتظمت معهم في جيشه لحرب قبيلتي هوازن وثقيف، وقد رفضوا الدخول في الإِسْلَام، والتقى المُسلِمُون مع هوازن في (وادي حنين) وانتصروا عليهم بعد حرب ضروس، كاد أن يغلب فيها المُسلِمُون لولا ثبات النبيّ ﷺ، ثمّ حاصر المُسلِمُون ثقيفا في مدينتهم (الطائف) فاضطروا للاستسلام، ودخلت هوازن وثقيف في الإِسْلَام.

المسيرة النّبويّة لقتال الرُّوم: غزو تبوك ودومة الجندل (٩ هـ):

عاد النبيّ إلى المدينة بعد فتح مكّة وكانت السنة التاسعة للهِجرَة قد حلت، فجهز جيشا كبيرا عدته أربعون ألف رجل، وسار به نحو (مؤتة) يريد أن يثأر لما حلّ بجيش المُسلِمِين فيها، ولما وصل إلى مدينة تبوك عسكر فيها، وعلم الرُّوم بقدومه فلم يتقدموا لحربه، فقد راعهم لقاء هذا الجيش الكبير، يقوده رجال لا يعرفون الهزيمة، واتخذ جيش الرُّوم مكانه داخل بلاده مدافعا بعد أن كانَ يريد الهجوم.

واكتفى النبيّ ﷺ بما أحدثه من رهبة في قلوب الرُّوم، وعقد بعض المعاهدات مع مدن الحدود وكانوا عَلى النّصرانية مقابل تعهدهم بدفع الجزية، واستعصت (دومة الجندل)، فأرسل النبيّ ﷺ خالد بن الوليد على رأس سرية فأخضعها وأسر صاحبها أكيدر بن عبد الملك فقدم به المدينة فأسلم وعقد معه النبيّ ﷺ معاهدة ورده إلى قومه، وكانت غزوة تبوك آخر غزوات النبيّ ﷺ.

إقبال وفود القبائل العربيَّة إلى المدينة وإعلان إسلامها:

وبلغت مسامع العَرَب انتصارات النبيّ ﷺ بفتح مكّة وإسلام قريش وإسلام ثقيف وهوازن، وإخضاع صاحب دومة الجندل ودخول مدن الحدود الشمالية في عهد النبيّ وتعهدها بدفع الجزية إليه، فأقبلت وفود القبائل العربيَّة من كلّ فج تعلن إسلامها، فكان النبيّ يعرفها بعَقِيْدَة الإِسْلَام ومبادئه ويرسل معها من يختاره لها من صحابته ليعلمها شعائر الدّين ويبين لها أحكامه.

إنذار من بقي عَلى الشرك من العَرَب (٩ هـ):

أما من بقي عَلى الشرك من العَرَب فقد أمهلوا أربعة أشهر، فإذا انقضت ولم يسلموا فقد أمر النبيّ بقتالهم حتَّى ينتزع الشرك من جَزِيرَة العَرَب.

وقد نزل بهذا الإنذار نص قرآني في مطلع سورة التوبة المعروفة بسورة (براءة) وهو: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ① فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ②﴾ [التوبة]، ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقد تلا هذا الإنذار علي ابن أبي طالب عَلى مسامع المُسلِمِين في موسم الحجّ من السنة التاسعة.

ولم تمض تلك السنة حتَّى دانت جَزِيرَة العَرَب بدين الإِسْلَام وتوحدت في دولة واحدة وفرضت الزّكاة عَلى المُسلِمِين، وعين النبيّ ﷺ مطارحها ومقاديرها وأرسل عمالا لجبايتها.

حجة الوداع (١٠ هـ):

وهلت السنة العاشرة للهِجرَة وقد دخل العَرَب في الدّين الجَدِيد وانتظموا تحت راية الإِسْلَام، وأقبل موسم الحجّ فخرج النبيّ ﷺ في أكثر من مئة ألف مسلم حاجا، وخطب في عرفات في هذه الجموع مودعا، وفيها بين أركان الإِسْلَام وأعلن المساواة بين المُسلِمِين وجعل تقوى الله معيار التفاضل بينهم، وتلا آخر آية من آيات التنزيل الحكيم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وبهذه الخطبة اختتم النبيّ العظيم ﷺ مهمته في أداء رسالته وفي تجهيز العَرَب بالطاقة الإيمانية ليكونوا رسلها إلى العالم.

ظهور حركة الرِّدَّة:

لم يكد النبيّ ﷺ يفرغ من حجة الوداع حتَّى ظهرت في اليمن حركة الارتداد عن الإِسْلَام وقد تزعمها مشعوذ يدعى (عيهلة بن كعب العنسي) ويعرف بالأسود العنسي، وقد استهوى قومه بما أراهم من ضلالات سحره فاتبعوه.

وسرت حركة الرِّدَّة إلى اليمامة وظهر فيها رجل من بني حنيفة يدعى مسيلمة بن ثمامة، وأرسل إلى النبيّ ﷺ يطلب منه أن يشركه في أمره، ودعاه النبيّ ﷺ، **مسيلمة الكذاب**.

واتسع خطر **الأسود العنسي** في السنة الحادية عشرة للهِجرَة، فأرسل النبيّ ﷺ إلى من بقي في اليمن من المُسلِمِين يحضهم عَلى قتله فاغتالوه، وقضي عَلى حركة الرِّدَّة في اليمن بعد مقتله، ولكنها ظلت قائمة في اليمامة حتَّى خلافة أبي بكر رضي الله عنه فقضى عليها في عهده.

مرض الرَّسُول ﷺ ووفاته (١١ هـ):

وفي مطلع ربيع الأوّل من السنة الحادية عشرة للهِجرَة، مرض رسول الله ﷺ وقبضه الله إلى جواره في يوم الاثنين الثّاني عشر من ذلك الشهر، وبانتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ختمت حياة خاتم الأنبياء وأعظم العظماء في تاريخ الإنسانيّة.

****

الدّولة الإِسْلَاميّة في عهد الخُلَفَاء الرّاشدين(١١-٤١ هـ)

مدّة خلافة الخُلَفَاء الرّاشدين وأعمارهم:

- **أبو بكر الصّديق**رضي الله عنه: سنتان وثلاثة أشهـر توفّي في جمادى الآخرة سنة ١٣هـ عن ٦٣عامًا.
- **عمر بن الخطّاب**رضي الله عنه: ١٠سَنَوات وستة أشهـر توفّي في ذي الحجة سنة ٢٣هـ عن ٦٣عامًا.
- **عثمان بن عفّان** رضي الله عنه: اثنتا عشر سنة توفّي في ذي الحجّة سنة ٣٦هـ عن ٨٢ عامًا.
- **علي بن أبي طالب**رضي الله عنه: ٤ سَنَوات وتسعة أشهـر توفّي في رمضان سنة ٤٠هـ عن ٦٠عامًا.

خلافة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه (١١- ١٣ هـ):

بعد وفاة الرَّسُول صلى الله عليه وسلم، أسفرت الشُّورى بين المُسلِمِين عن بيعة أبي بكر الصّديق رضي الله عنه.

وكان من أهمّ إنجازات أبي بكر رضي الله عنه خلال مدّته القصيرة، قمع المرتدّين، وإنفاذ جيش أُسَامَة الّذي جهَّزه رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزو الرُّوم في الشّام، وكذلك إطلاقه رضي الله عنه حركة الفتح الإِسْلَاميّ نحو العراق.





خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣ هـ):

عهد سيدنا أبو بكر أثناء مرضه بالخِلافَة إلى سيدنا **عمر بن الخطّاب** رضي الله عنهما، وكان قد استشار فيه **عبد الرَّحمٰن بن عوف** وعثمان بن عفّان، فذكرا فضله وحمدا رأي أبي بكر، ثمّ ظهر أبو بكر للنَّاس في المَسجِد وقال لهم: هل ترضون بمن أستخلف عليكم، فما ألوت من جهد الرَّأي، ولا وليت ذا قرابة.

ويروي الإِمَام السيوطي عن ابن عساكر(١) أن علياً ابن أبي طالب قام فقال: **لَا نرضى إِلَّا أَن يكون عمر**، فقال أبو بكر: هو عمر فاسمعوا له وأطيعوا، ثمّ أحضر أبو بكر عمر وقال له: أَنّي قد استخلفتك عَلى أصحاب رسول الله ﷺ وأوصاه بتقوى الله، ولما توفي أبو بكر بايع النّاس عمر بمن فيهم علي ابن

(١) تاريخ الخلفاء: ص٦٧.

أبي طالب، ومعه بنو هاشم ﷺ أجمعين، وتولى عليّ القضاء لعمر مدّة خلافته، وزوجه ابنته أم كلثوم، وهي بنت فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وولدت له ابنه زيدا وابنته رقية، وقد رتب الفقهاء عَلى الطَّريقة الّتي جرى فيها استخلاف عمر قاعدة في أصول الحكم، وهي جواز انعقاد الخِلافَة بعهد من قبل الخَليفَة السابق.

امتدت ولاية عمر عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة، وانتهت حياته بيد أبي لؤلؤة المجوسي الّذي اغتاله في فجر يوم الأربعاء لثلاث ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ للهِجرَة، وقد تولى اغتيال عمر بمؤامرة دبرها **الهرمزان** القائد الفارسي، الّذي أسره المُسلِمُون سنة ١٧ هـ في وقعة (تستر) وأرسل إلى **عمر بن الخطاب** بطلب منه، فأراد عمر قتله ولكنه نجا من القتل بإعلان إسلامه، ولما قتل عمر أقدم ابنه عبيد الله فقتل **الهرمزان** .

كانَ عدل عمر ﷺ أشهر من أن يشار إليه، وكان من أهمّ الإنجازات في عهده، **فتح الشّام والعراق ومصر، وأكثر بلاد فارس** حيث وصلت جُيُوش المُسلِمِين إلى أذربيجان.

خلافة عثمان بن عفان ﷺ (٢٣- ٣٦ هـ):

لما اغتيل عمر ﷺ، طُلب إليه أن يولي ابنه عبدالله بن عمر فأجاب: "مَا حَمِدْتُهَا فَأَرْغَبُ فِيهَا لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي بِحَسْبِ آلِ عُمَرَ أَنْ يُحَاسَبَ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ"(١).

وقد رأى أن يختار ستة من أجل صحابة رسول الله ﷺ، ممن بشرهم بالجنة ليتشاوروا فيما بينهم ويختاروا للخلافة واحدا منهم، وهم:

عثمان ابن عفان وعلي ابن أبي طالب وعبد الرَّحمٰن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد ابن أبي وقاص ﷺ، وأوصى أن يحضر معهم ابنه **عبدالله بن عمر** على أن لا يكون له من الأمر شيء، بل ليحكم بينهم إذا اختلفوا.

---

(١) أورده الطبري في الأمم والملوك : (٤/ ٢٢٨) وابن الأثير في الكامل (٢/ ٤٤٠).

دعا عمر أصحاب الشورى وأمرهم أن يجتمعوا بعد وفاته، وحدد لهم مهلة ثلاثة أيّام تلي وفاته ليختاروا في خلالها خليفة منهم، وعين **المقداد بن الأسود** حاجبا لهم، وقال له: إن أجمع خمسة عَلى رجل منهم وأبى الآخر فاضرب عنقه، وإن أجمع ثلاثة عَلى واحد، وثلاثة عَلى واحد، فليحكموا **عبدالله بن عمر** فأي الفريقين حكم له فليختاروا خليفة منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبدالله فليكونوا مع الّذين فيهم **عبد الرَّحْمٰن بن عوف** ثمّ بين عمر فضل كلّ واحد منهم وامتدح مزاياه، وقال: ما أظن أن يلي الخِلافَة إلا أحد رجلين: علي أو عثمان.

وفعلا أسفرت الشورى عن اختيار عثمان ﷺ وبايعه الصّحابة، **وتميزت فترة عثمان** ﷺ **باتساع الفتوحات، حيث سقط آخر الأكاسرة وقتل، ودخلت بلاد فارس في الإِسْلَام، كما توغل جيش الصّحابة الفاتحين في شمال إفريقيا، وعبر إلى الأندلس، ولكنه لم يمكث فيها، وفتحت منطقة بلاد الري وأعالي الجَزِيرَة حول بحر قزوين إلى تخوم الأناضول،** وهكذا أقبلت الدُّنيَا عَلى المُسلِمِين تماما كما بشرهم بها رسول الله ﷺ.

ثمّ نزغ الشّيطان وتسلل الخلاف، واستغل رؤوس الفتنة بعض الملاحظات الّتي أثيرت حول سياسات ذي النورين عثمان ﷺ وحصلت الفتنة المشهورة، الّتي تولى كبرها أوباش من النّاس، والَّتي أسفرت عن حصاره وقتله في بيته ﷺ وأرضاه، لتفتح عَلى الأُمّة فتنة لم ترتق بعد آثاها إلى يومنا هٰذا.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

خلافة علي بن أبي طالب ﷺ (٣٦- ٤٠ هـ):

بعد مقتل عثمان بايع أهل المدينة عليا ابن أبي طالب رضي الله عنهما وقام بنو أمية يطالبون بدم عثمان المظلوم، متهمين عليا بحماية قاتليه، وانضمت إليهم السيدة **عائشة بنت أبي بكر** الصّديق وزوج النبيّ ﷺ، ووقعت الفتن المشهورة الّتي كانَ فيها موقعة الجمل، ثمّ انحاز معاوية بن أبي سفيان بأهل الشّام، حيث تمركز علي ﷺ في العراق، ووقعت الفتنة الكبرى، ثمّ حصلت واقعة التحكيم المشهورة بين علي ومعاوية، وفشلت وأسفرت عن ميلاد فرقة الخوارج.

و صمم الخوارج عَلَى قتل علي ابن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان وعمرو ابن العاص، وتطوع ثلاثة لهذه المهمة، وهم: عبد الرَّحمٰن بن ملجم وقد ضمن قتل علي، والحجاج بن عبدالله البرك التميمي وقد ضمن قتل معاوية، وعمرو بن بكر التميمي وقد ضمن قتل **عمرو بن العاص** ، وقد نفذ الملعون **ابن ملجم** ما ضمنه فقتل عليا رضي الله عنه، وأخفق الآخران، فنجا معاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين.

خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما (٤٠-٤١ هـ):

بويع الحسن بالخِلافَة بعد اغتيال أبيه، وبلغه أن معاوية ابن أبي سفيان قد سار إلى حربه وإسقاط الخِلافَة عنه وأنه نزل (مسكن)، فجهز الحسن جيشا من أهل الكوفة وتوجه به إلى لقاء معاوية، ولكنهم انخذلوا عنه كما تفرقوا عن أخيه وأبيه من قبل - وما يزال هذا دأب الشّيعة إلى يومنا هذا - وكرهوا القِتَال وتفرقوا عن الحسن ونهبوه، وقيل إنه أصابته منهم طعنة حربة، فلم يجد الحسن جدوى في متابعة الحَرب بمثل أولئك، وأرسل إلى معاوية كتابا يعلن فيه رغبته في مصالحته والتنازل له عن الخِلافَة لقاء شروط، فأرسل معاوية إليه صحيفة بيضاء مختومة بخاتمه ليملي فيها ما يشاء من شروط، فأملى فيها الحسن رضي الله عنه شروطه، وقدمها إلى معاوية فتقبلها وعاد مع الحسن إلى الكوفة، وفي مسجدها أعلن الحسن تنازله لمعاوية وبايعه النّاس، وسمي ذلك العام عام الجماعة لاجتماع المُسلِمين عَلى خليفة واحد، وعاد الحسن بعد ذلك إلى المدينة، ثمّ توفي رضي الله عنه في المدينة سنة ٥٠هـ، بعد أن تحققت فيه نبوءة جده صلى الله عليه وسلم عندما قَالَ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَّ أَنَّ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ»(١).

الفتوحات الإِسْلَاميّة في عهد الخُلَفَاء الرّاشدين:

بعد أن أخمد أبو بكر عصيان المرتدّين وعم الإِسْلَام الجَزِيرَة العربيَّة، قام بتنفيذ السّياسة الّتي قررها الرَّسُول صلى الله عليه وسلم في نشر الإِسْلَام خارج الجَزِيرَة، فوجه القوى الإِسْلَاميّة إلى الجِهَاد في جبهتين: جبهة العراق بقيادة **خالد بن الوليد** وجبهة الشّام بقيادة أبي عبيدة ابن الجراح ومعه يزيد ابن أبي سفيان وأخوه معاوية وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص، وفي العراق تمَّ فتح القسم الجنوبي منه، ثمّ أمر

(١) رواه البخاري (٣٦٢٩، ٣٧٤٦، ٧١٠٩).

أبو بكر **خالد بن الوليد** أن يتوجه إلى الشّام مع قسم من جيش العراق مددا لأبي عبيدة ابن الجراح وتم فتح الشّام بعد وقعة اليرموك سنة ١٣هـ وقبيل وفاة أبي بكر رضي الله عنه أجمعين.

وفي عهد **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، (١٣ - ٢٣هـ) غزا معاويةُ الرُّومَ حتَّى بلغ (عمورية) وسط (تركيا الحالية) وفتحت الجَزِيرَة وأرمينية وأذربيجان، وطرق المُسلِمُون باب الأبواب عَلى بحر الخزر (قزوين) عَلى يد **عياض بن غنم**، وفتحت مصر عَلى يد **عمرو بن العاص**، وامتد الفتح الإِسْلَاميّ عَلى الأقاليم الساحلية الليبية (طرابلس وبرقة).

وفي العراق تولى قيادة الجيش الإِسْلَاميّ **سعد بن أبي وقاص**، وتم عَلى يده فتح ما تبقى من العراق بعد وقعة القادسية (سنة ١٤هـ) وفيها هزم جيش الفرس وقتل قادته، واجتاز المُسلِمُون حدود بلاد إيران ففتحوا خراسان والأهواز وإقليم فارس وامتد الفتح جنوبا حتَّى مكران (بلوشستان)إلى حدود السند وشرقا إلى سجستان (أفغانستان).

وفي خلافة عثمان (٢٣ - ٣٥هـ) أعيد فتح خراسان وأرمينية وأذربيجان بعد انتقاضها، وفتحت الري وهمذان وطبرستان وجرجان واكتمل فتح إيران، وفي بلاد الشّام لم يبق بعد وقعة اليرموك إلا حاميات بيزنطية في بعض مدن فِلَسطِين والساحل، فأتم فتحها معاوية ابن أبي سفيان، وكان **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، ولاه عَلى الشّام بعد وفاة أخيه زيد بطاعون عمواس سنة ١٨هـ.

وعلى جبهة الرُّوم أنشأ معاوية نظام الصوائف والشواتي لمتابعة غزو الرُّوم، وفي سنة ٢٧هـ بلغ القُسطَنْطينيَّة وحاصرها، وأنشأ في عكا دارا لصناعة السفن، وفيها تمَّ أول أسطول إسلامي وكان باكورة عمله الاستيلاء عَلى جزيرتي قبرص وأرواد، وبه أبيد الأسطول البيزنطي في وقعة (ذات السواري) سنة ٣٤هـ، وأصبح شرق البحر المتوسط بعدها بحرا إسلاميا، وفي مصر امتد الفتح الإِسْلَاميّ نحو إفريقية بقيادة عبدالله بن سعد بن أبي سرح الّذي ولاه عثمان بعد عزله **عمرو بن العاص** وانتصر المُسلِمُون عَلى جيش الرُّوم، وكان بقيادة (جرجيرgregarious) وتم الاستيلاء عَلى (سبيطلة) الّتي اتخذها عاصمة له، وفتحت بعد هذه المَعْرَكة أبواب المغرب.

وفي عهد علي ابن أبي طالب توقفت الفتوحات، ما خلا توغل جرى في جبهة السند، وذلك بسبب الفتن الّتي ثارت في عهده وانتهت بقتله رضي الله عنه.

****

الدّولة الإِسْلاميّة في عهد الخِلافَة الأموية (٤١-١٣٢هـ)

بتنازل الحسن بن علي رضي الله عنه عن الخِلافَة إلى معاوية ابن أبي سفيان، انتقلت الخِلافَة إلى بني أمية. وانتهت بذلك الخِلافَة الرّاشدة، وابتدأ عصر الملك العضوض في تاريخ الإِسْلَام والمُسلِمين.

وقد انطوى العهد الأموي عَلى فترتين:

أ- **الفترة السفيانية**: وهي الفترة الّتي تولى الخِلافَة فيها معاوية ابن أبي سفيان وابنه يزيد بن معاوية وحفيده معاوية بن يزيد وقد امتدت ٢٣ سنة (٤١ -٦٤هـ).

ب- **الفترة المروانية**: وهي الفترة الّتي انتقلت فيها الخِلافَة إلى الفرع المرواني من بني أمية بتولي، مروان بن الحكم حتَّى عهد حفيده مروان بن محمّد بن الحكم، آخر خُلَفَاء بني أمية، ومدتها ٦٨ سنة (٦٤ - ١٣٢هـ).

وفي خلال الفترتين ومدتها ٩١ سنة وتسعة أشهر توالى أربعة عشر خليفة كانَ أعظمهم شأنا معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه، وعمر بن عبد العزيز رحمه الله، واتسعت الدّولة وتوطدت أركانها في عهد وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وأخوه هشام بن عبد الملك ، وكانت مدّة خلافتهم (٧١ سنة من أصل (٩١ سنة) فالدّولة الأموية كانت دولتهم، وفي عهدهم امتدت رقعتها من المحيط الأطلسي إلى حدود الصين، ثمّ أخذت شمس الخِلافَة الأموية بالغروب، بما شب فيها من ثورات أضرمها الصِّرَاع عَلى الخِلافَة والانقضاض عَلى الحكم، وثورات الخوارج، وحُرُوب أهلية أثارتها العصبية القبلية بين المضرية واليمنية.

وقد ترتب عَلى انتقال الخِلافَة إلى بني أمية النتائج التّالية:

- **في المجال السّياسيّ**:

أ- **تحول الخِلافَة إلى ملك موروث**، ينتقل بعهد من الخَليفَة السابق إلى ابنه أو إلى اثنين أو أكثر من أولاده بالترتيب، كما فعل عبد الملك بن مروان حين عهد بالخِلافَة إلى ولديه الوليد وسليمان، إذ تبدلت صيغة البيعة، فبعد أن كانت بيعة الخَليفَة في عهد الخُلَفَاء الرّاشدين تقوم عَلى مبايعته عَلى الشورى، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله، وتؤخذ ممن حضر المبايعة من أهل الحلّ والعقد من كبار

الصّحابة وأولى الأحلام والنهى في المدينة، أصبحت تؤخذ من الرعية بحضور الخَليفَة في عاصمة الدّولة (دمشق) وبحضور كبار عماله في الولايات، وكان الخَليفَة يأخذ البيعة لمن يعهد بالخِلافَة من أولاده من بعده، وإذا ما رفض أحد البيعة، فكانت تؤخذ بالقهر والغلبة.

ب – **إنتقال عاصمة الدّولة الإِسْلَاميّة إلى دمشق** بعد أن كانت في العراق – الكوفة – زمن علي رضي الله عنه، وفي المدينة المنورة قبل ذلك.

ج- **انتقال سلطة الحكم إلى بني أمية**، وقد تجمعت عصبيتهم في الشّام منذُ الفتح الإِسْلَاميّ والتقت مع قبيلة كلب اليمانية المتوطنة هناك قبل الإِسْلَام، وبذلك ارتبطت القبائل الكلبية مع بني أمية برابطة المصاهرة وشكلت الثقل السّياسيّ الّذي دعم الدّولة الأموية حتَّى أواخر عهدها.

د- **نشوء عهد من الاستقرار السّياسيّ في الدّولة الإِسْلَاميّة** أتاح لها هضم الفتوحات الّتي تمت في عهد الخُلَفَاء الرّاشدين، والإضافة عليها، واتساع الدّولة الإِسْلَاميّة إلى أوج مساحتها الّتي امتدت من حدود الصين شرقا إلى الأندلس ومراكش غربا، ومن بلاد القفقاس شمالا إلى بحر العَرَب وبلاد النوبة جنوبا، وانتظام كلّ هذه الرقعة في إطار الحكم الإِسْلَاميّ.

هـ – **أصبح نظام الخِلافَة أشبه شيء بالنّظام الملكي أو القيصري**، ومن ثمّ زادت الصفة الزَّمنية في الخِلافَة عَلى الصفة الدّينيّة وابتدأ ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن السُّلطَان والقرآن سيفترقان، كما أخذت الدّولة بالنّظام الإداري والمالي الّذي كانَ متبعا في الدّولتين الفارسية والبيزنطية.

– في المجال الاقتصاديّ:

تحولت طرق التجارة إلى موانى الشّام ومصر، وخاصة بعد معركة (ذات الصواري) سنة ٣٤هـ وتدمير الأسطول البيزنطي.

وأصبحت عواصم بلاد الإِسْلَام الكبرى وفي طليعتها مدن الشّام ومصر والعراق وخراسان وشمال إفريقيا، والأندلس، عواصم الدُّنيَا وزهرتها، وفي طليعتها عاصمة الخِلافَة الأموية دمشق، حيث ازدهرت التجارة، وسارت الركبان آمنة تربط شرق العالم القديم بغربه من تخوم الصين وبلاد الهند والسند، إلى بلاد الرُّوم وممالكهم عَلى الشاطئ الآخر للبحر الأبيض المتوسط.

- في المجال العلمي:

ازدهرت الحضارة والعلوم في عهد الدّولة الأموية وبلغت مستوى رفيعا، فقد انتشر صحابة رسول الله ﷺ في مختلف البلاد المفتوحة واستوطنوها ولاسيما بلاد الشّام والعراق ومصر، وقد حمل التّابعون علوم الصّحابة وفقهم وسمتهم، بعد ذلك إلى فارس وخراسان وإفريقيا الشمالية.

ودون الحديث الشريف في زمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ونبغ في طبقة التّابعين وتابعي التّابعين خلال تلك الفترة علماء أفذاذ حفظوا علوم الشّريعة ووضعوا الأساس العلمي الّذي شمخت عليه مناراتها فيما بعد.

ولكن وإلى جانب ذلك شهد تحول نظام الحكم إلى الشّكل الملكي الكسروي القيصري، أن تظهر ظاهرة علماء السّلاطين، وفقهاء القصور، حتّى وجدنا في وثائق تاريخ تلك المَرحَلَة بعض الأئمة الأعلام كأبي حازم والحسن البصري والأوزاعي، يزرون بتلك الظَّاهِرة وأربابها، وفي مجالات الحضارة الأخرى من العمران والعلوم والفنون، أدى دخول العَرَب بلاد الحضارات القديمة، كبلاد فارس، والرُّوم، والسند والهند، وبلاد الترك إلى جوار الصين، إلى هضمهم لخلاصة تلك الحضارات ومزجها، وإنتاج نموذج فريد للحضارة، بقيت إشعاعاته منارة للإنسانية إلى قرون طويلة بعد ذلك.

مدّة خلافة الخُلَفَاء الأمويون وأعمارهم ٦٦١ -٧٥٠ م:

١. **معاوية بن أبي سفيان** رضي الله عنه : ٦٦١ - ٦٨٠ م، تسعة عشرة سنة وثمانية أشهـر توفي في رجب سنة ٦٠هـ عن ٧٨عاما.

٢. **يزيد بن معاوية:** ٦٨٠ - ٦٨٣ م، ثلاثة سنين وثمانية أشهـر توفي في ربيع الأوّل سنة ٦٤هـ عن٣٨عاما.

٣. **معاوية بن يزيد :** ٦٨٣- ٦٨٣ م أربعون يوما توفي في سنة٦٤هـ عن٢٣عاما.

٤. **مروان بن الحكم :** ٦٨٣- ٦٨٥ م سنة وعشرة أشهر وتوفي في رمضان سنة ٦٥هـ عن ٧١عاما.

٥. **عبد الملك بن مروان:** ٦٨٥ -٧٠٥ م إحدى وعشرون سنة توفي سنة ٨٦ هـ عن ٦٠عاما.

٦. **الوليد بن عبد الملك:** ٧٠٥- ٧١٥ م تسع سنين وثمانية أشهر توفي في جمادى الآخرة سنة ٩٦ هـ عن ٤٨ عاماً.

٧. **سليمان بن عبد الملك** : ٧١٥- ٧١٨ م سنتان وثمانية أشهر توفي في سنة ٩٩هـ عن ٤٥ عاماً.

٨. **عمرو بن عبد العزيز** رضي الله عنه: سنتان وخمسة أشهر توفي في رجب سنة٧١٨ ٧٢٠ م ١٠١ هـ عن ٤٠عاما.

٩. **يزيد بن عبد الملك بن مروان:** ٧٢٠ -٧٢٤ م : أربع سنين وشهر توفي في شعبان سنة ١٠٥هـ عن ٣٨ عاماً.

١٠. **هشام بن عبد الملك بن مروان** ٧٢٤- ٧٤٣ م : تسعة عشرة سنة وسبعة أشهر توفي في ربيع الآخر سنة ١٢٥هـ عن ٥٤ عاماً.

١١. **الوليد بن يزيد بن عبد الملك** ٧٤٣ - ٧٤٤ م: سنة وشهران توفي في جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ عن ٣٨عاما.

١٢. **يزيد بن الوليد بن عبد الملك** ٧٤٤- ٧٤٤ م: خمسة أشهر توفي في ذي الحجة سنة ١٢٦هـ عن ٤٠ عاماً .

١٣. **إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك:** ٧٤٤- ٧٤٤ م: سبعون يوما خلع سنة ١٢٧هـ وتوفي في ربيع الآخر سنة ١٣٢هـ عن ٦٠عاما.

١٤. **مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم** ٧٤٤ - ٧٥٠ م: خمس سنين توفي في ذي الحجة سنة ١٣٢هـ عن٦٠عاما.

الفتوحات في عهد بني أمية:

في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (٤١ - ٦٠هـ) استمرت الفتوحات في صعود، فقد امتدت شرقا إلى ما وراء النهر وفتحت بخارى وبلاد الصغد، وتوغل المُسلِمُون في إفريقية واستولوا عَلى (قابس) و(بنزرت) و(سوسة) عَلى يد معاوية ابن حديج، أمير إفريقية، ثمّ فتحت (قفصة)

و(قسنطينة) عَلى يد عقبة بن نافع، وفي المشرق تمَّ فتح خراسان وسجستان بعد انتقاضهما واستمرت غارات الصوائف في جبهة الرُّوم، وتوالت الغارات البحرية عَلى جزيرتي (صقلية) و(رودوس) تلك الغارات الّتي مهدت للاستيلاء عليهما.

وفي عام ٤٨هـ أرسل معاوية حملة استطلاعية إلى ضواحي القُسطَنْطينيَّة ليختبر خط الدّفاع البيزنطي عن العاصمة (القُسطَنْطينيَّة)، وفي عام ٥٣هـ وجه معاوية حملة لغزو هذه المدينة بقيادة ابنه يزيد ومعه قائد البحر سفيان بن عوف الأزدي، وضم إليه الصحابي الجليل أبا أيوب الأنصاري، وعادت الحملة بعد حصار دام سبع سَنَوات، وفيها توفي أبو أيوب ودفن قرب أسوار القُسطَنْطينيَّة.

وفي عهد يزيد بن معاوية (٦٠ – ٦٤هـ) اقتصرت الفتوحات عَلى توغل عقبة بن نافع في إفريقية وبلوغه ساحل البحر الأطلسي، وغزا المُسلِمُون خوارزم من بلاد ما وراء النهر، وقد مضى أكثر أيّام خلافته في صِرَاع مع الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما والّذي انتهى بقتل الحسين، وفي صِرَاع مع عبدالله بن الزبير وقد طلب الخِلافَة بعد استشهاد الحسين.

وفي عهد عبد الملك بن مروان (٦٤ – ٨٦هـ) توقفت الفتوحات عند حدودها السَّابقة، ما عدا بعض التوسع في بلاد ما وراء النهر، وكان سبب ذلك اشتغال عبد الملك في صراعه مع ابن الزبير واشتغاله بقمع الثورات والفتن الّتي أثارها الشّيعة والخوارج، وقد أرهقت عبد الملك واضطرته إلى مصالحة الرُّوم عَلى مال لوقف هجومهم عَلى الثُّغُور الإِسْلَاميّة.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦هـ) أخذت مسيرة الفتوح في صعود، فقد توغل أخوه مسلمة بن عبد الملك في أذربيجان وفتح عددا من القلاع والحصون، واتسع الفتح فيما وراء النهر عَلى يد قتيبة بن مسلم ففتحت (بخارى) و(سمرقند) و(بلاد الشاش) و(فرغانة) و(كاشان) وامتدت فتوحات قتيبة إلى دلتا نهر جيحون.

وفي إفريقية أكمل موسى بن نصير أمير إفريقية، فتح المغرب وفي سنة ٨٦هـ وجه حملة بحرية بقيادة عياش بن آشيل فغزا صقلية وعاد منها بغنائم، وجهز موسى جيشا بقيادة مولاه طارق بن زياد فاجتاز البحر إلى الأندلس سنة ٩٣هـ وانتصر عَلى ملك القوط (رودريق) في معركة جرت في

(شذونة)، ثمّ لحق به موسى بن نصير واشترك معه في فتح بعض الأقاليم الأسبانية، وفي الهند توغل محمّد بن القاسم الثقفي فيها وفتح كثيرا من قلاعها ومدنها.

وفي عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ – ٩٩هـ) اجتاز قتيبة بن مسلم حدود الصين وفتح مدينة (كاشغر)، وفي الأندلس توغل عبد العزيز بن موسى، -وكان قد خلف أباه في إمارة الأندلس- في أسبانيا، وفتح عددا من أقاليمها، وفتح يزيد بن المهلب أمير خراسان جرجان وقهستان وطبرستان، وجهز سليمان حملة بحرية بقيادة عمر بن هبيرة، وأخرى برية بقيادة أخيه مسلمة، فحاصرت القُسطَنْطينيَّة من البر والبحر، وعادت بأمر من عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخِلافَة.

وفي عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، (٩٩ – ١٠١هـ) اجتاز المُسلِمُون جبال (البرتات – البيرينيه) إلى بلاد الغال (فرنسا) بقيادة السمح بن مالك، أمير الأندلس، واستولوا عَلى (أربونة – ناربون) و(طولوشة – تولوز)، ولم تتسع الفتوحات في عهد عمر إلى أبعد من ذلك لقصر مدّة خلافته.

وفي عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥هـ) توغل المُسلِمُون في بلاد الغال (فرنسا) بقيادة عنبسة بن سحيم أمير الأندلس، حتَّى بلغ أعلى نهر الرون وقام الأسطول الإِسْلَاميّ في المغرب بغارات عَلى جَزِيرَة صقلية وجَزِيرَة سردينية.

وفي خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥هـ) صعدت مسيرة الفتوحات الإِسْلَاميّة إلى أبعد غاياتها وبلغت الأوج، فقد غزا أسد بن عبدالله القسري، أمير خراسان ما وراء النهر بلاد الصغد والترك، وغزا الحجاج بن عبد الملك بن مروان بلاد الخزر وأرمينية وبلاد اللان وفرض عليها الجزية، وتابع الجراح الحكمي أمير أرمينية غزو بلاد الخزر، ولما استشهد سنة ١١٢هـ خلفه في الإمارة مروان بن محمّد فغزا أقاليم بحر الخزر (قزوين) ووطد الحكم الإِسْلَاميّ فيها.

وفي بلاد السند توغل الجنيد بن عبد الرَّحمٰن المري فيها وفتح عددا من بلدانها، ثمّ توقف الفتح حتَّى أيّام الغزنويين في أواخر القرن الرَّابع والقرن الخامس الهجريّ، وفي بلاد الغال غزا عبد الرَّحمٰن الغافقي، أمير الأندلس، جنوبها الغربيّ واستولى عَلى مدينة (بوردو) ثمّ صعد شمالا والتقى مع (شار مارتل) بين مدينتي (تور) و(بواتيه) في معركة ضارية جرت سنة (١١٤هـ – ٧٣٢م) استشهد فيها

عبد الرَّحْمٰن وهزم جيشه، بسبب انشغال الجند بحماية الغنائم الّتي كانوا غنموها، واستشهد معه في تلك المَعْرَكة كثير من المُسلِمِين، حتَّى أطلق عَلى تلك المَعْرَكة (بلاط الشّهداء).

وخلف عبد الرَّحْمٰن في إمارة الأندلس عبد الملك بن قطن ، فغزا بلاد (البشكنس - الباسك)، وفي إفريقية وجه عبيد الله بن الحبحاب أمير إفريقية، جيشا بقيادة حبيب بن أبي عبيدة الفهري ففتح بلاد السوس وغزا أرض السُّودَان (السنيغال)، وفي البحر المتوسط غزا الأسطول الإِسْلَاميّ، بقيادة حسان بن محمّد بن أبي بكر جزيرتي (ساردينية) و(كورسيكا)، وتوجه أسطول آخر بقيادة حبيب بن أبي عبيدة الفهري ومعه ابنه عبد الرَّحْمٰن، فغزا جَزِيرَة (صقلية) سنة ١٢٢هـ والتحم مع الأسطول البيزنطي في معركة هزم فيها هذا الأسطول، وكان في نية حبيب أن يمضي في الفتح حتَّى يستولي عَلى الجَزِيرَة كلها، غير أن ثورة البربر بزعامة ميسرة المدغري اضطرته إلى العودة، وفي جبهة الرُّوم استمرت غزوات الصوائف والشواتي، كشأنها في عهد الخُلَفَاء السابقين.

وبوفاة هشام بن عبد الملك تنتهي المَرحَلَة المروانية الأولى، وفيها امتدت رقعة الدّولة الإِسْلَاميّة من أسبانيا والبحر الأطلسي والمغرب الأقصى إلى حدود بلاد الهند والصين، ومن بحر الخزر وأرمينية إلى المحيط الهندي، وقد اعتبر الخُلَفَاء الأمويون حدود البلاد المفتوحة بدايات لفتوحات مستمرة لا تنتهي عند حدود، ما دام الجِهَاد مفروضا عَلى المُسلِمِين لنشر رسالة الإِسْلَام، وما دامت الغنائم تدفع المُجَاهدين لمتابعة الجِهَاد.

وبعد هشام بن عبد الملك تبدأ المَرحَلَة الثّانية والأخيرة من الفترة المروانيّة، وفيها توقّفت الفتوحات، وقد تولّى الحكم أربعة خُلَفَاء، كانت مدّة خلافتهم ستّ سَنَوات وهم: الوليد بن يزيد بن عبد الملك ويزيد بن الوليد بن عبد الملك، وأخوه إبراهيم، ومروان بن محمّد بن مروان بن الحكم، ولم تتجاوز مدّة خلافة الثّلاثة الأوّل بضعة أشهر، وشغلت خلافة الأخير المدّة الباقية (١٢٧ - ١٣٢هـ)، وقد أمضاها في قمع الفتن والثّورات الداخليَّة الّتي أحاطت به من كلّ جانب، ولم يتمكّن، عَلى ما أوتي من صبرٍ وشجاعةٍ وإقدامٍ من كبحِها، وانتهى مصيره بقتله بيد العبّاسيين، وبه ختمت حياة الدّولة الأمويّة، وانطوت رايتها الّتي انتشرت في ظلها راية الإِسْلَامِ، في تلك الرُّقعة الواسعة من الأرض.

الفتوح العربية الإسلامية

١١ - ١٣٣ هـ . ٦٢٢ - ٧٥٠ م



عند وفاة النبي ﷺ ٦٣٢م — الإمبراطورية البيزنطية في ٦٣٠م

بعد وفاته باثني عشر عاما ٦٤٤ م — الإمبراطورية الساسانية في ٦٣٠م

وفي ٧٥٠م بعد حوالي قرن. — اتجاه حركة الفتوح

الدولة العربية الإسلامية في أقصى اتساع لها زمن الأمويين

١٣٢هـ - ٧٥٠ م



أسباب سقوط الدّولة الأموية:

أولاً: صراعات القصور عَلى السّلطة وجعل ولاية العهد لأكثر من واحد وما ولد هذا الأمر من صِرَاع عَلى الملك، أضعف الحكومة المركزية، وأطمع فيها الثائرين عليها.

ثانيا: أثر العصبية القبلية في الصِّرَاع عَلى الملك.

ظهر أثر هذه العصبية بعد وفاة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وتخلي ابنه معاوية (الثّاني) عن الخِلافَة، فقد نصرت قبيلة كلب اليمانية **مروان بن الحكم** حين رشح نفسه للخلافة، وقاتلت معه الضحاك بن قيس الفهري، زعيم القيسية في الشّام، وكان يدعو لعبدالله بن الزبير، وانتصر مروان في وقعة (مرج راهط) سنة ٦٤هـ بسواعد الكلبيين، وقتل الضحاك بن قيس في الموقعة وهزم القيسية، ومن بعدها تأصلت العداوة بين اليمانية والقيسية (المضرية)، وظل اليمانية حلفاء بني أمية حتَّى خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك حين ثار عليه يزيد بن المهلب بن أبي صفرة زعيم اليمانية.

وقد سرت العصبية القبلية بين اليمانية والقيسية إلى الأندلس وخراسان، وقد انضم اليمانية إلى المعارضة في النهاية، ومالوا مع أبي مسلم الخراساني ضدّ **نصر بن سيار** ، وقد أفاد أبو مسلم، القائم بالدّعوة العبّاسيّة، من هذا الصِّرَاع القبلي، الّذي أضعف الحكم الأموي في مقاومة الدّعوة العبّاسيّة وكان من أسباب انتصارها.

ثالثاً: بذخ الخُلَفَاء والأمراء وإسرافهم:

لما آلت الخِلافَة إلى بني أمية وتحولت إلى ملك موروث، برزت مظاهر الملك في البذخ لدعم ملكهم واكتساب الوَلَاء، وقد أفاضوا عطاياهم عَلى الشعراء، لتنطلق لهواتهم بمدحهم ونشر مآثرهم والدّفاع عنهم، والشعراء يومئذ وسيلة الدعاية والإعلام، واتبعوا سياسة البذخ والإنفاق، واتخذوا أبهة الملك في مظهرهم وملبسهم ومجالسهم، وقد مال بعضهم إلى حياة اللهو والمجون، ومنهم من أسرف ورويت عنه حكايات وأخبار تخرج عن نطاق الدّين والأخلاق.

ومن المؤرخين من يطعن في صحة هذه الحكايات، لما في بعضها من الإغراق في المبالغة، ويرى أنها وضعت في العصر العبّاسي الأوّل للتشهير ببني أمية، تتمة لحملة التنكيل بأحيائهم وأمواتهم بعد سقوط دولتهم، ولكن الثَّابِت أن تحول الخِلافَة إلى ملك منذُ ذٰلك العهد، أدخل عَلى نظام الحكم كلّ لوازم فساد الملوك وما تحتويه قصورهم.

رابعاً: جور العمال وظلمهم:

واجه الأمويون ثورات وفتن كثيرة، وقد كلفت الدّولة نفقات باهظة، وقضي فيها آلاف القتلى والشّهداء، وكان موطن هذه الفتن والثورات العراق والجَزِيرَة وخراسان ثمّ انتقلت إلى أفريقية، وقد اختار خُلَفَاء بني أمية ولاة لهذه الأقاليم من أشد الرّجال قسوة، وكان منهم **زياد بن أبيه** ، **وابنه عبيد الله بن زياد** ، والحجاج ابن يوسف الثقفي، وابن أخيه عمر بن يوسف الثقفي.

وقد منحهم الخُلَفَاء السّلطة المطلقة لقمع هذه الثورات والفتن وفرض الطاعة بالقوة، فكانوا هم ومن كانوا يولونه من الأعمال في ولاياتهم ينكلون بمن يقع في قبضتهم من الثائرين والعصاة، وكان من وجوه الظُّلم القتل بالشبهة ومصادرة الأموال.

خامساً: الإخلال بمبدأ المساواة بين العَرَب والموالي:

كانَ مبدأ المساواة الّذي أعلنه الإِسْلَام الدافع القوي لإقبال شعوب البلاد المفتوحة عَلى الدخول في الدّين الجَدِيد، وقد قام بينهم وبين المُسلِمِين ولاء متبادل فعرفوا باسم (الموالي)، وقد ضمن لهم مبدأ التساوي مع العَرَب، ما ورد في القرآن الكريم، وما روي من أحاديث الرَّسُول ﷺ، وقد طبق هذا المبدأ في عهد الرَّسُول ﷺ وعهد الخُلَفَاء الرّاشدين، فلم يكن هناك تميز بين **صهيب الرُّومي** وسلمان الفارسي وبلال الحبشي، وبين أي مسلم عربي، مهما علا نسبه.

ولما تولى الخِلافَة بنو أمية، نقضوا هذا المبدأ وتعصبوا للعرب ووضعوا الموالي في درجة أدنى في الحقوق والواجبات وكان يعهد إليهم بالأعمال الدُّنيَا، أما العليا فللعرب.

ولما كثرت نفقات الدّولة بسبب الحُرُوب وقمع الثورات والفتن، فرض عمال الأقاليم الجزية عَلى من أسلم من الموالي، كما فرضوا الخراج عَلى أراضيهم، خلافا لأحكام الإِسْلَام، الّتي قضت بإعفاء من أسلم من الموالي من الجزية، وألزمته بدفع العشر بدلا من الخراج.

وقد أدى التمييز بين العَرَب والموالي إلى التحاق الموالي بأحزاب المعارضة من علوية وخوارج، ودعم ثوراتهم عَلى الحكم الأموي، كما أدى إلى ظهور فكرة الشّعوبية، وهي إحياء الموالي، وخاصة الفرس، لقوميتهم وتقاليدهم والتفاخر بها والحط من شأن العَرَب.

تلك هيَ الأسباب الّتي أدت إلى سقوط دولة بني أمية، يضاف إليها الدّعوة السرية الّتي اختطها بنو العبّاس ووجهوا دعاتهم لنشرها في العراق وخراسان، وانضم إليهم العلويون وشيعتهم ومعهم الموالي وتوحدت صفوفهم في مقاومة الحكم الأموي.

وقد أورد المسعودي ما قاله شيخ من شيوخ بني أمية في أسباب سقوط دولتهم:

(لقد شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كانَ تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا، وتحومل عَلى أهل خراجنا فتخلوا عنا وخربت ضياعنا، فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم عَلى مرافقنا، وأمضوا أمورا دوننا، وأخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا، فزالت طاعتهم لنا واستدعاهم أعادينا فتضافروا معهم عَلى حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا).

ويضيف المسعودي عَلى هذه الأسباب إثارة روح العصبية القبلية بين اليمنية والقيسية (عرب الشمال والجنوب)، وافتخار كلّ منهما عَلى الأخرى وادعاؤها بما لها من المناقب، فنتج عن ذٰلك تعصب القيسية لمروان بن محمّد وانحراف اليمنية عنه إلى الدّعوة العبّاسيّة، وانتهى الأمر إلى انتقال الدّولة عن بني أمية إلى بني هاشم.

وقد تخلل دولة بني أمية محاولة للإصلاح قام بها أمير المُؤمِنِين الرّاشد عمر بن عبد العزيز؛ فقد أراد **عمر بن عبد العزيز** أن يقوّم في خلافته ما اختل من سياسة أسلافه، وما ساء من سلوكهم، وأن يتأسى بسياسة جده **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، فألزم رجال الدّولة بالتقشف واستبدل بعمال الولايات

عمالا اختارهم من أهل التقوى والأمانة والعلم والشَّرع، ورد جميع ما اغتصبه الولاة وأصحاب النفوذ من أموال إلى بيت المال إن كانت من أموال الدّولة، وإلى أصحابها إن كانت من أموال الأفراد.

وتألف قلوب العلويين ومنع سب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخذ الخوارج بالمناظرة وحجهم فيها، وأصلح السّياسة الضرائبية فمنع أخذ الجزية الّتي كانَ يأخذها عمال الولايات من أهلها بعد إسلامهم، ومنع فرض الخراج عَلى أراضي من أسلم منهم.

ولما قيل لعمر إن هذا الإصلاح يضر بموارد الدّولة، أجاب: (إن الله أرسل محمّدا ﷺ هاديا ولم يرسله جابيا)، وقد أجرى إصلاحات إدارية ومالية أُخرى لم يكتمل تنفيذها لقصر مدّة خلافته وهي سنتان ونيف، وقد رفعته تقواه وورعه إلى مرتبة سامية، وعده كثير من السَّلَف، خامس الخُلَفَاء الرّاشدين وقيل إن بني أمية دسوا له السم لانتزاعه منهم كثيرا مما اغتصبوه، وأنه هم أن يعيد الأمر شورى بين المُسلِمِين.

تقييم عهد بني أمية:

مهما قيل في الأسباب الّتي أدت إلى سقوط الدّولة الأموية، فلا ينكر أنها كانت أول دولة عالميّة للإسلام، وأنها هيَ الّتي نشرته في الرقعة الواسعة من العالم الّتي تمتد من ساحل البحر الأطلسي إلى حدود الهند والصين، ومن البحر الأسود وبحر الخزر (قزوين) إلى المحيط الهندي، وأنها كانت أقوى، دول الإِسْلَام، وكان عصرها بفضل العَرَب والمُسلِمين، أكثر العصور الإِسْلَاميّة قدرة عَلى الجِهَاد، وقوة في الكفاح، وأشدها نشاطا وحيوية.

وفي عهدها تلاقى العَرَب، في البلاد المفتوحة، مع شعوب أُخرى كانت تتقدمهم في الحضارة وتفوقهم في المعرفة، فتأثروا بثقافاتهم وتقاليدهم ونظمهم، واستطاعوا أن يتمثلوها وأن يضفوا عليها روحا إسلاميّة.

واتسمت الحياة العلمية بتدوين الحديث والتفسير والمغازي والأخبار، كما اتسمت بنمو الفقه واستيعاب تطبيقاته لحاجات الحياة المتطورة، واتسمت الحياة الثَّقافيَّة بدراسة المذاهب الفلسفية واللاهوتية ومناظرة أصحابها.

كذلك اتسمت الحياة الثَّقافيَّة بالأخذ بعلوم اليونان في الطب والكيمياء، وكان **خالد بن يزيد** بن معاوية بن أبي سفيان أول من اهتم بنقل تلك العلوم إلى اللغة العربيَّة، واتسمت الحياة الاقتصاديَّة بنشاط التجارة واتساعها، وخاصة بعد أن سيطر الأسطول الحَربي عَلى شرقي البحر المتوسط، في أعقاب المَعْرَكة الحَربية المعروفة بذات السواري سنة ٣٤هـ وبسط سيادة الدّولة الإِسْلَاميّة عليها، واتسع نشاط التجارة بعد فتح إفريقية والأندلس، فكانت السفن التجاريَّة تمخر في البحر وتسعى بين مواني بيزنطة وإيطاليا وصقلية وكريت ورودوس وقبرص، تتجر معها، عَلى الرغم من استمرار الغزوات البحرية الّتي كانت تشنها عَلى تلك البلاد.

كذلك نشطت التجارة البرية، فكانت القوافل تعبر الطرق البرية إلى الهند والصين، وتسلك بلاد إيران وما وراء النهر إلى سمرقند بخارى وبلاد الخزر وتحمل تجارتها من تلك البلاد وإليها، واتسمت الحياة الزراعية بتوفير الأيدي العاملة المجلوبة من إفريقية لاستصلاح أراضي السواد جنوبي العراق.

واتسمت الحياة العمرانية ببناء المساجد الفخمة والقصور الشاهقة والمستشفيات (البيمارستانات) وببناء المدن ودور الصناعة المعدة لبناء السفن التجاريَّة والحَربية، ففي عهد **معاوية بن أبي سفيان** بنيت مدينة القيروان بناها عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ وفي عهده بنيت دار الصناعة في عكا.

وفي عهد **عبد الملك بن مروان** بنيت قبة الصخرة في القُدس وبدئ ببناء المَسجِد الأقصى، وأعيد بناء الكعبة والحرم المكي سنة ٧٤هـ، وبنيت مدينة (القيروان) - تونس - وأقيمت فيها دار لصناعة السفن، تولى بناءها **حسان بن النعمان** أمير إفريقية سنة ٨٢هـ وبنيت مدينة واسط بناها الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق، سنة ٨٢ - ٨٣هـ لتكون وسطا بين الكوفة والبصرة، وفي عهد **الوليد بن عبد الملك** اكتمل بناء الجامع الأموي بدمشق سنة ٨٧ - ٩٦هـ، وجدد بناء الحرم النبوي مع توسيعه وتزيينه بالفسيفساء، وبنيت القصور الصحراوية.

واهتم الوليد بالمرافق العامّة من إصلاح الطرق وحفر الآبار في طريق الحجّ وإنشاء البيمارستانات للمرضى وبناء دور خصصت للمجذومين وأخرى للعميان والمقعدين، وأجرى الخَليفَة عليها أرزاقا.

وفي عهد **سليمان بن عبد الملك** بني الجامع الأموي في حلب سنة ٩٧هـ، وبنى سليمان وهو ولي للعهد مدينة الرملة بفلسطين، وفيها بنى القصور والجامع، وفي سنة ١٠٩هـ بنى **هشام بن عبد الملك** قصر الرصافة بالقرب من الرقة وبنى **عبيد الله بن الحبحاب** أمير إفريقية، جامع الزَّيتونة، وفي عام ١٢٧هـ بنى **مروان بن محمّد** مدينة حران قرب الموصل لتكون عاصمة مؤقتة له بين الشّام والعراق، لكي يسهل عليه مراقبة ما يجري فيهما.

وإلى جانب النَّشَاط العمراني تمت إصلاحات مالية وإدارية، فقد عرب **عبد الملك بن مروان** القراطيس، وهي ورق البردي، وكان الأقباط في مصر يصنعونه ويتوجونه باسم المسيح، فأمر عبد الملك أن يستبدل اسم المسيح بـ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

كذلك ضرب عبد الملك السكة وضرب الدنانير الذهبية لأول مرّة في الإِسْلَام، وضرب **الحجاج الثقفي** أمير العراق، الدراهم الفضية المنقوشة ووضع لها الوزن، وفي سنة ٨١هـ نقل عبد الملك الديوان من الرُّومية إلى العربيَّة، وكذلك فعل **الحجاج الثقفي** فقد نقل الديوان من الفارسية إلى العربيَّة، ومثله فعل عبدالله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر سنة ٨٦هـ فقد نقل الديوان من القبطية إلى العربيَّة، وتأسى به **حسان بن النعمان** أمير إفريقية، فنقل ديوان إفريقية إلى العربيَّة، ويعتبر ضرب السكة وتعريب الدواوين تأكيدا لكيان الدّولة المالي والاقتصادي.

وإذا كانَ يؤخذ عَلى دولة بني أمية الظُّلم والجور، فلعل ذٰلك ما كانت تقتضيه الظّروف الحرجة، وخاصة أن الخارجين عليها، كانوا من الأشداء في نضالهم، ومن المتعصبين لعقائدهم.

وقد رأينا أن الثورات والفتن قد أحاطت بدولة بني أمية، واندلعت في عدّة جبهات، وخاصة في العراق، ثمّ أضحى مقرا للشيعة، وفيه ظهر الخوارج الثائرون عَلى نظام الحكم.

ظاهرة علماء السُّلطَان في العصر الأموي:

كما ذكرنا سالفا، فقد استتبع تحول نظام الحكم الإِسْلَاميّ من الخِلافَة لإلى الملك عَلى يد بني أمية، أن تظهر توابع النّظام الملكي وأركانه، من مثل ما ألف عبر التّاريخ من فساد القصور، وقيام نظام السّلطة عَلى أسّسها الثّلاثة (الحاكم – الكاهن – الأعوان)، وهكذا ظهرت طائفة علماء السُّلطَان لأول مرّة في تاريخ المُسلِمِين لتزين مجالس الأمراء وأبواب السّلاطين، وتلحق بالملأ.

ولقرب العهد بخير القرون، فقد انبرى من أئمة الهدى من وقف لهذه الفئة بالمرصاد واستعصى عَلى ملوك الجور الّذين تدرجوا في الفساد، وقد حفظ لنا كتب التّاريخ الإِسْلَاميّ منذُ ذٰلك العهد تراثا رائعا من مواقف علماء الحقّ وأئمة الهدى.

ومن ذلك ما قاله الإِمَام الحسن البصري يوبخ أولئك المتزلفين عَلى أبواب الأمراء: [جاء في كتاب سير أعلام النبلاء: روى أبو نعيم في الحلية حدثنا... حَدَّثَنَا فُضَيْلُ بنُ جَعْفَرٍ قَالَ خَرَجَ الحَسَنُ مِنْ عِنْدِ ابْنِ هُبَيْرَةَ، فَإِذَا هُوَ بِالقُرَّاءِ عَلَى البَابِ فقال: مَا يُجْلِسُكُمْ هَا هُنَا؟! تُرِيْدُوْنَ الدُّخُوْلَ عَلَى هَؤُلاَءِ الخُبَثَاءِ، أَمَا وَاللهِ مَا مُجَالَسَتُهُمْ مُجَالَسَةُ الأَبرَارِ، تَفَرَّقُوا، فَرَّقَ اللهُ بَيْنَ أَرْوَاحِكُم وَأَجسَادِكُم، قَدْ فَرْطَحْتُم نِعَالَكُم، وَشَمَّرْتُم ثِيَابَكُم، وَجَزَزْتُم شُعُوْرَكُم، فَضَحْتُمُ القُرَّاءَ، فَضَحَكُمُ اللهُ، وَاللهِ لَوْ زَهِدْتُم فِيْمَا عِنْدَهُم، لَرَغِبُوا فِيْمَا عِنْدَكُم، وَلَكِنَّكُم رَغِبْتُم فِيْمَا عِنْدَهُم، فَزَهِدُوا فِيْكُم، أَبْعَدَ اللهُ مَنْ أَبْعَدَ][1]

كانَ هذا سرد لبعض أخبار بني أمية وعهدهم، وصدق الله العظيم:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٣٤﴾ [البقرة]

****

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٦).

الدّولة الإسْلاميّة أيّام الخِلافَة العبّاسيّة (١٣٢-٦٥٦هـ)

انتقال الخِلافَة إلى بني العبّاس:

انتقلت الخِلافَة إلى بني العبّاس بعد نجاح الدّعوة السرية الّتي أطلقها دعاتهم منذُ بداية السنة المئة للهِجرَة في خراسان حتَّى سنة ١٣٢هـ، وفيها انكشف سر الدّعوة الّتي كانَ ظاهرها الدّعوة لاختيار خليفة من بيت آل النبيّ ﷺ يرضى عنه المُسلِمُون، وكان يطلق عليها (الرضا من آل محمّد)، إمعانا في الكتمان، ثمّ تبين أنها كانت تخفي الدّعوة لبني العبّاس.

وفي يوم الجمعة الثّاني عشر من ربيع الأوّل سنة ١٣٢هـ دخل الكوفة أبو العبّاس عبدالله بن محمّد بن علي بن عبدالله بن عباس وبويع في مسجدها، وألقى في أهل الكوفة خطابا، بين فيه حق بني العبّاس في الخِلافَة ولقب بالسفاح.

ومن ذلك اليَوْم طوي علم بني أمية الأبيض وارتفع علم بني العبّاس الأسود، وأخذ عما السفاح عبدالله وصالح ولدا علي بن عبدالله العبّاسي يطاردون بني أمية بعد هزيمة **مروان بن محمّد** آخر خلفائهم والقبض عليه في (بوصير) بمصر وقتله، فنبشوا قبور بني أمية في دمشق وأحرقوا ما تبقى من رفاتها، وأثخنوا بجمع كبير من بني أمية في فِلَسطِين فقتلوهم عَلى شاطئ نهر (فطرس) وتشتت من نجا منهم في الآفاق، وسبحان الّذي يؤت الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعزون يشاء ويذل من يشاء.

النتائج الّتي ترتبت عَلى انتقال الحكم إلى بني العبّاس:

ترتب عَلى انتقال الحكم إلى بني العبّاس النتائج التّالية:

أولاً: نقل العاصمة من الشّام إلى العراق.

ثانياً: انتقال النَّشَاط التجاري إلى العراق، وربط التجارة البرية ببغداد والبحرية بالبصرة.

ثالثاً: قيام صِرَاع بين أشراف العَرَب وأشراف الموالي من الفرس، ثمّ الترك عَلى نيل مناصب الدّولة، وإيثار الموالي بهذه المناصب، مما أدى لسقوط الدّولة في نصفها الثّاني تحت إدارتهم كليا.

رابعاً: اشتداد مقاومة الناقمين من العلويين والخوارج وتوالي ثوراتهم عَلى الحكم العبّاسي، وانشغال الدّولة بقمعها مما أدى إلى:

أ – توقف الفتوحات وتحول الدّولة العبّاسيّة من موقف الهجوم – وهو موقف الدّولة الأموية – إلى موقف الدّفاع، واعتبار الحدود الّتي وصل إليها الأمويون في فتوحاتهم، حدودا نهائية والوقوف عندها والاكتفاء بالدّفاع عنها عَلى الحدود مع الرُّوم غربا أو الترك شرقا.

ب – عجز الدّولة عن ضبط الحكم في الولايات الإفريقية، مما اضطرها إلى السكوت والاعتراف بحالة راهنة قضت بانتزاع بعض الأقاليم من سيادة الدّولة، مما أظهر الدّول المستقلة، كما فعل عبد الرَّحْمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي الملقب بالداخل، حين انتزع الأندلس سنة ١٣٨هـ وأقام فيها إمارة مستقلة تحولت إلى خلافة سنة ٣٠٠هـ في عهد **عبد الرَّحْمٰن النّاصر**، وكما فعل إدريس الأوّل، بعد نجاته في وقعة (فخ) سنة ١٦٩هـ، وإقامته في المغرب دولة علوية مستقلة، كذلك أدى اختلال الأمور في المغرب الأدنى (تونس) إلى تولية **إبراهيم بن الأغلب** عليه ومنحه الاستقلال الذاتي سنة ١٨٤هـ، وإنشائه دولة بني الأغلب، لتحول دون امتداد دولة الأدارسة نحو المشرق، وإلى جانب هذه الدّول المستقلة الّتي انفصلت سياسيّاً وإداريا عن دولة بني العبّاس، نشأت في إفريقية إمارات مستقلة كإمارة بني مدرار الّتي أنشأها في (سجلماسة) أبو القاسم سمغو سنة ١٥٥هـ، والإمارة الرستمية الّتي أنشأها **عبد الرَّحْمٰن بن رستم** في (تاهرت) سنة ١٦٠هـ، وكانت كلا الإمارتين تدينان بمذهب الخوارج.

خامساً: تخصيص بعض الولاة بإقليم من أقاليم الدّولة استقلالا، مكافأة لهم لقيامهم بخدمة الدّولة، كما فعل **المأمون** بتخصيص **طاهر بن الحسين** بإقليم خراسان إمارة مستقلة يتوارثها أبناؤه من بعده، وذلك مكافأة له للتغلب عَلى أخيه الأمين.

- **ويمكن تقسيم مرحلة الخِلافَة العبّاسيّة إلى ثلاثة أطوار، بحسب القوّة والضّعف وهي:**

- الطور الأوّل: طور القوّة والعصر الذهبي: (١٣٢- ٢٤٧ هـ/ ٧٥٠-٨٦١ م).

- الطور الثّاني: طور الضّعف والتفتت وتسلط القادة الأعاجم من الفرس والترك: (٢٤٧- ٤٨٧هـ/ ٨٦١ - ١٠٩٤م)
- الطور الثّالث: طور الإنهيار والغزو الخارجي من الصّليبيّين والتّتار: (٤٨٧-٦٥٦هـ/ ١٠٩٤ - ١٢٥٨م)

الخُلَفَاء العبّاسيون في بغداد:

الطور الأوّل:

١- أبو العبّاس السفاح: ٧٥٠ - ٧٥٤ م/ ١٣٢ - ١٣٦ هـ.

٢- أبو جعفر المنصور: ٧٥٤- ٧٧٥ م/ ١٣٦ - ١٥٨ هـ.

٣- محمّد المهدي بن أبي جعفر المنصور: ٧٧٥ - ٧٨٥ م/ ١٥٨- ١٦٩ هـ.

٤- موسى الهادي بن محمّد المهدي: ٧٨٥ - ٧٨٦ م/ ١٦٩ - ١٧٠ هـ.

٥- هارون الرَّشِيد بن محمّد المهدي: ٧٨٦ - ٨٠٩ م/ ١٧٠ ١٩٣- هـ.

٦- الأمين بن هارون الرَّشِيد: (قتل) ٨٠٩- ٨١٣ م/ ١٩٣ - ١٩٨ هـ.

٧- المأمون بن هارون الرَّشِيد: ٨١٣- ٨٣٣ م/ ١٩٨- ٢١٨ هـ.

٨- محمّد المعتصم بالله بن هارون الرَّشِيد: - ٨٣٣ ٨٤٢ م/ ٢١٨ - ٢٢٧ هـ.

٩- هارون الواثق بالله بن المعتصم بالله: ٨٤٢ - ٨٤٧ م/ ٢٢٧ -٢٣٢ هـ.

١٠- جعفر المتوكل عَلى الله بن المعتصم بالله: (قتل) ٨٤٧ -٨٦١ م/ ٢٣٢ -٢٤٧ هـ

الطور الثّاني:

١١- المستنصر بالله بن المتوكل عَلى الله: (قتل) ٨٦١- ٨٦٢ م/ ٢٤٧ - ٢٤٨ هـ.

١٢- احمد المستعين بالله بن المعتصم بالله: (قتل) ٨٦٢ -٨٦٦ م/ ٢٤٨ ٢٥٢ هـ.

١٣- المعتز بالله بن المتوكل عَلى الله: (قتل) ٨٦٦ -٨٧٠ م/ ٢٥٢ -٢٥٥ هـ.

١٤- محمّد المهتدي بن الواثق بالله: (قتل) ٨٧٠ -٨٧٠ م/ ٢٥٥ -٢٥٦ هـ.

١٥- احمد أبو العبّاس المعتمد عَلى الله بن المتوكل: ٨٧٠ -٨٩٢ م/ ٢٥٦ ٢٧٩ هـ.

١٦- احمد أبو العبّاس المعتضد بالله بن الموفق بن المتوكل عَلى الله: ٨٩٢ -٩٠٢ م / ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ.

١٧- علي المكتفي بالله بن المعتضد بالله: ٩٠٢ -٩٠٨ م / ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ.

١٨- جعفر أبو الفضل المقتدر بالله بن المعتضد بالله: (خلع مرتين ثمّ قتل) ٩٠٨ - ٩٣٢ م / ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ.

١٩- عبدالله بن المعتز الراضي بالله: (ولي الخِلافَة يوما واحدا)! ٩٠٩ م / ٢٩٦ هـ.

٢٠- محمّد القاهر بالله بن المعتضد بالله: ٩٣٢- ٩٣٤ م / ٣٢٠ - ٣٢٢ هـ.

٢١- احمد أبو العبّاس الراضي بالله بن المقتدر: ٩٣٤ -٩٤٠ م / ٣٢٢ -٣٢٩ هـ.

٢٢- ابراهيم المتقي بالله بن المقتدر بالله: ٩٤٠ -٩٤٥ م / ٣٢٩ - ٣٣٣ هـ.

٢٣- عبدالله أبو القاسم المستكفي بالله بن المكتفي: (سملت عيناه وسجن حتَّى مات)! ٩٤٥ - ٩٤٦ م/ ٣٣٣ - ٣٣٤ هـ.

٢٤- المطيع لله ابن المقتدر: (خلع نفسه)! ٩٤٦ - ٩٧٤ م / ٣٣٤ - ٣٦٣ هـ.

٢٥- عبد الكريم أبو بكر الطائع لله بن المطيع: ٩٧٤ -٩٩١ م / ٣٦٣ - ٣٨١ هـ.

٢٦- احمد أبو العبّاس القادر بالله بن الأمير اسحق بن المقتدر بالله: ٩٩١ -١٠٣١ م/ ٣٨١ - ٤٢٢هـ.

٢٧- عبدالله أبو جعفر القائم بأمر الله بن القادر بالله: ١٠٣١ -١٠٧٥ م/ ٤٢٢ - ٤٦٧ هـ.

٢٨- عبدالله المقتدي بأمر الله حفيد القائم بأمر الله: (لأن أباه مات قبله) ١٠٧٥ - ١٠٩٤ م / ٤٦٧ - ٤٨٧ هـ.

الطور الثّالث:

٢٩- احمد أبو العبّاس المستظهر بالله بن المقتدي بأمر الله: ١٠٩٤ -١١١٨ م / ٤٨٧ - ٥١٢ هـ.

٣٠- أبو منصور فضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله: (قتله الباطنيون) ١١١٨ - ١١٣٥ م / ٥١٢- ٥٢٩ هـ.

٣١- أبو جعفر المنصور الرّاشد بالله بن المستظهر بالله: (خلعه السُّلطَان مسعود) ١١٣٥ - ١١٣٦ م / ٥٢٩ - ٥٣٠ هـ.

٣٢- محمّد المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله: ١١٣٦ -١١٦٠ م / ٥٣٠ - ٥٥٥ هـ.

٣٣- يوسف المستنجد بالله بن المستظهر بالله: ١١٦٠ -١١٧٠ م / ٥٥٥- ٥٦٦ هـ.

٣٤- أبو محمّد الحسن المستضيء بأمر الله بن المستنجد بالله: ١١٧٠ - ١١٨٠ م / ٥٦٦ - ٥٧٥ هـ.

٣٥- النّاصر لدين الله بن المستضيء بأمر الله: ١١٨٠ - ١٢٢٥ م / ٥٧٥ ٦٢٢ هـ.

٣٦- أبو النّصر محمّد الظَّاهِر بأمر الله بن النّاصر لدين الله: ١٢٢٥ -١٢٢٦ م / ٦٢٢ - ٦٢٣ هـ.

٣٧- أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظَّاهِر بأمر الله: ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م / ٦٢٣ - ٦٤٠ هـ.

٣٨- أبو احمد عبدالله المستعصم بالله بن المستنصر بالله: (قتله التتر) ١٢٤٢ - ١٢٥٨ م / ٦٤٠ ٦٥٦ هـ.

الفتوحات في عهد الدّولة العبّاسيّة:

وقفت الدّولة العبّاسيّة عند الحدود الّتي انتهت إليها الدّولة الأموية قبل سقوطها، وما جرى في عهد الدّولة العبّاسيّة إنما كانَ إخضاعا لأقاليم انتقضت عليها وتم إخضاعها، فكأنما فتحت من جديد، كانتقاض بعض نواح فيما وراء النهر سنة ١٣٤هـ، وانتقاض طبرستان سنة ١٤٢هـ، وانتقاض سجستان سنة ١٥٢هـ، وانتقاض جرجان سنة ١٦٧هـ، وقد كانت هذه الانتفاضات ثورات عَلى الحكم العبّاسي أو تمردا عليه قمعت بشدة وعنف.

وقد استمرت غزوات الصوائف في جبهة الرُّوم واقتصرت عَلى حماية الثُّغُور الإِسْلَاميّة، الجزرية والشّامية، وتتابعت من عام ١٤٢هـ حتّى عام ١٩١هـ وتوقفت بعد ذلك إلى عام ٢١٥، بسبب الحَرب

الأهلية بين الأمين والمأمون، من أجل الخِلافَة، وما تبعها من أحداث، ولما استقر الملك للمأمون استأنف حملات الصوائف، وكان آخرها الحملة الّتي قادها بنفسه سنة ٢١٨هـ وتوقف بها عند مدينة طرسوس، وفيها توفي تلك السنة، بعد أن أمر أن يحمل إليه الإِمَام أحمد بن حنبل ليمتحنه في مسألة خلق القرآن، فحمل إليه في أغلال ثقيلة، وقد اشتهر أن الإِمَام دعا ربه في الطّريق، أن لا يجمعه الله بالمأمون، فجاء خبر وفاته وهم في الطّريق، وأعيد الإِمَام إلى بغداد!

توقفت حملات الصوائف بعد ذلك، وأصبحت الثُّغُور الإِسْلَاميّة هدفا لغارات الرُّوم، ففي سنة ٢٤٣هـ أغار الرُّوم عَلى الثُّغُور الجزرية وبلغوا مدينة (شمشاط) واقتربوا من مدينة (آمد – ديار بكر) كما أغاروا سنة ٢٤٥هـ عَلى الثُّغُور الشّامية من جهة (أنطاكية) ولم تفلح حملات الصوائف الّتي قادها قائدان شهيران وهما: علي بن يحيى الأرميني، وعمر بن عبدالله الأقطع، في صد غارات الرُّوم واستشهد الاثنان في عراك معهم.

على أنّنا لا بُدَّ أن نشير إلى ثلاث حملات عسكريّة ضخمة توجهت إلى بلاد الرُّوم وكانت حملات تأديبية:

الأولى: وجهها الخَليفَة المهدي سنة ١٦٥هـ بقيادة ابنه **هارون الرَّشِيد** وفيها بلغ القُسطَنْطينيَّة فهادنته الملكة (إيرين) وعقدت معه صلحا مع جزية سنوية مجزية.

والثّانية: قادها الرَّشِيد بنفسه وهو خليفة سنة ١٨٧هـ عندما نقض الإمبراطور(نقفور) الّذي خلف(إيرين) الهدنة، وأرسل رسالة حادة للرشيد، فكتب له الرَّشِيد عَلى ظهرها مجيبا: [بِسْمِ اللهَّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ هَارُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى نِقْفُورَ كَلْبِ الرُّومِ، قَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ يَابْنَ الْكَافِرَةِ، وَالْجَوَابُ مَا تَرَاهُ دُونَ مَا تَسْمَعُهُ، وَالسَّلَامُ!!](1)، ثمّ غزاه وانتصر عليه، فصالحه الإمبراطور (نقفور) وعقد معه هدنة جديدة.

والثّالثة: الحملة الّتي قادها الخَليفَة **المعتصم بالله** بنفسه سنة ٢٢٣هـ انتقاما من الرُّوم الّذين أغاروا عَلى ثغور الجَزِيرَة ودخلوا مدينة (زبطرة) فنهبوا وسبوا النِّسَاء وهدموا المدينة، وكانت غارة

---

(١) البداية والنهاية : (١٠/ ١٩٥)

الرُّوم هذه بطلب من الثائر **بابك الخرمي** الَّذي كانت جُيُوش الخَلِيفَة تلاحقه، فلما ضيقت عليه الخناق طلب من الإمبراطور البيزنطي (تيئوفيل) أن يشن الغارات عَلَى الثُّغُور الإِسْلَامِيّة ليضطر الخَلِيفَة إلى سحب جُيُوشه عنه، وقد استجاب الإمبراطور لمطلبه وزحف عَلَى الثُّغُور، ولكن بعد أن كانَ بابك قد وقع في قبضة جيش الخَلِيفَة حيث أسره (الإفشين) قائد المعتصم.

فقد روت كتب التّاريخ[1] أن امرأة من نساء المُسلِمِين كانت مأسورة في عمورية فاستغاثت بالمعتصم، ونادت: (وا معتصماه)! فقال لها الرُّومي: ليأتك المعتصم عَلَى حصان أبلق، فبلغ ذلك المعتصم، فأمر بتجييش جيش حمل فيه ثمانين ألف حصان أبلق! وقد نفذ المعتصم حملته المشهورة الّتي خلدها، الشاعر أبو تمام بقصيدة عصماء، وذلك عندما زعم المنجمون وقالوا له: أن النجوم والنبوءات تشير لعدم إمكانية النّصر في ذلك الوقت، فأصر المعتصم عَلَى الغزو وخرج، وكان في جيشه جم غفير من العُلَماء والصّالحين المشاهير منهم محمّد بن واسع رَحِمَهُ اللهُ **والتقى المعتصم مع جيش الإمبراطور في معركة جرت في (عمورية) انتهت بهزيمة الرُّوم وأسر الإمبراطور، وتخريب عمورية وتحريقها، وقد قَالَ في ذلك أبو تمام شعرا جاء في مطلعه:**

السّيفُ أَصدَقُ أَنبَاءً مِنَ الكُتُبِ ۞ في حَدِّهِ الحدُّ بينَ الجِدِّ واللعِبِ

وإذا كانَ من فتح في هذا العصر من دولة بني العبّاس، فهو فتح صقلية الّذي تولاه الأمراء الأغالبة، أمراء إفريقية، ففي سنة ٢١٢هـ جهز الأمير زيادة الأوّل بن إبراهيم بن الأغلب حملة بحرية بقيادة القاضي العالم المُجَاهد: **أسد بن الفرات** رَحِمَهُ اللهُ.

ومنها أغاروا عَلَى جَزِيرَة مالطة وافتتحوها أيّام **محمّد بن الأغلب** سنة ٢٦١هـ، وعبروا مضيق مسينا وغزوا قلورية (كالابريا calabria) وهي المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب من شبه جَزِيرَة إيطاليا.

---

(١) الإنباء في تاريخ الخلفاء (١٠٦)، وتاريخ ابن خلدون (٣/ ٣٢٧).

تقييم العصر العبّاسي الأوّل:

يمكن القول أنه إذا كانَ العصر الأموي عصر الفتوحات الإِسْلَاميّة، فإن العصر العبّاسي كانَ عصر الحضارة الإِسْلَاميّة، وقد ظهر أثرها في تطور علوم الشّريعة، ومختلف مناحي الحياة العمرانية والأدبية والفكريّة والعلميّة والاجتماعيَّة.

فقد تطورت علوم الدّين المختلفة، كعلوم القرآن، وعلوم الحديث، كما نشأت في هذه المَرحَلَة المذاهب الأربعة، وهي مدارس الأئمة الأجلاء (الإِمَام أبو حنيفة النعمان، والإمام مالك، والإمام الشّافعي، والإمام أحمد بن حنبل)، وغيرهم من الأئمة الأعلام الّذين كانَ لهم مذاهب ومدارس فقهيّة، كانت أقل انتشارا، كالإمام سفيان الثّوريّ، والإمام الأوزاعي، وغيرهم، وقد ظهر تدوين السيرة النّبويّة، وتاريخ الخُلَفَاء الرّاشدين من بعده وسيرهم وما بعد ذلك من أحداث، فوضعت أسس علم التّاريخ الإِسْلَاميّ، وظهر تدوين الحديث وتمحيص الصَّحِيح منه من غير ذلك، وبرز أئمة الحديث الأعلام، كالبخاري ومسلم، وعبدالله بن المبارك، وابن عيينة، وأحمد ابن حنبل وغيرهم كثير رحمهم الله تَعَالَى.



وتبعا لذلك تطورت علوم العربيَّة، وظهرت علوم قواعد اللغة لضبط لفظها عَلى نحو كلام الأعراب وعرف بعلم النحو وكذلك علم الصرف، وظهر رجال عنوا بمفردات اللغة ومعانيها المختلفة واستعمالاتها معتمدين في ذلك عَلى شواهد من كلام العَرَب وأشعارهم وأمثالهم، فكان من كلّ هذا الّذي صنعوه عمدة في تفسير القرآن والحديث، أعان الفقهاء في استنباط الأحكام من مصدريها الأساسيين وهما القرآن والسنة، وغير ذلك من العلوم اللازمة للفقه الّذي تأسست مدارسه في تلك الفترة.

وأما في المناحي الحَضَاريَّة الأخرى، فقد تطورت الحياة العمرانية ونجد من آثار ذلك في تجديد أبي العبّاس السفاح لمدينة الأنبار، واتخاذها عاصمة له وفي بنائه مدينة الهاشمية، وفي بناء المنصور مدينة بغداد، ونقل العاصمة إليها، وفي بنائه مدينة الرافقة، إلى جانب مدينة الرقة، وفي بناء مدينة سامراء الّتي كانَ اسمها (سُرَّ من رأى) في عهد المعتصم، وفي بناء مدينة المتوكلية أيّام المتوكل، وفيما شيد في هذه المدن من قصور، أثار بهاؤها قرائح الشعراء.

وقد تجلت الحياة الأدبية في شعر الشعراء، فقد أضفت نعومة الحياة رقة في الشعر، وابتداعا لمعان جديدة، وألهمت خيال الشعراء بصور فنية لم يكن لشعراء العصر الأموي عهد بها، وكان عطاء الخُلَفَاء وسخاؤهم، ومن كانَ يجاريهم في العطاء من الوزراء والكبراء يشحذ إلهام الشعراء ويطلق لهواتهم بجيد الشعر، وكان الشعر وسيلة إطرائهم والتغني بفضائلهم، وإلى جانب الشعراء ظهر الكتَّاب، فابتدعوا أسلوبا جديدا يقوم عَلى سلاسة التعبير، ودقة المعاني وإشراق البيان، ومن هَؤُلَاءِ من رقا إلى الوزارة.

وفي الحياة الفكريّة نجد أثر الثقافات الأجنبيّة الّتي حملها الموالي معهم، من حكمة الهند وأدب الفرس وفلسفة اليونان والعلوم التطبيقية الأخرى، وقد تأثر بها الفكر الإِسْلَاميّ، وتلقاها بما نقل منها إلى العربيَّة، فانعكست عليه خيراً وشرا.

وكان الخَليفَة المنصور أول من عني بهذا النقل وتبعه حفيده الرَّشِيد ثمّ المأمون الّذي أنشأ دارا للترجمة أسماها (دار الحكمة) واشتهرت بما جلب إليها من كتب الأوائل، وخاصة ما كتب منها

باليونانية والسريانية والقبطية، ووكل بها مترجمين من كلّ الاختصاصات: في الطب والهندسة والفلك (التنجيم) والصيدلة، وقد كانَ لتلك الظَّاهِرة أثرا إيجابيا تجلى في ازدهار العلوم البحتة والتطبيقية، كالطب والرِّيَاضيات، والهندسة، والفلك، والكيمياء، ولكنه لم يخلو من أثر سلبي بالغ الضرر بسبب ما دخل من علوم الفلسفة والمنطق عَلى أبحاث الشّريعة، مما أوجد ما عرف بـ (علم الكلام) الّذي دخل في علم العقائد والتّوحيد، وأوجد مذاهب عقدية منحرفة وضالة كالجهمية، والقدرية، وغيرها، وكان في طليعتها مذهب المعتزلة، الّذي يتلخص باعتماد تحكيم العقل عَلى نصوص الشَّرع كتابا وسنة، والّذي فجر مسألة فتنة خلق القرآن الّتي طحنت العُلَماء والرعية أيّام المأمون والمعتصم والواثق، وبقيت آثار هذا المذهب المنحرف إلى يومنا هٰذا، حيث ينتمي أكثر من يسمون مفكرين إسلاميين، ورموز صَحوَة إسلاميّة إليه، وبعضهم لا يدري!

وكان من مظاهر الحضارة الّتي تميز بها العصر العبّاسي تطور الحياة الاجتماعيَّة، فقد أدى امتزاج العَرَب بالموالي، وأكثرهم من الفرس، إلى ظهور طبقة من المولَّدين، أحدثت تطورا في حياة الأسرة والمجتمع.

ففي الأسرة الحاكمة تقدمت زوجات الخُلَفَاء، وزوجات كبار الوزراء والأمراء، اللواتي دعين بأمهات الأولاد - وهن الجواري المستولَدات بالزواج بعد تحريرهن - عَلى الحرائر العربيات في كثير من الأحيان، ونلن الحظوة عند الأزواج، وحظي أبناؤهن عند آبائهم بما لم يحظ به أبناء الحرائر، وقد ضرب الخُلَفَاء العبّاسيون في ذلك المثل.

وإذا نحن استثنينا أبا العبّاس السفاح ومحمّد المهدي بن المنصور، ومحمّد الأمين بن الرَّشِيد، فكل خُلَفَاء بني العبّاس ولدن من إماء وجواري محظيات!!!

وكان لأمهاتهم الفارسيات والتركيات والرُّوميات والبربريات، الكلمة العليا في اختيار أولياء العهد، فكانت صاحبة الدل عَلى الخَلِيفَة تفرض ابنها ليخلف أباه وتلزمه بالعهد إليه، فيقوم بين الأبناء نزاع كانَ يُؤَدِّي إلى صِرَاع دموي، كما حدث بين الأمين والمأمون، وكما جرى مع المتوكل، فقد عهد بالخِلافَة إلى ابنه محمّد (المنتصر) وهو ابن أمة تدعي (حبشية)، فزاحمتها أم محمّد (المعتز) وهي مثلها أمة

تدعى (صبيحة)، فلقبوها (قبيحة) وجعلت المتوكل يعزم عَلى تقديم ابنها في ولاية العهد عَلى أخيه محمّد (المنتصر)، ولما علم هذا ما عزم عليه أبوه، ائتمر مع القادة الأتراك عَلى قتله، فقتلوه.

وقد أدى تغلب العنصر الفارسي منذُ أيّام المأمون الّذي كانَ أخواله من الفرس، ثمّ التركي منذُ أيان المعتصم الّذي كانَ أخواله من الأتراك. كذلك تسربت التقاليد الفارسية إلى الحياة الاجتماعيَّة، فظهرت الأزياء الفارسية في البلاط وتقرر في قصور الخُلَفَاء ما كانَ متبعا من المراسم في قصور الفرس، واحتفل بالأعياد الفارسية كالمهرجان والنيروز ورام، وغيرها من الأعياد الأخرى!

وهكذا سيطر المولَّدون وبرز إمساكهم بزمام الدّولة إلى انحسار العنصر العربيّ الخالص وارتداده إلى البادية الّتي خرج منها، وتوقفت فريضة جِهَاد الطلب، وبها توقفت حدود الدّولة الإِسْلَاميّة عند النهايات الّتي بلغتها الدّولة الأموية، ولم تعد تلك النُّخبَة كما وصفها الله تَعَالَى بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

ظاهرة علماء السُّلطَان في العصر العبّاسي الأوّل:

حاول الخُلَفَاء العبّاسيون – كما كانَ ذلك دأب خُلَفَاء بني أمية – استمالة الفقهاء ورجال الدّين ليدعموا سلطانهم عند العامّة، فازدادت ظاهرة علماء السُّلطَان بروزا، حتَّى ظهر ابن أبي دؤاد أيّام المأمون والمعتصم، وبلغ بأحد أتباعه أن ينصح المعتصم بقتل أحمد بن حنبل، قائلا له: اقتله يا إمام ودمه في عنقي!

ولكن تلك الأيّام كانَ فيها من علماء الحقّ، من يقف لجور أولئك الملوك، ويأبون أن يكونوا (ديكورا) في حاشيتهم، كما كانَ من الأئمة الأربعة، وغيرهم من الأعلام كسفيان الثّوريّ، والأوزاعي، وغيرهم كثير، كما وقف أولئك العُلَماء للمنافقين من علماء القصور.

وكان جل العُلَماء يتعففون عن أبواب السّلاطين، ويعتبرونها أبواب الفتنة في الدّين وبوابة البوار في الآخرة، وقد سجلت سيرهم أنصع صور الثّبات في تلك الآونة.

أهمّ القضايا والمشكلات الّتي اعترضت دولة بني العبّاس في ذلك الطور:

اعترضت دولة بني العبّاس في نصفها الأوّل (١٣٢ - ٢٥٠هـ) عدّة قضايا ومشكلات كانَ أهمّها:

- **ولاية العهد:**

أدت الطَّريقة الّتي اتبعت في اختيار ولاة العهد إلى انقسام البيت العبّاسي وإلقاء العداوة والبغضاء بين أفراده، فالمنصور انتزع ولاية العهد من ابن أخيه عيسى بن موسى ونقلها إلى ابنه المهدي، وكان المهدي هدد بقتل أبيه إذا قدم عليه أخاه جعفرا.

والهادي أراد خلع أخيه الرَّشِيد من ولاية العهد ونقلها إلى ابنه جعفر فقتل قبل أن يتمكن من ذلك.

والأمين خلع أخاه **المأمون** وعهد بولاية العهد إلى ابنه القاصر موسى، فخلعه **المأمون** وقاتله وانتهت حياة الأمين بقتله.

والعبّاس بن **المأمون** تآمر عَلى قتل عمه المعتصم لانتزاع الخِلافَة منه فقتله المعتصم،

والمنتصر تآمر عَلى قتل أبيه المتوكل لأنها راد أن يقدم عليه أخاه المعتز.

فكانت ولاية العهد من أسباب تفكك البيت العبّاسي كما كانت من قبل من أسباب تفكك البيت الأموي.

- **ظاهرة النعرة الشّعوبية:**

الشّعوبية نسبة إلى (الشّعوب) وهم الأقوام الّذين فتح العَرَب المُسلِمُون بلادهم ودخلوا في الإِسْلَام وعرفوا باسم (الموالي)، أي أنهم ارتبطوا مع العَرَب برابطة الوَلَاء.

وقد محا الإِسْلَام الفوارق الطبقية والقومية وجعلهم إخوة، تقوم أخوتهم عَلى رابطة الإيمان، وفي ذلك يقول الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقد سوى النبيّ ﷺ بين الموالي وبين العَرَب بقوله: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ... إِلَّا بِالتَّقْوَى»(١)

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩) وصححه الأرنؤوط، وأورده ابن تيمية في "الاقتضاء (١/ ٤١٢)" وقال صحيح.

ولما تولى الخِلافَة بنو أمية، أحيوا العصبية العربيَّة، الّتي كانت سائدة زمن الجَاهِليَّة، وميزوا بين العربيّ والعجمي، فكان المولى أدنى مرتبة من العربيّ في المرتبة الاجتماعيَّة، وكانوا دون العربيّ في الفيء والعطاء، بل كانَ عمالهم يفرضون الجزية عَلى رءوسهم والخراج عَلى أراضيهم بعد إسلامهم!

وقد أدى هذا الإخلال بمبدأ المساواة إلى تذمرهم، وأيدوا الدّعوة العبّاسيّة، وكانوا أعوان العبّاسيين في إقامة دولتهم.

وقد اعترف لهم الخُلَفَاء العبّاسيون بالفضل وحفظوا لهم يدهم فولوهم الوظائف الكبرى، وكانت أسرة البرامكّة أول من تقدم في دولة بني العبّاس، منذُ أبي العبّاس السفاح، فكان منهم الوزراء والولاة وكان منهم الكتاب.

وفي عهد الرَّشِيد لمع نجمهم، وتولوا مقاليد الحكم في الدّولة، وفي زمنهم نشط الشّعوبيون، يستظلون بحمايتهم، وأخذ الكتاب والشعراء منهم يمتدحون فيهم أمجاد الفرس، وفي عهد **المأمون** حل بنو سهل وبنو طاهر – وكانوا قبل إسلامهم من أشراف الفرس ومجوسهم – محل البرامكّة بعد نكبتهم، فكان **الفضل بن سهل** ومن بعده أخوه **الحسن بن سهل** وزراء **المأمون** والقائمين عَلى تدبير أموره ومخططي سياسته، وكان **طاهر بن الحسين** وأولاده قادة جُيُوشه وبقوتهم ارتفع إلى سدة الخِلافَة بعد قتلهم أخاه الأمين، فانتعشت الشّعوبية، ولم تعد تقتصر عَلى مديح الفرس وتمجيد ماضيهم، بل تجاوزته إلى القدح بالعرب ونشر مثالبهم والسخرية من تقاليدهم.

وفي عهد **المأمون** خاض الكتاب والشعراء الشّعوبيون في امتداح الفرس وذم العَرَب.

ولم يكتف الشّعوبيون بالقدح في طبائع العَرَب وحياتهم الاجتماعيَّة بل تجاوزوا ذلك إلى الانتقاص من ثقافتهم ومقامهم، وامتدحوا الثقافات الأعجمية، وتغافلوا عن التطور الكبير الّذي حدث في تاريخ العَرَب في النواحي الاجتماعيَّة والفكريّة، حتَّى فسروا بعض آيات القرآن بما يفيد تفضيل العجم عَلى العَرَب.

وقد رد كتاب العَرَب وشعراؤهم عَلى الشّعوبيين ودفعوا ما قيل في مثالب العَرَب ببيان ما لهم من المزايا والفضائل، من كرم وشجاعة ونجدة ومروءة، ومن فصاحة وبيان، ومن تكريم عند الله تَعَالَى

باختيار النبيّ ﷺ منهم وإنزال القرآن الكريم بلغتهم، وبدينهم اهتدى النّاس وخرجوا من الظُّلمة إلى النور، وكان ذلك الصِّرَاع أحد أوجه التركيب الاجتماعي.

- حركات الزندقة:

يطلق اسم زنديق - بالفارسية (زند كراي) - عَلَى الملحد الّذي لا يؤمن بوحدانية الله ولا باليوم الآخر، وقد شاعت الزندقة في فارس وأطلقت عَلَى من ظل معتنقا تعاليم (مزدك) و(ماني) الّتي تدعو إلى عبادة إلهين إله النور، وإله الظُّلمة وأباحت ما حرم الإِسْلَام من حرمات، وتأثرت بعقائد الهند الّتي تقول بالتناسخ والحلول، ثمّ تدثرت بدثار التشيع وأخذت تقاوم الإِسْلَام، وكانت ترمي بذلك إلى تحقيق هدفين:

- الانتقاض عَلَى الحكم العربيّ - وإفساد عَقِيْدَة الْمُسلِمِين.

أما الانتقاض فقد جرى عَلَى أسلوبين، أحدهما سياسي ساعد عليه تقريب العناصر الفارسية ومشاركة الخَلِيفَة العبّاسي في السّلطة، وأحيانا الاستقلال بها من دونه بتفويض منه، فقد كانت هذه العناصر تحلم بإعادة مجدها المفقود وتشجع حركات الزندقة والشّعوبية، وكانت تخفي أحلامها بمطاوعة الخُلَفَاء فيما يشتهون وإشباع شهواتهم وإظهار الوفاء لهم، وكان من هَؤُلَاءِ **أبو مسلم الخراساني** ثمّ البرامكّة، ثمّ آل سهل وآل طاهر.

أما الأسلوب الثّاني، فكان في خلع طاعة الخَلِيفَة وإعلان الثَّورة عليه، ومنها ثورة الراوندية والخرمية والبابكية وغيرها.

وكان الهدف الثّاني الّذي ترمي إليه الزندقة هو إفساد عَقِيْدَة الْمُسلِمِين تحت شعار التشيع، ومن خلاله تسربت عقائد وديانات الفرس السَّابقة للإسلام، فكانت تغرر بالشبان بما كانَ ماني يدعو إليه من طلب اللذة بإباحة شرب الخمر ووطء المحرمات ومنهم الأخوات والبنات.

وقد بدأ الخَلِيفَة المنصور بتتبع الزنادقة وقتل من قامت عليه الحجة، واشتد المهدي في تتبعهم، وكان يستتيبهم، فمن تاب أطلقه ومن أبى قتله، وبذلك أوصى ابنه موسى (الهادي)، وقد سار الرَّشِيد بسيرة أبيه وأخيه فتعقب الزنادقة وبطش بمن ثبتت عليه الزندقة، أما **المأمون** فكان إذا سمع بزنديق

أمر بحمله إلى مجلسه وفيه جماعة من المتكلمين - المعتزلة - فناظروه لعلهم يقنعونه ويردونه إلى الإِسْلَام، وكان **المأمون** يشترك في مناظرته، فإذا لم يكف عن غوايته، أمر بقتله.

كذلك فعل المعتصم فقتل قائده (الإفشين) بعد محاكمته وثبوت الزندقة عليه.

- **مسألة خلق القرآن:**

كما ذكرنا آنفا؛ فقد أدى الاحتكاك بفلسفات اليونان، والانفتاح عَلى ثقافات الدّول المفتوحة الفارسية والشرقية الأخرى إلى دخول أفكار شاذة لدى بعض من مزج ذلك بعلوم الشّريعة ولاسيما في مجال العقائد، مما ولد مذاهب منحرفة كانَ من أبرزها تأثيرا في تلك الفترة، ما سمي بمذهب المعتزلة، الّذين جعلوا العقل - بحسب فهم عقولهم السقيمة - حكما عَلى النّصوص الشَّرعيَّة المحكمة كتابا وسنة! وقد صار بعض أئمة ذلك المذهب مقربين من الخَليفَة المأمون، وأقنعوه بمذهبهم! وفي أواخر خلافته ابتدع المعتزلة وزعيمهم مسالة القول بخلق القرآن الّتي تصدى لضلالها أئمة أهل السّنّة وفي طليعتهم الإِمَام أحمد بن حنبل.

وفي أواخر عهد خلافته ألزم المأمون الفقهاء بالأخذ بها، ففي سنة ٢١٨هـ توجه **المأمون** لحرب الرُّوم فأناب عنه في بغداد إسحاق بن إبراهيم المصعبي، وهو ابن عم **طاهر بن الحسين** ولما وصل إلى مدينة (طرسوس) كتب لنائبه يأمره أن يدعو الفقهاء ويسألهم عن رأيهم في خلق القرآن، فمن قَالَ إنه مخلوق أطلقه، ومن قَالَ بغير ذلك فقد أمره ألا يستعين به في عمل وأن يسقط شهادته وأن يمنعه من التحديث بحديث رسول الله ﷺ، ومن الفتوى، فإن أصر بعد ذلك فليشده بالحديد ويرسله إليه بـ(طرسوس)، وقد حمل إليه الإِمَام ابن حنبل مصفدا بالسلاسل، ودعا ربه في الطّريق أن لا يجمعه بالمأمون، فجاءهم خبر وفاته في الطّريق ورد ابن حنبل إلى بغداد.

وكان **المأمون** قد عهد بالخِلافَة من بعده إلى أخيه **المعتصم بالله** وأوصاه أن يستمر بامتحان الفقهاء، فسلك مسلك **المأمون** وكتب إلى الولايات بذلك، وأمر المعلّمين أن يعلّموا الصّبيان أن القرآن مَخلوق، وقاسى النّاسُ منه مشقّةً وجُوراً عظيماً، وقتل كثيراً من العُلَماء، وضُرب الإِمَام أحمد بن حنبلَ بين يديهِ وعُذِّب.

ثمّ أوصى المعتصم ابنه الواثق بامتحان العُلَماء، فتبع أباه وسلك مسلكه في امتحانهم وقتل المحدّث **أحمد بن نصر الخزاعي** لأنّه لم يَقُل بخلق القرآن وسعى بالخروج عَلى الواثق، ولما جرى الفداء بين المُسلِمِين والرُّوم سنة ٢٣١هـ أمر أن لا يفتدى من أسرى المُسلِمِين إلّا من قَالَ بخلقِ القرآن، فمن رفض تُركَ في أيدي الرُّوم.

وأمر الواثق بامتحان أهل الثُّغُور فقالوا بخلقه جميعاً إلّا أربعةِ نفرٍ، فأمر الواثق بضرب أعناقِهم إن لم يقولوا بخلقِ القُرآن، فأبَوا فضَربَ أعناقهم، ولما تولى المتوكل الخِلافَة أبطل القول بخلقِ القرآن وخرج أحمد بن حنبل من بيتِه بعد أن لزِمَهُ طيلةَ عهدِ المُعتَصِم والوَاثِق، فأكرمه المتوكّلُ، وغضب عَلى أحمَدَ بن أبي دؤاد فعزَلَه وصادَرَ أمواله وحَبَسَهُ مع أبنائه وإخوته وأصابه الفَالِجُ فَمَات.

- حياة الترف وبداية التحلل من القيم الدّينيّة:

فقد أحدثت هذه الحياة الطارئة، تراخيا في الأخلاق الإِسْلَاميّة، وأصبح اللهو والمجون والعبث من سمات كثير من أهل ذلك العصر، وتطنب كتب التّاريخ بأخبار ما عجت به قصور الخُلَفَاء والكبراء من قصص تكاد تقرب من الخيال مما يطول ذكره، ولا داعي للإفاضة فيه هنا، وأظن أن كثيرا من تلك الأقاصيص كانت من نسج خيال الوضاعين والأدباء والقصاصين، ولكن الحقيقة أن لكل تلك التهويلات أصلا.

وكان ذلك الترف وما ذكرنا من أسباب التقهقر المعول الّذي قد جُذُور الخِلافَة الإِسْلَاميّة، لتصبح في العصر العبّاسي التّالي منصبا يعبث به القادة والمماليك.

****

العصر العبّاسي الثّاني:

ويمتد من خلافة المستنصر الّذي قتل أباه المتوكل بالتآمر مع القادة الأتراك، إلى خلافة المقتدي بالله الّذي شهدت خلافته بداية الحملات الصّليبيّة عَلى سواحل الشّام، وبداية تحرك التّتار في شرق الخِلافَة عَلى تخوم بلاد ما وراء النهر.

السمات الّتي يتميز بها العصر العبّاسي الثّاني:

أولاً- تغلب القادة المتغلبين عَلى الخِلافَة:

يعتبر إقدام القادة الأتراك عَلى قتل الخَليفَة **المتوكل عَلى الله** في الخامس عشر من شهر شوال سنة ٢٤٧هـ، بداية العصر العبّاسي الثّاني، وفيه استبد القادة بالسلطة، وأصبح الخَليفَة طوع إرادتهم وأسير هواهم، وقد أصبح مصير الخِلافَة في أيديهم، فمن شاءوا خلعوه ثمّ قتلوه، ومن شاءوا ألزموه خلع نفسه وسملوه وصادروا أمواله، وحين خلع الخَليفَة أحمد المستعين بالله، وهو أول خليفة خلع، لم يلبث أن قتل بعد خلعه.

ولما استولى البويهيون عَلى السّلطة بعد الأتراك، اتبعوا نهجهم، فكان الأمير البويهي يولي الخِلافَة من يشاء ويخلع من يشاء وكان الخلع كثيرا ما يتم بالذل والهوان.

وكان خلع الخَليفَة يوم ابتهاج عند الجند، ففيه يجري نهب دار الخِلافَة وفيه يطالب الجند الخَليفَة الجَدِيد برسم (بيعته)، وكان يجري عَلى الخَليفَة المخلوع نفقة قد لا تكفيه، فيضطر إلى التكفف واستعطاف النّاس، كما جرى للخليفة القاهر بالله بعد خلعه ومصادرة أمواله وسمله، فكان يخرج إلى جامع المنصور ويتكفف المصلين ويقول: تصدقوا علي فأنا من قد عرفتم، وذلك بعد أن كانَ قد حفر الأخاديد في قصره وملأها ذهبا وفضة!! وسبحان مالك الملك!

وقد توالى عَلى الخِلافَة منذُ خلافة **المنتصر بالله** سنة ٢٤٨هـ إلى خلافة المستظهر بالله سنة ٤٨٧هـ، أي خلال ٢٣٩ سنة، سبعة عشر خليفة، منهم أربعة قتلوا وهم: المستعين بالله والمعتز بالله والمهتدي بالله والمقتدر بالله، ومنهم ثلاثة خلعوا وسملوا (قلعت عيونهم) وهم: القاهر بالله والمتقي لله والمستكفي بالله، ومنهم اثنان أجبرا عَلى خلع نفسيهما وهم: المطيع والطائع، وهناك خليفتان قيل في بعض الروايات أنهما قتلا بالسم وهما: **المعتمد عَلى الله** و المعتضد بالله، فيكون مجموع من قتل وخلع ومات بالسم عشر خُلَفَاء، من أصل سبعة عشر!!

ثانياً – عزل الوزراء ومصادرتهم:

لم يكن حال الوزراء بأفضل من حال الخُلَفَاء، فكان الوزير يأتمر بأمر المتغلبين، فإذا غضبوا عليه عزلوه وصادروا أمواله، وقد يقتلونه، كما جرى للوزير **أحمد بن إسرائيل** ولكاتبه عيسى بن نوح، فقد صادرهما القائد التركي **صالح بن وصيف** وقتلهم ضربا بالسياط، ومثل ذلك بل أشد ما جرى لكثير من الوزراء.

وكثيرا ما كانَ الوزير يُنصب ثمّ يُعزل، ويتكرر نصبه وعزله عدّة مرات لا يفصل بينهما إلا أمد قصير، وغالبا ما كانَ ينتهي عزله بمصادرته وقتله، ومع ذلك فإن الكثيرين كانوا يطمعون في تولي الوزارة، ويبذلون المال في سبيل توزيرهم!!

ذلك أن الوزارة كانت موردا للثراء الفاحش عن طريق الرشاوى، ومن ذلك أن محمّد بن **عبيد الله بن خاقان وزير المعتضد بالله** كانَ يأخذ الرشوة من كلّ طالب وظيفة، وربما عين للوظيفة الواحدة عددا من الموظفين، وقيل إنه عين في يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة وأخذ من كلّ واحد رشوة وكان أهمّها ضمان الخراج وتعيين الولاة والعمال والقضاة والكتاب، فيكون للوزير عَلى من يوليه جبايات يجني منها ربحا وفيرا، ويثري به ثراء فاحشا.

من أجل ذلك كانت الوزارة هدفا للدسائس من حاسدي الوزير، الطامعين في منصبه، فإذا أفلح الدس عَلى الوزير عزل وصودرت أمواله، وكان ما يصادر يعد بآلاف الآلاف من الدنانير، ومع ذلك فقد يسلم له الكثير مما يكون قد طمره في حفرة، أو أخفاه في مكان بعيد.

ثالثا – ابتداع الألقاب والكنى:

لما انتقلت الخِلافَة إلى بني العبّاس أضافوا إلى هذا اللقب ألقابا تدل عَلى صفة يتميز بها الخَليفَة، فقد عرف عبدالله أبو العبّاس أول خليفة عباسي، بلقب (السفاح) وتلقب أخوه عبدالله أبو جعفر بلقب (المنصور) وتلقب ابنه محمّد من بعده بلقب (المهدي) وتلقب من بعده ولداه، موسى وهارون بلقب موسى (الهادي) وهارون (الرَّشِيد)، ولقب الرَّشِيد أولاده الثّلاثة: محمّد وعبدالله والقاسم بلقب محمّد (الأمين) وعبدالله (المأمون) والقاسم (المؤتمن).

ولما تولى الخِلافَة محمّد بن الرَّشِيد خلفا لأخيه **المأمون** ابتدع لقبا، أضافه إلى اسم الله تَعَالَى فتلقب بمحمّد (المعتصم بالله)، وجرى الخُلَفَاء من بعده عَلى تقليده، وأصبح الخَليفَة يعرف بلقبه.

ولما استبد القادة الأتراك بالسلطة منح الخَليفَة إلى من بيده السّلطة منهم لقب (أمير الأمراء) ولقب (معز الدّولة) و(عماد الدّولة) (ركن الدّولة)، و(عضد الدّولة) و(جلال الدّولة) و(بهاء الدّولة) و(فخر الدّولة).

ولم يكتف بنو بويه بهذه الألقاب، بل أضافوا إليها لقب (السُّلطَان)، ومنهم من تلقب بلقب (شاهنشاه) أي ملك الملوك الّذي أفتى العُلَمَاء بحرمته، ثمّ سرت هذه الألقاب بعد ذلك إلى أمراء الأقاليم المستقلين، فكان من الحمدانيين في الموصل وحلب: (ناصر الدّولة) و(سيف الدّولة) و(شبل الدّولة)، وتبعهم بعد ذلك أمراء بني عقيل في الجَزِيرَة وملوك **الإخشيد** في مصر، وسلاطين غزنة وكان منهم: (ناصر الدّولة) سبكتكين و(يمين الدّولة) محمود، و(شهاب الدّولة) و(جمال الدّولة) و(كمال الدّولة)، وإلى هذه الألقاب أضيفت أيضا كنى (كأبي الفضائل) و(أبي المعالي) وما شابه ذلك.

وقد أصبحت الكنى والألقاب في العصر العبّاسي الثّاني موردا للخُلَفَاء، وخاصة بعد أن رفعت عن أيديهم أموال بيت المال في عهد **معز الدّولة البويهي** فكان بعض الخُلَفَاء يبيع الألقاب لمن يطلبها!

رابعا - مظالم عمال الخراج:

يشمل الخراج ضريبة ما تخرجه الأرض من ثمرات ومحاصيل، وكان يتولى جبايتها مع جباية موارد الدّولة الأخرى عمال يدعون (عمال الخراج) وكانوا يتمتعون بسلطة كبيرة، وقد عرفوا بالظُّلم والعسف فكانوا يجبون أضعاف ما كانوا يضمنون أداءه للدولة.

وقد روى المؤرخون ما كانَ يجري عَلى أيديهم من المظالم، وما كانَ يلقى المكلفون من صنوف العذاب.

ومثل ذلك يفعلون مع من يرث ميراثا ضخما، فكانوا يعملون عَلى الاستيلاء عَلى ميراثه، أو يشركونه فيه، فإذا رفض سجنوه وأخذوا في تعذيبه حتَّى ينالوا ما يريدون.

وقد جمع عمال الخراج مما جنوه ثروات كبيرة، ملكوا بها الضياع وبنوا الدُّور والقصور وعقدوا فيها مجالس الطرب والسمر والشراب، وقصدهم الشعراء يتكسبون بمدحهم.

وقد يتولى الوزير مع وزارته ضمان الخراج، فيجبي بسلطانه مالا كثيرا، يُؤَدِّي بعضه إلى بيت المال ويوفر لنفسه ما تبقى.

خامسا – مصادرة الأموال:

لم تقتصر المصادرة عَلى أموال من يخلع من الخُلَفَاء أو يعزل من الوزراء والعمال، بل شملت أموال النّاس وخاصة التجار منهم، فكان الخَليفَة العبّاسي أو السُّلطَان البويهي، إذا أعوزه المال أمر بمصادرة التجار.

سادسا – فساد القضاء:

كانَ القضاء هو الأداة الّتي تضمن سلامة المجتمع وأمنه بإشاعة العدل والمساواة بين أفراده، ويشترط في القاضي أن يكون عالما بأحكام الشَّرع، مراعيا مقاصده ومجتهدا فيه، وأن يكون عفيفا، غير طامع في مال ولا مغتر بجاه ولا مطيع لسلطان في غير ما أمر الله.

وكان القاضي يرتزق من بيت المال في حدود حاجته وقد يتورع فيقضي بغير أجر، ومن الفقهاء من كانَ يعتبر القضاء محنة وابتلاء فيأبى توليه مخافة أن يصدر في قضائه عن جور أو يلحق ظلما بأحد، فيبوء بخسران يقاضيه الله عليه، ففي حديث الرَّسُول ﷺ: «**قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ**»[1] فهو يخشى أن يكون أحد القاضيين.

وهذا **أبو حنيفة** يريده الخَليفَة المنصور العبّاسي عَلى القضاء فيمتنع، فيأمر المنصور بضربه بالسياط، ثمّ يأمر بحبسه، وقيل إنه مات في الحبس، وهذا **سفيان الثّوريّ** يكتب إليه الخَليفَة المهدي بولاية قضاء الكوفة عَلى أن لا يتعرض أحد لحكم من أحكامه، فيأخذ العهد ويرميه في دجلة ثمّ يتوارى، ومثله إسماعيل بن إبراهيم الأسدي المعروف بابن علية، وعبدالله بن وهب وكثيرون غيرهم ممن تحرج من تولي القضاء فامتنع عن قبوله.

---

(١) رواه أبو داوود (٣٥٧٣) والترمذي (١٣٢٢) واللفظ له، وابن ماجة (٢٣١٥) وصححه الألباني والأرنؤوط.

هكذا كانَ شأن القضاء فيما مضى حتَّى جاء العصر العبّاسي الثّاني، فتأثر القضاء بفساد العصر وأصبح وسيلة للارتزاق!! وارتقى إليه من ليس من أهله، ففي عهد الخَليفَة المقتدر، ولى وزيره أبو الحسن بن الفرات القضاء تاجرا كانَ أسدى إليه معروفا.

ومضت فترة جرى فيها تضمين القضاء لقاء رشاوى ومبالغ ضخمة!! ففي عام ٣٥٠هـ ضمن السُّلطَان **معز الدّولة البويهي** قضاء بغداد لأبي عبدالله بن أبي الشوارب ومعه قضاء القضاة، لقاء مائتي ألف درهم يدفعها كلّ سنة إلى خزانة السُّلطَان.

وكان تضمين القضاء وسيلة للرشوة، ويبدو أنها كانت مألوفة عند بعض أبناء أبي الشوارب، وأكثرهم ممن تولى القضاء فقد روى **ابن كثير** أن محمّد بن الحسن بن عبدالله بن أبي الشوارب، قاضي بغداد كانَ ينسب إلى أخذ الرشوة في الأحكام والولايات، عَلى أن هذه الأسرة قد تولى أكثر أبنائها القضاء، وكانوا عَلى جانب كبير من العلم والورع، غير أن الفساد سرى إلى بعضهم، وكان فساد القضاء كما يقول صاحب المنتظم، أول ما انحل من سياسة الملك.

وقد أورد **محمّد بن سعد الزهري** المتوفى عام ٢٣٠هـ مقارنة بين قضاة صدر الإِسْلَام وقضاة زمانه فقال: كانَ الرجلان يتقاولان بالمدينة في أول الزّمان فيقول أحدنا للآخر: لأنت أفلس من القاضي، فصار قضاة اليَوْم ولاة وجبابرة وملوكا وأصحاب غلات وضياع وتجارات وأموال!!

سابعاً – الفتن والصِّرَاعات الداخليَّة:

أ – الفتن المذهبية:

ثارت فتن بين الشّيعة وبين أهل السّنّة، وخاصة الحنابلة منهم، فتن كانَ مسرحها بغداد، وقد بدأت في أوائل القرن الرَّابع الهجريّ وامتدت إلى أواخر القرن الخامس الهجريّ، وكانت تتوالى الفتن عاماً بعد عام، وكثيرا ما كانت تشتد، فينشب فيها قتال مرير يرافقه حرائق وتدمير.

وقد شد آل بويه أزر الشّيعة لتشيعهم، وشد الأتراك أزر أهل السّنّة لأخذهم بمذهبهم، وكان القُصاص من الجانبين يثيرون شعور الطّرفين بالعداء ويحرشون فيما بينهم، حتَّى بلغ الإسفاف في إحدى السنين – كما جاء في تاريخ ابن كثير – أن يخرج الجهال والرعاع من المنسوبين للسنة جملا رمزوا

به إلى جمل موقعة الجمل وساروا خلفه، ورفع الشّيعة راياتهم واستعلنوا بسب الصّحابة! واقتتل النّاس حتَّى تعطلت الأسواق والحياة وانتشر الشر في بغداد!!

وكذلك كانت تثور الفتن أحيانا حتَّى بين أهل السّنّة، بين الحنابلة والأشاعرة، وبين الحنفية والشّافعية، فكان أهل كلّ مذهب يتعصبون لمذهبهم، ويدفعهم التعصب إلى أن يقتتلوا، ففي عام ٤٦٩هـ قدم أبو نصر القشيري إلى بغداد فوعظ بالمدرسة النّظامية ونصر الأشاعرة وحط عَلى الحنابلة، فهاج عوام أهل السّنّة وأحداثهم وقصدوا المدرسة النّظامية، وحميت الفتنة وقتل جماعة منهم، وثارت الفتنة في عام ٤٧٦هـ بين الفريقين وتلتها فتن أُخرى كانت تثور بين حين وآخر وامتدت إلى آخر القرن السَّادس الهجريّ.

كذلك ثارت الفتن بين الحنفية والشّافعية، وكلاهما من أهل السّنّة، ففي عام ٤٦٨هـ نشبت فتنة كبرى بينهم بسبب تحول إمام من أئمة الحنفية إلى المذهب الشّافعي، فقد روى السبكي أن الإِمَام أبو المظفر منصور بن أحمد بن عبد الجبار المعروف بابن السمعاني الخراساني، تحول من المذهب الحنفي الّذي ناظر فيه ثلاثين سنة، إلى المذهب الشّافعي، فقامت الحَرب بين جماعة المذهبين، واضطرمت الفتنة بينهم، حتَّى كادت أن تملأ ما بين خراسان والعراق.

ويصف لنا ياقوت في معجمه(١)، آثار الخراب الّذي أصاب بعض المدن في أعقاب الفتن الّتي كانت تنشب بين أصحاب المذهبين، فحين يذكر مدينة أصفهان يقول: " وقد فشا الخراب في نواحيها لكثرة الفتن والتعصب بين الحنفية والشّافعية، والحُرُوب المتصلة بين الحزبين، فكلما ظهرت طائفة نهبت الأخرى..."، وجرى مثل ذلك في مدن أُخرى كالري وساوة.

وروى الإِمَام السبكي(٢): أن مسعود بن علي وزير خوارزم شاه، أمير خوارزم كانَ متعصّباً للشّافعيّة، وقد بنى في مدينة (مرو) جامعاً، فتعصّب عليه أهل المدينة وهم أحناف، فأحرقوا الجامع، وقامت فتنةٌ هائلةٌ، كادت الجماجم فيها تطيرُ عن الغَلاصم.

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي: (١/ ٢٠٩)

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي: ٩٩١- (ج٧/ ص٢٩٦)

ب - فتن الجند:

كانَ الجيش في أغلبه يتألف من الأتراك والديلم، وكثيرا ما شغبوا عَلى الخَليفَة لتأخر أعطياتهم، وكثيرا ما أدى شغبهم إلى خلع الخَليفَة طمعا برسم البيعة ممن يخلفه، وقد يرتد شغبهم عَلى النّاس، فتندلع فتنة يكثر ضحاياها.

ففي عام ٤٢١هـ برم النّاس من اعتداء الجند الأتراك، وعجزت الدّولة عن ردعهم لضعفها وهوانها، فاجتمع الهاشميون والعلويون ومعهم الفقهاء، فاستنفروا النّاس لصد الأتراك، فعمد الأتراك إلى رفع الصليب عَلى رمح!! يتحدون بذلك الدّولة، وترامى الفريقان بالنشاب والآجر، وقتل طائفة من النّاس.

وفي عام ٤٢٩هـ تظلم النّاس من اعتداء الديلم واقتحامهم الدَّور وتعرضهم للنساء، فلم يستمع السُّلطَان البويهي لتظلمهم، فالتحموا مع الديلم في قتال مرير، واهتبل العيارون انشغال النّاس في القِتَال، فداهموا البيوت والمخازن، واقتحم اللصوص بغداد فأخذوا ما وجدوا من الخيول.

ج - فتن العيارين والشطار(السراق والحرامية والصعاليك):

كانَ للعيارين والشطار نصيب كبير في الفتن، فقد تألف منهم فرق منظّمة، كانت تخضع لزعيم يدعى (مقدم العيارين) وهو الّذي يزودها بالسّلاح ويتولى تدريبها وتوجيهها، وكان ينتظم في هذه الفرق أوزاع من النّاس وأخلاط من الفقراء، فيهم السني والشيعيّ، وفيهم الهاشمي والعلوي وفيهم الأعرابي والكردي والعجمي، كانت فرقهم تنتهز انشغال النّاس في الفتن الّتي تثار، فيغيرون عَلى منازل الأغنياء، وكثيرا ما تغلبوا عَلى الشّرطة وهزموها، وقد بلغ من قوتهم أن فرضوا الخطبة لزعيمهم في صلاة الجمعة في إحدى المرات!

ففي عام ٤٢٤هـ اجتمع في الرصافة ببغداد فريق منهم وألزموا الخطيب أن يخطب للبرجمي (زعيم العيارين) مع خطبته للخليفة والسلطان! وكانوا يفرضون الأتاوات عَلى أصحاب الأعمال، وربما تولوا حفظ الأمن! وتلقب زعماؤهم بلقب القواد، وكانت أفعالهم فيها ظاهرة الثّورة عَلى فساد

الحكم، وقد التزم (البرجمي) ومن بعده (الطقطقي) بمعاني الثَّورة، وطريقة الصعاليك، في مقاومة حكم تسوده الفوضى ويطغى عليه نهب الأموال، واختل فيه ميزان العدل وسرت فيه الرشاوي.

وكان سلوك هَؤُلَاءِ الحرامية مطبوعا بالمروءة! فلم يكن يسمح لأحد من أعوانهم الاعتداء عَلى امرأة أو أخذ شيء منها، ولا التعرض لأوساط النّاس وفقرائهم.

على أن جماعات اتخذوا اسم العيارين كانوا أقرب إلى اللصوص والسراق، وفيهم فجار وقوادون، فكانوا يمارسون عدوانهم عَلى النّاس فلا ينكرها عليهم أحد، لأن قائدا من قواد الديلم يدعى أبا جعفر بن شيرزاد، ضمن لهم ما كانوا يمارسونه بمبلغ خمسة وعشرين ألفا دينار يدفعونها إليه في كلّ شهر!

ثامنا – الثورات:

نشبت الثورات في العصر العبّاسي الثّاني بين عامي ٢٥٥ و٣٦٦هـ ما يزيد عَلى خمسين ثورة، منها ما كانَ ثورة عَلى الحكم، ومنها ما كانَ انتقاضا عَلى الحاكمين، من خليفة وسلطان.

وكان أهمّ الثورات خطرا في أسبابها ونتائجها ثورتان هما: ثورة عرفت باسم ثورة الزنج وثورة القرامطة.

أ – ثورة الزنج:

سبق للزنج أن ثاروا سنة ٧١هـ ثمّ ثاروا سنة ٧٦هـ لما فشا فيهم من الأفكار الشاذة، والزعماء الأدعياء، ونتيجة لما كانَ ينالهم من ظلم ملاك الأراضي الّذين جلبوهم من شرق إفريقيا لاستصلاح أراضيهم، وقد قمع الحجاج أمير العراق الثورتين.

ثمّ قامت لهم ثورة عارمة في عهد الخَليفَة المعتز بالله، قادها رجل فارسي دعا نفسه محمّد بن علي وزعم أنه علوي النسب وتروي الروايات، أنه قدم من الأهواز سنة ٢٥٥هـ ونزل في منطقة تقع في جنوب العراق حيث كانَ يقوم باستصلاحها الزنوج الإفريقيون، وكانوا يلاقون ظلما مريرا من أصحاب الأراضي، فاندس فيهم ذلك الرجل وادعى أنه من آل البيت، ودعاهم لاتباعه ليحررهم من

الرق، وينجيهم من عذاب أسيادهم، وأخذ يظهر لهم، بما أوتي من ذكاء وسعة حيلة، أعمالا فيها كثير من الشعوذة وينبئهم بأخبار يزعم أنها من الغيب.

وقد أقام دعوته عَلى دعوة الخوارج وهي المساواة بين المُسلِمِين، وقد استجاب له الأعراب الّذين كانوا يسكنون في بوادي البصرة، ويعملون لشظف العيش بشن الغارات عَلى القرى واعتراض قوافل الحجاج، ينهبون ويسلبون، وقد أغراهم بما يطمع فيه الفقراء الّذين ضمر في قلوبهم الشعور بالإيمان وتراخت عقيدتهم، فأباح لهم شيوعية الأموال والنِّسَاء، وهي عَقِيْدَة مزدك الفارسي، فاجتمعوا عليه مؤمنين بدعوته.

وقد عرف القائم بتلك الدّعوة، الناظم لتلك الجموع الغفيرة بصاحب الزنج، لأن العدد الغالب من أتباعه كانَ منهم، ولأنهم أول من استجاب لدعوته، فاستولى عَلى البحرين والأحساء، ثمّ توجه صعدا إلى البصرة، وفي شوال سنة ٢٥٧هـ أغار عَلى تلك المدينة وهي غافلة، فداهمها بجموعه وأمعن أتباعه فيها نهبا وسلبا وقتلا وتحريقا، فلم يسلم من أهلها إلا من هرب وهام عَلى وجهه يلتمس النجاة.

وأوى من ظل في المدينة إلى المَسجِد الجامع ظنا منهم أنهم يأمنون فيه عَلى أرواحهم، لكن الثائرين ما لبثوا أن داهموا المَسجِد وقتلوا من أوى إليه، ثمّ اقتحموا البيوت وقتلوا الأطفال وسبوا النِّسَاء، وفيهم كثير من شرائف النِّسَاء، فتقاسمهم الآسرون، ومن دخلت في سهمه استخدمها وفجر بها ثمّ باعها.

ثمّ أحرقوا البصرة فأضحت معالمها أطلالا، وبعد خراب البصرة توجه **صاحب الزنج** بأتباعه إلى الأهواز وهزم الحملات الّتي كانَ يرسلها الخَليفَة **المعتمد عَلى الله** لقتاله.

وبعد ذلك قصد (واسط) وهم بالتوجه إلى بغداد لولا أن الخَليفَة جمع له جيشا كثيفا قاده أخوه الموفق بالله، فتغلب عَلى **صاحب الزنج** بعد قتال مرير وتمكن من قتله والقضاء عَلى الفتنة الّتي أثارها والّتي دامت خمس عشرة سنة (٢٥٥ - ٢٧٠هـ).

ب - ثورة القرامطة:

لم تكد تنتهي ثورة الزنج حتَّى نشبت ثورة أُخرى كانت امتدادا لها ومنادية بشعارها وهو مقاومة الظُّلم، معلنة مبدأ المساواة بين النّاس لتتستر وراءه عن حقيقة الزندقة الّتي تحتويها، وقد عرفت بثورة القرامطة، وتنسب هذه التسمية إلى رجل فارسي عرف بلقب (قرمط)، وقيل أن اسمه (حمدان الأشعث)، وقد كانَ أحد دعاة الإِمَام الإسماعيلي (المنتظر) الّذين بثهم في الأقطار عبدالله بن ميمون القداح.

فلما تمَّ القضاء عَلى ثورة الزنج سنة ٢٧٠هـ اجتمع حوله فلولها وبدأ بما بدأ به **صاحب الزنج** من إظهار الزهد والتقشف والورع، فجذب إليه قلوب النّاس، وكان يخفي وراء هذا السُّلُوك هدفا سياسيّاً، وقد دعا إلى مذهب فيه مزيج من المزدكية الفارسية واليَهُوْدية والنّصرانية والإِسْلَام، جعل الصّلاة أربع ركعات، ركعتان قبل طلوع الشّمس وركعتان بعد غروبها، وجعل القبلة والحج إلى بيت المَقْدِس وجعل الصّوم يومين في السنة، وهما يوم المهرجان ويوم النيروز، وعدل في الأذان، وفرض جزية عَلى من خالفه وأباح قتله إن أمكن ذلك، وأخذ يفسر آيات القرآن بتأويل، بدعوى أن لآياته وأحكامه تأويلا باطنيا يفسر به ظاهرها، ومن ثمّ عرف مذهبهم بالباطنية.

وقد كثر أتباع قرمط وكثر، وقد أقام هَؤُلَاءِ دولة لهم في القطيف والبحرين واليمن وقادوا حُرُوبا في العراق أرادوا بها انتزاع الخِلَافَة، ونازعوا الفاطميين زعامة الدّعوة الشيعيّة، فهاجموا قواعدهم في الشّام وهموا بمهاجمة القاهرة وقد تمكن الفاطميّون من صدهم.

وفي سنة ٣١٧هـ أغاروا عَلى مكّة فقلعوا الحجر الأسود وقتلوا الحجاج، وحملوا الحجر الأسود إلى القطيف عاصمة ملكهم وأعادوه سنة ٢٣٩هـ لقاء السماح لهم بفرض ضريبة عَلى الحجاج.

ومن تتبع الأسباب الّتي انطلقت منها ثورة الزنج، ثمّ ثورة القرامطة والتأمل بنتائجها نجد أنها ترجع إلى سببين مفترقين ومتوازيين.

فالأول: هو استغلال دعاة الثَّورة جهل العامّة من أجل سلخهم من العَقِيْدَة الإِسْلَاميّة من دعاة يحملون حطام دياناتهم السَّابقة الّتي ما زالوا متأثرين بها.

والسبب الثّاني: هو استغلال الضجر والضيق من استبداد الولاة ومن إرهاق عمال الخراج، يضاف إلى بؤس الفقراء الّذين يعانون ألم الجوع والعطالة والحرمان، وكان هَؤُلَاءِ مع كلّ دعوة للتحرر من الظُّلم الّذي يحل بهم والضيق الّذي يكابدونه.

وقد اختار دعاة الثَّورة جنوب العراق والمناطق المجاورة له لبعدها عن بغداد وعجز الدّولة عن تتبع الثائرين.

تاسعاً – تقسيم الدّولة العبّاسيّة بين الخِلافَة المركزية والمتغلبين:

كانت الدّولة في أيّام بني أمية وحدة شاملة من شرقها الممتد من بلاد ما بين النهرين وحدود الصين والهند إلى مغربها في المغرب الأقصى والأندلس، وكان يحكم أقاليمها ولاة يوليهم خليفة دمشق وإليه يرجعون في أمورهم الهامة، ينفذون سياسته ويحكمون بسلطانه، ولما انتقلت الخِلافَة إلى بني العبّاس استقلت بعض الأقاليم بتفويض منهم واستقل البعض الآخر بالغلبة عليهم.

ففي عهد أبي جعفر المنصور استولى عبد الرَّحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك سنة ١٣٨هـ عَلى الأندلس واستقل بها وأنهى الحكم العبّاسي وأعاد الحكم إلى بني أمية.

وفي عهد المنصور أيضا أنشأ إدريس بن محمّد (النّفس الزكية)، وهو من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب دولة الأدارسة في المغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ.

وفي ١٤٠هـ قامت الدّولة المدارية في المغرب الأقصى وهم من الخوارج الصفرية.

وفي ١٦٢هـ قامت في تاهرت (الجَزَائِر) الدّولة الرستمية وهم من الخوارج الإباضية.

وفي عام ١٨٤هـ أنشأ **إبراهيم بن الأغلب** بتفويض من الخَليفَة **هارون الرَّشِيد** دولة الأغالبة في المغرب الأدنى (تونس).

وفي عام ٢٠٥هـ أنشأ **طاهر بن الحسين** بتفويض من **المأمون** دولة بني طاهر في خراسان مكافأة له لنصرته عَلى الأمين.

فهذه الأقاليم الأربعة انفصلت عن الدّولة العبّاسيّة، واستقلت عنها، وتداولت الحكم بطريق الإرث، غير أن انفصال بعضها كانَ يختلف عن انفصال البعض الآخر، ففي دولة بني أمية في الأندلس

وفي دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، انقطعت الصلة بدولة الخِلافَة العبّاسيّة، أما في دولة بني طاهر ودولة الأغالبة، فلم تنقطع الصلة بها، بل ظلت عَلى ولائها وتبعيتها.

وفي العصر العبّاسي الثّاني ازدادت الظَّاهِرة وانفصلت عن دولة الخِلافَة الأقاليم الآتية:

ففي سنة ٢٥٤هـ انفصلت مصر والشّام وقامت فيها الدّولة الطولونية، أَسَّسَها **أحمد بن طولون.**

وفي سنة ٢٥٤هـ قامت دولة بني الصفار في سجستان بزعامة الليث بن الصفار واستولت عَلى خراسان وقضت عَلى دولة بني طاهر.

وفي سنة ٢٦١هـ قامت دولة بني سامان في خراسان بزعامة نصر بن أحمد ابن أسد بن سامان وقضت عَلى الدّولة الصفارية.

وفي سنة ٣٣٢هـ قامت الدّولة الإخشيدية، وحكمت مصر والشّام وامتدت لليمن.

وفي سنة ٢٩٧هـ قامت في إفريقية دولة العبيديين بزعامة أبي عبيد الله المهدي وقضت عَلى دولة الأغالبة، ثمّ عَلى دولة بني الإخشيد وامتد حكمها إلى مصر والشّام والحجاز.

وفي سنة ٣٢٠هـ قامت دولة بني بويه في فارس وأصبهان وهمذان والري بزعامة أبناء بويه وهم: الحسن وعلي وأحمد وأبناؤهم من بعدهم.

وقامت في الموصل والجَزِيرَة وحلب دولة بني حمدان بزعامة أبناء حمدان بن حمدون التغلبي ٢٩٢هـ.

وفي سنة ٣٢١هـ قامت دولة الغزنويين فيما وراء النهر بزعامة سبكتكين، أمير غزنة ومن بعده ابنه محمود المعروف باسم **محمود الغزنوي** فقضى عَلى دولة بني سامان وامتدت دولته إلى الهند.

وفي عام ٣٢٨هـ لم يبق في يد الخَليفَة سوى بغداد وسواد العراق، وقد جرّد منهما حين استولى **معزّ الدّولة البويهيّ** على بغداد سنة ٣٣٤هـ فلم يبق من الخِلافَة غير لقبها.

وفي عام ٤٢١هـ قامت دولة التّرك (الغزّ) السّلاجقة.

القادمين من بلاد تركستان، فأزالت دولة الغزنويّين والبويهيّين والدّويلات الأخرى، بزعامة **طغرلبك** السّلجوقي.

ولما مات **طغرلبك** خلفه ابن أخيه **ألب أرسلان** فقامت في عهده وحدة الدّولة الإِسْلَاميّة الممتدَّة من بلاد ما بين النَّهرين إلى بلاد الشّام، غيرَ أنَّ الخلاف ما لبث أن ثار بينه وبين أولاد عمِّه، وقامت سنة ٤٧٠هـ دولة عرفت بدولة سلاجقة الرُّوم (يقصد بها سكنهم في بلاد الرُّوم)

وقد أحدث الانشقاق بين السَّلاجقة أحقادًا، فواجهوا الغزو الصّليبيّ متفرِّقين، ولو أنَّهم واجهوه متَّحدين، لتحوَّلت مسيرةُ الأحداث وجهة أُخرى ولسَلِمَت بلادُ الإِسْلَام من غزوٍ ما زَالت تَتَجرَّع مرارَتَه.

عاشرًا: انتشارُ الترفِ والانحلالُ والفسادُ الاجتماعيّ في كثيرٍ من العامّة والخاصَّة:

فقد أدى فساد القصور، وما تلطخت به من الصِّرَاعات والمفاسد، إلى تفشي ذلك في أوساط مختلف طبقات العامّة، ولاسيما الموسرة منها، نتيجة ازدهار التجارة، وانفتاح الدُّنيَا عَلى النّاس، ونلاحظ هذا في كثير من كتابات الوعاظ والعُلَماء في تلك الفترة، والّذين لم يألوا جهدا في الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر للحكام والمحكومين، ولكن عجلة الإنهيار كانت دائرة بقوة، ومقتضى السنن في الممالك والدّول كانت تسير بدولة العبّاسيين إلى أجلها المحتوم.



الطور الثّالث من الخِلافَة العبّاسيّة:

ويمتد من خلافة المستظهر، حيث بدأت القوى الخارجيّة تتربص بدولة الإِسْلَام وتعد العدة للانقضاض عليها، وينتهي بانتهاء دولة بني العبّاس تحت سنابك خيل المغول، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود] ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب]

السمات المميزة للعصر العبّاسي الثّالث:

هذا العصر هو امتداد للعصر العبّاسي الثّاني وقد تميز هذا العصر بكل سمات العصر الّذي تقدمه من الانحلال وأسباب الضّعف وفساد الحكم، وضياع العوام وترف الخواص، وزاد عليها ما لقي العالم الإِسْلَاميّ من غزو مغولي أتاه من المشرق وغزو صليبي أتاه من الغرب، وكان من قبل مستشريا في الأندلس، وما أصاب الإِسْلَام من محن ما زال يئن تحت وطأتها إلى الآن.

****

أهمّ الدّول المستقلة منذُ قيام العصر العبّاسي وإلى قيام الدّولة العُثمَانِيّة:

(أ) – في المشرق والعراق والشّام ومصر:

١- الدّولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٨هـ/ ٨٦٨-٩١١م):

أسَّسَها يعقوب بن ليث الصفار في سجستان (إيران) وتوسع عَلى حساب الدّولة الطّاهرية في خراسان الّتي أسَّسَها طاهر بن الحسين سنة (١٩٨هـ/ ٨١٣ م)، والدّولة العلويّة في طبرستان الّتي أسَّسَها الحسن بن زيد سنة (٢٥٠هـ/ ٨٦٣م)، ولعجز دولة الخِلافَة العبّاسيّة، اعترفت بشرعيّة حكم الصّفار، الّذي أسّس جيشا قويّا قمع به الخوارج وسيطر عَلى طرق التّجارة بين الهند ووسط آسيا، ثمّ فكّر بغزو بغداد، فاستنجد الخَليفَة بأحمد بن اسماعيل أمير الدّولة السّامانيّة، فهزم الصّفّاريين وقضى عَلى دولتهم سنة (٢٩٨هـ/ ٩١١م).

٢- الدّولة الطّولونيّة (٢٥٦- ٢٩٢ هـ/ ٨٧٠-٩٠٥ م):

أسَّسَها أحمد بن طولون في مصر وهو قائد تركيّ استفاد من ضعف الدّولة العبّاسيّة الّتي كانت تُرسل من ينوب عنها في حكم الولايات البَعيدة عن مركز دولةِ الخِلافَة، وقد جاء أحمد بن طولون مصر نائباً عن (باكباك التركيّ) ثمّ قلّده الخَليفَة ولاية مصر، فاستقلّ بها، ووسّع دولته، ولما كلّفه الخَليفَة بحماية الثُّغُور الشّاميّة، ضمّ الشّام إلى مصر، ثمّ مدّ دولته إلى ليبيا، والحجاز، وبلاد النوبة جنوب مصر، وقد عم الرخاء عصره، وكان عادلاً حازماً وكوّن جيشاً قويّاً، ثمّ تولّى بعده ابنه (خمارَوَيْه) فحفظ أملاك أبيه، وضمّ إليها الموصل، وتوطّدت العلاقة بينه وبين الخَليفَة، فزوّجَ ابنتَه (قطر النّدى) للخليفة المُعتضد ثمّ ضعفت الدّولة، وأعاد الخَليفَة العبّاسيّ ضمّ تلك البلاد للخلافة المركزيّة سنة (٢٩٢هـ).

الدولة الطولونية



٣-الدّولة السّامانيّة (٢٦١-٣٨٩هـ/ ٨٧٤-٩٩٨م):

وتنسب لأسرة فارسيّة اعتنقت الإِسْلَام في العصر الأمويّ، وأسَّسَها نصر بن أحمد السّاماني في بلاد ما وراء النّهر، وتوسّعت في عهد اسماعيل بن أحمد وضمّت طبرستان وبلاد الريّ، وقد تصدت الدّولة السّامانيّة للخطر الصينيّ عَلى آسيا الوُسطى، واستفادوا من طرق التّجارة، وازدهر في عهدهم العمران، وكان معظمهم عَلى مذهب السُّنّة، وقد ازدهرت حاضرات الإِسْلَام، في عهدهم، وحفلت بالحركة العلميّة والشّعراء والأُدباء، وأصبحت بُخَارى وسمرقند ومدن تركستان من ألمعِ حاضرات الإِسْلَام.

٤- الدّولة الحمدانيّة (٢٩٢-٣٩٢هـ/ ٩٠٤-١٠٠٢م):

وهم من أسرة عربيَّة اعتنقت المذهب الشيعيّ الإمامي الإثناعشري، وقد تأسست في الموصل سنة ٢٩٢هـ، في عهد الخَليفَة المكتفي بالله، وساندته في مُوَاجَهة الخوارج والقادة الأتراك، واشتهرت بجِهَاد الرُّوم البيزنطيين، وقد قضى البويهيون الشّيعة عليهم سنة ٣٦٨هـ، وبقي نفوذهم في حلب، وامتد ملكهم إلى دمشق، واصطدموا بالإخشيديين، وبعد وفاة سيف الدّولة سنة ٣٥٦هـ ضعفت

حالهم وقضى الفاطميّون الشّيعة عليهم سنة ٣٩٢هـ، وقد اشتهر بلاط سيف الدّولة بالأدباء والشعراء، من أمثال المتنبّي الّذين ذاع صيتهم، وشاعرهم أبو فراس الحمداني، والأصفهاني (الزنديق) صاحب كتاب الأغاني الشّهير المليء بالأكاذيب والطّرائف.

٥ - الدّولة الفاطميّة (٢٩٨- ٥٦٧هـ/ ٩٠٩-١١٧١م):

قامت الدّولة الفاطميّة في إفريقية سنة ٢٩٨هـ بزعامة عبيدالله المهدي مدّعياً أنّه صاحب الحقِّ في الخِلافَة وأنّه حفيد محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق وقد مهّد لقيامها داعية إسماعيليّ يدعى أبو عبدالله الشّيعيّ وحشد لنصرتها قبيلة (كتامة)، وعرفت بـ (الدّولة العبيديّة).

ولما رسخت قواعدها قضت عَلى دولة الأغالبة في القيروان ثمّ قضت عَلى دولة الإخشيد في مصر، وبنت فيها مدينة القاهرة ثمّ انتقلت إليها في عهد المعز لدين الله ودُعِيَت بالدّولة الفاطميّة، ولم يستطع الخَليفَة العبّاسي المقتدر بالله أن يدفع قيامها.

ثمّ حدثت بها أحداث سياسيّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة تراخت فيها قوتها وانتهت إلى الزَّوال، وقد بدأ هذا التّراخي في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي الّذي بلغ من الكفر والظُّلم شأواً عظيماً، **وازداد الضّعف والتّراخي في عهد المُستنصر بالله الفاطميّ، فقد ولد من جارية تربّت في بيت يهوديّ يُدعى أبا سعيد التّستريّ وتولّت أمّه تدبير أمور الدّولة واستوزرت وزراء يهود، منهم صدقة بن يوسف الفلاحيّ وأبو سعيد التّستريّ، وقد أسند هَؤُلَاءِ مناصب الدّولة إلى أبناء جِلدَتِهم من اليَهُوْد، فاضطهدوا المُسلِمِين.**

اتساع الدولة الفاطمية

٢٩٧ - ٥٦٤ هـ . ٩١٠ - ١١٦٨م



قامت الدولة الفاطميـــــة في بلاد المغرب سنة ٢٩٧ هـ ثم انتقل الفاطميون إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ حتى شملت سوريا و بلاد الحجاز ووصلت لأقصى اتساع لها .

وفي عهد المُستنصر بالله انحسر سلطان الفاطميّين عن بلاد الشّام باستيلاء السّلاجقة عليها وزالت دولتهم في جَزِيرَة صقّلية باستيلاء النّورمان عليها سنة ٤٦١هـ، وعم الوباء الّذي يعتبر أطول وباء عرفته مصر في العصور الوسطى، إذِ امتدّ ثماني سنين (٤٤٦ – ٤٥٤هـ) واقترنت هذه الشّدة الّتي اصطلح المؤرخون تسميتها بسنين الشّدة العظمى بقيام الحُرُوب الأهليّة الداخليَّة، حتَّى تدارك الأمر وزيرهم بدر الجمالي، والي عكّا وقد استدعاه المُستنصِر سنة ٤٦٦هـ فأعاد النّظامَ وَوَجَّهَ همَّه إلى إصلاح البلاد، وتزوَّج المُستنصر ابنته ووَلَدَت له ابنه (المُستَعلي).

ولما تُوفي المستنصر سنة ٤٨٧هـ بعد حكم دام ستين سنة ادّعى الخِلافَة ابنُه (نزار) وكان أبوه قد عهد بها إليه، ولكن الأفضل بن بدر الجماليّ، الّذي خلف أباه في قيادة الجيش، قدم عليه أخاه (المُستعلي) وهو ابن أخته، وتمّ ذلك بقتل (نزار)، وبقتله افترقت الإسماعيليّة إلى فِرقَتين: فِرقَة المُستعلية، وفرقة النزاريّة.

وفي عهد المستعلي بدأت الحُرُوب الصّليبيّة عَلى بلاد الشّام واحتل الصّليبيّون بيت المَقْدِس سنة ٤٩٣هـ، وقد أعقب المستعلي خُلَفَاء منهم المخلوع ومنهم المقتول إلى أن انقضى عهد الدّولة الفاطميّة – غير مأسوف عليها – سنة ٥٦٧هـ عَلى يد صلاح الدّين الأيوبي وقيام الدّولة الأيوبية.

وكان الفاطميّون من الباطنيّة الشّيعة الغلاة، وقد حكم علماء أهل السّنّة الأثبات ممن عاصروهم بكُفرِهِم وخروجِهِم عن الإِسْلَام، وقد طبعت الدّولة الفاطميّة بالظُّلم والعنت فوق الكفر، وراسل كبار وزرائهم الصّليبيّين والرُّوم مرارًا واستدعوهم لغزو مصر ووعدوهم العون ضدّ جيش الشّام الّذي حمل في ذلك الزّمان مهمّة جِهَاد الصّليبيّين عَلى عاتقه.

٦ – الدّولة الإخشيدية (٣٢٣– ٣٥٨هـ/ ٩٣٥–٩٦٩ م):

وتنسب إلى محمّد بن طغج الإخشيد وهو تركي، وكان في خدمة والي مصر، وأبلى في صد غارات الفاطميين عن مصر، فأسند إليه الخَليفَة ولاية مصر، ثمّ ضمّ إليها الشّام واليمن، فنظم البلاد وقوي مركزه، ثمّ فسدت علاقته بالخِلافَة وقامت الحَرب بينهم، وبعد موت الإخشيد خلفه ابنه أبو القاسم أنجور وكان طفلا، فتولى الوصاية عليه معلمه كافور الإخشيدي وكان عبدا أسودا يخدمهم، فاستولى عَلى البلاد، وبعد موت كافور سيطر الفاطميّون عَلى مصر بقيادة جوهر الصقلي وضمها للفاطميين.

٧– الدّولة البويهية (٣٣٤–٤٤٧ هـ/ ٩٤٥–١٠٥٥م):

البويهيون أسرة فارسية شيعيّة سكنت شمال فارس عند قزوين، وتمكن علي والحسن وأحمد أولاد أبي شجاع، مستغلين الفوضى في فارس فقضت عَلى الكيانات السّياسيّة، وقد حاول الخَليفَة المستكفي بالله أن يتخلص من سلطة القادة الأتراك، فاستعان بالبويهيين فدخلوا بغداد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، فرحب الخَليفَة بهم وأعطاهم ألقاب سامية، فسمي أحمد (معز الدّولة) وحسن (عماد الدّولة) وعلي (ركن الدّولة)، ولكونهم من الشّيعة انتزعوا السّلطة من الخُلَفَاء، واتخذوا لقب (السُّلطَان) وأحيوا لقب الملك الفارسي (شاهنشاه)، استمال البويهيون الرعية بتخفيف الضرائب، وقاموا بإصلاحات، ثمّ

دب الصِّرَاع بينهم، وأسقطهم السلاجقة الأتراك سنة٤٤٧هـ، وقد شجع البويهيون الحركة العلمية ولاسيما الفلاسفة، والزنادقة من أمثال الفارابي وابن سينا وأمثالهم.

٨- الدّولة الغزنوية (٣٦٦-٥٥٥هـ/ ٩٧٦-١١٦٠م):

قامت هذه الدّولة بزعامة القائد التركي (ألب تكين) وكان مولاه **منصور بن نوح الساماني** ملك خراسان قد ولاه سنة ٣٥١هـ أميرا عَلى سجستان (أفغانستان)، فاستقل بها وأقام فيها دولة اتخذ من مدينة (غزنة) عاصمة لها فعرفت بالدّولة الغزنوية،

وقد تعاقب عليها واحد وعشرون ملكا كانَ أشهرهم محمود بن سبكتكين المعروف بمحمود الغزنوي، الملك الصّالح المعروف، الّذي فتح الهند، وحطم أصنام الوثنيين وأدخل الإِسْلَام إليها، واتسعت دولته وشملت بلاد أفغانستان وما وراء النهر وشرق إيران وبلاد السند (باكستان) وأجزاء شاسعة من الهند.

ثمّ انقضى عهدها باستيلاء الدّولة الغورية عليها سنة ٥٨٢هـ في عهد آخر ملوكها تاج الدّولة خسرو ملك.

٩- دولة السلاجقة (٤٣١-٥٩٠هـ/ ١٠٤٠-١١٩٤م):

تنتسب هذه الدّولة إلى سلجوق بن دقاق، وهو زعيم دولة تركية كبيرة كانت تقطن فيما وراء النهرين (سيحون وجيحون) في منطقة واسعة تعرف بتركستان، أي بلاد الترك، وفي عام ٤٢٩هـ آلت زعامة هذه القبيلة إلى (طغرلبك) حفيد (سلجوق) فاجتاز بقبيلته منطقة ما بين النهرين متوجها نحو المشرق وانتهز انشغال الغزنويين بحُرُوب أنهكتهم، فاستولى عَلى خراسان والري وهمذان وأزال الحكم الغزنوي عنها وأقام فيها دولة لقومه عرفت بدولة السلاجقة.

وفي عام ٤٣٢هـ استولى عَلى جرجان وطبرستان وامتدت دولته إلى قزوين، وفي عام ٤٤٦هـ استنصره الخَليفَة العبّاسي **القائم بأمر الله** ودعاه إلى بغداد لينقذه من وزيره أرسلان البساسيري، وكان قد استولى عَلى السّلطة واستبد بها وملك أمر العراق وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر،

فاستجاب **طغرلبك** لدعوته وزحف إلى بغداد وقضى عَلى البساسيري وأنهى الحكم البويهي فيها، ثمّ استولى عَلى الموصل وأذربيجان وسنجار وتمت له السّيطرة عَلى البلاد الإيرانية من شاطئ نهر سيحون إلى ساحل البحر الأسود ومن شواطئ بحيرة خوارزم إلى بحر عمان.

وفي عام ٤٥٥هـ توفي **طغرلبك** وآلت خلافته إلى ابن أخيه **ألب أرسلان** فتابع مسيرة عمه ووجه عام ٤٦٣هـ جيشا بقيادة قائده (أتسز) إلى بلاد الشّام فاستولى عَلى دمشق **وتوجه سنة ٤٦٤هـ عَلى رأس جيش لفتح الأناضول فاستولى عَلى أرمينية بعد معركة ضارية مشهورة مع الرُّوم جرت في (ملاذ كرت) وفيها هزم جيش الرُّوم وأسر ملكه (رومانوس الرَّابع)، الّذي كانَ قد رفض الصُّلح مع السُّلطَان ألب أرسلان، وكانت تلك المَعْرَكة واحدة من مشاهد الإِسْلَام العظيمة مع الرُّوم، ولم يكن في جيش السُّلطَان الّذي طلب من جنوده أن لا يخرج معه من ارتبط بالدنيا بحاجة ينتظر قضاءها، إلا خمسة عشر ألف مقاتل وقد ذكرت الروايات أن الرُّوم ناهزوا مأتي ألف مقاتل، وقد نصح شيخ السُّلطَان له أن يوقت المَعْرَكة وقت صلاة الجمعة حيث تكون المنابر داعية للمُجَاهدين، وفي أول المَعْرَكة ألقى السُّلطَان خوذته عَلى الأرض وتذلل إلى الله، وصاح بالجند قائلا: (ما هاهنا ملك يأمر فيطاع، من شاء الانصراف فلينصرف)، وأمر الجند أن يخلصوا في طلب النّصر أو الشَّهَادة، ثمّ كبر وهجم، فحملوا كرأس الحَربة عَلى خيمة الإمبراطور رومانوس، الّذي سقط أسيرا بيد السُّلطَان وانهزم جيشه الّذي هلك جله في طريق الفرار والعودة إلى القُسطَنْطينيَّة.**

وفي عام ٤٦٥هـ أقدم باطني إسماعيلي عَلى اغتيال (ألب أرسلان) فخلفه ابنه (**ملك شاه**) وفي عهده أخذت الدّولة السلجوقية في التقلص بعد انقسامها إلى دولة موزعة بين أبناء البيت السلجوقي، فدولة في خراسان ودولة في الشّام ودولة في بلاد الرُّوم.



أما دولة السلاجقة في خراسان فقد آلت إلى سنجر بن ألب أرسلان وانتهت بوفاته سنة ٥٥٢هـ باستيلاء دولة خوارزم عليها.

وأما دولة السلاجقة في العراق فقد آلت إلى **محمّد بن ملكشاه** ومن بعده إلى ابنه محمود وتوارثها من بعده أبناؤه ثمّ زالت باستيلاء دولة خوارزم عليها سنة ٥٧٣هـ في عهد آخر ملوكها ركن الدّين طغرل (الثّاني).

وأما دولة السلاجقة في الشّام فقد آلت إلى (تتش) بن ملكشاه وانقسمت بعد مقتله سنة ٤٨٨هـ بين ولديه: دقاق ورضوان، فاختص دقاق بدمشق واختص رضوان بحلب، وانقضت دولة حلب بعد وفاة آخر ملوكها سلطان شاه بن رضوان باستيلاء **نجم الدّين إيلغازي** صاحب ماردين عليها سنة ٥١١هـ بدعوة من أهلها، ثمّ بقيام **عماد الدّين زنكي** صاحب الموصل بالاستيلاء عليها سنة ٥٢١هـ، وبعد اغتياله سنة ٥٤١هـ قيام ابنه نور الدّين محمود خلفا له فيها.

وانقضت دولة دمشق وصاحبها دقاق بن تتش سنة ٤٩٧هـ باستيلاء أتابكه (نائبه) القائد **طغتكين** على السّلطة، وبوفاته سنة ٥٢٢هـ قيام ابنه تاج الدّولة بوري خلفا له، وقد نسبت الدّولة إليه فعرفت بالدّولة البورية وامتدت أيّامها حتَّى استولى عليها نور الدّين محمود بن **عماد الدّين زنكي** سنة ٥٤٩هـ وضمها إلى حلب وجعلها عاصمة الدّولة الأتابكية في بلاد الشّام.

وأما دولة السلاجقة في بلاد الرُّوم فقد قامت بزعامة سليمان بن قتلمش، من أحفاد سلجوق ومن أبناء عمومة **ألب أرسلان** فقد تزعم سليمان عِصَابات تركية في أعقاب وقعة (ملاذ كرت) وأخذ يطارد فلول جيش الرُّوم ويستولي عَلى الأقاليم الّتي يجتاحها حتَّى إذا اقترب من سواحل بحر مرمرة سنة ٤٧٠هـ استقر في مدينة (نيقية) - أزنيك الحالية - وأقام فيها دولة سلجوقية.

وفي عام ٤٧٧هـ حاول سليمان الاستيلاء عَلى بلاد الشّام واستخلاصها من (تتش) بن ملكشاه في معركة جرت بينهما فلم يتمكن من الفرار وقتل فيها فخلفه ابنه داود وتلقب بلقب (قليج أرسلان).

ولما قدمت الحملة الصّليبيّة الأولى واقتحمت القُسطَنْطينيَّة سنة ٤٩٠هـ ثمّ اجتازتها إلى آسية، اضطر قليج أرسلان إلى التخلي عن (نيقية) وانسحب مع قومه إلى الجنوب الشرقي من الأناضول واتخذ من مدينة (قونية) عاصمة لملكه.

وفي عام ٥٠٠هـ توفى قليج أرسلان فتوزعت أقاليم دولته بين أبنائه وإخوته واستحالت إلى مجموعة دويلات اتصلت بينها الحُرُوب، إلى أن قامت الدّولة العُثْمَانِيّة عَلى أنقاضها سنة ٦٩٩هـ - وهم من سلالاتهم - فانطوت تحت جناحها.

١٠ - الدّولة الغورية (٤٣٩-٦١٢هـ/ ١٠٤٨-١٢١٥ م):

تأسست هذه الدّولة في بلاد الغور سنة ٤٣٩هـ بزعامة عز الدّين حسين ابن حسن بن محمّد وأخذت تزاحم الدّولة الغزنوية حتَّى قضت عليها سنة ٥٨٢هـ وضمتها إليها، وقد امتدت فتوحاتها إلى بلاد الهند ومنها انبثقت دولة المماليك الأتراك وكان **قطب الدّين أيبك** أول ملوكهم في الهند.

وفي عام ٦١٢هـ خضعت الدّولة الغورية للسيادة الخوارزمية وزالت معها بالغزو المغولي سنة ٦٢٨هـ.

١١- الدّولة الخوارزمية (٤٧٠- ٦٢٨هـ/ ١٠٤٨- ١٢٥٨م):

قامت هذه الدّولة في بلاد خوارزم جنوب بحيرة (أورال) ومصب نهر (جيحون)، بزعامة القائد التركي (أنوشتكين)، وكان السُّلطَان السلجوقي قد ولاه عليها سنة ٤٧٠هـ،

وقد اتسعت في عهد ملكها سلطان شاه محمود بن إيل أرسلان باستيلائها عَلى خراسان وإزالة الحكم السلجوقي عنها بعد وفاة السُّلطَان سنجر بن ملكشاه سنة ٥٥٢هـ ثمّ باستيلائها عَلى الدّولة الغورية سنة ٦١٢هـ.

وفي عام ٦٢٨هـ استولى عليها المغول وأزالوا دولتها في عهد آخر ملوكها جلال الدّين منكبرتي.

١٢- الدّولة الأرتقية (٤٩٩- ٥٢١ هـ/ ١٠٧٧- ١١٢١ م):

تنتسب هذه الدّولة إلى زعيم عشيرة من التركمان يدعى (أرتق بن أكسب)، وكان قد التحق عام ٤٤٩هـ بخدمة السُّلطَان السلجوقي **تتش بن ألب أرسلان** صاحب بلاد الشّام فأقطعه القُدس وما حولها، ولما توفي (أرتق) خلفه ولداه: معين الدّين سقمان، ونجم الدّين إيلغازي.

وفي سنة ٤٩١هـ استرد الفاطميّون القُدس فأخرجوهما منها، فتوجها بقومهما من التركمان إلى الجَزِيرَة الفراتية فتملك معين الدّين سقمان ديار بكر (آمد) وتملك **نجم الدّين إيلغازي** (ماردين) وأقام كلّ منهما فيما تملك دولة أرتقية.

وفي عام ٥١١هـ حاصر الصّليبيّون مدينة حلب فاستنجد أهلها بنجم الدّين إيلغازي فأنجدهم وقاتل الصّليبيّين في معركة جرت في (سهل بلاط) سنة ٥١٣هـ وأسر زعيمهم (روجيه ده سالرنو) أمير أنطاكية وتملك حلب وأقام فيها دولة أرتقية تعاقب أبناؤه عليها إلى أن استولى عليها **عماد الدّين زنكي** عام ٥٢١هـ وأقام فيها دولة أتابكية.

١٣ - الدّولة الأتابكية (٥١٦ - ٥٧٩هـ/ ١١٢٢ - ١١٧١م):

تنتسب هذه الدّولة إلى **عماد الدّين زنكي** بن آقسنقر وكان (أتابك) - أي نائب - السُّلطَان السلجوقي **محمود بن محمّد بن ملكشاه** سلطان العراق، وفي عام ٥١٦هـ ولاه السُّلطَان عَلى الموصل فأقام فيها دولة عرفت بالدّولة الأتابكية.

وفي عام ٥٢١هـ استولى عماد الدّين عَلى حلب وأزال الدّولة الأرتقية، وقد اشتهر عماد الدّين رَحِمَهُ اللهُ بجِهَاد الصّليبيّين، وإسقاطه أولى الإمارات الصّليبيّة في سواحل الشّام

وفي عام ٥٤١هـ اغتال الحشاشون الباطنية (أجداد النصيرية العلوية الحاكمين لسوريا ولبنان في زماننا هٰذا) - اغتالوا الأمير المُجَاهد **عماد الدّين زنكي** رَحِمَهُ اللهُ فانقسمت الدّولة الأتابكية إلى دولتين: دولة في الموصل ودولة في حلب.

أما دولة الموصل فخلفه فيها ابنه سيف الدّين غازي الأوّل وتعاقب عليها من بعده أبناؤه حتَّى انقضى عهدها باستيلاء المغول عليها سنة ٦٦٠هـ.

وأما دولة حلب فخلفه فيها ابنه الملك الصّالح المُجَاهد نور الدّين محمود وحمل بعده لواء جِهَاد الصّليبيّين، وفي عام ٥٤٩هـ استولى نور الدّين عَلى دمشق وضمت إليه بلاد الشّام.

ولما توفي نور الدّين سنة ٥٦٩هـ خلفه فيها ابنه الصّالح إسماعيل وكان طفلا صغيرا، وفي عام ٥٧٩هـ تولى صلاح الدّين الأيوبي ضمها إلى الدّولة الأيوبية الّتي أقامها في مصر فأضحت معها دولة واحدة، بشورى علماء الشّام ومصر، ليوحد البلاد في مُوَاجَهة الصّليبيّين.

١٣ - الدّولة الأيوبية (٥٦٧ - ٦٤٨هـ/ ١١٧١ - ١٢٥٠ م):

وقد أسس هذه الدّولة الميمونة الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف بن نجم الدّين أيوب، وكان قد توجه إلى مصر كقائد من قواد خاله (أسد الدّين شيركوه) قائد الجيش الّذي أرسله الملك الصّالح نور الدّين زنكي سلطان الشّام المُجَاهد لصد حملة الصّليبيّين عَلى مصر.

وقد استعان الخَليفَة الفاطمي **العاضد بأسد الدّين وأسند إليه الوزارة، ليتقوى به عَلى أمراء الفاطميين المتنافسين وكبيرهم (شاور)، ولما توفي (أسد الدّين في مصر وهو يعد العدة لصد الحملة الصّليبيّة، عين الخَليفَة الفاطمي صلاح الدّين مكان خاله، وبعد انتصار صلاح الدّين وجيش الشّام ومصر عَلى الصّليبيّين بقليل، توفي الخَليفَة الفاطمي** سنة ٥٦٧هـ بعد قتل وزيره شاور بن مجير السعدي الّذي كانَ يكاتب الصّليبيّين، واستولى صلاح الدّين عَلى حكم مصر، وقطع الخطبة للفاطميين وجعلها للخليفة العبّاسي ببغداد، وألغى المذهب الفاطمي العبيدي الإسماعيلي القائم عَلى الزندقة، وأعاد المذهب الشّافعي السني لمصر، ثمّ تصدى لعدد من المحاولات الصّليبيّة مع فلول الفاطميين ودعم الأسطول الرُّوماني وانتصر عليهم، واستتب له الأمر في مصر، وبعد وفاة نور الدّين محمود، حضر صلاح الدّين إلى الشّام وعقد له علماء الشّام ومصر البيعة سلطانا عل بر مصر والشّام، ثمّ توسعت مملكته وضم إليها الحجاز واليمن وبعض أنحاء الجَزِيرَة، وقد سجل صلاح الدّين رحمه الله انتصارات مشهودة عَلى الصّليبيّين أدت لاسترجاع بيت المَقْدِس سنة ٥٨٣هـ، محققا حلم الملك الصّالح نور الدّين زنكي رحمه الله، وقد تقسمت أقاليم الدّولة، بعد وفاته، بين أبنائه وإخوته وتحولت تلك الدّولة الكبرى بعد وفاته سنة ٥٨٩هـ إلى دويلات ثارت فيها الحُرُوب، وقد استقرت أحوالها لبعض الوقت في زمن الملك العادل أخو صلاح الدّين، ثمّ آلت الشّام للملك الصّالح إسماعيل الّذي ناصر الصّليبيّين عَلى عمة نجم الدّين أيوب الّذي استقل بملك مصر، ثمّ توفي نجم الدّين وهو يصد الحملة الصّليبيّة السّابعة، فتابعها قائده معز الدّين إيبك، الّذي تزوج زوجته (شجرة الدر)، وآلت إليه السلطنة لتنتهي الدّولة الأيوبية وتقوم في مصر دولة المماليك، وقد تتابع سقوط الدويلات الأيوبية الأخرى في بلاد الشّام في عهد الملك المملوكي الظَّاهِر بيبرس البندقداري وضمت إلى دولة المماليك.

١٥- دولة المماليك (٦٤٨ - ٩٢٢هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧ م):

تنتسب هذه الدّولة إلى الملوك الأتراك الّذين كانوا من مماليك السُّلطَان نجم الدّين أيوب ابن الملك الكامل الأيوبي وكان الملك الكامل قد بنى لهم في جَزِيرَة الروضة بنهر النيل - وكان يعرف ببحر

النيل – قلعة فعرفوا بالمماليك البحرية وأولهم الملك المعز عز الدّين إيبك، وقد انتقل إليه الملك عن طريق شجرة الدر زوجة الملك الصّالح نجم الدّين وكانت تولت الملك بعد وفاته ثمّ تزوجت من عز الدّين إيبك وتنازلت له عن الملك فانتقل الملك عن طريقها إلى المماليك.

وقد اتسعت دولة المماليك في عهد الملك الظَّاهِر بيبرس البندقداري فقضى عَلى الدويلات الأيوبية في بلاد الشّام وضمها إلى دولة المماليك في مصر.

و حمل المماليك لواء الجِهَاد ضدّ الصّليبيّين بعد الأيُّوبيين، فقد أزال السُّلطَان بيبرس معظم تلك الإمارات، ليزول آخرها (إمارة عكا ١٢٩١هـ) في عهد السُّلطَان خليل بن قلاوون.

ودامت دولة المماليك حتَّى استولى العُثمَانِيّون عَلى مصر والشّام سنة ٩٢٢هـ بعد هزيمة المماليك في معركة مرج دابق.

دولة المماليك في أقصى إتساعها



ملوك دولة المماليك:

١- المماليك البحرية:

م	الملك	نهايته	مدته
١-	عز الدّين إيبك	قتل	١٢٥٠ - ١٢٥٧ م
٢-	نور الدّين علي بن عز الدّين	خلع	١٢٥٧ - ١٢٥٨ م
٣-	المظفر سيف الدّين قطز	قتل	١٢٥٨ - ١٢٦٠ م
٤-	الظّاهِر ركن الدّين بيبرس البندقداري		١٢٦٠ - ١٢٧٧ م
٥-	الملك السّعيد أبو المعالي محمّد	خلع	١٢٧٧ - ١٢٧٩ م
٦-	الملك العادل سيف الدّين بن الظّاهِر	خلع	١٢٧٩ - ١٢٧٩ م

٢- المماليك البرجية:

م	الملك	نهايته	مدته
٧-	قلاوون الألفي المنصور سيف الدّين		١٢٧٩ -١٢٩٠ م
٨-	صلاح الدّين خليل الأشرف بن قلاوون		١٢٩٠- ١٢٩٣ م
٩-	الملك النّاصر محمّد بن قلاوون	خلع	١٢٩٣ - ١٢٩٤ م
١٠-	الملك العادل كتبغا	خلع	١٢٩٤ - ١٢٩٦ م
١١-	المنصور حسام الدّين لاجين	خلع	١٢٩٦- ١٢٩٨ م
١٢-	النّاصر محمّد بن قلاوون ثانية	خلع ثانية	١٢٩٨ - ١٣٠٨ م
١٣-	المظفر ركن الدّين بيبرس	خلع	١٣٠٨- ١٣٠٨ م
١٤-	النّاصر محمّد بن قلاوون ثالثة		١٣٠٨- ١٣٤١ م
١٥-	المنصور أبو بكر بن قلاوون	قتل	١٣٤١ - ١٣٤٢ م
١٦-	الأشرف علاء الدّين كجك	خلع	١٣٤٢- ١٣٤٢ م
١٧-	النّاصر شهاب الدّين احمد الملك الصّالح	خلع	١٣٤٢ - ١٣٤٢ م

١٨-	الملك الصّالح علاء الدّين ابو الفداء اسماعيل		١٣٤٢ - ١٣٤٥ م
١٩-	الملك الكامل شعبان	خلع ثمّ قتل	١٣٤٥ - ١٣٤٦ م
٢٠-	المظفر حاجي	قتل	١٣٤٦- ١٣٤٧ م
٢١-	الملك النّاصر أبو المحاسن حسن	خلع	١٣٤٧ - ١٣٥١ م
٢٢-	الملك صلاح الدّين صالح	خلع وسجن حتّى مات	١٣٥١ - ١٣٥٤م
٢٣-	الملك النّاصر أبو المحاسن حسن	ثانية	١٣٥٤- ١٣٦١ م
٢٤-	الملك صلاح الدّين محمّد بن المظفر حاجي	خلع	١٣٦١- ١٣٦٣ م
٢٥-	الملك الأشرف أبو المعالي زين الدّين شعبان	قتل	١٣٦٣ - ١٣٧٧ م
٢٦-	الملك المنصور علاء الدّين علي بن الأشرف		١٣٧٧- ١٣٨١ م
٢٧-	الملك الصّالح أمير حاج بن الأشرف	خلع	١٣٨١ - ١٣٨٢ م

وهو آخر سلاطين المماليك الأتراك.

٣ - المماليك الشراكسة:

م	الملك	نهايته	مدته
٢٨-	برقوق الظَّاهِر سيف الدّين	خلع	١٣٨٢ -١٣٨٩ م
٢٩-	الملك الصّالح أمير حاج	تولى وخُلِعَ ثانية وسجن حتّى مات	١٣٨٩- ١٣٨٩ م
٣٠-	الملك الظَّاهِر برقوق	ثانية	١٣٨٩- ١٣٩٩ م
٣١-	الملك النّاصر زين الدّين أبو السعادات	اختفى ثمّ ظهر	١٣٩٩ - ١٤٠٥ م
٣٢-	الملك المنصور عز الدّين أبو العز عبد العزيز	خُلِعَ وسجن	١٤٠٥ - ١٤٠٥ م
٣٣-	النّاصر زين الدّين أبو السعادات	ثانية قتل	١٤٠٥ - ١٤١٢ م
٣٤-	الخَليفَة المستعين بالله جمع بين الخِلافَة والسلطنة		١٤١٢- ١٤١٢ م
٣٥-	الأمير شيخ المؤيد أبو النّصر		١٤١٢ -١٤٢١ م
٣٦-	الملك المظفر أبو السعادات احمد	خُلِعَ	١٤٢١- ١٤٢١ م
٣٧-	الظَّاهِر سيف الدّين أبو سعيد ططر		١٤٢١ - ١٤٢١ م
٣٨-	محمّد بن ططر الملك الصّالح ناصر الدّين	خُلِعَ وسجن	١٤٢١- ١٤٢٢ م

٣٩-	الأمير برسباي الدقماقي الملك الأشرف أبو النّصر		١٤٢٢ - ١٤٣٨ م
٤٠-	الملك العزيز أبو المحاسن جمال الدّين	خُلِعَ	١٤٣٨- ١٤٣٨ م
٤١-	الملك الظَّاهِر أبو سعيد جقمق	استقال	١٤٣٨- ١٤٥٢ م
٤٢-	الملك المنصور أبو السعادات فخر الدّين عثمان	خُلِعَ	١٤٥٢ - ١٤٥٣ م
٤٣-	اينال العلائي الملك الأشرف أبو النّصر سيف الدّين		١٤٥٣-١٤٦١ م
٤٤-	الملك المؤيد احمد أبو الفتح شهاب الدّين	خُلِعَ	١٤٦١-١٤٦١ م
٤٥-	خوشقدم الملك الظَّاهِر أبو سعيد سيف الدّين		١٤٦١-١٤٦٧ م
٤٦-	بلباي الملك الظَّاهِر أبو النّصر سيف الدّين	خُلِعَ	١٤٦٧ - ١٤٦٧ م
٤٧-	تمر بغا الملك الظَّاهِر أبو سعيد	خُلِعَ	١٤٦٧- ١٤٩٦ م
٤٨-	الملك النّاصر أبو السعادات ناصر الدّين	خُلِعَ	١٤٩٦- ١٤٩٨ م
٤٩-	قانصوه الملك الظَّاهِر أبو سعيد		١٤٩٨ - ١٥٠٠ م
٥٠-	الأمير جان بلاط الملك الأشرف أبو النّصر	خُلِعَ وسجن وخنق	١٥٠٠- ١٥٠١ م
٥١-	طومان باي الملك العادل		١٥٠١ - ١٥٠٢ م
٥٢-	قنصوه الغوري الملك الأشرف	قتل في الحرب مع العُثمانيّين	١٥٠٢- ١٥١٦ م
٥٣-	طومان باي الثّاني	شنقه العُثمانيّون	١٥١٦- ١٥١٧ م

١٦- الخِلافَة العبّاسيّة (الرمزيّة) في مصر (٦٥٦-٩٢٢ هـ/ ١٢٥٨- ١٥١٧م):

ادعى الخِلافَة بعد مقتل الخَليفَة المستعصم سنة ٦٥٦هـ اثنان من بني العبّاس، أحدهما يدعى أبا العبّاس أحمد بن علي (وجده الأعلى **المسترشد** بالله بن المستظهر بالله)، والآخر يدعى أبا القاسم أحمد بن الظَّاهِر بأمر الله وهو أخو المستنصر بالله ويلتقي مع الأوّل بالخليفة المستظهر بالله.

وقد توجه الأوّل إلى حلب وأثبت فيها نسبه بشهادة جماعة من عرب خفاجة فبايعه أمير حلب حسام الدّين بن أبي الفوارس وبايعه معه جماعة من العُلَماء وفيهم الشَّيْخ عبد الحليم بن تَيمِيّة.

وتوجه الآخر إلى القاهرة وأثبت نسبه بشهادة جماعة من عرب مهارش فبايعه **الملك الظَّاهِر بيبرس** وبايعه معه جماعة من الأعيان والعُلَماء وتلقب بالمستنصر بالله عام ٦٥٩هـ، وقد طلب من الملك

الظَّاهِر أن يجهزه بقوة ليقاتل المغول فزوده بقوة قليلة هزمها المغول وفيها قتل الخَليفَة المستنصر، وقدم أبو العبّاس أحمد إلى القاهرة فبويع فيها خلفا للمستنصر وتلقب بالحاكم بأمر الله.

واستمرت خلافة بني العبّاس في مصر حتَّى استولى العُثمَانِيّون عليها سنة ٩٢٢هـ بقيادة **السُّلطَان سليم الأوّل** وقد تنازل الخَليفَة العبّاسي عن الخِلافَة للسلطان العُثمَانِيّ فنقلها إلى القُسطَنْطينيَّة وظلت قائمة في أعقابه إلى أن زالت بزوال الدّولة العُثمَانِيّة سنة: ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م.

حدود الدول المتصارعة : الدولة الصفوية + المماليك + العثمانية

٨٧٠ - ٩٠٠ هـ . ١٤٦٥ - ١٤٩٤م



دار الصراع بين الدول الثلاث الصفوية والمملوكية والعثمانية
وهزم الصفويون في معركة جالديران ⚔.

(ب) – الدّول الّتي استقلت في جَزِيرَة العَرَب زمن العبّاسيين:

١٧– الدّولة الإباضية في عمان (١٧٦هـ/ ٧٩٢م):

الإباضية هم من الخوارج المعتدلين القريبين من مذهب السنة، يعود مذهبهم لعبدالله بن إباض التميمي وقد حاربهم الأمويون والعبّاسيون وطردوهم من الشّام والحجاز واليمن وإفريقيا، ولكن أقلية منهم بقوا في عمان إلى أيّامنا هذه.

وقد تأسست الدّولة الإباضية في عمان سنة ١٧٦هـ، أَسَّسَها الجلندي بن مسعود الإباضي، وقد كانَ من أبرز دعاتهم غسان بن عبدالله الحميدي، والصلت بن مالك، وقد عملوا في التجارة وازدهرت دولتهم بذلك.

١٨- دولة القرامطة - البحرين - (٢٩٦- ٣٩٨هـ/ ٩٠٩- ١٠٠٨م):

وقد مر نبذة عنها لما ذكرنا الثورات، وقد ابتدأت عَلى يد داعية فاطمي متخفي هو (الحسين الأهوازي) الّذي حمل الدّعوة الإسماعيلية إلى جنوب العراق والبحرين، ولما مات خلفه، رجل فارسي عرف بلقب (قرمط)، قيل أن اسمه (حمدان الأشعث) وقد كانَ أحد دعاة الإِمَام الإسماعيلي (المنتظر) الّذين بثهم في الأقطار عبدالله بن ميمون القداح، منظم الدّعوة الإسماعيلية.

وقد دعا إلى مذهب فيه مزيج من المزدكية الفارسية واليَهُوْدية والنّصرانية والإِسْلَام،

وقد أقام هَؤُلَاءِ دولة سنة ٢٩٦ هـ في القطيف والبحرين واليمن وقادوا حُرُوبا في العراق أرادوا بها انتزاع الخِلافَة، ونازعوا الفاطميين زعامة الدّعوة، فهاجموا قواعدهم في الشّام وهموا بمهاجمة القاهرة وقد تمكن الفاطميّون من صدهم.

وفي سنة ٣١٧هـ أغاروا عَلى مكّة فقلعوا الحجر الأسود وقتلوا الحجاج، وحملوا الحجر الأسود إلى القطيف عاصمة ملكهم وأعادوه سنة ٢٣٩هـ لقاء السماح لهم بفرض ضريبة عَلى الحجاج.

وبقيت هذه الدّولة قائمة إلى أن زالت سنة ٣٩٨ هـ.

١٩- دولة بني نجاح في (زبيد - اليمن) (٤٢١-٥٥٤ هـ/ ١٠٣٠ ١١٦٠ م):

أسس هذه الدّولة عبد حبشي تمكن من التحرر، وأقام دولة في زبيد، ولكن أفراد الأسرة تصارعوا، مما مكن والي تهامة (علي بن محمّد) القضاء عليهم سنة ٥٥٤هـ.

٢٠ – الدّولة الصليحية (صنعاء – اليمن) (٤٥٠– ٦٤٧هـ/ ١٠٥٨ – م):

دانت هذه الدّولة بالمذهب الإسماعيلي، وقد أَسَّسَها محمّد الصليحي الّذي تلقى الدّعوة عَلى يد الدعاة الإسماعيلية في اليمن، وكانت عاصمتهم صنعاء وارتبطت بصلات ودية مع الفاطميين في مصر، حيث أسبل عليهم الألقاب السامية مثل (أمير الأمراء) و(المكرم)، وقد مدوا نفوذهم للحجاز ثمّ سقطت الدّولة عَلى يد توران شاه آخر سلاطين الأيوبيين، ومن أبرز شخصياتهم السيدة الحرة (أروى بنت أحمد) الّتي قامت بدور هام بنشر المذهب الإسماعيلي في الهند وعمان، وبقي من آثارها مسجد في صنعاء.

٢١– دولة بني رسول (اليمن) (٦٢٦– ٨٢٦ هـ/ ١٢٢٩ -١٤٢٣ م):

أَسَّسَها علي بن رسول وهو من نسل الغساسنة (ملوك الشّام قبل الفتح)، وقد عينه الأيوبيون واليا عَلى مكّة سنة ٦٥٢هـ ثمّ أسندوا إليه حكم اليمن، فمد نفوذه من حضرموت إلى مكّة، وبقيت دولته في سلالته قرابة قرنين وكانوا تجارا، أثروا من التجارة البحرية ولاسيما مع الهند، وتقدمت في عهده الصناعة والزراعة، وقد كانوا عَلى المذهب الشّافعي، وشجعوا العُلَماء وجمعوا المكتبات.

(ج)– الدّول الّتي استقلت في إفريقية:

٢٢– الدّولة المدارية (١٤٠– ٢٩٧هـ/ ٧٥٧-٩٠٩ م):

قامت هذه الدّولة في المغرب الأقصى، وقد أَسَّسَها (عبد) يدعى عيسى بن يزيد الأسود، وكان أحد الخوارج الصفرية، ولكن قبيلة (مكناسة) البربرية ثارت عليه وواستولت عَلى الإمارة الّتي رئسها أبو القاسم (سمكو بن واسول) وكانت عاصمة الدّولة مدينة (سلجماسة) في واحة في الصَّحرَاء، وقد اهتموا بالتجارة مع إفريقيا السوداء جنوب الصَّحرَاء الكبرى، وحازوا ثروة كبيرة، ثمّ تنازع أفراد الأسرة، إلى أن دهمهم جيش أبي عبدالله الشيعيّ داعية الفاطميين، وأسقط دولتهم سنة (٢٩٧هـ).

٢٣- الدّولة الرّستميّة (١٦٢- ٢٩٦هـ/ ٧٧٩- ٩٠٨ م):

أَسَّسَها عبد الرَّحْمٰن بن رستم وهم من الخوارج الإباضية المعادين للدولة العبّاسيّة، وقد تأسست في تاهرت (الجَزَائِر)، وتميز حكمه بالعدل في الرعية، واشتهر بالتجارة مع إفريقيا السوداء وجلبوا الذهب والرقيق، مما أعطى (تاهرت) مركزا حضاريا وعمرانيا، ثمّ تصارعت داخل دولتهم العناصر العربيَّة والبربرية والفارسية عَلى الملك، ونشأت بينهم صراعات مذهبية بين الإباضية والصفرية والمعتزلة والشّيعة والسنة، ثمّ سقطت بيد أبي عبدالله الشيعيّ الفاطمي سنة ٢٩٦هـ.

٢٤ - دولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ/ ٧٨٨-٩٨٥ م):

في عهد الخَليفَة أبي جعفر المنصور، قام ضدّ العبّاسيين في المدينة محمّد (النّفس الزكية)، وأرسل المنصور إليه جيشا، واشتبك معه في معركة انتهت بقتل محمّد سنة ١٤٥هـ.

وفي عام ١٦٩هـ ثار عَلى المنصور علوي آخر هو الحسين بن علي بن الحسن ابن الحسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ومعه عماه إدريس ويحيى ابني عبدالله، فأرسل المنصور جيشا لقتاله، وجرت بين الفريقين معركة في موقع قرب المدينة يعرف بـ (فخ)، وفيها قتل الحسين وتمكن عمه إدريس بن محمّد (النّفس الزكية) من الهرب، وتوجه إدريس إلى المغرب الأقصى ونزل عَلى قبيلة من البربر تدعى (أوربة) فعرفها بنفسه، فبايعته ودخلت في طاعته قبائل أُخرى، وخُلِعَ إدريس طاعة بني العبّاس وأنشأ مدينة (فاس) واتخذها عاصمة له وفيها أقام سنة ١٧٢هـ دولة علوية مستقلة عرفت بدولة الأدارسة.

ولما استقر إدريس في ملكه جند من قبائل البربر جيشا فغزا المغرب الأوسط وضمه إلى مملكته، واستمرت تلك الدّولة إلى أن قضت عليها الدّولة الفاطميّة سنة ٣٧٥هـ.

٢٥- الدّولة الأغلبية (١٨٤-٢٩٦ هـ/ ٨٠٠-٩٠٩ م):

خشي **هارون الرَّشِيد** أن تمتد أطماع الأدارسة فيستولوا عَلى المغرب الأدنى (تونس)، وكان يعرف باسم (إفريقية) فأراد أن يقيم حكما ثابتا يناط برجل يستقل به ليدفع عنه خطر الأدارسة، فوقع اختياره

عَلى إبراهيم ابن الأغلب، فولاه عَلى إفريقية سنة ١٨٤هـ، عَلى أن تكون ولايته وراثية في مقابل مبلغ من المال يدفعه إلى الخَليفَة، وكانت (القيروان) عاصمة للولاية، فبنى **إبراهيم بن الأغلب** مدينة دعاها (العبّاسيّة) اتخذها عاصمة لدولته الّتي عرفت بدولة الأغالبة.

وفي عهد حفيده زيادة الله الأوّل تمَّ الاستيلاء عَلى جَزِيرَة (صقلية) بقيادة الفقيه الكبير (أسد بن الفرات) وضمت إلى دولة الأغالبة، وقد امتد حكم الدّولة الأغلبية حتَّى قيام الدّولة الفاطميّة الّتي قضت عليها.

٢٦- دولة المرابطين (٤٥٣ – ٥٤١هـ/ ١٠٦٢-١١٤٧م):

تأسست هذه الدّولة في المغرب الأقصى سنة ٤٥٣هـ بزعامة يوسف بن **تاشفين اللمتوني** (نسبة إلى قبيلة لمتونة البربرية) وكان رجالها يشدون اللثام (النقاب) عَلى وجوههم فعرفوا بالملثمين.



وقد لبى الملك المُجَاهد **يوسف بن تاشفين** دعوة **المعتمد بن عباد** ملك أشبيلية، ليصد عنه عدوان ألفونسو السَّادس ملك قشتالة فاجتاز البحر إلى الأندلس سنة ٤٧٩هـ عَلى رأس جُيُوش من البربر وتمكن من هزم الملك الأسباني في وقعة شهيرة جرت في سهل (الزلاقة)، وخضعت بعدها دويلات طوائف الملوك لسلطان المرابطين.

وبعد وفاة **يوسف بن تاشفين** سنة (٥٠٠هـ) خلفه ملوك من أبنائه فيهم المنصرف إلى لهوه وفيهم الفتى الماجن وفيهم الحدث القاصر، ولم يخل الأمر من نزاع بينهم فأخذت الدّولة في الانهيار وطمع بها الموحدون فاستولوا عليها سنة ٥٤١هـ في عهد آخر ملوكها إسحاق بن علي بن تاشفين حفيد **يوسف بن تاشفين** .

٢٧- الموحدون (٥٤١- ٦٦٨هـ/ ١١٤٧- ١٢٧٠م):

تنتسب هذه الدّولة إلى محمّد بن تومرت، من قبيلة (زناتة البربرية) وموطنها في الجنوب الشرقي من المغرب الأقصى، وكان **ابن تومرت** قد دعا إلى مذهب التّوحيد فعرف أصحابه بالموحدين وتلقب بالمهدي، ولما توفي سنة ٥٢٤هـ خلفه في دعوته تلميذه المقرب إليه عبد المؤمن بن علي، فأخذ يغير عَلى المرابطين وتمكن في عام ٥٤١هـ من الاستيلاء عَلى مدينة مراكش وأزال دولة المرابطين في المغرب الأقصى وأقام دولة للموحدين.

وقد اشتدت قوة الموحدين في عهد ابنه أبي يعقوب يوسف الأوّل، ففي عام ٥٦٧هـ اجتاز البحر إلى الأندلس وأخضع بها من ظل مواليا للمرابطين كابن مردنيش وابن غانية.

ولما توفي سنة ٥٨٠هـ خلفه ابنه **أبو يوسف** يعقوب المنصور وفي عهده بلغت دولة الموحدين أوجها في العز والمنعة، فقد اجتاز البحر إلى الأندلس عدّة مرات صد فيها عدوان الأسبان وكان آخرها عام ٥٩١هـ في الوقعة الّتي هزم فيها ألفونسو الثَّامن هزيمة مُنكرة وعرفت بوقعة (الأراك) وأحيا فيها وقعة الزلاقة الّتي جرت من قبل عام ٤٧٩هـ.

ولما توفي **أبو يوسف** يعقوب المنصور سنة ٥٩٥هـ خلفه ابنه **النّاصر لدين الله** محمّد وفي عهده أخذت دولة الموحدين في الانهيار، فقد اشتبك مع الأسبان في معارك هزم فيها وكان أشدها وقعا تلك الّتي جرت سنة ٦٠٩هـ والَّتي عرفت بوقعة (العقاب) وتتابعت هزائم الموحدين بعدها في عهد أخلافه منها هزيمة وقعة (أبي دانس) سنة ٦١٤هـ.

ولم يطل عهد الموحدين بعد ذلك فقد استولى بنو مرين عَلى دولتهم سنة ٦٦٨هـ في عهد آخر ملوكهم إدريس الملقب بأبي دبوس.



٢٨- دولة بني مرين (٦٦٨- ٨٧٥هـ/ ١٢٧٠- ١٤٧٠ م):

تنتسب هذه الدّولة إلى مؤسسها **عبد الحقّ المريني** من قبيلة زناتة البربرية، المقيمة في منطقة (سلجماسة) بالمغرب الأقصى، ففي عام ٦١٠هـ تحول عبد الحقّ بقبيلته إلى بلاد الريف منتجعا وأخذ يغير عَلى مناطق الموحدين والتقى معهم سنة ٦١٢هـ في معركة هزمهم فيها وتوالت بعد ذلك هزائم

الموحدين حتَّى تمَّ لبني مرين إزالة دولتهم سنة ٦٦٨هـ وقد امتدت دولة بني مرين في المغرب الأقصى إلى سنة ٨٧٥هـ.

٢٩- دولة بني زيان من بني عبد الواد (٦٣٣-٩٦٢هـ/ ١٢٣٥ - ١٥٥٥ م):

تنتسب هذه الدّولة إلى مؤسسها أبي يحيى **يغمراسن بن زيان** العبدوادي، من بني زيان بتلمسان، ففي عام ٦٣٣هـ استقل يغمراسن بتلمسان واشتملت دولته عَلى إفريقية الوسطى (الجَزَائِر) وخضعت بضع سنين للسيادة المرينية وامتد عمرها حتَّى استولى عليها العُثَمانِيّون سنة ٩٦٢هـ.

٣٠- دولة الحفصيين (٦٢٥- ٩٤١هـ/ ١٢٢٧ - ١٥٣٤م):

تنتسب هذه الدّولة إلى أبي حفص عمر بن أبي زكريا يحيى الهنتاتي، وكان أبو زكريا من عمال دولة الموحدين بتونس ثمّ استقل عنها سنة ٦٢٥هـ، وقامت بين أخلافه خصومات انقسمت بسببها الدّولة سنة ٦٨١هـ إلى دولتين: دولة في تونس ودولة في (بجاية) بالمغرب الأوسط، وامتدت إلى أن استولى عليها العُثَمانِيّون سنة ٩٤١هـ.



(د) الدّولة الإِسْلَاميّة في الأندلس:

٣١- دولة الأمويين في الأندلس (٩٢- ٨٩٧هـ/ ٧١٣- ١٤٥٢م):

اجتاز المُسلِمُون البحر من المغرب الأقصى إلى الأندلس عام ٩٢هـ بقيادة **طارق بن زياد** وموسى بن نصير وخضعت مع ما فتح من بلاد شمال إفريقية إلى دولة بني أمية بدمشق.

١ - عبد الرَّحمٰن الداخل (١٣٨- ١٧٢هـ):

ولما انقضى عهد الأمويين بقتل مروان الثّاني آخر ملوكهم، تمكن عبد الرَّحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان أن يفلت من قبضتهم وأن ينجو من القتل، وتوجه متخفيا إلى المغرب لاجئا إلى قبيلة (نفزة) وفيها أخواله، فلما اطمأن إلى نفسه، أخذ يكاتب من ظل من أهل الأندلس عَلى ولائه لبني أمية، فجاءه تأييدهم لقدومه.

وفي شهر ذي الحجة من عام ١٣٨هـ اجتاز عبد الرَّحمٰن البحر، ومعه جمع من العَرَب والبربر، ونزل الأندلس، وانضم إليه من كانَ يرقب قدومه، وتوجه إلى قرطبة فدخلها بعد أن قضى عَلى أميرها يوسف بن عبد الرَّحمٰن الفهري، المعتمد من قبل الخَليفَة العبّاسي أبي جعفر المنصور، ومن ثمّ دعي عبد الرَّحمٰن بلقب (الداخل).

تمكن عبد الرَّحمٰن من القضاء عَلى الثورات الّتي أثارها المؤيدون لبني العبّاس، وفيهم الطامعون بالاستقلال بما في أيديهم من أقاليم ومدن، ومنهم من استنصر بشارلمان، ملك الفرنجة، فجاء بجُيُوشه سنة (١٦١هـ- ٧٧١م)، ولكنه لم يلبث أن عاد بعد أن فشل في حملته، ولم يصرف عبد الرَّحمٰن انشغاله بقمع تلك الثورات الّتي توالت طيلة حكمه عن الإدارة والعمران، فقد أنشأ جامع قرطبة الّذي أصبح جامعة اجتذبت إليها مشاهير علماء المشرق.

٢ - هشام بن عبد الرَّحمٰن الداخل (١٧٢- ١٨٠ هـ):

توفي عبد الرَّحمٰن سنة ١٧٢هـ فخلفه ابنه هشام الأوّل بعهد من أبيه، فثار عليه أخواه سليمان وعبدالله، ينازعانه الإمارة، وامتدت ثورتهما إلى عهد ابنه الحكم الأوّل، وقد تمكن هشام من صد

هجمات ملوك الفرنجة واستولى عَلى بعض قلاعهم وحصونهم، وأضاف إلى جامع قرطبة المئذنة، وجدد بناء القنطرة عَلى نهر قرطبة المعروف باسم (الوادي الكبير)، وكان **السمح بن مالك** أمير الأندلس قد بناها سنة ١٠٠هـ.

٣ – الحكم بن هشام (١٨٠ – ٢٠٦ هـ):

توفي هشام الأوّل سنة ١٨٠هـ وخلفه ابنه الحكم الأوّل بعهد من أبيه فقمع ثورة عميه سليمان وعبدالله بقتل الأوّل واستسلام الثّاني، وقضى عَلى ما نشب من فتن، وغزا بلاد الفرنجة وصد عدوانهم عَلى الثُّغُور.

٤ –عبد الرَّحمٰن (الثّاني) بن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨هـ):

توفي الحكم الأوّل سنة ٢٠٦هـ فخلفه ابنه عبد الرَّحمٰن الثّاني بعهد من أبيه، في عهده ثارت فتنة بين اليمينية والمضرية عَلى منطقة (تدمير)، فقمعها الحكم وأمر بهدم (تدمير) وأقام مكانها مرسى للسفن، فسميت (مرسية)، وأخمد عصيان أهل طليطلة وتابع غزو الممالك النّصرانية.

٥ – محمّد (الأوّل) بن عبد الرَّحمٰن (٢٣٨–٢٧٣ هـ):

توفي عبد الرَّحمٰن الثّاني سنة ٢٣٨هـ، فخلفه ابنه محمّد الأوّل بعهد من أبيه، في عهده ثار المولدون بزعامة عمر بن حفصون، وثار عليه أهل طليطلة وتحالفوا مع ملك (جليقة)، وأثار الراهب (ايلوخيو) فتنة انتهت بقتله، ونشبت بين محمّد وبين ملوك النّصَارى حُرُوب انتهت بغلبته عليهم والاستيلاء عَلى كثير من قلاعهم وحصونهم، في عهده هاجم (النورمان – الفايكونج) السواحل الأندلسية وتولى قائد البحرية الأندلسية (خشخاش بن سعيد) طردهم.

٦ – المنذر بن محمّد (٢٧٣–٢٧٥ هـ):

توفي محمّد الأوّل سنة ٢٧٣هـ وخلفه ابنه المنذر الأوّل، ولم يطل حكمه سوى سنتين.

٧ – عبدالله بن محمّد (٢٧٥– ٣٠٠هـ):

توفي المنذر سنة ٢٧٥هـ وخلفه أخوه عبدالله بن محمّد، ثار عليه أمراء أشبيلية وتتابعت في عهده ثورات المولدين وطال حكمه خمسا وعشرين سنة.

٨ – خليفة الأندلس عبد الرَّحْمٰن النّاصر (٣٠٠–٣٥٠):

توفي عبدالله بن محمّد فخلفه حفيده عبد الرَّحْمٰن (الثّالث)، وتلقب بلقب الخِلافَة، حين انهارت سلطة الخَليفَة في بغداد وهو أول من تلقب بلقب الخِلافَة في دولة الأمويين بالأندلس، وكان أسلافه يتلقبون بلقب (الإمارة)، امتد حكمه خمسون سنة أمضاها في قمع الثورات وفي حُرُوبه مع الفرنجة، وقد بلغت الدّولة الأموية في عهده منتهى رفعتها في القوّة والعلم والعمران، ففي القوّة كانَ لها السّيطرة الكاملة عَلى بلاد الثُّغُور المتاخمة لبلاد العدوّ، وفي العلم أصبحت قرطبة محجة العُلَماء، وكثر قصادها من أعلام المشرق، ونفست بهم عَلى بغداد، وفي العمران بني عبد الرَّحْمٰن مدينة الزهراء وصب فيها عبقرية العَرَب في الهندسة والبناء والزخرفة العجيبة، فجاءت أعجوبة الزّمان وآية من آيات الفن الرفيع، وقد أضاف إلى لقب الخِلافَة لقب (النّاصر لدين الله)، فكان يعرف به.

٩ – المستنصر بالله الحكم بن عبد الرَّحْمٰن النّاصر (٣٥٠– ٣٦٦هـ):

توفي **عبد الرَّحْمٰن النّاصر** سنة ٣٥٠هـ فخلفه ابنه الحكم (الثّاني) بعهد من أبيه وتلقب بلقب (المستنصر بالله)، وقد سار سيرة أبيه، فحارب ملوك (قشتالة) و(ليون) و(نافار) وقهرهم وصد هجماتهم، في عهده أغار (النورمان – الفايكونج) عَلى السواحل الأندلسية للمرة الثّانية فصدهم، ازدحم العُلَماء عَلى بابه، وغصت بهم مجالسه، وترجمت إلى العربيَّة كتب كانت تهدى إليه من أباطرة الرُّوم، وقد أنشأ مكتبة حوت أربعمائة ألف مجلد، ولم يكن من أهل الأندلس في عهده من لا يعرف القراءة والكتابة، بينما كانَ الجهل يسود أوروبّا، ولم يكن فيها من يعرف الكتابة والقراءة إلا القليل.

١٠ – هشام بن الحكم (٣٦٦هـ):

– توفي الحكم (الثّاني) المستنصر بالله سنة ٣٦٦هـ وخلفه ابنه هشام (الثّاني) بعهد من أبيه وتلقب بلقب (المؤيد بالله)، ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، وكان العهد إليه بإصرار أمه (صبح) البشكنسية عن زوجها الحكم وبتأييد حاجب القصر محمّد بن أبي عامر، وقد استطاع هذا الحاجب أن ينتزع السّلطة من الخَليفَة القاصر وأن يستقل بها وأن يقيم الدّولة العامرية بزعامته.

الدّولة العامرية:

١١ – **قضى ابن أبي عامر** عَلى نفوذ (صبح) أم الخَليفَة، كما قضى عَلى نفوذ الوزير عثمان المصحفي وحجب الخَليفَة عن النّاس، وألزمه الإقامة في القصر وأعد له ما يلهي طفلا في مثل سنة ويصرفه عن التّفكير في غير ما أريد له وفرض عليه، خاض ابن أبي عامر حُرُوبا بلغت – كما يقول المؤرخون – خمسين وقعة، كتب له النّصر في أكثرها، ومن أجل ذلك تلقب بالمنصور، ومات متأثرا بجراح أصابته في آخر حُرُوبه، وأمر أن يوسد في القبر عَلى لِبنَتَيْنِ صنعهما مما جمع عَلى وجهه من غبار جِهَاد النّصَارى.

ثمّ تحالف ملوك الفرنجة لقتال المُسلِمين بعد وفاة ابن أبي عامر وقيام دول الطوائف، وذلك بإثارة الضغائن بين ملوك تلك الدّول واستنجادهم بملوك وأمراء الفرنجة، الّذين كانوا يفرضون عَلى من أعانوه مبالغ كبيرة، كثيرا ما كانَ يعجز عن أدائها، وينتهي الأمر بالاستيلاء عَلى مملكته وطرده منها.

١٢ – **توفي ابن أبي عامر** (المنصور) بعد سبع وعشرين عاماً من تغلبه عَلى الحكم، فخلفه في الحجابة ابنه عبد الملك، وتلقب بلقب (المظفر بالله)، وسار في تدبير الملك سيرة أبيه، وظل الخَليفَة هشام محجوبا عن النّاس وقد بلغ من العمر سبعا وثلاثين عاماً.

١٣ – **توفي عبد الملك** سنة ٣٩٩هـ فخلفه في الحجابة أخوه عبد الرَّحمٰن الملقب بلقب (شنجول) فأخرج هشاما من معتقله وأكرهه أن يوليه الخِلافَة من بعده، فكتب له بذلك عهدا، ولما علم أهل قرطبة بالأمر ثاروا عَلى عبد الرَّحمٰن واجتمعوا عَلى أموي يدعى محمّد بن هشام من أحفاد **عبد الرَّحمٰن النّاصر** وبايعوه وتلقب بمحمّد المهدي وتمكن من قتل (شنجول) وبه انتهت دولة بني عامر.

عودة الخِلافَة إلى بني أمية (محمّد المهدي وسليمان المستعين):

١٤ - **حجز محمّد المهدي هشاما المؤيد** وادعى أنه مات وأعلن للنَّاس وفاته وأخرج لهم جثة شخص شبيه به وصلى عليها ودفنها باحتفال، ولم يلبث أن ثار عَلى محمّد المهدي ابن عم له يدعى سليمان بن الحكم ابن سليمان بن عبد الرَّحْمن النّاصر ونازعه الخِلافَة، والتف حوله البربر، وقد استعان كلّ منهما بملك من ملوك الفرنجة، وفي الحَرب تمت الغلبة لسليمان بن الحكم وقتل محمّد (المهدي) ودخل سليمان إلى قرطبة وكان ذلك سنة (٤٠٠ - ٤٠٢هـ) وأحضر هشاما (المؤيد) وكان حيا، فتنازل لسليمان عن الخِلافَة وبايعه وتلقب بلقب (المستعين بالله).

واختفى بعد ذلك المؤيد وقيل أن المستعين قتله، وقد أقطع المستعين زعماء البربر الّذين نصروه إقطاعات في جنوب الأندلس وشرقه، فأعلن بقية الولاة استقلالهم وانفصالهم عن قرطبة وبذلك انفرط عقد الدّولة الأموية، وقامت عَلى أنقاضها دويلات مستقلة لطوائف من العَرَب والبربر والصقالبة، يحكم كلّ طائفة منها حُكَّام سلكوا مسلك الملوك وعرفوا بملوك الطوائف وفقدت قرطبة مكانتها كعاصمة واستوت مع دول الطوائف، وتعاقب عليها حُكَّام من أصول عربيَّة منهم أدارسة من بني حمود ومنهم من بني جهور ومنهم بقايا من بني أمية.

قيام دولة بني حمود في قرطبة:

(علي بن حمود الإدريسي والقاسم بن حمود ويحيى بن علي بن حمود):

١٥ - ساءت سيرة المستعين بالله فثار أهل قرطبة عليه واستنجدوا بالأمير **علي بن حمود الإدريسي** الهاشمي، أمير (سبتة)، فاستجاب لهم وتوجه سنة ٤٠٧هـ مع جيش من البربر، فدخل قرطبة وقتل المستعين ولقب نفسه (المتوكل عَلى الله النّاصر لدين الله)، وكان شديدا عَلى مماليكه فاغتالوه سنة ٤٠٨هـ، فخلفه أخوه القاسم ابن حمود، وتلقب بلقب (المأمون).

وفي سنة ٤١٣هـ ثار عليه البربر وخلعوه وولوا ابن أخيه يحيى بن علي الإدريسي وتلقب بلقب (المعتلي بالله)، ولم يلبث أن خلعه البربر وأعادوا عمه **القاسم بن حمود** فبايعوه وتلقب بلقب (أمير المُؤمِنين) ثمّ إنهم خلعوا القاسم وأعادوا ابن أخيه يحيى للمرة الثّانية.

عودة الحكم إلى بني أمية:

(المستظهر، المستكفي، المعتد)

١٦ - خلع أهل قرطبة يحيى بن علي وبويع أموي يدعى عبد الرَّحْمٰن (الخامس) ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرَّحْمٰن النّاصر خليفة وتلقب بلقب (المستظهر بالله)، ولم يلبث سوى شهر ونصف من عام ٤١٣هـ حتَّى خُلِعَ وبويع أموي يدعى محمّد (الثّالث) ابن عبد الرَّحْمٰن بن عبيد الله بن عبد الرَّحْمٰن النّاصر وتلقب بلقب (المستكفي بالله)، وبعد أربع سَنَوات من ولايته خُلِعَ وبويع أموي آخر يدعى هشاما (الثّالث) ابن محمّد بن عبد الملك بن عبد الرَّحْمٰن النّاصر وتلقب بلقب (المعتد بالله) وقد ضاق أهل قرطبة بسوء تصرفه فخلعوه وأخرجوه من قرطبة سنة ٤٢٢هـ وبه انقرضت دولة بني أمية في الأندلس.

قيام دولة بني جهور في قرطبة:

بعد خلع **المعتد بالله** ولى أهل قرطبة عليهم الوزير أبا الحزم بن جهور، فقام بتدبير الأمور إلى أن مات سنة ٤٣٥هـ وخلفه ابنه أبو الوليد محمّد بن جهور، وما زال عَلى قرطبة حتَّى خلعه أهلها سنة ٤٦٢هـ فأعقبه ابنه عبد الملك، فأساء السيرة فأخرجوه عنها.

ضم قرطبة إلى أشبيلية:

بعد خلع عبد الملك بن جهور سنة ٤٦٨هـ زحف **المعتمد بن عباد** أمير أشبيلية عَلى قرطبة فملكها وزالت دولة بني جهور ومعها دولة قرطبة.

دولة المرابطين في الأندلس:

في عام ٤٧٧هـ استولى ألفونسو السَّادس ملك (ليون) عَلى طليطلة واستخلصها من بني ذي النون وعقد حلفا مع ملوك الأقاليم المسيحية للاستيلاء عَلى أشبيلية، فاستنجد أميرها **المعتمد بن عباد** بيوسف بن تاشفين، أمير دولة المرابطين في المغرب الأقصى، فأنجده وقدم إلى الأندلس عَلى رأس جيش من البربر وقاتل ألفونسو ومحالفيه في معركة شهيرة جرت في موقع يعرف بالزلاقة، بالقرب من

بطليوس وذلك في ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ وانتهت بنصر المرابطين وسحق الجيش الأسباني في موقعة مشهودة من أيّام الإِسْلَام.

وبعد هذه الموقعة أخذ المرابطون يستولون عَلى دول الطوائف واحدة بعد أُخرى وينفون ملوكها إلى المغرب الأقصى وأقاموا في الأندلس دولة للمرابطين عاصمتها قرطبة، وقد دامت دولتهم حتَّى قضى عليها الموحدون بزعامة عبدالله بن تومرت.

دولة الموحدين في الأندلس

اضمحلت دول المرابطين في الأندلس بعد وفاة **يوسف بن تاشفين** وقد أطمع اضمحلالها ملوك النّصَارى، فتحالفوا للقضاء عليها، فسارع الموحدون إلى صدهم ودخلت جُيُوشهم الأندلس سنة ٥٤٣هـ والتحموا مع الأسبان في معركة ضارية عرفت بمعركة (الأرك) وانتصروا عليهم نصرا مبينا.

وقد أخذ الأسبان بعدها يعدون العدة لمعركة أُخرى، جمعوا لها قواهم وحشدوا جُيُوشهم، والتقوا مع جيش الموحدين سنة ٦٠٩هـ في معركة عرفت بمعركة (العقاب) وكانت معركة فاصلة تمَّ فيها النّصر للأسبان.

نهاية دولة الموحدين في الأندلس:

بعد معركة العقاب بدأ مصير الأندلس يهتز، وأخذت قواعد الأندلس تسقط في يد الأسبان ولم تأت سنة ٦٤٤هـ حتَّى سقطت دولة قرطبة وبلنسية ودانية ومرسية في أيديهم، أما غرناطة فقد ثبتت خلف حصونها، ثمّ انهارت مقاومتها وسقطت بيد الأسبان سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢ م) وبسقوطها انتهى حكم المُسلِمِين في أسبانيا ودالت دولتهم بعد حكم دام ثمانمائة عام.

الأندلس

حدوده عند قيام الدولة الأموية سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م



مملكة ليون
مملكة الفرنجة
أرجون
نبرة
قطلونية

الأندلس خلال عصر الطوائف



الأندلس الإسلامي بعد سقوط طليطلة.
مملكة قشتالة وليون.
كونتية البرتغال.
مملكة نبرة.
إمارة أرجون.
كونتية قطلونية.
بلاد الفرنجة.

بلاد الأندلس أسبانيا الإسلامية



تاريخ سقوط أهمّ المدن الأندلسية:

١٣٠ هـ / ٧٤٨ م: بمبلونة	Pmpalone
٣٧٤ هـ / ٩٨٥ م: برشلونة	Barcelona
٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م: سانتياغو	Santiago
٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م: ليون	Leon
٤٤٦ هـ / ١٠٥٥ م: سلمنقة	Salamanca
٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م: قلمرية	Colambra
٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م: بربشتر	Barbastro
٤٧٦ هـ / ١٠٨٤ م: مجريط	Madrid
٤٧٧ هـ / ١٠٨٥ م: طليطلة	Toledo
٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م: وشقة	Huesca
٥٠٧ هـ / ١١١٤ م: تطيلة	Tudela
٥١٢ هـ / ١١١٩ م: سرقسطة	Zaragoza
٥٤٣ هـ / ١١٧٧ م: قونقة	Cuonca
٥٨٥ هـ / ١١٧٩ م: شلب	Silves
٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م: ماردة	Merida
٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م: بطليوس	Badajos
٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م: ميورقة (من جزر الباليار)	Mallorca
٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م: يابسة	Ibza
٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م: قرطبة	Cordoba
٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ م: طلبيرة	Tolavera
٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م: دانية	Denia
٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م: قرطاجنة	Cartagena
٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م: دانية	Denia
٦٤١ هـ / ١٤٤٣ م: مرسية	Murcia
٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م: جيان	Jaen
٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م: لشبونة	Lisbaana
٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م: شاطبة	Jativa
٦٤٦ / ١٢٤٨ م: إشبيلية	Sevilla
٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م: لاردة	Lerida
٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م: ولبة	Huelva

٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م: لبلة	Nibela
٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م: قادس	Cadis
٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م: منورقة (بقية جزر الباليار)	Menorca
٧٠٢ هـ / ١٣١٠ م: جبل طارق	Giraltar
٨١٨ هـ / ١٤١٥ م: سبتة	Ceuta
٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م: رندة	Ronda
٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م: مالقة	Malaga
٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م: وادي آش	Cudix
٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م: المرية	Almeria
٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م: غرناطة	Granada

****

أعمار الدّول الإسْلَاميّة

قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران]

وعن حذيفة ﵁: أن رسول الله ﷺ قَالَ: «تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ»(١).

وفي رواية للداني: من حديث أنس ﵁ قَالَ: «إِنَّهَا ثمّ .. ثمّ مُلكٌ عَضُوض ثُمّ جَبريّة ثمّ طَواغِيت»(٢).

وفي رواية عن شمر بن عطية عن أنس بن مالك قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ مُلُوكٌ ثُمَّ الْجَبَابِرَةُ ثُمَّ الطَّوَاغِيتُ»(٣).

---

(١) رواه أحمد (١٨٤٠٦) وقال الأرنؤوط: إسناده حسن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥).

(٢) السنن الواردة في الفتن للداني (٤١٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الشيبة في المصنف ورقمه (٣٠٥٦٥، ٣٧١٩٣) عن أَبُي أُسَامَةَ عَنْ زَائِدَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ شِمْرٍ عَنْ أَنَسٍ ﵁، والحديث موقوف على أنس، ورجاله ثقات.

الدّولة النّبويّة: .... ١ - ١١هـ .... (١١ عاماً).

دولة الخُلَفَاء الرّاشدين: .... ١١-٤١هـ .... (٣٠ عاماً).

دولة الخِلافَة الأموية: .... ٤٢ - ١٣٢هـ .... (٩٠عاما).

دولة الخِلافَة العبّاسيّة: .... ١٣٢ - ٦٥٦هـ.............. (٥٢٤ عاماً).

أعمار الدّول الإِسْلَاميّة المستقلة، بحسب تسلسل تاريخ قيامها:

١- دولة بني أمية في الأندلس مع دول الطوائف: .....١٣٨-٨٩٧هـ (٨٠٥ أعوام).

٢- الدّولة المدارية - المغرب الأقصى: ....١٤٠-٢٩٧ هـ . (١٥٧ عاما)

٣- الدّولة الرستمية - تاهرت/ الجَزَائِر: ....١٦٢ - ٢٩٦ هـ (١٤٣ عاما)

٤- دولة الأدارسة - المغرب الأقصى -: ....١٧٢ - ٣٧٥ هـ (٢٠٣ أعوام)

٥- الدّولة الإباضية - عُمان-: ....١٧٦-٧٩٢ هـ . (٦١٢ عاما)

٦- الدّولة الأغلبية - تونس-: ....١٨٤ - ٢٩٦ هـ (١١٢ عاما)

٧- الدّولة الصفارية - سجستان / إيران -: ....٢٥٤- ٢٩٨ هـ.... (عاما ٤٤)

٨- الدّولة الطولونية - مصر والشّام -: ....٢٥٦- ٢٩٨ هـ.... (عاما ٤٢)

٩- الدّولة السامانية- ما وراء النهر وطبرستان -: .....٢٦١- ٣٨٩هـ .... (عاما ١٢٨)

١٠- الدّولة الحمدانية - الموصل والشّام -: ....٢٩٢- ٣٩٢ هـ.... (١٠٠ عاما)

١١- الدّولة القرامطة - الخليج العربيّ -: ....٢٩٦- ٣٩٨هـ .... (١٠٢ أعوام)

١٢- الدّولة الفاطميّة- مصر والشّام -: ....٢٩٨ - ٥٦٧ هـ (٢٧٩ عاما)

١٣- الدّولة الإخشيدية - مصر -: ....٣٢٣ - ٣٥٨ هـ (٣٥ عاما)

١٤- دولة بني بويه - بلاد فارس -: ....٣٣٤- ٤٤٧ هـ (١١٣ عاماً)

١٥- الدّولة الغزنوية - أفغانستان والهند -: ....٣٦٦- ٥٥٥هـ (١٧٩ عاما)

١٦- دولة بني نجاح - زبيد / اليمن -: ....٤٢١- ٥٥٤هـ (١٣٢ عاما)

١٧- دولة السلاجقة – بلاد الري في المشرق-: ....٤٢٩ – ٥٨٣ هـ (١٥٤ عاماً).

- دولة السلاجقة في الشّام: ....٤٧٠ – ٥٠٨ هـ (٣٨ عاماً).

- دولة السلاجقة في الأناضول: ....٤٧٠ – ٧٠٧ هـ (٢٣٧ عاماً).

١٨- الغورية – أفغانستان والهند -: ....٤٣٩- ٦١٢ هـ (١٧٣ عاما)

١٩- الصليحية- صنعاء/ اليمن -: ....٤٥٠- ٦٤٧هـ (١٩٧ عاماً)

٢٠- دولة المرابطين – المغرب الأقصى -: ....٤٤٨ – ٥٤٠ هـ (٩٢ عاماً).

٢١- الدّولة الخوارزمية – ما وراء النهر/ خوارزم ....٤٧٠ – ٦١٧ هـ (١٤٧ عاماً).

٢٢- الدّولة الأرتقية (في آمد وماردين): ....٥٠٠ – ٨٠٩ هـ (٣٠٩ أعوام).

٢٣- الدّولة الأتابكية (في الموصل): ....٥١٦ – ٦٦٠ هـ (١٤٤ عاماً).

- الدّولة الأتابكية (في الشّام): ....٥٤١ – ٥٧٩ هـ (٣٨ عاماً).

٢٤- دولة الموحدين – المغرب الأقصى/ بفاس-: ...... ٥١٥ – ٦٦٨ هـ (١٥٣ عاماً).

٢٥- الدّولة الأيوبية في مصر: .... ٥٦٤ – ٦٤٨ هـ (٨٢ عاماً).

- الدّولة الأيوبية في الشّام: ....٥٧٩ – ٦٦١هـ (٨٢ عاماً).

٢٦- دولة بني حفص بتونس: ....٦٢٥ – ٩٧٧ هـ (٣٥٢ عاماً).

٢٧- دولة بني رسول في اليمن: ....٦٢٦–٨٢٦هـ (٢٠٠ أعوام)

٢٨- دولة بني زيّان بن عبد الواد بتلمسان: ....٦٣٣ – ٩٦٢ هـ (٣٢٩ عاماً).

٢٩- دولة المماليك – مصر -: .... ٦٤٨ – ٧٩٢ هـ (١٤٤ عاماً).

٣٠- الخِلافَة العبّاسيّة في مصر: .... ٦٥٩ – ٩٢٣ هـ (٢٦٤ عاماً).

٣١- دولة بني مرين المغرب الأقصى / فاس -: .... ٦٦٨ – ٨٣١ هـ (٢٣٩ عاماً).

أسباب انهيار الخِلافَة الإِسْلَاميّة:

يعود انهيار الخِلافَة الإِسْلَاميّة إلى عدّة أسباب، لعلّ من أهمّها:

أولاً- تحول نظام الخِلافَة إلى النّظام الملكي الوراثي:

لما انتقلت الخِلافَة إلى بني أمية بدلوا نظام الشورى بنظام الإرث في الأسرة، وبدات مرحلة الملك العضوض، فقد عهد معاوية بالخِلافَة من بعده لابنه يزيد وانتزع البيعة له بالمال لمن يخضع للمال، وبالقوة لمن يخضع بالقوة، ثمّ انتقلت الخِلافَة، إلى بني مروان ابن الحكم من بني أمية، ثمّ اتسع بعد ذلك نطاق الخلفية، فأصبح الخَليفَة يعهد إلى ابنين أو أكثر من أبنائه يتوارثونها واحدا بعد آخر بالترتيب الّذي يقرره، كما فعل **عبد الملك بن مروان** بن الحكم فقد عهد بالخِلافَة من بعده إلى أبنائه: الوليد ثمّ سليمان ثمّ يزيد ثمّ هشام، وقد توسط **عمر بن عبد العزيز** بين سليمان ويزيد بعهد من سليمان.

واستقر نظام الخِلافَة في الدّولة الإِسْلَاميّة بعد ذلك عَلى نظام الإرث وأصبحت البيعة رسما شكليا يقبل عليها النّاس، يتقدمهم الأمراء والكبراء والعُلَماء، وتؤخذ عليهم الأيمان المغلظة مع الحلف بالطلاق والعتاق لكي لا يتحللون منها، وفي العصر العبّاسي الثّاني لم يعد أحد يبالي بالبيعة بعد أن أصبح مصير الخِلافَة بيد المتغلبين من القادة الأعاجم من فرس وترك، وقد ترتب عَلى وراثة الخِلافَة مفسدتان أساسيتان وهما:

الصِّرَاع من أجل الملك، وظاهرة الاستبداد والظُّلم.

١ - الصِّرَاع من أجل الملك:

وقد امتلأت كتب التّاريخ المختلفة بصور كثيرة من صراعات الأسر المتعددة عَلى الملك، ومن صراعات القصور داخل الأسرة الواحدة عَلى ولاية العهد.

وقد وقف الفقهاء من نظام الإرث في الخِلافَة موقف المسلم بالأمر الواقع، من باب سد باب مزيد من الفتن، فأجازوا للخليفة أن يعهد بالخِلافَة إلى ابنه أو إلى ابن أخيه، ثمّ أجازوا أن يعهد بالخِلافَة لعدد من أبنائه يتوارثونها عَلى الترتيب الّذي يقرره، كذلك قبلوا خلافة من ينال الخِلافَة بالغصب

والسيف، حتَّى لو كانَ فاجرا، لكيلا يبيت المُسلِمُون بلا خليفة، وبذلك يدخل في باب الإجازة جميع الخُلَفَاء والملوك والأمراء الّذين شملتهم قاعدة الإرث أو التغلب، البر منهم والفاجر.

٢ - ظاهرة الاستبداد والظُّلم:

لما انتقل نظام الخِلافَة من قاعدة الشورى إلى نظام الإرث، وأصبحت البيعة رسما شكليا، تؤخذ بالرغبة أو الرهبة.

صار سلطان الملوك مطلقا لا رقيب عليه، يتصرف عَلى هواه، وقد نشأ عن ذلك انحراف عن خُطّة الإِسْلَام وتعطيل لجدوى فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر.

فلم يعد الأمر كما جاء في خطاب أبي بكر حين تولى الخِلافَة فقال: (أيها النّاس، أَنّي قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني عَلى حق فأعينوني، وإن رأيتموني عَلى بَاطِل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتَّى أخذ الحقّ له، وأضعفكم عند القوي حتَّى آخذ الحقّ منه)(١).

وقد ترتب عَلى ممارسة الخَليفَة سلطانه المطلق نشوب هذا العدد الكبير من الثورات، وهكذا أدت ظاهرة الإحتجاج عَلى الظُّلم والاستبداد، إلى إنهاك موارد الدّولة وأضعفت قوتها.

وقد وقف الفقهاء أمام مشاهد الاستبداد والظُّلم فريقين: فريق أراد الدُّنيَا فدخل في دنيا الخُلَفَاء ونال حظه منها، ومنهم من زين أفعالهم فازداد منهم قربا، وفريق أراد الآخرة وسعى لها فتنكب عنهم وصمت عَلى مضض، وأبى أن ينال عملا من ولاية أو قضاء، لكيلا يعمل في ظل حكم جائر فيسأل عنه، ويعتبر عمله عنده شهادة حسن سلوك من العالم للحاكم أمام الرعية، وهي من أسوأ شهادات الزور العمليّة، ومن هَؤُلَاءِ الإِمَام أبو حنيفة والإمام أحمد وسفيان الثّوريّ وعبدالله بن إدريس وعبدالله بن وهب ووكيع بن الجراح وطاووس والأوزاعي، ومحمّد بن أسلم الطوسي، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، كثيرون غيرهم، في حين أخذ البعض بعزيمة الأمر والنهي العملي، فخرج يقارع الطّغيان كما حصل من الإِمَام الحسين رضي الله عنه، وكما حصل من القرّاء الّذين خرجوا عَلى الحجاج، وكما

---

(١) جامع معر بن راشد (٢٠٧٠٢).

حصل من أحمد بن نصر الخزاعي في عهد الواثق العبّاسي، ولما لم تؤدي كلّ تلك المحاولات إلى إزالة الظُّلم لأسباب يطول شرحها، وصار قصارى موقف الصّالحين اعتزال القصور وحكامها، والصدع بالحق، أو الاعتزال عنهم إيثارا لسلامة الدّين.

ويلحق بهذا الفريق من تزهد وتصوف وأعرض عن الدُّنيَا واعتزل أهلها وانصرف إلى عبادة الله والتأمل في ملكوته، فصفت نفسه ورقت وأمتعته بلذة روحانية لا تعدلها لذة الحياة المادية، وبهذا الفريق بدأ عهد التصوف كظاهرة رفض للحياة المترفة واحتجاجا عَلَى شيوع الظُّلم والاستبداد.

وقد اشتدت ظاهرة الظُّلم في العصر العبّاسي الثّاني وتضاعفت مع مضاعفة السّلطة بين الخُلَفَاء والمتغلبين، فقد أضيفت إلى وسائل القتل والسمل والنفخ والفصد وقطع الأعضاء والحبس في المطامير والتوسيط، والموت عطشا وجوعا والطرح تحت أقدام الفيلة والإلقاء في حظيرة السباع، فكان الخَلِيفَة أو القائد المتغلب يختار لمن يقتله الميتة بإحدى هذه الوسائل.

وقد ازدادت ظاهرة الظُّلم ضراوة عندما انتقل الحكم من الملك العضوض، كما كانَ حال بني أمية وبني العبّاس، إلى مرحلة الملك الجَبري، كما كانَ حال معظم حُكَّام التغلب وأمراء وملوك الدّول المستقلة المتصارعة عَلَى الملك والسلطان، يكاد لا يستثنى من ذلك إلا ومضات مضيئة قليلة لملوك وأمراء صالحين، مروا في سماء تاريخ أكثر الملوك والسلاطين، كشهب لامعة في سماء الظُّلم والظُّلمات.

وقد أدى اشتداد ظاهرة الظُّلم منذُ العصر العبّاسي الثّاني إلى نشاط التصوف والتفاف العامّة حول المتصوفة، يجدون العزاء عندهم والاطمئنان، ويلتمسون في جوارهم الصّبر عَلَى احتمال الظُّلم وتعزية النّفس بوعيد الله الانتقام لهم، بعد أن ازداد مع الأيّام افتراق السُّلطَان والقرآن كما أخبر رسول الله ﷺ، حتَّى ما إذا دخلنا تاريخنا الحديث، وجاء عصر الطواغيت الّذي أخبر عنه سيدنا المصطفى ﷺ، منذُ أواخر الدّولة العُثمَانِيّة ثمّ حُكُومَات الإستعمار، ثمّ حُكُومَات ما أسمي (الإستقلال)، وصلنا إلى مرحلة تواجه السُّلطَان مع القرآن، وليس مجرد افتراق السُّلطَان والقرآن، كما سيمر بعض شواهد ذلك في فصول الكتاب اللاحقة إن شاء الله تَعَالَى ويسر، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ثانياً – الزواج من الإماء وتدخلهن في شؤون الحكم وولاية العهد:

كانت زوجات وأمهات الخُلَفَاء في عهد الخُلَفَاء الرّاشدين من شريفات النِّسَاء ومن أعراق عربيَّة، كذلك كانَ خُلَفَاء العهد الأموي.

ولم يشذ عن القَاعِدَة سوى اثنين من خُلَفَاء بني أمية هما: يزيد بن الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمّد بن الحكم، آخر خُلَفَاء بني أمية، فأم يزيد فارسية تدعى (شاه فرند) وهي بنت فيروز بن يزدجرد بن كسرى، آخر ملوك الفرس، وأم مروان بربرية من قبيلة (نفزة) بالمغرب الأقصى.

أما زوجات وأمهات خُلَفَاء بني العبّاس فجميعهن من الجواري المحررات، من فارسية وورومية وتركية وأرمنية وبربرية، باستثناء ثلاثة منهم وهم: **أبو العبّاس السفاح** والمهدي والأمين، كذلك كانت زوجات وأمهات أمراء وخُلَفَاء بني أمية في الأندلس، فقد كن من نساء النّصَارى المستبيات أو المهداة إلى الأمراء والخُلَفَاء وفيهن من بنات ملوك وأمراء النّصَارى الأسبان.

ومن أشهر النِّسَاء في دولة بني العبّاس، **الخيزران** زوجة المهدي وأم ولديه موسى (الهادي) وهارون (الرَّشِيد)، وصبيحة (القبيحة) زوجة المتوكل وأم ولده المعتز، و(شغب) زوجة المعتضد وأم ولده المقتدر، ومن أشهر النِّسَاء في دولة الأندلس (**طروب**) زوجة الأمير الأموي عبد الرَّحمٰن الثّاني وأم ابنه عبدالله، و(صبح) زوجة الخَليفَة الأموي **الحكم المستنصر** الأندلسي وأم ولده هشام (المؤيد).

وقد جرى عَلى هذه السنة الوزراء والحجاب وملوك الطوائف، فقد تزوج **المنصور بن أبي عامر** ابنة (سانشو الثّاني) ملك (نافار) ثمّ تزوج ابنة (برمود الثّاني) ملك (ليون)، وكان زواجه منهما لغرض سياسي أريد منه التقوي بمن صاهروه عَلى أعدائه من ملوك آخرين أو عَلى أمراء من المُسلِمِين كانوا قد خرجوا عليه، وتزوج **المعتمد بن عباد** أمير إشبيلية جارية من جواري نخاس يدعى (ابن رميك)، فعرفت بالرميكية، كذلك كانَ شأن الخُلَفَاء الفاطميين.

وقد كانَ لكثير من هَؤُلَاءِ الجواري الأمهات دورا في سياسة الدّولة أدى إلى صِرَاع من أجل الخِلَافَة وانشقاق بين الأخوة وأبناء العمومة، وكان ذلك من أسباب ضعف الدّولة وانهيارها.

من ذلك ما كانَ للخيزران، زوجة المهدي، من شأن في عهد زوجها، فكان الوزراء والكبراء يقفون عَلى بابها لحاجاتهم، ولما تولى ابنها موسى (الهادي) الخِلافَة أراد الحط من شأنها ومنعها من التدخل في شئون الدّولة فعملت عَلى قتله كما قيل.

وهذه (قبيحة) زوجة المتوكل أغرت زوجها بتقديم ابنها (المعتز) عَلى أخيه المنتصر في ولاية العهد، فكانت سبب قتل زوجها المتوكل.

وأما (شغب) فقد كانَ لها مشاغباتها والكلمة العليا في قصر المعتضد وولي عهده المقتدر، ويكفي للدلالة عَلى ذلك ما زعموا من أن قهرمانتها تولت النَّظر في المظالم.

وأما (طروب) فقد حاولت مؤامرة لقتل زوجها **عبد الرَّحْمٰن بن الحكم** لتدفع عن ابنها (عبدالله) منافسة أخيه (محمّد) في خلافة أبيه، وقد اكتشف زوجها عبد الرَّحْمٰن المؤامرة وتغابى عن فعل زوجته وظل محتفظا بإيثاره لها ودلها عليه لفرط حبه لها.

وهذه (صبح) زوجة **الحكم المستنصر** فقد فرضت ابنها (هشاما) لولاية العهد ولما يبلغ الحادية عشرة من عمره.

وهذه (**الرميكية**) زوجة ابن عباد تفتن زوجها بدلها وتصبيه بجمالها فينطلق في التغزل بها بشعر عذب رقيق، حتَّى فرش لها المسك والكافور معجونا بماء الورود فصنع لها طينا لما اشتهت أن تعافس الطين كفلاحات رأتهن من نافذة القصر!! فصرفته عن أمور الدّولة إلى لهو أغرى به ألفونسو السَّادس الملك الإسباني، فهم بالانقضاض عليه، لولا أن أنجده **يوسف بن تاشفين** زعيم المرابطين، فدفع عنه الأسبان ثمّ استولى عَلى ملكه، ونفاه إلى المغرب الأقصى مع زوجته وأولاده ليقرض الشعر في سجن(أغمات).

ولا ريب أن الأمهات الأجنبيّات قد خلَّقن أبناءهن بأخلاقهن ورسخن فيهم تقاليدهن الّتي نشأن عليها ورفعن إلى سدة الحكم أبناء فيهم من لم يبلغ الحلم، وفيهم من عاش في نعيم القصور فغلب عليه اللهو والمجون، وتولى الحكم أعوان، من وزراء وقادة، فانقادوا لأطماعهم وأهوائهم وكانوا من أسباب انهيار الدّولة، وصدق عمر رضي الله عنه.

فقد ورد في مصنف ابن أبي شيبة عن خرشة بن الحرِّ قَالَ: قَالَ عمر: «**هَلَاكُ الْعَرَبِ إِذَا بَلَغَ أَبْنَاءُ بَنَاتِ فَارِسَ**»[١]، وكذلك جاء فيه عن عبدالله بن عمرو قَالَ: «**لَمْ يَزَلْ أَمْرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُعْتَدِلًا حَتَّى نَشَأَ فِيهِمْ أَبْنَاءُ سَبَايَا الْأُمَمِ فَقَالُوا فِيهِمْ بِالرَّأْيِ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[٢].

ثالثا – تجنيد الموالي:

لما تولى المعتصم بن الرَّشِيد الخِلافَة تحول الطابع العربيّ للجيش، وصار أكثر الجند من الأتراك، وكان يُأتي بهم من تركستان أطفالا، حيث يربون عَلى الحَرب والقتال، وعظم شأنهم في عهد الخَليفَة الواثق ومن بعده المتوكل، وارتقى فريق منهم إلى رتبة القادة.

ومن ذلك الوقت أضحى الإِسْلَام في حالة دفاع عن الحدود الّتي وقفت عندها فتوح الخُلَفَاء الرّاشدين ومن بعدهم بنو أمية، وقد تحول الجند الموالي إلى جنود مرتزقة، يعتصبون إذا ما تأخرت أرزاقهم ويهددون بالعصيان وقد رتبوا لأنفسهم حقوقا عند نصب الخَليفَة يعرف برسم البيعة.

رابعا: حياة الترف والسرف:

أخذت الفتوحات تتوالى وتتسع حتَّى بلغت منتهاها في العصر الأموي، فانبسطت أسارير الدُّنيَا عَلى المُسلِمِين، وفي العصر العبّاسي بلغ السرف غايته عند الخُلَفَاء والأمراء والوزراء وسراة النّاس، وتطاولت القصور، واتسعت الدُّور، تخطر في أبهائها جوار مثل الحور من كلّ جنس ولون.

وقد حفلت القصور بمجالس الطرب، يرتادها الشعراء ويتبارون بوصف ما يجري فيها من لهو وعبث، فينالون بما تجود به قرائحهم وتنطلق به لهواتهم، الجوائز عَلى أقدارهم، وقد دونت أخبار تلك المجالس وما كانَ يجري فيها من إسراف باللهو والمجون وحتى الخمور في دواوين الشعراء وكتب الأدب والأخبار.

---

(١) رواه ابن أبي الشيبة في المصنف (٣٢٤٧٠) والحديث موقوف وإسناده ثقات .

(٢) رواه ابن أبي الشيبة في المصنف (٣٧٥٩٢) والبزار (٢٤٢٤)، وروى ابن ماجة نحوه (٥٦)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٣٣٦).

ومن مشاهد اللهو والعبث ومظاهر الترف والسرف ما روي عن ترف الخَليفَة المقتدر، فقد كانَ مبذرا مؤثرا للشهوات، وقد وزع جواهر الخِلافَة ونفائسها عَلى حظاياه، ومن فنون لهوه أنه أراد في يوم أن يشرب عَلى نرجس في بستان قصره، وكان وقت تسميد الزرع، فاستبدل السماد بالمسك، بمقدار ما احتاج إليه البستان من السماد وسمد به، وجلس يشرب يومه وليلته، واصطبح من غده، فلما قام أمر بنهب المسك، فانتهبه الخدم والعاملون في البستان واقتلعوه من أصول النرجس، وخرج منه مال عظيم.

ومن مشاهد الترف والسرف ما كانَ ينفق في أعراس الخُلَفَاء، ففي عرس الرَّشِيد عَلى **زبيدة بنت جعفر** بن المنصور، قدم الرَّشِيد ما لم يقدم لامرأة قبلها من الجوهر والحلي والتيجان والأكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب والكسوة، وقد بلغت نفقة هذا العرس من مال بيت المال - سوى ما أنفقه الرَّشِيد - خمسون ألف ألف (مليون) درهم، وفي عرس **المأمون** على **بوران بنت الحسن** بن سهل وزعت رقاع بأسماء ضياع وقصور وصلات، وجعلت الرقاع في بنادق المسك، ونثرت بين أيدي العروس، فكان الّذي يلتقط شيئا يحبس عليه، وقد قدرت نفقة ذلك العرس بأربعين ألف ألف (مليون) درهم، عدا ما أنفقه والد العروس.

ومن مشاهد الترف والسرف ختان أبناء الخُلَفَاء، فقد حفظ التّاريخ لنا وصفا مسهبا لاحتفال الخَليفَة المتوكل بختان ولده المعتز، وقد بلغت نفقاته ستة وثمانين ألف ألف درهم، وقيل إن النّاس كانوا يستكثرون ما أنفق في عرس **المأمون** ثمّ أتى ما أنفق في ختان ابن المتوكل ما أنسى ذلك.

ومثله ما أنفقه الخَليفَة الأندلسي **عبد الرَّحمٰن النّاصر** في إعذار (ختان) حفدته بقصر الزهراء.

ومن مشاهد الترف والسرف النهم في الطعام وفي النكاح، فانتشرت المطاعم الشهية، وصارت تقدم في أوان من ذهب وفضة،

وقد أزاح سيف الجلاد ميزان العدل فأصمت الحقّ، وأضحى قوله مهلكة يطلبها من أراد الاستشهاد.

ولم تقتصر مجالس الخُلَفَاء ومن سار سيرتهم من السّلاطين عَلى مشاهد الترف والسرف بل كانت تحفل باللهو والعبث، فكان الندماء يقومون بضروب اللهو الماجن، وربما تحلل الحضور من أبهة الملك لمزيد من العبث، وقد تأسى الوزراء والكبراء بسيرتهم وكانت تجري في مجالسهم مشاهد فيها أنوع من اللهو والطرائف.

و من أسباب وعوامل تتابع انهيار الدّول الإِسْلَاميّة:

١ - ارتقاء ملوك صغار سدة الملك:

فقد ابتليت الأُمّة بما أخبر عنه رسول الله ﷺ من «إمارة الصِّبيَان»:

فعن أبي هريرة يقول: قَالَ رسول الله ﷺ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ رَأْسِ السَّبْعِينَ، وَمِنْ إِمْرَةِ الصِّبْيَانِ»[1].

فارتقى سدة الملك ملوك صغار منهم أطفال ومنهم أحداث مراهقون، وقد بدأ هذا منذُ عهد بني أمية، وأما في المَرحَلَة الّتي نحن بصددها فنذكر فيما يلي طرفا منهم:

(١) رواه بن أبي الشيبة في المصنف (٣٧٢٣٥) وأحمد (٩٧٨٢، ٨٦٥٤، ٨٣٢٠) وضعفه الأرنؤوط وصححه شاكر، وأورده الألباني في الصحيحة (٣١٩١).

**** في دولة بني العبّاس:**

أ- المقتدر خلف أخاه المكتفي سنة ٢٩٥هـ وعمره ثلاث عشرة سنة.

ب- المقتدي خلف جده القاسم بأمر الله سنة ٤٦٧هـ وعمره ستة عشر عاماً.

جـ- المستظهر خلف أباه المقتدي سنة ٤٨٧هـ وعمره سبعة عشر عاماً.

**** وفي الدّولة السلجوقية:**

أ- **ملكشاه** الثّاني خلف أباه **بركياروق** وعمره أربع سَنَوات!!

ب- **محمود بن محمّد بن ملكشاه** الأوّل خلف أباه وعمره أربعة عشر عاماً.

**** وفي الدّولة الفاطميّة:**

أ- الظَّاهِر بن الحاكم بأمر الله خلف أباه سنة ٤١١هـ وعمره ستة عشر عاماً، وكان أبوه الحاكم قد خلف أباه العزيز سنة ٣٦٥هـ وعمره أحد عشر عاماً!

ب- المستنصر خلف أباه الظَّاهِر سنة ٤٢٧هـ وعمره سبع سنين.

جـ- الآمر بأحكام الله خلف أباه المستعلي سنة ٤٩٥هـ وعمره خمس سنين!! وما أدري بأي أحكام سيأمر مثل هذا الرضيع ؟!

د- الظافر خلف أباه الحافظ سنة ٥٤٤هـ وعمره سبعة عشر عاماً.

هـ- الفائز خلف أباه الظافر سنة ٥٤٩هـ وعمره خمس سنين!

و- العاضد خلف جده الحافظ سنة ٥٥٥هـ وعمره أحد عشر عاماً.

**** وفي الدّولة الأتابكية:**

أ- **عز الدّين مسعود** الثّاني خلف أباه مودود بن عماد الدّين زنكي سنة ٥٧٢هـ وعمره عشر سنين!

ب- نور الدّين أرسلان خلف أباه **عز الدّين مسعود** سنة ٥٨٩هـ وعمره عشر سنين!

ج- الصّالح إسماعيل خلف أباه نور الدّين محمود بن عماد الدّين زنكي سنة ٥٦٩هـ وعمره ١١عاما!

**** وفي الدّولة الأيوبية:**

أ- المنصور محمّد حفيد النّاصر صلاح الدّين الأيوبي خلف أباه العزيز عثمان سنة ٥٩٥هـ وعمره عشر سنين!

ب- الأشرف موسى حفيد الملك الكامل الأوّل خلف ابن عمه توران شاه ابن الملك الصّالح نجم الدّين أيوب سنة ٦٤٨هـ وعمره ستة أعوام!!

ج- الملك العزيز محمّد خلف أباه الملك الظّاهِر غازي بن صلاح الدّين الأيوبي سنة ٦١٢هـ وعمره ثلاث سَنَوات!!

د- النّاصر صلاح الدّين (الثّاني) يوسف بن العزيز محمّد خلف أباه سنة ٦٣٤هـ وعمره سبع سنين!

**** وفي دولة المماليك:**

أ- الملك العادل سلامش خلف أباه **الملك الظّاهِر بيبرس** سنة ٦٧٨هـ وعمره سبع سنين.

ب- **الملك النّاصر محمّد** ابن الملك المنصور قلاوون خلف أباه (في ولايته الأولى) سنة ٦٩٣هـ وعمره تسع سنين، وفي ولايته الثّانية أربعة عشر عاماً.

جـ- الملك الأشرف كجك خلف أباه النّاصر محمّد بن قلاوون وعمره سبع سنين!

د- الملك الصّالح إسماعيل بن النّاصر محمّد بن قلاوون خلف أخاه شعبان وعمره سبعة عشر عاماً.

هـ- الملك **النّاصر حسن** خلف أخاه سيف الدّين حاجي بن النّاصر محمّد بن قلاوون وعمره أحد عشر عاماً.

**** وفي الدّولة الأموية بالأندلس:**

هشام الثّاني المؤيد بن الحكم المستنصر خلف أباه سنة ٣٦٦هـ وعمره عشر سنين.

**** وفي دولة المرابطين:**

إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين خلف ابن أخيه **إبراهيم بن تاشفين** سنة ٥٤١هـ وعمره عشر سنين.

**** وفي دولة الموحدين:**

المستنصر أبو يعقوب بن محمّد النّاصر خلف أباه سنة ٦١١هـ وعمره ستة عشر عاماً.

****

ولم يكن ما مر من عددنا من أطفال وأحداث ومراهقين رقوا سدة الملك عَلى سبيل الحصر، بل عَلى سبيل المثال، فقد أتاح نظام الخلفية في دول الإِسْلَام أن يخلف الابن أباه أو أخاه ولو لم تتوفر فيه أهلية الحكم، وهذا ما لا يأتلف مع شريعة الإِسْلَام، لأن شروط الخِلافَة أن يقوم اختيار الخَليفَة عَلى مبدأ الشورى وأن يكون راشدا سليم العقل ومن أهل العلم فضلا عن الشُّرُوط الأخرى.

وقد أدى نظام الخلفية في الملك وارتقاء الصغار سدة الحكم إلى تزاحم الوزراء والأمراء في الوصاية عليهم أو النيابة عنهم، لأن من يحظى بذلك تؤول إليه السّلطة الفعلية في الحكم وفي التصرف بأموال الدّولة كما يشاء فيغنى غناء فاحشا، وإذا وقع الاختيار عَلى واحد منهم، أقيم الاحتفال بخلافة الخلف فيزين بزينة الملك ويكسى بكسوته، وقد يكون الخلف صغيرا فيحمله من انتصب وصيا عليه ويدخل به مكان الاحتفال، وقد يرتاع الصغير مما يشهد فيندفع بالبكاء، وقد يشتد روعه ويجري له أمر مفزعا، كما جرى للفائز الفاطمي - وكان في الخامسة من العمر - حين حمله الوزير العبّاس بن أبي الفرج الصنهاجي ودخل به إلى مكان الاحتفال، فارتاع الصبي مما رأى وبال عَلى كتف الوزير، فأفاض من كرمه عَلى معالي الوزير!!

وإذا كانَ الخلف حدثا حجزوه بالقصر، بعد الاحتفال بخلافته، وحجبوه عن النّاس وجمعوا له صبية في مثل عمره يلاعبونه، وإذا كانَ الخلف مراهقا ألهوه بالجواري وبكل ما يغري من كانَ في مثل سنه من أنواع المتع واللهو الماجن كما جرى للظافر بن الحافظ الفاطمي حين بويع خلفا لأبيه وهو في السَّابعة عشرة من العمر.

٢- الصِّرَاع عَلى الملك:

أدى انشطار العالم الإِسْلَاميّ إلى دويلات كثيرة إلى نزاع بين ملوكها وصراع مرير أدى إلى انهيارها وزوالها، كما أدى تربع الصغار والأحداث سدة الملك إلى استئثار نوابهم (الأتابكة) بالسلطة وائتمار بعضهم ببعض لانتزاع هذه السّلطة واستبدادهم بها.

أ- ففي دولة السلاجقة:

كانَ طغرلبك الأوّل، مؤسس دولة السلاجقة، قد عهد بالخِلافَة من بعده إلى ابن أخيه سليمان بن داود، فلما توفي طغرلبك سنة ٤٥٥هـ انتزع ألب أرسلان بن داود السلطنة من أخيه سليمان، ثمّ ثار عليه ابن عمه قتلمش بن أرسلان بيغو فقاتله ألب أرسلان وقتله.

وخلف ملكشاه أباه ألب أرسلان بعد وفاته سنة ٤٦٥هـ فخرج عليه سليمان بن قتلمش وتمكن من بسط نفوذه عَلى قسم كبير من آسيا الصغرى (الأناضول) كما أوضحنا من قبل، وفي عام ٤٦٦هـ ثار قاورت بن داود عَلى ابن أخيه ملكشاه فلقيه ملكشاه بناحية همذان وأسره ثمّ قتله.

وفي عام ٤٧٣هـ ثار (تتش بن ألب أرسلان) عَلى ابن أخيه ملكشاه واستولى عَلى بعض مدن خراسان فصالحه ملكشاه على أن يملك (تتش) بلاد الشّام فملكها وأقام فيها دولة سلجوقية عَلى نحو ما بينا من قبل.

وفي عام ٤٨٦هـ توفي ملكشاه فخلفه ابنه بركياروق سلطانا أعظم عَلى السلاجقة فطلب (تتش) السلطنة لنفسه وتوجه إلى (أصبهان) يقاتل بركياروق من أجلها وجرت بينهما معركة فاصلة سنة ٤٨٨هـ قتل فيها (تتش).

ولم يكد بركياروق يفرغ من قتال عمه (تتش) حتَّى نازعه عَلى السلطنة العظمى أخواه (سنجر) و(محمّد) ابنا ملكشاه وجرت بينهما حُرُوب أدت إلى وهن فيهم وضعف وانتهت باستيلاء دولة خوارزم عَلى دولة السلاجقة في المشرق.

ب- وفي الدّولة الفاطميّة:

بلغت الدّولة الفاطميّة أوج رفعتها وأقصى سعتها في عهد **المعز لدين الله** ثمّ أخذت في التردي والانهيار في عهد ابن حفيده المستنصر بن الظَّاهِر بن الحاكم بأمر الله ويرجع هذا التردي إلى العوامل الآتية:

أ- صغر سن المستنصر، فقد بويع خلفا لأبيه الظَّاهِر سنة ٤٢٧هـ وله من العمر سبع سنين فتولت الجواري والخصيان العناية به والإشراف عليه، وتركت أمور الدّولة بين يدي والدته ووزيره أبي منصور صدقة بن يوسف الفلاحي.

وكانت أم المستنصر جارية سوداء ليهودي يدعى أبا سعد إبراهيم بن سهل التستري وكان الظَّاهِر قد اشتراها منه واستولدها ابنه المستنصر.

ولما خلف المستنصر أباه وزر له أبو منصور صدقة الفلاحي، وكان يهوديا ثمّ ادعى أنه أسلم وارتفع شأن اليَهُوْد في زمان وزارته وأسندت إليهم مناصب الدّولة، وولت أم المستنصر سيدها أبا سعد التستري اليَهُوْدي وظيفة المستشار لها وعهدت إليه بإدارة أملاكها، وأخذ اليَهُوْدي في اضطهاد المُسلِمِين.

ب- أخذ الوزير الفلاحي والمستشار التستري يتنازعان السّلطة، وقد استمال الفلاحي الجند الأتراك فقتلوا بأمره التستري ونقمت أم المستنصر عَلى الفلاحي فشرعت في شراء العبيد السود فقتلوا الفلاحي، وثارت الفتنة بين الأتراك والعبيد ودعي القائد بدر الجمالي، أمير عكا فقدم إلى مصر سنة ٤٥٥هـ وأخمد الفتنة.

جـ- توفي بدر الجمالي سنة ٤٨٧هـ فخلفه في الوزارة وفي قيادة الجيش ابنه الأفضل أبو القاسم شاهنشاه، وكان المستنصر قد تزوج بأخت الأفضل واستولدها ولدا سماه أحمد وكان له من زوجة أُخرى ولد اسمه نزار، وهو أكبر أولاده وقد عهد إليه بخلافته.

وتوفي المستنصر بعد وفاة بدر الجمالي بقليل وولى الأفضل ابن أخته أحمد الخِلافَة ولقبه المستعلي وقتل نزارا، وقد أدى ذلك إلى شطر الفاطميّة الإسماعيلية إلى شطرين: المستعلية والنزارية.

د- في أيّام المستعلي اجتاحت الحملة الصّليبيّة الأولى بلاد الشّام سنة ٤٩٢هـ واستولت عَلى أنطاكية وعلى مدن الساحل، وكانت إمارات مستقلة، ثمّ استولت عَلى مدينة القُدس سنة ٤٩٣هـ ولم تتمكن الحامية الفاطميّة من الدّفاع عنها فاجتاحها الصّليبيّون وحلت بها الكارثة الكبرى وأقامها الصّليبيّون عاصمة لمملكتهم فيها.

هـ- وفي عام ٤٩٥هـ توفي المستعلي فخلفه ابنه علي وله من العمر خمس سَنَوات ولقبوه بلقب الآمر بأحكام الله وتولى الأفضل بن بدر الجمالي زمام الحكم واستبد به، ولما شب الآمر برم به وعزم عَلى قتله وتولى تنفيذ القتل رجل مقرب من الآمر يدعى أبا عبدالله البطائحي، وكان الآمر قد مناه بالوزارة فقتله وخلفه في الوزارة سنة ٥١٥هـ وتلقب بالمأمون.

و- وكان للآمر أخ يدعى جعفرا، وكان يطمع بالملك فاتفق مع البطائحي عَلى قتل أخيه الآمر، فأحس الآمر بالأمر فقتل البطائحي سنة ٥١٩هـ ثمّ لقي الآمر المصير نفسه إذ تربص به جماعة من الإسماعيلية النزارية (وهم خصوم الإسماعيلية المستعلية) وقتلوه وهو يجوز الجسر إلى جَزِيرَة الروضة ثمّ يقبض عليهم ويقتلون.

وفي أيّام الآمر استولى الصّليبيّون عَلى طرابلس سنة ٥٠٢هـ ثمّ استولوا عَلى (عرقة وبانياس وبيروت وصيدا) وتسلموا مدينة صور سنة ٥١٨هـ وحاولوا غزو مصر.

ز- بعد مقتل الآمر خلفه عبد المجيد بن محمّد بن المستنصر وتلقب بالحافظ، وولى الوزارة أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي، ولم يلبث أحمد أن اغتيل فولى الحافظ الوزارة ابنه الحسن وكان ولي عهده، فأساء السيرة وقتل كثيرا من الأمراء وصادر الأموال وتواعد عَلى قتل من سلم من الأمراء فقتله أبوه الحافظ بالسم.

حـ- توفي الحافظ سنة ٥٤٤هـ فخلفه ابنه إسماعيل وتلقب بالظافر وعمره سبعة عشر عاماً وأقاموا له سليمان بن مصار وزيرا فأقام في الوزارة شهرين وخرج عليه أبو الحسن علي بن سلار والي الإسكندرية وانتزع منه الوزارة وتلقب بالعادل سيف الدّين.

وفي عام ٥٤٨هـ اغتاله ربيب له يدعى نصر بن العبّاس بن أبي الفتوح الصنهاجي فتولى أبوه العبّاس الوزارة وكان الظافر – فيما يقال – مولعا بابنه نصر، فأوعز إليه أبوه أن يقتله فقتله ورماه في بئر وفقد ولم يعلم بقتله أحد واتهم العبّاس الصنهاجي أخوي الظافر بقتله فقتلهما ودخل إلى القصر وأخرج عيسى بن الظافر، وعمره خمس سَنَوات، وحمله عَلى كتفه ودخل به إلى مجلس فيه الأعيان والفقهاء فبايعوه ولقبوه بالفائز، ونظر الطفل إلى المشهد الحافل وسمع ضجيج النّاس فارتاع وبال عَلى كتف الوزير كما ذكرنا من قبل وتولى العبّاس الصنهاجي الوزارة وتلقب بالأفضل ركن الدّين، وآلت إليه أمورها، فاستبد واستباح الأرواح والأموال، ولم يلبث أن ثار عليه الجند والنّاس واستنجدوا بأمير الصعيد، طلائع بن رزيك فقصد القاهرة وتمكن من القبض عَلى العبّاس الصنهاجي وعلى ابنه نصر وقتلهما وولى شاور بن مجير السعدي خلفا له عَلى إمارة الصعيد.

ط- تولى طلائع بن رزيك الوزارة خلفا للعباس الصنهاجي وتلقب بالملك الصّالح واستقل بأمور الدّولة وأخذ يبيع الولايات للأمراء ويجمع الأموال، فساءت سيرته وضاق به رجال القصر، وبرم النّاس بتصرفاته، وكان الفائز بكفالة عمته الكبرى، فشرعت تعد العدة لقتله، فلما علم بذلك سارع إلى قتلها ونقل كفالة الفائز إلى عمته الصغرى.

وفي عام ٥٥٥هـ توفي الفائز عن عشر سنين وجاء طلائع بحفيد للحافظ الفاطمي يدعى عبدالله بن يوسف بن الحافظ، وكان طفلا في الحادية عشرة من عمره فبويع بالخِلافَة ولقبوه بالعاضد واستمر طلائع بن رزيك في الوزارة، وكانت عمة الفائز الصغرى الّتي تولت رعايته بعد مقتل أختها قد عزمت عَلى قتله وتمكنت من دس جماعة لاغتياله فقتلوه وتولى الوزارة من بعده ابنه رزيك بن طلائع

ي- ثار شاور بن مجير السعدي، أمير الصعيد، عَلى رزيك، وكان طامعا بالوزارة، فقصد القاهرة مع جمع من أعراب الصعيد وقاتل رزيك وقتله واستولى عَلى الوزارة، فنازعه فيها ضرغام بن عامر اللخمي، وكان من أمراء رزيك وأعوانه، وانتزع منه الوزارة.

ك- فزع شاور إلى نور الدّين محمود بن عماد الدّين زنكي صاحب الشّام فأنجده لقاء شروط تعهد بها، وجهز له جيشا بقيادة القائد أسد الدّين شيركوه ومعه ابن أخيه يوسف بن أيوب، وقصد

الجيش القاهرة وقاتل ضرغاما في معركة قتل فيها ضرغام وأعيد شاور إلى الوزارة وعاد أسد الدّين إلى دمشق، ولما استقل شاور بالحكم خشي من أطماع نور الدّين محمود فحالف الصّليبيّين وأدخلهم أرض مصر، فوجه نور الدّين جيشا إلى مصر بقيادة أسد الدّين شيركوه ومعه ابن أخيه يوسف بن أيوب، فأخرج الصّليبيّين منها وقبض عَلى شاور وقتله.

ل- أسند الخَليفَة العاضد الفاطمي الوزارة إلى أسد الدّين شيركوه فتوفي بعدها بستة أشهر فأسند الخَليفَة الوزارة إلى ابن أخيه يوسف ولقبه النّاصر لدين الله صلاح الدّين، ولم يلبث صلاح الدّين أن قطع الخطبة للعاضد وخطب للخليفة العبّاسي المستضيء بأمر الله ومات العاضد، وكان آخر خُلَفَاء الفاطميين، واستقل صلاح الدّين بمصر وبه قامت الدّولة الأيوبية.

وقد علق المؤرخ المصري ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة، بما كانَ يجري بين الطامعين بالوزارة في العهد الفاطمي من تآمر وقتال فيقول [... وهذا شأن أرباب المناصب، إذا عزل أحدهم بآخر أراد هلاكه ولو هلك العالم معه، وهذا البلاء من تلك الأيّام إلى يومنا هٰذا](١).

ج-وفي الدّولة الأيوبية:

أ- قسم صلاح الدّين الأيوبي، قبيل وفاته، دولته الّتي ضمت مع مصر بلاد الشّام والحجاز واليمن والجَزِيرَة، بين أبنائه وبين إخوته وأبنائهم وبين أبناء أعمامه، فجعل دمشق ومدن الساحل لابنه الأفضل علي، وهو أكبر أبنائه، وجعل مصر وجنوب الشّام لابنه الملك العزيز عثمان وجعل حلب وأعمالها لابنه الملك الظَّاهِر غازي، وجعل الأردن والكرك لأخيه الملك العادل (الأوّل) وجعل بعلبك لأخيه الملك المعظم توران شاه (الأوّل)، وجعل اليمن لأخيه سيف الإِسْلَام طغتكين وجعل حماة لابن أخيه الملك المظفر تقي الدّين عمر بن نور الدّين شاهنشاه، وجعل حمص لابن عمه ناصر الدّين محمّد بن أسد الدّين شيركوه .

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٥/ ٢٠).

ب- ثمّ ما لبث هَؤُلَاءِ أن تنازعوا واختصموا، فحاول الملك العزيز عثمان أن يستخلص دمشق من أخيه الأفضل علي، وتمكن من ذلك سنة ٥٩١هـ وتملك دمشق وولى عليها عمه الملك العادل وولى أخاه عليا عَلى صرخد.

جـ- وفي عام ٥٩٥هـ يتوفى الملك العزيز عثمان فيخلفه ابنه الملك المنصور محمّد وله من العمر عشر سنين ويتولى عمه الملك الأفضل رعايته والنيابة عنه.

د- وفي عام ٥٩٦هـ يجهز الملك الأفضل جيشا ويتوجه به إلى دمشق لانتزاعها من عمه الملك العادل سيف الدّين فيهزمه الملك العادل ويتوجه إلى مصر فيدخلها ويخلع الملك القاصر المنصور محمّدا ويستولي عَلى مصر ويولي عليها ابنه الملك ناصر الدّين محمّدا ويلقبه بالملك الكامل (الأوّل) ويجعله ولي عهده ويولي ابنه الآخر الملك المعظم عيسى عَلى دمشق وهكذا تتحول السلطنة في مصر والشّام من أبناء صلاح الدّين إلى أخيه الملك العادل وأبنائه.

هـ- وفي عام ٦١٥هـ يتوفى الملك العادل فيخلفه ابنه الملك الكامل (الأوّل)، وفي عام، ٦٢٤هـ أراد الملك الكامل أن ينتزع دمشق من عمه الملك المعظم عيسى، فكتب إلى الملك فردريك الثّاني ملك الألمان، يستنجده عَلى عمه ويعده إن هو تسلم دمشق أن يسلمه القُدس، وكان الملك فردريك آنئذ في قبرص مع حملة صليبيّة جهزها للقدوم إلى بلاد الشّام واسترداد بيت المَقْدِس من المُسلِمِين، وقد أصابه من تأخره في تجهيزها حرمان من البابا، واستجاب فردريك لطلب الملك الكامل وقدم إلى مدينة (عكا) سنة ٦٢٦هـ وكان الملك المعظم عيسى قد توفي قبيل قدومه وخلفه في دمشق ابنه الملك النّاصر داود ووجد الملك داود أن لا قبل له بحرب عمه ومعه الصّليبيّون، فتنازل له عن دمشق وعوضه الملك الكامل عنها بالكرك وصرخد والشوبك وولى الملك الكامل أخاه الملك الصّالح إسماعيل عَلى دمشق، وقد وفى الملك الكامل وعده بعد أن تسلم دمشق فسلم القُدس إلى فردريك، فدخلها وتوج نفسه ملكا عليها في كنيسة القيامة وعاد إلى بلاده، وكان الملك الكامل قد عقد معه معاهدة صلح في (يافا) لمدة عشر سَنَوات، واشترط عليه بموجبها أن لا يعمر الصّليبيّون خرابها وأن لا يبنوا بها حصونا، وفي عام

٦٣٧هـ تمكن الملك النّاصر داود من الاستيلاء عَلى القُدس وإخراج الصّليبيّين منها لمخالفتهم شروط معاهدة (يافا) وكانت قد مضت عليها المدة المحددة فيها.

و- وفي عام ٦٣٥هـ يتوفى الملك الكامل فيخلفه بعهد منه ابنه سيف الدّين أبو بكر ويلقب بالملك العادل (الثّاني) ويبلغ الخبر أخاه الملك الصّالح نجم الدّين أمير (آمد والرها وحران) فيرفض الاعتراف بأخيه ويتوجه إلى مصر ويجمع مماليك أبيه ويخلع أخاه ثمّ يقتله، ويبلغ الخبر الملك الصّالح إسماعيل فينقم عَلى ابن أخيه نجم الدّين ويقبض عَلى ابنه عمر - وكان في دمشق - ويعتقله بقلعة دمشق وفيها يموت.

ز- ويشتد النزاع بين الملك الصّالح نجم الدّين وبين عمه الملك الصّالح إسماعيل ويتجهز كلّ منهما لقتال الآخر ويستنجد الصّالح بالصّليبيّين، فيلبي الصّليبيّون طلب الملك الصّالح إسماعيل في مقابل استلامهم القُدس وينضم إليه كلّ من الملك النّاصر داود والملك المنصور إبراهيم بن شيركوه الثّاني صاحب حمص، وفي المَعْرَكة الجارية قرب (غزة) حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد انضم جند الملك الصّالح إسماعيل إلى جند الملك الصّالح نجم الدّين وكانوا من الخوارزمية الّذين هربوا من المغول وأنفوا أن يحاربوا مع الصّليبيّين، وانتهت المَعْرَكة بهزيمة مُنكرة للصليبيين وأسر الكثير منهم.

ح- وفي عام ٦٤٣هـ تسلم الملك الصّالح نجم الدّين دمشق من عمه الملك الصّالح إسماعيل وعوضه عنها ببعلبك وبصرى وأعمالهما، ويسترد الجند الخوارزمية - الّذين انضموا إلى الملك الصّالح نجم الدّين - القُدس في ذلك العام ويخرجون الصّليبيّين منها، وتعود القُدس نهَائِيّاً إلى المُسلِمِين، بعد أن تكرر احتلالها من الصّليبيّين أربع مرات: سنة ٤٩٣ ٦٢٧، ٦٣٧، ٦٤٣هـ.

ط- وفي سنة ٦٤٧هـ يتوفى الملك الصّالح نجم الدّين أيوب أثناء الحملة الصّليبيّة السّابعة الّتي قادها الملك لويس التّاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٦هـ وفيها يهزم الصّليبيّون ويؤسر الملك الفرنسي، ويخلف نجم الدّين أيوب ابنه توران شاه، وكان شابا فيه رعونة الشَّبَاب، فاختلف مع زوجة أبيه شجرة الدر ومع مماليك أبيه، فائتمرت مع أربعة منهم عَلى قتله فقتلوه، ويقول ابن تغري بردي: (إن الّذين قتلوا توران شاه هم أنفسهم الّذين كلفهم نجم الدّين أيوب من قبل بقتل أخيه سيف الدّين أبي بكر

فكان موت ابنه مقدرا عَلَى أيديهم) وبقتل توران شاه انقضى عهد الدّولة الأيوبية وقامت من بعدها دولة المماليك (البحرية).

د- وفي دولة المماليك البحرية:

أ- كانَ الملك نجم الدّين أيوب قد تزوج جارية تركية تدعى شجرة الدر وأنجب منها ولدا سماه (خليلا) فكانت تدعى أم خليل وقد تسلطنت بعد مقتل ابن زوجها توران شاه ثمّ تزوجت القائد المملوكي عز الدّين إيبك وتنازلت له عن السلطنة فكان أول سلطان مملوكي يتولى السلطنة سنة ٦٤٨هـ.

ب- في سنة ٦٥٥هـ أقدمت شجرة الدر على قتل زوجها عز الدّين إيبك لأنه بلغها أنه ينوي خطبة ابنة الأمير بدر الدّين لؤلؤ أمير الموصل واستعانت عَلَى قتله بمماليكها فقتلوه ضربا بالقباقيب، وبعد قتله عهد لابنه علي بخلافته فقبض عليها وأمر بقتلها ضربا بالقباقيب كما فعلت بأبيه.

جـ- وفي سنة ٦٥٧هـ أقدم القائد المملوكي قطز عَلَى خلع علي بن عز الدّين إيبك ونفيه من مصر مع أسرته، وولى القائد بيبرس البندقداري إمارة الجُيُوش، وكان المغول قد اجتاحوا بلاد الشّام وتوجهوا يريدون مصر فتقدم قطز للقائهم بجيش يقوده بيبرس وجرى اللقاء في موضع يدعى (عين جالوت) وفيه كانت الموقعة الكبرى الّتي كتب فيها النّصر لجيش المماليك بما أبدوا من شجاعة فائقة وما أبدى قائدهم بيبرس من مهارة في الحَرب وقد تشتت جيش المغول وقتل قائده (كتبغانوين) وكان صهر هولاكو زعيم المغول.

د- في أعقاب تلك المَعْرَكة أقدم القائد بيبرس عَلَى اغتيال السُّلطَان قطز، فقد كانَ وعده بأن يوليه عَلَى مملكة حلب بعد جلاء المغول عنها وأن يعهد له بالسلطنة من بعده فأخل السُّلطَان بوعده فأقدم عَلَى اغتياله مع جماعة من القادة المماليك.

هـ- تولى بيبرس السلطنة وتلقب بالملك الظَّاهِر ودامت سلطنته ثمانية عشر عاماً قضى خلالها عَلَى الإمارات الأيوبية في بلاد الشّام وضم بلاد الشّام إلى مصر وأجلى الصّليبيّين عن مدن الساحل وحرر سنة ٦٦٥هـ أنطاكية وغزا كليكيا الأرمنية وأخضعها لسلطانه، وفي سنة ٦٧٦هـ غزا بلاد

سلاجقة الرُّوم، وكانت مشمولة بحماية المغول فحررها منهم بعد موقعة كبرى جرت في مكان يدعى (ألبستين) وفيها مزق جيشهم.

و- توفي الظَّاهِر بيبرس سنة ٦٧٦هـ في أعقاب معركة (ألبستين) فخلفه ابنه ناصر الدّين محمّد بركة وتلقب بالملك السَّعيد وعمره ثمانية عشر عاماً، وبعد سنتين من سلطنته أقدم المماليك عَلى خلعه لسوء تدبيره وولوا أخاه الأمير سلامش وعمره سبع سنين ولقبوه بالملك العادل بدر الدّين وولوا القائد قلاوون نائبا عنه.

ز- لم يلبث قلاوون أن خلع بدر الدّين سلامش سنة ٦٧٨هـ وتولى السلطنة وتلقب بالملك المظفر سيف الدّين وقد امتدت سلطنته أحد عشر عاماً حرر خلالها ما تبقى في يد الصّليبيّين من قلاع وحصون في بلاد الشّام ومنها مدينتا اللاذقية وطرابلس، وفي عام ٦٨٩هـ يتوفى قلاوون فيخلفه ابنه خليل ويتلقب بصلاح الدّين ويسترد من الصّليبيّين قلعة صفد ومدينة طرطوس ثمّ يستولي عَلى عكا بعد معركة شديدة مع الصّليبيّين.

حـ- وفي عام ٦٩٣هـ يقدم قائدان من قادة المماليك هما (بيدرا) و(لاجين) عَلى اغتيال السُّلطَان صلاح الدّين خليل بن قلاوون وقيام (بيدرا) خلفا له، ولم يلبث هذا في السلطنة إلا يوما واحدا، إذ أقدم القائد (كتبغا) عَلى قتله وقتل من اشترك في اغتيال السُّلطَان صلاح الدّين خليل واختار المماليك محمّد بن قلاوون أخا خليل سلطانا فبايعوه ولقبوه بالنّاصر وله من العمر تسع سنين.

ط- لم يلبث (كتبغا) أن خلع محمّد بن قلاوون متعللا بصغر سنه وتولى السلطنة، وقد حاول القائد (لاجين) اغتيال (كتبغا)، ولما علم بذلك هرب إلى دمشق وخلع نفسه سنة ٦٩٦هـ فتولى السلطنة (لاجين) وتلقب بالمنصور حسام الدّين وبعد سنتين أي في عام ٦٩٨هـ اغتيل وأعيد إلى السلطنة محمّد بن قلاوون وقد بلغ من العمر أربعة عشر عاماً،

ي- وفي سنة ٧٠٨هـ يخلع محمّد بن قلاوون ويتولى السلطنة قائد مملوكي يدعى بيبرس الجاشنكيري، ثمّ يخلع بعد سنة (٧٠٩هـ) ويعاد إلى السلطنة محمّد ابن قلاوون للمرة الثّالثة وهو في الخامسة عشرة من عمره ويتوفى سنة ٧٤١هـ وقد امتدت سلطنته (٣١) عاماً، فكان أطول ملوك

المماليك عهدا وأعظمهم مهابة وأغزرهم عقلا وأحسنهم سياسة وأكثرهم شجاعة وأحسنهم تدبيرا وقد بلغت دولة المماليك في عهده ذروة ارتقائها ثمّ توالى عليها أبناؤه وأخذت شمسها في الكسوف.

ك- تولى السلطنة من بعد محمّد بن قلاوون ثمانية من أبنائه، كانَ أولهم أبو بكر سيف الدّين الملقب بالمنصور ولم يلبث سوى سنة واحدة وخلع سنة ٧٤٢هـ وتولى السلطنة من بعده أخوه (كجك) وتلقب بالملك الأشرف علاء الدّين وعمره خمس سنين وخلع بعد أقل من سنة وتولى السلطنة من بعده أخوه أحمد وتلقب بالملك النّاصر شهاب الدّين وبعد شهرين من سلطنته يخلعه أخوه إسماعيل ويقتله ويتلقب بالملك الصّالح عماد الدّين ويستمر إسماعيل في السلطنة ثلاث سنين يقتل بعدها سنة ٧٤٦هـ

ويتولى السلطنة أخوه شعبان (الأوّل) ويتلقب بالملك الكامل سيف الدّين وبعد سنة من سلطنته يخلع ويسجن ويقتل في سجنه ويتولى السلطنة من بعده أخوه (حاجي الأوّل) ويتلقب بالملك المظفر سيف الدّين وبعد أقل من سنة يخلع ويقتل ذبحا ويولى أخوه الحسن سنة ٧٤٨هـ ويتلقب بالملك النّاصر ناصر الدّين ويخلفه من بعده سنة ٧٥٢هـ أخوه صالح ويتلقب بالملك الصّالح صلاح الدّين، وتمتد سلطنة المماليك البحرية من بعده إلى سنة ٧٨٤هـ ثمّ تنتقل إلى المماليك البرجية وهم كالبحرية من المماليك الأتراك والجراكسة وتنتهي سلطنتهم بالفتح العُثْمَانِيّ سنة ٩٢٢هـ.

هـ- وفي دولة المرابطين:

بلغت دولة المرابطين منتهى علاها في عهد يوسف بن تاشفين وابنه علي (٤٥٣ – ٥٣٧ هـ) ثمّ أخذت مسيرة أحداثها في الانحدار، وقد تولى ملك المرابطين في آخر عهدهم ملكان لم يبلغا الحلم وهما: إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين وابن عمه إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين وقد بويع الأوّل سنة ٥٤٠هـ بعد وفاة أبيه ولم يتمكن المرابطون في عهده من صد الموحدين في معركة انتهت بهزيمتهم والقبض عَلى إبراهيم وقتله ومبايعة الثّاني من بعده سنة ٥٤١هـ، فلما احتل الموحدون مراكش قتلوه وقتلوا معه من وجدوا من أمراء المرابطين وقضوا عَلى دولتهم.

و- دولة الموحدين

بلغت هذه الدّولة أوج قوتها في عهد ملكها أبي يوسف يعقوب (٥٩٥ - ٥٨٠هـ) وذلك بعد انتصاره عَلى ألفونسو الثَّامن ملك قشتالة في وقعة (الأرك) سنة ٥٩١هـ، ثمّ أخذت في الانحدار في عهد ابنه محمّد النّاصر (٥٩٥ - ٦١١هـ) إثر هزيمة الموحدين أمام الأسبان في وقعة (العقاب) سنة ٦٠٩هـ ثمّ هزيمتهم في وقعة (أبي دانس) سنة ٦١٤هـ في عهد ابنه يوسف المستنصر (٦١١ - ٦٢٠هـ).

وقد اشتد الوهن في الدّولة بعد خلع عبد الواحد ابن يوسف الأوّل ابن يعقوب سنة ٦٢١هـ وتولية أبي محمّد عبدالله ابن أخيه يعقوب المنصور وتلقيبه بالملك العادل ثمّ خلعه سنة ٦٢٤هـ وقتله وتولية يحيى بن محمّد النّاصر وتلقيبه المعتصم بالله وازداد الوهن شدة حين رفض عمه أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور الاعتراف ببيعته وبايعه أهل الأندلس وتلقب بالمأمون وانقسمت دولة الموحدين عَلى نفسها: دولة في الأندلس ودولة في المغرب، وتوجه المأمون إلى المغرب لانتزاع الملك من ابن أخيه والانتقام ممن قتلوا أخاه الملك العادل واستعان بجيش من الأسبان وكانت أمه منهم وقد أمده به الملك الإسباني فرديناند الثّالث ملك قشتالة لقاء شروط منها أن يعطيه عشرة حصون مما يلي إشبيلية وأن يبني لجنده الأسبان كنيسة في مراكش إذا دخلها وأن من أسلم من جنده لا يقبل إسلامه.

وقد تمكن المأمون من اقتحام مراكش فهزم ابن أخيه يحيى المعتصم بالله وقتل شيوخ الموحدين الّذين بايعوه، ونفذ المأمون شروط الملك الإسباني فسلمه الحصون العشرة وبنى في مراكش كنيسة لجنده الأسبان، ولم يلبث أن ثار عليه أخوه أبو موسى عمران بن يعقوب أمير (سبتة) فتوجه لقتاله وحاصره، وفي غيابه بهذا الحصار عاد ابن أخيه يحيى ومعه جموع من العَرَب والبربر ودخلوا مراكش وعاد المأمون مسرعا ومات في الطّريق سنة ٦٣٠هـ وبويع من بعده عبد الواحد الرَّشِيد واستمر النزاع بين الأعمام وأبنائهم إلى أن استولى عَلى مراكش بنو مرين عام ٦٦٨هـ في عهد آخر ملوك الموحدين أبي العلاء إدريس الواثق بالله الملقب بأبي دبوس وبه انقضت دولة الموحدين وقامت عَلى أنقاضها دولة بني مرين.

ز- وفي دول الشمال الإفريقي:

بعد القضاء عَلى دولة الموحدين الّتي كانت تسيطر عَلى الشمال الإفريقي من تونس إلى مراكش قامت دول ثلاث: دولة بني مرين في المغرب الأقصى وعاصمتها مراكش ودولة بني زيان من بني عبد الواد في المغرب الأوسط (الجَزَائِر) وعاصمتها (تلمسان) ودولة بني حفص في المغرب الأدنى (تونس) وعاصمتها مدينة تونس.

وقد أنهكتهم الحُرُوب والثورات والفتن الّتي ثارت بينهم وشغلتهم عن نصرة إخوانهم في الأندلس، فأسلموهم للأسبان وكانوا هم عرضة لغزو الأسبان والنورمان حتَّى فتح العُثْمَانِيّون الجَزَائِر سنة ٩٦٢هـ ثمّ تونس سنة ٩٨٢هـ وقامت في مراكش دولة بني الحسن العلويين سنة ٩١٦هـ.

٣- الانصراف إلى اللهو والمجون:

إلى تلك الأسباب الّتي أدت إلى تشتت الدّولة الإِسْلَاميّة وانقسامها إلى دول ثمّ تسارع انهيارها وتعرضها لغزو أتاها من المشرق والمغرب، يضاف سبب آخر أتاها من سوء سلوك بعض الحاكمين وانصرافهم إلى اللهو والمجون، وغالبا ما يكون هَؤُلَاءِ ممن تولوا الملك صبيانا يولى عليهم نواب يعملون عَلى إشغالهم باللهو ويصرفونهم عن شئون الحكم ليستقلوا به من دونهم، فإذا بلغ الصبي سن الشَّبَاب تفتحت غرائزه، فأخذ يعب من شهواته، تاركا أمور الدّولة لوزرائه ونوابه والأمثلة عَلى ذلك كثيرة ونحن نورد طرفا منها.

فقد روي ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة (أن المستنصر الفاطمي خلف أباه الظَّاهِر وعمره سبع سنين ونشأ عَلى حب اللهو والمجون، ولما شب كانَ أمره قد اضمحل لتشاغله باللهو والشراب والطرب وكان من عادته في كلّ سنة أن يركب عَلى النجب (النفيس من الإبل) إلى مكان قريب من القاهرة يدعى (جب عميرة) وهو موضع نزهة فيخرج إليه بهيئة أنه خارج إلى الحجّ عَلى سبيل الهزء والمجانة ومعه الخمر في الروايا (الأواني) عوضا عن الماء ويسقيه للنَّاس كما يسقى الحاج في طريق مكّة).

فماذا نقول في خليفة توالى القحط عَلى بلاده سبع سنين حتّى أكل النّاس الموتى ولحوم الأطفال يفعل ما روي عنه ويهزأ بركن من أركان الدّين، ونراه في مدّة خلافته قد استكان لسلطان وزيره بدر الجمالي وليس له من الأمر شيء.

كذلك يروي ابن تغري بردي: (إن الملك المسعود يوسف صلاح الدّين الثّاني، المعروف باسم (أتسز) ابن الملك الكامل الأيوبي كانَ قد ولاه أبوه سنة ٦١١ هـ فاستولى عَلى مكّة سنة ٦١٩هـ فكان ينام في دار المسعى سكران ويخرج أعوانه يمنعون النّاس من الصياح والضجيج في المسعى).

ثمّ إليك ما يرويه ابن الأثير عن جلال الدّين منكبرتي آخر ملوك خوارزم (فقد كانَ هذا الملك يهوى خادما خصيا له يدعى (قليج) فاتفق أن مات الخادم، فأظهر الملك من الحزن والهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله ولا لمجنون ليلى، وأمر الجند والأمراء أن يمشوا في جنازته رجالة وكان موته في موضع يبعد عن (تبريز) - عاصمة الدّولة - عدّة فراسخ، فمشى خلف جنازته راجلا فألزمه أمراؤه بالركوب، فلما وصل إلى (تبريز) أرسل إلى أهل البلد فأمرهم بالخروج لتلقي تابوت الخادم، ففعلوا، وأنكر عليهم أنهم لم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم عَلى ذلك فشفع فيهم أمراؤه فتركهم.

ثمّ إنه لم يدفن الخادم وإنما أخذ يستصحبه معه حيث سار وهو يلطم ويبكي، وامتنع من الأكل والشرب، فإذا قدم إليه طعام قَالَ: احملوه إلى فلان، يعني الخادم ولا يتجاسر أحد أن يقول إنه مات، فإذا قيل إنه مات قتل القائل، فكانوا يحملون إليه الطعام ويقولون للملك: إنه يقبل الأرض ويقول الآن أنا أصلح مما كنت، ثمّ انفض عنه أمراؤه فبقي حيران لا يدري ما يصنع وراسل وزيره واستماله فلما حضر إليه قتله).

وهناك خبر عن الملك النّاصر صلاح الدّين الثّاني ابن العزيز محمّد ابن الملك الظَّاهِر غازي صاحب حلب، فقد تولى الملك وعمره سبع سنين وشب عَلى حب اللهو تاركا أمور الدّولة إلى وزرائه، ولما اجتاح المغول حلب سنة ٦٥٧هـ غادرها إلى دمشق.

ويروي صاحب نفح الطّيب أن الأديب الأندلسي موسى العنسي (ت: ٦٨٥هـ) لما رحل إلى المشرق، قدم إلى دمشق وفيها النّاصر صلاح الدّين المذكور هٰذا، وكان المغول قد أمعنوا في حلب قتلا وسبيا وتخريبا، فدخل عَلى النّاصر صلاح الدّين يعزيه عَلى ما فعله المغول بمدينة حلب وما حلّ بها من المصائب والمحن، فأضرب النّاصر عن سماع ذلك وأنشد أبياتا في مملوك له يهواه قتل في تلك الكارثة، فهو لا يبكي لفقد ملكه وإنما يبكي لفقد حبيبه، ثمّ نراه بعد ذلك هائما عَلى وجهه حتَّى لجأ إلى هولاكو ملك المغول ومعه أخوه الملك الظَّاهِر سيف الدّين غازي (الثّاني) وأمراء آخرون من البيت الأيوبي فأحسن هولاكو إليهم ولما بلغه هزيمة المغول في (عين جالوت) سنة ٦٥٨هـ قتله وقتل من كانَ معه من الأمراء.

كذلك يروي ابن طباطبا في كتابه تاريخ الدّول الإِسْلَاميّة أن الخَليفَة المستعصم بالله آخر خُلَفَاء بني العبّاس في بغداد كانَ شديد الكلف باللهو وسماع الأغاني، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة، وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه عَلى التنعم بالملذات، لا يراعون له صلاحا، وقد كتبت له الرقاع من العوام، وفيها أنواع التحذير وألقيت الأشعار في أبواب دار الخِلافَة.

كلّ ذلك وهو عاكف عَلى سماع الأغاني وملكه قد أصبح واهي المباني، **ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى الأمير بدر الدّين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من أهل الطرب، وفي تلك الحال وصل رسول هولاكو يطلب من بدر الدّين منجنيقات وآلات حصار لحصار بغداد فقال بدر الدّين: انظروا إلى المطلوبين وابكوا عَلى الإِسْلَام.**

وإذا عرجنا عَلى دولة المماليك نجد منهم من شغف بالجواري وتخلى عن أمور الدّولة إلى نوابه، **كالملك الصّالح إسماعيل بن النّاصر محمّد بن قلاوون، فقد شغفه حب الجواري فأسرن قلبه وكانت لهن الكلمة العليا في الدّولة وأعرض عن تدبير الملك بإقباله عَلى النِّسَاء والطرب، وكان يؤثر الجواري السود.**

فحظيت بحبه جارية سوداء تدعى (اتفاق) تحسن الضرب عَلى العود وتجيد الغناء فتزوجها وكان أخوه الملك شعبان يهواها، فلما مات الصّالح إسماعيل سنة ٧٤٦هـ خلفه عليها أخوه ودخل بها ليلة وفاته!!

ولما خلع الملك الكامل شعبان ثمّ قتل سنة ٧٤٧هـ خلفه أخوه الملك المظفر (حاجي) فتزوج بها ليلة خلع أخيه!! فغنته فأنعم عليها بأربعة فصوص وست لؤلؤات ثمنها أربعة آلاف دينار، وهذا ثالث سلطان من أبناء محمّد بن قلاوون يتزوج بهذه الجارية السوداء وفي كلّ مرّة كانَ يعقد العقد لها عَلى أخ من الإخوة الثلاث قاض مع علمه بأن العقد بَاطِل لتجاوز العدة المفروضة عَلى زوجة المتوفى.

وقد نالت هذه الجارية السوداء عند الإخوة الثّلاثة من الحظ والسعادة ما لا يعرف لامرأة في زمانها!

فلم لا وقد قَالَ الشاعر مجنون ليلى في محبوبته السوداء:

يقولون عنك سوداء حبشية ولولا سواد المسك ما انباع غاليا

وحري بهذا الفاسق أن ينسج عَلى منواله، (فلولا سواد الزِّفت...)، ولله في خلقه شؤون.

****

أثر ما تقدم من الأسباب في حياة المجتمع الإِسْلَاميّ:

كانَ من الطبيعي أن تنعكس هذه الأسباب في حياة المجتمع الإِسْلَاميّ، السّياسيّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.

١ - في الحياة السّياسيّة: تفرقت الكلمة وطمع الأَعدَاء:

فقدت الدّولة الإِسْلَاميّة وحدتها، وبدأت تتفكك منذُ بداية العصر العبّاسي الأوّل، وازداد تفككها في العصر العبّاسي الثّاني، ففي المشرق قامت دولة للبويهيين والسامانيين والغزنويين والسلجوقيين، وفي إفريقية، قامت في المغرب الأقصى دولة الأدارسة وفي المغرب الأدنى ومصر والشّام دولة الفاطميين وفي الأندلس قامت دولة للأمويين، وتوزعت الخِلافَة بين هذه الدّول، فخليفة عباسي في بغداد وخليفة إدريسي في المغرب الأقصى، وخليفة فاطمي في مصر، وخليفة أموي في قرطبة وأمراء غلبوا عَلى بعض المناطق واستقلوا فيها، ولم يقم بين تلك الدّولة والإمارات سلم دائم، بل كثيرا ما كانت تستعر بينهم الحُرُوب، فضلا عن الثورات والانتفاضات الّتي كانت تتخللها، وانتهت بذلك إلى حالة من الضّعف والوهن فلم تقو عَلى صد العدوان المسيحي الّذي كانَ يترصدها، وقد طوقها من الشّرق والغرب، وامتنع بافتراق المُسلِمين إلى دول متناحرة وتوزعهم في شيع متنافرة أن يجمعوا شملهم لمُوَاجَهة ذلك العدوان الّذي انصب عليهم.

ففي الفترة الواقعة بين عامي ٤٧٧ و٤٩٣هـ استولى ألفونسو السَّادس، ملك الأسبان عَلى طليطلة واستولى (الكمبيادور) زعيم المرتزقة الأسبان عَلى (بلنسية) سنة ٤٨٧هـ، وهم ألفونسو السَّادس بالاستيلاء عَلى إشبيلية، فأنقذها المرابطون وأسقطوا حكم أمراء الطوائف وأقاموا في الأندلس دولة لهم.

وفي الفترة الواقعة بين عامي ٤٨٧ و٤٩٨هـ قامت دعوة البابا أوربّان الثّاني لأمراء الإقطاع في أوروبّا للاستيلاء عَلى بلاد الشّام وإنقاذ بيت المَقْدِس من يد المُسلِمين، وكان من أسبابها إقدام الخَليفَة الفاطمي الحاكم بأمر الله على هدم كنيسة القيامة في بيت المَقْدِس.

وقد وحدت دعوة البابا صفوفهم وكانت قد فرقتها الحُرُوب الّتي نشبت بينهم، فقادوا الحملة الصّليبيّة الأولى، وأتاح لهم الصِّرَاع بين ملوك السلاجقة، كما نوهنا بذلك من قبل، أن يجتازوا بلاد الأناضول، وأن يحتلوا مدينة (نيقية) ثمّ مدينة (قونية)، وأن يجتاحوا بلاد الشّام وفيها استولوا عَلى معرة النعمان وأنطاكية، ثمّ اتبعوا الساحل فاستولوا عَلى (طرابلس) ثمّ عَلى (حيفا) و(يافا) و(قيسارية) و(الرملة)، ثمّ عرجوا عَلى مدينة بيت المَقْدِس فاستولوا عليها في ٢٣ نيسان سنة ٤٩٣هـ، وهي السنة الّتي سقطت فيها مدينة (طليطلة) بيد الإسبان.

وفي بيت المَقْدِس أباح قائد الحملة الصّليبيّة (جود فروا دو بويون) للصليبين القتل والنهب وهتك الأعراض، فلم يقصروا فيما أبيح لهم، ونصبوا قائدهم ملكا عَلى بيت المَقْدِس ثمّ توجهوا إلى دمشق فحاصروها وتوجه وفد من أهالي المدينة برئاسة قاضي دمشق زين الدّين أبي سعد الهروي إلى بغداد يستعينون بالخليفة المستظهر بالله، فأظهر الخَلِيفَة عجزه وبكى وبكى الوفد لعجزه، وتمكن أهل دمشق من صد الصّليبيّن.

وتوجه الصّليبيّون بعد ذلك إلى عكا وجبيل فاستولوا عليهما، واستمرت حملات الصّليبيّن واستولوا عَلى كثير من المواقع في بلاد الشّام وفيها بنوا القلاع والحصون، حتَّى وحد صلاح الدّين الأيوبي جموع المُسلِمِين بعد قضائه عَلى الدّولة الفاطميّة، وتم عَلى يده جلاء الصّليبيّن.

٢ - في الحياة الاقتصاديَّة:

تتوقف سلامة الاقتصاد عَلى عامل أساسي هو الأمن، فبدونه لا يمكن دوام العمل والإنتاج والتبادل والاتجار وأكثر ما يعيق الأمن هو الثورات، وقد نشبت في العصر الأموي وفي العصر العبّاسي الأوّل ثورات كثيرة شغلت الدّولتين، ولكنها لم تنتقص من نشاط الحياة الاقتصاديَّة لتوفر القوّة عَلى قمعها، ولأن النّاس كانوا ينعمون في بحبوحة من العيش من خيرات الفتوح، فلم تكن تلك الثورات ثورات فقراء أو مستضعفين وإنما كانت في جلها ثورات سياسيّة، يدور الصِّرَاع فيها حول الخِلافَة، أو فتن تثيرها العصبيات القبلية.

ومع ذلك فإن البلاد الإِسْلَاميّة كانت تصاب في بعض مناطقها بجوائح، منها القحط وتلف المحاصيل بكوارث طبيعيّة، كانَ ينشأ عنها مجاعات وينتشر الوباء، ولكن ذلك لم يكن ليطول، أما في العصر العبّاسي الثّاني فقد ثار الفقراء والمستضعفون عَلى ظلم الولاة وعمال الخراج، فكانت ثورة الزنج الّتي استمرت خمس عشرة سنة، فتكت في خلالها بالكثير من النّاس وخربت الكثير من المدن وحرمت الأرض من أيدي العاملين، الّذين انقلبوا إلى ثائرين ومخربين.

وقد أعقبت هذه الثَّورة ثورة القرامطة الّتي امتدت نحو سبعين سنة، وفي خلالها اختل الأمن وعاث اللصوص فسادا في المدن والقرى، ينهبون ويسلبون ويقتلون، ونشط أعراب البوادي في الوثوب عَلى قوافل التجار وفي الإغارة عَلى قوافل الحجاج، فتوقفت التجارة وامتنع الحجّ عدّة سَنَوات، وقد أدى ذلك كله إلى اضطراب الحياة الاقتصاديَّة وزاد عليها توالي الكوارث الطبيعيّة ومنها الزلازل وفيضان الأنهار وطغيانها عَلى الأراضي الزراعية، وما ينشأ عنها من قحط ومجاعات يتلوها أوبئة كانت تفتك بالنّاس فتكا وتحصدهم حصدا.

٣ – في الحياة الاجتماعيَّة:

انعكس في حياة المجتمع الإِسْلَاميّ ما عاناه في حياته السّياسيّة والاقتصاديَّة من فوضى واضطراب، فقد استذلته الأحداث السّياسيّة وأفقرته الأحداث الاقتصاديَّة وتشتت شمله في دويلات، آلت معها حياة المجتمع الإِسْلَاميّ إلى طبقة عليا مترفة، التفت حول ملوك وأمراء متغلبين، تزين لهم ظلمهم لتنعم بعطاياهم، وتسلك سلوكهم فيما ينكره الدّين والأخلاق، وطبقة سفلى يشيع فيها الفقر والبؤس والحرمان ويحملها ذل الحاجة إلى سلوك ما لا يحله الدّين أيضا.

وفي كلتا الطبقتين شاع عند السفلة منهم تعاطي الخمرة وما يتبعها من لهو وفجور، كانَ يجري في الطّبقة العليا بمظاهر الترف، وكان يجري في الطّبقة السفلى في مظاهر الحطة والبؤس، وبين الطبقتين، العليا والسفلى، كانت طبقة الخاصّة، وهي الطّبقة الوسطى، وفيها العُلَماء من فُقَهَاء ومحدثين ومفسّرين، وفيها الصُّلحاء من أهل الزهد والتقوى، ولم يكن لهَؤُلَاءِ، كما كانَ لأسلافهم، مقام يدنيهم

من الملوك والأمراء، ولا مسمع لقول عاذل ونصيح، وليس لهم سلطة تمكنهم من الردع بالقوة لما يجري من الفواحش، فقد جهر كثير من النّاس بشرب الخمرة، يتعاطونها في حانات الخمارين وفي المتنزهات، ويلتمسون معتقها في الأديرة.

هذه هيَ السمات العامّة الّتي كانت تطبع المجتمع الإِسْلَاميّ في العصر العبّاسي الثّاني وما تلاه، وقد مهد لها العصر العبّاسي الأوّل، بما ساد فيه من مظاهر الترف والانصراف إلى الملاذ والجهر بها مع كثير من اللهو والمجون والتحدي للدين والأخلاق، وهذا ما نراه مبسوطا في أشعار أبي نواس وأخباره مع مطيع بن إياس وحماد عجرد ووالبة بن الحباب، وفي أشعار ابن هرمة ومسلم بن الوليد، وغيره من شعراء ذلك العصر من الماجنين.

وكما نراها مبسوطة في كتب الأدب والأخبار كالأغاني والعقد الفريد ونهاية الأرب والنجوم الزاهرة وعيون الأخبار، وغيرها من كتب الأدب، وكما نراها منثورة في كتب التّاريخ والأخبار كالطبري وابن الأثير ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ بغداد وتاريخ ابن كثير وغيرها من كتب التّاريخ، وكلها شاهد – وإن كانَ فيها كثير من الدس والتأليف – عَلى التراخي في تنفيذ تعاليم الإِسْلَام عند الطّبقة الحاكمة ومن التف حولها.

وكان أول ما انحسر من تعاليم الإِسْلَام العدل، وقد أخلت به الأهواء الّتي اشتد فيها الصِّرَاع عَلى الملك وما يتبعه من الظُّلم والاستبداد، يمارسهما صاحب السّلطة عَلى هواه، خليفة أو ملكا أو سلطانا أو أميرا، ويأخذ النّاس بالظنة، فيقتل ويصادر الأموال ولا معقب لما يشاء، وبرزت في هذا الجو المشبع بالظُّلم، ظاهرة الخوف ومعها ظاهرة النِّفَاق.

وكلاهما من العوامل الّتي عطلت العقل عن النمو فجف عطاؤه وتراخت عزائمه، وأصبح الخائف في معزل عن الحياة العامّة خوفا من وشاية واش، أو تعرضه لما يخشاه، وسلك مسلك الزهد والتصوف طلبا للسلامة، وشاع النِّفَاق في ضعاف النفوس، يزين به المنافقون صنع السُّلطَان فيزيدونه طغيانا، لينالوا رفده، فهم فيما يفعلونه أعوانه في الظُّلم.

وقد دون رواة موثوقون ما شهدوا من ظاهرة الظُّلم والجور في العصر الّذي عاشوا فيه، وإليك ما دونه الرحالة ابن حوقل المتوفى سنة ٣٦٧هـ، في مقدمة كتابه: (صورة الأرض)، وفيه يصف ما عاينه في بغداد قبل سفره: [... وأعانني عَلى تأليف هذا الكتاب تواصل السفر وانزعاجي عن وطني مع ما سبق به القدر، لاسيما الرزق والأثر، والشهوة لبلوغ الوطر، بجور السُّلطَان، وكلب الزّمان، وتواصل الشدائد عَلى أهل المشرق والعدوان، واستئناس سلاطينه بالجور والطّغيان، وكثرة الجوائح والنوائب، وتعاقب الكلف والمصائب، واختلال النعم وقحط الديم](١).

وإليك ما دونه الفيلسوف المؤرخ مسكويه في كتابه (تجارب الأمم) وفيه يبين أسباب ضعف السّلطة وانهيار الحكم في العصر العبّاسي:

[فليعتبر الناظر، هل أتي هَؤُلَاءِ الملوك إلا من سوء تحفظهم واشتغالهم عن ضبط أمورهم وتفقدها بلذاتهم وشهواتهم، وإغفالهم أمر أصحاب الأخبار وتركهم تعرف نيات وزرائهم وقوادهم وأمور عساكرهم وتعويلهم عَلى الاتفاقات والدّول الّتي لا يوثق بها، وقلة تصفحهم أحوال الملوك قبلهم ممن استقامت أمورهم، كيف كانت سيرتهم، وكيف ضبطوا ممالكهم ونيات أصحابهم بضروب الضبط، أولاً بالدّين الّذي يحفظ نظامهم ويملك سرائرهم، ثمّ بأصحاب الأخبار الثقات والعيون المذكاة علي مدبري أمورهم، والتفقد لهم يوما يوما وحالا فحالا وترك إيحاشهم ما أمكن ومداراة من تجب مداراته، والبطش بمن لا حيلة في استصلاحه ولا دواء لسيرته](٢).

ثمّ إليك ما دونه الإِمَام السيوطي في تاريخه:

[في دولة بني العبّاس افترقت كلمة الإِسْلَام وسقط اسم العَرَب من الديوان وأدخل الأتراك في الديوان واستولت الديلم ثمّ الأتراك، وصارت لهم دولة عظيمة، وانقسمت الممالك عدّة أقسام وصار بكل قطر قائم يأخذ النّاس بالعسف ويملكهم بالقوة](٣).

---

(١) صورة الأرض لابن حوقل: (١/ ٣)

(٢) تجارب الأمم وتعاقب الهمم: (٦/ ٦٨).

(٣) تاريخ الخلفاء (١٩٣).

ولم يكن أمراء وخُلَفَاء الأندلس أفضل حالا من أهل المشرق، فقد جاروهم في الترف، فأغفلهم عن عدوهم، فسطا عليهم وأخرجهم من ديارهم، ففي سنة ٤٥٦هـ جرت وقعة بين المُسلِمِين والأسبان في قرية (بطرنة) من أعمال (بلنسية) وفيها تغلب الإسبان عَلى المُسلِمِين، ومنها توجهوا لاحتلال (بلنسية).

ويصف لنا ابن بسام ما حلّ بأهل بلنسية حين داهمهم الإسبان فيقول:

[... **ونزل الفرنج عَلى بلنسية وأهلها جاهلون بالحَرب، معرضون عَلى أمر الطعن والضرب، مقبلون عَلى اللذات من الأكل والشرب، وأظهر الفرنج الندم عَلى منازلها والضّعف عن مقاومة من فيها، وخدعوهم بذلك فانخدعوا وأطمعوهم فطمعوا، وكمن في عدّة أماكن جماعة من الفرنج، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم، وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن عامر، فاستدرجهم الفرنج ثمّ عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر وما نجا منهم إلا من حصنه أجله، وخلص الأمير نفسه**].

وهكذا جرى لأهل (طليطلة) - كما يقول ابن بسام - فإن ألفونسو السَّادس استظهر عليهم، وقتل جماهيرهم، وكان من جملة ما غنمه الفرنج من أهلها، لما خرجوا إليهم في ثياب الزينة، ألف غفارة خارجا عما سواها.

وليس أوجز ولا أبلغ في وصف حال الأندلس آنذاك، وحال معظم ممالك وإمارات المُسلِمِين الّتي دهمها الصّليبيّون والتّتار كذلك بعد ذلك بقليل، مما وصف به الإِمَام الجليل **(ابن حزم الأندلسي)** أحوال الأندلس في القرن الخامس الهجريّ مما أحدثه ملوك الطوائف، فقال رَحِمَهُ اللهُ كلمات تحس الأسى يشع من بين حروفها، وأعجب ما فيها أنها تصلح لوصف أحوالنا هذه الأيّام في ظل حكامنا وتعاونهم مع الصّليبيّين عَلى بعضهم وعلى شعوبهم.

قَالَ ابن حزم عن أمراء الأندلس في زمانه، في كتاب**(التلخيص في وجوه التخليص)**:

[**فهذا أمر امتحنا به نسأل الله السَّلامة، وهي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تَعَالَى، لوجوه كثيرة يطول لها الخطاب، وعمدة ذلك ؛ أن كلّ مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها محارب لله ورسوله ﷺ، ساع في الأرض بالفساد، للذي ترونه عيانا من شنهم الغارات عَلى**

أموال المُسلِمِين من الرعية الّتي تكون في ملك من ضادهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطّريق، ضاربون للجزية والمكوس والضرائب عَلى رقاب المُسلِمِين، مسلطون لليهود والنّصَارى عَلى قوارع طرق المُسلِمِين، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم منها استدامة إنفاذ أمرهم ونهيهم، فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن عَلى قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، النّاصرون لهم عَلى فسقهم.

فالمخلص لنا منها ؛ الإمساك بالألسنة جملة وتفصيلا إلا عن أمر بالمعروف أو نهي عن المُنكر وذم جميعهم، والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النّصَارى، ويمكنون لهم من حرم المُسلِمِين، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا، فأخلوها من الإِسْلَام وعمروها بالنواقيس.

لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه، فمن عجز عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه، وأن ينكر بقلبه، هذا مع أنه لو اجتمع كلّ من ينكر بقلبه لما غلبوا عَلى أمرهم] أهـ.(١)

****

ضعف الوازع الإيماني وأثره في انهيار الدّولة الإِسْلَاميّة:

لقد كانَ إيمان المُسلِمِين الأولين ناصعا لا تفسده الأهواء، قوي الإحساس بالعدل وبكل مكارم الأخلاق، فقادهم إلى الفتح العظيم، ودخل النّاس في دينهم أفواجا لما رأوا من صدق دعوتهم، وكانوا فيها مثلا يحتذى، فلما ترف أخلافهم بنعماء الدُّنيَا وأسرفوا منها، تعلقوا بأذيالها، وأقبلوا عليها إقبال عاشق غاب رقيبه.

ويستفاد مما تقدم أن ضعف الوازع الإيماني في الراعي وغالبية الرعية، قد حاد بالمُسلِمين عن خُطّة الإِسْلَام، فالإِسْلَام أقام الإيمان رقيبا عَلى أعمال الإنسان وزوده بدقة الحس في التمييز بين الخير

---

(١) رسائل ابن حزم : رسالة التلخيص لوجوه التخليص (٣/ ١٧٣)

والشر، وبين الفضيلة والرَّذِيلة، وبين العدل والظُّلم، وعندما تعصف الأهواء بالإيمان، يفقد الإحساس بالخير والعدل والفضيلة.

ولما تراخت رقابة الإيمان عَلى أعمالهم حلّ الظُّلم محل العدل، فأخفت صوت الحقّ، وقضى سيف الظُّلم عَلى صولته، وأضحت القوّة هيَ الحاكم الّذي لا يرد والحكم الّذي لا ينقض، وبرز البَاطِل يختال في قصور الخُلَفَاء والأمراء والوزراء والأثرياء، متشحا بكل مظاهر العبث والمجون، فألهاهم عن مصالح الأُمّة، فشاع الفساد في الحكم والقضاء والإدارة، وقفز إلى مناصب الدّولة المنافقون ومنهم من اتخذ الدّين سلما للوصول إليها، فساهموا في الإفساد وأعانوا عَلى الظُّلم، وسادت الفوضى فكانت غنما للصوص والعيارين، وقامت لهم دولة في بغداد يحميها قادة من الجيش لقاء جزية يتقاضونها مما ينهبون.

وعاش عامة الشعب في فقر وخوف، وقهر ومذلة، فضمر ساعده وفقد قدرته عَلى القِتَال، وخمدت همته، فأضحى في حالة رق فقد فيها قدرته عَلى الإبداع، فأوقفه الزَّمن عن المسير، وأخذ ينظر إلى الشّعوب تتقدمه وهو معقود اللسان ومغلول اليدين، فلا يستطيع حراكا، إلى هذه الحالة آل أمر المُسلِمِين، في جميع الدّول الّتي تشتت فيها دولتهم، لتساوي العلة فيها.

وقد كانَ رسول الله ﷺ كانَ يعلم ما سيؤولون إليه حين قَالَ لهم: «**ثمّ يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**»، **فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:** «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**»، **فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:** «**حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»[1].

****

(١) رواه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٢٢٣٩٧) وحسنه الأرنؤوط، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة (٩٥٨).

تفشي ظاهرة علماء السُّلطَان خلال المَرحَلَة العبّاسيّة:

إن فساد الدّين، وفساد الخلق أساسه فساد فئتين من النّاس هم العُلَماء والحكام كما قَالَ ابن المبارك رحمه الله:

وهل أفسد الدّين إلا الملوك ✡ وأحبار سوء ورهبانها

وفساد الحكَّام سببه فساد العُلَماء، وفساد العُلَماء سببه الإخلاد إلى الأرض وحب المال والجاه، يقول حجة الإِسْلَام الإِمَام **أبو حامد الغزالي** رحمه الله، واصفاً حال علماء عصره بعد أن ذكر من مواقف علماء السَّلَف وتضحيتهم في سبيل الحقّ وعدم اكتراثهم ببأس السّلاطين، وكان قد عاش في القرن الخامس، وعاصر الدّولة السلجوقية، وما عاصرها من الممالك المستقلة، بعد أن وهنت عرى الخِلافَة العبّاسيّة:

[وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العُلَماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم، فلم ينجحوا ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا، ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العُلَماء، وفساد العُلَماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدُّنيَا فلم يقدر عَلَى الحسبة عَلَى الأراذل، فكيف عَلَى الملوك والأكابر، والله المُستَعان عَلَى كلّ حال][1].

وأما الإِمَام الجليل ابن تَيمِيّة فقد قضى عمره في صِرَاع مع من فسد من علماء السّلاطين، وأئمة البِدَع، وكان معاصرا للدولة المملوكية في القرن الثَّامن في عهد محمّد بن قلاوون فيما كانت هجمات التّتار تعصف ببلاد الشّام، حتَّى بلغ به أن يقول مما يرى من نفاق علماء السّلاطين وممالأتهم للأمراء عَلَى جورهم وفساد أحوالهم، فقال:

[وَمَتَى تَرَكَ الْعَالِمُ مَا عَلِمَهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَاتَّبَعَ حُكْمَ الْحَاكِمِ الْمُخَالِفِ لِحُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ كَانَ مُرْتَدًّا كَافِرًا يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ!!][2].

وأما ابن حزم الّذي عاش زمن ملوك الطوائف، فقد مر قوله يعرض بفقهاء القصور، وعلماء السُّلطَان في زمانه:

---

(١) إحياء علوم الدين: (٢/ ٣٥٧).

(٢) الفتاوى: (ج٣٥ ص٣٧٢-٣٧٣).

[.. مسلطون لليهود والنّصَارى عَلى قوارع طرق المُسلِمِين، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم منها استدامة إنفاذ أمرهم ونهيهم، فلا تغالطوا أنفسكم، **ولا يغرنكم الفساق والمتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن عَلى قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، النّاصرون لهم عَلى فسقهم...]**(١) وقد طفحت كتب التّاريخ بما سجله علماء الحقّ، وأئمة الهدى الّذين اعتزلوا قطار الظُّلم والضلال مما عانوه وشاهدوه من فساد طبقة علماء السّلاطين، وممالأتهم للأمراء.

وكان هذا من أسباب فساد الأحوال الّتي مهدت، لتتابع العقاب السنني القدري، باجتياح غارات الأَعدَاء لعقر ديار المُسلِمِين، قَالَ تَعَالَىَ:

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء]

وهكذا جرت السنن عَلى تلك الممالك ومن عاش فيها من حُكَّام ومحكومين.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود]

وهكذا مضت الأمم وتفانت الدّول، وبقيت العبرة مريرة والسنن ماضية. قَالَ تَعَالَىَ:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام] وهكذا هجم الرُّوم والصّليبيّون عَلى بلاد المُسلِمِين من الغرب، واجتاحهم المغول من الشّرق، وسقطت بلاد الإِسْلَام والمُسلِمين تحت سنابك خيل العدوّ، ليسجل لنا التّاريخ أهوالا يشيب لذكرها الولدان، وتقشعر لها الأبدان، بما كسبت أيدي النّاس حكاما ومحكومين ولله الأمر من قبل ومن بعد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق]

****

(١) رسائل ابن حزم: رسالة التلخيص لوجوه التخليص (٣/ ١٧٣).

الغزو الخارجي للعالم الإِسْلَاميّ

في خضم تلك الأحداث الّتي سادت العالم الإِسْلَاميّ من انقسام دوله وتسارع انهيارها، وتنازع ملوكها وسلاطينها وأمرائها وقادتها، وإفناء بعضهم البعض بالحُرُوب في التزاحم عَلى السّلطة والاستئثار بها.

في خضم تلك الأحداث كانَ العالم الإِسْلَاميّ هدفا لعدوان انصب عليه من المغرب والمشرق.

* فمن المغرب شنت أوروبّا المسيحية عليه خلال قرنين من الزّمان سبع حملات صليبيّة عَلى بلاد الشّام ومصر.

وفي بلاد الأندلس تتابعت حملات الإسبان الصّليبيّة، وكانت البابوية صاحبة الدّعوة لهذه الحُرُوب.

* ومن المشرق اقتحمت جُيُوش المغول (التّتار) الدّول الإِسْلَاميّة في بلاد ما بين النهرين وتجاوزتها إلى إيران والعراق وآسيا الصغرى وأخيرا بلاد الشّام متجهة إلى مصر.

وقد تمكنت دولة الأيوبيين ومن بعدها دولة المماليك من صد هذه الحملات في موقعتين شهيرتين هما (حطين) مع الصّليبيّين، و(عين جالوت) مع التّتار.

أما في بلاد الأندلس فكان الصِّرَاع عَلى الملك بين الملوك والانشغال به عن أمور الدويلات المتصارعة القدر المحتوم للنهاية الّتي ختمت بها دولة الإِسْلَام بعد حكم دام ثماني مئة عام.

أولا- النورمانديون يخرجون المُسلِمِين من جنوب إيطاليا وصقلية:

في عام ٢١٢هـ استولى العَرَب عَلى جَزِيرَة صقلية بقيادة قاضي القيروان أسد ابن الفرات في عهد زيادة الله الأوّل الأغلبي، أمير إفريقية (تونس) واكتمل فتحها سنة ٢٤٨هـ وأقيمت مدينة (بالرمو) عاصمة لها، وضمت إلى دولة الأغالبة في تونس.

وفي عام ٢٢٦هـ اجتاز العَرَب البحر من شمال صقلية إلى جنوب إيطاليا واستولوا عَلى مدينة (باري) وألحقوها بدولتهم بصقلية.

وفي عام ٢٩٧هـ انقضت دولة الأغالبة باستيلاء العبيديين عليها بزعامة عبيد الله المهدي وألحقوها بدولتهم الّتي أقاموها في تونس حتَّى سنة ٣٣٦هـ، إذ ثار الكلبيون في صقلية عَلى حكم العبيديين واستقلوا بها بزعامة الحسن بن علي الكلبي.

وفي عام ٤٣٢هـ استولى النورمانديون عَلى جنوب إيطاليا بزعامة (toncred de hauteville تنكريد ده هوتفيل) وأقاموا فيها دولة نورماندية وأخرجوا العَرَب من مدينة (باري).

وفي عام ٤٦٤هـ اجتاز النورمانديون البحر إلى صقلية بزعامة (rober jescar i روبير جيسكار الأوّل) وأخذوا بطرد العَرَب منها وأتموا الاستيلاء عليها سنة ٤٨٠هـ، وأزالوا الحكم العربيّ وانطوى علمه، الّذي كانَ خفاقا مدّة (٢٧٠) عاماً.

ثانياً - الحُرُوب الصّليبيّة: أسبابها وعواملها:

ترجع هذه الحُرُوب في أسبابها إلى ثلاثة عوامل مجتمعة: دينية وسياسيّة واقتصاديَّة.

ففي أعقاب خطاب ألقاه البابا (أوربّان الثّالث) في مدينة كليرمون فراند (clermont ferrand) بفرنسا في ٢٦ نوفمبر - تشرين الثّاني - سنة ٤٨٨ / ١٠٩٥م استجاب فيه لنداء من الإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين يطلب منه العون ضدّ السلاجقة الأتراك وإعلان الحَرب عليهم، لبس لباس النسك وعرف ببطرس النّاسك، وفيها دعا إلى حرب المُسلِمِين واسترداد بيت المَقْدِس من أيديهم.

وقد استجاب لنداء البابا وصيحة الراهب فئات ثلاث: الفقراء والأقنان (أرقاء الأرض)، وأمراء الإقطاع، وأصحاب التجارات، فأما الفقراء وهم الطّبقة الكبرى فكانوا يعيشون في قلة وحرمان، تفتك فيهم الأوبئة الّتي كانت تجتاح أوربّا ومثلهم الأقنان، وهم الأرقاء المرتبطون بأراضي السادة الإقطاعيين، يملكهم السيد الإقطاعي مع الأرض، فكان هَؤُلَاءِ يحلمون ببلاد فيها كلّ النعيم ويطمعون بغفران الكنيسة لخطاياهم، وكانت هذه هيَ القوّة الروحية الدافعة للحرب.

وأما أمراء الإقطاع فكانوا فئتين، فئة تملك اللقب والمال وفئة فقيرة تملك اللقب ولا تملك المال، وذلك أن شريعة الإرث في نظام الإقطاع كانت تقضي بتوريث الولد البكر اللقب والمال وتخص الآخرين من الأبناء باللقب دون المال، وكان يطلق عليهم اسم (المعدمين sans avoir) أي الّذين لا يملكون شيئا أو يطلق عليهم اسم (بدون أرض sans terre) أي الّذين لا يملكون أرضا.

وكان الأمراء المالكون للإقطاع في صِرَاع فيما بينهم، وكانت الدّعوة للحرب الصّليبيّة سببا في عقد أيديهم بالصُّلح وتحويل الصِّرَاع إلى قتال المُسلِمِين، أما الأمراء الّذين لا يملكون فكانوا ينتزعون معيشتهم بالقتل والقتال، ينقمون عَلى مجتمع خصهم بالحرمان، فكانت الدّعوة لحرب المُسلِمِين منفرجا لهم ومنعرجا في سلوكهم، فانضمت أفواجهم إليها طمعا في أرض يملكونها وغنائم ينعمون بها، وأما أصحاب التجارات فهم أصحاب المدن البحرية الّذين يملكون السفن ويحلمون بالوصول إلى شواطئ بلاد الشّام لإقامة علاقات تجاريَّة مع مدنها، وقد حققت مدن جنوة وبيزا والبندقية الإيطالية أحلامها وجنت أرباحا كبيرة في نقل الحملات الصّليبيّة والاتجار مع بلاد مصر والشّام، وقد تعاقبت الحُرُوب الصّليبيّة في سبع حملات في مدى مائتي عام:

الحملة الصّليبيّة الأولى (٤٩١هـ/ ١٠٩٧ م):

وتقسم إلى قسمين:

الحملة الشعبيَّة: وقد قادها بطرس النّاسك، والأسقف مونتي، وتكونت من جموع غفيرة غير منتظمة ولا مؤتلفة، وكان أكثرها من الفرنسيين، لأن الدّعوة لحرب المُسلِمِين جاءت من (بابا) فرنسي وصدرت من بلدة فرنسية ونادى بها راهب فرنسي، لذلك كانَ المُسلِمُون يسمون الصّليبيّين بالفرنجة وهو الاسم القديم للفرنسيين في ذلك الزّمان من العوام والغوغاء تحركوا بغير تجهيز ولا ترتيب، واعتمدوا في طريقهم النهب والسلب، فقاتلهم النّاس عَلى طول طريقهم في بلدان أوربّا الشرقية، ثمّ مروا بالقُسطَنْطينيَّة، وعبروا منها إلى أسيا الصغرى، وهناك تولى السلاجقة القضاء عليهم بكل سهولة.

حملة الأمراء: وقد تحركت في إثرها وقد تألفت هذه الحملة من خليط من أمراء أوربيين، وقد تولى قيادة تلك الجموع أمراء فرنسيون توجهوا بها بطريق البر واجتازوا بها مدينة القُسطَنْطينيَّة، وتمكنت الحملة من شق طريقها إلى الحدود الفاصلة بين شرق الأناضول وبلاد الشّام فافترقت إلى ثلاث فرق، فرقة اتجهت شرقا واحتلت مدينة (الرها edesse) سنة ٤٩١هـ وأقامت بها إمارة صليبيّة بزعامة (بودوان الأوّل baudouin)

وفرقة اتجهت نحو الجنوب ودخلت بلاد الشّام باتجاه ساحل المتوسط واحتلت مدينة أنطاكية سنة ٤٩٢هـ وأقامت فيها إمارة صليبيّة أُخرى بزعامة (بوهمند الثّاني النورماندي(bohemond II) ثمّ اتجهت نحو القُدس فوصلتها سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م وأطبقت عليها بحصارها، ولم تتمكن الحامية الفاطميّة من الدّفاع عنها فاستسلمت ودخلها الصّليبيّون في يوم ١٥ تموز / يوليو / سنة ١٠٩٩م وأثخنوا القتل في أهلها من مُسلِمِين ويهود ومسيحيين أرثوذكس، ويعترف المؤرخون الأوروبيون بهول ما فعله الصّليبيّون وفي ذلك تقول المؤرخة الألمانية (زوي أولدنبورغ zoe oldenburg) في كتابها عن الحُرُوب الصّليبيّة: (إن المذبحة الّتي أقدم عليها الصّليبيّون في اجتياحهم القُدس تعد في عداد أكبر جرائم التّاريخ).

وقد أقام الصّليبيّون في القُدس مملكة صليبيّة بزعامة أمير اللورين (غودفراده بويون godefroy de bouillon) وفي عام ١١٠٠م توجه لحصار عكا فأصابه سهم فقتل وخلفه أخوه (بودوان baudouin).

الحملة الصّليبيّة الثّانية (٥٣٩هـ/ ١١٤٥ م):

في عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م استرد أمير الموصل عماد الدّين زنكي مدينة الرها من الصّليبيّين، وأسقط إمارتها فتألفت بسببها حملة صليبيّة ثانية بزعامة كونراد الثّالث (Conrad III) ملك ألمانيا ولويس التّاسع (Louis ix) ملك فرانسا، ولكن عماد الدّين زنكي دحرهم، وبعد أن اغتال الحشاشون الباطنية عماد الدّين زنكي، حمل ابنه نور الدّين زنكي لواء الجِهَاد ضدّ الصّليبيّين، واستطاع

استرداد مدينة انطاكية سنة (٥٥٩هـ / ١١٦٣ م)، وهكذا عادت الحملة الثّالثة أدراجها بعد فشلها في حصار دمشق، ثمّ تابع نور الدّين جِهَادهم طيلة حياته بلا كلل.

ولما ورث صلاح الدّين الأيوبي مملكة نور الدّين، وأقام الدّولة الأيوبية حمل الأمانة بهمة وتفاني، وتتالت انتصاراته إلى أن توجها بمعركة حطين (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) حيث أسر فيها ملك بيت المَقْدِس الصّليبيّ(جان لوزجنان) وكبار أمراء الصّليبيّين، وقتل أرناط الّذي قطع طريق الحجّ وكان سبب انهيار الهدنة بينه وبينهم، ثمّ تابع صلاح الدّين بعد حطين، فاسترد طبريا، وعكا، وقيسارية، وحيفا، ويافا، وصيدا، مما سبب قدوم الحملة الثّالثة.

الحملة الصّليبيّة الثّالثة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م):

نتيجة انتصاراتِ صلاحِ الدّين، تألَفت حملةٌ صليبيّةٌ ثالثة بزعامة فردريك بارباروس الأوّل ملكُ ألمانيا (Fredric barbarous) و(فيليب أوغست Philippe Augusta) ملك فرنسا و(ريتشارد قلب الأسد Richard Coeur de lion) ملك إنكلترا.

وقد سلك فردريك طريق البرّ واجتاز القُسطَنْطينيَّة إلى برّ الأناضول وغرق أثناء عبوره نهراً في (كليكيا) وتشتَّت حملته، وعاد فيليب أوغست إلى فرنسا بعد اختلافه مع ريتشارد قلب الأسد وزعموا أنَّ ذلك كانَ لمرضه، أما ريتشارد قلب الأسد فقد تابع طريقه، ولكنّ صلاح الدّين تمكّن من فتح بيت المَقْدِس (٥٨٣هـ / ١١٨٧م) ثمّ عقد صلحًا مع ريتشارد قلب الأسد دعي بصلح الرَّملة سنة (٥٨٨هـ - ١١٩٢م)، رجع ريتشارد عَلَى إثره إلى بلاده.

الحملة الصّليبيّة الرَّابعة (٥٩٥هـ / ١١٩٨ م):

بعد استرداد بيت المَقْدِس، استصرخ البابا (أنوست الثّالث) ملوك أوربّا لاسترداد بيت المَقْدِس، وفي عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢م تألفت حملة صليبيّة أعدها أمراء فرنسيون منهم (بودوان التّاسع أمير فلاندر) و(تيبو الثّالث أمير شامباني) و(لويس أمير بلوا) وآخرون، وكانت مصر هدفا لهم، وقد اتفقوا مع ملاحي البندقية عَلَى نقلهم إلى الإسكندرية، ولما علم الملك العادل الأيوبي بهذا الاتفاق، منح

البنادقة امتيازات تجاريَّة فتحول قادة الحملة إلى القُسطَنْطينيَّة فاجتاحوها وأقاموا فيها دولة لاتينية سنة (٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م) ولّوا عليها بودوان التّاسع ملكا وأعلنوا المذهب الكاثوليكي وقد استمرت هذه الدّولة قائمة حتَّى سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م، ولكن بعض جنود الحملة تابعوا طريقهم وانضم إليهم بعض الصّليبيّين من سواحل الشّام وهاجموا مدينة رشيد في دلت النيل، وفشلوا في دخولها وعادوا خائبين لم تحقق هدفها كحملة صليبيّة.

**** حملة الأطفال (٦٠٨هـ/ ١٢١٢ م):**

بعد شيوع أخبار سقوط بيت المَقْدِس وفشل الحملة الرَّابعة عم السخط الأوسط الأوربية، وتعاظم الحماس الدّيني حتَّى بين الأطفال، الّذين زعم أحدهم أن العناية الإلهية كلفته بقيادة الحملة وانضم بعض القساوسة للترويج لها، حيث توجه بالأطفال من قادهم إلى موانئ إيطاليا، حيث حملتهم السفن إلى موانئ الشّام، حيث يروى أن تجار الرقيق غدروا بهم حيث باعوهم في أسواق النخاسة في المشرق.

الحملة الصّليبيّة الخامسة (٦١٤هـ/ ١٢١٢ م):

تألفت هذه الحملة سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٩م بزعامة (جان ده بريان Jean de brienne) ملك بيت المَقْدِس الّذي أراد حماية أملاكه في الشّام، واتجهت الحملة إلى مصر فاستولت عَلى مدينة دمياط نتيجة مرض الملك الكامل، ثمّ اتجهوا إلى مدينة فارسكو، وقت فيضان النيل، ففتح الفلاحون عليهم سيول ماء النيل، ثمّ هاجمتهم جُيُوش الكامل وغنمت معظم سفنهم وسلاحهم، ثمّ استرد المصريون دمياط وأجلوا الحملة عن مصر.

الحملة الصّليبيّة السَّادسة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨ م):

أعد هذه الحملة الملك (فردريك الثّاني، ملك ألمانيا Frederic) بتحريض من البابوية، فقد توجه بحملته سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨م إلى بلاد الشّام بطريق البحر، وكان الملك الكامل، صاحب

مصر، قد استنجد به ليعينه عَلى أخيه الملك المعظم عيسى لكي ينتزع منه دمشق وفق شروط تمَّ الاتفاق عليها منها تسليمه القُدس وقدم فردريك بحملته إلى عكا، وكان الملك المعظم عيسى قد توفي وخلفه ابنه الملك المنصور داود فتصالح مع عمه الملك الكامل وسلمه دمشق حيث أعطاه بدلا منها مدن صرخد والشوبك والكرك.

وباستلام الملك الكامل لمدينة دمشق نفذ شروط الاتفاق وسلم فردريك مدينة القُدس فدخلها وتوج نفسه ملكا عليها وعاد إلى بلاده وبذلك أنهى مهمة الحملة الصّليبيّة الّتي قادها دون قتال.



تكوين الإمارات الصليبية بالشام
نتيجة للحملة الصليبية الأولى



حطين والإمارات الصليبية بعد حروب صلاح الدين



الحملة الصّليبيّة السَّابعة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م):

جهز هذه الحملة الملك الفرنسي لويس التّاسع الملقب – لتدينه – بالقديس لويس، ووجهها نحو مصر، فقد رأى أن استرداد بيت المَقْدِس عن طريق مصر أيسر من استردادها عن طريق بلاد الشّام،

فتوجه بحملة بحرية إلى مصر سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٩م واستولى عَلى مدينة دمياط نتيجة مرض الملك الصّالح نجم الدّين أيوب، ثمّ توجه لحصار المَنصُورَة، وخلال الموقعة الّتي جرت فيها بينه وبين المُسلِمِين توفي الملك الصّالح نجم الدّين أيوب فأخفت زوجته شجرة الدر الخبر، وقاد ابنها توران شاه، وقائد أبيه ومملوكه (المعز إيبك) المَعْرَكة الّتي كتب فيها النّصر، وأسر الملك الفرنسي مع جملة من أمراء الحملة، وأودعوا السّجن في دار ابن لقمان ثمّ أطلق لقاء فدية كبيرة.

**** محاولة صليبيّة لغزو مصر من إفريقية:**

لم يبرح الملك لويس التّاسع التّفكير بغزو مصر وعزم عَلى تنفيذ فكرته بغزوها عن طريق إفريقية (تونس) فقاد إليها سنة ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠م حملة، ولكن القدر كانَ أغلب منه، فقد نبا به جواده وهلك، وقيل أن هلاكه كانَ بسبب الوباء، وهكذا باءت خطته بالفشل والخسران.

وقد توقفت بعد هذه الحملة الحملات الصّليبيّة عَلى بلاد الشّام ومصر وانصرف أمراء أوربّا إلى حُرُوبهم الداخليَّة هناك، غير أن احتلال الصّليبيّين لبعض مدنها وقلاعها ظل قائما إلى أن جاءت دولة المماليك البحرية فجرد عليهم الملك الظَّاهِر بيبرس البندقداري ومن بعده الملك قلاوون جُيُوشه وأخرجهم من بلاد الشّام فتحررت منهم بعد مائتي عام ونيف من السنين قضوها في بعض مناطقها، وكانت سنة (٦٤٨هـ/ ١٢٩١م) سنة سقوط عكا، آخر معاقل الصّليبيّين في بلادنا موعد تنظيف سواحل الشّام من دنسهم.

****

ثالثا- اجتياح التّتار (المغول) للعالم الإسْلَاميّ:

قامت دولة المغول بزعامة مغولي يدعى (تيموجين)، وقد تمكن من جمع أشتات قبيلته والاستيلاء عَلى بلاد الصين وبلاد التيبت وقهر الشّعوب المحيطة بدولته، فدعاه شيوخ قبيلته (جنكيزخان) أي الملك القاهر وأصبح معروفا بهذا اللقب.

وقد أراد أن يقيم علاقات حسن جوار مع دولة خوارزم وكانت أكبر دولة إسلاميّة في المشرق وملكها يومئذ علاء الدّين محمّد، لتأمين التبادل التجاري مع بلاده وحماية القوافل التجاريَّة مع البلاد الإِسْلَاميّة، فأرسل إليه رسلا يحملون كتابا منه يطلب فيه أن يتعهد له بتأمين التبادل التجاري وحماية القوافل التجاريَّة، فلم يجد خوارزم شاه في عبارة الكتاب ما يليق بمقامه، فقد وجد أن جنكيزخان يخاطبه كما يخاطب ابنه، فوافق عَلَى طلبه عَلَى مضض، وكتم غيظه حتَّى وقعت الواقعة.

فقد توجهت قافلة كبيرة، تحمل أموالا ثمينة، فلما اجتازت حدود خوارزم ودخلت مدينة (أترار) قبض عاملها عَلَى أفرادها فقتلهم وصادر أموال القافلة، وقيل إن ما فعله كانَ بأمر شاه خوارزم علاء الدّين، فلما علم جنكيز خان بالأمر صمم عَلَى الانتقام، وتوجه سنة ٦١٤هـ عَلَى رأس جيش جرار، فغزا خوارزم وأخرب مدنها ومنها سمرقند وبخارى وقتل من فيها من السّكّان، ولم يستطع علاء الدّين خوارزم شاه مقاومة هذا الغزو، فهرب من وجه المغول، فتبعوه وأخذوا يطاردونه حتَّى بلغ بحر قزوين فلجأ إلى جَزِيرَة فيه، وفيها توفي سنة ٦١٧هـ مطرودا منسيا،

فخلفه ابنه جلال الدّين منكبرتي، فكان أسوأ حظا من أبيه، وأمضى مدّة ملكه مع فلول جنده، هاربا من إقليم إلى إقليم، حتَّى انتهى به المطاف سنة ٦٢٩هـ إلى ميافارقين بجَزِيرَة عمر، فأوى إلى قرية قريبة منها، فدخل عليه من اغتاله فقضى شريدا، وبه انتهت دولة خوارزم.

وعاد جنكيزخان إلى بلاده، وتولى حفيده (هولاكو) قيادة جحافل المغول متجها نحو المشرق، يغير عَلَى مدنه ويمعن فيها القتل والسبي والنهب، حتَّى أحاطت جُيُوشه ببغداد في شهر صفر سنة ٦٥٦هـ فاجتاحها وأخذ جنده في تخريبها وسفك دماء أهلها، ولم يسلم الخَليفَة المستعصم بالله من نقمة المغول فقتلوه مع أهله في اليَوْم الرَّابع من شهر صفر من ذلك العام وبقتله انقضت دولة بني العبّاس ببغداد.

خُلاصة أحوال المُسلِمِين إبَّان اجتياح التّتار بحسب رواية ابن كثير رحمه الله:

وسأورد مجملا عنها بشيء من الإسهاب لما فيها من الدُّروس والعبر والتشابه مع أحوالنا هذه الأيّام، والله المُستَعان.

قَالَ ابن كثير رحمه الله:

ففي سنة٦١٦ هـ:

عَبَرَتِ التَّتَارُ نَهْرَ جَيْحُونَ صُحْبَةَ مَلِكِهِمْ جِنْكِزْخَانَ مِنْ بِلَادِهِمْ، وَكَانُوا يَسْكُنُونَ جِبَالَ طَمْغَاجَ مِنْ أَرْضِ الصِّينِ وَلُغَتُهُمْ مُخَالِفَةٌ لِلُغَةِ سَائِرِ التَّتَارِ، وَهُمْ مِنْ أَشْجَعِهِمْ وَأَصْبَرِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ، وَسَبَبُ دُخُولِهِمْ نَهْرَ جَيْحُونَ أَنَّ جِنْكِزْخَانَ بَعَثَ تُجَّارًا لَهُ وَمَعَهُمْ أَمْوَالٌ كَثِيرَةٌ إلى بلاد خوارزم شاه يبتضعون له ثِيَابًا لِلْكُسْوَةِ، فَكَتَبَ نَائِبُهَا إِلَى خُوَارَزْمَ شَاهْ يَذْكُرُ لَهُ مَا مَعَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الْأَمْوَالِ، فأرسل إليه بأن يقتلهم ويأخذ ما معهم، ففعل ذلك، فلما بلغ جنكزخان خبرهم أرسل يتهدد خوارزم شاه، ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلا جيدا، فلما تهدده أشار مَنْ أَشَارَ عَلَى خُوَارَزْمَ شَاهْ بِالْمَسِيرِ إِلَيْهِمْ، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بِقِتَالِ كَشْلِي خَانَ، فَنَهَبَ خُوَارَزْمُ شَاهْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَهِمْ وَأَطْفَالَهُمْ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ مَحْرُوبِينَ فَاقْتَتَلُوا مَعَهُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ قِتَالًا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ، أُولَئِكَ يُقَاتِلُونَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَالْمُسْلِمُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مَتَى وَلَّوا اسْتَأْصَلُوهُمْ، فَقُتِلَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، حَتَّى إِنَّ الْخُيُولَ كَانَتْ تَزْلَقُ فِي الدِّمَاءِ.

وَكَانَ جُمْلَةُ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَحْوًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، وَمِنَ التَّتَارِ أَضْعَافُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَحَاجَزَ الْفَرِيقَانِ وَوَلَّى كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَى بِلَادِهِ وَلَجَأَ خُوَارَزْمُ شَاهْ وَأَصْحَابُهُ إِلَى بُخَارَى وَسَمَرْقَنْدَ فَحَصَّنَهَا وَبَالَغَ فِي كَثْرَةِ مَنْ تَرَكَ فِيهَا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، وَرَجَعَ إِلَى بِلَادِهِ لِيُجَهِّزَ

غارات المغول على الدول الإسلامية خلال القرن الثالث عشر



الْجُيُوشَ الْكَثِيرَةَ، فَقَصَدَتِ التَّتَارُ بُخَارَى وَبِهَا عِشْرُونَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ فَحَاصَرَهَا جِنْكِزْخَانُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَهْلُهَا الْأَمَانَ فَأَمَّنَهُمْ وَدَخَلَهَا فَأَحْسَنَ السِّيرَةَ فِيهِمْ مَكْرًا وَخَدِيعَةً، وَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِ الْقَلْعَةُ فَحَاصَرَهَا وَاسْتَعْمَلَ أَهْلَ الْبَلَدِ فِي طم خندقها وكانت التَّتَارُ يَأْتُونَ بِالْمَنَابِرِ وَالرَّبَعَاتِ فَيَطْرَحُونَهَا فِي الْخَنْدَقِ يطمونه بها ففتحوها قَسْرًا فِي عَشَرَةِ أَيَّامٍ، فَقَتَلَ مَنْ كَانَ بِهَا، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْبَلَدِ فَاصْطَفَى أَمْوَالَ تجارها وأحلها لِجُنْدِهِ فَقَتَلُوا مِنْ أَهْلِهَا خَلْقًا لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَسَرُوا الذُّرِّيَّةَ وَالنِّسَاءَ، وَفَعَلُوا مَعَهُنَّ الْفَوَاحِشَ بِحَضْرَةِ أَهْلِيهِنَّ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَاتَلَ دُونَ حَرِيمِهِ حَتَّى قُتِلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُسِرَ فَعُذِّبَ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَكَثُرَ الْبُكَاءُ والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثُمَّ أَلْقَتِ التَّتَارُ النَّارَ فِي دُورِ بُخَارَى وَمَدَارِسِهَا وَمَسَاجِدِهَا فَاحْتَرَقَتْ حَتَّى صَارَتْ بِلَاقِعَ خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا، ثُمَّ كَرُّوا رَاجِعِينَ عَنْهَا قَاصِدِينَ سمرقند.

وفي سنة ٦١٧ هـ:

فِي هَذِهِ السَّنَةِ عَمَّ الْبَلَاءُ وَعَظُمَ الْعَزَاءُ بجنكزخان المسمى بتموجين لعنه الله تعالى، ومن مَعَهُ مِنَ التَّتَارِ قَبَّحَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ، وَاسْتَفْحَلَ أمرهم واشتد إِفْسَادُهُمْ مِنْ أَقْصَى بِلَادِ الصِّينِ إِلَى أَنْ وَصَلُوا بِلَادَ

الْعِرَاقِ وَمَا حَوْلَهَا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى إِرْبِل وَأَعْمَالِهَا، فَمَلَكُوا فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ هَذِهِ السَّنَةُ سَائِرَ الْمَمَالِكِ إِلَّا الْعِرَاقَ وَالْجَزِيرَةَ وَالشَّامَ وَمِصْرَ، وَقَهَرُوا جَمِيعَ الطَّوَائِفِ الَّتِي بِتِلْكَ النَّوَاحِي الْخُوَارَزْمِيَّةِ وَالْقَفْجَاقِ وَالْكُرْجِ وَاللَّانِ وَالْخَزَرِ وغيرهم، وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعددة كبار مَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ، وَبِالْجُمْلَةِ فَلَمْ يَدْخُلُوا بَلَدًا إِلَّا قَتَلُوا جَمِيعَ مَنْ فِيهِ من المقاتلة وَالرِّجَالِ، وَكَثِيرًا مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ، وَأَتْلَفُوا مَا فِيهِ بِالنَّهْبِ إِنِ احْتَاجُوا إِلَيْهِ، وَبِالْحَرِيقِ إِنْ لَمْ يَحْتَاجُوا إِلَيْهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يَجْمَعُونَ الْحَرِيرَ الْكَثِيرَ الَّذِي يَعْجِزُونَ عَنْ حَمْلِهِ فَيُطْلِقُونَ فِيهِ النَّارَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَيُخَرِّبُونَ الْمَنَازِلَ وما عجزوا عن تخريبه يحرقوه، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع، وَكَانُوا يَأْخُذُونَ الْأُسَارَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيُقَاتِلُونَ بِهِمْ وَيُحَاصِرُونَ بِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَنْصَحُوا فِي الْقِتَالِ قَتَلُوهُمْ.

وَقَدْ بَسَطَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي كَامِلِهِ خَبَرَهُمْ فِي هَذِهِ السَّنَةِ بَسْطًا حَسَنًا مُفَصَّلًا، وَقَدَّمَ عَلَى ذَلِكَ كَلَامًا هَائِلًا فِي تَعْظِيمِ هَذَا الْخَطْبِ الْعَجِيبِ، قَالَ فَنَقُولُ: هَذَا فَصْلٌ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ الْحَادِثَةِ الْعُظْمَى وَالْمُصِيبَةِ الْكُبْرَى الَّتِي عقمت الليالي والأيام عَنْ مِثْلِهَا، عَمَّتِ الْخَلَائِقَ وَخَصَّتِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّ الْعَالَمَ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَإِلَى الْآنَ لَمْ يُبْتَلَوْا بِمِثْلِهَا لَكَانَ صَادِقًا، فَإِنَّ التَّوَارِيخَ لَمْ تَتَضَمَّنْ مَا يُقَارِبُهَا ولا يُدَانِيهَا، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَذْكُرُونَ مِنَ الْحَوَادِثِ ما فعل نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت الْمَقْدِسِ، وَمَا الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا خَرَّبَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاعِينُ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي كُلُّ مَدِينَةٍ مِنْهَا أَضْعَافُ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَمَا بَنُو إسرائيل بالنسبة لما قَتَلُوا، فَإِنَّ أَهْلَ مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ مِمَّنْ قَتَلُوا أَكْثَرُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَعَلَّ الْخَلَائِقَ لَا يَرَوْنَ مِثْلَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ الْعَالَمُ وَتَفْنَى الدُّنْيَا إِلَّا يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَأَمَّا الدَّجَّالُ فَإِنَّهُ يُبْقِي عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُ وَيُهْلِكُ مَنْ خَالَفَهُ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يُبْقُوا عَلَى أَحَدٍ، بَلْ قَتَلُوا الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ، وَشَقُّوا بُطُونَ الحوامل وقتلوا الأجنة، فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ الَّتِي اسْتَطَارَ شَرَرُهَا وَعَمَّ ضَرَرُهَا، وَسَارَتْ فِي الْبِلَادِ كَالسَّحَابِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَإِنَّ قَوْمًا خَرَجُوا مِنْ أَطْرَافِ الصِّينِ فَقَصَدُوا بِلَادَ تُرْكِسْتَانَ مِثْلَ كَاشْغَرَ وَبَلَاسَاغُونَ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ مَا وراء النهر مثل سمرقند وبخارا وَغَيْرِهِمَا، فَيَمْلِكُونَهَا وَيَفْعَلُونَ بِأَهْلِهَا مَا نَذْكُرُهُ، ثُمَّ تَعْبُرُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ إِلَى خُرَاسَانَ فَيَفْرَغُونَ مِنْهَا مُلْكًا وَتَخْرِيبًا وَقَتْلًا وَنَهْبًا، ثُمَّ يُجَاوِزُونَهَا إِلَى الرَّيِّ وَهَمَذَانَ وَبَلَدِ

الْجَبَلِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْبِلَادِ إِلَى حَدِّ الْعِرَاقِ، ثُمَّ يَقْصِدُونَ بِلَادَ أذربيجان وأرانية ويخربونه وَيَقْتُلُونَ أَكْثَرَ أَهْلِهَا وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا الشَّرِيدُ النَّادِرُ فِي أَقَلِّ مِنْ سَنَةٍ، هَذَا مَا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ.

ثُمَّ سَارُوا إِلَى دَرْبَنْدَ شَرْوَانَ فَمَلَكُوا مُدُنَهُ وَلَمْ يَسْلَمْ غَيْرُ قَلْعَتِهِ الَّتِي بِهَا مَلِكُهُمْ، وَعَبَرُوا عِنْدَهَا إِلَى بلد اللان اللكز وَمَنْ فِي ذَلِكَ الصَّقْعِ مِنَ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَأَوْسَعُوهُمْ قَتْلًا وَنَهْبًا وَتَخْرِيبًا، ثُمَّ قَصَدُوا بِلَادَ قَفْجَاقَ وَهُمْ مِنْ أَكْثَرِ التُّرْكِ عَدَدًا فَقَتَلُوا كُلَّ مَنْ وَقَفَ لَهُمْ وَهَرَبَ الْبَاقُونَ إِلَى الْغِيَاضِ وَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ بِلَادَهُمْ، وَسَارَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى إِلَى غَزْنَةَ وَأَعْمَالِهَا وَمَا يُجَاوِرُهَا مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ وَسِجِسْتَانَ وَكَرْمَانَ فَفَعَلُوا فِيهَا مِثْلَ أَفْعَالِ هَؤُلَاءِ وَأَشَدَّ.

هَذَا مَا لَمْ يُطْرِقِ الْأَسْمَاعَ مِثْلُهُ، فَإِنَّ الْإِسْكَنْدَرَ الَّذِي اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ عَلَى أَنَّهُ مَلَكَ الدُّنْيَا لَمْ يَمْلِكْهَا فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّمَا مَلَكَهَا فِي نَحْوِ عَشْرِ سِنِينَ، وَلَمْ يَقْتُلْ أَحَدًا بَلْ رَضِيَ مِنَ النَّاسِ بِالطَّاعَةِ وَهَؤُلَاءِ قَدْ مَلَكُوا أَكْثَرَ الْمَعْمُورِ مِنَ الْأَرْضِ وَأَطْيَبَهُ وَأَحْسَنَهُ عِمَارَةً وَأَكْثَرَهُ أَهْلًا وَأَعْدَلَهُمْ أَخْلَاقًا وَسِيرَةً فِي نَحْوِ سَنَةٍ، وَلَمْ يَتَّفِقْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ الَّتِي لَمْ يَطْرُقُوهَا بَقَاءٌ إِلَّا وَهُوَ خَائِفٌ مُتَرَقِّبٌ وُصُولَهُمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ، وَلَا يُحَرِّمُونَ شَيْئًا، وَيَأْكُلُونَ مَا وَجَدُوهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْمَيْتَاتِ لَعَنَهُمُ اللهُ تَعَالَى.

قَالَ: وَإِنَّمَا اسْتَقَامَ لَهُمْ هَذَا الْأَمْرُ لِعَدَمِ الْمَانِعِ لِأَنَّ السُّلْطَانَ خُوَارَزْمَ شَاهْ مُحَمَّدًا كَانَ قَدْ قَتَلَ الْمُلُوكَ مِنْ سَائِرِ الْمَمَالِكِ واستقر في الأمور، فَلَمَّا انْهَزَمَ مِنْهُمْ فِي الْعَامِ الْمَاضِي وَضَعُفَ عَنْهُمْ وَسَاقُوا وَرَاءَهُ فَهَرَبَ فَلَا يُدْرَى أَيْنَ ذَهَبَ، وَهَلَكَ فِي بَعْضِ جَزَائِرِ الْبَحْرِ، خَلَتِ الْبِلَادُ وَلَمْ يَبْقَ لَهَا مَنْ يَحْمِيهَا: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال].

ثم قصد سمرقند فحاصرها في أول المحرم من هَذِهِ السَّنَةِ وَبِهَا خَمْسُونَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ مِنَ الْجُنْدِ فَنَكَلُوا وَبَرَزَ إِلَيْهِمْ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْعَامَّةِ فَقُتِلَ الْجَمِيعُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَأَلْقَى إليه الخمسون ألف السَّلَمَ فَسَلَبَهُمْ سِلَاحَهُمْ وَمَا يَمْتَنِعُونَ بِهِ، وَقَتَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَاسْتَبَاحَ الْبَلَدَ فَقَتَلَ الْجَمِيعَ وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ وَسَبَى الذُّرِّيَّةَ وَحَرَقَهُ وَتَرَكَهُ بِلَاقِعَ، فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

وَأَقَامَ لَعَنَهُ اللهُ هُنَالِكَ وَأَرْسَلَ السَّرَايَا إِلَى الْبُلْدَانِ فَأَرْسَلَ سَرِيَّةً إِلَى بِلَادِ خُرَاسَانَ وَتُسَمِّيهَا التَّتَارُ الْمُغَرِّبَةَ، وَأَرْسَلَ أُخْرَى وَرَاءَ خُوَارَزْمَ شَاهْ، وَكَانُوا عِشْرِينَ أَلْفًا قال اطلبوه فأدركوه ولو تعلق بالسماء فساروا وراءه فَأَدْرَكُوهُ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ نَهْرُ جَيْحُونَ وَهُوَ آمِنٌ بِسَبَبِهِ، فَلَمْ يَجِدُوا سُفُنًا فَعَمِلُوا لَهُمْ أَحْوَاضًا يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا الْأَسْلِحَةَ وَيُرْسِلُ أَحَدُهُمْ فَرَسَهُ وَيَأْخُذُ بذنبها فتجره الفرس بالماء وهو بحر الْحَوْضَ الَّذِي فِيهِ سِلَاحُهُ، حَتَّى صَارُوا كُلُّهُمْ فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِمْ خُوَارَزْمُ شَاهْ إِلَّا وَقَدْ خَالَطُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ إِلَى نَيْسَابُورَ ثُمَّ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا وَهُمْ فِي أثره لا يمهلونه يَجْمَعَ لَهُمْ فَصَارَ كُلَّمَا أَتَى بَلَدًا لِيَجْتَمِعَ فيه عساكره له يُدْرِكُونَهُ فَيَهْرُبُ مِنْهُمْ، حَتَّى رَكِبَ فِي بَحْرِ طَبَرِسْتَانَ وَسَارَ إِلَى قَلْعَةٍ فِي جَزِيرَةٍ فِيهِ فَكَانَتْ فِيهَا وَفَاتُهُ، وَقِيلَ إِنَّهُ لَا يُعْرَفُ بَعْدَ رُكُوبِهِ فِي الْبَحْرِ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ بَلْ ذَهَبَ فَلَا يُدْرَى أَيْنَ ذَهَبَ، وَلَا إِلَى أَيِّ مَفَرٍّ هَرَبَ، وَمَلَكَتِ التَّتَارُ حَوَاصِلَهُ فَوَجَدُوا فِي خِزَانَتِهِ عَشَرَةَ آلَافِ (...) ثُمَّ سَارُوا إِلَى مَازَنْدَرَانَ وَقِلَاعُهَا مِنْ أمنع القلاع، بحيث إن المسلمين لم يفتحوها إلا في سنة تسعين من أَيَّامِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَفَتَحَهَا هَؤُلَاءِ فِي أَيْسَرِ مُدَّةٍ وَنَهَبُوا مَا فِيهَا وَقَتَلُوا أهاليها كلهم وَسَبَوْا وَأَحْرَقُوا، ثُمَّ تَرَحَّلُوا عَنْهَا نَحْوَ الرَّيِّ فَوَجَدُوا فِي الطَّرِيقِ أُمَّ خُوَارَزْمَ شَاهْ وَمَعَهَا أَمْوَالٌ عَظِيمَةٌ جِدًّا، فَأَخَذُوهَا وَفِيهَا كُلُّ غَرِيبٍ وَنَفِيسٍ مِمَّا لَمْ يُشَاهَدْ مِثْلُهُ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ قَصَدُوا الرَّيَّ فَدَخَلُوهَا عَلَى حِينِ غفلة من أهلها فقتلوهم وسبوا وأسروا.

ثُمَّ سَارُوا إِلَى هَمَذَانَ فَمَلَكُوهَا ثُمَّ إِلَى زَنْجَانَ فَقَتَلُوا وَسَبَوْا، ثُمَّ قَصَدُوا قَزْوِينَ فَنَهَبُوهَا وَقَتَلُوا مِنْ أَهْلِهَا نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، ثم تيمموا بلاد أذربيجان فصالحهم ملكها أزبك بْنُ الْبَهْلَوَانِ عَلَى مَالٍ حَمَلَهُ إِلَيْهِمْ لِشُغْلِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ السُّكْرِ وَارْتِكَابِ السَّيِّئَاتِ وَالِانْهِمَاكِ عَلَى الشَّهَوَاتِ، فَتَرَكُوهُ وَسَارُوا إِلَى مُوقَانَ فَقَاتَلَهُمُ الْكُرْجُ فِي عَشَرَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ فَلَمْ يَقِفُوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى انْهَزَمَتِ الْكُرْجُ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ بِحَدِّهِمْ وَحَدِيدِهِمْ، فَكَسَرَتْهُمُ التَّتَارُ وقعة ثانية أقبح هزيمة وَأَشْنَعَهَا.

وَهَاهُنَا قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: وَلَقَدْ جَرَى لِهَؤُلَاءِ التَّتَرِ مَا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ: طَائِفَةٌ تَخْرُجُ مِنْ حُدُودِ الصِّينِ لَا تَنْقَضِي عَلَيْهِمْ سَنَةٌ حَتَّى يَصِلَ بَعْضُهُمْ إِلَى حُدُودِ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ وَيُجَاوِزُونَ الْعِرَاقَ مِنْ نَاحِيَةِ هَمَذَانَ وتالله لَا أَشُكُّ أَنَّ مَنْ يَجِيءُ بَعْدَنَا إِذَا بَعُدَ الْعَهْدُ وَيَرَى هَذِهِ الْحَادِثَةَ

مَسْطُورَةً يُنْكِرُهَا وَيَسْتَبْعِدُهَا، وَالْحَقُّ بِيَدِهِ، فَمَتَى اسْتَبْعَدَ ذَلِكَ فَلْيَنْظُرْ أَنَّنَا سَطَرْنَا نَحْنُ وَكُلُّ مَنْ جَمَعَ التَّارِيخَ فِي أَزْمَانِنَا هَذِهِ فِي وَقْتٍ كُلُّ مَنْ فِيهِ يَعْلَمُ هَذِهِ الْحَادِثَةَ، قَدِ اسْتَوَى فِي مَعْرِفَتِهَا الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ لِشُهْرَتِهَا، يَسَّرَ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْإِسْلَامِ مَنْ يَحْفَظُهُمْ وَيَحُوطُهُمْ، فَلَقَدْ دُفِعُوا مِنَ العدو إلى أمر عَظِيمٍ، وَمِنَ الْمُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَنْ لَا تَتَعَدَّى هِمَّتُهُ بَطْنَهُ وَفَرْجَهُ، وَقَدْ عُدِمَ سُلْطَانُ الْمُسْلِمِينَ خُوَارَزْمُ شَاهْ.

قَالَ: وَانْقَضَتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَهُمْ فِي بِلَادِ الْكُرْجِ، فَلَمَّا رَأَوْا مِنْهُمْ مُمَانَعَةً وَمُقَاتَلَةً يَطُولُ عَلَيْهِمْ بِهَا الْمِطَالُ عَدَلُوا إِلَى غَيْرِهِمْ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ عَادَتُهُمْ فَسَارُوا إِلَى تِبْرِيزَ فَصَالَحَهُمْ أَهْلُهَا بِمَالٍ، ثُمَّ سَارُوا إِلَى مَرَاغَةَ فَحَصَرُوهَا وَنَصَبُوا عَلَيْهَا الْمَجَانِيقَ وَتَتَرَّسُوا بِالْأُسَارَى من المسلمين، وعلى البلد امرأة «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»(١) فَفَتَحُوا الْبَلَدَ بَعْدَ أَيَّامٍ وَقَتَلُوا مِنْ أَهْلِهِ خَلْقًا لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهُمْ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَغَنِمُوا مِنْهُ شَيْئًا كَثِيرًا، وَسَبَوْا وَأَسَرُوا عَلَى عَادَتِهِمْ لَعَنَهُمُ اللهُ لَعْنَةً تُدْخِلُهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ، وَقَدْ كَانَ النَّاسُ يَخَافُونَ مِنْهُمْ خَوْفًا عَظِيمًا جِدًّا حَتَّى إِنَّهُ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ إِلَى دَرْبٍ مِنْ هَذِهِ الْبَلَدِ وَبِهِ مِائَةُ رَجُلٍ لَمْ يَسْتَطِعْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ، وَمَا زَالَ يَقْتُلُهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى قُتِلَ الْجَمِيعُ وَلَمْ يَرْفَعْ مِنْهُمْ أَحَدٌ يَدَهُ إِلَيْهِ، وَنَهَبَ ذَلِكَ الدَّرْبَ وَحْدَهُ، وَدَخَلَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ فِي زِيِّ رَجُلٍ بَيْتًا فَقَتَلَتْ كُلَّ مَنْ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ وَحْدَهَا ثُمَّ اسْتَشْعَرَ أَسِيرٌ مَعَهَا أَنَّهَا امْرَأَةٌ فَقَتَلَهَا لَعَنَهَا اللهُ.

ثُمَّ قَصَدُوا مَدِينَةَ إِرْبِلَ فَضَاقَ الْمُسْلِمُونَ لِذَلِكَ ذَرْعًا وَقَالَ أَهْلُ تِلْكَ النَّوَاحِي هَذَا أَمْرٌ عَصِيبٌ، وَكَتَبَ الْخَلِيفَةُ إِلَى أَهْلِ الْمَوْصِلِ وَالْمَلِكِ الْأَشْرَفِ صَاحِبِ الْجَزِيرَةِ يَقُولُ إِنِّي قَدْ جَهَّزْتُ عسكرا فكونوا معه لقتال هؤلاء التتار، فَأَرْسَلَ الْأَشْرَفُ يَعْتَذِرُ إِلَى الْخَلِيفَةِ بِأَنَّهُ مُتَوَجِّهٌ نَحْوَ أَخِيهِ الْكَامِلِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ بِسَبَبِ ما قددهم المسلمين هناك من الفرنج، وأخذهم دمياط الّذي قَدْ أَشْرَفُوا بِأَخْذِهِمْ لَهَا عَلَى أَخْذِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ قَاطِبَةً، وَكَانَ أَخُوهُ الْمُعَظَّمُ قَدْ قَدِمَ على والى حَرَّانَ يَسْتَنْجِدُهُ لِأَخِيهِمَا الْكَامِلِ لِيَتَحَاجَزُوا الْفِرِنْجَ بِدِمْيَاطَ وَهُوَ عَلَى أُهْبَةِ الْمَسِيرِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، فَكَتَبَ الْخَلِيفَةُ إِلَى مُظَفَّرِ الدِّينِ صَاحِبِ إِرْبِلَ لِيَكُونَ هُوَ الْمُقَدَّمَ عَلَى الْعَسَاكِرِ الَّتِي يَبْعَثُهَا الْخَلِيفَةُ وَهِيَ عَشَرَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ، فَلَمْ يَقْدِمْ عليه منهم ثَمَانِمِائَةِ فَارِسٍ ثُمَّ تَفَرَّقُوا قَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعُوا، فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ بِأَنْ

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٢٥، ٧٠٩٩).

صَرَفَ هِمَّةَ التَّتَارِ إِلَى نَاحِيَةِ هَمَذَانَ فصالحهم أهلها وترك عندهم التتار شحنة، ثم اتفقوا على قتل شِحْنَتِهِمْ فَرَجَعُوا إِلَيْهِمْ فَحَاصَرُوهُمْ حَتَّى فَتَحُوهَا قَسْرًا وَقَتَلُوا أَهْلَهَا عَنْ آخِرِهِمْ.

ثُمَّ سَارُوا إِلَى أَذْرَبِيجَانَ فَفَتَحُوا أَرْدَبِيلَ ثُمَّ تِبْرِيزَ ثُمَّ إِلَى بَيْلَقَانَ فَقَتَلُوا مِنْ أَهْلِهَا خَلْقًا كَثِيرًا وَجَمًّا غَفِيرًا، وَحَرَّقُوهَا وَكَانُوا يَفْجُرُونَ بِالنِّسَاءِ ثُمَّ يَقْتُلُونَهُنَّ وَيَشُقُّونَ بُطُونَهُنَّ عَنِ الْأَجِنَّةِ ثُمَّ عَادُوا إِلَى بِلَادِ الْكُرْجِ وَقَدِ اسْتَعَدَّتْ لَهُمُ الْكُرْجُ فَاقْتَتَلُوا مَعَهُمْ فَكَسَرُوهُمْ أَيْضًا كَسْرَةً فَظِيعَةً، ثُمَّ فَتَحُوا بُلْدَانًا كَثِيرَةً يَقْتُلُونَ أَهْلَهَا وَيَسْبُونَ نِسَاءَهَا وَيَأْسِرُونَ مِنَ الرِّجَالِ مَا يُقَاتِلُونَ بِهِمُ الْحُصُونَ، يَجْعَلُونَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ تُرْسًا يَتَّقُونَ بِهِمُ الرَّمْيَ وَغَيْرَهُ، وَمَنْ سَلِمَ مِنْهُمْ قَتَلُوهُ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَرْبِ.

ثم ساروا إلى بلاد اللان والقبجاق فَاقْتَتَلُوا مَعَهُمْ قِتَالًا عَظِيمًا فَكَسَرُوهُمْ وَقَصَدُوا أَكْبَرَ مدائن القبجاق وَهِيَ مَدِينَةُ سُودَاقَ وَفِيهَا مِنَ الْأَمْتِعَةِ وَالثِّيَابِ والتجائر من البرطاسي والقندر والسنجاب شيء كثير جدا، ولجأت القبجاق إِلَى بِلَادِ الرُّوسِ وَكَانُوا نَصَارَى فَاتَّفَقُوا مَعَهُمْ عَلَى قِتَالِ التَّتَارِ فَالْتَقَوْا مَعَهُمْ فَكَسَرَتْهُمُ التَّتَارُ كسرة فظيعة جدا، ثم ساروا نحو بلقار فِي حُدُودِ الْعِشْرِينَ وَسِتِّمِائَةٍ فَفَرَغُوا مِنْ ذَلِكَ كله ورجعوا نَحْوِ مَلِكِهِمْ جِنْكِزْخَانَ لَعَنَهُ اللهُ وَإِيَّاهُمْ، هَذَا ما فعلته هذه السرية المغرّبة.

وَكَانَ جِنْكِزْخَانُ قَدْ أَرْسَلَ سَرِيَّةً فِي هَذِهِ السنة إلى كلانة وَأُخْرَى إِلَى فَرْغَانَةَ فَمَلَكُوهَا، وَجَهَّزَ جَيْشًا آخَرَ نَحْوَ خُرَاسَانَ فَحَاصَرُوا بَلْخَ فَصَالَحَهُمْ أَهْلُهَا، وَكَذَلِكَ صَالَحُوا مُدُنًا كَثِيرَةً أُخْرَى، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الطَّالَقَانِ فَأَعْجَزَتْهُمْ قَلْعَتُهَا وَكَانَتْ حَصِينَةً فَحَاصَرُوهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ حَتَّى عَجَزُوا فَكَتَبُوا إِلَى جِنْكِزْخَانَ فَقَدِمَ بِنَفْسِهِ فَحَاصَرَهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ أُخْرَى حَتَّى فَتَحَهَا قَهْرًا، ثُمَّ قَتَلَ كُلَّ مَنْ فِيهَا وَكُلَّ مَنْ فِي الْبَلَدِ بِكَمَالِهِ خاصة وعامة.

ثم قصدوا مدينة مرو مع جنكزخان فقد عَسْكَرَ بِظَاهِرِهَا نَحْوٌ مَنْ مِائَتَيْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ فَاقْتَتَلُوا مَعَهُ قِتَالًا عَظِيمًا حتى انكسر المسلمون فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، ثُمَّ حَصَرُوا الْبَلَدَ خَمْسَةَ أَيَّامٍ وَاسْتَنْزَلُوا نَائِبَهَا خَدِيعَةً ثُمَّ غَدَرُوا به وبأهل البلد فقتلوهم وغنموهم وسلبوهم وَعَاقَبُوهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ، حَتَّى إِنَّهُمْ قَتَلُوا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ سَبْعَمِائَةِ أَلْفِ إِنْسَانٍ.

ثُمَّ سَارُوا إلى نيسابور ففعلوا فيها ما فَعَلُوا بِأَهْلِ مَرْوَ، ثُمَّ إِلَى طُوسَ فَقَتَلُوا وخربوا مشهد على بن موسى الرضى سلام الله عليه وعلى آبائه، وخربوا تربة الرشيد الخليفة فتركوه خرابا، ثُمَّ سَارُوا إِلَى غَزْنَةَ فَقَاتَلَهُمْ جَلَالُ الدِّينِ بن خوارزم شاه فكسرهم ثُمَّ عَادُوا إِلَى مَلِكِهِمْ جِنْكِزْخَانَ لَعَنَهُ اللهُ وَإِيَّاهُمْ، وَأَرْسَلَ جِنْكِزْخَانُ طَائِفَةً أُخْرَى إِلَى مَدِينَةِ خُوَارَزْمَ فَحَاصَرُوهَا حَتَّى فَتَحُوا الْبَلَدَ قَهْرًا فَقَتَلُوا مَنْ فِيهَا قَتْلًا ذَرِيعًا، وَنَهَبُوهَا وَسَبَوْا أَهْلَهَا وأرسلوا الجسر الّذي يمنع ماء جيحون منها فَغَرِقَتْ دُورُهَا وَهَلَكَ جَمِيعُ أَهْلِهَا ثُمَّ عَادُوا إلى جِنْكِزْخَانَ وَهُوَ مُخَيِّمٌ عَلَى الطَّالَقَانِ فَجَهَّزَ مِنْهُمْ طَائِفَةً إِلَى غَزْنَةَ فَاقْتَتَلَ مَعَهُمْ جَلَالُ الدِّينِ بْنُ خُوَارَزْمِ شَاهْ فَكَسَرَهُمْ جَلَالُ الدِّينِ كَسْرَةً عَظِيمَةً، وَاسْتَنْقَذَ مِنْهُمْ خَلْقًا مِنْ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى جِنْكِزْخَانَ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَبْرُزَ بِنَفْسِهِ لِقِتَالِهِ، فَقَصَدَهُ جِنْكِزْخَانُ فَتَوَاجَهَا وَقَدْ تَفَرَّقَ عَلَى جَلَالِ الدِّينِ بَعْضُ جَيْشِهِ وَلَمْ يَبْقَ بُدٌّ مِنَ الْقِتَالِ، فَاقْتَتَلُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لم يعهد قبلها مثلها من قتالهم، ثم ضعفت أصحاب جلال الدين فذهبوا فركبوا بَحْرِ الْهِنْدِ فَسَارَتِ التَّتَارُ إِلَى غَزْنَةَ فَأَخَذُوهَا بِلَا كُلْفَةٍ وَلَا مُمَانَعَةٍ، كُلُّ هَذَا أَوْ أكثره وقع في هذه السنة.

وفي سنة ٦١٨:

استولت التتر على كثير من البلدان بكلادة وَهَمَذَانَ وَأَرْدَبِيلَ وَتِبْرِيزَ وَكَنْجَةَ، وَقَتَلُوا أَهَالِيَهَا وَنَهَبُوا مَا فِيهَا، وَاسْتَأْسَرُوا ذَرَارِيَّهَا، وَاقْتَرَبُوا مِنْ بَغْدَادَ فانزعج الخليفة لذلك وحصن بَغْدَادَ وَاسْتَخْدَمَ الْأَجْنَادَ، وَقَنَتَ النَّاسُ فِي الصَّلَوَاتِ وَالْأَوْرَادِ.

وَفِيهَا قَهَرُوا الْكُرْجَ وَاللَّانَ، ثُمَّ قَاتَلُوا القبجاق فَكَسَرُوهُمْ، وَكَذَلِكَ الرُّوسَ، وَيَنْهَبُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، ثم قاتلوهم وسبوا نساءهم وذراريهم.

وفي سنة ٦٢١ هـ:

فِيهَا وَصَلَتْ سَرِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ جِنْكِزْخَانَ غَيْرُ الْأَوَّلَتَيْنِ إِلَى الرَّيِّ، وَكَانَتْ قَدْ عُمِّرَتْ قَلِيلًا فَقَتَلُوا أَهْلَهَا أَيْضًا، ثُمَّ سَارُوا إِلَى سَاوَهْ، ثم إلى قم وقاسان، وَلَمْ تكُونَا طُرِقَتَا إِلَّا هَذِهِ الْمَرَّةَ، فَفَعَلُوا بِهَا مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، ثُمَّ سَارُوا إِلَى هَمَذَانَ فَقَتَلُوا أَيْضًا وَسَبَوْا، ثم ساروا إلى خلف الخوارزمية إلى أذربيجان فكسروهم وَقَتَلُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، فَهَرَبُوا مِنْهُمْ إِلَى تِبْرِيزَ فَلَحِقُوهُمْ وَكَتَبُوا إِلَى ابْنِ الْبَهْلَوَانِ:

إِنْ كُنْتَ مُصَالِحًا لَنَا فَابْعَثْ لَنَا بِالْخُوَارَزْمِيَّةِ وَإِلَّا فَأَنْتَ مِثْلُهُمْ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا وَأَرْسَلَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَيْهِمْ، مَعَ تُحَفٍ وَهَدَايَا كَثِيرَةٍ، هَذَا كُلُّهُ وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ السَّرِيَّةُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَالْخُوَارَزْمِيَّةُ وَأَصْحَابُ الْبَهْلَوَانِ أَضْعَافُ أَضْعَافِهِمْ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى ألقى عليهم الخذلان والفشل، فـ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وفي سنة ٦٢٢:

فِيهَا عَاثَتِ الْخُوَارَزْمِيَّةُ حِينَ قَدِمُوا مَعَ جَلَالِ الدِّينِ بْنِ خُوَارَزْمَ شَاهْ مِنْ بِلَادِ غَزْنَةَ مَقْهُورِينَ مِنَ التَّتَارِ إِلَى بِلَادِ خُوزِسْتَانَ وَنَوَاحِي الْعِرَاقِ، فَأَفْسَدُوا فِيهِ وَحَاصَرُوا مُدُنَهُ وَنَهَبُوا قُرَاهُ. وَفِيهَا اسْتَحْوَذَ جَلَالُ الدِّينِ بْنُ خُوَارَزْمَ شَاهْ على بلاد أذربيجان وكثيرا مِنْ بِلَادِ الْكُرْجِ، وَكَسَرَ الْكُرْجَ وَهُمْ فِي سَبْعِينَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ عِشْرِينَ أَلْفًا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، وَاسْتَفْحَلَ أَمْرُهُ جِدًّا وَعَظُمَ شَأْنُهُ، وَفَتَحَ تَفْلِيسَ فَقَتَلَ مِنْهَا ثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَزَعَمَ أَبُو شَامَةَ أَنَّهُ قَتَلَ مِنَ الْكُرْجِ سَبْعِينَ أَلْفًا فِي الْمَعْرَكَةِ، وَقَتَلَ مِنْ تَفْلِيسَ تَمَامَ الْمِائَةِ أَلْفٍ، وَقَدِ اشْتَغَلَ بِهَذِهِ الْغَزْوَةِ عَنْ قَصْدِ بَغْدَادَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا حَاصَرَ دَقُوقَا سبه أهلها ففتحها قسرا وَقَتَلَ مِنْ أَهْلِهَا خَلْقًا كَثِيرًا، وَخَرَّبَ سُورَهَا وَعَزَمَ عَلَى قَصْدِ الْخَلِيفَةِ بِبَغْدَادَ لِأَنَّهُ فِيمَا زَعَمَ عَمِلَ عَلَى أَبِيهِ حَتَّى هَلَكَ.

وَاسْتَوْلَتِ التَّتَرُ عَلَى الْبِلَادِ، وَكَتَبَ إِلَى الْمُعَظَّمِ بْنِ الْعَادِلِ يَسْتَدْعِيهِ لِقِتَالِ الْخَلِيفَةِ وَيُحَرِّضُهُ عَلَى ذَلِكَ، فَامْتَنَعَ الْمُعَظَّمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَمَّا عَلِمَ الْخَلِيفَةُ بِقَصْدِ جَلَالِ الدِّينِ بْنِ خُوَارَزْمَ شَاهْ بَغْدَادَ انْزَعَجَ لِذَلِكَ وَحَصَّنَ بَغْدَادَ وَاسْتَخْدَمَ الْجُيُوشَ وَالْأَجْنَادَ، وأنفق فِي النَّاسِ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَكَانَ جَلَالُ الدِّينِ قَدْ بَعَثَ جَيْشًا إِلَى الْكُرْجِ فَكَتَبُوا إِلَيْهِ أَنْ أَدْرِكْنَا قَبْلَ أَنْ نَهْلِكَ عَنْ آخِرِنَا، وَبَغْدَادُ مَا تَفُوتُ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ وَكَانَ من أمره ما ذكرنا.

وفي سنة ٦٢٣:

فِيهَا الْتَقَى الْمَلِكُ جَلَالُ الدِّينِ بْنُ خُوَارَزْمَ شَاهِ الْخُوَارَزْمِيُّ مَعَ الْكُرْجِ فَكَسَرَهُمْ كَسْرَةً عَظِيمَةً، وَصَمَدَ إِلَى أَكْبَرِ مُعَاقَلَتِهِمْ تَفْلِيسَ فَفَتَحَهَا عَنْوَةً وَقَتَلَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْكَفَرَةِ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ كَانُوا بِهَا.

وَاسْتَقَرَّ مُلْكُهُ عَلَيْهَا، وَقَدْ كَانَ الْكُرْجُ أَخَذُوهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَهِيَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى الْآنَ حَتَّى اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُمْ جَلَالُ الدِّينِ هَذَا، فَكَانَ فَتْحًا عَظِيمًا ولله المنة.

وَفِيهَا سَارَ إِلَى خِلَاطَ لِيَأْخُذَهَا مِنْ نَائِبِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ أَخْذِهَا وَقَاتَلَهُ أَهْلُهَا قِتَالًا عَظِيمًا فَرَجَعَ عَنْهُمْ بِسَبَبِ اشْتِغَالِهِ بِعِصْيَانِ نَائِبِهِ بِمَدِينَةِ كَرْمَانَ وَخِلَافِهِ لَهُ، فَسَارَ إليهم وَتَرَكَهُمْ.

وفي سنة ٦٢٤:

فيها كانت عَامَّةُ أَهْلِ تَفْلِيسَ الْكُرْجَ فَجَاءُوا إِلَيْهِمْ فَدَخَلُوهَا فَقَتَلُوا الْعَامَّةَ وَالْخَاصَّةَ، وَنَهَبُوا وَسَبَوْا وَخَرَّبُوا وَأَحْرَقُوا، وَخَرَجُوا عَلَى حَمِيَّةٍ، وَبَلَغَ ذَلِكَ جَلَالَ الدِّينِ فَسَارَ سَرِيعًا لِيُدْرِكَهُمْ فَلَمْ يُدْرِكْهُمْ.

وَفِيهَا قَتَلَتِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ أَمِيرًا كَبِيرًا مِنْ نُوَّابِ جَلَالِ الدِّينِ بْنِ خُوَارَزْمَ شَاهْ، فَسَارَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَخَرَّبَ مَدِينَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ وَنَهَبَ أَمْوَالَهُمْ، وَقَدْ كَانُوا قَبَّحَهُمُ اللهُ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، لَمَّا قَدِمَ التَّتَارُ إِلَى النَّاسِ، وَكَانُوا أَضَرَّ عَلَى النَّاسِ مِنْهُمْ.

وَفِيهَا تَوَاقَعَ جَلَالُ الدِّينِ وَطَائِفَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ التَّتَارِ فَهَزَمَهُمْ وَأَوْسَعَهُمْ قَتْلًا وَأَسْرًا، وَسَاقَ وَرَاءَهُمْ أَيَّامًا فَقَتَلَهُمْ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الرَّيِّ فَبَلَغَهُ أن طائفة قد جاءوا لقصده فأقام ينتظرهم.

وممن توفي في هذه السنة:

جنكيز خان:

السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ عِنْدَ التَّتَارِ وَالِدُ مُلُوكِهِمُ الْيَوْمَ، ينتسبون إليه ومن عَظَّمَ الْقَانَ إِنَّمَا يُرِيدُ هَذَا الْمَلِكَ وَهُوَ الَّذِي وضع لهم (السياسا) الَّتِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهَا، وَيَحْكُمُونَ بِهَا، وَأَكْثَرُهَا مُخَالِفٌ لشرائع الله تعالى وكتبه، وهو شَيْءٌ اقْتَرَحَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَتَبِعُوهُ فِي ذلك، وكانت تزعم أمه أنها حملته مِنْ شُعَاعِ الشَّمْسِ، فَلِهَذَا لَا يُعْرَفُ لَهُ أَبٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَجْهُولُ النَّسَبِ.

وَقَدْ رَأَيْتُ مجلدا جمعه الوزير بِبَغْدَادَ عَلَاءُ الدِّينِ الْجُوَيْنِيُّ فِي تَرْجَمَتِهِ فَذَكَرَ فِيهِ سِيرَتَهُ، وَمَا كَانَ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقْلِ السِّيَاسِيِّ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ وَالتَّدْبِيرِ الْجَيِّدِ لِلْمُلْكِ وَالرَّعَايَا، وَالْحُرُوبِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ خَصِيصًا عِنْدَ الْمَلِكِ أُزْبَكْ خَانَ، وَكَانَ إذا ذَاكَ شَابًّا حَسَنًا وَكَانَ اسْمُهُ أَوَّلًا

تَمَرْجِي، ثم لما عظم سمى نفسه جنكيزخان، وَكَانَ هَذَا الْمَلِكُ قَدْ قَرَّبَهُ وَأَدْنَاهُ، فَحَسَدَهُ عُظَمَاءُ الْمَلِكِ وَوَشَوْا بِهِ إِلَيْهِ حَتَّى أَخْرَجُوهُ عليه، ولم يقتله وَلَمْ يَجِدْ لَهُ طَرِيقًا فِي ذَنْبٍ يَتَسَلَّطُ عليه به، فَهُوَ فِي ذَلِكَ إِذْ تَغَضَّبَ الْمَلِكُ عَلَى مملوكين صغيرين فهربا منه ولجئا إلى جنكيزخان فَأَكْرَمَهُمَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا فَأَخْبَرَاهُ بِمَا يُضْمِرُهُ الْمَلِكُ أزبك خان من قتله، فَأَخَذَ حِذْرَهُ وَتَحَيَّزَ بِدَوْلَةٍ وَاتَّبَعَهُ طَوَائِفُ مِنَ التَّتَارِ وَصَارَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ أُزْبَكْ خَانَ يَنْفِرُونَ إِلَيْهِ وَيَفِدُونَ عَلَيْهِ فَيُكْرِمُهُمْ وَيُعْطِيهِمْ حَتَّى قَوِيَتْ شَوْكَتُهُ وَكَثُرَتْ جُنُودُهُ، ثُمَّ حَارَبَ بَعْدَ ذَلِكَ أُزْبَكْ خَانَ فَظَفَرَ بِهِ وَقَتَلَهُ وَاسْتَحْوَذَ عَلَى مَمْلَكَتِهِ وَمُلْكِهِ، وَانْضَافَ إِلَيْهِ عَدَدُهُ وَعُدَدُهُ، وَعَظُمَ أَمْرُهُ وَبَعُدَ صِيتُهُ وَخَضَعَتْ لَهُ قَبَائِلُ الترك ببلاد طمعاج كُلِّهَا حَتَّى صَارَ يَرْكَبُ فِي نَحْوِ ثَمَانِمِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، وَأَكْثَرُ الْقَبَائِلِ قَبِيلَتُهُ الَّتِي هُوَ منها يقال لهم قيان، ثُمَّ أَقْرَبُ الْقَبَائِلِ إِلَيْهِ بَعْدَهُمْ قَبِيلَتَانِ كَبِيرَتَا العدد وهما أزان وقنقوران وَكَانَ يَصْطَادُ مِنَ السَّنَةِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَالْبَاقِي لِلْحَرْبِ وَالْحُكْمِ.

ثُمَّ نَشِبَتِ الْحَرْبُ بينه وبين الملك علاء الدِّينِ خُوَارَزْمَ شَاهْ صَاحِبِ بِلَادِ خُرَاسَانَ وَالْعِرَاقِ وأذربيجان وغير ذلك والأقاليم والملك، فقهره جنكيزخان وَكَسَرَهُ وَغَلَبَهُ وَسَلَبَهُ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَى سَائِرِ بِلَادِهِ بِنَفْسِهِ وَبِأَوْلَادِهِ فِي أَيْسَرِ مُدَّةٍ كَمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي الْحَوَادِثِ.

وَكَانَ ابْتِدَاءُ مُلْكِ جِنْكِزْخَانَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَكَانَ قِتَالُهُ لِخُوَارَزْمَ شَاهْ فِي حُدُودِ سَنَةِ سِتَّ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَمَاتَ خُوَارَزْمُ شَاهْ فِي سَنَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ كَمَا ذَكَرْنَا، فَاسْتَحْوَذَ حِينَئِذٍ عَلَى الْمَمَالِكِ بِلَا مُنَازِعٍ وَلَا مُمَانِعٍ.

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ كَانَ يَصْعَدُ جَبَلًا ثُمَّ يَنْزِلُ ثُمَّ يَصْعَدُ ثُمَّ يَنْزِلُ مرارا حَتَّى يُعْيِيَ وَيَقَعَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، وَيَأْمُرُ مَنْ عِنْدَهُ أَنْ يَكْتُبَ مَا يُلْقَى عَلَى لِسَانِهِ حِينَئِذٍ، فَإِنْ كَانَ هَذَا هَكَذَا فَالظَّاهِرُ أَنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ يَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِ بِمَا فِيهَا.

وَذَكَرَ الْجُوَيْنِيُّ أَنَّ بَعْضَ عُبَّادِهِمْ كَانَ يَصْعَدُ الْجِبَالَ فِي الْبَرْدِ الشَّدِيدِ لِلْعِبَادَةِ فَسَمِعَ قَائِلًا يقول له إنا قد ملكنا جنكيزخان وَذُرِّيَّتَهُ وَجْهَ الْأَرْضِ قَالَ الْجُوَيْنِيُّ فَمَشَايِخُ الْمُغُولِ يُصَدِّقُونَ بِهَذَا وَيَأْخُذُونَهُ مُسَلَّمًا.

ثُمَّ ذَكَرَ الْجُوَيْنِيُّ نتفا من الياسا مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ مَنْ زَنَا قُتِلَ، مُحْصَنًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُحْصَنٍ، وَكَذَلِكَ مَنْ لَاطَ قُتِلَ، وَمَنْ تَعَمَّدَ الْكَذِبَ قُتِلَ، وَمَنْ سَحَرَ قُتِلَ، وَمَنْ تَجَسَّسَ قُتِلَ، وَمَنْ دَخَلَ بَيْنَ اثْنَيْنِ يَخْتَصِمَانِ فَأَعَانَ أَحَدَهُمَا قُتِلَ، وَمَنْ بَالَ فِي الْمَاءِ الْوَاقِفِ قُتِلَ، وَمَنِ انْغَمَسَ فِيهِ قُتِلَ، وَمَنْ أَطْعَمَ أَسِيرًا أَوْ سَقَاهُ أَوْ كَسَاهُ بِغَيْرِ إِذْنِ أَهْلِهِ قُتِلَ، وَمَنْ وَجَدَ هَارِبًا وَلَمْ يَرُدَّهُ قُتِلَ، ومن أطعم أسيرا أو رَمَى إِلَى أَحَدٍ شَيْئًا مِنَ الْمَأْكُولِ قُتِلَ، بَلْ يُنَاوِلُهُ مِنْ يَدِهِ إِلَى يَدِهِ، وَمَنْ أَطْعَمَ أَحَدًا شَيْئًا فَلْيَأْكُلْ مِنْهُ أَوَّلًا وَلَوْ كان المطعوم أميرا لا أسيرا وَمَنْ أَكَلَ وَلَمْ يُطْعِمْ مَنْ عِنْدَهُ قُتِلَ، وَمَنْ ذَبَحَ حَيَوَانًا ذُبِحَ مِثْلَهُ بَلْ يَشُقُّ جَوْفَهُ وَيَتَنَاوَلُ قَلْبَهُ بِيَدِهِ يَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَوْفِهِ أَوَّلًا!!

وَفِي ذَلِكَ كُلِّهِ مُخَالَفَةٌ لِشَرَائِعِ اللهِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى عِبَادِهِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَمَنْ تَرَكَ الشَّرْعَ الْمُحْكَمَ الْمُنَزَّلَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمَنْسُوخَةِ كَفَرَ، فَكَيْفَ بِمَنْ تحاكم إلى الياسا وَقَدَّمَهَا عَلَيْهِ؟ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَفَرَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة] وقال تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء]

ومن آدابهم: الطاعة للسلطان غَايَةَ الِاسْتِطَاعَةِ، وَأَنْ يَعْرِضُوا عَلَيْهِ أَبْكَارَهُمُ الْحِسَانَ لِيَخْتَارَ لِنَفْسِهِ وَمَنْ شَاءَ مِنْ حَاشِيَتِهِ مَا شَاءَ مِنْهُنَّ، وَمِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يُخَاطِبُوا الْمَلِكَ بِاسْمِهِ، وَمَنْ مَرَّ بِقَوْمٍ يَأْكُلُونَ فَلَهُ أَنْ يأكل معهم من غير اسْتِئْذَانٍ وَلَا يَتَخَطَّى مَوْقِدَ النَّارِ وَلَا طَبَقَ الطَّعَامِ، وَلَا يَقِفُ عَلَى أُسْكُفَّةِ الْخَرْكَاهْ وَلَا يَغْسِلُونَ ثِيَابَهُمْ حَتَّى يَبْدُو وَسَخُهَا، وَلَا يُكَلِّفُونَ الْعُلَمَاءَ مِنْ كُلِّ مَا ذُكِرَ شَيْئًا مِنَ الْجِنَايَاتِ، وَلَا يَتَعَرَّضُونَ لِمَالِ مَيِّتٍ.

وَقَدْ ذَكَرَ عَلَاءُ الدِّينِ الْجُوَيْنِيُّ طَرَفًا كَبِيرًا مِنْ أَخْبَارِ جنكيزخان وَمَكَارِمَ كَانَ يَفْعَلُهَا لِسَجِيَّتِهِ وَمَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ عقله وإن كان مشركا بالله كان يَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ، وَقَدْ قَتَلَ مِنَ الْخَلَائِقِ مَا لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَلَكِنْ كَانَ الْبَدَاءَةُ مِنْ خُوَارَزْمَ شَاهْ، فَإِنَّهُ لما أرسل جنكيزخان نجارا مِنْ جِهَتِهِ مَعَهُمْ بَضَائِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ بِلَادِهِ فَانْتَهَوْا إِلَى إِيرَانَ فَقَتَلَهُمْ نَائِبُهَا مِنْ جِهَةِ خوارزم شاه، وهو والد زوجة كَشْلِي خَانَ، وَأَخَذَ جَمِيعَ مَا كَانَ مَعَهُمْ، فأرسل جنكيزخان إِلَى خُوَارَزْمَ شَاهْ يَسْتَعْلِمُهُ هَلْ وَقَعَ هَذَا الأمر عن

رضى منه أو أنه لا يَعْلَمْ بِهِ، فَأَنْكَرَهُ وَقَالَ لَهُ فِيمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِ: مِنَ الْمَعْهُودِ مِنَ الْمُلُوكِ أَنَّ التُّجَّارَ لَا يُقْتَلُونَ لِأَنَّهُمْ عِمَارَةُ الْأَقَالِيمِ، وَهُمُ الَّذِينَ يحملون إلى الملوك ما فيه التُّحَفَ وَالْأَشْيَاءَ النَّفِيسَةَ، ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ التُّجَّارَ كَانُوا عَلَى دِينِكَ فَقَتَلَهُمْ نَائِبُكَ، فَإِنْ كَانَ أمرا أمرت به طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك، فَلَمَّا سَمِعَ خُوَارَزْمُ شَاهْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ جنكيزخان لَمْ يَكُنْ لَهُ جَوَابٌ سِوَى أَنَّهُ أَمَرَ بضرب عنقه فأساء التدبير، وقد كان خرف وَكَبُرَتْ سِنُّهُ، وَقَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ «اتْرُكُوا التُّرْكَ ما تركوكم»(١) فلما بلغ ذلك جنكيزخان تَجَهَّزَ لِقِتَالِهِ وَأَخْذِ بِلَادِهِ، فَكَانَ بِقَدَرِ اللهِ تَعَالَى مَا كَانَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَمْ يسمع بأغرب منها ولا أشنع.

قَالَ وَلَمَّا احْتُضِرَ جنكيز خان أَوْصَى أَوْلَادَهُ بِالِاتِّفَاقِ وَعَدَمِ الِافْتِرَاقِ، وَضَرَبَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْأَمْثَالَ، وَأَحْضَرَ بين يديه نشابا وأخذ سهما أعطاه لواحد منهم فكسره، ثم أحضر حزمة ودفعها إليهم مجموعة فَلَمْ يُطِيقُوا كَسْرَهَا، فَقَالَ: هَذَا مَثَلُكُمْ إِذَا اجْتَمَعْتُمْ وَاتَّفَقْتُمْ، وَذَلِكَ مَثَلُكُمْ إِذَا انْفَرَدْتُمْ وَاخْتَلَفْتُمْ.

وفي سنة ٦٢٥:

فِيهَا كَانَتْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ بَيْنَ جلال الدين والتتر، كَسَرُوهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ كَسَرَهُمْ كَسْرَةً عَظِيمَةً، وَقَتَلَ مِنْهُمْ خَلْقًا وَأُمَمًا لا يحصون، وكان هؤلاء التتر قد انفردوا وعصوا على جنكيزخان فكتب جنكيزخان إلى جلال الدين يقول له: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنَّا وَنَحْنُ أَبْعَدْنَاهُمْ، وَلَكِنْ سترى مناما لَا قِبَلَ لَكَ بِهِ.

وفي سنة ٦٢٨:

اسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَالْمَلِكُ الْأَشْرَفُ مُوسَى بْنُ العادل مقيم بالجزيرة مَشْغُولٌ فِيهَا بِإِصْلَاحِ مَا كَانَ جَلَالُ الدِّينِ الْخُوَارَزْمِيُّ قَدْ أَفْسَدَهُ مِنْ بِلَادِهِ، وَقَدْ قَدِمَتِ التَّتَارُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى الْجَزِيرَةِ وَدِيَارِ بِكْرٍ فَعَاثُوا بِالْفَسَادِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَتَلُوا وَنَهَبُوا وَسَبَوْا عَلَى عَادَتِهِمْ خَذَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى.

وفي سنة ٦٢٩:

---

(١) رواه النسائي (٣١٧٦) وأبو داود (٤٣٠٢) وحسنه الألباني (الصحيحة-٧٧٢).

وَفِيهِ أَقْبَلَتْ طَائِفَةٌ مِنَ التَّتَارِ فَوَصَلُوا إِلَى شَهْرَزُورَ فَنَدَبَ الْخَلِيفَةُ صَاحِبَ إِرْبِلَ مُظَفَّرَ الدِّينِ كُوكُبُرِي بْنَ زَيْنِ الدِّينِ، وَأَضَافَ إِلَيْهِ عَسَاكِرَ مِنْ عِنْدِهِ، فَسَارُوا نَحْوَهُمْ فَهَرَبَتْ مِنْهُمُ التَّتَارُ وَأَقَامُوا فِي مُقَابَلَتِهِمْ مُدَّةَ شُهُورٍ، ثُمَّ تَمَرَّضَ مُظَفَّرُ الدِّينِ وَعَادَ إِلَى بَلَدِهِ إربل، وتراجعت التتار إلى بلادها.

وفي سنة ٦٣٤:

فِيهَا حَاصَرَتِ التَّتَارُ إِرْبِلَ بِالْمَجَانِيقِ وَنَقَبُوا الْأَسْوَارَ حَتَّى فَتَحُوهَا عَنْوَةً فَقَتَلُوا أَهْلَهَا وَسَبَوْا ذَرَارِيَّهُمْ.

وفي سنة ٦٣٨:

وَفِيهَا قَدِمَ رسول من ملك التتار تولى بن جنكيزخان إِلَى مُلُوكِ الْإِسْلَامِ يَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَتِهِ وَيَأْمُرُهُمْ بِتَخْرِيبِ أَسْوَارِ بُلْدَانِهِمْ، وَعُنْوَانُ الْكِتَابِ:

مِنْ نَائِبِ رَبِّ السَّمَاءِ مَاسِحِ وَجْهِ الْأَرْضِ مَلِكِ الشرق والغرب خاقان، وَكَانَ الْكِتَابُ مَعَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ.

وفي سنة ٦٤٢هـ:

{ وانظر لحالة ملوك المُسلِمِين والتّتار عَلى أبواب بلادهم وعاصمتهم!!}:

فِيهَا اسْتَوْزَرَ الْخَلِيفَةُ الْمُسْتَعْصِمُ بِاللَّهِ مُؤَيِّدَ الدِّينِ أَبَا طَالِبٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ بن محمد الْعَلْقَمِيَّ الْمَشْئُومَ عَلَى نَفْسِهِ، وَعَلَى أَهْلِ بَغْدَادَ، الّذي لَمْ يَعْصِمِ الْمُسْتَعْصِمَ فِي وِزَارَتِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَزِيرَ صِدْقٍ وَلَا مَرْضِيَّ الطَّرِيقَةِ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَعَانَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي قَضِيَّةِ هولاكو وَجُنُودِهِ قَبَّحَهُ اللَّهُ وَإِيَّاهُمْ

وَفِيهَا كَانَتْ وَقْعَةٌ عَظِيمَةٌ بَيْنَ الْخُوَارَزْمِيَّةِ الَّذِينَ كَانَ الصَّالِحُ أَيُّوبُ صَاحِبُ مِصْرَ اسْتَقْدَمَهُمْ لِيَسْتَنْجِدَ بِهِمْ عَلَى الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ أَبِي الْحَسَنِ صَاحِبِ دِمَشْقَ، فَنَزَلُوا على غزة وأرسل إليهم الصالح أيوب الخلع والأموال وَالْأَقْمِشَةَ وَالْعَسَاكِرَ، فَاتَّفَقَ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ وَالنَّاصِرُ دَاوُدُ صَاحِبُ الْكَرَكِ، وَالْمَنْصُورُ صَاحِبُ حِمْصَ، مَعَ الْفِرِنْجِ وَاقْتَتَلُوا مَعَ الْخُوَارَزْمِيَّةِ قِتَالًا شَدِيدًا، فَهَزَمَتْهُمُ الْخُوَارَزْمِيَّةُ كَسْرَةً مُنْكَرَةً فَظِيعَةً، هَزَمَتِ الْفِرِنْجَ بِصُلْبَانِهَا وَرَايَاتِهَا الْعَالِيَةِ، عَلَى رُءُوسِ أَطْلَابِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ كُئُوسُ

الْخَمْرِ دَائِرَةً بَيْنَ الْجُيُوشِ فَنَابَتْ كُئُوسُ المنون عن كئوس الزرجون، فَقُتِلَ مِنَ الْفِرِنْجِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ زِيَادَةٌ عن ثلاثين ألف، وَأَسَرُوا جَمَاعَةً مِنْ مُلُوكِهِمْ وَقُسُوسِهِمْ وَأَسَاقِفَتِهِمْ، وَخَلْقًا مِنْ أُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعَثُوا بِالْأُسَارَى إِلَى الصَّالِحِ أَيُّوبَ بِمِصْرَ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ يَوْمًا مَشْهُودًا وَأَمْرًا محمودا، ولله الحمد.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّا لَمَّا وَقَفْنَا تَحْتَ صُلْبَانِ الْفِرِنْجِ أَنَّا لا نفلح. وغنمت الخوارزمية من الفرنج ومن كَانَ مَعَهُمْ شَيْئًا كَثِيرًا، وَأَرْسَلَ الصَّالِحُ أَيُّوبُ إِلَى دِمَشْقَ لِيُحَاصِرَهَا، فَحَصَّنَهَا الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ وَخَرَّبَ مِنْ حَوْلِهَا رِبَاعًا كَثِيرَةً، وَكَسَرَ جِسْرَ بَابِ توما فسار النَّهْرَ فَتَرَاجَعَ الْمَاءُ حَتَّى صَارَ بُحَيْرَةً مِنْ بَابِ تُومَا وَبَابِ السَّلَامَةِ، فَغَرِقَ جَمِيعُ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْعُمْرَانِ، وَافْتَقَرَ كَثِيرٌ مِنَ الناس، فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

وفي سنة ٦٤٣هـ:

وَهِيَ سَنَةُ الْخُوَارَزْمِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الصَّالِحَ أَيُّوبَ بْنَ الْكَامِلِ صَاحِبَ مِصْرَ بَعَثَ الْخُوَارَزْمِيَّةَ وَمَعَهُمْ مَلِكُهُمْ بَرَكَاتُ خَانَ فِي صُحْبَةِ مُعِينِ الدِّينِ ابن الشَّيْخِ، فَأَحَاطُوا بِدِمَشْقَ يُحَاصِرُونَ عَمَّهُ الصَّالِحَ أَبَا الجيش صاحب دمشق، وحرق قَصْرُ حَجَّاجٍ، وَحِكْرُ السُّمَّاقِ، وَجَامِعُ جَرَّاحٍ خَارِجَ باب الصغير، ومساجد كثيرة، ونصب الْمَنْجَنِيقُ عِنْدَ بَابِ الصَّغِيرِ وَعِنْدَ بَابِ الْجَابِيَةِ، ونصب من داخل البلد منجنيقان أيضا، وتراءى الْفَرِيقَانِ وَأَرْسَلَ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ إِلَى الْأَمِيرِ مُعِينِ الدِّينِ بْنِ الشَّيْخِ بِسَجَّادَةٍ وَعُكَّازٍ وَإِبْرِيقٍ وَأَرْسَلَ يَقُولُ: اشْتِغَالُكَ بِهَذَا أَوْلَى مِنَ اشْتِغَالِكَ بِمُحَاصَرَةِ الْمُلُوكِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمُعِينُ بِزَمْرٍ وَجَنْكٍ وَغُلَالَةِ حرير أحمر وأصفر، وأرسل يقول له: أَمَّا السَّجَّادَةُ فَإِنَّهَا تَصْلُحُ لِي، وَأَمَّا أَنْتَ فَهَذَا أَوْلَى بِكَ، ثُمَّ أَصْبَحَ ابْنُ الشَّيْخِ فَاشْتَدَّ الْحِصَارُ بِدِمَشْقَ، وَأَرْسَلَ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ فَأَحْرَقَ جوسق قصر وَالِدِهِ الْعَادِلِ، وَامْتَدَّ الْحَرِيقُ فِي زُقَاقِ الرُّمَّانِ إلى العقيبة فأحرقت بِأَسْرِهَا، وَقُطِعَتِ الْأَنْهَارُ وَغَلَتِ الْأَسْعَارُ، وَأُخِيفَتِ الطُّرُقُ وجرى بدمشق أمور بشعة جدا، لم يتم عَلَيْهَا قَطُّ، وَامْتَدَّ الْحِصَارُ شُهُورًا مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى جُمَادَى الْأُولَى

ثمّ اتَّفَقَ الْحَالُ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ إِلَى بَعْلَبَكَّ وَيُسَلِّمُ دِمَشْقَ إلى الصالح أيوب، فاستبشر الناس بذلك وأصبح الصالح إسماعيل خارجا إلى بعلبكّ.

وَأَمَّا الْخُوَارَزْمِيَّةُ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا حَاضِرِينَ وَقْتَ الصُّلْحِ، فَلَمَّا عَلِمُوا بِوُقُوعِ الصُّلْحِ غَضِبُوا وَسَارُوا نَحْوَ دَارَيَّا فَنَهَبُوهَا وَسَاقُوا نَحْوَ بِلَادِ الشَّرْقِ، وَكَاتَبُوا الصَّالِحَ إِسْمَاعِيلَ فَحَالَفُوهُ عَلَى الصَّالِحِ أَيُّوبَ، فَفَرِحَ بِذَلِكَ وَنَقَضَ الصُّلْحَ الَّذِي كَانَ وَقَعَ مِنْهُ، وَعَادَتِ الْخُوَارَزْمِيَّةُ فَحَاصَرُوا دِمَشْقَ، وَجَاءَ إِلَيْهِمُ الصَّالِحُ إِسْمَاعِيلُ مِنْ بَعْلَبَكَّ فَضَاقَ الْحَالُ عَلَى الدَّمَاشِقَةِ، فعدمت الأموال وَغَلَتِ الْأَسْعَارُ جِدًّا، حَتَّى إِنَّهُ بَلَغَ ثَمَنُ الغرارة ألف وستمائة، وقنطار الدقيق تسعمائة، والخبز كل وقيتين إلا ربع بدرهم، ورطل اللحم بسبعة وبيعت الأملاك بالدقيق، وأكلت القطاط والكلاب والميتات والجيفات، وَتَمَاوَتَ النَّاسُ فِي الطُّرُقَاتِ وَعَجَزُوا عَنِ التَّغْسِيلِ وَالتَّكْفِينِ وَالْإِقْبَارِ، فَكَانُوا يُلْقُونَ مَوْتَاهُمْ فِي الْآبَارِ، حتى أنتنت المدينة وضجر الناس، فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

قَالَ ابْنُ السِّبْطِ: وَمَعَ هَذَا كَانَتِ الْخُمُورُ دَائِرَةً وَالْفِسْقُ ظَاهِرًا، وَالْمُكُوسُ بِحَالِهَا وَذَكَرَ الشَّيْخُ شِهَابُ الدِّينِ أَنَّ الْأَسْعَارَ غَلَتْ فِي هَذِهِ السَّنَةِ جِدًّا، وَهَلَكَ الصَّعَالِيكُ بِالطُّرُقَاتِ، كَانُوا يَسْأَلُونَ لُقْمَةً ثُمَّ صَارُوا يَسْأَلُونَ لُبَابَةً ثُمَّ تَنَازَلُوا إلى فلس يشترون به نخلة يَبُلُّونَهَا وَيَأْكُلُونَهَا، كَالدَّجَاجِ، قَالَ: وَأَنَا شَاهَدْتُ ذَلِكَ، وَذَكَرَ تَفَاصِيلَ الْأَسْعَارِ وَغَلَاءَهَا فِي الْأَطْعِمَةِ وَغَيْرِهَا.

وَلَمَّا بَلَغَ الصَّالِحَ أَيُّوبَ أَنَّ الْخُوَارَزْمِيَّةَ قَدْ مَالَئُوا عَلَيْهِ وَصَالَحُوا عَمَّهُ الصَّالِحَ إِسْمَاعِيلَ، كَاتَبَ الْمَلِكَ الْمَنْصُورَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَسَدِ الدِّينِ شِيرْكُوهْ صَاحِبَ حِمْصَ، فَاسْتَمَالَهُ إِلَيْهِ وَقَوِيَ جَانِبُ نَائِبِ دمشق معين الدين حسين ابن الشَّيْخِ، وَلَكِنَّهُ تُوُفِّيَ فِي رَمَضَانَ مِنْ هَذِهِ السنة كما سيأتي فِي الْوَفَيَاتِ، وَلَمَّا رَجَعَ الْمَنْصُورُ صَاحِبُ حِمْصَ عَنْ مُوَالَاةِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ شَرَعَ فِي جَمْعِ الْجُيُوشِ مِنَ الْحَلَبِيِّينَ وَالتُّرْكُمَانِ وَالْأَعْرَابِ لِاسْتِنْقَاذِ دِمَشْقَ مِنَ الْخُوَارَزْمِيَّةِ، وَحِصَارِهِمْ إِيَّاهَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْخُوَارَزْمِيَّةَ فخافوا من غائلة ذلك، وَقَالُوا دِمَشْقُ مَا تَفُوتُ، وَالْمَصْلَحَةُ قِتَالُهُ عِنْدَ بلده، فساروا إلى بُحَيْرَةِ حِمْصَ، وَأَرْسَلَ النَّاصِرُ دَاوُدُ جَيْشَهُ إِلَى الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ مَعَ الْخُوَارَزْمِيَّةِ، وَسَاقَ جَيْشَ دِمَشْقَ فَانْضَافُوا إِلَى صَاحِبِ حِمْصَ، وَالْتَقَوْا مَعَ الْخُوَارَزْمِيَّةِ عِنْدَ بُحَيْرَةِ حِمْصَ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا، قُتِلَ فِيهِ عَامَّةُ الْخُوَارَزْمِيَّةِ، وَقُتِلَ مَلِكُهُمْ بَرَكَاتُ خَانَ، وَجِيءَ بِرَأْسِهِ عَلَى رُمْحٍ، فَتَفَرَّقَ شَمْلُهُمْ وَتَمَزَّقُوا شَذَرَ مَذَرَ، وَسَاقَ الْمَنْصُورُ صَاحِبُ حِمْصَ إِلَى بَعْلَبَكَّ فَتَسَلَّمَهَا الصَّالِحُ أَيُّوبُ، وَجَاءَ إِلَى دِمَشْقَ فَنَزَلَ بِبُسْتَانِ سَامَةَ خِدْمَةً لِلصَّالِحِ أَيُّوبَ،

ثُمَّ حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِأَخْذِهَا فَاتَّفَقَ مَرَضُهُ، فَمَاتَ رَحِمَهُ اللهُ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ، وَنُقِلَ إِلَى حِمْصَ، فَكَانَتْ مُدَّةُ مُلْكِهِ بَعْدَ أَبِيهِ عَشْرَ سِنِينَ، وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ فِيهَا ابْنُهُ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ مُدَّةَ سَنَتَيْنِ، ثُمَّ أُخِذَتْ مِنْهُ عَلَى مَا سَيَأْتِي وَتَسَلَّمَ نُوَّابُ الصَّالِحِ أَيُّوبَ بَعْلَبَكَّ وَبُصْرَى، وَلَمْ يَبْقَ بِيَدِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ بَلَدٌ يَأْوِي إِلَيْهِ وَلَا أَهْلٌ وَلَا وَلَدٌ وَلَا مَالٌ، بَلْ أُخِذَتْ جَمِيعُ أَمْوَالِهِ وَنُقِلَتْ عِيَالُهُ تَحْتَ الْحَوْطَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَسَارَ هُوَ فَاسْتَجَارَ بِالْمَلِكِ النَّاصِرِ بْنِ الْعَزِيزِ بْنِ الظَّاهِرِ غَازِيٍّ صَاحِبِ حَلَبَ، فَآوَاهُ وَأَكْرَمَهُ وَاحْتَرَمَهُ، وَقَالَ الْأَتَابَكُ لُؤْلُؤٌ الْحَلَبِيُّ لِابْنِ أُسْتَاذِهِ النَّاصِرِ، وَكَانَ شَابًّا صَغِيرًا: انْظُرْ إِلَى عَاقِبَةِ الظُّلْمِ.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ وَقْعَةٌ عَظِيمَةٌ بَيْنَ جَيْشِ الْخَلِيفَةِ وَبَيْنَ التَّتَارِ لَعَنَهُمُ اللهُ، فَكَسَرَهُمُ المسلمون كسرة عظيمة وفرقوا شملهم، وهزموا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، فَلَمْ يَلْحَقُوهُمْ وَلَمْ يَتْبَعُوهُمْ، خَوْفًا مِنْ غَائِلَةِ مَكْرِهِمْ وَعَمَلًا بِقَوْلِهِ ﷺ: «**اتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ**»(١).

ثمّ دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة.

وفي سنة ٦٤٨هـ:

فِي ثَالِثِ الْمُحَرَّمِ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ كَانَ كَسْرُ المعظم توران شاه لِلْفِرِنْجِ عَلَى ثَغْرِ دِمْيَاطَ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَقِيلَ مِائَةَ أَلْفٍ، وَغَنِمُوا شَيْئًا كَثِيرًا وَللهِ الْحَمْدُ.

ثُمَّ قَتَلَ جَمَاعَةً مِنَ الْأُمَرَاءِ الذين أسروا، وكان فيمن أسر ملك الفرنسيس وَأَخُوهُ، وَأُرْسِلَتْ غِفَارَةُ مَلِكِ الْإِفْرَنْسِيسِ إِلَى دِمَشْقَ فَلَبِسَهَا نَائِبُهَا فِي يَوْمِ الْمَوْكِبِ، وَكَانَتْ مِنْ سقرلاط تَحْتَهَا فَرْوُ سِنْجَابٍ، ثُمَّ لَمْ يَخْرُجْ شَهْرُ الْمُحَرَّمِ حَتَّى قَتَلَ الْأُمَرَاءُ ابن أستاذهم توران شاه، وَدَفَنُوهُ إِلَى جَانِبِ النِّيلِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَرَحِمَ أَسْلَافَهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

الملك المعظم تورانشاه بن الصّالح أيوب بن الكامل بن العادل:

كَانَ أَوَّلًا صَاحِبَ حِصْنِ حيْفَا فِي حياة أبيه، وكان أبوه يستدعيه فِي أَيَّامِهِ فَلَا يُجِيبُهُ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُوهُ كَمَا ذَكَرْنَا اسْتَدْعَاهُ الْأُمَرَاءُ فَأَجَابَهُمْ وَجَاءَ إِلَيْهِمْ فَمَلَّكُوهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ كَمَا ذَكَرْنَا، وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْمُحَرَّمِ، وَقَدْ قيل إنه كان متخلفا لَا يَصْلُحُ لِلْمُلْكِ.

---

(١) رواه النسائي (٣١٧٦) وأبو داود (٤٣٠٢) وحسنه الألباني (الصحيحة-٧٧٢).

وفي سنة ٦٥٠هـ:

فِيهَا وَصَلَتِ التَّتَارُ إِلَى الْجَزِيرَةِ وَسَرُوجَ وَرَأْسِ الْعَيْنِ وَمَا وَالَى هَذِهِ الْبِلَادَ، فَقَتَلُوا وَسَبَوْا وَنَهَبُوا وَخَرَّبُوا فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، ووقعوا بسنجار يَسِيرُونَ بَيْنَ حَرَّانَ وَرَأْسِ الْعَيْنِ، فَأَخَذُوا مِنْهُمْ سِتَّمِائَةِ حِمْلِ سُكَّرٍ وَمَعْمُولٍ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَسِتَّمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، وَكَانَ عِدَّةُ مَنْ قَتَلُوا فِي هَذِهِ السَّنَةِ مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ نَحْوًا مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ قَتِيلٍ، وَأَسَرُوا مِنَ الْوِلْدَانِ والنساء ما يقارب ذلك، فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

وفي سنة ٦٥١هـ:

فيها دخل الشيخ نجم الدين البادرائي رَسُولُ الْخَلِيفَةِ بَيْنَ صَاحِبِ مِصْرَ وَصَاحِبِ الشَّامِ، وأصلح بين الجيشين، وكانوا قد اشتد الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ وَنَشِبَتْ، وَقَدْ مَالَأَ الْجَيْشُ الْمِصْرِيُّ الْفِرِنْجَ وَوَعَدَهُمْ أَنْ يُسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ إِنْ نَصَرُوهُمْ عَلَى الشَّامِيِّينَ، وَجَرَتْ خُطُوبٌ كَثِيرَةٌ، فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ وَخَلَّصَ جَمَاعَةً مِنْ بُيُوتِ الْمُلُوكِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، مِنْهُمْ أَوْلَادُ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلَ، وَبِنْتُ الْأَشْرَفِ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَوْلَادِ صَاحِبِ حِمْصَ وغيرهم، جزاه اللهُ خَيْرًا.

وفي سنة ٦٥٥هـ:

فِيهَا أَصْبَحَ الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ صَاحِبُ مِصْرَ عِزُّ الدين أيبك بِدَارِهِ مَيِّتًا وَقَدْ وَلِيَ الْمُلْكَ بَعْدَ أُسْتَاذِهِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ بِشُهُورٍ، كَانَ فِيهَا ملك توران شاه المعظم بن الصالح، ثم خلفته شجرة الدُّرِّ أَمُّ خَلِيلٍ مُدَّةَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ ثُمَّ أُقِيمَ هُوَ فِي الْمُلْكِ، وَمَعَهُ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ موسى بن الناصر يوسف بن أقسيس ابن الْكَامِلِ مُدَّةً، ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِالْمُلْكِ بِلَا مُنَازَعَةٍ، وَكَسَرَ النَّاصِرَ لَمَّا أَرَادَ أَخْذَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَقَتَلَ الْفَارِسَ أَقَطَايَ فِي سَنَةِ ثِنْتَيْنِ وَخَمْسِينَ، وَخَلَعَ بَعْدَهُ الْأَشْرَفَ وَاسْتَقَلَّ بِالْمُلْكِ وَحْدَهُ، ثُمَّ تزوج بشجرة الدر أم خليل، وكان كريما شجاعا حييا دَيِّنًا، ثُمَّ كَانَ مَوْتُهُ فِي يَوْمِ الثُّلَاثَاءِ الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ، وَهُوَ وَاقِفُ المدرسة المعزية بِمِصْرَ وَمَجَازُهَا مِنْ أَحْسَنِ الْأَشْيَاءِ، وَهِيَ مِنْ دَاخِلٍ لَيْسَتْ بِتِلْكَ الْفَائِقَةِ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَلَمَّا قُتِلَ ﷺ فاتهم مماليكه زوجته أم خليل شجرة الدر به، وقد كان عزم على تزوج ابْنَةِ صَاحِبِ الْمُوْصِلِ بَدْرِ الدِّينِ لُؤْلُؤٍ، فَأَمَرَتْ جواريها أن يمسكنه لها فما زالت تضر به بقباقيبها والجواري يعركن في معاربه حتى مات وهو كذلك، ولما سمعوا مَمَالِيكُهُ أَقْبَلُوا بِصُحْبَةِ مَمْلُوكِهِ الْأَكْبَرِ سَيْفِ الدِّينِ قُطُزَ، فَقَتَلُوهَا وَأَلْقَوْهَا عَلَى مَزْبَلَةٍ غَيْرَ مَسْتُورَةِ الْعَوْرَةِ، بَعْدَ الْحِجَابِ الْمَنِيعِ وَالْمَقَامِ الرَّفِيعِ، وَقَدْ عَلَّمَتْ عَلَى الْمَنَاشِيرِ وَالتَّوَاقِيعِ، وَخَطَبَ الْخُطَبَاءُ بِاسْمِهَا، وَضُرِبَتِ السِّكَّةُ بِرَسْمِهَا، فَذَهَبَتْ فَلَا تُعْرَفُ بَعْدَ ذَلِكَ بِعَيْنِهَا وَلَا رَسْمِهَا.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٢٦﴾ [آل عمران]

وَفِيهَا كَانَتْ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ بِبَغْدَادَ بَيْنَ الرَّافِضَةِ وأهل السنة، فنهب الْكَرْخُ وَدُورُ الرَّافِضَةِ حَتَّى دُورُ قَرَابَاتِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ في ممالأته للتتار.

وَفِي ذِي الْحِجَّةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ بَعْدَ مَوْتِ البادرائي بِأَيَّامٍ قَلَائِلَ نَزَلَتِ التَّتَارُ عَلَى بَغْدَادَ مُقَدِّمَةً لملكهم هولاكو بن تولى بن جنكيزخان عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ افْتِتَاحُهُمْ لَهَا وَجِنَايَتُهُمْ عَلَيْهَا فِي أَوَّلِ السَّنَةِ الْآتِيَةِ.

<u>وفي سنة ٦٥٦ هـ:</u>

فِيهَا أَخَذَتِ التَّتَارُ بَغْدَادَ وَقَتَلُوا أَكْثَرَ أَهْلِهَا حَتَّى الْخَلِيفَةَ، وَانْقَضَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ مِنْهَا.

اسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَجُنُودُ التَّتَارِ قَدْ نَازَلَتْ بَغْدَادَ صُحْبَةَ الْأَمِيرَيْنِ اللَّذَيْنِ عَلَى مُقَدِّمَةِ عَسَاكِرِ سلطان التتار، هولاكوخان، وَجَاءَتْ إِلَيْهِمْ أَمْدَادُ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ يُسَاعِدُونَهُمْ عَلَى الْبَغَادِدَةِ وَمِيرَتُهُ وَهَدَايَاهُ وَتُحَفُهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنَ التَّتَارِ، وَمُصَانَعَةً لَهُمْ قَبَّحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَدْ سُتِرَتْ بَغْدَادُ وَنُصِبَتْ فِيهَا الْمَجَانِيقُ وَالْعَرَّادَاتُ وَغَيْرُهَا مِنَ آلَاتِ الْمُمَانَعَةِ الَّتِي لَا تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ ﷻ شَيْئًا، وتأمل!!! و﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾:

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى أُصِيبَتْ جَارِيَةٌ كَانَتْ تَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ وَتُضْحِكُهُ، وَكَانَتْ مِنْ جملة حظاياه، وَكَانَتْ مُوَلَّدَةً تُسَمَّى عَرَفَةَ، جَاءَهَا سَهْمٌ مِنْ

بَعْضِ الشَّبَابِيكِ فَقَتَلَهَا وَهِيَ تَرْقُصُ بَيْنَ يَدَيِ الْخَلِيفَةِ، فَانْزَعَجَ الْخَلِيفَةُ مِنْ ذَلِكَ وَفَزِعَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَأَحْضَرَ السَّهْمَ الَّذِي أَصَابَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَإِذَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ إِذَا أَرَادَ اللهُ إِنْفَاذَ قضائه وقدره أذهب من ذَوِي الْعُقُولِ عُقُولَهُمْ، فَأَمَرَ الْخَلِيفَةُ عِنْدَ ذَلِكَ بزيادة الاحتراز، وكثرة الستائر على دار الخلافة.

وكان قدوم هلاكوخان بِجُنُودِهِ كُلِّهَا، وَكَانُوا نَحْوَ مِائَتَيْ أَلْفِ مُقَاتِلٍ- إِلَى بَغْدَادَ فِي ثَانِي عَشَرَ الْمُحَرَّمِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَهُوَ شَدِيدُ الْحَنَقِ عَلَى الْخَلِيفَةِ بِسَبَبِ مَا كَانَ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ وَأَنْفَذَهُ وَأَمْضَاهُ، وَهُوَ أَنَّ هلاكو لما كان أول بروزه من همدان مُتَوَجِّهًا إِلَى الْعِرَاقِ أَشَارَ الْوَزِيرُ مُؤَيِّدُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلْقَمِيِّ عَلَى الْخَلِيفَةِ بِأَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِهَدَايَا سَنِيَّةٍ لِيَكُونَ ذَلِكَ مُدَارَاةً لَهُ عَمَّا يُرِيدُهُ مِنْ قَصْدِ بِلَادِهِمْ فَخَذَّلَ الْخَلِيفَةَ عَنْ ذَلِكَ دُوَيْدَارُهُ الصَّغِيرُ أَيْبَكُ وَغَيْرُهُ، وَقَالُوا إِنَّ الْوَزِيرَ إِنَّمَا يُرِيدُ بِهَذَا مُصَانَعَةَ مَلِكِ التَّتَارِ بِمَا يَبْعَثُهُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَأَشَارُوا بِأَنْ يَبْعَثَ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ، فَأَرْسَلَ شَيْئًا مِنَ الهدايا فاحتقرها هلاكوخان، وَأَرْسَلَ إِلَى الْخَلِيفَةِ يَطْلُبُ مِنْهُ دُوَيْدَارَهُ الْمَذْكُورَ، وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه ولا بالا بِهِ حَتَّى أَزِفَ قُدُومُهُ، وَوَصَلَ بَغْدَادَ بِجُنُودِهِ الْكَثِيرَةِ الْكَافِرَةِ الْفَاجِرَةِ الظَّالِمَةِ الْغَاشِمَةِ، مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

فَأَحَاطُوا بِبَغْدَادَ من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بَغْدَادَ فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ وَنِهَايَةِ الذِّلَّةِ، لَا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم وَبَقِيَّةُ الْجَيْشِ، كُلُّهُمْ قَدْ صُرِفُوا عَنْ إِقْطَاعَاتِهِمْ حَتَّى اسْتَعْطَى كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي الْأَسْوَاقِ وَأَبْوَابِ المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم وَيَحْزَنُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ.

وَذَلِكَ كُلُّهُ عَنْ آرَاءِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ الرَّافِضِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ كَانَ بَيْنَ أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرَّافِضَةِ حَتَّى نُهِبَتْ دُوْرُ قَرَابَاتِ الْوَزِيرِ، فَاشْتَدَّ حَنَقُهُ عَلَى ذَلِكَ، فَكَانَ هَذَا مِمَّا أَهَاجَهُ عَلَى أَنْ دَبَّرَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مَا وَقَعَ مِنَ الْأَمْرِ الْفَظِيعِ الَّذِي لَمْ يُؤَرَّخْ أَبْشَعُ مِنْهُ مُنْذُ بُنِيَتْ بَغْدَادُ، وَإِلَى هَذِهِ الْأَوْقَاتِ، وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ مَنْ بَرَزَ إِلَى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هلاكوخان لعنه الله، ثُمَّ عَادَ فَأَشَارَ عَلَى الْخَلِيفَةِ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ وَالْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ لِتَقَعَ الْمُصَالَحَةُ عَلَى أَنْ يَكُونَ نِصْفُ خَرَاجِ الْعِرَاقِ لَهُمْ وَنِصْفُهُ لِلْخَلِيفَةِ، فَاحْتَاجَ

الْخَلِيفَةُ إِلَى أَنْ خَرَجَ فِي سَبْعِمِائَةِ رَاكِبٍ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْفُقَهَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ وَرُءُوسِ الْأُمَرَاءِ وَالدَّوْلَةِ وَالْأَعْيَانِ، فَلَمَّا اقْتَرَبُوا مِنْ مَنْزِلِ السُّلْطَانِ هولاكو خان حُجِبُوا عَنِ الْخَلِيفَةِ إِلَّا سَبْعَةَ عَشَرَ نَفَسًا، فَخَلَصَ الْخَلِيفَةُ بِهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ، وَأُنْزِلَ الْبَاقُونَ عَنْ مَرَاكِبِهِمْ وَنُهِبَتْ وَقُتِلُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَأُحْضِرَ الْخَلِيفَةُ بين يدي هلاكو فَسَأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَيُقَالُ إِنَّهُ اضْطَرَبَ كَلَامُ الْخَلِيفَةِ مِنْ هَوْلِ مَا رَأَى مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْجَبَرُوتِ.

ثُمَّ عَادَ إِلَى بَغْدَادَ وَفِي صحبته خوجه نصير الدين الطوسي، وَالْوَزِيرُ ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ وَغَيْرُهُمَا، وَالْخَلِيفَةُ تَحْتَ الْحَوْطَةِ وَالْمُصَادَرَةِ، فَأَحْضَرَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ شَيْئًا كَثِيرًا مِنَ الذَّهَبِ وَالْحُلِيِّ وَالْمَصَاغِ وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَشْيَاءِ النَّفِيسَةِ، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أَنْ لَا يُصَالِحَ الْخَلِيفَةَ، وَقَالَ الْوَزِيرُ مَتَى وَقَعَ الصُّلْحُ عَلَى الْمُنَاصَفَةِ لَا يَسْتَمِرُّ هَذَا إِلَّا عَامًا أَوْ عَامَيْنِ ثُمَّ يَعُودُ الْأَمْرُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَحَسَّنُوا لَهُ قَتْلَ الْخَلِيفَةِ، فَلَمَّا عَادَ الْخَلِيفَةُ إِلَى السُّلْطَانِ هُولَاكُو أَمَرَ بِقَتْلِهِ، وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي أشار بقتله الوزير ابن العلقميّ، والمولى نصير الدين الطُّوسِيُّ، وَكَانَ النَّصِيرُ عِنْدَ هُولَاكُو قَدِ اسْتَصْحَبَهُ فِي خِدْمَتِهِ لَمَّا فَتَحَ قِلَاعَ الْأَلَمُوتِ، وَانْتَزَعَهَا مِنْ أَيْدِي الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ، وَكَانَ النَّصِيرُ وَزِيرًا لِشَمْسِ الشُّمُوسِ وَلِأَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ عَلَاءِ الدِّينِ بْنِ جلال الدين، وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي، وانتخب هولاكو النَّصِيرَ لِيَكُونَ فِي خِدْمَتِهِ كَالْوَزِيرِ الْمُشِيرِ، فَلَمَّا قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذَلِكَ فَقَتَلُوهُ رَفْسًا، وَهُوَ فِي جُوَالِقَ لِئَلَّا يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ شَيْءٌ مِنْ دَمِهِ، خَافُوا أَنْ يُؤْخَذَ بِثَأْرِهِ فِيمَا قِيلَ لَهُمْ، وَقِيلَ بل خنق، ويقال بل أغرق فاللهُ أَعْلَمُ، فَبَاءُوا بِإِثْمِهِ وَإِثْمِ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ سَادَاتِ الْعُلَمَاءِ وَالْقُضَاةِ وَالْأَكَابِرِ وَالرُّؤَسَاءِ والأمراء وأولى الحل والعقد ببلاد بغداد.

وَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللهُ سُنِّيًّا عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ الْجَمَاعَةِ كَمَا كَانَ أَبُوهُ وَجَدُّهُ، وَلَكِنْ كَانَ فِيهِ لِينٌ وَعَدَمُ تَيَقُّظٍ وَمَحَبَّةٌ لِلْمَالِ وَجَمْعِهِ، ومن جملة ذلك أنه استحل الْوَدِيعَةَ الَّتِي اسْتَوْدَعَهُ إِيَّاهَا النَّاصِرُ دَاوُدُ بْنُ الْمُعَظَّمِ وَكَانَتْ قِيمَتُهَا نَحْوًا مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ فَاسْتُقْبِحَ هَذَا مِنْ مِثْلِ الْخَلِيفَةِ، وَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ بِكَثِيرٍ بَلْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ كما قَالَ الله تَعَالَى:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]

{ أقول: ولا أدري الحقيقة كيف يكون عَلى طريقة السَّلَف، من يغل الوديعة، ويتلهى براقصة ودولة الإِسْلَام تسقط!! أي سلف هَؤُلَاءِ الّذين كانَ مثل هذا الخَليفَة الساقط عَلى طريقتهم ؟!}.

و يتابع ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَتَلَتْهُ التَّتَارُ مَظْلُومًا مُضْطَهَدًا فِي يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ رَابِعَ عَشَرَ صَفَرٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ سِتَّةٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً وَأَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وكانت مدة خلافته خمسة عشر سَنَةً وَثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ وَأَيَّامًا، فَرَحِمَهُ اللهُ وَأَكْرَمَ مثواه، وبل بالرأفة ثَرَاهُ، وَقَدْ قُتِلَ بَعْدَهُ وَلَدَاهُ وَأُسِرَ الثَّالِثُ مَعَ بَنَاتٍ ثَلَاثٍ مِنْ صُلْبِهِ.

{ وما أدري من ظلم هذا المظلوم أيضا؟ هل هم التّتار، أم هو الظَّالم لنفسه ورعيته؟! وسبحان ربنا القائل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت]}.

وَمَالُوا عَلَى الْبَلَدِ فَقَتَلُوا جَمِيعَ مَنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ وَالْمَشَايِخِ وَالْكُهُولِ وَالشُّبَّانِ

وَدَخَلَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي الْآبَارِ وَأَمَاكِنِ الْحُشُوشِ، وَقُنِيِّ الْوَسَخِ، وَكَمَنُوا كَذَلِكَ أَيَّامًا لَا يَظْهَرُونَ، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الْخَانَاتِ وَيُغْلِقُونَ عَلَيْهِمُ الْأَبْوَابَ فَتَفْتَحُهَا التَّتَارُ إِمَّا بالكسر وإما بِالنَّارِ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ فَيَهْرُبُونَ مِنْهُمْ إِلَى أعالى الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حَتَّى تَجْرِيَ الْمَيَازِيبُ مِنَ الدِّمَاءِ فِي الْأَزِقَّةِ، فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، وَكَذَلِكَ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْجَوَامِعِ وَالرُّبَطِ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَى أَهْلِ الذِّمَّةِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمَنِ الْتَجَأَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى دَارِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ الرَّافِضِيِّ وَطَائِفَةٍ مِنَ التُّجَّارِ أَخَذُوا لَهُمْ أَمَانًا، بَذَلُوا عَلَيْهِ أَمْوَالًا جَزِيلَةً حَتَّى سَلِمُوا وَسَلِمَتْ أَمْوَالُهُمْ.

وعادت بغداد بعد ما كَانَتْ آنَسَ الْمُدُنِ كُلِّهَا كَأَنَّهَا خَرَابٌ لَيْسَ فيها إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ النَّاسِ، وَهُمْ فِي خَوْفٍ وَجُوعٍ وَذِلَّةٍ وَقِلَّةٍ.

وَكَانَ الْوَزِيرُ ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ قَبْلَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ يَجْتَهِدُ فِي صَرْفِ الْجُيُوشِ وإسقاط اسمهم مِنَ الدِّيوَانِ، فَكَانَتِ الْعَسَاكِرُ فِي آخِرِ أَيَّامِ الْمُسْتَنْصِرِ قَرِيبًا مِنْ مِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، مِنْهُمْ من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فَلَمْ يَزَلْ يَجْتَهِدُ فِي تَقْلِيلِهِمْ إِلَى أَنْ لم يبق سوى عَشَرَةُ آلَافٍ، ثُمَّ كَاتَبَ التَّتَارَ وَأَطْمَعَهُمْ

فِي أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لَهُمْ حَقِيقَةَ الْحَالِ، وَكَشَفَ لَهُمْ ضَعْفَ الرِّجَالِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ طَمَعًا مِنْهُ أَنْ يُزِيلَ السُّنَّةَ بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة وَأَنْ يُقِيمَ خَلِيفَةً مَنَ الْفَاطِمِيِّينَ، وَأَنْ يُبِيدَ الْعُلَمَاءَ وَالْمُفْتِينَ، وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَقَدْ رَدَّ كَيْدَهُ فِي نَحْرِهِ، وَأَذَلَّهُ بَعْدَ الْعِزَّةِ القعساء، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كَانَ وَزِيرًا لِلْخُلَفَاءِ، وَاكْتَسَبَ إِثْمَ مَنْ قُتِلَ ببغداد مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ، فَالْحُكْمُ للهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

وَقَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي كَمِّيَّةِ مَنْ قُتِلَ بِبَغْدَادَ مِنَ المسلمين في هذه الوقعة، فَقِيلَ ثَمَانُمِائَةِ أَلْفٍ، وَقِيلَ أَلْفُ أَلْفٍ وَثَمَانُمِائَةِ أَلْفٍ، وَقِيلَ بَلَغَتِ الْقَتْلَى أَلْفَيْ أَلْفِ نَفْسٍ فـ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

وَكَانَ دُخُولُهُمْ إِلَى بَغْدَادَ فِي أَوَاخِرِ الْمُحَرَّمِ، وَمَا زَالَ السَّيْفُ يَقْتُلُ أَهْلَهَا أربعين يوما، وَكَانَ قَتْلُ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَعْصِمِ باللهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يوم الأربعاء رابع عشر صفر وعفى قَبْرُهُ، وَكَانَ عُمْرُهُ يَوْمَئِذٍ سِتًّا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَمُدَّةُ خِلَافَتِهِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ وَأَيَّامٌ، وَقُتِلَ مَعَهُ وَلَدُهُ الْأَكْبَرُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ، وَلَهُ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، ثُمَّ قُتِلَ وَلَدُهُ الْأَوْسَطُ أَبُو الْفَضْلِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَلَهُ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَأُسِرَ وَلَدُهُ الْأَصْغَرُ مُبَارَكٌ وَأُسِرَتْ أَخَوَاتُهُ الثَّلَاثُ فَاطِمَةُ وَخَدِيجَةُ وَمَرْيَمُ، وَأُسِرَ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ مِنَ الْأَبْكَارِ مَا يُقَارِبُ أَلْفَ بكر فيما قيل والله أعلم، فـ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾.

وَقُتِلَ أُسْتَاذُ دَارِ الْخِلَافَةِ الشَّيْخ مُحْيِي الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ الشَّيْخِ أَبِي الفرج ابن الْجَوْزِيِّ، وَكَانَ عَدُوَّ الْوَزِيرِ، وَقُتِلَ أَوْلَادُهُ الثَّلَاثَةُ: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحدا بعد واحده، منهم الديودار الصَّغِيرُ مُجَاهِدُ الدِّينِ أَيْبَكُ، وَشِهَابُ الدِّينِ سُلَيْمَانُ شَاهْ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ أُمَرَاءِ السُّنَّةِ وَأَكَابِرِ الْبَلَدِ.

وَكَانَ الرَّجُلُ يُسْتَدْعَى بِهِ مِنْ دَارِ الْخِلَافَةِ من بنى العباس فيخرج بأولاده ونسائه فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى مَقْبَرَةِ الْخَلَّالِ، تُجَاهَ الْمَنْظَرَةِ فَيُذْبَحُ كَمَا تُذْبَحُ الشَّاةُ، وَيُؤْسَرُ مَنْ يَخْتَارُونَ مِنْ بَنَاتِهِ وَجَوَارِيهِ. وَقُتِلَ شَيْخُ الشُّيُوخِ مُؤَدِّبُ الْخَلِيفَةِ صَدْرُ الدِّينِ عَلِيُّ بْنُ النَّيَّارِ، وَقُتِلَ الْخُطَبَاءُ وَالْأَئِمَّةُ، وَحَمَلَةُ الْقُرْآنِ، وَتَعَطَّلَتِ الْمَسَاجِدُ وَالْجَمَاعَاتُ وَالْجُمُعَاتُ مُدَّةَ شُهُورٍ بِبَغْدَادَ، وَأَرَادَ الْوَزِيرُ ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ قَبَّحَهُ اللهُ وَلَعَنَهُ أَنْ يُعَطِّلَ

الْمَسَاجِدَ وَالْمَدَارِسَ وَالرُّبَطَ بِبَغْدَادَ وَيَسْتَمِرَّ بِالْمَشَاهِدِ وَمَحَالِّ الرَّفْضِ، وَأَنْ يَبْنِيَ لِلرَّافِضَةِ مَدْرَسَةً هَائِلَةً يَنْشُرُونَ عِلْمَهُمْ وَعَلَمَهُمْ بِهَا وَعَلَيْهَا، فَلَمْ يُقَدِّرْهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ، بَلْ أَزَالَ نِعْمَتَهُ عَنْهُ وَقَصَفَ عُمْرَهُ بَعْدَ شُهُورٍ يَسِيرَةٍ مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ، وَأَتْبَعَهُ بِوَلَدِهِ فَاجْتَمَعَا وَاللهُ أَعْلَمُ بِالدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من النار.

ولما انقضى الأمر المقدر وَانْقَضَتِ الْأَرْبَعُونَ يَوْمًا بَقِيَتْ بَغْدَادُ خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا لَيْسَ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا الشَّاذُّ مِنَ النَّاسِ، وَالْقَتْلَى فِي الطُّرُقَاتِ كَأَنَّهَا التُّلُولُ، وَقَدْ سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وَتَغَيَّرَ الْهَوَاءُ فَحَصَلَ بِسَبَبِهِ الْوَبَاءُ الشَّدِيدُ حَتَّى تَعَدَّى وَسَرَى فِي الْهَوَاءِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، فَمَاتَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ تَغَيُّرِ الْجَوِّ وَفَسَادِ الرِّيحِ، فَاجْتَمَعَ عَلَى النَّاسِ الْغَلَاءُ وَالْوَبَاءُ وَالْفَنَاءُ والطعن والطاعون فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

وَلَمَّا نُودِيَ بِبَغْدَادَ بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقني والمقابر كَأَنَّهُمُ الْمَوْتَى إِذَا نُبِشُوا مِنْ قُبُورِهِمْ، وَقَدْ أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَلَا يَعْرِفُ الْوَالِدُ وَلَدَهُ وَلَا الْأَخُ أَخَاهُ، وَأَخَذَهُمُ الْوَبَاءُ الشَّدِيدُ فَتَفَانَوْا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تَحْتَ الثَّرَى بِأَمْرِ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ٨]

وكان رحيل السُّلطَان المسلط هولاكو قان عَنْ بَغْدَادَ فِي جُمَادَى الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى مَقَرِّ مُلْكِهِ، وَفَوَّضَ أَمْرَ بَغْدَادَ إلى الأمير علي بهادر، فوض فوض إليه الشحنكية بها وإلى الوزير ابن العلقمي فلم يمهله الله ولا أهمله، بَلْ أَخَذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، فِي مُسْتَهَلِّ جُمَادَى الْآخِرَةِ عَنْ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ سَنَةً، وَكَانَ عِنْدَهُ فَضِيلَةٌ فِي الْإِنْشَاءِ وَلَدَيْهِ فَضِيلَةٌ فِي الأدب، ولكنه كان شيعياً جلداً رافضياً خبيثاً، فمات جهداً وَغَمًّا وَحُزْنًا وَنَدَمًا، إِلَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمٍ، فَوَلِيَ بَعْدَهُ الْوِزَارَةَ وَلَدُهُ عِزُّ الدين بن الْفَضْلِ مُحَمَّدٌ، فَأَلْحَقَهُ اللهُ بِأَبِيهِ فِي بَقِيَّةِ هَذَا الْعَامِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَذَكَرَ أَبُو شَامَةَ وَشَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الذَّهَبِيُّ وَقُطْبُ الدِّينِ الْيُونِينِيُّ أَنَّهُ أَصَابَ النَّاسَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ بِالشَّامِ وَبَاءٌ شَدِيدٌ، وَذَكَرُوا أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ مِنْ فَسَادِ الْهَوَاءِ وَالْجَوِّ، فَسَدَ مِنْ كَثْرَةِ الْقَتْلَى بِبِلَادِ الْعِرَاقِ وَانْتَشَرَ حَتَّى تَعَدَّى إِلَى بِلَادِ الشَّامِ فَاللهُ أَعْلَمُ..

{ وتأمل في حال جيران الكارثة من الأمراء!! }

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ اقْتَتَلَ الْمِصْرِيُّونَ مَعَ صَاحِبِ الْكَرَكِ الْمَلِكِ المغيث عمر بن العادل الكبير، وكان في حبسه جَمَاعَةٌ مِنْ أُمَرَاءِ الْبَحْرِيَّةِ، مِنْهُمْ رُكْنُ الدِّينِ بيبرس البند قداري، فَكَسَرَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ وَنَهَبُوا مَا كَانَ مَعَهُمْ مِنَ الأثقال والأموال، وأسروا جماعة من رؤس الْأُمَرَاءِ فَقُتِلُوا صَبْرًا، وَعَادُوا إِلَى الْكَرَكِ في أسوأ حال وأشنعه، وَجَعَلُوا يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَيَعِيثُونَ فِي الْبِلَادِ، فأرسل الله الناصر صاحب دمشق فبعث جَيْشًا لِيَكُفَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَكَسَرَهُمُ الْبَحْرِيَّةُ وَاسْتَنْصَرُوا فَبَرَزَ إِلَيْهِمُ النَّاصِرُ بِنَفْسِهِ فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ وَقَطَعُوا أَطْنَابَ خَيْمَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا بِإِشَارَةِ رُكْنِ الدِّينِ بِيبَرْسَ الْمَذْكُورِ، وَجَرَتْ حُرُوبٌ وَخُطُوبٌ يطول بسطها وبالله المستعان

<u>وفي سنة ٦٥٧هـ:</u>

اسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ خَلِيفَةٌ، وَسُلْطَانُ دِمَشْقَ وَحَلَبَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ صَلَاحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ الْعَزِيزِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الظَّاهِرِ غَازِيٍّ بن الناصر صلاح الدين، وَهُوَ وَاقِعٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ وَقَدْ مَلَّكُوا نُورَ الدِّينِ عَلِيَّ بْنَ الْمُعِزِّ أَيْبَكَ التُّرْكُمَانِيَّ ولقبوه بالمنصور، وقد أرسل الملك الغاشم هولاكو خان إلى الملك الناصر صاحب دمشق يَسْتَدْعِيهِ إِلَيْهِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَلَدَهُ الْعَزِيزَ وَهُوَ صَغِيرٌ وَمَعَهُ هَدَايَا كَثِيرَةٌ وَتُحَفٌ، فَلَمْ يَحْتَفِلْ به هولاكو خان بل غضب على أبيه إذ لم يقبل إليه، وأخذ ابنه وقال: أنا أَسِيرُ إِلَى بِلَادِهِ بِنَفْسِي، فَانْزَعَجَ النَّاصِرُ لِذَلِكَ، وَبَعَثَ بِحَرِيمِهِ وَأَهْلِهِ إِلَى الْكَرَكِ لِيُحَصِّنَهُمْ بِهَا وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، ولا سيما لما بلغهم إن التتار قد قطعوا الفرات، سافر كثير منهم إلى مصر في زمن الشتاء، فمات ناس كثير منهم ونهبوا فـ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

وَأَقْبَلَ هُولَاكُو خان فقصد الشام بجنوده وعساكره، وقد امتنعت عليه ميافارقين مُدَّةَ سَنَةٍ وَنِصْفٍ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا وَلَدَهُ أَشْمُوطَ فافتتحها قسراً وأنزل مَلِكَهَا الْكَامِلَ بْنَ الشِّهَابِ غَازِي بْنِ الْعَادِلِ فَأَرْسَلَهُ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ مُحَاصِرٌ حَلَبَ فَقَتَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَاسْتَنَابَ عَلَيْهَا بَعْضَ مَمَالِيكِ الْأَشْرَفِ، وَطِيفَ بِرَأْسِ الْكَامِلِ فِي الْبِلَادِ، وَدَخَلُوا بِرَأْسِهِ إِلَى دِمَشْقَ، فَنُصِبَ عَلَى بَابِ الْفَرَادِيسِ.

<u>**و تأمل في فرج الله وأسبابه وفي النهضة وبداياتها وكيف تكون!**</u>

وَفِيهَا قَدِمَ الْقَاضِي الْوَزِيرُ كَمَالُ الدِّينِ عُمَرُ بْنُ أَبِي جَرَادَةَ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْعَدِيمِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ رَسُولًا مِنْ صَاحِبِ دِمَشْقَ النَّاصِرِ بْنِ الْعَزِيزِ يَسْتَنْجِدُ الْمِصْرِيِّينَ على قتال التتار، وأنهم قَدِ اقْتَرَبَ قُدُومُهُمْ إِلَى الشَّامِ، وَقَدِ اسْتَوْلَوْا على بلاد الجَزِيرَة وَحَرَّانَ وَغَيْرِهَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ، وَقَدْ جَازَ أَشْمُوطُ بْنُ هُولَاكُو الْفُرَاتَ، وَاقْتَرَبَ مِنْ مَدِينَةِ حَلَبَ، فَعُقِدَ عِنْدَ ذَلِكَ مَجْلِسٌ بَيْنَ يَدَيِ الْمَنْصُورِ بْنِ الْمُعِزِّ التُّرْكُمَانِيِّ، وَحَضَرَ قَاضِي مِصْرَ بَدْرُ الدِّينِ السِّنْجَارِيُّ، وَالشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ، وَأَفَاضُوا الْكَلَامَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَخْذِ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِ الْعَامَّةِ لِمُسَاعَدَةِ الْجُنْدِ، وَكَانَتِ الْعُمْدَةُ عَلَى مَا يَقُولُهُ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ [سلطان العلماء]، فَكَانَ حَاصِلُهُ:

إِذَا لَمْ يَبْقَ فِي بَيْتِ الْمَالِ شَيْءٌ، وَأَنْفَقْتُمُ الْحَوَائِصَ الذَّهَبَ وَغَيْرَهَا مِنَ الزِّينَةِ، وَتَسَاوَيْتُمْ أَنْتُمْ وَالْعَامَّةُ فِي الْمَلَابِسِ سِوَى آلَاتِ الْحَرْبِ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْجُنْدِيِّ شَيْءٌ سِوَى فَرَسِهِ الَّتِي يَرْكَبُهَا، سَاغَ أَخْذُ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ فِي دَفْعِ الْأَعْدَاءِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا دَهَمَ الْعَدُوُّ وَجَبَ عَلَى النَّاسِ كَافَّةً أَنْ يَدْفَعُوهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ..

ولاية الملك المظفر قطز:

وَفِيهَا قَبَضَ الْأَمِيرُ سَيْفُ الدِّينِ قُطُزُ عَلَى ابْنِ أُسْتَاذِهِ نُورِ الدِّينِ عَلِيٍّ الْمُلَقَّبِ بِالْمَنْصُورِ، وَذَلِكَ فِي غَيْبَةِ أَكْثَرِ الْأُمَرَاءِ مِنْ مَمَالِيكِ أَبِيهِ وَغَيْرِهِمْ فِي الصَّيْدِ، فَأَمْسَكَهُ وَسَيَّرَهُ مَعَ أُمِّهِ وَابْنَيْهِ وَإِخْوَتِهِ إِلَى بِلَادِ الْأَشْكُرِيِّ، وَتَسَلْطَنَ هُوَ، وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْمَلِكِ الْمُظَفَّرِ، وَكَانَ هَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِالْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ الَّذِي يَسَّرَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ كَسْرَةَ التَّتَارِ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَهَذَا الَّذِي اعْتَذَرَ بِهِ إِلَى ابْنِ الْعَدِيمِ فَإِنَّهُ قَالَ: لَابُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ يُقَاتِلُ التَّتَارَ، وَهَذَا صَبِيٌّ صَغِيرٌ لَا يَعْرِفُ تَدْبِيرَ الْمَمْلَكَةِ.

وَفِيهَا بَرَزَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ صَاحِبُ دِمَشْقَ إِلَى وَطْأَةِ بَرْزَةَ فِي جَحَافِلَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْجَيْشِ وَالْمُطَّوِّعَةِ وَالْأَعْرَابِ وَغَيْرِهِمْ، وَلَمَّا عَلِمَ ضَعْفَهُمْ عَنْ مُقَاوَمَةِ الْمَغُولِ، ارْفَضَّ ذَلِكَ الْجَمْعُ، وَلَمْ يَصْبِرْ لَا هُوَ وَلَا هُمْ، فـ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾.

وفي سنة ٦٥٨ هـ:

اسْتَهَلَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ بِيَوْمِ الْخَمِيسِ وَلَيْسَ لِلنَّاسِ خَلِيفَةٌ، وَمَلِكُ الْعِرَاقَيْنِ وَخُرَاسَانَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بِلَادِ الْمَشْرِقِ السُّلْطَانُ هُولَاكُوقَانَ مَلِكُ التَّتَارِ ابْنُ تُولِي بْنِ جِنْكِزْخَانَ، وَسُلْطَانُ دِيَارِ مِصْرَ الْمَلِكُ الْمُظَفَّرُ سَيْفُ الدِّينِ قُطُزُ مَمْلُوكُ الْمُعِزِّ أَيْبَكَ التُّرْكُمَانِيِّ، وَسُلْطَانُ دِمَشْقَ وَحَلَبَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ بْنُ الْعَزِيزِ بْنِ الظَّاهِرِ غَازِيِّ بْنِ النَّاصِرِ فَاتِحِ الْقُدْسِ، وَبِلَادِ الْكَرَكِ وَالشُّوبَكِ لِلْمَلِكِ الْمُغِيثِ بْنِ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرِ بْنِ الْكَامِلِ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَيُّوبَ، **وَهُوَ حِزْبٌ مَعَ النَّاصِرِ صَاحِبِ دِمَشْقَ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ، وَمَعَهُمَا الْأَمِيرُ رُكْنُ الدِّينِ بِيبَرْسُ الْبُنْدُقْدَارِيُّ، وَقَدْ عَزَمُوا عَلَى قِتَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأَخْذِ الْبَلَدِ مِنْهُمْ!!**

أخذ التّتار حلب ودمشق:

وَبَيْنَمَا النَّاسُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ بِقَصْدِ التَّتَارِ بِلَادَ الشَّامِ، إِذْ دَخَلَ جَيْشُ الْمُغُولِ صُحْبَةَ مَلِكِهِمْ هُولَاكُو، وَجَازُوا الْفُرَاتَ عَلَى جُسُورٍ عَمِلُوهَا، وَوَصَلُوا إِلَى حَلَبَ فِي ثَانِي صَفَرٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، فَحَاصَرُوهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ افْتَتَحُوهَا بِالْأَمَانِ، وَغَدَرُوا بِهِمْ، فَقَتَلُوا مِنْ أَهْلِهَا خَلْقًا لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَنَهَبُوا الْأَمْوَالَ وَسَبَوُا النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ، وَجَرَى عَلَيْهِمْ قَرِيبٌ مِمَّا جَرَى عَلَى أَهْلِ بَغْدَادَ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ فَـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِمْ قَلْعَتُهَا شَهْرًا، ثُمَّ تَسَلَّمُوهَا بِالْأَمَانِ، وَخُرِّبَتْ أَسْوَارُ الْبَلَدِ وَأَسْوَارُ الْقَلْعَةِ، وَبَقِيَتْ حَلَبُ كَأَنَّهَا حِمَارٌ أَجْرَبُ، وَكَانَ نَائِبُهَا الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ تَوْرَانْشَاهُ بْنُ صَلَاحِ الدِّينِ، وَكَانَ عَاقِلًا حَازِمًا لَكِنَّهُ لَمْ يُوَافِقْهُ الْجَيْشُ عَلَى الْمَصْلَحَةِ وَلَكِنْ سَرِعُوا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا. وَقَدْ كَانَ السُّلْطَانُ هُولَاكُو أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ الْبَلَدِ يَقُولُ لَهُمْ حِينَ قَدِمَ بِجَحَافِلِهِ: نَحْنُ إِنَّمَا جِئْنَا لِقِتَالِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ بِدِمَشْقَ، وَنَحْنُ نُرِيدُ مِنْكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا بِالْقَلْعَةِ شِحْنَةً، فَإِنْ كَانَتِ النُّصْرَةُ لَنَا فَالْبِلَادُ كُلُّهَا فِي حُكْمِنَا، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْنَا فَإِنْ شِئْتُمْ قَبِلْتُمُ الشِّحْنَةَ وَإِنْ شِئْتُمْ أَطْلَقْتُمُوهُ. فَأَجَابُوهُ: مَالَكَ عِنْدَنَا إِلَّا السَّيْفُ. فَتَعَجَّبَ مِنْ ضَعْفِهِمْ وَجَوَابِهِمْ بِهَذَا، فَزَحَفَ حِينَئِذٍ إِلَيْهِمْ، وَأَحَاطَ بِالْبَلَدِ، وَكَانَ مَا كَانَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَلَمَّا فُتِحَتْ حَلَبُ أَرْسَلَ صَاحِبُ حَمَاةَ بِمَفَاتِيحِهَا إِلَيْهِ، فَاسْتَنَابَ عَلَيْهَا رَجُلًا مِنَ الْعَجَمِ يَدَّعِي أَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ يُقَالُ لَهُ: خُسْرُوشَاهْ. فَخَرَّبَ أَسْوَارَهَا كَمَا فُعِلَ بِمَدِينَةِ حَلَبَ.

أَرْسَلَ هُولَاكُو وَهُوَ نَازِلٌ عَلَى حَلَبَ جَيْشًا مَعَ أَمِيرٍ مِنْ كِبَارِ دَوْلَتِهِ يُقَالُ لَهُ: كَتْبُغَانُوِينَ. فَوَرَدُوا دِمَشْقَ فِي آخِرِ صَفَرٍ، فَأَخَذُوهَا سَرِيعًا مِنْ غَيْرِ مُمَانَعَةٍ وَلَا مُدَافِعَةٍ، بَلْ تَلَقَّاهُمْ كِبَارُهَا بِالرُّحْبِ وَالسَّعَةِ، وَقَدْ كَتَبَ مَعَهُمُ السُّلْطَانُ هُولَاكُو فَرَمَانَ أَمَانٍ لِأَهْلِ الْبَلَدِ، فَقُرِئَ بِالْمَيْدَانِ الْأَخْضَرِ، وَنُودِيَ بِهِ فِي الْبَلَدِ، فَأَمِنَ النَّاسُ عَلَى وَجِلٍ أَنْ يَغْدِرُوا كَمَا فُعِلَ بِأَهْلِ حَلَبَ، هَذَا وَالْقَلْعَةُ مُمْتَنِعَةٌ مَسْتُورَةٌ، وَفِي أَعَالِيهَا الْمَجَانِيقُ مَنْصُوبَةٌ، فَنُصِبَ الْمَجَانِيقُ عَلَى الْقَلْعَةِ مِنْ غَرْبِيِّهَا وَهَدَمُوا حِيطَانًا كَثِيرَةً فَأَجَابَهُمْ مُتَوَلِّيهَا فِي آخِرِ ذَلِكَ النَّهَارِ لِلْمُصَالَحَةِ، فَفَتَحُوهَا وَخَرَّبُوا كُلَّ بَدَنَةٍ فِيهَا، وَأَعَالِي بُرُوجِهَا، وَذَلِكَ فِي الْمُنْتَصَفِ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، وَقَتَلُوا الْمُتَوَلِّيَ بِهَا بَدْرَ الدِّينِ بْنَ قَرَاجَا، وَنَقِيبَهَا جَمَالَ الدِّينِ بْنَ الصَّيْرَفِيِّ الْحَلَبِيَّ، وَسَلَّمُوهَا إِلَى أَمِيرٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِيلَ سَبَانَ.

وكَانَ لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَى مُعَظِّمًا لِدِينِ النَّصَارَى، فَاجْتَمَعَ بِهِ أَسَاقِفَتُهُمْ وَقُسُوسُهُمْ، فَعَظَّمَهُمْ جِدًّا وَزَارَ كَنَائِسَهُمْ، فَصَارَتْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَحَوْلَةٌ وَصَوْلَةٌ بِسَبَبِهِ، لَعَنَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَى إِلَى هُولَاكُو بِهَدَايَا وَتُحَفٍ، وَقَدِمُوا مِنْ عِنْدِهِ وَمَعَهُمْ أَمَانٌ؛ فَرَمَانٌ مِنْ جِهَتِهِ، وَدَخَلُوا الْبَلَدَ مِنْ بَابِ تُومَاءَ وَمَعَهُمْ صَلِيبٌ مَنْصُوبٌ يَحْمِلُونَهُ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ، وَهُمْ يُنَادُونَ بِشِعَارِهِمْ، وَيَقُولُونَ ظَهَرَ الدِّينُ الصَّحِيحُ، دِينُ الْمَسِيحِ.

وَيَذُمُّونَ دِينَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ وَمَعَهُمْ أَوَانٍ فِيهَا خَمْرٌ لَا يَمُرُّونَ عَلَى بَابِ مَسْجِدٍ إِلَّا رَشُّوا عِنْدَهُ خَمْرًا، وَقَمَاقِمَ مَلْآنَةً خَمْرًا يَرُشُّونَ مِنْهَا عَلَى وُجُوهِ النَّاسِ، وَيَأْمُرُونَ كُلَّ مَنْ يَجْتَازُونَ بِهِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالطُّرُقَاتِ أَنْ يَقُومَ لِصَلِيبِهِمْ، وَدَخَلُوا مِنْ دَرْبِ الْحَجَرِ، فَوَقَفُوا عِنْدَ رِبَاطِ الشَّيْخِ أَبِي الْبَيَانِ، وَرَشُّوا هُنَالِكَ خَمْرًا، وَكَذَلِكَ عَلَى بَابِ مَسْجِدِ دَرْبِ الْحَجَرِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَاجْتَازُوا فِي السُّوقِ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى دَرْبِ الرَّيْحَانِ أَوْ قَرِيبٍ مِنْهُ، فَتَكَاثَرَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ، فَرَدُّوهُمْ إِلَى سُوقِ كَنِيسَةِ مَرْيَمَ، فَوَقَفَ خَطِيبُهُمْ إِلَى دَكَّةِ دُكَّانٍ فِي عَطْفَةِ السُّوقِ هُنَالِكَ، فَذَكَرَ فِي خُطْبَتِهِ مَدْحَ دِينِ النَّصَارَى، وَذَمَّ دِينَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، ثُمَّ وَلَجُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى كَنِيسَةِ مَرْيَمَ، وَكَانَتْ بَعْدُ عَامِرَةً، وَلَكِنْ كَانَ هَذَا سَبَبَ خَرَابِهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

قَالَ: وَذَكَرَ أَنَّهُمْ دَخَلُوا إِلَى الْجَامِعِ بِخَمْرٍ، وَكَانَ مِنْ نِيَّتِهِمْ إِنْ طَالَتْ مُدَّةُ التَّتَارِ أَنْ يُخَرِّبُوا كَثِيرًا مِنَ الْمَسَاجِدِ وَغَيْرِهَا، فَكَفَى اللهُ شَرَّهُمْ. وَلَمَّا وَقَعَ هَذَا فِي الْبَلَدِ اجْتَمَعَ قُضَاةُ الْمُسْلِمِينَ وَالشُّهُودُ وَالْفُقَهَاءُ، فَدَخَلُوا الْقَلْعَةَ يَشْكُونَ هَذَا الْحَالَ إِلَى مُتَسَلِّمِهَا إِيلَ سَبَانَ، فَأُهِينُوا وَطُرِدُوا، وَقَدَّمَ كَلَامَ رُؤَسَاءِ النَّصَارَى عَلَيْهِمْ. فـ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾.

وَقَدْ كَانَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السَّنَةِ سُلْطَانُ الشَّامِ النَّاصِرُ بْنُ الْعَزِيزِ، قَدْ أَقَامَ فِي وَطْأَةِ بَرْزَةَ، وَمَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الْجُيُوشِ وَالْأُمَرَاءِ وَأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ لِيُنَاجِزُوا التَّتَارَ إِنْ قَدِمُوا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ مِمَّنْ مَعَهُ الْأَمِيرُ بِيبَرْسُ الْبُنْدُقْدَارِيُّ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْبَحْرِيَّةِ، وَالْكَلِمَةُ بَيْنَ الْجُيُوشِ مُخْتَلِفَةٌ غَيْرُ مُؤْتَلِفَةٍ، لِمَا يُرِيدُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَدْ عَزَمَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ عَلَى خَلْعِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ وَسَجْنِهِ وَمُبَايَعَةِ أَخِيهِ شَقِيقِهِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ عَلِيٍّ، فَلَمَّا تَنَسَّمَ النَّاصِرُ ذَلِكَ هَرَبَ إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ وَتَفَرَّقَتِ الْعَسَاكِرُ شَذَرَ مَذَرَ، وَسَاقَ الْأَمِيرُ رُكْنُ الدِّينِ بِيبَرْسُ الْبُنْدُقْدَارِيُّ فِي أَصْحَابِهِ إِلَى نَاحِيَةِ غَزَّةَ، فَاسْتَدْعَاهُ الْمَلِكُ الْمُظَفَّرُ قُطُزُ إِلَيْهِ، وَاسْتَقْدَمَهُ عَلَيْهِ، وَأَقْطَعَهُ قَلْيُوبَ، وَأَنْزَلَهُ بِدَارِ الْوِزَارَةِ، وَعَظَّمَ شَأْنَهُ لَدَيْهِ، وَإِنَّمَا كَانَ حَتْفُهُ عَلَى يَدَيْهِ.

وقعة عين جالوت ٢٧ رمضان ٦٥٨هـ:

وَاتَّفَقَ وُقُوعُ هَذَا كُلِّهِ فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ رَمَضَانَ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ، فَمَا مَضَتْ سِوَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ حَتَّى جَاءَتِ الْبِشَارَةُ بِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّتَارِ بِعَيْنِ جَالُوتَ وَللهِ الْحَمْدُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ الْمُظَفَّرَ قُطُزَ صَاحِبَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ التَّتَارَ قَدْ فَعَلُوا بِالشَّامِ مَا ذَكَرْنَا، وَقَدْ نَهَبُوا الْبِلَادَ كُلَّهَا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى غَزَّةَ، وَقَدْ عَزَمُوا عَلَى الدُّخُولِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَقَدْ عَزَمَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ صَاحِبُ دِمَشْقَ عَلَى الرَّحِيلِ إِلَى مِصْرَ، وَلَيْتَهُ فَعَلَ. وَكَانَ فِي صُحْبَتِهِ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ صَاحِبُ حَمَاةَ، وَخَلْقٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ، وَقَدْ وَصَلَ إِلَى قَطْيَةَ، وَتَهَيَّأَ الْمَلِكُ الْمُظَفَّرُ لِلِقَائِهِ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَإِلَى الْمَنْصُورِ مُسْتَحِثِّينَ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يَقُولُ: تَقَدَّمْ حَتَّى نَكُونَ كَتِفًا وَاحِدًا عَلَى التَّتَارِ.

فَتَخَيَّلَ مِنْ ذَلِكَ وَخَافَ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَيْهِ، فَكَرَّ رَاجِعًا، وَمَا زَالَ التَّتَارُ وَرَاءَ النَّاصِرِ حَتَّى أَخَذُوهُ وَأَسَرُوهُ عِنْدَ بِرْكَةِ زَيْزَاءَ، وَأَرْسَلُوهُ مَعَ وَلَدِهِ الْعَزِيزِ وَهُوَ صَغِيرٌ، وَأَخِيهِ إِلَى مَلِكِهِمْ هُولَاكُو وَهُوَ نَازِلٌ عَلَى حَلَبَ، فَكَانُوا فِي أَسْرِهِ حَتَّى قَتَلَهُمْ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ، كَمَا سَنَذْكُرُهُ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْمُظَفَّرَ لَمَّا بَلَغَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ التَّتَارِ بِالشَّامِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَنَّهُمْ عَازِمُونَ عَلَى الدُّخُولِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ بَعْدَ تَمْهِيدِ مَمْلَكَتِهِمْ بِالشَّامِ بَادَرَهُمْ هُوَ قَبْلَ أَنْ يُبَادِرُوهُ، وَبَرَزَ إِلَيْهِمْ، أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى، وَأَقْدَمَ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يُقْدِمُوا عَلَيْهِ، فَخَرَجَ بِالْعَسَاكِرِ الْمِصْرِيَّةِ، وَقَدِ اجْتَمَعَتِ الْكَلِمَةُ عَلَيْهِ، حَتَّى انْتَهَى بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى الشَّامِ وَاسْتَيْقَظَ لَهُ عَسْكَرُ الْمُغُولِ، وَعَلَيْهِمْ كَتْبُغَا نُوِينَ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ فِي الْبِقَاعِ، فَاسْتَشَارَ الْأَشْرَفُ صَاحِبُ حِمْصَ وَالْقَاضِي مُجِيرُ الدِّينِ بْنُ الزَّكِيِّ فِي لِقَاءِ الْمُظَفَّرِ، فَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ لَا قِبَلَ لَهُ بِالْمُظَفَّرِ حَتَّى يَسْتَمِدَّ هُولَاكُو، فَأَبَى إِلَّا أَنْ يُنَاجِزَهُ سَرِيعًا، فَصَمَدُوا إِلَيْهِ، فَكَانَ اجْتِمَاعُهُمْ عَلَى عَيْنِ جَالُوتَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ الْخَامِسَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا عَظِيمًا شَدِيدًا، فَكَانَتِ النُّصْرَةُ، وَللهِ الْحَمْدُ، لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، فَهَزَمَهُمُ الْمُسْلِمُونَ هَزِيمَةً هَائِلَةً، وَقُتِلَ كَتْبُغَا نُوِينَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ بَنِيهِ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الَّذِي قَتَلَ كَتْبُغَا نُوِينَ الْأَمِيرُ جَمَالُ الدِّينِ آقُوشُ الشَّمْسِيُّ، وَاتَّبَعَهُمُ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ يَقْتُلُونَهُمْ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ وَفِي كُلِّ مَأْزِقٍ، وَقَدْ قَاتَلَ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ صَاحِبُ حَمَاةَ مَعَ الْمَلِكِ الْمُظَفَّرِ فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ قِتَالًا عَظِيمًا، وَكَذَلِكَ الْأَمِيرُ فَارِسُ الدِّينِ أَقْطَايُ الْمُسْتَعْرِبُ، وَكَانَ أَتَابِكَ الْعَسْكَرِ، وَقَدْ أُسِرَ مِنْ جَمَاعَةِ كَتْبُغَا نُوِينَ الْمَلِكُ السَّعِيدُ بْنُ الْعَزِيزِ بْنِ الْعَادِلِ، فَأَمَرَ الْمُظَفَّرُ بِضَرْبِ عُنُقِهِ، وَاسْتَأْمَنَ الْأَشْرَفُ صَاحِبُ حِمْصَ وَكَانَ مَعَ التَّتَارِ، وَقَدْ جَعَلَهُ هُولَاكُو نَائِبًا عَلَى الشَّامِ كُلِّهِ، فَأَمَّنَهُ الْمَلِكُ الْمُظَفَّرُ، وَرَدَّ إِلَيْهِ حِمْصَ، وَكَذَلِكَ رَدَّ حَمَاةَ إِلَى الْمَنْصُورِ، وَزَادَهُ الْمَعَرَّةَ وَغَيْرَهَا، وَأَطْلَقَ سَلَمْيَةَ لِلْأَمِيرِ شَرَفِ الدِّينِ عِيسَى بْنِ مُهَنَّا بْنِ مَانِعٍ أَمِيرِ الْعَرَبِ، وَاتَّبَعَ الْأَمِيرُ رُكْنُ الدِّينِ بِيبَرْسُ الْبُنْدُقْدَارِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الشُّجْعَانِ التَّتَارَ يَقْتُلُونَهُمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ، إِلَى أَنْ وَصَلُوا خَلْفَهُمْ إِلَى حَلَبَ، وَهَرَبَ مَنْ بِدِمَشْقَ مِنْهُمْ، وَكَانَ هَرَبُهُمْ مِنْهَا يَوْمَ الْأَحَدِ السَّابِعَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ صَبِيحَةَ النَّصْرِ الَّذِي جَاءَتْ فِيهِ الْبِشَارَةُ بِالنُّصْرَةِ عَلَى عَيْنِ جَالُوتَ، فَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ دِمَشْقَ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ وَيَنْهَبُونَ الْأَمْوَالَ فِيهِمْ، وَيَسْتَفِكُّونَ الْأُسَارَى مِنْ أَيْدِيهِمْ قَهْرًا، وَللهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ عَلَى جَبْرِهِ الْإِسْلَامَ، وَمُعَامَلَتِهِ إِيَّاهُمْ بِلُطْفِهِ الْحَسَنِ.

وَجاءَتْ بِذَلِكَ الْبِشَارَةُ السَّارَّةُ، فَجَاوَبَتْهَا الْبَشَائِرُ مِنَ الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ وَفَرِحَ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَئِذٍ بِنَصْرِ اللهِ فَرَحًا شَدِيدًا، وَأَيَّدَ اللهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ تَأْيِيدًا، وَكُبِتَ أَعْدَاءُ اللهِ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَالْمُنَافِقُونَ، وَظَهَرَ دِينُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ، وَنَصَرَ اللهُ دِينَهُ وَنَبِيَّهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

فَتَبَادَرَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى كَنِيسَةِ النَّصَارَى الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا الصَّلِيبُ، فَانْتَهَبُوا مَا فِيهَا وَأَحْرَقُوهَا وَأَلْقَوُا النَّارَ فِيمَا حَوْلَهَا، فَاحْتَرَقَتْ دُورٌ كَثِيرَةٌ لِلنَّصَارَى، وَمَلَأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا، وَأَحْرَقَ بَعْضَ كَنِيسَةِ الْيَعَاقِبَةِ، وَهَمَّتْ طَائِفَةٌ بِنَهْبِ الْيَهُودِ، فَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ فِيمَا ظَهَرَ مِنَ الطُّغْيَانِ كَمَا كَانَ عَلَى عَبَدَةِ الصُّلْبَانِ. وَقَتَلَتِ الْعَامَّةُ فِي وَسَطِ الْجَامِعِ شَيْخًا رَافِضِيًّا كَانَ مُصَانِعًا لِلتَّتَارِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ يُقَالُ لَهُ: الْفَخْرُ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْكَنْجِيُّ. كَانَ خَبِيثَ الطَّوِيَّةِ مَشْرِقِيًّا مُمَالِئًا لَهُمْ عَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ، قَبَّحَهُ اللهُ تَعَالَى، وَقَتَلُوا جَمَاعَةً مِثْلَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمُمَالِئِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ..

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام]

وَلَمَّا كَسَرَ الْمَلِكُ الْمُظَفَّرُ قُطُزُ عَسَاكِرَ التَّتَارِ بِعَيْنِ جَالُوتَ سَاقَ وَرَاءَهُمْ، وَدَخَلَ دِمَشْقَ فِي أُبَّهَةٍ عَظِيمَةٍ، وَفَرِحَ النَّاسُ بِهِ فَرَحًا شَدِيدًا وَدَعَوْا لَهُ دُعَاءً كَثِيرًا، وَأَقَرَّ صَاحِبَ حِمْصَ الْمَلِكَ الْأَشْرَفَ عَلَى بَلَدِهِ، وَكَذَلِكَ الْمَنْصُورَ صَاحِبَ حَمَاةَ، وَاسْتَرَدَّ حَلَبَ أَيْضًا مِنْ أَيْدِي التَّتَارِ وَعَادَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ، وَمَهَّدَ الْقَوَاعِدَ، وَكَانَ قَدْ أَرْسَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْأَمِيرَ رُكْنَ الدِّينِ بِيبَرْسَ الْبُنْدُقْدَارِيَّ لِيَطْرُدَ التَّتَارَ وَيَتَسَلَّمَ مَدِينَةَ حَلَبَ، وَوَعَدَهُ بِنِيَابَتِهَا، فَلَمَّا طَرَدَهُمْ عَنْهَا، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا، وَتَسَلَّمَهَا الْمُسْلِمُونَ اسْتَنَابَ عَلَيْهَا غَيْرَهُ، وَهُوَ عَلَاءُ الدِّينِ ابْنُ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ الْوَحْشَةِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا، وَاقْتَضَتْ قَتْلَ الْمَلِكِ الْمُظَفَّرِ قُطُزَ سَرِيعًا، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ.

ذكر سلطنة الملك الظَّاهِر وهو الأسد الضاري بيبرس البندقداري:

وَذَلِكَ أَنَّ السُّلْطَانَ الْمَلِكَ الْمُظَفَّرَ قُطُزَ لَمَّا عَادَ بِالْعَسَاكِرِ قَاصِدًا الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ، فَوَصَلَ إِلَى مَا بَيْنَ الْغُرَابِيِّ وَالصَّالِحِيَّةِ، عَدَا عَلَيْهِ الْأُمَرَاءُ، فَقَتَلُوهُ هُنَالِكَ وَقَدْ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا، كَثِيرَ الصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ، وَلَا يَتَعَاطَى الشَّرَابَ وَلَا شَيْئًا مِمَّا يَتَعَاطَاهُ الْمُلُوكُ، وَكَانَتْ مُدَّةُ مُلْكِهِ مِنْ حِينَ عَزَلَ ابْنَ أُسْتَاذِهِ الْمَنْصُورَ

عَلِيَّ بْنَ الْمُعِزِّ التُّرْكُمَانِيِّ إِلَى هَذِهِ الْمُدَّةِ، وَهِيَ أَوَاخِرُ ذِي الْقَعْدَةِ نَحْوًا مِنْ سَنَةٍ، رَحِمَهُ اللهُ، وَجَزَاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ خَيْرًا.

وَكَانَ الْأَمِيرُ رُكْنُ الدِّينِ بِيبَرْسُ الْبُنْدُقْدَارِيُّ قَدِ اتَّفَقَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ عَلَى قَتْلِهِ، وَأَلْقَوْهُ عَنْ فَرَسِهِ، وَرَشَقُوهُ بِالنُّشَّابِ حَتَّى أَجْهَزُوا عَلَيْهِ، فَاتَّفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَى أَنْ بَايَعُوا الْأَمِيرَ رُكْنَ الدِّينِ بِيبَرْسَ الْبُنْدُقْدَارِيَّ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَكَابِرِ الْمُقَدَّمِينَ فِيهِمْ، وَلَكِنْ أَرَادُوا أَنْ يُجَرِّبُوا فِيهِ، وَلَقَّبُوهُ الْمَلِكَ الظَّاهِرَ، فَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ الْمَمْلَكَةِ وَحَكَمَ فَعَدَلَ، وَقَطَعَ وَوَصَلَ، وَكَانَ شَهْمًا شُجَاعًا، أَقَامَهُ اللهُ لِلنَّاسِ لِشِدَّةِ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ الشَّدِيدِ وَالْأَمْرِ الْعَسِيرِ، ثُمَّ شَرَعَ فِي مَسْكِ مَنْ يَرَى فِي نَفْسِهِ رِئَاسَةً مَنْ أَكَابِرِ الْأُمَرَاءِ حَتَّى مَهَّدَ الْمُلْكَ كَمَا يُرِيدُ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

وَقَدْ كَانَ السُّلْطَانُ هُولَاكُوقَانُ لَمَّا بَلَغَهُ مَا جَرَى عَلَى جَيْشِهِ بِعَيْنِ جَالُوتَ أَرْسَلَ جَمَاعَةً كَثِيرَةً مِنْ جَيْشِهِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ لِيَسْتَعِيدُوهُ مِنْ أَيْدِي جَيْشِ الْإِسْلَامِ، فَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، وَرَجَعُوا إِلَيْهِ وَهُمْ خَائِبُونَ خَاسِرُونَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ نَهَضَ إِلَيْهِمُ الْهِزَبْرُ الْكَاسِرُ وَالسَّيْفُ الْبَاتِرُ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْمُؤَيَّدُ الظَّاهِرُ، فَقَدِمَ إِلَى دِمَشْقَ وَأَرْسَلَ الْجُيُوشَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، لِحِفْظِ الثُّغُورِ وَالْمَعَاقِلِ بِالْأَسْلِحَةِ التَّامَّةِ وَالْجَحَافِلِ، فَلَمْ يَقْدِرِ التَّتَارُ عَلَى الدُّنُوِّ إِلَيْهِ، وَلَا الْقُدُومِ عَلَيْهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَكَصَتْ شَيَاطِينُهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَكَرَّتْ رَاجِعَةً الْقَهْقَرَى عَلَى أَذْنَابِهَا، وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَتَكْمُلُ الْمَسَرَّاتُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبَعْدَ الْمَمَاتِ.

وفي سنة ٦٦٠ هـ:

وَفِي ذِي الْحِجَّةِ قَدِمَتْ وُفُودٌ كَثِيرَةٌ مِنَ التَّتَارِ عَلَى الْمَلِكِ الظَّاهِرِ مُسْتَأْمِنِينَ، فَأَكْرَمَهُمْ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَأَقْطَعَهُمْ إِقْطَاعَاتٍ حَسَنَةً، وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِأَوْلَادِ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ، وَرَتَّبَ لِإِخْوَانِهِمْ رَوَاتِبَ كَافِيَةً.

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَرْسَلَ هُولَاكُو طَائِفَةً مِنْ جُنْدِهِ نَحْوَ عَشَرَةِ آلَافٍ، فَحَاصَرُوا الْمَوْصِلَ، وَنَصَبُوا عَلَيْهَا أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ مَنْجَنِيقًا، وَضَاقَتْ بِهَا الْأَقْوَاتُ.

وَفِيهَا وَقَعَ الْخُلْفُ بَيْنَ هُولَاكُو وَبَيْنَ السُّلْطَانِ بَرَكَةَ ابْنِ عَمِّهِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بَرَكَةُ يَطْلُبُ مِنْهُ نَصِيبًا مِمَّا فَتَحَهُ مِنَ الْبِلَادِ، عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ عَادَتُهُمْ، فَقَتَلَ رُسُلَهُ، فَاشْتَدَّ غَضَبُ بَرَكَةَ، وَكَاتَبَ الظَّاهِرَ لِيَتَّفِقَا عَلَى هُولَاكُو.

وفي سنة ٦٦١هـ:

وَفِيهَا الْتَقَى بَرَكَةُ قَانَ وَهُولَاوُو وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ جُيُوشٌ كَثِيرَةٌ، فَاقْتَتَلُوا فَهُزِمَ هُولَاكُو هَزِيمَةً فَظِيعَةً، وَقُتِلَ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ، وَغَرِقَ أَكْثَرُ مَنْ بَقِيَ، وَهَرَبَ هُوَ فِي شِرْذِمَةٍ قَلِيلَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَللهِ الْحَمْدُ. وَلَمَّا نَظَرَ بَرَكَةُ خَانَ إِلَى كَثْرَةِ الْقَتْلَى قَالَ: يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ يَقْتُلَ الْمُغُولُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَلَكِنْ كَيْفَ الْحِيلَةُ فِيمَنْ غَيَّرَ سُنَّةَ جِنْكِزْخَانَ؟ ! ثُمَّ أَغَارَ بَرَكَةُ خَانَ عَلَى بِلَادِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فَصَانَعَهُ صَاحِبُهَا، وَأَرْسَلَ الظَّاهِرُ هَدَايَا عَظِيمَةً إِلَى بَرَكَةَ وَتُحَفًا كَثِيرَةً هَائِلَةً.

وفي سنة ٦٦٢هـ:

وَفِيهَا قَدِمَتْ رُسُلُ الْمَلِكِ بَرَكَةَ قَانَ إِلَى الْمَلِكِ الظَّاهِرِ، وَمَعَهُمُ الْأَشْرَفُ بْنُ شِهَابِ الدِّينِ غَازِي بْنِ الْعَادِلِ، وَمَعَهُمْ مِنَ الْكُتُبِ وَالْمُشَافِهَاتِ مَا فِيهِ سُرُورٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِمَّا حَلَّ بِهولَاكُوَ وَأَهْلِهِ.

وَفِيهَا قَدِمَ نَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِيُّ إِلَى بَغْدَادَ مِنْ جِهَةِ السُّلْطَانِ هُولَاكُو قَانَ، فَنَظَرَ فِي الْأَوْقَافِ وَأَحْوَالِ الْبَلَدِ، وَأَخَذَ كُتُبًا كَثِيرَةً مِنْ سَائِرِ الْمَدَارِسِ، وَحَوَّلَهَا إِلَى الرَّصْدِ الَّذِي بَنَاهُ بِمَرَاغَةَ، ثُمَّ انْحَدَرَ إِلَى وَاسِطٍ وَالْبَصْرَةِ.

وَفِيهَا اسْتَحْضَرَ الْمَلِكُ هُولَاكُوقَانَ مَلِكُ التَّتَارِ الزَّيْنَ الْحَافِظِيَّ، وَهُوَ سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُؤَيَّدِ بْنِ عَامِرٍ الْعَقْرَبَانِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالزَّيْنِ الْحَافِظِيِّ، وَقَالَ لَهُ: قَدْ ثَبَتَ عِنْدِي خِيَانَتُكَ. وَقَدْ كَانَ هَذَا الْمُغْتَرُّ لَمَّا قَدِمَ التَّتَارُ مَعَ هُولَاكُو دِمَشْقَ وَغَيْرَهَا مَالَأَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَآذَاهُمْ، وَدَلَّ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ، حَتَّى سَلَّطَهُمُ اللهُ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ وَالْمُثْلَاتِ ؛﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩] وَفِي الْجُمْلَةِ مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا سُلِّطَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللهَ يَنْتَقِمُ مِنَ الظَّالِمِ بِالظَّالِمِ، ثُمَّ يَنْتَقِمُ مِنَ الظَّالِمِينَ جَمِيعًا، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ مِنَ انْتِقَامِهِ وَغَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَشَرِّ عِبَادِهِ.

وفي سنة ٦٦٣هـ:

فِيهَا جَهَّزَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ عَسْكَرًا جَمًّا كَثِيفًا إِلَى نَاحِيَةِ الْفُرَاتِ لِطَرْدِ التَّتَارِ النَّازِلِينَ بِالْبِيرَةِ، فَلَمَّا سَمِعُوا بِالْعَسَاكِرِ الظَّاهِرِيَّةِ قَدْ أَقْبَلَتْ تَوَلَّوْا عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْهَزِمِينَ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَطَابَتْ تِلْكَ النَّاحِيَةُ وَأَمِنَتْ تِلْكَ الْمُعَامَلَةُ، وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ لَا تَسْكُنُ مِنْ كَثْرَةِ الْفَسَادِ بِهَا وَالْخَوْفِ، فَعَمَرَتْ وَأَمِنَتْ وَللهِ الْحَمْدُ.

وفي هذه السنة هلك هُولَاكُوقَانَ بْنُ تُولِي قَانَ بْنِ جِنْكِزْ خَانَ:

مَلِكُ التَّتَارِ بْنِ مَلَكِ التَّتَارِ بْنِ مَلَكِ التَّتَارِ، وَهُوَ وَالِدُ مُلُوكِهِمْ، مَلِكُ التَّتَارِ بْنِ مَلَكِ التَّتَارِ بْنِ مَلَكِ التَّتَارِ، وَهُوَ وَالِدُ مُلُوكِهِمْ، وَقَدْ كَانَ مَلِكًا جَبَّارًا عَنِيدًا، قَتَلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ شَرْقًا وَغَرْبًا مَالَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَسَيُجَازِيهِ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ، كَانَ لَعَنَهُ اللهُ، لَا يَتَقَيَّدُ بِدِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ زَوْجَتُهُ ظُفْرُ خَاتُونَ قَدْ تَنَصَّرَتْ، وَكَانَتْ تُفَضِّلُ النَّصَارَى، وَكَانَ - لَعَنَهُ اللهُ - يَتَرَامَى عَلَى مَحَبَّةِ الْمَعْقُولَاتِ، وَلَا يَتَصَوَّرُ مِنْهَا شَيْئًا، وَكَانَ أَهْلُهَا مِنْ أَفْرَاخِ الْفَلَاسِفَةِ عِنْدَهُ لَهُمْ وَجَاهَةٌ وَمَكَانَةٌ، وَإِنَّمَا كَانَتْ هِمَّتُهُ فِي تَدْبِيرِ مَمْلَكَتِهِ وَتَمَلُّكِ الْبِلَادِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى أَبَادَهُ اللهُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ، وَقِيلَ: فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَدُفِنَ فِي مَدِينَةِ تَلَا، لَا رَحِمَهُ اللهُ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وفي سنة ٦٦٥:

وَمِمَّنْ تُوُفِّيَ فِيهَا مِنَ الْأَعْيَانِ:

السُّلْطَانُ بَرَكَةُ خَانَ بْنُ تُولِي بْنِ جِنْكِزْ خَانَ بْنِ خَاقَانَ: وَهُوَ ابْنُ عَمِّ هُولَاكُو، وَقَدْ أَسْلَمَ بَرَكَةُ خَانَ هَذَا، وَكَانَ يُحِبُّ الْعُلَمَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْ أَكْبَرِ حَسَنَاتِهِ كَسْرُهُ لِهُولَاكُو وَتَفْرِيقُهُ جُنُودَهُ، وَكَانَ يُنَاصِحُ الْمَلِكَ الظَّاهِرَ وَيُعَظِّمُهُ وَيُكْرِمُ رُسُلَهُ إِلَيْهِ، وَيُطْلِقُ لَهُمْ شَيْئًا كَثِيرًا، وَقَدْ قَامَ فِي الْمُلْكِ بَعْدَهُ بَعْضُ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَنْكُوتَمُرُ بْنُ طُغَانَ بْنِ بَاتُو بْنِ تُولِي بْنِ جِنْكِزْ خَانَ، وَكَانَ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَمِنْوَالِهِ، وَللهِ الْحَمْدُ.] (انتهى النقل الملخص عن ابن كثير الدمشقي رحمه الله)

ولم تنته تماما مصيبة التّتار بذلك، إذ تتابعت غاراتهم، وعظم البلاء بهم في مشرق بلاد المُسلِمين، وإلى بلاد الشّام في زمن تيمورلنك، أحفاده، إلى أن انتصر المُسلِمُون عليهم، وارتدوا إلى بلادهم وقد

فشا الإِسْلَام فيهم، وأقاموا ممالك تترية وسط آسيا وامتدت فتوحاتهم حتَّى شملت معظم شمال وشرق آسيا، وهكذا فتحوا البلاد بالإِسْلَام بعد أن فتحهم دين الله وغزا قلوبهم، في ظاهرة تارِيخِيَّة فريدة حيث اتبع الغالب دين المغلوبين.

****

تعليقات وملاحظات سريعة عَلى مسار التّاريخ الإِسْلَاميّ منذُ بني أمية وإلى قيام الدّولة العُثْمَانِيّة:

إن المتتبع لمسار تاريخ الدّول والمالك الإِسْلَاميّة وقد قدمنا نبذة مختصرة عنها، يخرج بنتيجة واضحة، وهي أن مثل هذا المسار، ومثل هذا المسلك، من الحكَّام أولا، ومن علمائهم ثانيا، ومن الرعية ثالثا، ما كانَ له بموجب السنن الشَّرعيَّة والقدرية، وكذلك العقليَّة والمَنطِقيَّة وبحكم سنن السّياسة، وصراع البقاء بين القوى، إلا أن يسفر ذلك الحال عن النَّتِيجَة الّتي أسفر عنها.

ولكن، يخشى عَلى من يقرأ التّاريخ ولاسيما الملخصات الموجزة له، وخاصة تلك المعاصرة الّتي كتبت بأيدي العلمانيين المعاصرين، وتلاميذ المستشرقين، يخشى عَلى القارئ أن يخرج بصورة شوهاء عن تاريخنا الإِسْلَاميّ المجيد، فيظن أن كلّ ملوك وأمراء المُسلِمِين، كانوا ظلمة طاغين لا خير فيهم، فساقا عابثين، لاهين بالقيان والجواري، منصرفين إلى المجون، وإلى اللهو ما أحل الله منه وما حرم!

وأن كلّ أو جل علماء المُسلِمِين كانوا مقصرين في أداء أمانتهم، قاعدين عن الأمر والنهي والجِهَاد، مصطفين عَلى أبواب الأمراء ينتظرون المنح والعطايا!

ويظن أن معظم الرعايا كانوا منغمسين في التيه والانحلال، فسقة عَلى دين ملوكهم، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون مُنكرا ولا يدافعون في سبيل الله.

ومثل هذا الاستنتاج مغاير لحقيقة تفاصيل الواقع، وإن كانَ ما روينا ملخصا عن كتب التّاريخ صحيح في مجمله، وأكبر شاهد عَلى صحة ذلك، النَّتِيجَة السوداء الّتي آلت إليها أحوال الأُمّة في نهاية ذلك الانحلال، وهي الجُذُور التارِيخِيَّة لما نعاني منه اليَوْم من بلايا مخزية.

ومما يجب أن ينتبه إليه من يقرأ التّاريخ الإِسْلَاميّ في الكتب المعاصرة، أو في كتب المناهج الدراسية المعتمدة في معظم أو كافّة بلاد المُسلِمِين، أن معظم هذه الكتابات قد خطتها أقلام علمانية من تلاميذ المستشرقين أو الّذين تربوا ودرسوا عَلى أيديهم، وقد نهجت هذه الكتب نهجا يعتمد التزوير والدس من أجل النيل من تاريخنا المجيد ولإضعاف صلتنا بتراثنا، ولتشويه تاريخ جِهَاد أجدادنا

العظام ون مختلف مكوّنات النسيج العرقي لأمم الإِسْلَام عربا وغير عرب، وللإلقاء بذور الفتنة بين تلك المكوّنات.

وأذكر مما درسنا في الراحل الدراسية المختلفة مما كتبه الكتاب القوميون العَرَب، كميات هائلة من ذلك الدس والتزوير، مما يضيق المجال هنا عن نقل شواهده، كما أذكر عَلى سبيل المثال عَلى ذلك، أنني عندما درست في (كلية قسم التّاريخ في جامعة بيروت العربيَّة) درسنا في مناهجنا غرائب كثيرة، منها أن الّذين وضعوا المناهج قد قسموا تاريخنا الإِسْلَاميّ إلى ما أسموه (الدّولة العربيَّة– وتشمل الدّولة النّبويّة ودولة بني أمية –) ثمّ (الدّولة الفارسية– وتشمل صدر العصر العبّاسي –) ثمّ (الدّولة التركية – وتشمل باقي العصر العبّاسي –) ثمّ تاريخ بعض الممالك المستقلة، كما صنفوا الدّولة العُثْمَانِيّة عَلى أنها (الإحتلال العُثْمَانِيّ للبلاد العربيَّة)، كما عرضوا الفتح الإِسْلَاميّ منذُ الدّولة النّبويّة وما تلاها عَلى أنه استدراج سياسي وليس كما حقيقته منهج دين وتكليف شَرعِيّ لنشر الدّين العَالَمِيّ وآخر الرسالات للعالمين، كما درسنا من تاريخ أوربّا مثل أو أكثر مما درسونا عن تاريخنا، هذا ناهيك عن إبراز تاريخ الزنادقة والمارقين من الملوك والثوار والفلاسفة والعُلَماء الضالين ومشاهير شعراء المجون والخمر والانحلال وإشهارهم كالقرامطة والزنج ورجالهم، ومن الأعلام أمثال الفارابي وابن سينا وأبو العلاء المعري وبشار وأبو نواس (قبل توبته)، والأصفهاني الزنديق واضع كتاب الأغاني المليء بالأكاذيب والدس عَلى سير الخُلَفَاء وما حوى من قصص المجون الموضوعة، وغير ذلك كثير، وأما التزوير المتعمد بسبب الهويّة القوميّة للجامعة وعلمانيتها، فحدث ولا حرج عن العبث الرخص بتاريخ المُسلِمِين وحضارتهم وتقييم مناهجهم ورجالهم، في مخطط مدروس للغزو الفكريّ ليس هنا مجل تناوله.

وأما اليَوْم وفي ظلال حرب الأفكار الّتي تشنها علينا الحملات الصّليبيّة الأمريكيّة بقيادة (بوش، ورامسفيلد، وكونديليسا رايس..) وتنفيذ (منظّمة اليونسكو والأمم المتحدة) فقد ذهبت الطامة في إعادة تزوير المزور من تاريخ المُسلِمِين إلى مجالات تهدف إلى إخراج المُسلِمِين من دينهم كليا

وسلخهم من تاريخهم كليا، ولذلك يجب الانتباه إلى مصادر التّاريخ والتمحيص في هوية كاتبيها ومن وراءهم.

ولكن وحتى تكون الصُّورة متكاملة وصحيحة وشاملة فيما لخصت آنفا من تاريخنا الإِسْلَاميّ، يجب أن نذكر أيضا الوجوه المشرقة للحضارة والتّاريخ الإِسْلَاميّ الّذي تركت خيراته بصماتها عَلى جبين البشرية.

وبذلك نفهم منطق السنن المختصر في قواعد وسنن ثابتة، تفسر لنا أسباب القوّة والانتصارات الكثيرة، وأسباب الضّعف وتسلط الأَعدَاء والهزائم المُنكرة الّتي مرت وما تزال علينا، من قبيل ما قَالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۞﴾ [محمد]

وكما قَالَ عز من قائل: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞﴾ [آل عمران]

وقوله تعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ۞﴾ [طه]

وغير ذلك في كتاب الله من السنن والقوانين الربانية الكثيرة، المبينة المفصلة في سنة رسول الله ﷺ، ومن ذلك قوله:

«يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خِصَالٌ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِالله أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

-لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.

-وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمؤُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ.

-وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

-وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ الله وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ الله عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

-وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ الله عَزَّوَجَلَّ وَيَتَخيَّرُوْا مِمَّا أَنْزَلَ الله إِلاَّ جَعَلَ الله بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(١).

وليس هنا مجال استقصاء تلك الشواهد وما تزخر به من القواعد والسنن في فهم مسار التّاريخ وقيام الممالك وزوالها.

فعلينا حتَّى نفهم هذه السنن من أن أجل أن نحترمها ونعمل بأحسنها، ونتحرك عَلى بصيرة من هدي ربنا.

وفي النهاية عَلى كلّ من نكص عن شريعة الله واتخذ أوامره ظهريا، أن يفهم قوله تَعَالَى لبني إسرائيل لما عصوا الله ورسله وأدركتهم العقوبة:

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ [الإسراء] فليس بين الله وأحد من خلقه نسب ولا صهر، وصدق الله العظيم: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]

وأهم الملاحظات الّتي يجب أن نذكر بها ونأخذها بعين الاعتبار ونحن ندرس تاريخنا المجيد النقاط التّالية:

أولا: أن شريعة الله تبارك وتعالى، كانت هيَ المرجع المحترم من كلّ طبقات الحاكمين والمحكومين، في كلّ تلك الممالك والمجتمعات، وكانت هيَ الحاكم عليهم جميعا، وكانت هيَ دستور الدّولة الأعلى، ومصدر جميع قوانينه التفصيلية، فإذا ما حاد عنها حاكم أو محكوم، فمن باب الفسوق والعصيان والزلل والتقصير، الّذي كانَ أصحابه – حكاما ومحكومين – يعرفون أنهم مقصرون آثمون، ولم يدخل التبديل والتغيير عَلى شرع الله عَلى وجه التَّشريع والحكم بغير ما أنزل الله، زهدا بشريعة الله أو تفضيلا لغيرها عليها، أوجودا لأحكامها، أو للشعور بإمكانية المفاضلة بينها وبين غيرها، إلا متأخرا، في الربع الأخير من الدّولة العُثْمَانِيّة كما سنرى في استعراض تاريخها، أو ما حصل من بعض الممالك المستقلة الّتي قامت أصلا عَلى المروق عن دين الله كما كانَ من الدّولة العبيدية الفاطميّة الّتي

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩) عن عطاء عن عبدالله بن عمر ﷺ، وحسنه الألباني (الصحيحة١٠٦) والأرنؤوط.

قامت في المغرب ومصر ثمّ الشّام، وتأسست أساسا عَلى الزندقة والسحر والفلسفة والشعوذة والمذاهب البَاطِلة، وقد حكم علماؤنا من أئمة عصرها بكفرها ومروقها من الدّين، وكذلك ما حصل من بعض ملوك التّتار الّذين ادعوا الإِسْلَام، وتحاكموا لشريعة رئيسهم جنكيزخان الّتي تركها لهم مدونة في ما عرف بـ (الياسا) أو (الياسق)، وقد مر التعريف بهمٰا تيمور لنك وأحفاده، فهي ليست شاهدا عَلى ما نحن بصدده من المالك الّتي اعتورها الإنحراف، ولكنها لم تخرج عن أصل الإحتكام لشرع الله، فلم يجاوز الإنحراف الظُّلم والفسق، إلى المروق والكفر كما حصل لاحقا، وإن كانت تلك المالك والدّول- بحكامها ومحكوميها - قد نالت عقابها القدري المحتوم بحكم السنن، بقدر ظلمها وفسوقها وعصيانها.

ثانياً: أن الغالبيّة العظمى لأولئك الملوك والأمراء المنحرفين، وحتى أشدهم فسادا، وفسوقا وصراعا عَلى الملك، كانوا مُجَاهدين لأعداء الإِسْلَام من الكفّار دفعا وطلبا، وخاصة في الدَّفع عن أراضي المُسلِمِين وأنفسهم وحرماتهم، وقد مر معنا في الاستعراض شواهد عديدة، وقد رأينا هذا من الطغاة الفاسدين من بني أمية، وكذلك من بني العبّاس، وصولا إلى ملوك المالك المستقلة، فالحمدانيون - رغم كونهم من الشّيعة-، ورغم ما ابتلوا به من البِدَع والمظالم، كانوا ممن جاهد الرُّوم وأبلوا بلاءا حسنا، والسلاجقة الأتراك رغم ظلمهم وبطشهم وعدوانهم عَلى الخُلَفَاء وعلى الرعية، وقفوا سدا منيعا في وجه الرُّوم، وكان لهم المشاهد العظيمة، والأتابكة الزنكيون وملكهم الصّالح نور الدّين رحمه الله، ثمّ الأيوبيون ومؤسس دولتهم المُجَاهد النّاصر صلاح الدّين كذلك، وغيرهم، وحتَّى بيبرس المملوكي الّذي قتل أمير المُسلِمِين إثر النّصر الأكبر في (عين جالوت) من أجل الملك والإمارة، وكان بعد ذلك ظلوما غشوما جبارا، إلا أنه لم ينزل عن صهوة جواده سبعا وعشرين عاماً، جاهد فيها الرُّوم والتّتار وهم بنو عمه، وجاهد الصّليبيّين حتَّى أجلاهم من أكثر البلاد، ثمّ تولى الماليك ممن خلفه المهمة حتَّى أنجزوها، وقل مثل ذلك عن باقي المالك من الغزنويين وملكم الصّالح محمود سبكتكين، و السلاجقة وسلطانهم المُجَاهد (ألب أرسلان)، والغوريين والمغول المُسلِمِين في آسيا والهند، وعن

ممالك شمال أفريقيا من الأغالبة الفاتحين المُجَاهدين في تونس، إلى المرابطين والموحدين في المغرب، إلى حيث قامت للإسلام مملكة.

ولم يخرج إلى خندق القعود والخيانة، والعمالة للعدو إلا أفراد من المتأخرين من تلك الممالك، كما كانَ من الملك الطالح (الصّالح إسماعيل الأيوبي) الّذي حالف الصّليبيّين، وبعض (ملوك الطوائف في الأندلس)، وغيرهم، ممن سجل التّاريخ لعناته عليهم، وأكثرهم خلع من قبل أسرته أو ممن جاوره من الممالك، وعدت فعلتهم مُنكرة من الحكَّام والعُلَماء والرعايا في ذلك الزّمان.

ثالثا: أن معظم علماء المُسلِمِين المرموقين المشاهير، كانوا إما من أهل العزائم، فاحتسبوا عَلَى الملوك والأمراء، وأمروهم بالمعروف ونهوهم عن المُنكر، وقد سجل التّاريخ قصصا رائعة تكتب بماء الذهب، وأحرف النور، منذُ ظهر الملك في بني أمية، وحتى زمن قريب، وقائمة أسماء هَؤُلَاءِ السَّلَف الصّالح طويلة تزخر بالمآثر، وإما لم يكونوا من أهل العزائم، فاعتزلوا القصور ومن فيها، واعتزلوا مسائل الحكَّام وتفرغوا للعلم والزهد، ولم يتمرغوا في أوحال النِّفَاق للسلاطين، ولم يشذ عن ذلك من العُلَماء المرموقين، إلا أوشاب من المتساقطين في أوحال الدُّنيَا، أو أوباش من المنسوبين لعالم العلم والعُلَماء، ولم نبتلى بفساد العُلَماء عامة إلا قليلا جدا ممن عصم الله، كما في زماننا هذا إلا في أوقات متأخرة من تاريخنا الطويل، كما كانَ العُلَماء قدوة في الجِهَاد، ولاسيما في الأزَمَات والنّوازل الكبرى، فكانوا يخرجون للغزو دفعا وطلبا مع أئمة المُسلِمِين برهم وفاجرهم ضدّ أعداء المُسلِمِين من الكفّار، وذلك قبل أن يظلنا زمان الدشوش، وتتدلى الكروش، وتسعى كرام العمائم واللحى خلف القروش والحشوش.

رابعا: أن غالبية فساق الأمراء وطغاتهم وحتى الجبارين منهم، ممن عرفوا بالبأس والقسوة، كانوا إذا وُعظوا من قبل العُلَماء وأهل الحسبة، والآمرين بالمعروف الناهين عن المُنكر، اتعظوا وخشعوا، وربما تأثروا وبكوا، ورجعوا عن مظلمة أو زلة، حتَّى وإن عادوا إلى قبيح أعمالهم، فقد كانَ للدين عَلَى أنفسهم سلطانا، وللعلماء الصادقين – حتَّى ممن وقفوا لهم بالمرصاد – احتراما وهيبة، وقد جمعوا إلى هذه المزية الخيرة، رغم طغيانهم وفسوقهم، وصراعهم عَلَى الملك، ومظالمهم، جمعوا لذلك حب الخير،

والصدقات والإحسان، ومختلف وجوه البر والخير، ليكفروا عن غيهم، ولأصالة في معدنهم، فبنوا المساجد، والتكايا، وأوقفوا الأوقاف في مختلف وجوه الخير، إضافة إلى جِهَادهم، وحكمهم أساسا بشريعة الله.

خامسا: أن غالبية الرعايا من المُسلِمِين كانوا عَلى أصل الصلاح واحترام الدّين، وكانوا تبعا للعلماء الصّالحين، مآزرين لهم في مواقفهم، مما شجع العُلَماء عَلى النهوض في كثير من الأحيان، وكانوا يخرجون للجِهَاد والنَّفِير وثغور الرِّبَاط، وقد اختلط الخير والشر في تلك العصور كثيرا، ولكن لم تكن تصل الأمور إلى ما فشا في الأزمنة المتأخرة من وجوه مجاهرة العوام بألوان الكفر والفسوق والعصيان، ونسال الله السَّلامة.

سادسا: أن الخير لم يكن ينقطع عبر تاريخنا ذاك، وأن راية الإِسْلَام والصلاح والعزة، لم تزل تتنقل بين الأيادي المختلفة، والمكوّنات المتعددة لنسيج الأُمّة من عرب وعجم وترك وفرس وبربر ومغول وأفارقة وغير ذلك، إلخ. وأنه كلما ضعف الإِسْلَام في مكان، كانَ ينهض في آخر، وكان آخر الشواهد قيام الدّولة العُثْمَانِيّة الّتي حفظت رمزية الخِلافَة الجامعة للمسلمين، بعد أن تولى من سبقهم، فاستبدلهم الله بغيرهم.

سابعا: أن معجزة الرَّسُول الخالدة في إخباره ﷺ، أن طائفة مُجَاهدة في سبيل الله لم تزل ولن تزال قائمة:

فعن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه يرفعه إلى النبيّ ﷺ، أنه قَالَ:

«لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا، يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» رواه مسلم[1].

وعن معاوية يرفعه أيضا: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَلَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» رواه مسلم[2].

---

(١) رواه مسلم (١٩٢٢).

(٢) رواه مسلم (١٠٣٧).

و في رواية عنه أيضا: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا وَطَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ، لَا يُبَالُونَ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ نَصَرَهُمْ» رواه ابن ماجة(١).

وهكذا بقيت وما زالت الطَّائِفَة المَنصُورَة، طائفة الجِهَاد والدفع هذه قائمة تجاهد عَلى مر العصور، وحتى إلى يومنا هذا ولله الحمد والمنة.

وشواهد ما أسلفت من الملاحظات في كتب التّاريخ كثيرة جدا، لعلّ الله يوفقنا لذكر طرف منها في كتاب منفصل عن تاريخنا المجيد ونوادره الرائعة، وكنت أود أن أنقل أطرافا من ذلك هنا مما جمعته، ثمّ عدلت عن ذلك خشية أن يطول بنا المقام عن المقصد من هذه النبذة التارِيخِيَّة في سياق هذا الكتاب.

وبالخلاصة:

فقد أدت (**موروثات الصلاح الكامنة في الأُمّة**) في الحكَّام والعُلَماء والمحكومين عَلى مر تلك العصور، إلى استمرار الخير ينازع وجوه الشر والفساد في الأُمّة، مما مد في عمر حضارتها لأكثر من ثلاثة عشر قرنا، ولقد تحطمت عَلى صخور دول الإِسْلَام الصامدة كلّ الهجمات العاتية الّتي تكسرت موجاتها عليها، وبقي الإِسْلَام شامخا، وبقي المُسلِمُون أعزاء، وكانت كلّ دولة ومملكة وأمة تلاقي مصيرها بموجب السنن القدرية بقدر مالديها من صلاح وفساد.

إلى أن استهلت العقود الأخيرة منذُ القرن العِشرين، وبدأت الغالبيّة من جموع الأُمّة حكاما ومحكومين، تنسلخ عن شريعة ربها، ونجحت مؤامرات العدوّ في سلخهم عن دينهم، اعتقادا وتطبيقا إلا في الأقلية ممن رحم الله، فبدأ يحل بنا ما نشاهد اليَوْم من الانهيار الّذي لم يشهد له تاريخنا مثيلا، حيث أصبح الغُزَاة يقاتلون الأُمّة بأبنائها والمنتسبين (إسما) إليها، وهذا ما سنفصل أسبابه وشواهده في الفصول القادمة إن شاء الله، ونبحث عن الحلول له، عساها تنفع الطَّائِفَة المَنصُورَة، وعسانا نكون منهم إن شاء الله.

****

(١) رواه ابن ماجة (٩) واللفظ له، وهو عند البخاري (٣٦٤١).

عود عَلى بدء...

ونستأنف من حيث وصلنا في استعراض موجز عن تاريخنا، بعد أن استعرضنا أهمّ الغارات الّتي تعرض لها عالمنا الإِسْلَاميّ في تاريخنا القديم وهي الحملات الصّليبيّة وغارات المغول، وكنا قد عرضنا للدول المستقلة، بعد ذكر نبذة عن تاريخ الدّولة النّبويّة، وخلافة الرّاشدين، والدّولة الأموية والدّولة العبّاسيّة.

وفي بدايات القرن العاشر الهجريّ، ومطلع السَّادس عشر الميلادي، كانَ (آل عثمان) أحفاد السلاجقة في هضبة الأناضول، قد نهضوا وأسسوا مملكة، اتسعت من غرب الأناضول شيئا فشيئا، وتحولت إلى سلطنة قوية، وتمكنت من فتح القُسطَنْطينيَّة عاصمة الرُّوم البيزنطيين سنة (١٤٥٣ ميلادية)، مما أحدث نقلة تارِيخِيَّة عالميّة، حيث عدت تلك الواقعة عند المؤرخين الغربيّين نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة.

وبعد أن فتح العُثْمَانِيّون القُسطَنْطينيَّة تحركوا شمالا وغربا في أوربّا، وفتحوا بلاد القرم ومحيط البحر السود وبلاد القفقاس ووأوربّا الشرقية وبلاد البلقان، ووصلوا إلى وسط النمسا، وشمال إيطاليا! كما تحركوا جنوبا، وبسطوا سيطرتهم عَلى بلاد الشّام والعراق ومصر، والحجاز واليمن، ثمّ وسط شمال إفريقيا، وأكثر جزر البحر المتوسط، وبعد فتحهم مصر، نقلوا إليهم الخِلافَة، وتسلموها من آخر الخُلَفَاء الرمزيين لبني العبّاس الّذين كانوا في القاهرة في كنف دولة المماليك سنة (٩٢٢هـ)، ومنذ ذلك الوقت قامت الخِلافَة العُثْمَانِيّة الّتي أعادت جمع شتات المُسلِمِين تحت رايتها وسلطانها، وحملت راية الجِهَاد دفعا وطلبا في مُوَاجَهة دول وممالك أوربّا الّذين ورثوا راية الرُّوم بعد سقوط القُسطَنْطينيَّة، ومهما كانَ من آراء المؤرخين في تلك الخِلافَة والدّولة العُثْمَانِيّة، إلا أن مما لا شَّكَّ فيه أنها كانت امتدادا لدولة الإِسْلَام ورايته وحضارته، وامتدادا لمسمى الخِلافَة الإِسْلَاميّة الّتي غابت عن الوجود بغياب دولت العُثْمَانِيّين وسقوطها عَلى أيدي الدّول الأوربية سنة ١٩٢٤م.

ولأهمية هذه الحقبة من تاريخ المُسلِمِين الحديث، بل وتاريخ الصِّرَاع حامي الوطيس بين المُسلِمِين والرُّوم المعاصرين (الدّول الأوربية) نعرض أيضا لنبذة عن تاريخ الدّولة العُثْمَانِيّة، حيث سنتوسع فيه

بعض الشيء (٨٠ صفحة تقريبا) اختصرت فيها مئات الصفحات من مصادرها، لأنه يمثل المراحل الأولى للصراع الحديث بين المُسلِمِين والدّول الأوربية، كما يشكل بدايات لنشوء النّظام الدّولي الحديث القائم عَلى نظام صِرَاع المصالح والأحلاف الدّولية.

حيث سيرى القارئ أن ما نعيشه اليَوْم من حبائل الدّول الرُّومية الحديثة المتعددة: (أوربّا وروسيا وأمريكا) ما هو إلا تكرارا لما جرى خلال القرنين الماضيين، حيث يزخر ذكر ذلك التّاريخ – الّذي يعيد نفسه الآن – بدروس كثيرة بالغة الأهمّيّة للطليعة القيادية الّتي ستقود جِهَادنا الحالي والقادم، بعون الله.

****

الدّولة الإِسْلَاميّة في عهد الخِلافَة العُثمَانِيّة

مختصر تاريخ الدّولة العُثمَانِيّة [1]

(١٣٠٠- ١٩٢٤ م)

مؤسس هذه الدّولة هو أرطغرل بن سليمان شاه التركماني قائد إحدى قبائل الترك النازحين من سهول آسيا الغربيّة إلى بلاد آسيا الصغرى.

فقد قام أرطغرل أواسط القرن السابع الهجريّ بنصرة الملك علاء الدّين سلطان عَلى خصومه في قونية، وهي إحدى الإمارات السلجوقية الّتي تأسست عقب انحلال دولة آل سلجوق بموت السُّلطَان ملك شاه في ١٥ شوال سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.

فكافأه الملك علاء الدّين عَلى مساعدته له بإقطاعه عدّة أقاليم ومدن، ثمّ لقب قبيلته بمقدمة السُّلطَان لوجودها دائما في مقدمة الجُيُوش.

---

(١) كما أسلفت في بداية فصل التاريخ فقد اعتمدت في كتابة مختصر تاريخ الدّولة العُثمَانِيّة علىٰ كتاب (تاريخ الدّولة العُثمَانِيّة) - باختصار وتصرف وإضافات - لكاتبه (فريد بك المحامي)، وهو فيما يبدو مصري من أصل تركي كتب كتابه سنة ١٩١٠م، ويتضح فيه نفسه الماسوني، وحقده علىٰ السُّلطَان عبد الحميد ﷺ، ونفسه الشّعوبي التركي، وتأييده لجَمعيَّة الإتحاد والترّقي اليَهُوْديّة الماسونيّة، وكتابه منشور في برنامج الألفيّة المعروف، ولم يؤثر نفس الكاتب علىٰ موضوعيّته كثيراً إلّا في تأريخه لمرحلة السُّلطَان عبد الحميد وصراعه مع الماسون، وتأريخه للمراحل الأخيرة منذُ بدأ نشاط الماسون، وأمّا ما سبق من مراحل فنفس الكاتب فيها موضوعيّ نسبيّاً ومقبول وغزير المعلومات في تاريخ العُثمَانِيّين الّذي أبدىٰ الكاتب ولاءً كبيراً لدولتهم.

وآسفُ لأنّي لم أجد الوقت لإصلاح اللكنة الأعجميّة في أسلوب كتابة الكاتب المنقولة من القرص المدمج - إلّا قليلاً - ولعلّي أفعل ذلك في نسخةٍ تاليةٍ إنْ شَاءَ اللهُ.[المؤلف]

(١) - السُّلطَان عثمان مؤسس الدّولة العُثمَانِيّة (١٣٠٠-١٣١٧م):

ولما توفي أرطغرل سنة ٦٨٧ هـ الموافقة سنة ١٢٨٨ م، عين الملك علاء الدّين أكبر أولاده مكانه وهو عثمان مؤسس الدّولة العُثمَانِيّة.

وفي سنة ١٣٠٠ م تقريباً الموافقة سنة ٦٩٩ هـ، أغارت جموع التّتار عَلى بلاد آسيا الصغرى وفيها كانت وفاة علاء الدّين آخر السلجوقيين بقونية وانفتح المجال لعثمان فاستأثر بالأراضي المقطعة له ولقب نفسه باد شاه آل ثمّ أخذ في توسيع دائرة أملاكه.

ثمّ أرسل إلى جميع أمراء الرُّوم ببلاد آسيا الصغرى يخيرهم بين ثلاثة أمور الإِسْلَام أو الجزية أو الحَرب فأسلم بعضهم وانضم إليه وقبل البعض دفع الخراج واستعان الباقون عَلى السُّلطَان عثمان بالتّتار، وبعد أن انتصر عَلى التّتار عاد مسرعاً لمحاصرة مدينة بورصة سنة ٧١٧ هـ الموافقة سنة ١٣١٧م، حيث أسلم حاكمها افرينوس وأعطى له لقب بك وصار من مشاهير قواد العُثمَانِيّين، وعقب ذلك بقليل مات عثمان بعد أن أوصى للملك بعده لأورخان ثاني أولاده.

(٢) - السُّلطَان الغازي أورخان الأوّل(١٣١٧- ١٣٦٠م):

كانَ أوّل عمل أجراه هو نقل مقرّ الحكومة إلى مدينة بورصة.

أرسل إليه ملك الرُّوم بالقُسطَنْطينيَّة سنة ١٣٥٥ وفداً يطلب منه أن يمده بالمساعدة لصد غارات دوشان ملك الصّرب ولما نزل العُثمَانِيّون بساحل أوروبّا تحققوا ضعف مملكة الرُّوم وما آلت إليه من الانحلال فأخذ السُّلطَان أورخان في تجهيز الكتائب سراً لاجتياز البحر واحتلال بعض نقط عَلى الشاطئ الأوروبيّ تكون مركزاً لأعمال العُثمَانِيّين في أوروبّا، وساعَدَتهُم المقادير بسقوط جزءٍ من أسوار جاليبولي عقب زلزال شديد فدخلها العُثمَانِيّون بدون كبيرِ عناءٍ واحتلّوا عدّة مدائِن أُخرى منها ابسالا ورودس وغيرهما.

تأسيس الجيش العُثمانيّ المُحترف (الإنكِشَارِيّة):

وقد عاون أورخان أخوه علاء الدّين في الإدارة الداخليَّة، وكان من أهمّ أعمال علاء الدّين أن أمر بضرب العملة من الفضة والذهب، ووضعَ نظاماً للجُيُوش المظفّرة وجعلها دائمة إذ كانت قبل ذلك لا تجمع إلا وقت الحَرب وتصرف بعده ثمّ خشي من تحزب كلّ فريق من الجند إلى القبيلة التَّابع إليها وانفصام عرى الوحدة العُثمَانِيّة الّتي كانَ كلّ سعيهم في إيجادها فأشار عليه أحد فحول ذلك الوقت واسمه قرة خليل وهو الّذي صار فيما بعد وزيرا أولاً باسم خير الدّين باشا بأخذ الشبان من أسرى الحَرب وفصلهم عن كلّ ما يذكّرهم بجنسهم وأصلهم وتربيتهم تربية إسلاميّة عُثمَانِيّة بحيث لا يعرفونَ أباً إلا السُّلطَان ولا حرفةً إلا الجِهَاد في سبيل الله، ولعدم وجود أقارب لهم بين الأهالي لا يخشى من تحزبهم معهم فأعجب السُّلطَان أورخان هذا الرَّأي وأمر بنفاذه ولما صار عنده منهم عدد ليس بقليل سار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية بأماسية ليدعو لهم بخير فدعا لهم هذا الشَّيْخ بالنّصر عَلى الأَعدَاء وقال فليكن اسمهم (يني تشاري) ويرسم بالتركية هكذا (يكيجاري) أي (الجيش الجَدِيد) ثمّ حرف في العربيَّة فصار (إنكشاري)، ثمّ ارتقى هذا الجيش في النّظام وزاد عدده حتَّى صار لا يعول إلا عليه في الحُرُوب وكان هو من أكبر وأهم عوامل امتداد سلطة الدّولة العُثمَانِيّة كما أنهم خرجوا فيما بعد عن حدودهم وتعدوا واستبدوا بما جعلهم سبباً في اضطرابات الدّولة إلى أن ألغى السُّلطَان محمود الثّاني الإنكِشَارِيّة بعد أن قتل أغلبهم ١٢٤١م لمقاومتهم إجراءات السّلاطين وعصيانهم عليهم وتعديهم عَلى حقوقهم.

وفي سنة ٧٦١هـ - ١٣٦٠م توفي السُّلطَان أورخان الغازي وسِنّهُ ٨١ سنة ومدّة حكمه ٣٥ سَنة بعد أن أيد الدّولة بفتوحاته الجَدِيدة وتنظيماته العديدة ودفن في مدينة بورصة.

(٣) - السُّلطَان الغازي مراد خان الأوّل (١٣٦٠-١٣٨٩م):

ومدة حكمه ٣٥ سنة، وكانت فاتحة أعماله احتلال مدينة أنقرة مقر سلطنة القرمان، أما في أوروبّا ففتح مدينة أدرنه في سنة ١٣٦١م واستمرت عاصمة للعُثمَانِيّين إلى أن فتحت مدينة القُسطَنْطينيَّة سنة ١٤٥٣م، وفتح أيضا مدينة فيلبه عاصمة الرُّوملّي الشرقية وفتح افرينوس بك مدينتي وردار وكلجمينا باسم سلطان العُثمَانِيّين وبذلك صارت مدينة القُسطَنْطينيَّة محاطة من جهة أوروبّا بأملاك آل عثمان وفصلت عن باقي الإمارات المسيحية الصغيرة الّتي كانت شبه جَزِيرَة البلقان مجزأة بينها وصارت الدّولة العلية متاخمة لإمارات الصّرب والبلغار وألبانيا.

فاستغاث الرُّوم بالبابا فلبى استغاثتهم وكتب لجميع الملوك بالتأهب لمحاربة المُسلِمِين وحرضهم عَلى محاربتهم محاربة دينية حفظا للدين المسيحي من الفتوحات الإِسْلَاميّة.

لم ينتظر أوروك الخامس الّذي عين عظيم فرسان المجر وسار بهم لمهاجمة مدينة أدرنة عاصمة الممالك ولم يلبثوا إلا قليلا حتَّى ولوا الأدبار وكان ذلك في سنة ٨٦٦ هـ سنة ١٣٦٣ م.

ولما عظم شأن الدّولة خشيها مجاوروها خُصُوصَاً الضّعفاء منهم فأرسلت جمهوريّة راجوزه في سنة ١٣٦٥م إلى السُّلطَان مراد رُسُلاً أمضوا معه معاهدة ودية وتجاريَّة تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكا ذهب وهذه أول معاهدة أمضيت بين العُثمَانِيّين والدّول المسيحية.

وفي سنة ١٣٧٩م اتحد لازارجر بلينانوفتش الّذي تربع عَلى مملكة الصّرب، مع سيسمان أمير البلغار عَلى مقاتلة العُثمَانِيّين ثمّ تحققا عجزهما فأَبرَمَا الصُّلحَ معَ السُّلطَانِ عَلى أن يتزوج السُّلطَان بنت أمير البلغار وعلى أن يدفع له الأميران خراجاً سنوياً معيناً، وفي ابتداء سنة ١٣٨١م ابتدأت الفتوحات ثانياً وأخذت سيرها الأوّل فألزم السُّلطَان أمير إقليم الحميد بالتّنازل له عن بلاده وفتح مدائن موناستر وبرلبه واستيب ووقعت مدينة صوفيا في قبضة العُثمَانِيّين بعد محاصرة استمرت ثلاث سَنَوات من سنة ١٣٨١م إلى سنة ١٣٨٣م وعقب ذلك فتح الصدر الأعظم خير الدّين باشا مدينة سلانيك الشهيرة، سنة ١٣٨٩م وانتشب القِتَال بين الصّرب والعُثمَانِيّين وبهذه الواقعة المهمة كانت الغلبة للعُثمَانِيّين وزال

استقلال الصّرب كما فقدت البلغار والرُّوملي والأناضول استقلالها من قبل، وبينما كانَ السُّلطَان مراد يمر من بين القتلى إذ قام من بينهم جندي صربي وطعن السُّلطَان بخنجر طعنة كانت هيَ القاضية.

(٤) - السُّلطَان الغازي بايزيد خان الأوّل (١٣٨٩-١٤٠٢م):

اتفق أركان الدّولة عَلى توليته وكان له أخ أصغر منه بقليل يدعى يعقوب مُتَّصِفاً بالشَّجاعة والإقدام وعلوّ الهمّة فخيف عَلى المملكة منه من أن يدعي الملك ولذلك قتل باتفاق أمراء الدّولة وقواد جُيُوشها، وادّعى مؤرخو الإفرنج أن قتله كانَ بناء عَلى فتوى شرعيّة أفتى بها علماء ذلك الزّمان منعا لحصول الفتنة بناء عَلى قوله تَعَالَى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] وكانت هذه الفعلة الشنيعة، أول السنة الّتي سنها سلاطين العُثْمَانِيّين لأنفسهم بقتل إخوة السُّلطَان عند توليته، درءاً للفِتَن بحسبِ عُقُولهم السَّقِيمة، – بحسب المؤرخين إن صحَّ الزَّعم المتواتِر عنهُم – وابتدأ السُّلطَان بايزيد الأوّل أعماله بأن ولى الأمير اسطفن بن لازار ملك الصّرب حاكما عليها وتزوج أخته (أوليفيرا) وأجازه بأن يحكم بلاده عَلى حسب قوانينهم بشرط دفع جزية معينة وتقديم عدد معين من الجنود ينضمون إلى الجُيُوش الشّاهانيّة وقت الحَرب، ولما ساد الأمن في أوروبّا قصد بلاد آسيا وفتح مدينة (آلا شهر) المعروفة عند الإفرنج باسم فيلادلفيا سنة ١٣٩١م وهي آخر مدينة بقيت للروم في آسيا، وهكذا صار شرق بحر مرمرة خالصا للعُثْمَانِيّين.

فلما علم سجسمون ملك المجر خبر ما حلّ ببلاد البلغار خشي علي مملكته إذ صار متاخما في عدّة نقط للدولة العلية فاستنجد بأوروبّا وساعده البابا وأعلن الحَرب الدّينيّة بين أقوام أوروبّا الغربيّة فأجاب الدّعوة (دوك بورغونيا) وأرسل ابنه الكونت (دي نيفر) ومعه ستة آلاف محارب أغلبهم من أشراف فرنسا وفيهم كثير من أقارب ملك فرنسا نفسه وانضم إليه حين مسيره إلى بلاد المجر أمراء (بافاريا، واستيريا، وشواليه) والقدّيس حنّا الأورشليمي وكثير من الألمان ثمّ اجتاز هذا الجيش نهر الدانوب، فسار إليهم السُّلطَان بايزيد ومعه مائتا ألف مقاتل بهم كثير من أهالي الصّرب تحت قيادة أميرهم (اسطفن بن لازار) وغيرهم من الأمم المسيحية الخاضعة لسلطان العُثْمَانِيّين وقاتلهم قتالاً

عنيفاً، في يوم ٢٣ ذي القعدة سنة ٧٩٨هـ- ٢٧ سِبتَمبر سنة ١٣٩٦م كانت نتيجتها انتصار العُثمَانِيّين عَلى الجُيُوش المتألبة عليهم وأسر كثير من أشراف فرنسا منهم الكونت دي نيفر نفسه وقتل أغلبهم وأطلق سراح الباقي والكونت دي نيفر بعد دفع فداء اتفق عَلى هٰذا.

وقد شدد الحصار بعد ذلك عَلى مدينة القُسطَنْطينيَّة، ولولا إغارة المغول عَلى بلاد آسيا الصغرى لربما كانَ تمكن من فتحها لكن الأمور مرهونة بأوقاتها، فاكتفى بإبرام الصُّلح مع ملكها هذه المرة بشرط دفع عشرة آلاف ذهب سنوياً من عملة وقتها، وأن يجيزَ للمسلمين أن يبنوا بها جامعاً لإقامة شعائر الدّين الحنيف وأن تقام لهم محكمة شرعيّة للنّظر في قضايا المستَوطنين بها منهم.

إغارة تيمورلنك عَلى آسيا الصغرى:

أغار تيمور بجُيُوشه الجرارة عَلى بلاد آسيا الصغرى وافتتح مدينة سيواس بأرمينيا ولذلك جمع السُّلطَان بايزيد جُيُوشه وسار لمحاربة تيمور الأعرج فتقابل الجيشان في سهل أنقره، فسقط أسيرا في أيدي المغول هو وابنه موسى وكان ذلك في ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤هـ، ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢ م، ومات في الأسر.

وبعد موت السُّلطَان بايزيد تجزأت الدّولة إلى عدّة إمارات صغيرة كما حصل بعد سقوط دولة آل سلجوق، لأن تيمورلنك أعاد إلى أمراء قسطموني وصاروخان وكرميان وآيدين ومنتشا وقرمان ما فقدوه من البلاد، واستقل في هذه الفترة كلّ من البلغار والصّرب والفلاخ ولم يبق تابعا للرّاية العُثمَانِيّة إلّا قليل من البلدان، ومما زاد الخَطر عَلى هذه الدّولة عدم اتفاق أولاد بايزيد عَلى تنصيب أحدهم بل كانَ كلّ منهم يدعي الأحقيَّة لنفسه فتحالف بعضهم مع الرُّوم، وبعضهم مع تيمورلنك، إلى أن آل الأمر لأحدهم ويُدعى محمّد، وبذلك انفرد بما بقي من بلاد آل عثمان.

(٥) - السُّلطَان محمّد جلبي الغازي (١٤١٠-١٤٢١):

هَذَا وَقد كَانَت مُدَّة حكم السُّلْطَان مُحَمَّد كلهَا حروباً داخلية لإرجاع الإمارات الَّتِي اسْتَقَلت فِي مُدَّة الفوضى الَّتِي أعقبت موت السُّلْطَان بايزيد فِي الأسر وحافظ على محالفة ملك الرّوم الَّذِي لَوْلَا

مساعدته لَهُ لخيف على عرى الدولة الْعلية من الانفصام، وَمِمَّا يُؤثر عَن هَذَا السُّلْطَان أنه اسْتعْمل الحزم مَعَ الْحلم في معاملة من قهرهم، اشتغل بقمع الفتن وترتيب أمور الدّولة إلى أن فاجأه الموت في سنة ٨٢٤ هـ سنة ١٤٢١م في مدينة أدرنه فأسلم الرّوح وعمره ٤٣ سنة بعد أن أوصى بالملك لابنه مراد، واشتهر السُّلْطَان مُحَمَّد بحبه للعلوم والفنون وَهُوَ أول ملك عثماني أرسل الْهَدِيَّة السنوية إِلَى أمير مَكَّة الَّتِي يُطلق عَلَيْهَا اسْم الصرة حَتَّى الْآن وَهِي عبارَة عَن قدر معِين من النُّقُود ترسل إِلَى الأمير لتوزيعه على فُقَرَاء مَكَّة وَالْمَدينَة

(٦) - السُّلطَان مراد خان الثّاني (١٤٢١ –١٤٥١م):

تولى وعمره ثماني عشرة سنة وافتتح أعماله بإبرام الصُّلح مع أمير القرمان والاتفاق مع ملك المجر عَلى هدنة خمس سَنَوات حتَّى يتفرغ لإرجاع من شق عصا الطاعة من ولايات آسيا لكن حدث ما شغله عن هذا بتحالف بعض أقربائه مع ملك الرُّوم.

وفي سنة ١٤٣٠م أعاد السُّلطَان فتح مدينة سلانيك وبعد ذلك أراد السُّلطَان مراد أن يفتح ما بقي من بلاد الصّرب وبلاد ألبانيا الأرنؤوط والفلاخ قبل أن يعيد الكرة عَلى القُسطَنْطينيَّة حتَّى لا يكون لها من هذه الولايات نصير، وقد خاضَ السُّلطَان مُراد حُرُوبا كثيرة مع الصّرب والبلغار والألبان، وتنازل عن السلطنة لابنه محمّد، ليتفرغ للعزلة، وتوفي في ٧ فبراير سنة ١٤٥١م وسِنُّهُ: ٤٩سنة، ومُدة حكمه: ٣٠ سنة، وتولّى بعده ابنه السُّلطَان أبو الفتح محمّد الثّاني.

(٧) - السُّلطَان الغازي محمّد الثّاني فاتح القُسطَنْطينيَّة (١٤٥١- م):

وهو سابع السّلاطين ولما تولى الملك بعد أبيه لم يكن بآسيا الصغرى خارجاً عن سلطانه إلا جزء من بلاد القرمان ومدينة سينوب ومملكة طرابزون الرُّومية وصارت مملكة الرُّوم الشَّرقية قاصرة عَلى مدينة القُسطَنْطينيَّة وضواحيها، وكان إقليم موره مجزَّأ بين البنادقة وعدة إمارات صغيرة يحكمها بعض أعيان الرُّوم أو الإفرنج الّذين تخلفوا عن إخوانهم بعد انتهاء الحُرُوب الصّليبيّة، وبلاد الأرنؤوط (البوسنة)، وقد زعم المؤرخون أنّه أمر بقتل أخ له رضيع اسمه أحمد، وبإرجاع الأميرة مارا الصّربية

– محظية أبيه – إلى والدها، ثمّ أخذ يستعد لتتميم فتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القُسطَنْطينيَّة حتَّى تكون جميع أملاكه متصلة.

فتح القُسطَنْطينيَّة (٨٥٧ هـ – ١٤٥٣م):

حاصر السُّلطَان المدينة في أوائل أبريل سنة ١٤٥٣م من جهة البرَّ بجيش يبلغ المائتين وخمسين ألف جندي ومن جهة البحر بأسطول مؤلف من مئة وثمانين سفينة وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية طوبجية مدفعية وضع بها مدافع جسيمة صنعها له صانع مجرى شهير اسمه أوربان، وكانت تقذف كرات من الحجر زنة كلّ واحدة منها اثنا عشر قنطاراً إلى مسافة ميل، وفي إثناء الحصار اكتشف قبر أبي أَيوب الأنصاريّ الّذي استشهد حين حصار القُسطَنْطينيَّة في سنة ٥٢ هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وبعد الفتح بنى له مسجداً جامعاً وجرت العادة بعد ذلك أن كلّ سلطان يتولى يتقلّد سيف عثمان الغازي الأوّل بهذا المَسجِد.

ولما شاهد قسطنطين آخر ملوك الرُّوم هذه الاستعدادات استنجد بأوروبّا فلبّى طلبه أهالي جَنوة وأرسلوا لهُ أُسطولاً بحرياً فأتى بمراكبه فعارضته السُّفن العُثمَانِيّة وانتشرت بينهما حرب هائلة، انتهت بفوز أسطول جنوة ودخوله الميناء بعد أن رفع المحصورون السلاسل الحديدية الّتي وضعت لمنع المراكب العُثمَانِيّة من الوصول إليها ثمّ أعيدت بعد مروره كما كانت، فلم تستطع سفن العُثمَانِيّين مطاردتها، فأوصلت المؤن للمدينة، وبعدها أخذ السُّلطَان يفكّر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لإتمام الحصار برّاً وبحراً، فخطر بباله فكرة عبقريّة، وهي أن ينقل المراكب عَلى البر ليجتازوا السّلاسل الموضوعة لمنعه وتمّ هذا الأمر المستغرب بأن مهد طريقا عَلى البر بمسافة فرسخان أي ستة أميال (١٠كم) ورُصَّت فَوقه ألواحٌ من الخشبِ صُبَّ عليها الزَّيت والدّهن لسهولة زلق المراكب عليها وبهذه الكيفيَّة أمكن نقل نحو سبعين سفينة بأحمالها ومدافعها، إلى الطّرف الثّاني من الخليج في ليلة واحدة!! حتَّى إذا أصبح النَّهار ونظرها المحصورون أيقنوا أن لا مناص من نصر العُثمَانِيّين عليهم. ثمّ أمر السُّلطَان جُيُوشه بالاستعداد للهجوم في يوم / ٢٠ جماد أول سنة ٨٥٧ هـ – ٢٩ مايو سنة

١٤٥٣م/، وفي الليلة السَّابقة لليوم المحدّد أشعلت الجنود العُثمَانِيّة الأنوار أمام خيامها للاحتفال بالنّصر المحقق لديهم وظلوا طول ليلهم يهلّلون ويكبّرون حتَّى إذا لاح الفجر صدرت إليهم الأوامر بالهجوم فهجم مئة وخمسون ألف جنديّ وتسلّقوا الأسوار حتَّى دخلوا المدينة من كلّ فج وأعملوا السّيف فيمن عارضهم ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا حيث كانَ يصلي فيها البطريق وحوله عدد عظيم من الأهالي، ويعتقد الرُّوم حتَّى الآن أن حائط الكنيسة انشق ودخل فيه البطريق والصُّور المقدّسة، وفي اعتقادهم أن الحائط ينشق ثانية يوم يخرج الأتراك من القُسطَنْطينيَّة ويخرج البطريق منها ويتم صلاته الّتي قطعها عند دخول العُثمَانِيّين عليه عند الفتح!!

وسميت المدينة **إسلام بول** أي **مدينة الإِسْلَام** وجعلت عاصمة للدولة، ونذكر هنا أنّ المُسلِمِين حاصروا القُسطَنْطينيَّة إحدى عشرة مرّة قبل هذه المرة الأخيرة منها سبعة في القرنين الأولين للإسلام:

فقد حاصرها معاوية في خلافة سيدنا علي رضي الله عنه سنة ٣٤ هـ ٦٥٤ م

وحاصرها يزيد بن معاوية سنة ٤٧ هـ ٦٦٧ م في خلافة سيدنا علي أيضا.

وحاصرها سفيان بن أوس في خلافة معاوية سنة ٥٢ هـ ٦٧٢ م وفي ٩٧ هـ ٧١٥ م

وحاصرها مسلمة بن عبد الملك في زمن الخَلِيفَة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وحوصرت أيضا في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ هـ ٧٣٩ م.

وفي المرة السَّابعة حاصرها الخَلِيفَة هارون الرَّشِيد سنة ١٨٢ هـ ٧٩٨ م.

هذا ثمّ دخل السُّلطَان المدينة فوجد الجنود مشتغلين بالسلب والنهب، فأصدر أوامره بمنع كلّ اعتداء، فساد الأمن حالا ثمّ زار كنيسة أيا صوفيا وأمر بأن يؤذن فيها بالصّلاة إعلانا بجعلها مسجدا جامعا للمسلمين، وبعد تمام الفتح عَلى هذه الصُّورة أعلن في كافّة الجهات بأنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين بل أنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم فرجع من هاجر من المسيحيين، وفرض عليهم دفع الخراج مستثنيا من ذلك أئمة الدّين فقط.

وبعد إتمام هذه الترتيبات وإعادة ما هدم من أسوار المدينة وتحصينها سافر بجُيُوشه لفتح بلاد جديدة:

فقصد بلاد موره لكن لم ينتظر أميراها دمتريوس وتوماس أخوا قسطنطين قدومه بل أرسلا إليه يخبرانه بقبولهما دفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوكا فقبل ذلك السُّلطَان.

وغير وجهته قاصداً بلاد الصّرب فأبرم أمير الصّرب الصُّلح مع السُّلطَان محمّد الثّاني عَلى أن يدفع له سنويا ثمانين ألف دوكا وذلك في سنة ١٤٥٤م.

وفي السنة التّالية وصل مدينة بلغراد الواقعة عَلى نهر الدانوب وحاصرها من جهة البر والنهر ثمّ أرسل الصدر الأعظم محمود باشا لإتمام فتح بلاد الصّرب فأتم فتحها من سنة ١٤٥٨ إلى سنة ١٤٦٠م.

وفي هذه الأثناء تمَّ فتح بلاد موره ففي سنة ١٤٥٨م فتح السُّلطَان مدينة كورنته وما جاورها من بلاد اليونان حتَّى جرد توماس بالولوج أخا قسطنطين من جميع بلاده ولم يترك إقليم موره لأخيه دمتريوس إلا بشرط دفع الجزية.

وفي ذلك الوقت فتحت جزائر تاسوس والبروس وغيرها من جزائر بحر الرُّوم، ثمّ أغار السُّلطَان فوصل في أقرب وقت إلى مدينة بوخارست.

وفي سنة ١٤٦٢ حارب السُّلطَان بلاد البوسنة لامتناع أميرها عن دفع الخراج وأسره بعد محاربة عنيفة هو وولده وأمر بقتلهما فدانت له جميع بلاد البشناق وأهالي البوسنة.

وفي سنة ١٤٦٣ استولوا عَلى مدينة أرجوس وغيرها، ثمّ بعد هدنة استمرت سنة واحدة عادت الحُرُوب بين العُثْمَانِيّين والبنادقة وكانت نتيجتها أن افتتح العُثْمَانِيّون جَزِيرَة نجربونت وتسمى في كتب الترك أجريبوس مركز مُستَعمرات البنادقة في جزائر الرُّوم وتم فتحها في سنة ١٤٧٠م وبعد أن ساد الأمن في أنحاء أوروبّا حول السُّلطَان أنظاره إلى بلاد القرمان بآسيا الصغرى.

ثمّ فضل البنادقة أن يبرموا صلحاً جديداً مع السُّلطَان ويتنازلوا عن اشقودره في مقابلة بعض امتيازات تجاريَّة وتمّ الصُّلح بين الفريقين عَلى ذلك وأمضيت به بينهما معاهدة في يناير سنة ١٤٧٩م، وكانت هذه أول خطوة خطتها الدّولة العُثْمَانِيّة للتدخل في شؤون أوروبّا إذ كانت جمهوريّة البنادقة حين ذاك أهمّ دول أوروبّا في التجارة البحرية وما كانَ يعادلها في ذلك إلا جمهوريّة جّنوا.

فتح جزائر اليونان ومدينة أوترانت:

وبعد أن تمَّ الصُّلح مع البنادقة وجهت الجُيُوش إلى بلاد المجر، وفي سنة ١٤٨٠ فتحت جزائر اليونان الواقعة بين بلاد اليونان وإيطاليا وبعدها سار القائد كدك أحمد باشا بمراكبه لفتح مدينة أوترانت بإيطاليا الّتي كانَ عزم السُّلطَان عَلى فتحها جميعها ويقال أنه أقسم بأن يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس بمدينة روما مقرّ البابا، ففتحت مدينة أوترانت عنوة في أغسطس سنة ١٤٨٠ م.

وفي سنة ١٤٨١م تُوفي أبو الفتح السُّلطَان محمّد الثّاني الغازي عن ثلاث وخمسين سنة، ومدة حكم ٣١ سنة، تمم في خلالها مقاصد أجداده ففتح القُسطَنْطينيَّة وزاد عليها فتح مملكة طرابزون الرُّومية والصّرب والبشناق وألبانيا الأرنؤوط وجميع أقاليم آسيا الصغرى ولم يبق في بلاد البلقان إلا مدينة بلغراد التَّابعة للمجر وبعض جزائر تابعة للبنادقة ودفن في المدفن المخصوص الّذي أنشأه في أحد الجوامع الّتي أسَّسَها في الآستانة، فرَحِمَهُ اللهُ وجزاه عن الإِسْلَام خيراً.

ويُروَى أنَّه عمل تنظيمات إدارية كثيرة كانَ منها، وضع أول مبادئ القانون المدني وقانون العقوبات فأبدل العقوبات البدنيّة أي السنُّ بالسنِّ والعينُ بالعينِ وجعل عوضها الغرامات النقدية بكيفِيَّة واضحة أتمها السُّلطَان سليمان القانونيّ الّذي توسّع في التَّشريعات الوضعِيَّة، وعليه – إن صحَّ الخبر – يكون هذا أول السّير عَلى طريق الكفر والبوار وأسباب هزيمة هذه الأُمّة، فقبح الله – من غير شرائعه – قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة]

(٨) - السُّلطَان الغازي بايزيد خان الثّاني(١٤٨١-١٥١٢م):

توفي السُّلطَان أبو الفتح محمّد الثّاني عن ولدين أكبرهما بايزيد وكان حاكما باماسيا، وثانيهما جم المشهور في كتب الإفرنج باسم البرنس زيزيم وكان حاكما في القرمان، وحصلت شواشر كثيرة بين الأخوين تدخل فيها البابا وملوك النّصَارى، وانتهت بموت الأمير جم مَسموماً في كنف ملك فرنسا.

لم تحصل فتوحات ذات بال في عهد بايزيد الثّاني، ولكن توسّعت العلاقات في عهده بين السّلطنة وروسيا وممالك أوربّا.

وكان للسلطان ثلاثة أولاد استعجلوا النزاع عَلى السلطنة واستطاع الإنكِشَارِيّة فرض السُّلطَان سليم في حياة أبيه وأتوا به إلى القُسطَنْطينيَّة باحتفال زائد وساروا به إلى سراي السُّلطَان وطلبوا منه التنازل عن الملك لولده المذكور فقبل واستقال في يوم ٨ صفر سنة ٩١٨هـ، ٢٥ أبريل سنة ١٥١٢م، ولم تزد أملاك الدّولة العلية في زمن السُّلطَان بايزيد الثّاني إلا قليلاً لحبّه السلم وحقن الدِّماء، فكانت حُرُوبه الخارجيّة اضطراريّة للمدافعة عن الحدود حتَّى لا يستخفّ بها أعداؤها وكان سلميّ الطّباع كارهاً للقتل.

(٩) - السُّلطَان سليم الأوّل الغازي (١٥١٢- ١٥٢٠م):

عين سليم الأوّل الّذي لقب بـ(ياوز) أي القاطع ابنه سليمان حاكما للقُسطَنْطينيَّة وسافر بجُيُوشه إلى بلاد آسيا لمحاربة إخوته وأولاد إخوته حتَّى لم يبق له منازع في الملك بعد أن قتل من عثر عليه من إخوته وأولادهم!

ثمّ عاد إلى مدينة أدرنه حيث كانَ بانتظار سفراء من قبل البندقية والمجر وموسكو وسلطنة مصر فأبرم مع جميعهم هدنة لمدد طويلة بما أن مطامعه كانت متجهة إلى بلاد الفرس الّتي كانت أخذت في النموّ والارتقاء في عصر ملكها شاه اسماعيل الصّفويّ الشّيعيّ، الّذي بدأت دولته تنمو شرق السلطنة، فقد كانَ اسماعيل قد فتح ولاية شيروان وجعل عاصمته مدينة تبريز سنة ١٥٠١م، وبعدها فتح العراق وبلاد خراسان وديار بكر سنة ١٥٠٨م، وأرسل أحد قواده فاحتل مدينة بغداد، وفي سنة ١٥١٠م ضمّ إلى أملاكه بلاد فارستان وأذربيجان وبذلك امتدت مملكته من الخليج الفارسي إلى بحر الخزر ومن منابع الفرات إلى ما وراء النهر، وهكذا تاخمت دولة الصفويين الدّولة العُثمَانِيّة وأراد السُّلطَان سليم إبعادها عنه.

فوقع القِتَال بين الجيشين في أغسطس سنة ١٥١٤م فانتصرت الجُيُوش العُثمَانِيّة نصراً مبيناً لتفوقها في سلاح المدفعيّة، وفرّ الشّاه بما بقي من جُيُوشه ووقع كثير من قواده في الأسر وأسرت أيضاً إحدى زوجاته ولم يقبل السُّلطَان أن يردّها لزوجها، بل زوجها لأحد كتابه انتقاماً من الشّاه! وفتحت

المدينة أبوابها ودخلها السُّلطَانُ منصوراً في يوم ٤ سِبتَمبر سنة ١٥١٤م، واستولى عَلى خزائن الشّاه وأرسلها إلى القُسطَنْطينيَّة، ثمّ فتحت الجُيُوش العُثمَانِيّة مدائن ماردين وأورفه والرّقة والموصل وبذلك تمَّ فتح إقليم ديار بكر وأطاعت كافّة قبائل الكرد بدون كثير عناء بشرط بقائهم تحت حكم رؤساء قبائلهم.

فتح مصر وانتقال الخِلافَة إلى العُثمَانِيّين:

لم ينته السُّلطَان سليم من محاربة الشّيعة وفتح بلاد ديار بكر والموصل حتَّى أخذ في الاستعداد لفتح سلطنة مصر، بما أن سلطانها قانصوه الغوري كانَ قد تحالف مع الشّاه اسماعيل لمحاربة الدّولة العُثمَانِيّة، وسار بجيشه إلى بلاد الشّام فتقابل الجيشان بقرب مدينة حلب الشهباء (حرسها الله وردنا إليها منصورين)، فالتقوا في واد يقال له مرج دابق وقتل الغوري في أثناء انهزام الجيش المملوكي، وكان ذلك في أغسطس سنة ١٥١٦م، وبعد هذه الموقعة دخل السُّلطَان حلب، ويروى أنّه قتل كلّ من كانَ فيها من الشّيعة، وقيل أنّهم ثلاثين ألفاً! ثمّ احتلّ السُّلطَان سليم بكل سهولة مدائن حماه وحمص ودمشق وعيّن بها ولاة من طرفه، وقابل من بها من العُلَماء فأحسن وفادتهم وفرق الإنعامات عَلى المساجد وأمر بترميم الجامع الأموي بدمشق، ولما صلّى السُّلطَان الجمعة به أضاف الخطيب عندما دعا له صفة: (**خادم الحرمين الشريفين**) وبقيت نعتاً للخُلَفَاء العُثمَانِيّين، (ثمّ اغتصبها في زماننا المنحوس خادم اليَهُوْد والنّصَارى والمجوس، ملك آل سعود فهد بن عبد العزيز).

ثمّ احتل العُثمَانِيّون مدينة غزة ثمّ مدينة القاهرة رغما عن مقاومة المماليك الّذين حاربوهم من شارع لآخر ومن منزل لآخر حتَّى قتل منهم ومن أهالي البلد ما يبلغ خمسين ألف نسمة! أما طومان باي فلم يلبث أن وقع في أيدي العُثمَانِيّين بخيانة بعض من معه، وشنق بأمر السُّلطَان سليم في أبريل سنة ١٥١٧م بباب زويلة.

ومما جعل لفتح وادي النيل أهمية تارِيخِيَّة عظمى أن محمّد المتوكل عَلى الله، آخر ذرية الدّولة العبّاسيّة الّذي حضر أجداده لمصر بعد سقوط مدينة بغداد مقر خلافة بني العبّاس في قبضة هولاكو خان التتري

سنة ٦٥٦ هـ - ١٠٩١ م وكانت له الخِلافَة بمصر اسما تنازل عن حقه في الخِلافَة الإِسْلَاميّة إلى السُّلطَان سليم العُثمَانِيّ، وصدق الله العظيم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وسلمه الآثار النّبويّة الشريفة: وهي البيرق (العلم) والسيف والبردة، وسلمه أيضا مفاتيح الحرمين الشريفين، ومن ذلك التّاريخ صار كلّ سلطان عُثمَانِيّ أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين.

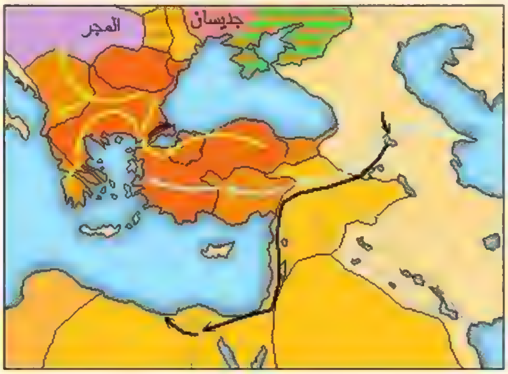
وفي أوائل شهر سِبتَمبر سنة ١٥١٧م سافر السُّلطَان سليم من القاهرة عائداً إلى القُسطَنْطينيَّة، وفي ٢٠ رمضان سنة ٩٢٣هـ وصل السُّلطَان إلى مدينة دمشق ومكث بها إلى ٢٢ صفر سنة ٩٢٤هـ، وحضر الاحتفال بإقامة الصّلاة أول مرّة في الجامع الّذي أقامه بدمشق عَلى قبر محيي الدّين بن العربيّ، ثمّ سافر إلى مدينة حلب ومنها إلى أدرنه، وفي الطّريق وصل إليه سفير من قبل مملكة إسبانيا ليخابره بشأن حرية زيارة المسيحيين للقدس الشريف الّذي كانَ قبلا تابعا لسلطنة مصر وتبعها في دخولها تحت ظل الدّولة العُثمَانِيّة، في مقابلة دفع المبلغ الّذي كانَ يدفع سنويا للمماليك فأحسن السُّلطَان مقابلته وصرح بقبوله ذلك، وأبرم الإسبان معاهدة مع البَاب العالي، وكذلك أتى إليه سفير من قبل جمهوريّة البندقية ليدفع له خراج سنتين متأخر الخراج المقرر عليها نظير بقائها في جَزِيرَة قبرص.

وسبحان من يعز من يشاء ويذل من يشاء، حيث صارت الدّولة العُثمَانِيّة منذُ عهد الفاتح دولة عظمى يحسب لها ملوك أوربّا ألف حساب.

وكان السُّلطَان سليم في هذه المدة مشتغلا بتجهيز أسطول بحري لمعاودة الكرة عَلى جَزِيرَة رودس بحرا، وكان يستعد أيضا لمحاربة شاه العجم ثانياً ولكن لم يمهله المنون ريثما يتم مشروع فتح جَزِيرَة رودس بل عاجله في رحلته من القُسطَنْطينيَّة إلى أدرنه فتوفي في سِبتَمبر سنة ١٥٢٠م.

و كانَ حضرته - كما سجل المؤرخون - سفاكا للدماء، ولوعا بفك الرقاب، فقد قتل سبعة من وزرائه لأسباب واهية، وكان كلّ وزير مهدداً بالقتل لأقل هفوة، حتَّى صار يُدعى عَلى من يرام موته بأن يصبح وزيراً له، وقد بنى السُّلطَان سليم كثيراً من الجوامع، وحول أجمل كنائس القُسطَنْطينيَّة إلى مساجد مع سبق الوعد من السُّلطَان محمّد الثّاني الفاتح لبطريق الرُّوم بعدم مسّ نصف الكنائس الثّاني الّذي تركه لهم بعد فتح المدينة.

ميلاد الدولة العثمانية وتوسعها حتى نهاية حكم سليم الأول سنة ١٥٢٠ م.



(١٠) - السُّلطَان الغازي سليمان خان الأوّل القانُونيّ (١٥٢٠- ١٥٦٦):

وهو عاشر ملوك آل عثمان، وأوسعهم عزا ومجدا، ويمثل عهده قمة بهاء دولتهم، وكان من عادته إرسال الخطابات إلى كافّة الولاة وأشراف مكّة والمدينة بخطابات مفعمة بالنصائح والآيات القرآنية المبينة، وذكر فضل العدل والقسط في الأحكام، ووخامة عاقبة الظُّلم، وكان يستهل خطاباته بالآية الشريفة: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ [النمل]، وكان من أهمّ أحداث عهده:

فتح مدينة بلغراد في سنة ١٥٢١م: بعد أن ورد خبر قتل السفير الّذي أرسله السُّلطَان إلى ملك المجر يطلب منه دفع الجزية أو الحَرب، فاستشاط السُّلطَان غضبا وسار هو بنفسه في مقدمة الجيش إلى بلغراد فدخلها وصلى الجمعة في إحدى كنائسها الّتي حولت مسجدا وصارت هذه المدينة الّتي كانت أمنع حصن للمجريين أكبر مساعد لها عَلى فتح ما وراء نهر الدانوب من الأقاليم والبلدان.

فتح جَزِيرَة رودس سنة ١٥٢٣ م: وبعد ذلك أخذ السُّلطَان في الاستعداد براً وبحراً لفتح جَزِيرَة رودس الّتي لم يتمكن السُّلطَان محمّد الفاتح من فتحها لتكون حلقة اتصال بين القُسطَنْطينيَّة ومصر من جهة البحر، ولكي لا يكون للمسيحيين مركز حصين في وسط بلاده تلجأ إليه أساطيل الدّول المعادية للدولة وقت الحَرب.

فتح بلاد المجر وعاصمتها سنة ١٥٢٦ م: كانت الحَرب غير منقطعة بين المجر وبين العُثمَانِيّين عَلى التخوم، وبعد أن افتتح الجيش عدّة قلاع ذات أهمية حربية عَلى نهر الطونة وصل بجيشه إلى وادي موهاكس في أغسطس سنة ١٥٢٦م فقتل هناك أغلب الفرسان المجريّة وقتل ملكهم ولم يعثر عَلى جثته، فكانت هذه الواقعة سبب فتح بلاد المجر بأسرها، ولذلك أرسل أهالي مدينة (بود) عاصمة المجر مفاتيح المدينة إلى السُّلطَان فاستلمها مشدداً الأوامر عَلى الجنود بعدم التعرّض للأهالي والمحافظة عَلى النّظام لكن لم تجد تنبيهاته شيئاً.

ابتداء الحُرُوب مع النّمسا وحصار عاصمتها (فيينا):

ثمّ قام السُّلطَان بجُيُوشه قاصداً مدينة (فيينا) ووصل السُّلطَان سليمان بجُيُوشه أمام عاصمة بلاد النمسا ووضع الحصار حولها وسلط مدافعه عَلى أسوارها فهدم جُزءاً منها وفتح بها ثلما حتَّى صار يمكن الجُيُوش الهجوم منه ثمّ أمر الجنود بالهجوم، ولكنه لم يتمكن من دخول في المدينة، ولما نفدت الذّخيرة وأقبل الشتاء أصدر أوامره بالرجوع عن فيينا، تلك السنة وإعداد الجُيُوش لمعاودة الكرة فيها بعد، وفي ١٩ رمضان سنة ٩٣٨ هـ، ٢٥ أبريل سنة ١٥٣٢ سار السُّلطَان سليمان قاصدا مدينة فيينا ثانية لفتحها، ولما وصل إلى مدينة نيش ببلاد الصّرب وجد في انتظاره سفراء من قبل أرشيدوق النمسا ووجد بمدينة بلغراد سفيراً جديداً من قبل ملك فرنسا وبعد المقابلة وتبادل عبارات السّلام بين السفير الفرنساوي والخليفة عاد السفير لملكه حاملاً خطاباً يؤكّد السُّلطَان فيه اتحادهما عَلى محاربة شارلكان (وكان ملكا للنمسا وهولندا وأسبانيا وإمبراطورا لألمانيا ويدخل معظم جنوب إيطاليا وجنوة وجَزِيرَة مينوركا، ووهران في ساحل الجَزَائِر في ملكه) وبهذا كانَ يحيط بفرنسا من جميع الجهات، ووعد السُّلطَان بإمداد فرنسا بالأسطول العُثمَانِيّ إذا مسّت الحاجة، ثمّ سار السُّلطَان بجُيُوشه الّذين كانَ يبلغ عددهم مائتي ألف مقاتل وانضم إليهم بعد مزاولتهم مدينة بلغراد خمسة عشر ألف فارس من تتر القرم وفي أثناء المسير نحو مدينة فيينا، فتح الجيش عدّة قلاع وحصون بدون مقاومة تذكر، ولعدم وجود مدافع حصار معه ولاقتراب فصل الشتاء بزمهريره عاد عنها أيضا.

ولما وصل السُّلطَان في إيابه إلى مدينة فيليبه عين صاحب كراي التتري خانا لبلاد القرم بدل أخيه مكافأة له عَلى خدماته أثناء مرور الجيش بأراضي النمسا، وفي أثناء انتشاب هذه الحُرُوب من جهة البر، أتت مجموعة من سفن شارلكان الحَربية ومعها عدّة من سفن البابا بقصد محاربة العُثمَانِيّين من جهة البحر، فاحتلت مينائي كورون وباتراس ببلاد موره بعد قتل من كانَ بها من الجنود الإنكِشَارِيّة وتدمير القلعتين اللتين أقامهما السُّلطَان بايزيد الثّاني عَلى ضفتي خليج ليبالت ببلاد اليونان، وفي أوائل سنة ١٥٢٣م أرسل أرشيدوق النمسا سفيراً من قبله إلى الآستانة يعرض طلب الصُّلح عَلى جلالة السُّلطَان، ولم يقبل السُّلطَان الصُّلح بل قبل المهادنة مؤقتاً حتَّى تسلم إليه مفاتيح مدينة جران، وبعدها تحول الهدنة إلى صلح فأرسل السفير إلى لعرض هذه الشُّرُوط عَلى أكابر الدّولة وأعيانها فقبلوها، وبعد ذلك تحررت بين الطّرفين معاهدة الصُّلح في يونيو سنة ١٥٣٣م، وأهم ما فيها أن يرد النمساويون مدينة كورون للدولة العُثمَانِيّة ولا يردوا شيئا مما فتحوه من بلاد المجر، وأن ما تتفق عليه النمسا مع زابولي صاحب بلاد المجر لا ينفذ ما لم يعتمده جلالة السُّلطَان العُثمَانِيّ وهي أول معاهدة صلح بين النمسا والباب العالي.

الامتيازات القنصلية:

وفي أوائل شهر فبراير سنة ١٥٣٦م تمَّ الاتفاق بين سفير فرنسا والباب العالي وصدر به خط شريف يمنح بعض امتيازات لرعايا ملك فرنسا النازلين بأراضي الممالك الثمانية، ويدل نص المعاهدة عَلى عظيم ما وصلت إليه الدّولة العُثمَانِيّة آنذاك من العز والقوة والمهابة، وبذلك صارت فرنسا الدّولة الأوروبية الوحيدة الحائزة امتيازات لرعاياها ولكن يؤخذ عليها فتح البَاب للإمتيازات القنصلية الّتي أعطت الأجانب الحقّ في التدخل في شؤون الدّولة العُثمَانِيّة الداخليَّة خُصُوصَاً في القرن التّاسع عشر والعشرين بحجة الأقليات النّصرانية، والجاليات، كما سيجيء لاحقا.

خير الدّين باشا البحري وفتح إقليمي الجَزَائِر وتونس:

اشتهر القبطان خير الدّين في كتب الإفرنج باسم (باربا روسا) أي ذي اللحية الشقراء، واصل خير الدّين باشا من جَزِيرَة مدللي إحدى جزائر الرُّوم، وكان هو وأخ له يدعى (اوروج) يشتغلان

بالقراصنة في بحر الرُّوم (البحر المتوسط)، ثمّ أسلما ودخلا في خدمة السُّلطَان محمّد الحفصي صاحب تونس، واستمرا في حرفتهما وهي أسر مراكب المسيحيين التجاريَّة وأخذ كافّة ما بها من البضائع وبيع ركابها وملاحيها بصفة رقيق، وفي ذات يوم أرسلا إلى السُّلطَان سليم الأوّل إحدى المراكب المأسورة إظهاراً لخضوعهم لسلطانه فقبلها منهما، وأرسل لهما خلعا سنية وعشر سفن ليستعينوا بها عَلى غزو مراكب الإفرنج، فقويت شوكتهما وتمكنا من فتح إقليم الجَزَائِر باسم السُّلطَان العُثمَانِيّ سنة ١٥٣٣م، وحاولا فتح تونس سنة ١٥٣٥م، وقاموا بجهود جليلة في مساعدة المُسلِمِين الفارين من بطش النّصَارى بعد سقوط غرناطة (١٤٩٢م)، وساعدوا في نقلهم بحرا إلى المغرب.

ثمّ جرى حلف بين فرنسا والدّولة العُثمَانِيّة عَلى محاربة النمسا:

وكان من نتائج محالفة فرنسا مع الدّولة العُثمَانِيّة، أن اتفاقهما كانَ قاضيا بأن الدّولة العلية تجعل وجهة حُرُوبها بلاد نابولي وجَزِيرَة صقلية وأسبانيا عوضاً عن مهاجمة النمسا الّتي تتحد مع جميع إمارات وممالك ألمانيا للمدافعة عنها، إذ هيَ مع استقلالها جزء من التَّحالف الألماني، وأن جُيُوش فرنسا تدخل بلاد إيطاليا من جهة إقليم بيمونتي بشمال غرب إيطاليا حينما تدخلها الجُيُوش العُثمَانِيّة من جهة مملكة نابولي، لكن عدم دخول جمهوريّة البندقية في هذا التَّحالف وإظهارها العدوان لهم كانَ سببا في عدم نجاح كلّ هذه التدابير، فأراد السُّلطَان سليمان الانتقام من جمهوريّة البنادقة عَلى عدم انحيازها لتحالفه مع أنه راعى جوارها ولم يغز بلادهم فأرسل خير الدّين باشا الّذي ترقى إلى رتبة (قبطان باشا جميع الأساطيل العُثمَانِيّة) ومعه نحو ألف سفينة لمحاصرة جَزِيرَة كورفو! فحاصرها في شهر سِبتَمبر سنة ١٥٣٧م وأتى السُّلطَان بنفسه لمراقبة الحصار، لكنه أمر برفعه عنها لشدة دفاع أهلها وعدم ضياع وقته حول هذه الجَزِيرَة، وعاد هو إلى القُسطَنْطينيَّة وأرسل خير الدّين باشا لفتح ما بقي من جزائر الرُّوم، ففتح أغلبها وغزا جَزِيرَة كريت، وفي عودته قابل أسطولاً مؤلفاً من مئة وسبعين سفينة تقريباً يقودها أندري روبا أميرال شارلكان فحاربها وانتصر عليها في ٢٥ سِبتَمبر سنة ١٥٣٨م، وفي مايو سنة ١٥٣٨م جمع السُّلطَان سليمان ببلاد الأرنؤوط جيشاً عظيماً مؤلفاً من مائة ألف مقاتل لشنّ الغارة عَلى بلادِ إيطاليا.

وفي الوقت نفسه نزل خير الدّين باشا بميناء (أوترانته) بجنوب إيطاليا استعداداً لمهاجمتها من جهة الجنوب بينما يهاجمها السُّلطَان سليمان من جهة الشّرق وملك فرنسا من جهة الغرب، لكن إحجام فرنسا عن التقدم إطاعة للرأي العام كما ذكرنا كانَ السبب في عدم نجاح هذا المشروع الّذي لو تمَّ لكانت نتيجته دخول بلاد إيطاليا بأسرها تحت ظل الدّولة العُثمَانِيّة، وانتهى الأمر بأن تهادن ملك فرنسا مع شارلكان وأمضيا مهادنة نيس سنة ١٥٣٨م أما من جهة البندقية فاستمرت الحَرب بينها وبين الدّولة العُثمَانِيّة سجالاً وانتهت بالصُّلح في أواخر سنة ١٥٣٨م، بتنازل البندقية عن ملفوازي ونابولي دي رومانيا من بلاد موره، أما من جهة بلاد المجر فابتدأت الحُرُوب ثانية سنة ١٥٣٧م، وانتهت بانهزام جيش ألماني مرسل من قبل شارلكان تحت رياسة أشهر قواده في ديسمبر سنة ١٥٣٧م، واستمرت المواجهات بين العُثمَانِيّين والنمسا بشأن النّفوذ في المجر وتعيين حكامها إلى سنة ١٥٤١م، **وتدل التفاصيل (المختصرة) السَّابقة عَلى مدى قوة العُثمَانِيّين في عهد سليمان وسعي أكبر دول أوربّا لطلب ودها والتَّحالف معها.**

سفر الأسطول العُثمَانِيّ إلى فرنسا وفتح مدينة نيس:

أرسل فرانسوا الأوّل إلى السُّلطَان سليمان يطلب منه مساعدته عَلى محاربة شارلكان بسفنه وقائدها خير الدّين باشا، فتردد السُّلطَان أولاً لعدم ثبات ملك فرنسا وضعف عزيمته، وقبل أخيرا بناء عَلى إلحاح السفير وتعضيد خير الدّين باشا له، لاسيّما وقد وصل إليه خبر مهاجمة شارلكان بجُيُوشه لمدينة الجَزَائِر وارتداده عنها خائباً في أكتوبر سنة ١٥٤١م، وفي ربيع سنة ١٥٤٣م سافر السُّلطَان بجُيُوشه إلى بلاد المجر لاستئناف المحاربات وفي الوقت نفسه أقلع خير الدّين باشا من مياه الآستانة بمراكبه ومعه السفير الفرنساوي بولان قاصداً مرسيليا إحدى موانئ فرنسا الجنوبية فوصلها بعد أن غزا في طريقه سواحل جَزِيرَة صقلية، وقوبل من الفرنساويين بكل تجلة وإكبار وانضمت سفنه إلى سفنهم ومنها أقلعوا إلى مدينة نيس، فحاصروها من جهة البحر وفتحوها عنوة في أغسطس سنة ١٥٤٣م، ولوقوع الشحناء بين العسكريّن لم يتمّ احتلالها، ثمّ أذن لخير الدّين باشا ومراكبه بتمضية فصل الشّتاء في ميناء طولون بفرنسا، وأعطى له ثمانمائة ألف ريال فرنساوي للصّرف عَلى جنوده، وفي

ربيع السّنة التّالية سنة ١٥٤٤م رفض فرانسوا الأوّل مساعدة الأسطول العُثمَانِيّ له لهياج جميع المسيحيين عليه ونسبتهم إيّاه للمروق عن دينه لاستعانته بالمُسلِمين، وأبرم مع شارلكان في مارس سنة ١٥٤٤م معاهدة كريسي القاضية بالصُّلح فعاد خير الدّين باشا إلى القُسطَنْطينيَّة وتوفي سنة ١٥٤٦م ودفن عَلَى شاطئ البوسفور في إسلامبول.

إبرام الصُّلح مع النمسا:

أما من جهة النمسا فاستمر القِتَال بينها وبين العُثمَانِيّين مدّة من الزَّمن كانَ النّصر فيها غالبا في جانب العُثمَانِيّين، وأخيرا توصل الطّرفان إلى عقد صلح مرضى لكل منهما رغم سعي سفير فرنسا في عدم الوصول إلى الوفاق طمعا منه في تجديد علائق الإلفة بين دولته والدّولة العُثمَانِيّة، وتم الصُّلح بينهما في سنة ١٥٤٧ م، على هدنة خمس سَنَوات بشرط أن يدفع فرديناں ملك النمسا جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوكا نظير ما بقي تحت يده من بلاد المجر، وان تبقى بلاد المجر تابعة لابن زابولي أميرها الأخير تحت وصاية أمه ايزابلا ورعاية الدّولة العُثمَانِيّة.

أما في جهات آسيا:

فقد حضر إلى دار الخِلافَة العظمى سنة ١٥٣٧ سفير من قبل صاحب دهلي بالهند يستنجده ضدّ همايون بن ظاهر الدّين محمّد الشهير ببابر صاحب دهلي وآخر من قبل صاحب الجوزرات بالهند ويطلب منه أيضا المساعدة ضدّ البرتغاليين الّذين أغاروا عَلَى بلاده واحتلوا أهمّ ثغورها.

فتح عدن: فأرسل السُّلطَان أوامره إلى والي مصر إذ ذاك بتجهيز أسطول بحري بثغر السويس عَلَى البحر الأحمر لمحاربة البرتغاليين وفتح عدن وبلاد اليمن حتّى لا تستولي عليها البرتغال أو أي دولة أوروبية أُخرى فتصير حجر عثرة في سبيل تقدم الدّولة العُثمَانِيّة في جهات الشّرق وقاعدة لأعمال الدّولة الّتي تحتلها ضدّ مصر، فصدع بأمره وشيد أسطولا بحريا هائلا مؤلفا من سبعين سفينة عَلَى عجل، وسلحها بالمدافع الضخمة وسار بها في يونيو سنة ١٥٣٨ ومعه عشرون ألف جندي، وفتح مدائن عدن ومسقط، وحاصر جَزِيرَة هرمز عند مدخل بلاد العجم، ثمّ قصد سواحل الجوزرات

وفتح اغلب الحصون الّتي أقامها البرتغاليون هناك، ثمّ قفل راجعا بالغنائم، وفتح في أيّامه معظم إقليم اليمن وجعله ولاية عُثمَانِيّة.

وفي سنة ١٥٤٧ أتى إلى البَاب العالي أخ لشاه العجم يدعى القاصب مرزا وطلب من السُّلطَان إنجاده ضدّ أخيه الّذي اهتضم له حقوقا، فانتهز السُّلطَان هذه الفرصة لتجديد الإغارة عَلى بلاد العجم وانتظر ريثما يتم الصُّلح بأوروبّا.

وفي أوائل سنة ١٥٤٨ سار بجُيُوشه قاصدا مدينة تبريز، فدخلها وفتح في طريقه الجزء التَّابع للعجم من بلاد الكرد وقلعة وان الشهيرة.

ولم تدم السكينة في ربوع بلاد المجر، فأرسل جيشا مؤلفا من ثمانين ألف جندي إلى بلاد المجر في شهر سِبتَمبر سنة ١٥٥١، ولم يقابل هذا الجيش في طريقه مقاومة تذكر بل فتح بكل سهولة القلاع والحصون الّتي احتلتها جُيُوش النمسا لإخلاء النمساويين لها عند اقتراب الجنود العُثمَانِيّة إليها ودنوها منها.

وفي سنة ١٥٥٢ انتصر العُثمَانِيّون عَلى النمساويين في عدّة وقائع وفتح الوزير الثّاني احمد باشا مدينة تمسفار وحاصرت الجُيُوش بعد ذلك مدينة ارلو الحصينة ببلاد النمسا، وفي أثناء ذلك كانَ القبطان طرغول الّذي خلف خير الدّين باشا في غزو مراكب الإفرنج وشواطئ بلادهم قد حاز شهرة عظيمة في الحُرُوب البحرية، وخافت من اسمه جميع دول الإفرنج المعادية للدولة العُثمَانِيّة وحفظ اسم البحرية العُثمَانِيّة من السُّقوط بموت رئيسها ومؤسسها الأكبر خير الدّين باشا.

معاهدة سنة ١٥٥٣ بين الدّولة العُثمَانِيّة وفرنسا:

بعد موت السُّلطَان فرانسوا الأوّل ملك فرنسا، حذا ولده هنري الثّاني حذوه ونسج عَلى منواله في مُوالاة الدّولة العُثمَانِيّة والمحافظة عَلى محبتها وتوثيق عرى الإلفة والاتحاد معها للاستعانة ببحريتها عند الحاجة، فأبقى المسيو جبريل درامون سفيرا له في إسلامبول وأمره بمرافقة السُّلطَان في حملته الأخيرة عَلى بلاد العجم فرافقه، وفي عودته زار بيت المَقْدِس، **فقابله الرهبان والقسس بكل احتفال لتأييد المعاهدات السَّابقة القاضية بجعل جميع الكاثوليك المستوطنين بأراضي الدّولة العُثمَانِيّة تحت حماية**

فرنسا ثمّ عاد إلى فرنسا فوجد نيران الحَرب قد اشتعلت ثانياً بينها وبين النمسا، فعاد إلى إسلامبول واتفق مع البَاب العالي عَلى أن يتحد الأسطول العُثمَانِيّ مع الأسطول الفرنسي لفتح جَزِيرَة كورسيكا، مجازاة لأهالي جنوه المحتلين لها عَلى مساعدتهم لشار لكان، ولتكون مركزا لأعمال الأسطولين في غزو سواحل أسبانيا وايطاليا.

وأبرمت بذلك معاهدة بتاريخ ١٦ صفر سنة ٩٦٠هـ، أول فبراير سنة ١٥٥٣، **وننقل بعضا مما جاء فيها لدلالتها عَلى مجد الدّولة العُثمَانِيّة الّتي حملت لواء الإِسْلَام في ذلك الزّمان:**

[ان جلالة السُّلطَان سليمان وهنري دي فالوا الثّاني ملك الفرانك قد ابرما اتحادا مشتملا عَلى العبارة الآتية بخصوص الحَرب البحري - جعله الله حميد العاقبة -!! والّذي سيشرعان فيه ضدّ الإمبراطور شارلكان:

البند ١: بما أن جلالة السُّلطَان سليمان سلطان الترك بإرساله أسطولا بحريا في بحر التوسكان ضدّ الإمبراطور شارل الخامس، قد أعان بذلك هنري دي فالوا مدّة سنتين بناء عَلى طلبه المتكرر في بادئ الأمر وبالخصوص بناء عَلى ترجيعاته البالغة أقصى درجات الحض، فقد اتفق بأن الملك هنري يدفع ثلاثمائة ألف قطعة من الذهب بصفة متأخر مرتب الأسطول.

البند ٤ : كلّ سفينة تابعة للإمبراطور أو للمتحالفين معه سواء أكانت معدة للنقل أو كانت من المراكب الخفيفة وسواء أكانت سفنا حربية صغيرة أو كبيرة فبمجرد وقوعها أسيرة لدى الأسطول العُثمَانِيّ تصير من تلك اللحظة ملكا للسلطان سليمان ملك الترك.

البند ٥ : المدن والقصبات والقرى والكفور الّتي تتغلب عليها البحرية العُثمَانِيّة تكون مباحة غنيمة للترك وجميع سكانها راشدين أو قاصرين رجالا كانوا أو نساء ولو أنهم معتنقون الديانة المسيحية ويكونون قد سلموا أنفسهم باختيارهم فانه لا بُدَّ من تركهم أسراء وعبيدا للترك.

البند ٦: إذا أصدر الملك هنري أمره إلى أسطول جلالة السُّلطَان سليمان بان تحارب شارل ملك النمسا غير متجهة نحو الغرب بل نحو الشّرق والجنوب ويقصد بذلك مسيرها في الشواطئ من عند مصب نهر ترونتو لغاية كروتون بحيث أن هذه السفن تقوم بأعباء أوامر هنري بدون مقابل فقد اتفق

عَلى أن المواد الحَربية ومؤونات المدن والقصبات الّتي تقع تحت يد الترك يتنازل عنها للملك هنري، ولكن المدن والقصبات والقرى والكفور فانها تترك غنيمة للترك كما تقرر ذلك بالبند السابق، وأما السّكّان والمزارعون والقاطنون البالغون والقاصرون الرّجال منهم والنِّسَاء فإنهم يسلمون للأسر بدون معارضة حتَّى ولو كانوا ممن يعتنقون الديانة المسيحية بل ولو كانوا ممن اسلم نفسه بمحض إرادته.

البند ٧: يمكن لأميرال جلالة الملك سليمان أن يستولي ويأسر باسم مليكه الأفخم كلّ مكان تقدم عليه البحرية التركية المظفرة متى رأى ثمة من فائدة وذلك من ابتداء حدود نهر ترونتو لغاية اوترانت وكرتون ومن ثمّ لغاية صقلية ونابولي وعموما جميع الأقاليم المملوكة للإمبراطور شارل الخامس ملك النمسا، سواء أكان ذلك المكان داخل الأراضي أو سواء كانَ مدينة أو قصبة أو قرية أو كفرا أو ميناء أو خليجا وله الحقّ في الاستيلاء عَلى أي سفينة يصادفها وله أن يغزو بل وان ينهب ويأسر الرّجال والنِّسَاء البالغين أو القاصرين حتَّى انه يمكنه متى شاء أن يحافظ ويتملك جميع ما يغتنمه سواء أكان من بني الإنسان أو المدن أو البيوت الخلوية وان يعدها ويستعملها لاحتياجاته ولو ضدّ رغبة الفرنك وبالرغم عن مضاد تهم الشديدة في ذلك .

البند ٩: جلالة السُّلطَان سليمان يسلم عدا عن ذلك الثلاثين سفينة حربية وبحارتها بدون أدنى فدية وكذا المدافع والمؤن وجميع المواد ويستثنى من ذلك رجال بحريته الخصوصيون وعساكره، كما وانه يدفع في أقرب وقت لبرنس سالرن الّذي بذل نفسه وكل ما في وسعه للحصول عليها وكان نصيبه أن حرم من منصبه وطرد من وطنه وبيته مبلغ الثلاثين ألف قطعة من الذهب الّتي صرفها بكل ارتياح وكرم.] أهـ.

ثمّ تتابعت المناوشات بين السلطنة والنمسا في المجر ولم تحصل أمور مهمة.

ثمّ افتتح أميرال العُثمَانِيّين طرغول طرابلس الغرب (ليبيا) في غضون سنة ١٥٥١م:

ووجه السُّلطَان سليمان اهتمامه إلى تعزيز سفنه الحَربية لحماية الجَزَائِر وطرابلس الغرب لبعدها عن مقر الخِلافَة العظمى وطموح أنظار أسبانيا إلى إرجاعها، إذ أن وجود العُثمَانِيِّين فيها يهدد سواحل أسبانيا ونابولي الّتي كانت تابعة لأسبانيا في ذلك الحين.

حصار جَزِيرَة مالطة:

في أوائل سنة ١٥٦٥ أرسلت قطع بحرية مؤلفة من نحو مائتي سفينة لفتح جَزِيرَة مالطة مقر رهبنة القديس حنا الأورشليمي لأهمية هذه الجَزِيرَة الواقعة بين إقليم تونس وجنوب ايطاليا وضرورة احتلالها لكل دولة تريد أن تكون لها اليد الطولى عَلى البحر الأبيض المتوسط، فامتد حصارها سِبتَمبر ١٥٦٥ وعادت السفن بجُيُوشها إلى إسلامبول.

الفتن داخل بيت السُّلطَان سليمان:

حصلت حادثة شنيعة وهي قتل السُّلطَان لولده الأكبر مصطفى بناء عَلى دسيسة إحدى زوجاته المسماة في كتب الإفرنج (روكسلان الرُّوسية) أما في كتب الترك فاسمها خورم أي (الباسمة) وذلك حتَّى يتولى بعده ابنها سليم بمساعدة الصدر الأعظم رستم باشا، وكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء في تاريخ السُّلطَان سليمان الّذي اتسعت دائرة السلطنة في أيّامه، ولم تكن هذه الحادثة خاتمة الفظائع بل أعقبها فتن ودسائس أدت لقتل السُّلطَان لأولاد آخرين له ولأحفاده منهم.

موت السُّلطَان سليمان:

واشتد مرض السُّلطَان وتوفي في سِبتَمبر سنة ١٥٦٦، عن أربع وسبعين سنة قمرية، وكانت مدّة ملكه ثمانية وأربعين سنة قضاها في توسيع نطاق الدّولة وإعلاء شانها حتَّى بلغت في أيّامه أعلى درجات الكمال.

وقد اشتهر السُّلطَان سليمان بـ (القانُونيّ) لما وضعه من النظم الداخليَّة في كافّة فروع الحكومة فادخل بعض تغييرات في نظام العُلَماء والمدرسين الّذي وضعه السُّلطَان محمّد الفاتح، ويعتبر موت السُّلطَان سليمان نهاية لعصر القوّة في الدّولة العُثمَانِيّة وبداية السّير نحو الانحطاط ثمّ الإنهيار فالنهاية.

أسباب بداية انحطاط الدّولة العُثمَانِيّة:

وكان ذلك لجملة أسباب منها:

العدوان عَلى سلطان الله بالتّشريع الوضعي، والّذي ابتدأ من قبل ولكنه توسع في عهد سليمان حتّى لقب بالقانُونيّ.

إعطاء الامتيازات القنصلية لسفراء الدّول الأجنبيّة، كما رأينا سفير فرنسا، والّذي تحول لحق في التدخل في شؤون الدّولة، ثمّ التآمر عليها.

بذخ السّلاطين، ودخولهم مرحلة الانصراف للدنيا والاستكثار من المحظيات اللواتي كانَ أكثرهن من الدّول النّصرانية المجاورة.

زيادة الثّروة بسبب الفتوحات العديدة والغنائم الكثيرة، ولا يخفى أن الثّروة تورث غالبا المفاخرة في المصرف والتغالي في الزهو والترف وكل امة سادت فيها هذه الخصال لا بُدَّ لها من الإنهيار.

كانَ الإنكِشَارِيّة لا يخرجون إلى الحَرب إلا إذا كانَ السُّلطَان معهم، ولذا كانت أهمّ الحُرُوب والغزوات تحت إمرة السُّلطَان وقيادته، فغير السُّلطَان سليمان هذه السنة الحميدة وأجاز للإنكشارية القِتَال تحت إمرة قائدهم الأكبر ولو لم يكن السُّلطَان موجودا فكان هذا التَّغيير سببا في تقاعس اغلب من خلفه من السّلاطين عن الخروج من قصورهم الباذخة وتفضيلهم البقاء بين غلمانهم وجواريهم المختلفات الأجناس عَلى الخروج للقتال وتكبد مشاقه.

ومنها أن كافّة أمور الدّولة المهمة كانت تنظر في ديوان الوزراء تحت رئاسة السُّلطَان فأبطل السُّلطَان سليمان هذه العادة وصار الديوان ينعقد تحت رئاسة أكبر الوزراء وهو الصدر الأعظم والسلطان لاه عن ذلك معرض عن دسائس الوزراء ومن يستعينون بهم من جواريه وأزواجه وترتب عَلى ذلك أن صارت الأمور بيد الوزراء المغايرين للجنس العُثمَانِيّ أصلا ونسبا إذ أن اغلبهم ممن اسلم أو تظاهر بالإِسْلَام من النّصَارى أو من غلمان وخدم.

ومنها الإباحة للانكشارية بالتزوج والإقامة خارج ثكناتهم مع إعطائهم بعض امتيازات وقبول الأخلاط ضمن زمرتهم مما جعلهم من اكبر موجبات تأخر الدّولة بعد أن كانت من أعظم عوامل تقدمها إلى غير ذلك من الاسباب الّتي سنوردها تباعا بحسب مقتضياتها.

(١١) - السُّلطَان الغازي سليم خان الثّاني(١٥٦٦-١٥٧٧م):

وهو **ابن روكسلان الرُّوسية** سابقة الذكر وتولى الملك بعد موت أبيه، ولم يكن السُّلطَان متصفا بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه فضلا عن إضافة شيء إليها ولولا وجود الوزير الطويل محمّد باشا صقللي المدرب عَلى الأعمال الحَربية السّياسيّة للحق الدّولة الفشل، لكن حسن سياسة هذا الوزير وعظم اسم الدّولة ومهابتها في قلوب أعدائها حفظتها من السُّقوط مرّة واحدة، ومن أهمّ ما جرى في عهد هذا السُّلطَان:

تم الصُّلح بينها وبين النمسا سنة ١٥٦٨ بمعاهدة من شروطها حفظ النمسا أملاكها في بلاد المجر ودفعها الجزية السنوية المقررة بالعهود السَّابقة واعترافها بتبعية أمراء ترانسلفانيا والفلاخ والبغدان إلى الدّولة العُثمَانِيّة، كما تجددت أيضا الهدنة مع ملك بولونيا باعتراف البَاب العالي بالتَّحالف الّذي حصل ما بين ملك بولونيا وأمير البغدان، وكذلك جددت مع شارل التّاسع ملك فرنسا في سنة ١٥٦٩ الاتفاقيات الّتي تمت بين الدّولتين في عصر السُّلطَان سليمان.

وأيد السُّلطَان سليم (ابن الرُّوسية) الامتيازات القنصلية وزاد عليها امتيازات أُخرى أهمّها معافاة كلّ فرنساوي من دفع الخراج الشخصي وان يكون للقناصل الحقّ في البحث عمن يكون عند العُثمَانِيّين من الفرنساويين في حالة الرق وإطلاق سراحهم والبحث عمن أخذهم بصفة رقيق لمجازاته وان يرد السُّلطَان كافّة الأشياء الّتي تأخذها قراصنة البحر من المراكب الفرنساوية ومعاقبة الآخذ لها وان تكون المراكب العُثمَانِيّة ملزمة بمساعدة ما يرتطم من السفن الفرنساوية عَلى شواطئ الدّولة وبحفظ ما بها من الرّجال والمتاع وان يكون لفرنسا كلّ الامتيازات الممنوحة لجمهوريّة البنادقة.

ولزيادة توثيق عرى الاتحاد بين الدّولة وفرنسا وزيادة نفوذ اتحادهما اتفقت الدّولتين عَلى ترشيح هنري دي فالوا أخي ملك فرنسا لعرش بولونيا ليكون لهم ظهيرا ضدّ النمسا من جهة وضد روسيا من جهة أُخرى وقد تمَّ ذلك فعلا وصارت بولونيا تحت حماية الدّولة العُثمَانِيّة حماية فعلية وان لم تكن اسمية.

وبذلك صارت فرنسا ملكة التجارة في البحر الأبيض المتوسط وجميع البلاد التَّابعة للدولة وأرسلت تحت ظل هذه المعاهدات عدّة إرساليات دينية كاثوليكية إلى كافّة بلاد الدّولة الموجودة بها مسيحيون خُصُوصَاً في بلاد الشّام لتعليم أولادهم وتربيتهم عَلى محبة فرنسا، وكانت هذه الامتيازات الموجبة لضعف الدّولة بسبب تدخل القناصل في الإجراء آت الداخليَّة بدعوى رفع المظالم عن المسيحيين واتخاذها لها سبيلاً لامتداد نفوذها بين رعايا الدّولة المسيحيين واهم نتائج هذا التدخل وأضره مآلا وأوخمه عاقبة استعمال هذه الإرساليات الدّينيّة في حفظ جنسية ولغة كلّ شعب مسيحي حتَّى إذا ضعفت الدّولة أمكن هذه الشّعوب الاستقلال بمساعدة الدّول المسيحية أو الانضمام إلى إحدى هذه الدّول كما شوهد ذلك في هذا القرن الأخير من عمرها مما سيأتي مفصلا.

ومن أعمال الوزير محمّد باشا صقللي أن أرسل جيشا عظيما إلى بلاد اليمن في سنة ٩٧٦ سنة ١٥٦٩ م تحت قيادة عثمان باشا الّذي عين عاملا عليها لقمع ثورة أهاليها الّذين خرجوا عَلى الدّولة العُثمَانِيّة مع سلطانهم الشريف مطهر بن شرف الدّين يحيى فانتصر عثمان باشا عليهم بمساعدة سنان باشا والي مصر ودخلت الجُيُوش المظفرة مدينة صنعاء.

فتح جَزِيرَة قبرص:

ومن أعماله أيضا فتح جَزِيرَة قبرص الّتي كانت تابعة للبندقية فأرسلت إليها المراكب الحَربية، حيث فتحت في أغسطس١٥٧٠م، وصارت من ذلك العهد تابعة للدولة العُثمَانِيّة إلى أن احتلها الإنكليز سنة ١٨٧٨.

وفي هذه الأثناء غزت المراكب العُثمَانِيّة جَزِيرَة **كريت**، وظنته، وغيرها بدون أن تفتحها واحتلت مدائن دلنسنيو وانتيباري عَلى البحر الأدرياتيكي ولما رأت البندقية تغلب العُثمَانِيّين عليها وفتح كثير من بلادها استعانت بأسبانيا والبابا وتم بينهم الاتفاق عَلى محاربة الدّولة بحرا خوفا من امتداد سلطتها عَلى بلاد ايطاليا، فسارت سفن المسيحيين إلى شواطئ الدّولة وكانت تلك الحملة المختلطة، وانتهى الأمر بانتصار الأسطول المسيحي فأخذت ١٣٠ سفينة عُثمَانِيّة، وأحرقت وأغرقت ٩٤، وغنمت ٣٠٠ مدفعا و٣٠ ألف أسير، وهذه أول واقعة حصلت بين الدّولة من جهة وأكثر من دولتين مسيحيتين من جهة أُخرى، وكان اشتراك البابا فيها يدل عَلى أن المحرك لهذه التّحالفات ضدّ الدّولة الإِسْلَاميّة آنذاك هو الدّين كما أثبتت الحوادث والحُرُوب فيما بعد وليس مسائل السّياسة والمصالح كما يدعون، مما لا يجعل عند المطالع اقل ريبة أو شك في أن (المسألة الشرقية) كما دعيت فيما بعد مسالة دينية أساسا،

أما من جهة أسبانيا فقد قصد دون جوان مدينة تونس في أواخر سنة ١٥٧٢، لكن لم يلبث العُثمَانِيّون إلا نحو ٨ اشهر حيث تمَّ استرجاعها ثانية إلى أملاك الدّولة بواسطة سنان باشا في أغسطس سنة ١٥٧٥.

وفي جهة بلاد البغدان انتصر العُثمَانِيّون بعد موقعة هائلة في ٩ يونيو سنة ١٥٧٤ عَلى الأمير ايوونيا الّذي تمرد عَلى الدّولة طلبا للاستقلال وصلب جزاء عصيانه.

وفي ديسمبر سنة ١٥٧٤، توفي السُّلطَان سليم الثّاني وعمره اثنين وخمسون سنة قمرية ومدة حكمه ثماني سنين و٥ اشهر وتولى بعده ابنه السُّلطَان مراد الثّالث.

(١٢) - السُّلطَان الغازي مراد خان الثّالث (١٥٧٤-١٥٩٥م):

وكانت فاتحة أعماله أن أصدر أمرا بعدم شرب الخمر الّذي شاع استعماله أيّام السُّلطَان السابق (**ابن الرُّوسية**) وأفرط فيه الجنود خُصُوصَاً الإنكِشَارِيّة فثار الإنكِشَارِيّة لذلك واضطروه لإباحته لهم بمقدار لا يترتب منه ذهول العقل وتكدير الراحة العمومية.

وأمر بقتل إخوته وكانوا خمسة ليأمن عَلى الملك من المنازعة إذ صار قتل الإخوة عادة تقريبا.

وكانت علاقات هذا السُّلطَان مع فرنسا حسنة جدا وكذلك مع جمهوريّة البندقية فجدد لهما الامتيازات القنصلية والتجاريَّة مع زيادة بعض بنود في صالحهما أهمّها أن يكون سفير فرنسا مقدما عَلى كافّة سفراء الدّول الاخرى في المقابلات والاحتفالات الرَّسميَّة **حيث كثر توارد السفراء عَلى بابه العالي، للسعي في إبرام معاهدات تجاريَّة تكون ذريعة في المستقبل للتدخل الفعلي.**

وفي أيّامه تحصلت ايزابلا ملكة الإنكليز عَلى امتياز خصوصي لتجار بلادها وهي أن تحمل مراكبها العلم الإنكليزي وكان لا يجوز لها ذلك قبلا بل كانت السفن عَلى اختلاف أجناسها ما عدا سفن البندقية لا تدخل إلى موانئ الدّولة العُثمَانِيّة إلا تحت ظل العلم الفرنساوي!

وصول نفوذ العُثمَانِيّين إلى مراكش:

في سنة ١٥٧٨، حصلت فتنة داخليَّة في مملكة مراكش بالمغرب الأقصى ونازع زعيمها سلطان المغرب في الملك وحصلت بينهما عدّة وقائع مهمة وأخيرا استنجد سلطانها بالعُثمَانِيّين واستعان مدعي الملك بالبرتغاليين فأوعزت الدّولة لوالي طرابلس بإنجاد سلطانها الشَّرعيّ فأسرع بمساعدته والتقى الترك والبرتغال بالقرب من محل يقال له القصر الكبير وكان يوما مشهودا دارت فيه الدّائرة عَلى البرتغال وقتل فيه رئيس الثائرين المستنجد بهم، وبعد تمام النّصر وإعادة الأمن والسكينة إلى ربوع مراكش، عادت الجُيُوش العُثمَانِيّة حاملة ما أغدق عليها من الهدايا وبذلك دخلت مملكة مراكش ضمن دائرة نفوذ الدّولة وصار شمال أفريقيا بأجمعه تابعا لها تماما أو خاضعا لنفوذها.

وفي هذه السنة حصل الصُّلح بين الدّولة وأسبانيا للوصول، لكن لم يمنع ذلك القراصنة من الطّرفين عَلى نهب السفن التجاريَّة وسبي واسترقاق من بها من النِّسَاء والرّجال، حتَّى كانَ من يستعد للسفر في البحر الأبيض المتوسط في ذلك الزّمان يتجهز كمن يستعد لرحلة حربية لعدم الأمن وكثرة القراصنة بما لم يسبق له مثيل، لأنكلا من الطّرفين كانَ يعتبر غزو سفن الطّرف الآخر من الواجبات الدّينيّة والقربات المشروعة.

سنة ١٥٧٩ قتل الصدر الأعظم محمّد باشا صقللي الّذي حافظ عَلى نفوذ الدّولة بعد موت السُّلطَان سليمان بدسائس حاشية السُّلطَان قضت عليه بالموت غدرا تبعا لدسائس الأجانب الّذين لا يروق في أعينهم وجود مثل هذا الوزير يدير دولاب الأعمال عَلى محور الاستقامة فدسوا إليه من قتله تخلصا من صادق خدمته للدولة فكان موته ضربة شديدة ومحنة عظيمة لاسيما وقد كثر بعده تنصيب وعزل الصدور ودبت الفوضى في الجيش.

ثمّ أصيب السُّلطَان بداء عياء وتوفي سنة ١٥٩٥ وله من العمر خمسون سنة وكانت مدّة ملكه إحدى وعشرين سنة تقريبا وقالوا أنه كانَ شاعرا مجيدا، فطنا لبيبا، إلا انه كانَ كثير الميل لاقتناء الجواري الحسان، عاملا بمشورتهن في كلّ آن، وكان من ضمن حظياته جارية بندقية الأصل من عائلة شهيرة بها اسمها (بافو) سباها من البحر قرصان، وبيعت في السراي السلطانية وسميت (صفية) حيث اصطفاها السُّلطَان وتدخلت كثيرا في السّياسة الخارجيّة للدولة، وساعدت بلادها الأصلية كثيرا وهي والدة ولي عهد السُّلطَان، (أمان يا ربي أمان، على ما فات من ذلك الزّمان).

(١٣) - السُّلطَان الغازي محمّد خان الثّالث (١٩٩٥-١٦٠٣م):

تولى بعد موت أبيه مراد الثّالث ابن صفية الإيطالية الأصل وكان له تسعة عشر أخا غير الأخوات فزعم المؤرخون أنه أمر بخنقهم جميعا قبل دفن أبيه ودفنوا معا تجاه آيا صوفيا!! وفي أوائل حكمه سار عَلى اثر سلفه في عدم الخروج إلى الحَرب وترك الأمور الداخليَّة في أيدي وزرائه الّذين منهم سنان باشا وجفالة زاده وهو ابن القائد جفالة باشا الجنوي الأصل الّذي قتل في محاربة العجم الأخيرة، وآخر يدعى حسن باشا فأفسدوا في الأرض وباعوا المناصب الملكية والعسكريّة وقللوا عيار العملة حتَّى علا الضجيج من جميع الجهات وتعاقب انهزام الجُيُوش العُثمَانِيّة أمام ميخائيل الفلاخي فضم لسلطانه بمساعدة الجُيُوش النمساوية وإقليم البغدان وجُزءاً عظيما من ترنسلفانيا لعدم وجود القواد الأكفاء لصدهم.

ومما يخلد للسلطان الغازي محمّد الثّالث الذكر ويجعله رصيفا لأجداده الأوائل، انه لما تحقق أن هذا الانحلال ناشئ من تحجبه عن الأعمال وعدم قيادته الجُيُوش، برز بنفسه وتقلد المركز الّذي كانَ ترك مراد الثّالث وسليم الثّاني له من دواعي تقهقر الدّولة أمام أعدائها، فسار إلى بلغراد ومنها إلى ميدان الحَرب والنزال وبعد قليل دبت في الجُيُوش الحمية الدّينيّة والغيرة لعسكريّة، ففتح قلعة ارلو الحصينة الّتي عجز السُّلطَان سليمان عن فتحها في سنة ١٥٥٦، ودمر جُيُوش المجر والنمسا تدميرا في سهل كرزت بالقرب من هذه القلعة في ٢٦ أكتوبر سنة ١٥٩٦ حتَّى شبهت هذه الموقعة بواقعة (موها كز) الّتي انتصر فيها السُّلطَان سليمان سنة ١٥٢٦.

وفي ابتداء القرن السَّابع عشر للميلاد حصلت في بلاد الأناضول ثورة داخليَّة كادت تكون وخيمة العاقبة عَلى الدّولة خُصُوصَاً ونيران الحُرُوب مستعر لهيبها عَلى حدود المجر والنمسا.

ومن ذلك الحين بدأ يظهر جليا اختلال النّظام العسكريّ وعدم صلاحيته لحفظ اسم الدّولة وشرفها بين أعدائها، ثمّ توفي السُّلطَان وكانت وفاته س ١٦٠٣ وعمره ٣٧ سنة ومدة حكمه ٩ سنين وخلفه ابنه احمد الأوّل.

(١٤) - السُّلطَان الغازي أحمد خان الأوّل (١٦٠٣-١٦١٧م):

فتولى الملك ولم يتجاوز سنه الرَّابعة عشر إلا بقليل ولم يأمر بقتل أخيه مصطفى بل اكتفى بحجزه بين الخدم والجواري، وكانت أركان الدّولة غير ثابتة في كافّة بلاد آسيا ونار الحَرب مستعرة عَلى حدود العجم شرقا والنمسا غربا وكانت الحَرب مع العجم شديدة الوطأة في هذه المرة لتولي الشّاه عباس الشهير قيادتها، ومما جعل لها أهمية أعظم من كافّة الحُرُوب السَّابقة، اضطراب الأحوال في الولايات الشرقية عموما وسعي كلّ أمة من الأمم المختلفة النازلة بها للحصول عَلى الاستقلال، لكن قيض الله للدولة في هذه الشدة الوزير مراد باشا الملقب (بقوي وجي) الّذي عين صدرا أعظم وكان قد تجاوز الثمانين ليكون عونا وعضدا للسلطان الفتى فتقلد مع كبر سنه ووهن قواه قيادة الجُيُوش وحارب الثائرين بهمة ونشاط زائدين فانتصر.

وقد حصلت ما بين سنة ١٦١١ وسنة ١٦١٤ بعض مناوشات بحرية بين مراكب الدّولة العُثمَانِيّة وسفن رهبان مالطة وملك إسبانيا وولايات ايطاليا كانَ الفوز فيها غالبا لمراكب الأَعدَاء، فانتهز بعض أخلاط القوزاق انسحاب السفن الحَربية من البحر الأسود، وأغاروا عَلى ثغر سينوب ونهبوا ما به ولما علم السُّلطَان بذلك غضب عَلى الصدر الأعظم وسعى به بعض مبغضيه طمعا في نوال منصبه وما فتئوا يوغرون صدر سيده عليه حتَّى أمر بقتله في ١٤ أكتوبر سنة ١٦١٤ فخنق في قصره.

هذا وازدادت في أيّام السُّلطَان احمد الأوّل العلاقات السّياسيّة مع دول الإفرنج وازداد بذلك تأثيرهم.

وفي نوفمبر سنة ١٦١٧ م توفي السُّلطَان أحمد الأوّل وعمره ٢٨ سنة ومدة حكمه ١٤ سنة تقريبا ولصغر سن ولده عثمان الّذي كانَ لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة من عمره خالف العادة المتبعة من ابتداء الغازي السُّلطَان عثمان الأوّل أي تنصيب أكبر الأولاد أو أحدهم مكان والده وأوصى بالملك بعده لأخيه.

(١٥) - السُّلطَان مصطفى خان الأوّل (١٦١٧-١٦١٨م):

وكان قد قضى عمره داخل محلات الحريم ولم يتعاطى أشغالا السّياسة مطلقا، بل ولم يعلم من أمور المملكة شيئا، ولم يلبث هذا السُّلطَان عَلى سرير الملك إلا ثلاثة اشهر تقريبا ثمّ عزله المفتي وآغا السراي، وساعدهم الإنكِشَارِيّة عَلى ذلك، فعزل في فبراير سنة ١٦١٨ م وأقاموا مكانه السُّلطَان عثمان الثّاني.

(١٦) - السُّلطَان عثمان خان الثّاني (١٦١٨-١٦٢٢ م):

اشهر هذا السُّلطَان الحَرب عَلى مملكة بولونيا وحقيق أمنيته وهي فتح هذه المملكة وجعلها فاصلا بين أملاك الدّولة ومملكة روسيا الّتي ابتدأت في الظهور، وقبل الشُّروع في الحَرب أمر بقتل أخيه محمّد تبعا للعادة المشروعة عندهم! ثمّ أصدر أمرا بتقليل اختصاصات المفتي ونزع ما كانَ له من السّلطة في تعيين وعزل الموظفين وجعل وظيفته قاصرة عَلى الإفتاء، حتَّى يأمن شر أن يكون سببا في

عزله كما كانت سبب عزل سلفه، لكن أتى الأمر عَلى الضد بما كانَ يؤمل، وبعد أن أتم هذه التمهيدات الداخليَّة سير الجُيُوش والكتائب لمحاربة مملكة بولونيا ولكنه عجز عن ذلك لتلكؤ الإنكِشَارِيّة، ثمّ تمَّ الصُّلح في أكتوبر سنة ١٦٢٠ فحنق السُّلطَان عَلى الإنكِشَارِيّة من طلبهم الراحة وخلودهم إلى الكسل وإلزامه عَلى الصُّلح مع بولونيا بدون تتميم قصده وعزم عَلى إبطالها ولتنفيذ هذا الأمر الخطير أمر بحشد جُيُوش جديدة في ولايات آسيا وتنظيمها وتدريبها عَلى القِتَال حتَّى إذا كملت عدّة وعددا استعان بها عَلى إبادة الإنكِشَارِيّة، وشرع فعلا في إنفاذ هذا المشروع لكن أحس الإنكِشَارِيّة بذلك فهاجوا واتفقوا عَلى عزل السُّلطَان وتم لهم ذلك في مايو سنة ١٦٢٢، وأعادوا مكانه السُّلطَان مصطفى الأوّل، ولم يكتفوا بعزله بل هجموا عليه في سراي قصره، وانتهكوا حرمتها وقبضوا عليه بين جواريه وزوجاته وقادوه قهرا إلى ثكناتهم موسعيه سبا وشتما وإهانة، مما لم يسبق له مثيل في تاريخ الدّولة العُثْمَانِيّة، وزيادة عَلى ذلك قاموا بإعدامه، وقد قتل ولم يتجاوز الثَّامنة عشرة من عمره ومدة حكمه أربع سنين وأربعة اشهر.

وبعد ذلك صارت الحكومة ألعوبة في أيدي الإنكِشَارِيّة ينصبون الوزراء ويعزلونهم بحسب أهوائهم فعزلوا داود باشا قاتل السُّلطَان، بعد بضع أيّام وصاروا يمنحون المناصب لمن يجزل إليهم العطايا فكانت الوظائف تباع جهارا، وارتكبوا أنواع المظالم في الآستانة، واستمرت الإضطرابات الداخليَّة في نفس كرسي الخِلافَة العظمى فلا امن ولا سكينة مدّة ثمانية عشر شهرا متوالية، حتَّى إذا شعر العموم بما وراء هذه الفوضى من الدمار والخراب عينوا كمانكش عَلى باشا صدرا أعظما لتوسمهم فيه الخبرة والاستعداد فأشار عليهم بعزل السُّلطَان مصطفى ثانياً لضعف عزيمته ووهن قواه العقليَّة فعزلوه في سِبتَمبر سنة ١٦٢٣ وولوا مكانه السُّلطَان مراد الرَّابع وبقي في العزل إلى أن توفي في سنة ١٦٣٩ م.

(١٧) - السُّلطَان الغازي مراد خان الرَّابع (١٦٢٣- ١٦٤٠م):

هو ابن السُّلطَان احمد الأوّل ابن السُّلطَان محمّد الثّالث وولاه الإنكِشَارِيّة بعد عزل عمه السُّلطَان مصطفى الأوّل ابن السُّلطَان محمّد الثّالث مع حداثة سنة كي لا يكون معارضا لهم في أعمالهم الاستبدادية ولا مضعفا لنفوذهم الّذي اكتسبوه بقتل سلطان وعزل غيره واستمروا مدّة العشر سنين الأولى من حكمه عَلى غيهم وطغيانهم.

وانتهز الشّاه عباس ملك العجم هذا الاختلال فرصة لتوسيع أملاكه من جهة حدود الدّولة العُثمَانِيّة، فسار الشّاه بجنوده لاحتلالها.

ثمّ توفي الشّاه عباس واسترد السُّلطَان بغداد من العجم سنة ١٦٣٨م، وكان يؤمل في السُّلطَان مراد الرَّابع أن يضارع السُّلطَان الغازي سليمان الأوّل القانُونيّ في الفتوحات وبعد الصيت إلا أنه توفي وهو في مقتبل الشَّبَاب عن غير عقب في فبراير سنة ١٦٤٠ م وسنه ٣١ سنة ومدة حكمه ١٦ سنة و١١ شهرا وتولى بعده أخوه ابراهيم.

(١٨) - السُّلطَان الغازي ابراهيم خان الأوّل (١٦٤٠- ١٦٤٨م):

هو ابن السُّلطَان احمد الأوّل وكان غير ميال لمحاربة النمسا فاطمأنت، وافتتح حُرُوبه الخارجيّة بإرسال جيش جرار إلى بلاد القرم لمحاربة القوزاق الّذين احتلوا مدينة آزاق فحاربهم العُثمَانِيّون وابلوا فيهم بلاء حسنا واستردوا المدينة منهم بعد أن أحرقوها وذلك سنة ١٦٤٢.

ومن أعماله أيضا فتح جَزِيرَة **كريت** وكانت تابعة لجمهوريّة البندقية.

ثمّ إن السُّلطَان ابراهيم أراد أن يفتك برؤوس الإنكِشَارِيّة في ليلة زفاف إحدى بناته عَلى ابن الصدر الأعظم لتذمرهم وانتقادهم لأعماله ورغبتهم في التدخل في شؤون الدّولة والخروج عن حدودهم، فعلموا بقصد السُّلطَان وتآمروا عَلى عزله وانضم إليهم بعض العُلَماء والمفتي عبد الرّحيم أفندي واهاجوا عساكر الإنكِشَارِيّة وقرر الجميع عزله وتولية ابنه محمّد الرَّابع في سنة ١٦٤٢ م ولم يتم السَّابعة من عمره، وتمت هذه الثَّورة في أغسطس سنة ١٦٤٨ وبعد ذلك بعشرة أيّام اظهر العسكر عدم ارتياحهم من الملك الفتي وطلبوا إعادة السُّلطَان ابراهيم إلى عرش الخِلافَة فخشي رؤساء

العِصَابة الّتي عزلته من تغلبهم بإرجاعه رغم انفهم وصمموا عَلى قتله فساروا إلى السراي ومعهم الجلاد وقتلوه خنقا كما قتلوا السُّلطَان عثمان الثّاني من قبله فكانت مدّة حكمه ٨ سنين و٩ شهور وسنه ٣٤ سنة.

(١٩) - السُّلطَان الغازي محمّد خان الرَّابع (١٦٤٨- ١٦٨٧م):

ولصغر سنه وقعت المملكة في الفوضى وصارت الجنود لا ترحم صغيرا ولا توقر كبيرا وسعوا في الأرض فسادا، ورجعت الحالة إلى ما وصلت إليه قبل تولي السُّلطَان مراد الرَّابع بل إلى أتعس منها، وسرى عدم النّظام إلى الجنود المحاصرة كنديا واضطروا قائدهم السر عسكر حسين باشا لرفع الحصار عنها، وكذلك سرى هذا الداء العضال إلى الجنود البحرية، وسبب انهزام الأسطول العُثْمَانِيّ أمام العدوّ أمام مدينة فوقيه سنة ١٦٤٩، ثمّ ثار بآسيا الصغرى ثائرون وتتابعت الفوضى.

إلى أن قيض ﷻ الوالي الوزير محمّد باشا الشهير بكوبريلي الّذي تولى منصب الصدارة سنة ١٠٦٧ هـ سنة ١٦٥٦ فعامل الإنكِشَارِيّة معاملة من يريد أن يطاع إطاعة عمياء وقتل منهم خلقا كثيرا، وأمر بعد تعيينه بقليل بشنق بطريرك الأروام (جمع روم بحسب المرجع!) **لما ثبت له تدخله في الدسائس والفتن الداخليّة.**

ولم تثن الإشكالات عزيمة كوبريلي محمّد باشا بل ما لبث يقاوم أعداء الدّولة في الداخل والخارج حتَّى أعاد لها سالف مجدها وجعلها محترمة في أعين الدّول، وه بعد وفاته سنة ١٦٦١ خلفه ابنه كوبريلي زاده احمد باشا.

وكان خير خلف لأبيه فانه كانَ متصفا بالشجاعة والإقدام وحسن الرَّأي والتدبير، واستمر في محاربة أعداء الدّولة بدون فتور أو ملل حتَّى يزيل من أذهانهم ما خامرها من تضعضع أحوال الدّولة وقرب زوالها، وقاد الجُيُوش بنفسه وعبر نهر الطونة لمحاربة النمسا ووضع الحصار أمام قلعة نوهزل مع أن هذه القلعة كانت مشهورة في جميع أوروبّا بالمناعة، واضطر كوبريلي احمد باشا حاميتها إلى التسليم بشرط خروج من بها من الجنود بدون أن يمسهم ضرر تاركين ما بها من الأَسْلِحة والذخائر

وأخلوها فعلا في سِبتَمبر سنة ١٦٦٣، ولذلك اضطربت أوروبّا بأجمعها لهول هٰذا، فسعى البابا جهده لدى ملك فرنسا حتَّى قبل بإرسال ستة آلاف جندي فرنساوي وأربعة وعشرين ألف من محالفيه الألمانيين تحت قيادة الكونت دي كوليني، ثمّ لم يمكن الإنكِشَارِيّة من الثّبات أمام جنود العدوّ الأكثر منهم عددا وسميت هذه الواقعة بواقعة سان جوتار نسبة لكنيسة قديمة حصلت الحَرب بالقرب منها، ثمّ تمَّ الصُّلح، وبعد عشرة أيّام أبرمت بين الطّرفين معاهدة أهمّ ما بها إخلاء الجيش لإقليم ترنسلفانيا تحت سيادة الدّولة العُثمَانِيّة وتقسيم بلاد المجر بين الدّولتين بان يكون للنمسا ثلاث ولايات وللباب العالي أربعة مع بقاء حصني نوفيجراد ونوهزل تابعين للدولة العُثمَانِيّة،

ثمّ تعكزت العلاقات مع فرنسا، وأرادت إعلان الحَرب عَلى الدّولة العُثمَانِيّة لولا نصائح الوزير كولبر بحكمته وسياسته ومعاملة الدّولة العلية باللين والخضوع من تجديد المعاهدات القديمة في سنة ١٦٧٣، **وفوض ثانياً إلى فرنسا حق حماية بيت المَقْدِس كما كانَ لها ذلك من أيّام السُّلطَان سليمان،** وبذلك عادت العلاقات إلى سابق صفائها بين الدّولتين.

ومما زاد حدود الدّولة اتساعا ومنعة من جهة الشمال خضوع جميع القوزاق الساكنين بالجزء الجنوبي من بلاد روسيا إلى السُّلطَان محمّد الرّابع بدون حرب بل حبا في الدخول في حمى حامي دولة الإِسْلَام، ولذلك أغارت بولونيا عَلى ولاية أوكرين فاستنجد حاكمها الأكبر بالعُثمَانِيّين فأنجده السُّلطَان، واستمرت الحَرب بين الدّولتين سجالا إلى سنة ١١٦٧.

وكانت روسيا آخذة إذ ذاك في تنظيم داخليتها وتقدم وكانت تتوق للدخول ضمن المجتمع الأوروبي فاستمرت الحَرب بين القوزاق والرُّوس من جهة والعُثمَانِيّين من جهة أُخرى بين اخذ ورد حتَّى سنة ١٦٨١ حيث تمَّ الصُّلح بينهم.

حصار مدينة فيينا من جديد:

وبعد أن انتصرت جُيُوش العُثمَانِيّين في عدّة مواقع عَلى النمساويين قصد ت عاصمة النمسا فحاصرتها سنة ١٦٨٣ مدّة شهرين واستولى العُثمَانِيّون عَلى كافّة قلاعها الأمامية وهدم أسوارها

بالمدافع ولما لم يبق عليه إلا المهاجمة المتممة للفتح، أتى سوبيسكي ملك بولونيا ومنتخبي ساكس وبافيرا بجُيُوشهم بناء عَلى إلحاح البابا عليهم واستنهاضه هممهم لمحاربة المُسلِمِين حتَّى أضرم فيهم نار التعصب الدّيني، وفي سِبتَمبر سنة ١٦٨٣ فاز المسيحيون بالنّصر وانهزم جيش الصدر مصطفى باشا وأمر السُّلطَان محمّد الرَّابع بقتل الصدر قره مصطفى باشا وأرسل احد رجال حاشيته فقتله وأرسل برأسه إلى القُسطَنْطينيَّة!

وبعد نجاة مدينة فيينا الّتي لم تحاصر بعد ذلك، تألبت كلّ من النمسا وبولونيا والبندقية ورهبنة مالطة والبابا ومملكة روسيا عَلى محاربة الدّولة الإِسْلَامِيّة لمحوها من العالم السّياسيّ، والّذي يدل عَلى أن هذا التَّحالف كانَ دينيا محضا أن أصحابه أسموه (التَّحالف المقدّس)، ومما زاد أحوال هذه الدّولة القائمة بمفردها أمام جميع الدّول المسيحية ارتباكا قطع العلاقات بينها وبين فرنسا بسبب المناوشات البحرية المستمرة بين مراكبها وقراصنة المغرب، فان جُيُوش الملك سوبيسكي كانت تهدّد بلاد البغدان وسفن البنادقة تهدّد سواحل اليونان وبلاد موره ولعدم وجود المراكب الكافية لصد هجمات سفن البنادقة الّتي كانت تعززها مراكب البابا ورهبنة مالطة احتلت جُيُوش البنادقة في سنة ١٦٨٦ اغلب مدن اليونان حتَّى كورنته وأثينا، أما النمسا فأغارت جُيُوشها عَلى بلاد المجر واحتلوا مدينة يست الواقعة أمام مدينة بود، وفي سنة ١٦٨٥ احتل النمساويون عدّة حصون وقلاع شهيرة أهمّها قلعة نوهزل، ووصلت الدّولة إلى درجة من التقهقر أمام هذه القوى المتألبة عليها صار معها الخلاص صعبا.

وتتابعت النكسات عَلى العُثمَانِيّين، فهاجت الجُيُوش الموجودة في الآستانة وأرسلوا الجُيُوش الباقية مع الصدر سليمان باشا فاشهروا عليه العصيان ولولا فراره إلى بلغراد لأعدموه، ثمّ أرسل الإنكِشَارِيّة والسباه(اسم فرق من الجُيُوش العُثمَانِيّة) وفدا للآستانة يطلب من السُّلطَان الأمر بقتل الصدر فلم ير بدا من ذلك وأمر بقتله تسكينا لثورة غضب الجند، ولما لم يفد شيئا ولم تعد السكينة بين الجُيُوش وخيف عَلى المملكة العُثمَانِيّة من الداخل، فقرر الوزير الثّاني القائم مقام قره مصطفى باتحاده

مع العُلَماء عزل السُّلطَان محمّد الرَّابع فعزلوه في سنة ١٦٨٧ م، بعد إن حكم أربعين سنة وخمسة اشهر وبقي في العزلة إلى أن توفي في ديسمبر سنة ١٦٩٢ م، وولوا بعد عزله أخاه.

(٢٠) - السُّلطَان الغازي سليمان خان الثّاني (١٦٨٧- ١٦٩١ م):

وهو ابن السُّلطَان ابراهيم تولى وكانت الآستانة فوضى، وانتهز الأَعدَاء هذه الإضطرابات المستمرة لفتح الحصون العُثمَانِيّة فاحتل النمساويون قلاع ارلو ولبا وغيرها واحتل موروزيني البندقي مدينة ليبه من بلاد اليونان وكافة سواحل دلماسيا سنة ١٦٨٧ وفي السنة التّالية أي سنة ١٦٨٨ سقطت مدائن سمندريه وقلومباز وبلغراد في أيدي النمساويين ثمّ فقدت الدّولة العُثمَانِيّة في سنة ١٦٨٩ مدائن نيش وودين من بلاد الصّرب.

ثمّ تمكن الصدر الأعظم كوبريلي مصطفى باشا من تحقيق انتظام الجيش وساد الأمن داخل البلاد وسار بنفسه لمحاربة الأَعدَاء فاسترد في قليل من الزَّمن مدائن نيش وودين وسمندريه وبلغراد في سنة ١٦٩٠ بينا كانَ سليم كراي خان القرم يخضع الثائرين الصّرب وتيكلي المجري يرجع اقليم ترنسلفانيا إلى أملاك الدّولة وبذلك أعاد كوبريلي مصطفى باشا بعض ما فقدته الدّولة من المجد والسؤدد بسبب ضعف الوزراء وعدم إطاعة الإنكِشَارِيّة، وفي يونيو سنة ١٦٩١ توفي السُّلطَان سليمان الثّاني عن غير عقب وعمره ٥٠ سنة بعد أن حكم ثلاث سَنَوات وثمانية اشهر وتولى بعده أخوه.

(٢١) - السُّلطَان الغازي احمد خان الثّاني (١٦٩١- ١٦٩٥م):

ولم تحصل أمور ذات بال في أيّام هذا السُّلطَان بل اقتصرت الحَرب عَلى بعض مناوشات ليس لها من الأهمّيّة شان يذكر غير أن البنادقة احتلت في سنة ١٦٩٤ جَزِيرَة ساقز، ثمّ توفي في فبراير سنة ١٦٩٥ وعمره ٥٤ سنة قمرية تقريبا بعد أن حكم ٤ سنين و٨ اشهر وتولى بعده السُّلطَان الغازي مصطفى خان الثّاني.

(٢٢) - السُّلطَان الغازي مصطفى خان الثّاني (١٦٩٥-١٧٠٣م):

ابن السُّلطَان محمّد الرَّابع، وكان متصفا بالشجاعة وثبات الجأش ولذلك أعلن بعد توليته بثلاثة أيّام رغبته في قيادة الجُيُوش بنفسه، فسار إلى بلاد بولونيا مستعينا بفرسان القوزاق وانتصر عَلى البولونيين عدّة مرات ومن جهة أُخرى حارب الرُّوس سنة ١٦٩٥ وبعد ذلك وفي سنة ١٦٩٦ فاز السُّلطَان فوزا مبينا عَلى جيش ساكس في موقعة اولاش وبعد ذلك هُزم جيش السُّلطَان أمام النمساويين، وكان ذلك في سِبتَمبر سنة ١٦٩٧، وفي إثناء اشتغال السُّلطَان ببلاد المجر، عاد الإمبراطور الرُّوسي بطرس الأكبر لفتح ميناء ازاق لأهميتها لمملكته فدخلها في خلال سنة فكانت الدّولة في خطر شديد من جهتي روسيا والنمسا، ثمّ ابتدأت الاتّصالات للوصول إلى الصُّلح فتدخل ملك فرنسا لويس الرَّابع عشر، وبعد مباحثات طويلة أمضيت بين الدّولة العُثمَانِيّة والنمسا وروسيا والبندقية وبولونيا معاهدة كارلوفتس في يناير سنة ١٦٩٩، فتركت الدّولة بلاد المجر باجمعها وإقليم ترنسلفانيا لدولة النمسا، وتنازلت عن مدينة ازاق وفرضتها لروسيا فصار لها بذلك يد عَلى البحر الأسود وزادت أهمية جوارها للدولة العُثمَانِيّة أضعاف ما كانت عليه من قبل وردت لمملكة بولونيا مدينة كمينك وإقليمي بود وليا وأوك روين وتنازلت للبندقية عن جَزِيرَة مورا وإقليم دلماسيا عَلى البحر الأدرياتيكي بأجمعه تقريبا واتفقت مع النمسا عَلى مهادنة خمس وعشرين سنة وان لا تدفع هيَ أو غيرها شيئا للدولة العُثمَانِيّة، لا عَلى سبيل الجزية ولا عَلى مجرد الهدية.

وبهذه المعاهدة فقدت الدّولة جزأ ليس بقليل من أملاكها بأوروبّا وزادت أطماع الدّول في بلادها كما سيأتي.

ويمكننا القول بان الاتفاق قد تمَّ من ذلك التّاريخ بين جميع الدّول الأوربية إن لم يكن صراحة فضمنا، عَلى الوقوف أمام تقدم الدّولة العُثمَانِيّة أولا، ثمّ تقسيم بلادها بينهم شيئا فشيئا، وهو ما يسمونه في عرف السّياسة بـ (المسالة الشرقية) المبنية عَلى الخوف من انتشار الدّين الإِسْلَاميّ وحلوله محل الدّين المسيحي ليس إلا.

أما ما كانوا يسترون خلفه غاياتهم من الدّفاع عن حقوق الأمم المسيحية الضعيفة الخاضعة للدولة فلم يكن إلا ذريعة .

ثمّ عين السُّلطَان رامي محمّد باشا، فسار في إبطال المفاسد ومعاقبة المرتشين ومنع المظالم فأهاج ضده أرباب الغايات وكثير عدادهم وأثاروا عليه الإنكِشَارِيّة لميلهم بالطبع إلى الهياج للسلب والنهب وهتك الأعراض، فطلبوا عزله من السُّلطَان فامتنع وأرسل لقمعهم فرقة من الجنود فانضمت إلى الثائرين وعزلوا السُّلطَان مصطفى الثّاني في أغسطس سنة ١٧٠٣ بعد أن حكم ٨ سَنَوات و٨ شهور وبقي معزولا إلى أن توفي وأقاموا مكانه بعد عزله أخاه.

(٢٣) - السُّلطَان الغازي أحمد خان الثّالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠م):

وهو ابن السُّلطَان محمّد الرَّابع، وفي تلك الآونة كانَ بطرس الأكبر ملك روسيا يعمل عَلى إضعاف الأقوياء من مجاوريه أي السويد، وبولونيا، والدّولة العُثْمَانِيّة، ولما تولى الصدارة (بلطه جي محمّد باشا) مال لإثارة الحَرب عَلى روسيا فأشهر عليها الحَرب وقاد الجُيُوش بنفسه وبعد مناورات مهمة حصرت الجُيُوش العُثْمَانِيّة البالغ قدرها مائتي ألف جندي قيصر روسيا وخليلته كاترينا، ولو استمر عليهم الحصار قليلا لربما كانَ أخذ أسيرا هو ومن معه وانمحت الدّولة الرُّوسية كلية من العالم السّياسيّ، لكن كاترينا استمالت بلطه جي محمّد باشا إليها، وأعطته كافّة ما كانَ معها من الجواهر الكريمة والمصوغات الثمينة، فخان الدّولة ورفع الحصار عن القيصر وجيشه مكتفيا بإمضاء القيصر لمعاهدة فلكزن في يوليه سنة ١٧١١ والّذي أخلى بمقتضاها مدينة ازاق وتعهد فيها بعدم التدخل في شؤون القوزاق مطلقا.

لكن لم تمض عَلى هذه المعاهدة بضعة أشهر حتَّى قامت الحَرب ثانية بين الدّولتين بسبب عدم قيام بطرس الأكبر بأحد شروط معاهدة فلكزن فتدخلت إنكلترا وهولندا في منع الحَرب لإضرارها بتجارتهما، وبعد مباحثات طويلة أمضيت بينهما معاهدة جديدة سميت بمعاهدة أدرنه في يونيو ١٧١٣

م، وتنازلت روسيا بمقتضاها عما لها من الأراضي عَلى البحر الأسود حتَّى لم يبق لها عليه موانئ أو ثغور.

وتتابعت المناوشات بين الدّولة العُثمَانِيّة والبنادقة، والنمسا وروسيا واضطرت الدّولة العُثمَانِيّة لقبول معاهدات جديدة كانت في صالح روسيا الّتي قوي حضورها في السّياسة الأوربية، ثمّ حصل صِرَاع بين روسيا والدّولة العُثمَانِيّة عَلى النفوذ في بلاد القفقاس وأرمينيا وبلاد الكرج وسواحل بحر الخزر الغربيّة، فكادت الحَرب تقوم بين الدّولة والرُّوس ولتحقق بطرس الأكبر من عدم اقتداره عَلى مُوَاجَهة الجُيُوش العُثمَانِيّة، طلب من سفير فرنسا بالآستانة أن يتوسط بينهما فقبل، ووفق بين الطّرفين بان يمتلك كلّ منهما ما احتله من البلاد وقبلت الدّولتان بذلك وأمضيتا بهذه الشُّرُوط معاهدة يونيو سنة ١٧٢٤، أما الفرس فلم يقبلوا هذا التقسيم المزري بشرفهم والقاضي بضياع جزء ليس بقليل من بلادهم وقاموا لمحاربة الأجانب، لكنهم لم يتمكنوا من صد هجمات العُثمَانِيّين الّذين فتحوا في سنة ١٧٢٥ عدّة مدن وقلاع أهمّها مدائن همذان وتبريز وساعد ذلك تسلط الفوضى في إيران وانتهت هذه الحَرب بالصُّلح مع الشّاه أشرف في أكتوبر سنة ١٧٢٧م، ولكن لما مات الشّاه اشرف وانفرد طهماسب بالملك طلب من الدّولة العلية أن ترد إليه كلّ ما أخذته من بلاد أجداده فلم تجبه الدّولة ولذا أغار عَلى بلادها، ولعدم ميل السُّلطَان إلى الحَرب ورغبته في الصُّلح ثار الإنكِشَارِيّة فأعلنوا إسقاطه سنة ١٧٣٠ م ونادوا بابن أخيه السُّلطَان محمود الأوّل خليفة للمسلمين فأذعن السُّلطَان احمد الثّالث وتنازل عن الملك بدون معارضة، وكانت مدّة حكمه ٢٧ سنة و١١ شهرا.

(٢٤) - السُّلطَان الغازي محمود خان الأوّل (١٧٣٠- ١٧٥٤م):

هو ابن السُّلطَان مصطفى الثّاني ولما تولى لم يكن له إلا الاسم فقط وكان النفوذ للصدر بطرونا خليل يولي من يشاء ويعزل من يشاء تبعا للأهواء والإغراض حتَّى عيل صبر السُّلطَان من استبداده وتجمهر حوله رؤساء الإنكِشَارِيّة لتعدي هذا الزعيم عَلى حقوقهم واتفقوا عَلى الغدر به تخلصا من

شره فقتلوه، وبعد أن استتب الأمن استأنفت الدّولة الحَرب مع مملكة الفرس وتغلبت الجُيُوش العُثمَانِيّة عَلى جنود الشّاه طهماسب في عدّة وقائع.

وفي غضون كانت الحُرُوب كثيرة بين الدّول الأوربية نفسها، وكذلك قامت الحَرب بين الدّولة وروسيا بسبب مملكة بولونيا، فأعلنت روسيا والنمسا الحَرب عَلى بولونيا، ومن جهة أُخرى أشهرت فرنسا الحَرب عَلى النمسا دفاعا عن بولونيا، **وسعت لدى البَاب العالي بواسطة المسيو دي بونفال الّذي خدم الدّولة بعد أن اسلم واشتهر فيها باسم احمد باشا قائد الطوبجية لاستمالته للدفاع عن استقلال بولونيا الحاجز الحصين بينها وبين روسيا**، وتغلبت روسيا واحتلت جنودها مملكة بولونيا، ولما أحست النمسا أن فرنسا تسعى وراء التَّحالف مع الدّولة، خشيت من حصول هذا الاتفاق الّذي يكون نتيجته عدم نجاح مسعاها مع روسيا في بولونيا، أسرعت في إرضاء فرنسا فأبرمت معها معاهدة فيينا في سنة ١٧٣٥، وأخذت في التأهب والاستعداد للاشتراك مع روسيا في محاربة الدّولة، وأوعزت إلى روسيا بافتتاح القِتَال فاتخذت هذه الأخيرة مرور بعض قوزاق القرم من أراضيها في مارس سنة ١٧٣٦ متجهين إلى بلاد الكرج لمساعدة الدّولة ضدّ العجم حجة لإعلان الحَرب، وأغارت بكل قواها عَلى بلاد القرم واحتلت عددا من الثُّغُور البحرية، وهو ما حدا بالدّولة إلى إبرام الصُّلح مع نادر شاه لتتفرغ لصد هجمات الرُّوس، ولحسن حظ الدّولة كانَ قد تقلد منصب الصدارة رجل محنك اشتهر بحسن السّياسة وهو الحاج محمّد باشا، فلم يغفل طرفة عين عن جمع الجُيُوش وتجهيز المعدات حتَّى أمكنه في اقرب وقت إيقاف تقدم الرُّوس الّذين كانوا قد احتلوا إقليم البغدان ودخلوا عاصمة الإقليم، ومن جهة أُخرى انتصرت الجُيُوش العُثمَانِيّة عَلى جُيُوش النمسا الّتي أغارت عَلى بلاد البوسنة والصّرب والفلاخ فانتصر المُسلِمُون في الصّرب والجؤوا النمساويين إلى الجلاء عنها تاركين في كلّ موضع قدم جثث رجالهم وتقهقروا إلى ما وراء نهر الدانوب في سنة ١٧٣٧، واستمر الحال عَلى هذا المنوال من النّصر والفوز عَلى الأَعدَاء حتَّى طلبت النمسا الصُّلح بواسطة سفير فرنسا، فكان هذا الفوز الأخير اكبر مساعد للوصول إلى الصُّلح الّذي تمَّ بينهما وبين روسيا في سِبتَمبر سنة ١٧٣٩ م، عَلى أن تتنازل النمسا للدولة العُثمَانِيّة عن مدينة بلغراد وما أعطي لها من بلاد الصّرب والفلاخ بمقتضى معاهدة

بساروفتس، أما روسيا فتعهدت قيصرتها (حنه) بهدم قلاع ميناء آزاق وعدم تجديدها في المستقبل، وبعدم إنشاء سفن حربية أو تجاريَّة بالبحر الأسود أو ببحر آزاق، بل تكون تجارتها عَلى مراكب أجنبية وبان ترد للدولة كلّ ما فتحته من الأقاليم والبلدان وسميت هذه المعاهدة معاهدة بلغراد، وبذلك انتهت هذه الحَرب باسترداد جزء عظيم مما فقدته الدّولة من ممالكها بمقتضى معاهدة كارلوفتس.

وبعد ذلك بذل سفير فرنسا جهده في إقناع البَاب العالي بضرورة الاتحاد مع السويد لمحاربة روسيا لو تعدت عَلى إحداهما خوفا من أن يلحق بهما تباعا ما أودى ببولونيا وجعلها خاضعة فعلا لأوامر روسيا فاقتنعت الدّولة، وأبرمت مع السويد محالفة هجوم ودفاع ضدّ روسيا في سنة ١٧٤٠.

وفي هذه السنة تحصل سفير فرنسا عَلى تجديد الامتيازات القنصلية وكافة المزايا الممنوحة للتجار الفرنساويين وأمضى الطّرفان هذه المعاهد الجَدِيدة في سِبتَمبر سنة ١٧٤٠ وهي عبارة عن معاهدة سنة ١٦٧٣ مع بعض تسهيلات جديدة لفرنسا وتجارتها، وأرسل السُّلطَان سفيرا من طرفه اسمه سعيد ليقدم صورة المعاهدة إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر مع كثير من الهدايا الثمينة فقابله الملك بالاحتفاء والإكرام اللائق بمقام مرسله السامي.

وعند عودته شيعه بالتبجيل والإجلال وأرسل معه مركبين حربيين وجملة من المدفعية الفرنساويين هدية منه للخليفة الأعظم ليكونوا معلمين في الجُيُوش العُثمَانِيّة فيمرنوا الجنود المظفرة عَلى النظم الجَدِيدة الّتي ادخلها لوفوا الشهير في الجُيُوش الفرنساوية، وكان هذا من بدايات البلاء الّذي تتابع فيما بعد، بتولي ضباط ألمان في نهايات الدّولة تدريب الجيش، مما مكن المدربين الأجانب من فرنسيين وألمان، من دس أفكار الثَّورة والتمرد عَلى الخِلافَة، وزرع الأفكار القوميّة، والتَّنظِيمات الماسونية في الجيش العُثمَانِيّ فيما بعد.

وبعد ذلك بقليل توفي شارل السَّادس إمبراطور النمسا في ٢٠ من شهر أكتوبر سنة ١٧٤٠ وتولت بعده ابنته ماريه تيريزه فاتحدت فرنسا مع بعض الدّول عَلى محاربة هذه الملكة واقتسام أملاكها لما بين فرنسا والعائلة الحاكمة في النمسا من الضغائن القديمة، وسعي فرنسا دائما في إذلال النمسا وهدم أركان سلطانها، وبسبب موت هذا الملك حصلت الحَرب الشهيرة بين فرنسا والنمسا المعروفة

في التّاريخ بـ (حرب ارث ملك النمسا)، الّتي استمرت عدّة سنين وانتهت بفوز ماريه تريزه عَلى فرنسا، ولما ابتدأت هذه الحَرب أظهرت فرنسا للدولة العلية بواسطة سفيرها لدى البَاب العالي ما يعود عليها من الفوائد لو اتحدت معها عَلى محاربة النمسا، وعرضت عليها احتلال بلاد المجر واسترجاعها إلى أملاكها بحيث ترجع الدّولة إلى ما كانت عليه من الاتساع أيّام سليمان الأوّل القانُونيّ ويمكنها بعد ذلك مقاومة روسيا والوقوف في طريق تقدمها، وأبانت لها أنها إن لم تفعل ذلك تقدمت روسيا شيئا فشيئا وقويت شوكتها تدريجيا حتَّى يخشى منها عَلى وجود الدّولة، وقد أثبتت الأحداث لاحقا أن هذه الملاحظات كانت صحيحة، ولو أنها صادرة من فرنسا طمعا في نوال غايتها وهي إذلال النمسا.

وفي ديسمبر سنة ١٧٥٤ توفي السُّلطَان محمود الأوّل بالغا من العمر ستين سنة، وكانت مدّة حكمه ٢٥ سنة وفي أيّامه اتسع نطاق الدّولة بآسيا وأوروبّا.

(٢٥) - السُّلطَان الغازي عثمان خان الثّاني (١٧٥٤-١٧٥٧ م):

وبعد أن تقلد السّيف في جامع أبي أيوب الأنصاري عَلى حسب العادة القديمة، عين في منصب الصدارة العظمى نشانجي علي باشا بدل محمّد سعيد باشا الّذي سبق تعيينه صدرا بعد عودته من مأموريته في فرنسا، فسار في طريق غير حميد حتَّى أهاج ضده الأهالي اجمع، ولكون السُّلطَان كانَ من عادته المرور ليلا في الشَّوارع والأزقة متنكرا لتفقد أحوال الرعية والوقوف عَلى حقيقة أحوالهم، سمع إثناء تجواله بما يرتكبه وزيره من أنواع المظالم والمغارم وبعد أن تحقق ما نسب إليه بنفسه أمر بقتله جزاء له وبوضع رأسه في صحن من الفضة عَلى باب السراي عبرة لغيره.

ثمّ توفي السُّلطَان عثمان الثّالث في أكتوبر سنة ١٧٥٧ بدون أن يحصل في أيّام حكمه القلائل ما يستحق الذكر وكانت مدّة حكمه ٣ سنين و١١ شهر وخلفه مصطفى الثّالث.

(٢٦) - السُّلطَان الغازي مصطفى خان الثّالث (١٧٥٧-١٧٧٤م):

وهو ابن السُّلطَان احمد الثّالث وكان ميالا للإصلاح محبا لتقدم بلاده خُصُوصَاً وزيره الأوّل راغب باشا الّذي مر ذكره، فاخذ هذا الوزير في إصلاح بعض الشؤون بمساعدة السُّلطَان وتعضيده

له، وبعد موت هذا الوزير الجليل نشبت الحَرب بين الدّولة العُثْمَانِيّة وروسيا، وكانت روسيا قد تبنت توجها إمبراطوريا منذُ عهد قيصرها بطرس الكبر، ووضعت برنامجا توسعيا طموحا نحو الشّرق والغرب والجنوب.

- **ومن المفيد في هذا المقام أن نأتي بنصوص من وصية قيصر روسيا، وهي منقولة بحروفها من الجزء الأوّل من تاريخ جودت باشا، وتعطينا فكرتين هامتين:**

*** الأولى عن الصِّرَاع بين القوى الأوربية في القرن السَّابع عشر والثَّامن عشر.**

*** والثّانية عن الأطماع الرُّوسية الّتي لم تتبدل بعد القياصرة، وما زالت إلى اليَوْم.**

الإمبراطورية العثمانية في أوجها

٩٢٠ - ١٢١٤ هـ ـ ١٥١٤ - ١٧٩٩م



اتسعت الدولة العثمانية بعد انتصارات سليم الأول على الصفويين والمماليك حتى وصلت إلى أقصى اتساع لها.

وصية قيصر روسيا بطرس الأكبر لخلفائه:

[* **البند الأوّل:** يجب أن تقاد العساكر دائما إلى الحَرب، وينبغي للأمة الرُّوسية أن تكون متمادية عَلى حالة الكفاح لتألف الحَرب، وعلى هذه الصُّورة ينبغي لروسيا أن تتخذ زمن الصُّلح والأمان وسيلة قوية للحرب، وكذلك زمن الحَرب لأيّام السلم، وذلك لأجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها.

* **البند الثّاني:** في وقت الحَرب ينبغي اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط للجنود من بين الملل والأقوام الّذين هم أكثر تطورا في أوروبّا، وكذلك في زمن الصُّلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضا، ويلزم الاعتناء بما يجعل الأُمّة الرُّوسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحاسنها.

* **البند الثّالث:** عندما تسنح الفرصة ينبغي التدخل في جميع الأمور والمصالح الجارية في أوروبّا وفي اختلافاتها ومنازعتها، وعلى الخصوص في نزاعات ممالك ألمانيا.

* **البند الرَّابع:** ينبغي استعمال الرشوة لأجل إلقاء الفساد والبغضاء والحسد دائما في داخليَّة ممالك بولونيا وتفريق كلمتهم، واستمالة أعيان الأُمّة ببذل المال واكتساب النفوذ في مجلس الحكومة، حتَّى نتمكن من التدخل في انتخاب الملك وبعد الحصول عَلى انتخاب من هو من حزب روسيا من تلك الأُمّة، ينبغي حينئذ دخول عساكر روسيا إلى داخل البلاد لأجل حمايتهم والتعصب لهم بإقامة العساكر المذكورة مدّة طويلة هناك، إلى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الإقامة، وعندما تظهر مخالفة في ذلك من طرف الدّول المجاورة فلأجل إخماد نار الفتنة مؤقتا ينبغي أن نقاسم المخالفين في ممالك بولونيا، ثمّ نترقب الفرص لاسترجاع الحصص الّتي تكون قد أعطيت لهم.

* **البند الخامس:** ينبغي الاستيلاء عَلى بعض الجهات من ممالك اسوج بقدر الإمكان ثمّ نسعى في اغتنام وسيلة لاستكمال الباقي منها، ولا نتوصل إلى ذلك إلا بوجه تضطر فيه تلك الدّولة إلى أن تعلن الحَرب عَلى دولة روسيا وتهاجمها، والّذي يلزم أولاًهو أن نصرف المساعي والهمة لإلقاء الفساد والنفرة دائما بين اسوج والدانمرك بحيث ان يكون الاختلاف والترقب بينهم دائمين باقيين.

* **البند السَّادس:** يجب عَلى الأسرة الإمبراطورية الرُّوسية أن يتزوجوا دائما من بنات العائلة الملكية الألمانية، وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشتراكهم في المنافع، إذ بهده الصُّورة يمكن إجراء نفوذهم في داخل ألمانيا وبهذا يربطون أيضا الممالك المذكورة لصالح منافعنا ومصالحنا.

* **البند السَّابع:** إن دولة إنكلترا هيَ الدّولة الأكثر احتياجا إلينا في أمورها البحرية ولهذه الدّولة فائدة عظيمة جدا لزيادة قوتنا البحرية، فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها في أمر التجارة عَلى سائر الدّول، وبيع محاصيل ممالكنا كالأخشاب وسائر الأشياء إلى إنكلترا وجلب الذهب من عندهم إلى ممالكنا، واستكمال أسباب الروابط والمناسبات بين تجار وملاحي الطّرفين، فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن في ممالكنا.

* **البند الثَّامن:** عَلى الرُّوسيين أن ينتشروا يوما فيوما شمالا في سواحل بحر البلطيق وجنوبا في سواحل البحر الأسود.

* **البند التّاسع:** ينبغي التقرب بقدر الإمكان من استانبول والهند، **وحيث انه من القضايا المسلمة أن من يحكم عَلى استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم عَلى الدُّنيَا بأسرها،** فلذلك من اللازم إحداث الحُرُوب المتتابعة تارة مع الدّولة العُثمَانِيّة وتارة مع الدّولة الإيرانية، وينبغي ضبط البحر الأسود شيئا فشيئا وذلك لأجل إنشاء دار صناعات بحرية فيه، والاستيلاء عَلى بحر البلطيق أيضا، لأنها هم موقع لحصول المقصود، وللتعجيل بضعف بل بزوال دولة **إيران لنتمكن من الوصول إلى خليج البصرة، وربما نتمكن من إعادة تجارة الممالك الشرقية القديمة إلى بلاد الشّام،** والوصول منها إلى بلاد الهند، **الّتي هيَ بمثابة مخزن للدنيا،** وبهذه الوسيلة نستغني عن ذهب إنكلترا.

* **البند العاشر:** ينبغي الاهتمام بالحصول عَلى الاتفاق والاتحاد مع دولة اوستريا (النمسا)، والمحافظة عَلى ذلك ومن اللازم التظاهر بقبول أفكار الدّولة المشار إليها من جهة ما تطمع إليه من النفوذ في المستقبل في بلاد ألمانيا، وإما باطنا فينبغي لنا أن نسعى في تحريك حسد وعداوة سائر حُكَّام ألمانيا لها، وتحريك كلّ منهم لطلب الاستعانة والاستمداد من دولة روسيا ضدها، ومن اللازم إجراء نوع حماية للدول المذكورة بصورة يتسنى لنا فيها الحكم عَلى تلك الدّول في المستقبل.

* **البند الحادي عشر**: ينبغي تحريض العائلة المالكة في اوستريا عَلى طرد الأتراك وإبعادهم من قطعة الرُّوملي (الأراضي العُثمَانِيّة عَلى سواحل غرب بحر مرمرة) **وحينما نستولي عَلى استانبول،** علينا أن نسلط دول أوروبّا القديمة عَلى دولة اوستريا حربا، أو نسكن حسدها ومراقبتها لنا بإعطائها حصة صغيرة من الأماكن الّتي نكون قد أخذناها من قبل، وبعده نسعى بنزع هذه الحصة من يدها.

* **البند الثّاني عشر: ينبغي أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الّذين هم من مذهب الرُّوم المُنكرين رياسة البابا الروحية والمنتشرين في بلاد المجر والممالك العُثمَانِيّة في جنوبي ممالك بولونيا (أتباع المذهب الأرثوذوكسي) ونجعلهم يتخذون من دولة روسيا مرجعا ومعينا لهم، ومن اللازم قبل كلّ شيء إحداث رياسة مذهبية حتَّى نتمكن من إجراء نوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم،** فنسعى بهذه الواسطة لاكتساب أصدقاء كثيرين ذوي غيرة نستعين بهم في ولاية كلّ من أعدائنا.

* **البند الثّالث عشر**: حينما يصبح الاسوجيون متشتتين، والإيرانيون مغلوبين، والبولونيون محكومين والممالك العُثمَانِيّة مضبوطة، أيضا حينئذ نجمع معسكراتنا في محل واحد مع المحافظة عَلى البحر الأسود وبحر البلطيق بقوتنا البحرية، وعند ذلك نظهر أولاًلدولة فرنسا كيفِيَّة مقاسمة حُكُومَات الدُّنيَا بأسرها بيننا ثمّ لدولة اوستريا، ويعرض ذلك عَلى كلّ من الدّولتين المشار إليهما كلّ منهما عَلى حدة بصورة خفية جدا لقبول ذلك وحيث انه لا بُدَّ من أن تقبل إحداهما، فعند ذلك ينبغي مداراة واحترام كلّ منهما، وأن نجعل من كانَ منهما قابلا بما عرضناه عليهما واسطة للتنكيل بالأخرى، وتكون روسيا حينئذ قد ضبطت جميع الممالك الشرقية، عند ذلك يسهل علينا أن نقهر وننكل فيما بعد أية دولة بقيت في الميدان من الدّولتين المذكورتين.

* **البند الرَّابع عشر**: عَلى فرض المحال أن كلا من الدّولتين المشار إليهما لم تقبل بما عرضته عليهما روسيا، فينبغي حينئذ لروسيا أن تنصرف لمراقبة ما يحدث من النزاع والخلاف بينهما، فإذا وقع ذلك فلا بُدَّ أن يحصل تعب للطرفين، وفي ذلك الوقت يجب عَلى روسيا أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالا عسكرها المجتمعين أولاًبأول عَلى ألمانيا، فتهجم في تلك الجهات، ثمّ تخرج أسطولين من السفن أحدهما من بحر ازاق حيث يحتشد عساكرنا، من أقوام الأناضول المتنوعة، والثّاني من ليمان خليج

ارخانكل الكائنة في البحر المتجمد الشمالي، فتسير هذه السفن وتمر في البحر الأبيض والبحر المحيط الشمالي مع الأسطول المرتب في البحر الأسود وبحر البلطيق، وتهجم عَلى سواحل فرنسا، وأما ألمانيا فانها تكون إذ ذاك مشغولة بحالها، وبما ذكرناه تصبح المملكتان المذكورتان مغلوبتين، فالقطعة الّتي تبقى من أوروبّا تدخل تحت الانقياد بسهولة وبدون محاربة وتصير جميع قطعة أوروبّا قابلة للفتح والتسخير.]اهـ.

******

وبعد اشتعال المعارك بين الرُّوس والعُثمَانِيّين، وفي يونيو سنة ١٧٧٢ م تهادن الفريقان بناء عَلى توسط النمسا ثمّ طلب مندوب كاترينه الاعتراف باستقلال تتار القرم وحرية الملاحة لسفن روسيا التجاريَّة في البحر الأسود وجميع بحار الدّولة العُثمَانِيّة، ولما لم تقبل الدّولة هذه الشُّرُوط انفض الجمع عَلى غير جدوى ثمّ مدت المهادنة سبعة اشهر واجتمع المؤتمر ثانية وطلبت كاترينه بلسان مندوبها طلبات أكثر إجحافا بحقوق الدّولة وأرسلت بها بلاغا نهَائِيّاً ١٥ نوفمبر سنة ١٧٧٣ وكان من تلك الشُّرُوط:

(سابعا: أن يكون لروسيا حق حماية جميع المسيحيين الأرثوذكسيين في بلاد الدّولة العُثمَانِيّة...)

ويظهر للمطلع عَلى تلك الشُّرُوط أن كاترينه ما كانت تظن قبول الدّولة لها بل جعلتها طريقة لاستمرار الحَرب، ولذلك رفضتها الدّولة العُثمَانِيّة، وأصدرت أوامرها للجُيُوش باستئناف القِتَال بكل شدة خُصُوصَاً في بلاد الطونه فانهزم الرُّوس عدّة هزائم.

ثمّ توفي السُّلطَان مصطفى الثّالث في يناير سنة ١٧٧٤ وبلغت مدّة حكمه ست عشرة سنة وثمانية شهور وذكر أنه كانَ عادلا محبا للخير وله عدّة مآثر خيرية كالمدارس والتكايا.

(٢٧) - السُّلطَان الغازي عبد الحميد خان الأوّل (١٧٧٤- ١٧٨٩ م):

وهو ابن السُّلطَان احمد الثّالث، وكان قد قضى مدّة حكم أخيه مصطفى الثّالث محجوزا في سرايته كما جرت به العادة.

وفي أول عهده كانت روسيا تستعد استعدادا هائلا لرد ما فقدته من الاسم والشرف في أواخر أيّام مصطفى الثّالث، ولم يأت شهر يونيو سنة ١٧٧٤ إلا وزحفت جُيُوشها إلى مُعَسْكَر الصدر الأعظم، وبعد عدّة انتصارات طلب الصدر من رومانزوف المهادنة وتوقيف القِتَال، وأرسل إليه مندوبين للاتفاق عَلَى عقد الصُّلح وقبول الشُّرُوط الّتي رفضتها الدّولة عند اجتماع مؤتمر بوخارست، وبعد محادثات طويلة بين الطّرفين قبل الصدر **المعاهدة الّتي تمَّ الاتفاق عليها في يوليو سنة ١٧٧٤** وهي مكونة من ثمانية وعشرين بندا، **وتعتبر بداية الدلائل عَلَى انهيار الدّولة العُثْمَانِيّة:**

أهمّها استقلال تتار القرم وبسارابيا وقوبان – مع حفظ سيادة الدّولة العُثْمَانِيّة عليهم فيما يتعلق بالأمور الدّينيّة – وتسليم كافّة البلاد والأقاليم الّتي احتلتها روسيا إلى خان القرم ما عدا قلعتي كريش ويكي قلعه، ورد ما أخذ من أملاك الدّولة في الفلاخ والبغدان وبلاد الكرج ومُنكريل وجزائر الرُّوم ما عدا بعض المناطق- وأن يعطى إلى إمبراطور روسيا لقب بادي شاه في المعاهدات والمحررات الرَّسميَّة – وأن يكون للمراكب الرُّوسية حرية الملاحة في البحر الأسود والبحر المتوسط.

وأن تبني روسيا كنيسة بقسم بيرا بالآستانة ويكون لها حق حماية جميع المسيحيين التَّابعين للمذهب الأرثوذكسي من رعايا الدّولة – وأن تكون كافّة المعاهدات السَّابقة لاغية ... وغير ذلك.

ومن الغريب أنه لم يذكر شيء فيها عن مملكة بولونيا وهي سبب هذه الحَرب الّتي عادت عَلَى الدّولة بأوخم العواقب.

وأضيف إلى هذه المعاهدة بندان سريان جاء في أحدهما أن الدّولة تدفع إلى روسيا مبلغ خمسة عشر ألف كيس بصفة غرامة حربية عَلَى ثلاثة أقساط متساوية في أول يناير سنة ١٧٧٥ وسنة ١٧٧٦ وسنة ١٧٧٧ ميلادية، وفي الثّاني أنها تقدم لروسيا المساعدات المقتضية للجلاء عما احتلته من جزائر الرُّوم وسحب أسطولها منها.

وكانت هذه أول مرّة تدفع فيه الدّولة العُثمَانِيّة الجزية لدولة أُخرى!!!

ومن المفيد الإطلاع عَلى بعض البنود من نص تلك المعاهدة الّتي دعيت (معاهدة قينا رجه) نقلا عن ترجمة الجزء الأوّل من تاريخ جودت باشا:

* **المادّة الأولى:** كلّ ما سبق وقوعه بين الدّولة العُثمَانِيّة ودولة روسيا من عداوة ومخاصمة قد محي وأزيل من الآن وإلى الأبد، وكل الأضرار والتّعدّيات الّتي صار الشُّروع في استعمالها وإجرائها من الطّرفين بالآلات الحَربية وبغيرها صارت نسياً منسيّاً إلى الأبد، ولا يجري بعد الآن ولا في وقت ما انتقام، بل صار الصُّلح براً وبحراً عوضاً عن العدوان بوجه لا يعتريه التّغير، بل يُراعى ويُصان من طرف الهمايوني ومن طرف خلفائي الأماجد، وكذلك يُحفظ ويُصان ما جرى تمهيده مع ملكة رُوسيا المُشار إليها وحلفائها من **الاتّفاق والموالاة الصّافية المؤبّدة والسّالمة من التَّغيير**، وتستمر هذه المواد جارية ومعتبرة بكمال الدّقة والاهتمام وتكون قضية الموالاة مرعية بهذه الصُّورة بين الدّولتين وفي أملاكهما وبين رعايا الطّرفين بحيث لا تقع فيما بعد ضديّة بين الفريقين لا سرّاً ولا جهراً ولا نوع من أنواع البغضاء والأضرار.

* **ومما جاء في المادّة الثّامنة: تعطى الرخصة التّامّة لرهبان دولة روسيا ولسائر رعاياها بزيارة القُدس الشريف وسائر الأماكن الّتي تستحق الزيارة ولا يتكلف المسافرون ولا السائحون لدفع نوع من أنواع الجزية والخراج و(الويركو) أصلا، ولا يطلب ذلك منهم إثناء الطّريق لا في القُدس الشريف ولا في سائر ألاماكن، وتعطى لهم الفرمانات بالوجه اللائق مع أوامر الطّريق الّتي تعطى إلى رعايا سائر الدّول، والّذين يقيمون منهم في أراضي دولتي العلية لا يمكن أن يحصل لهم تعرض ومداخلة بوجه من الوجوه، بل تصير حمايتهم وصيانتهم تماما بمقتضى قوة أحكام الشّريعة.**

* **وجاء في المادّة الرّابعة عشرة: يجوز لدولة روسيا أن تبنى كنيسة عَلى الطّريق العام في محلة بك أو غلي في جهة غلطة غير الكنيسة المخصوصة قياسا علي سائر الدّول، هذه الكنيسة هيَ كنيسة العوام وتسمى كنيسة دوسوغرنه وتكون تحت صيانة سفير دولة روسيا إلى الأبد وتكون أمينة من كلّ تعرض.**

* **وجاء في المادّة السّادسة عشرة:**

- ثانياً: الديانة المسيحية تكون من كلّ الوجوه حرة كالأول ولا يحصل ممانعة لإجرائها قط ولا يمنع إحداث كنائس جديدة ولا ترميم الكنائس القديمة.

- ثالثاً: الأراضي والأملاك الموجودة ضمن دائرة ابرائل وخوتين وفي سائر المواضع المأخوذة بغير حق المتعلقة من القديم بالأديرة وبسائر الأشخاص فهذه جميعا ترد للمرسومين المعبر عنهم الآن بالرعايا.

- رابعاً: يكون لجماعة الرهبان الاعتبار بما يناسبهم من الامتياز.

- ثامناً: بعد انقضاء هذه المهلة تتعهد دولتنا العلية بمعاملتهم بالمروءة الكلية في أمر تعيين الجزية وتحافظ عَلى سخائها الجليل عَلى قدر الإمكان ويصير تأدية جزيتهم بواسطة مبعوثيهم مرّة في كلّ سنتين وبعد أداء هذه الجزية بتمامها فلا يتعرض لهم احد أصلا كائنا من كانَ من باشا أو حاكم ولا يطالبون بشيء ما من اقتراحات الضرائب بأي اسم كانت، بل يكونون متمتعين بالامتيازات الّتي تمتعوا بها في الزَّمن السَّعيد أيّام سلطنة جدي الأمجد السُّلطَان محمّد خان الرَّابع.

- تاسعاً: يرخص لأمراء هذه الحُكُومَات أن يقيم من طرفه وكيلا لدى دولتي العلية باسم مصلحتك دار ويكون هَؤُلَاءِ الوكلاء نصارى من ملة الرُّوم بدلا عن (القبوكتخدايات) الّذين كانوا يتعاطون رؤية أمور الملك وتجري في حقهم من جانب دولتي العلية المعاملة بكمال المروءة وينالون ما يستحقونه بحسب قواعد الملل أي أنهم يكونون معتبرين ومن كلّ تعرض آمنين ومصانين.

- عاشراً: تعطى الرخصة وتحصل الموافقة من جانب لدولة العلية إلى سفراء إمبراطورية روسيا بان يتذاكروا عند الاقتضاء فيما يتعلق بصيانة ومساعدة الحكومتين المذكورتين وتتعهد الدّولة العلية برعاية ما يعرضه سفراء روسيا من المواد بحسب اعتبار الصداقة اللائقة بالدّولتين.

*** وجاء في المادّة العشرون:**

بحسب مفهوم السندات الّتي عقدت بين الحاكم توليستوي وبين حسن باشا محافظ آجو بتاريخ سنة ١٧٠٠ ميلادية وسنة ١١٠٠ هجرية خصصت قلعة آزاق بحدودها الأولى إلى دولة روسيا للأبد.

*** وجاء في المادّة الثّالثة والعشرون:**

... ودولتي العلية تتعهد أيضا بحسب مضمون المادّة السَّابقة بان تشمل بالعفو جميع الّذين صدرت منهم حركات ضدّ دولتي العلية في أثناء امتداد المحاربة وأن تكف يدها إلي الأبد عن اخذ الويركو عن الصبيان والبنات وعن طلب أي نوع كانَ من الجزية وانه ما عدا الّذين لهم تعلق بها من القديم لا تدعي علي فرد واحد من الطوائف المذكورة بكونه من رعاياها وأنها تترك مرّة أُخرى جميع الأراضي وسائر الاستحكامات الّتي ضبطها الكرجيون والمكريون لحكومتهم ولمحافظتهم المطلقة وأنها لا تتعرض ولا تجري تضييقا عَلى أديرة وكنائس الديانة بوجه ما ولا تمنع ترميم القديم ولا بناء الجَدِيد منها وبأن تمنع باشا جلدر وجميع رؤساء الجُيُوش والضُّبَّاط من التعرض بأي داع كانَ لأموال الأديرة والكنائس المذكورة وإضاعتها ولا تتعرض دولة روسيا للطوائف المذكورة ولا تتدخل في أمورهم لأنَّهم من رعايا دولتي العلية.

* **وجاء في المادّة الخمسة والعشرون:** جميع أسرى الحَرب من ذكور وإناث من أي درجة ورتبة كانوا يسرحون ويردون الى أوطانهم ماعدا المسيحيين الّذين دخلوا في الدّين المحمّدي بإرادتهم في دولتي العلية والمُسلِمين الّذين تنصروا بإرادتهم في أثناء وجودهم في أراضي روسيا وهكذا كله بعد مبادلة التّصَدّيق عَلى صكوك هذه العهدة المباركة حالا بلا عذر أصلا وبلا عوض وبغير فدية، وكذلك جميع المسيحيين الّذين وقعوا في الاسترقاق من بولونيين وبغدانيين وافلاقيين ومن أهالي الموره والجَزَائِر والكرجيين كافّة بلا استثناء يعتقون بلا ثمن وبغير عوض وكذلك الّذين استرقوا من رعايا روسيا ووجدوا في ممالكي المحروسة يصير تسليمهم وردهم إلى مواطنهم وذلك بعد انعقاد المصالحة المباركة وكذلك تجري هذه الأمور أيضا بهذه الصُّورة عينها في حق رعايا دولتي العلية.

* **وجاء في المادّة الثَّامنة والعشرون:**

... وبما أن الصدر الأعظم وفلدمار شال دولة روسيا بتروقونت رومان جوف قد فوض إليهما من طرفي الهمايوني ومن طرف إمبراطورية روسيا المشار إليها أمر تمهيد عقود وعهود عهدة الصُّلح المباركة المنعقدة فجميع مواد الصُّلح المؤبد المسطر في العهدة المذكورة يصير إمضاؤها من طرف الصدر الأعظم وفلد مارشال وختمها بأختامها للتصديق كما لو كانت جرت بحضورهما والمواد المنعقدة الّتي

تمهدت وصار الوعد بها تراعى مراعاة قوية بدون تغيير ولا تبديل وتجري بالدقة بحسب منطوقها ولا يفعل شيء مخالف لها قطعيا ويحرر في المواد المذكورة الّتي تقررت وجرى التّصدّيق عليها من طرف الصدر الأعظم والفلد مارشال المشار إليهما سندان ممضيان بامضائهما ومختومان بخاتميهما....

* وجاء في الخاتمة:

إن ما جري تحديده وتمهيده بحسب المواد المذكورة من الصُّلح والصلاح المبطل للحرب والكفاح يكون مقررا ومعتبرا من بعد الآن، وكذلك شرط المادتين المحررتين.

ذكر مادتان في خاتمة العهدة:

** إحداهما تتضمن المصاريف الحَربية وذلك لأنالدّولة العُثمَانِيّة كانت تعهدت بتأدية خمسة عشر ألف كيس لروسيا في مدّة ثلاث سنين يدفع منها في كلّ سنة قسط وهو خمسة آلاف كيس.

** والمادّة الثّانية سرعة تخلية جزائر البحر الأبيض تأييدا لما هو مذكور في المادّة السَّابعة عشرة من العهدة المذكورة وأسطول روسيا الموجود في البحر الأبيض وان كانَ مشترطا في المادّة المذكورة انه يخرج في مدّة ثلاثة اشهر فدولة روسيا قد تعهدت بإخراجه قبل المدة المذكورة إذا أمكن. انتهى!!!

وبذلك انتهت هذه الحَرب ونالت روسيا أقوى أمانيها بعد إذلال مملكة اسوج ومحوها من العالم السّياسيّ تقريبا بحصرها ضمن حدودها الطبيعيّة، وهي طمس آثار مملكة بولونيا من الوجود كلية تقريبا وتجزئة معظمها بينها وبين النمسا وبروسيا بمقتضى معاهدة بين روسيا وبروسيا في ٧ فبراير سنة ١٧٧٢ وقبلتها النمسا في ابريل وأعلنت لملك بولونيا في ١٨ سِبتَمبر سنة ١٧٧٢ وبذلك سقط الحاجزان الأولان من الحواجز الثّلاثة الحائلة بين تقدم روسيا من جهة أوروبّا وأمكنها أن توجه كلّ قواها لمُكَافحَة الدّولة العُثمَانِيّة.

استيلاء روسيا عَلى بلاد القرم:

أما روسيا فأخذت تبث رجالها في بلاد القرم لإيجاد المشاغبات الداخليَّة بها وبالتالي لابتلاعها وضمها الى أملاكها، وما زالت مستمرة في إلقاء الدسائس ونشر الفتن بين الأهالي حتَّى عزلوا أميرهم دولت كراي الّذي انتخبه الأهالي بمقتضى نصوص معاهدة قينا رجه واحتلت روسيا تلك البلاد بسبعين ألف جندي كانوا منتظرين عَلى الحدود لهذه الغاية فتم لها مقصدها الّذي كانت تسعى وراءه من مدّة وهو امتلاك كافّة سواحل البحر الأسود الشمالية في غضون سنة ١٧٧٣ فهاجت الدّولة وأرادت إشهار الحَرب عَلى روسيا، لكن حولت أنظارها ثانياً عن الحَرب بمساعي فرنسا لعدم استعداد الدّولة وقدرتها في ذاك الوقت عَلى مقاومة روسيا فبلت مشورة فرنسا والاعتراف بضم القرم لروسيا واعترفت بذلك في سنة ١٧٧٤ م، لكن لم يكن قصد روسيا ومساعديها إلا انتشاب القِتَال، وأرسلوا جواسيسهم إلى بلاد اليونان وولايتي الفلاخ من البغدان لتهييج المسيحيين عَلى الدّولة، وفي سنة ١٧٨٧ م ساحت كاترينه في البلاد الجنوبية وبلاد القرم بأبهة واحتفال زائد وأقام لها القائد بوتمكين أقواس نصر كتب عليها: (طريق بيزنطة) فعلمت الدّولة من كلّ هذه الأحوال أنها تقصد محاربتها ثانيا، ولذلك أرادت هيَ المبادرة بإعلان الحَرب قبل تمام استعداد أعدائها، وفي هذه الأثناء كانت النمسا أعلنت الحَرب عَلى الدّولة مساعدة لروسيا، وحاول إمبراطورها يوسف الثّاني الاستيلاء عَلى مدينة بلغراد فعاد بالخيبة إلى مدينة تمسوار حيث اقتفى أثره الجيش العُثْمَانِيّ وانتصر عليه نصرا مبينا، ثمّ بعد ذلك بقليل توفي السُّلطَان عبد الحميد الأوّل في ١٢ رجب سنة ١٢٠٣ هـ ٨ ابريل سنة ١٧٨٩ بالغا من العمر ٦٦ سنة ومدة حكمه ١٥ سنة وثمانية شهور وتولى بعده سليم الثّالث.

****

(٢٨) - السُّلطَان الغازي سليم خان الثّالث (١٧٨٩-١٨٠٧م):

وهو ابن السُّلطَان مصطفى الثّالث، تولى وجو السّياسة مكفهر، ورحى الحَرب دائرة فبذل جهده في تقوية الجُيُوش وإرسال المؤن والذخائر، لكن اليأس كانَ قد استولى عَلى الجنود وغادر كثير منهم

مراكزهم، وفي هذه السنة اتحد القائد الرُّوسي مع قائد الجُيُوش النمساوية في الأعمال الحَربية وضما جُيُوشهما لبعضهما فاستظهرا عَلى العُثْمَانِيّين في سِبتَمبر سنة ١٧٨٩ م استولى الرُّوس عَلى مدينة بندر الحصينة واحتلوا معظم بلاد الفلاخ والبغدان وبسارابيا ودخل النمساويون مدينة بلغراد وفتحوا بلاد الصّرب، فكانت الدّولة في خطر عظيم، ولو استمر اتحاد النمسا وروسيا لفقدت اغلب أملاكها لكن من حسن حظها توفي الإمبراطور يوسف سنة ١٧٩٠ م وخلفه ليوبولد الثّاني فشغلته الثَّورة الفرنسية الّتي قامت عَلى الملك لويس السَّادس عشر خوفا من امتداد لهبها، وسعت النمسا في مصالحة الدّولة العُثْمَانِيّة وردت إليها النمسا بلاد الصّرب ومدينة بلغراد وجميع فتوحاتها تقريبا.

إلا أن روسيا لم تتبع النمسا حليفتها في طريق الصُّلح بل استمرت عَلى محاربة الدّولة بمفردها، ثمّ توسطت إنكلترا وبروسيا وهولندا بين الدّولة وروسيا وتم الصُّلح بين الطّرفين في سنة ١٧٩٢ عَلى أن تمتلك روسيا بلاد القرم نهَائِيًّاً وجزء من بلاد القوبان وبسارابيا والأقاليم الواقعة بين نهري بوج ودينستر بحيث يكون هذا النهر الأخير فاصلا بين المملكتين، وتتنازل لها الدّولة العُثْمَانِيّة عن مدينة اوزي اوتشاكوف، وأمضيت بذلك معاهدة في مدينة ياش أطلق عليها اسم هذه المدينة نسبة إليها.

وبعد إتمام الصُّلح مع النمسا وروسيا أخذت الدّولة في إصلاح داخليتها وخصوصا العسكريّة والبحرية فعين احد المتقربين من السُّلطَان واسمه كوشك حسين باشا قبطانا عاماً وكان من الشبان الّذين درسوا في أوروبّا، وزوجه السُّلطَان إحدى أخواته فاستحضر عددا عظيما من مهرة المهندسين من السويد وفرنسا لصب المدافع في معامل الطوبخانة، وأصلح مدرسة البحرية ومدرسة الطوبجية الّتي أَسَّسَها البارون دي توت المجري وترجم لتلامذتها مؤلفات المعلم فوبان الفرنساوي في فن الاستحكامات، وأضاف إلى مدرسة الطوبجية مكتبة جمع فيها أهمّ ما كتب في الفنون الحَربية الحديثة والرِّيَاضيات لتكون التلامذة عَلى إطلاع تام في العلوم العصرية، و وضع نظاما للجنود المشاة وشرع في تنسيق فرق جديدة وتدريبها عَلى النّظام الأوروبي، **فأنشأ أول فرقة منتظمة في سنة ١٧٩٦ وجعل عددها ١٦٠٠ جندي تحت قيادة ضابط إنكليزي دخل في الدّين الإِسْلَاميّ وسمي إنكليز مصطفى وكان القصد من ترتيب العساكر النّظامية الاستغناء بهم عن جنود الإنكِشَارِيّة.**

وفي سنة ١٧٩٨ أمرت الجمهوريّة الفرنساوية بونابرت القائد الشهير بالمسير إلى مصر لفتحها بغير إعلان حرب عَلى الدّولة العُثْمَانِيّة وأوصته بكتمان هذا الأمر حتَّى لا تعلم به إنكلترا فتسعى في إحباطه وكان القصد منه منع مرور تجارة الإنكليز من مصر إلى الهند، وحصلت بينه وبين أمراء المماليك واقعة الأهرام الّتي اظهر فيها المماليك من الشجاعة ما أدهش الفرنساويين، وبعد أن بذلوا وسعهم في الدّفاع عن مصر، تقهقروا أمام المدافع الفرنساوية فدخل بونابرت وجُيُوشه مدينة القاهرة بعد أن أعلن بها انه لم يأت لفتح مصر بل انه حليف البَاب العالي، وأنه أتى لتوطيد سلطته ومحاربة المماليك العاصين أوامره، كما زعم الإنكليز بعد ذلك عند دخولهم مصر سنة ١٨٨٢.

ولكن لم يلبث ان وصله خبر واقعة أبي قير البحرية الّتي دمر فيها نلسن أمير البحر الإنكليزي الشهير جميع المراكب والسفن الحَربية الفرنساوية في أغسطس سنة ١٧٩٨، وتسلطن الإنكليز عَلى البحر المتوسط، وقطعوا المواصلات بينه وبين فرنسا، ولما علمت الدّولة العُثْمَانِيّة باحتلال الفرنساويين القطر المصري أخذت في الاستعداد لمحاربتهم لاسيما وأنها كانت مطمئنة البال من جهة النمسا وروسيا اللتين كانتا مشتغلتين بمحاربة الجمهوريّة الفرنساوية خوفا من امتداد مبادئ الثَّورة الفرنسية إلى بلادهم فتفل عروشهم كما حصل للويس السَّادس عشر ملك فرنسا، ومن جهة أُخرى عرضت عليها الدّولة الإنكليزية مساعدتها عَلى إخراج الفرنساويين من مصر لا رغبة في حفظ أملاك الدّولة بل خوفا عَلى طريق الهند من أن تكون في قبضة دولة قوية يمكنها معاكستها فقبلت الدّولة العُثْمَانِيّة مساعدتها بكل ارتياح، وكذلك عرضت عليها روسيا إمدادها بمراكبها الحَربية وانضمامها إلى السفن العُثْمَانِيّة والإنكليزية فقبلت أيضا، وأعلنت الحَرب رسميا عَلى فرنسا في سِبتَمبر سنة ١٧٩٨، وأخذت الدّولة في جمع الجُيُوش بمدينة دمشق وبجَزِيرَة رودس لإرسالها إلى مصر واتت السفن الرُّوسية من البحر الأسود إلى بوغاز الآستانة وخرجت إلى البحر الأبيض مع السفن العُثْمَانِيّة وذلك بمقتضى معاهدة أبرمت بين هذه الدّول الثلاث الّتي اتفقت لأول مرّة عَلى عمل حربي مع ما بين الدّولة العلية وروسية من العداوة القديمة المستمرة، ولما شعر بونابرت باجتماع الجُيُوش لمحاربته تحقق أن من يحتل مصر لا يكون آمنا عليها إلا إذا احتل القطر السّوري، فلهذه الدواعي عزم بونابرت عَلى فتح بلاد

الشّام، ودخل الرملة ثمّ يافا، ثمّ حاصر مدينة عكا من جهة البر ولم يدخلها لتيقظ احمد باشا الجزار قائد حاميتها، وفي أوائل ابريل بلغه تحرك جيش دمشق العُثمَانِيّ لإنجاد مدينة عكا فأرسل القائد كليبر لمحاربته ومنعه من الوصول إليها فالتقى بالعُثمَانِيّين عند جبل وأنجده بونابرت فتفرق الجيش المجتمع، وقطع نابليون بعدم النجاح وعاد بمن بقي من جُيُوشه إلى القاهرة، وفي أغسطس سافر بونابرت من الإسكندرية قاصدا فرنسا خفية مع بعض قواده حتَّى لا يضبطه الإنكليز القاطعون بمراكبهم سبل البحر الأبيض عَلى الفرنساويين، وذلك أن الأميرال الإنكليزي أرسل إليه عدّة نسخ من الجرائد الفرنساوية المذكور بها خبر تغلب النمساويين عَلى فرنسا ووقوع الفوضى في داخليتها فأراد بونابرت الرجوع إليها لاستمالة الخواطر إليه، فغادره تاركا القائد كليبر وكيلا عنه، فبقي الجيش الفرنساوي بمصر بدون مراكب تحميه من نزول الإنكليز والعُثمَانِيّين عَلى الثُّغُور أو تأتي إليه بالمدد أو مجرد الأخبار من فرنسا، ونقص عدده إلى خمسة عشر ألفا بعد من مات ببر الشّام بالطاعون والحَرب، وظهر أن هذا العدد غير كاف لحماية السواحل وحفظ الطّريق والمحافظة عَلى الأمن في الداخل، ولذلك يئس القائد كليبر من حفظ مصر واتفق مع البَاب العالي والأميرال سدني سميث في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ عَلى أن تنسحب العساكر الفرنساوية بسلاحها ومدافعها وترجع فرنسا عَلى مراكب إنكليزية، وسار بعدها لمحاربة الجيش التركي الّذي أتى إلى مصر في مارس سنة ١٨٠٠، وبعد محاربة عنيفة فاز كليبر بالنّصر وعاد إلى القاهرة فوجدها في قبضة ابراهيم بيك احد أمراء المصريين، فأطلق القنابل عليها وخرب منها جُزءاً عظيما واستمر الحَرب في شوارعها نحو عشرة أيّام، وفي ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ قتل مُجَاهد فدائي من مدينة (حلب حرسها الله) اسمه (سليمان الحلبي) القائد كليبر في بستان السراي وهرب، فضبطوه وقتلوه هو ورفاق له ثلاثة اتهموا معه في القتل، منهم الشَّيْخ الّذي أفتاه بذلك في بيت المَقْدِس رحمهم الله، ثمّ عين مكانه الجنرال مينو وكان قد زعم أنه اعتنق الدّين الإِسْلَاميّ وتسمى عبدالله مينو!!

ولما علم الإنكليز والعُثمَانِيّون بموت كليبر وخروج بونابرت من مصر، أيقنوا بالغلبة عليهم وانزلوا بابي قير ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادة الجنرال ابركرومبي في أوائل سنة ١٨٠١ فسار القائد مينو لمحاربتهم فانهزم أمامهم، ثمّ سار الإنكليز والأتراك إلى القاهرة وحصروا من بقي منها من

الفرنساويين، أما القائد مينو فبقي محصورا في الإسكندرية ولم يقبل التسليم إلا في سِبتَمبر سنة ١٨٠١ بعد أن وقعت بينه وبين العُثمَانِيّين والإنكليز موقعة عظيمة قتل فيها كثير من الطّرفين فخرج منها مع من بقي معه وسافر إلى بلاده عَلى مراكب الإنكليز وبذلك انتهت الحَرب ورجعت البلاد إلى العُثمَانِيّين.

وبعد ذلك اتصل بونابرت الّذي كانَ تعين رئيسا للجمهوريّة الفرنسية مع سفير الدّولة العُثمَانِيّة واظهر له ضرر اتحاد الدّولة مع روسيا وإنكلترا خُصُوصَاً وان روسيا قد احتلت جزائر اليونان الواقعة ما بين جنوب ايطاليا وبحيث جَزِيرَة موره وجنود إنكلترا باقية بمصر مماطلة في إخلائها، وما احتلته من ثغور الشّام، وأخيرا أقنعه بوجوب تجديد العلاقات الودية مع فرنسا فكاتب السفير العُثمَانِيّ دولته بذلك، وبعد الحصول منها عَلى الإذن أمضى مع بونابرت مشروع معاهدة سنة ١٨٠١، أساسها إخلاء مصر وتأييد امتيازات فرنسا السَّابقة في الشّرق.

وفي هذه الأثناء حصلت في داخليَّة الدّولة بعض اضطرابات بسبب شروع السُّلطَان سليم الثّالث في تنظيم الجُيُوش عَلى النّظام الجَدِيد فان الإنكِشَارِيّة لم ينظروا لهذه الإصلاحات العسكريّة بعين الارتياح، فلما مات الجنرال دو بايت الفرنساوي الّذي كانَ استحضر لتدريب النّظام في سنة ١٧٩٧ سعى الإنكِشَارِيّة مع بعض العُلَماء المتذمرين من توجهات السُّلطَان الغربيّة، وكان السُّلطَان قد أصدر أمرا ساميا بفصل المدفعية عن الإنكِشَارِيّة وتنظيمها ويكون مقرهم في الآستانة وان يكون لكل منهم موسيقى عسكريّة وإمام لتعليم الدّين وإقامة الصّلاة.

الفتن الداخليَّة بسبب توجهات السُّلطَان الغربيّة:

وقد انتشرت خلال انشغال الدّولة العُثمَانِيّة بحرب مصر، وهاجت ثورات كثيرة من قبل سكان اليونان والبلقان والصّرب وغيرها من باقي ولايات الدّولة بأوروبّا بدسائس الدّول الأوربية، وطموح السّكّان للاستقلال، ولم يتمكن الإنكِشَارِيّة من كبح جماحهم بل فاز المفسدون عليهم في عدّة وقائع وصارت البلاد في كرب عظيم وبلاء شديد وهدد هَؤُلَاءِ الثائرون مدينة أدرنه نفسها مع مناعتها، ويزعم مؤلف كتاب تاريخ الدّولة العُثمَانِيّة (فريد بيك) أن السُّلطَان سليم أراد تجربة الفرق

المنتظمة الجَدِيدة الّتي أنشأها ودربها عسكريّون أوربيون وأدخلوا عليها الأنظمة الأوربية، فقامت هذه الجنود بما عهد إليها خير قيام، وعادت السكينة إلى ربوعها ورجعت الجنود المنتظمة إلى الآستانة مكللة بالظفر فانشرح السُّلطَان من نجاح مشروع هذا النّظام الجَدِيد، وأغدق عليهم العطايا والهبات ثمّ أصدر في شهر مارس سنة ١٨٠٥ أمرا ساميا خط شريف إلى جميع الولايات بتركية وأوروبّا بجمع جميع الشبان من الإنكِشَارِيّة والأهالي البالغين سن الخمسة والعشرين وإدخالهم العسكريّة وتربيتهم عَلى النّظام الجَدِيد بإشراف الضُّبَّاط والمدربين الأجانب، فلم يقبل الإنكِشَارِيّة هذا الأمر واظهروا التمرد.

واتحد بعض العُلَماء والطلبة ضدّ النّظام الجَدِيد فأذعن السُّلطَان لمطلب الإنكِشَارِيّة وأرجع العساكر النّظامية إلى ولايات آسيا وعزل الوزراء وعين رئيس الإنكِشَارِيّة صدرا أعظما، ومع ذلك فلم تنته هذه المسألة بسلام بل جرَّت بعد قليل إلى عزل السُّلطَان، وكانت هذه بداية وقوف العُلَماء، وقيادات الإنكِشَارِيّة في وجه عمليَّة التغريب، والغزو الأوربي للجيش العُثمَانِيّ الّذي تولى كبره السُّلطَان سليم الثّالث هٰذا.

وقد أدت قلاقل بلاد الصّرب إلى قيام الحَرب بين الدّولة العلية وروسيا الّتي سيأتي بيان أسبابها.

علاقات البَاب العالي مع فرنسا وروسيا وإنكلترا بعد خروج الفرنساويين من مصر:

أرسل بونابرت إلى بلاد الشّرق الجنرال سبستياني لتجديد ربط الاتحاد والوداد مع الدّولة العُثمَانِيّة، **وفي أثناء إقامته بالآستانة تمكن بمساعيه من عزل أميري الافلاق والبغدان المنحازين لروسيا، فساء ذلك روسيا وخشيت من امتداد نفوذ فرنسا** في الشّرق فأرسلت جُيُوشها لاحتلال هاتين الولايتين بدون إعلان حرب بدعوى أن تغيير أميريها مضر بحقوق جوارها، فانتشبت نيران القِتَال بينها وبين الدّولة واتحدت إنكلترا مع روسيا في هذه الحَرب، فأرسلت إحدى فرقها البحرية أمام الدردنيل وأرسل سفيرها بلاغا إلى البَاب العالي يطلب منه: **تحالف الدّولة العلية وإنكلترا وتسليم الأساطيل العُثمَانِيّة وقلاع الدردنيل إلى إنكلترا والتنازل عن ولايتي الافلاق والبغدان إلى روسيا وطرد**

الجنرال سبستياني من الآستانة وإعلان الحَرب عَلى فرنسا وإلا فستكون إنكلترا مضطرة لاجتياز الدردنيل وإطلاق مدافعها عَلى الآستانة.

وفي فبراير سنة ١٨٠٧ قرن الإنكليز القول بالفعل واجتاز الأميرال الإنكليزي الدردنيل ودمر كافّة السفن الحَربية العُثمَانِيّة الراسية بها، ومكث خارج البوسفور ينتظر تنفيذ لائحته الّتي سبق ذكرها، وبورود الخبر إلى الدّولة بذلك وقع الرعب في قلوب سكان الآستانة خشية من وصول السفن الإنكليزية إلى البوسفور وهناك تكون الطامة الكبرى لوجود اغلب السَرايات الملكية ودواوين الحكومة عَلى ضفتيه، وكادت الدّولة تستسلم للشروط، ولكن الفرنسيين شجعوها عَلى الصمود ووعدوا بالمساعدة، فاخذوا في تحصين العاصمة وبناء القلاع حولها وتسليحها بالمدافع الضخمة وشكل الفرنساويون النازلون بالآستانة فرقة **من مائتي مقاتل!!** أغلبهم من المدفعية **وكذلك الأسبان** لمضادة سفيرهم لسياسة إنكلترا في الشّرق، واهتم كلّ من في الآستانة في هذا العمل حتَّى الشُّيُوخ والأطفال والنِّسَاء وبذل الإنكِشَارِيّة جهدا كبيرا رغم خلافهم مع السُّلطَان، فلم يمض بضعة أيّام حتَّى صارت المدينة في مأمن، فلما رأى الأميرال الإنكليزي استحالة دخوله البوسفور وقرب انتهاء تحصينات الدردنيل خشي من حصر مراكبه بين البوغازين وقفل راجعا في مارس سنة ١٨٠٧ فنجا بمراكبه بعد أن قتل من رجاله ستمائة وغرق من سفنه اثنتان من مقذوفات قلاع الدردنيل، واجتمع بمراكب روسيا عند مدخل البوغاز، ثمّ أراد الأميرال الإنكليزي أن يأتي عملا يمحو ما لحقه من العار بسبب فشله في هذه المأمورية فقصد ثغر الإسكندرية فاحتلها في مارس سنة ١٨٠٧ ثمّ سير فرقة إلى ثغر رشيد لاحتلاله فانهزمت وحاصر المدينة في ابريل لكن لم يقو عَلى فتحها لإرسال محمّد باشا المدد إليها، وأخيرا رحلوا عن الدِّيَار المصريَّة، بعد أن أجروا تجربة لاحتلالها.

عزل السُّلطَان سليم الثّالث: في هذه الأثناء الّتي كانت فيها رحى الحَرب دائرة بين العُثمَانِيّين والرُّوس دخل والي بوسنه بجُيُوشه إلى بلاد الصّرب لمنع الثائرين من اللحاق بالجيش الرُّوسي، **وفي غضون ذلك توفي المفتي الّذي كانَ معضدا للسلطان عَلى إدخال الإصلاحات العسكريّة وتولى مكانه قاضي عسكر الرُّوملي وكان عَلى الضد من سلفه، فاتحد مع مصطفى باشا قائم مقام الصدر الأعظم**

المتغيب في محاربة الرُّوس ولفيف من العُلَماء عَلى السعي في إبطال النّظام العسكريّ الجَدِيد، معتبرين انه بدعة مخالفة للشرع، واخذوا يقنعون العساكر الغير منتظمة الّتي كانت أضيفت إلى الفرق المنتظمة ببطلان إكراههم عَلى لبس الملابس الغربيّة والتزيي بزي النّصَارى مع ما في ذلك من مخالفة القرآن الشريف والشَّرع المنيف، وحصلت بينهم معركة سالت فيها الدِّماء ثمّ انتشرت هذه الفتنة وامتد لهيبها إلى جميع القلاع وحصلت عد معارك بين الفريقين كانت نتيجتها أن وصل الجمع الثائر عَلى السُّلطَان، ولما بلغ السُّلطَان خبر هذه الثَّورة أصدر عَلى الفور أمرا بإلغاء النّظام الجَدِيد وصرف العساكر النّظامية، لكن لم يكتف الثائرون بل قرروا عزل السُّلطَان خوفا من أن يعود لتنفيذ مشروعه وساعدهم عَلى ذلك المفتي الّذي كانَ المحرك لهذه الثَّورة، فأفتى بأن كلّ سلطان يدخل نظم الإفرنج وعوائدهم ويجبر الرعية عَلى إتباعها لا يكون صالحا للملك.

واستمرت هذه الثَّورة يومين ثمّ نودي في يونيو سنة ١٨٠٧ بخلع السُّلطَان سليم الثّالث فعزل وكانت مدّة حكمه ١٩ سنة وأقيم بعده مصطفى الرَّابع.

(٢٩) - السُّلطَان الغازي مصطفى خان الرَّابع (١٨٠٧-١٨٠٨م):

عقب ذلك حصل الصُّلح بين فرنسا وروسيا بمقتضى معاهدة تلسيت في يوليو سنة ١٨٠٧ الّتي جاء البند الثّاني والعشرين وما بعده منها أن روسيا تكف عن محاربة الدّولة العُثْمَانِيّة حتَّى يتوسط نابليون بين الطّرفين، وانه بمجرد ما أمضيت الهدنة الابتدائية تخلي جُيُوش روسيا ولايتي الافلاق والبغدان بدون أن تدخلها الجُيُوش العُثْمَانِيّة حتَّى يتم الصُّلح نهَائِيًّا وجاء في المعاهدة السرية الّتي اتفق عليها نابليون واسكندر الأوّل قيصر روسيا إن لم يقبل البَاب العالي توسط فرنسا بسبب الحوادث الأخيرة الّتي حدثت بالآستانة أو إن لم يتم المقصود بكيفِيَّة مرضية بعد قبول هذا التوسط بخمسة وثلاثين يوما فتتحد فرنسا مع روسيا عَلى سلخ جميع الولايات العُثْمَانِيّة بأوروبّا ما عدا الآستانة وما حولها وتقسيمها فيما بينهما مع إرضاء النمسا بجزء يسير، **وهذا يظهر النوايا المبيتة لكافة الخصوم**

المتحالفين، ويبين أنه لم يكن هناك أي دولة أوروبية تود خيراً أو تبغي صلاحا لدولة أو أمة إسلاميّة مطلقا.

ولم يطل العهد بالسلطان مصطفى الرَّابع فتم حجزه في نفس السراي الّتي كانَ محجوزا بها السُّلطَان سليم، وعزل بعد أن حكم ثلاثة عشر شهرا وقتل في سرايته بعد ذلك بقليل وأقيم بعده محمود الثّاني.

(٣٠) - السُّلطَان الغازي محمود خان الثّاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩م):

وهو ابن السُّلطَان عبد الحميد الأوّل، وقد افتتح أعماله بأن قلد مصطفى باشا البيرق دار منصب الصدارة العظمى ووكل إليه امر تنظيم الإنكِشَارِيّة، ولكنهم قاوموه وحصلت فتنة كبيرة أدت إلى قتل السُّلطَان السابق المحجوز في السَرايا (مصطفى الرَّابع).

ثمّ وجه السُّلطَان الجَدِيد اهتمامه لإصلاح الشؤون الداخليَّة والاستعداد لإهلاك طائفة الإنكِشَارِيّة وللتفرغ لذلك عقد الصُّلح مع الإنكليز في يوليو سنة ١٨٠٩، وافتتح الإيصالات مع روسيا بدون أن يتوصل إلى اتفاق مرض للطرفين فاستؤنفت الحَرب وكانت سجالا بين الجيشين، وفي هذه الأثناء فترت العلاقات بين روسيا ونابليون لعدم تنفيذ شروط معاهدة تلسيت وكانت الحَرب بينهما قاب قوسين أو أدنى فسعت روسيا في مصالحة الدّولة العُثمَانِيّة، وتوصل الطّرفان إلى معاهدة بوخارست في مايو سنة ١٨١٢، ولقد اعتبرت فرنسا هذه المعاهدة خيانة من الدّولة للروابط القديمة الموجودة بين الدّولتين، إذ بإبرامها تمكنت روسيا من استعمال الجُيُوش الّتي كانت مشتغلة بمحاربة العُثمَانِيّين في صد غارات فرنسا عن بلادها وإلزام نابليون بالعودة القهقرى بعد حرق مدينة موسكو وهلاك اغلب جُيُوشه عند عبورهم نهر بيريزينا عائدين إلى بلادهم مكسورين مدحورين، ولما بلغ رؤساء ثورة الصّرب خبر معاهدة بوخارست القاضية بإرجاعهم إلى سلطة الدّولة العلية المطلقة بعد ما بذلوه من الأموال والأرواح لإعطائهم نوعا من الاستقلال الإداري، ووعد قيصر روسيا بمساعدتهم، لم يقبلوا وآثروا الفناء في الدّفاع عن استقلالهم فسيرت الدّولة إليهم الجُيُوش فأخضعتهم

إلى سلطانها قهرا، وأعطيت تعليمات شديدة تقضي بمعاملة الصّربيين بالرفق واللين كي يحافظوا عَلى ولاء الدّولة، وصارت الصّرب مستقلة تقريبا واستبد زعيمهم ميلوش كملك مطلق لا سلطة للوالي العُثمَانِيّ عليه.

ثمّ قامت الحركة الوهابية في نجد في الجَزِيرَة العربيَّة، وقمعتها الدّولة العُثمَانِيّة باستخدام محمّد علي باشا والي مصر وابنه ابراهيم باشا ومستشاريه الفرنسيين، والقصة مشهورة بما يغني عن تفصيلها هنا.

وثارت اليونان وأيدتها الدّول الأوربية وروسيا، واستخدم العُثمَانِيّون محمّد علي باشا لقمع الثَّورة وفتح بلاد اليونان فنجح بذلك سنة ١٨٢٦، وفي يونيو من السنة التّالية فتح العُثمَانِيّون مدينة أثينا وقلعتها الشهيرة اكروبول رغما عن دفاع عنها.

تدخل الدّول الأوربية في شؤون الدّولة العُثمَانِيّة:

وبينما كانَ ابراهيم باشا يستعد لفتح ما بقي من بلاد اليونان في أيدي الثائرين، إذ تدخلت الدّول بين البَاب العالي ومتبوعيه بحجة حماية اليونانيين في الظَّاهِر ولفتح ما دعوه بـ (**المسألة الشرقية**) وتعني عمليا (الإِعداد لتقسيم بلاد الدّولة العُثمَانِيّة بينهم).

فقد عاتبت الدّولة العُثمَانِيّة روسيا أكثر من مرّة عَلى مساعدتها الثائرين وحماية من يلتجئ منهم إلى بلادها واستمرت روسيا عَلى مساعدتهم طمعا في نوال بغيتها الأصلية وهي احتلالها الآستانة وجعلها مركزا للديانة الأرثوذكسية عَلى غرار مدينة روما الّتي تعتبر مركزا للديانة الكاثوليكية، ثمّ استمرت المحادثات بين الدّولتين مدّة بدون فائدة لرغبة روسيا وعدم قبول البَاب العالي أي تدخل أجنبي في شؤونه الداخليَّة وفي سنة ١٨٢٥ تولى نيقولا الأوّل فاهتم بمسألة اليونان متبعا خُطّة سلفه السّياسيّة، وباتحاده مع إنكلترا اضطر البَاب العالي إلى التّصَدّيق عَلى معاهدة آق كرمان سنة ١٨٢٦، وملخصها أن يكون لروسيا حق الملاحة في البحر الأسود والمرور من البوغازين بدون أن يكون للدولة حق في تفتيش سفنها وأن تنتخب حُكّام ولايتي الافلاق والبغدان بمعرفة الأعيان لمدة سبع سَنوات

مع عدم جواز عزلهما إلا بإقرار روسيا، وأن تكون ولاية الصّرب مستقلة تقريبا، وأن لا تحتل العساكر التركية إلا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أُخرى، ولم يذكر بهذه المعاهدة شيء عن اليونان لإيجاد سبب للإشكال في المستقبل بل اتفقت روسيا وإنكلترا عَلى استعمال كلّ نفوذهما لوضع حد للحُرُوب المستمرة بها ولو كره البَاب العالي ووافقتهما دول النمسا وبروسيا وفرنسا.

واقعة ناورين:

وفي ٥ فبراير سنة ١٨٢٧ عرضت إنكلترا رسميا عَلى الدّولة العُثمَانِيّة توسط جميع الدّول بينها وبين متبوعيها فلم تقبل ذلك بل أجابت سفير الانكليز، بعد التروي والتأمل في عاقبة هذا التدخل، أنها لم تسمح ولن تسمح به مطلقا، فاغتاظت الدّول من هذا الجواب، واتفقت كلّ من فرنسا وإنكلترا وروسيا عَلى إلزام البَاب العالي بالقوة بمنح بلاد اليونان استقلالها الإداري بشرط أن يدفع اليونانيون جزية معينة يتفق عَلى مقدارها فيما بعد، كما يتفق عَلى حدود الفريقين وأمهل البَاب العالي شهرا لإيقاف الحركات العدوانية ضدّ اليونان وإلا فتضطر الدّول لاتخاذ طرق أُخرى لنفاذ رغبتها، ولما بلغت صورة هذه المعاهدة إلى البَاب العالي لم يحفل بها وبعد انقضاء الشهر أصدرت الدّولة الثلاث أوامرها إلى قواد أساطيلها التوجه لسواحل اليونان وطلبت بعد ذلك من ابراهيم باشا الكف فورا عن القِتَال فقبل إيقاف الحَرب مدّة عشرين يوما ريثما تأتيه تعليمات جديدة، واجتمعت سفن الثلاث دول المتحالفة في ميناء ناورين لمنع الأسطول التركي والمصري من الخروج منها، وفي أكتوبر سنة ١٨٢٧ تكامل اجتماع سفن الدّول المتحدة، ولم تلبث السفن المقابلة لبعضها حتَّى انتشبت نيران الحَرب بين الفريقين لسبب واه، وسلطت جميع السفن الأوروبية مدافعها عَلى المراكب التركية والمصريَّة بعد أن استمر القِتَال عدّة ساعات، وانتهت بانتصار الدّول المتحدة، ولما وصل خبر هذه الحادثة الّتي حصلت بدون إعلان حرب كما هيَ العادة بين الدّول إلى البَاب العالي، أرسل بلاغا إلى سفراء هذه الدّول الثّلاثة يقيم فيه الحجة ضدّ هذا العمل المخالف للقوانين الدّولية ويطلب به أن تمتنع الدّول كلية عن التدخل في شؤون الممالك العُثمَانِيّة وأن تدفع له تعويضا عن الخسائر الّتي نجمت من تدمير المراكب العُثمَانِيّة، فلم يجاوب

السفراء عَلى هذا البلاغ بل قطعوا العلائق مع البَاب العالي ونزلوا إلى مراكبهم مسرعين، **ونشر السُّلطَان في جميع الولايات منشورا عاماً (خط شريف) يبين فيه سوء مقاصد الدّول عموما وروسيا خُصُوصَاً نحو الدّولة العلية الدّولة الإسْلَاميّة الوحيدة، مثبتا للأهالي عَلى أن الباعث عَلى هذا العدوان هو الدّين لا السّياسة، وختمه بحض المُسلِمِين عَلى القِتَال دفاعا عن الدّين والملة والوطن**، فاغتاظت روسيا لذلك وأعلنت الحَرب عَلى الدّولة في ابريل سنة ١٨٢٨.

ثمّ تلقى ابراهيم باشا أوامر والده واتفق مع الدّولة المتحدة في أغسطس سنة ١٨٢٨ بناء عَلى الرجوع إلى مصر، عَلى ما بقي من السفن المصريَّة، وابتدأ انسحاب الجنود المصريَّة وكانت كلما أخلت محلا دخله الفرنسيون الّذين نزلوا ببلاد اليونان، وفي نوفمبر سنة ١٨٢٨ عقدت الدّول الثلاث مؤتمرا في مدينة لندن لتقرير أحوال اليونان ودعت إليه الدّولة العُثمَانِيّة فأبت إرسال مندوب من طرفها، فاجتمع مندوبوها في اليَوْم المعين واتفقوا عَلى استقلال موره وجزائر سكلاده واجتماعها عَلى هيئة حكومة مستقلة يحكمها أمير مسيحي تنتخبه الدّول ويكون تحت حمايتها عَلى أن تدفع الحكومة اليونانية للباب العالي جزية سنوية قدرها خمسمائة ألف قرش فلم يقبل البَاب العالي هذا القرار الصادر من دول غير مُختصَّة فيما يقع بينه وبين متبوعيه واشتغل بمحاربة روسيا الّتي أعلنت الحَرب عليه بعد أن دمر أسطوله، وأخيرا في ١٨٣٠ أعلن البَاب العالي بتصديقه عَلى الشُّرُوط المدونة في الاتفاق الّذي امضي بين الدّولة في لندن في نوفمبر سنة ١٨٢٨ القاضي باستقلال اليونان.

إلغاء طائفة الإنكِشَارِيّة: زعم المؤرخ أنه لما تحقق السُّلطَان محمود أفضلية النظم العسكريّة المستعملة في جُيُوش أوروبّا، وسمع بما أتته الجنود المصريَّة المنتظمة من الأعمال الباهرة في محاربة موره، وعلم أن انتصارات ابراهيم باشا عَلى اليونانيين لم تكن إلا نتيجة النّظام العسكريّ، زاد تعلقه بإصلاح النظم العسكريّة، وأراد إتمام المشروع الّذي لم يمكن السُّلطَان سليم الثّالث إتمامه فجمع جميع ذوات واعيان المملكة وكبار ضباط الإنكِشَارِيّة في بيت المفتي في أوائل سنة ١٨٢٦، وتلا عليهم مشروعا محتويا عَلى ستة وأربعين بندا ذكر بها بكل إيضاح كيفِيَّة التَّنظِيمات المراد إدخالها وبعد إقرار الجَمعيَّة عليه حرر بذلك محضرا ختمه جميع الحاضرين حتَّى ضباط الإنكِشَارِيّة وأفتى المفتي بجواز العمل بها

شَرعاً ومعاقبة من يعارض في نفاذها، ثمّ تلا المشروع عَلى جميع ضباط الإنكِشَارِيّة فأقروا عليه لكن لم تكن موافقتهم إلا ظاهرية فقط فانه لما ابتدئ في تعليم الضُّبَّاط بمعرفة من تعين من ضباط الإفرنج بصفة معلمين تنبه الإنكِشَارِيّة واخذوا يستعدون للثورة والعصيان ليوقفوا تنفيذه كما فعلوا قبلا، ولم يمض قليل حتَّى تمَّ حلّ الإنكِشَارِيّة ومطاردتهم وإبادة من عارض منهم.

ثمّ سار السُّلطَان في خُطّة الإصلاحات الداخليَّة بناء عَلى الفتوى الشَّرعيَّة!! وقد ذكر (المؤرخ الّذي اعتمدنا مصدره آنف الذكر) ممتدحا أعمال السُّلطَان فقال: (... ومن جهة أُخرى اخذ في تغير العوائد القديمة واتباع المستحسن من عوائد أوروبّا، فاستبدل العمامة بالطربوش الروني، وأمر بالزي الأوروبي، وأمر بأن يكون هو الزي الرسمي في العسكريّة والمدنيّة، وأسس وساما دعاه وسام الافتخار، وأخيرا تجول بذاته في ممالك أوروبّا ليستطلع أحوالها ويقف عَلى حقائق الأمور، وبالاختصار فانه سار سير من يردي مجاراة أوروبّا في نظاماتها وعدم الوقوف حال تقدم الدّول الاخرى بسرعة لعلمه أن الوقوف في مثل هذه الظّروف هو عين التأخر..) **كما زعم من لعب بعقله من الضُّبَّاط الّذين تفشت فيهم الماسونية والافتتان بالغرب، وزيادة عَلى ذلك أحيا ما أقامه السُّلطَان مصطفى الثّالث من مدارس الطوبجية وانشأ مدرسة حربية لتخريج الضُّبَّاط عَلى مثال مدرسة سان سير الفرنساوية الّتي أسَّسَها نابليون الأوّل بفرنسا لتربية أولاد الضُّبَّاط والإشراف عَلى النظم العسكريّة الغربيّة.**

احتلال فرنسا لجزائر الغرب: وفي أواسط سنة ١٨٣٠ نفذت فرنسا ما كانت تنويه من مدّة ضدّ ولاية الجَزَائِر بدعوى منع تعدي قراصنة البحر المُسلِمِين عَلى مراكبها التجاريَّة، وكانت الحقيقة رغبتها في أن يكون لها مركز حربي بشمال إفريقيا حتَّى لا تكون إنكلترا صاحبة السيادة بمفردها عَلى البحر الأبيض المتوسط باحتلالها معاقل جبل طارق وجَزِيرَة مالطة واتخذت لذلك سبيلاً وقوع الخلاف بينها وبين عامل الدّولة العلية عليها، وقررت فرنسا في مجلس الوزراء المنعقد تحت رئاسة الملك نفسه في ٧ فبراير سنة ١٨٣٠ وجوب الاستيلاء عَلى هذا الإقليم، ثمّ أرسلت للجزائر جيشا مؤلفا من نحو ثمانية وعشرين ألف مقاتل وأسطولا بحريا مؤلفا من مائة سفينة وثلاثة سفن تحمل سبعة وعشرين ألف

جندي بحري، ولما علمت إنكلترا بذلك خشيت عَلى نفوذها من مشاركة فرنسا واحتجت ضدّ هذا المشروع ولما لم يفد احتجاجها شيئا.

وفي ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٤٥/ ١٢ يونيو ١٨٣٠ نزلت عساكر فرنسا بالقرب من مدينة الجَزَائِر ونشب القِتَال بين الفريقين في يونيو وبعد محاربة شديدة فاز الفرنساويون بالغلبة، ودخلت الجُيُوش مدينة الجَزَائِر نفسها، وأعلنت فرنسا امتلاكها لها وبعد ذلك أخذت ترسل الجُيُوش تباعا إلى الجَزَائِر لفتحها.

وخلال هذه الفترة تمرد محمّد علي باشا في مصر وزحف عَلى الشّام وأدت وساطات ومداولات إلى تدخل الدّول الأجنبيّة وإعطائه ولاية مصر وراثية في أبنائه بدعم من فرنسا في القصة المشهورة تاريخيا.

ثمّ توفي السُّلطَان محمود الثّاني في يوليو سنة ١٨٣٩ وكانت مدّة خلافته إحدى وثلاثين سنة وعشرة شهور وتولى بعده ابنه عبد المجيد.

(٣١) - السُّلطَان الغازي عبد المجيد خان (١٨٣٩- ١٨٦١م):

تولى الخِلافَة ولم يبلغ الثَّامنة عشرة من عمره، وكانت الحكومة في غاية الاضطراب بسبب انتصار جُيُوش محمّد علي باشا والي مصر عَلى جُيُوش العُثمَانِيّين، واحتلال جُيُوشه لمدائن عين تاب وقيصرية وملطية، ومما زاد أحوال الدّولة ارتباكا أن احمد باشا القبطان العام للأسطول التركي خرج بجميع مراكبه الحَربية واتى بها إلى ثغر الإسكندرية وسلمها إلى محمّد علي باشا، ولما علم قناصل الدّول بالآستانة بتسليم الأسطول إلى محمّد علي باشا خشوا زحف ابراهيم باشا عَلى القُسطَنْطينيَّة أرسلوا إلى البَاب العالي لائحة سنة ١٨٣٩ ممضاة من سفراء فرنسا وإنكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا يطلبون منه أن لا يقر شيئا في أمر المسألة المصريَّة إلا بَاطِلاعهم، وأنهم مستعدون للتوسط بينه وبين محمّد علي باشا لحل هذه المسألة المهمة، فقبل البَاب العالي هذه اللائحة واجتمع السفراء عند الصدر الأعظم وتداولوا فيما يجب إعطاؤه لمحمّد علي باشا، وحصلت مداولات كثيرة، ولم تقبل روسيا تخويل مؤتمر

دولي حق تحديد علاقاتها مع البَاب العالي بل أعلنت أنها مصرة عَلى التمسك بنصوص معاهدة (خونكار اسكله سي) وهي حماية الدّولة بعساكرها ومراكبها وبالتالي احتلال معظم أملاكها بدون حرب لو تعدى ابراهيم باشا حدود الشّام، فعند ذلك طلبت كلّ من فرنسا وإنكلترا من البَاب العالي التصريح لمراكبها بالمرور من بوغاز الدردنيل لحمايته عند الضَّرورة من روسيا ومن العساكر المصريَّة، ولما علم باقي السفراء بهذا الطلب اضطربوا وخشوا حصول شقاق بين الدّول المتوسطة وأعلن سفير روسيا بأنه إذا دخلت المراكب الفرنسية والإنكليزية البوغاز فسيقطع علاقاته السّياسيّة مع البَاب العالي ويسافر في الحال وكانت حكومته قد أرسلت له مركبا حربيا ليسافر عليه إذا اقتضى الحال ذلك، وكتبت النمسا إلى لندن وباريس بأن طلبهما هذا مخل بسلم أوروبّا وأنهما لو أصرا عليه فستخرج من التَّحالف وتحفظ لنفسها حرية العمل، فلما علم البَاب العالي بذلك خاف من تفاقم الخطب ورفض طلب حكومتي فرنسا وإنكلترا وطلب منهما إبعاد مراكبهم عن مدخل البوغاز، فلهذه الأسباب ولعدم الإتفاق بين وزراء الدّول توقفت المحادثات إلى سِبتَمبر سنة ١٨٣٩، حتَّى عرض سفير إنكلترا عَلى البَاب العالي أن دولته مستعدة لإكراه محمّد علي باشا عَلى رد السفن التركية بشرط أن يكون لها حق إدخال مراكبها في خليج إسلامبول لصد روسيا عند الضَّرورة، فلما علمت بذلك حكومة فرنسا أرسلت إلى قائد أسطولها في مياه تركيا أمرا في ديسمبر سنة ١٨٣٩ أنه لا يشترك مع مراكب إنكلترا في أي حركة عدوانية ضدّ حكومة محمّد علي باشا (وهناك أدِلّة تارِيخِيَّة كثيرة عَلى عمالة محمّد علي لفرنسا ضدّ العُثمَانِيّين، وتولي كثير من النّصَارى والمفتونين بفرنسا مناصب عنده)، فعلم الكل أنه لا بُدَّ من حصول خلاف بين فرنسا وإنكلترا بخصوص المسألة المصريَّة، وأخذت الدّول حذرها مما عساه يحصل من الأمور الّتي تنشأ بسبب هذا الخلاف، فأعلنت النمسا بأنها لا ترغب التداخل لعدم نجاح طلبها المختص بانعقاد مؤتمر دولي في فيينا أو برلين وأعلنت بروسيا وروسيا بأنهما يقبلان كلّ ما تقرره الدّول في هذا الشأن بشرط أن يكون موافقا لرغبة البَاب العالي وان يكون قبوله لهذا القرار صادرا عن كمال الحريَّة، فكأن الدّول قبلت ما اتفقت عليه فرنسا وإنكلترا بالاتحاد مع البَاب العالي ولكن لم يتم الاتفاق بين هاتين الدّولتين لسعي إنكلترا في إرجاع المصريين إلى حدودهم الأصلية وعدم قبول فرنسا ذلك

ورغبتها في مساعدة محمّد علي باشا، وذلك أن فرنسا كانت تود أن تكون ولايتا مصر والشّام له ولذريته وإقليها أدنه وطرسوس له مدّة حياته وأما إنكلترا فكانت لا تريد أن يعطى إلا ولاية مصر لكن رغبة في إرضاء فرنسا قبلت أن يعطى مدّة حياته نصف بلاد الشّام الجنوبي بشرط أن لا تكون مدينة عكا من هذا النصف فرفضت فرنسا هذا الاقتراح دعما لعميلها محمّد علي باشا.

وفي تاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ اتفقت الدّول عَلى معاهدة صدق عليها مندوب الدّولة العلية مقتضاها:

* **أولاً**: أن يلزم محمّد علي باشا بإرجاع ما فتحه للدولة العلية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبي من الشّام مع عدم دخول مدينة عكا في هذا القسم.

* **ثانياً**: أن يكون لإنكلترا الحقّ بالاتفاق مع النمسا في محاصرة الشّام ومساعدة كلّ من أراد من سكان بلاد الشّام خلع طاعة المصريين والرجوع إلى الدّولة العُثمَانِيّة.

* **ثالثا**: أن يكون لمراكب روسيا والنمسا وإنكلترا معا حق الدخول في البوسفور لوقاية القُسطَنْطينيَّة لو تقدمت الجُيُوش المصريَّة نحوها.

* **رابعا**: أن لا يكون لأحد الحقّ في الدخول في مياه البوسفور ما دامت القُسطَنْطينيَّة غير مهددة.

* **خامسا**: يجب عَلى الدّول الّتي وقع مندوبوها عَلى هذا الاتفاق أن تصدق عليه في مدّة لا تزيد عن شهرين بحيث يكون التّصَدّيق في مدينة لندن.

وشفعت هذه المعاهدة بملحق مصدق عليه من مندوب الدّولة العلية مبين فيه الحقوق والامتيازات الّتي يمكن منحها لمحمّد علي باشا.

وقبل إمضاء هذه المعاهدة ابتدأت إنكلترا في تحريض سكان لبنان من دروز ومارونية ونصيرية عَلى شق عصا الطاعة.

ثمّ عادت الدّول للاختلاف وكادت تقوم الحَرب مع محمّد علي باشا، ثمّ أرسل قناصل الدّول الأربع المتحدة لمحمّد علي (خلافا لفرنسا الداعمة له)، وعرضوا عليه باسم دولهم أن تكون ولاية مصر له ولورثته وولاية عكا له مدّة حياته وأمهلوه عشرة أيّام لإعطاء جوابه فطلب منهم كتابة بذلك

فلبوا طلبه ثمّ في اليَوْم التّالي افهموه أن فرنسا لا يمكنها مساعدته قط وان الدّول مصممة عَلى تنفيذ ما اتفقت عليه ولو أدى ذلك إلى حرب أوروبية لكنه أصر عَلى عدم القبول والدّفاع عن حقه، وفي ٢٤ أغسطس ١٨٤٠ حضر إليه القناصل ومعهم مندوب الدّولة واخبروه بأنه لا حق له الآن في ولاية عكا، وأن الدّول لا تسمح له إلا بولاية مصر فقط له ولذريته فغضب وطردهم من عنده، فانصرفوا وأعطوه عشرة أيّام أخر لإبداء جوابه بحيث إن لم يجاوب تكون الدّول غير مسؤولة عما يحصل له من الضرر، وبعد انقضاء هذه المدة بدون أن يبدي لهم جوابه كتب القناصل بذلك إلى سفراء الدّول باستانبول فاجتمعوا مع الصدر الأعظم وقرروا باتحادهم اخذ مصر والشّام من محمّد علي باشا، وفي أثناء هذه المدة عجزت فرنسا عن مساعدة محمّد علي باشا، وأرسلت أوامرها لسفنها أولاً بالانسحاب إلى مياه اليونان ثمّ بالعودة إلى فرنسا وتركت مصر والشّام لمراكب إنكلترا تحرق موانئها بمقذوفاتها.

وفي ١١ سِبتَمبر أنزلت العساكر إلى البر في نقطة تبعد نحو ستة أميال في شمال بيروت ولم يتمكن ابراهيم باشا من منعهم لوجود هذه النقطة تحت حماية المدافع الإنكليزية، ثمّ جاء سليمان باشا بلاغ من الأميرالين الإنكليزي والنمساوي بان يخلي مدينة بيروت حالا فطلب منهم مسافة أربع وعشرين ساعة كي يتداول مع ابراهيم باشا فلم يقبل طلبه، وابتدؤوا في إطلاق المدافع عَلى المدينة لمدة يومين، حتَّى هدم أو حرق اغلب المدينة، كما أحرقت كذلك الثُّغُور الشّامية قصد استخلاصها من محمّد علي باشا وإرجاعها إلى الدّولة العُثمَانِيّة.

وفي أثناء هذه المدة عرض الكومودور نابير عَلى محمّد علي باشا أن الحكومة الإنكليزية تسعى لدى البَاب العالي في إعطاء مصر له ولورثته لو تنازل عن الشّام ورد السفن التركية إلى الدّولة العلية فامتثل لهذا الأمر وقبل هذه الشُّرُوط لحفظ مصر لذريته وتم بينهما الاتفاق في نوفمبر سنة ١٨٤٠، ولم يقبل البَاب العالي هذا الاتفاق إلا بعد تردد وإحجام.

مسألة لبنان: وبمجرد إخلاء الجُيُوش المصريَّة لبلاد الشّام وجبال لبنان تحركت في سكانها الدوافع الدّينيّة القديمة الكامنة، وزادت الدسائس الأجنبيّة لإضرام نار الشقاق وبذر الفتن الداخليَّة توصلا لغاياتهم، وكانت فرنسا مساعدة للمارونية الكاثوليك، وإنكلترا معضدة للدروز ضدهم

لتلجئهم لترك المذهب الكاثوليكي واعتناق المذهب البروتستانتي، فيدخلوا بذل تحت حمايتها الفعلية، ولا يعود لفرنسا حجة حمايتهم لسبب مذهبي، وظن كلّ فريق من هَؤُلَاءِ التعساء أن الدّولة الّتي تغرره تود صلاح حاله وترقيه، ولم ينتبهوا لدخائل هذه السّياسة الخبيثة الّتي لا يتأخر أصحابها عن إهراق دماء الأبرياء توصلا لمآربهم، وبهذه الدسائس ساد الهياج في جميع أنحاء لبنان وظهر ما تكنه صدور سكانه من الأحقاد القوميّة والدّينيّة، حتَّى تعدى الدروز عَلى المارونية في سنة ١٨٤١، ودخلوا دير القمر وارتكبوا فيه ما تقشعر منه الأبدان من النهب والسلب، ثمّ قام الدروز ثانية في سنة ١٨٤٥، وقتلوا المسيحيين وحرقوا جثثهم ثمّ أضرموا النار في الدير بعد أن نهبوا كلّ ما به من المنقولات والأمتعة، بدون أن يحصل أقل أذى **للمبشرين البروتستانت من الأمريكان والإنكليز!!** الأمر الّذي يدل دلالة واضحة عَلى أن هذه المذابح لم تخل من تأثيرهم.

وبسبب هذه الإضطرابات المتعاقبة لم ير البَاب العالي بدا من التدخل في إدارة الجبل لمنع هذه الفتن، فعزل الأمير بشير الشهابي بعد خروج العساكر المصريَّة من الشّام، وعين مكانه واليا عُثْمَانِيّا، وأبطل بذلك جميع امتيازات سكان الجبل الممنوحة لهم قديما، فلم تقبل الدّول الأجنبيّة **الّتي صار تدخلها مألوفا**، وجربت الدّولة العُثْمَانِيّة حلولا عدّة كانت في كلّ مرّة ترضي هذا فتغضب ذاك، وزاد تدخل الدّول الأزمة تعقيدا، وحصلت مذبحة سنة ١٨٤٥ بين الطوائف، فأرسلت الدّولة جُيُوشها واحتلت البلاد سهلا وجبلا بصفة عسكريّة وأجرت فيها الأحكام العرفية ثمّ دارت المحادثات بين الدّول العظمى والباب العالي لتقرير ما يضمن السَّلام في الحال والاستقبال فاجتمعت آراؤهم أخيرا بعد مداولات طويلة واخذ ورد واتفق عَلى حلّ وسط، وبذا انتهت مسألة لبنان مؤقتا، وبما أن الدروز لم يقبلوا هذه التسوية إلا مؤملين نوال زيادة عما فيها طبقا لوساوس مندوب إنكلترا لهم بأنها ستمنحهم مع الوقت السيادة عَلى جميع الشّعوب الساكنة بلبنان، واستمرت الفتن جارية مجراها حتَّى حصلت مذبحة سنة ١٨٦٠ وتدخلت فرنسا عسكريّاً لحماية المارونية، وانسحبت ثانياً بعد توطيد الأمن وحفظ حقوق الموارنة.

حرب القرم وأسبابها:

كانت المنافسات دائمة بين قساوسة الأرثوذكس والكاثوليك بشأن التملك أو إقامة شعائر دينهم في الكنائس المعتبرة عندهم في مدينة القُدس، وكانت فرنسا الحائزة بمقتضى عدّة معاهدات قديمة تدعم الكاثوليك، وكانت روسيا تسعى من جهة أُخرى لتجريد الكاثوليك من هذا الامتيازات لإعطائها للأرثوذكس لتتمكن بواسطتهم من بث سياستها ونشر نفوذها بين رعايا الدّولة العُثمَانِيّة المتمسكين بهذا المذهب، والبالغ عددهم زيادة عن عشرة ملايين نسمة، ثمّ لما عين نابليون الثّالث رئيسا للجمهوريّة الفرنسية الثّانية باسم البرنس لويس نابليون، فاتَح الدّولة العُثمَانِيّة في هذه المسألة، فعين البَاب العالي لجنة مشكلة من عدّة أعضاء مختلفي المذهب لفصلها بمقتضى المعاهدات القديمة، فقررت اللجنة بعد عدّة اجتماعات متوالية الأولوية للكاثوليك في امتلاك عدّة كنائس وأديرة، فعارضت روسيا في نفاذ هذه الاتفاقية، وهددت البَاب العالي بالحَرب لو أمر بنفاذها.

وفي أثناء ذلك عمل القيصر نيقولا عَلى سبر أفكار السّير هاملتون سيمور سفير إنكلترا لدى حكومته مظهرا له ضرورة اتحاد دولتي روسيا وإنكلترا معا عَلى إضعاف نفوذ فرنسا في الشّرق وأخذ الاحتياطيات، لتجزئة بلاد الدّولة العُثمَانِيّة حيث صار من المستحيل شفاء هذا (الرجل المريض) كما صارت تدعى الدّولة العُثمَانِيّة في المحافل الدّولية آنذاك عَلى حد زعمهم، وعرضت روسيا أن تتساهل مع إنكلترا لو ساعدتها عَلى نفاذ مشروعها في إعطائها القطر المصري وجَزِيرَة كريت، فلم يجبه السفير الإنكليزي جوابا شافيا، بل أجاب القيصر أن الأولى معالجة هذا المريض وتعهده بالعناية حتَّى ينقه من مرضه، لأنه لو مات فستحصل حُرُوب أوربية تهدر فيها الدِّماء انهارا عند تقسيم تركته، ولم يكن ذلك من الدّولة الإنكليزية حبا بتقوية الدّولة العُثمَانِيّة أو شغفا ببقائها، بل خوفا من امتداد روسيا في الشّرق واحتلالها الآستانة فتشارك عندها إنكلترا في ملك البحر الّذي انفردت هيَ به.

ولما رأى إمبراطور روسيا عدم إصغاء إنكلترا لطلباته فاتح سفير فرنسا في أمر التساهل معها عَلى تقرير الأمور في بلاد فِلَسطِين طبق مرادها، وعرض عليه أن تتساهل روسيا أيضا مع فرنسا في

مقابلة ذلك بل وتساعدها عَلى امتلاك القطر التونسي لتقوية نفوذها في بلاد الغرب! ومراقبة إجراءات إنكلترا في جَزِيرَة مالطة، لكنه لم يجد من السفير الفرنساوي أيضا أذنا صاغية.

فتحقق للعموم من ذلك أن قصد روسيا الوحيد هو إعلان الحَرب عَلى الدّولة العُثمَانِيّة، وتقسيم ممالكها ولذلك أرسلت فرنسا سفنها البحرية إلى مياه اليونان سنة ١٨٥٣ واستعدادا للحوادث الّتي لم تكن في الحسبان، أما إنكلترا فأذنت لمراكبها بالتربص في مالطة لحين صدور أوامر جديدة لها، وفي أثناء ذلك كانَ البرنس منشيكوف يبذل جهده لدى البَاب العالي للحصول عَلى تجديد شروط معاهدة (خونكاراسكله سي) القاضية بان يكون لروسيا حماية جميع المسيحيين الموجودين ببلاد الدّولة، وكان البَاب العالي يماطله في الإجابة، ثمّ أرسل للباب العالي بلاغا نهَائِيّاً وقطع السفير الرُّوسي العلاقات مع البَاب العالي وبارح الآستانة عَلى إحدى مراكب روسيا.

ولما أبلغت الدّولة صورة هذا البلاغ إلى إنكلترا تحققت من سوء نية روسيا نحو الدّولة العُثمَانِيّة، فانضمت إلى فرنسا وأرسلت إلى سفنها بمالطة أن تنضم إلى السفن الفرنسية وتتحد معها في كافّة أعمالها، ومن ثمّ ظهر لجميع أوروبّا أن فرنسا وإنكلترا متحدتان عَلى حماية الممالك العُثمَانِيّة ضدّ أطماع روسيا، ثمّ أصدرت هاتان الدّولتان أوامرها إلى مراكبها سنة ١٨٥٣ بالاقتراب من بوغاز الدردنيل لمد يد المساعدة للدولة العُثمَانِيّة إذا اقتضى الحال.

واجتازت عساكر روسيا نهر البروث الفاصل بين أملاك الدّولتين في يوليو سنة ١٨٥٣ واحتلت الولايتين فعلا إذ لم يخطر ببال روسيا أن الدّول الغربيّة تتألب مع الدّولة العُثمَانِيّة عَلى محاربتها لحماية الدّولة.

واهتم مندوبو بروسيا والنمسا بالاتحاد مع مندوبي فرنسا وإنكلترا في التوفيق بين الخصمين وإصلاح ذات بينهما منعا لسفك الدِّماء واشتعال نيران الحَرب الّتي ربما عمت أوروبّا بأسرها، وانفض المؤتمر بدون جدوى، ثمّ اجتاز عمر باشا النهر في ٣ نوفمبر ١٨٥٣، وبعد موقعة عظيمة هائلة انتصرت الجُيُوش العُثمَانِيّة عَلى الجُيُوش الرُّوسية وأخرجتها من معاقلها الكائنة عَلى ضفة النهر اليسرى قهرا، وفاز عمر باشا وجُيُوشه فوزا مبينا أدهش جميع العالم لعدم توقع انهزام روسيا، وعندما شاهد

الإمبراطور نيقولا هذا الحال اجتمع مع فرنسوا جوزيف إمبراطور النمسا وفاوضه في خوفه من نجدة الدّول الغربيّة فرنسا وإنكلترا للدولة العُثمَانِيّة وسأله المساعدة والتَّحالف فلم يقبل الإمبراطور ذلك واظهر له شديد أسفه.

وفي هذه الأثناء تقدمت السفن الفرنسية والإنكليزية إلى بوغاز البوسفور برضا البَاب العالي لتكون اقرب إلى البحر الأسود وإلى حماية الآستانة لو حاول الرُّوس الهجوم عليها بحرا.

وفي نوفمبر سنة ١٨٥٣ فاجأت السفن الرُّوسية السفن التركية الموجودة في ميناء سينوب عَلى البحر الأسود ودمرتها عن آخرها تقريبا مع أنها كانت تعهدت لدولتي فرنسا وإنكلترا بعدم إتيان أي أمر عدواني في البحر الأسود، ومن ذلك الحين صارت الحَرب بين هذه الدّول وروسيا أمرا واقعا لا محالة، لحماية الدّولة العُثمَانِيّة من عدوان روسيا وأطماعها، لا حبا في الدّولة العُثمَانِيّة، بل خوفا من امتداد نفوذ روسيا وبسط يدها عَلى الآستانة كما أسلفنا.

وفي مارس سنة ١٨٥٤ أمضي بين فرنسا وإنكلترا والدّولة العلية في مدينة الآستانة اتفاق عَلى محاربة روسيا وحماية الدّولة العُثمَانِيّة، وأرسل نابليون الثّالث رسالة إلى مجلس النواب يخبره بإعلان الحَرب عَلى روسيا بالاتحاد مع إنكلترا.

وبعد ذلك أخذت الدّولتان المتحالفتان في جمع الجُيُوش وما يلزم لها من المؤن والذخائر والسفن اللازمة لنقلها، وقبل وصول الجُيُوش البرية كانَ القِتَال قد ابتدأ فعلا في البحر الأسود، وفي أثناء ذلك أعلن الإمبراطور نقولا الحَرب عَلى الدّول المعادية له ثمّ زحف الحلفاء بجُيُوشهم، ولما انسحب الجيش الرُّوسي عن ولايتي الأفلاق والبغدان، احتلها الجيش النمساوي!

ولم تعترض روسيا ضدّ هذا الاحتلال خوفا من إغضاب النمسا ودخولها في التَّحالف المنعقد ضدها لتفضيلها وجود جُيُوش النمسا فيهما عَلى وجود الأتراك أو الفرنسيين لعدم ميل النمسا للحرب، ثمّ أرسلت فرنسا وإنكلترا سفنها إلى بحر البلطيق والبحر الأبيض الشمالي، والمحيط الهادي لضرب الثُّغُور الرُّوسية، وفي أواخر هذه السنة دارت الاتّصالات ثانياً في مدينة فيينا للوصول إلى

الصُّلح وإيقاف أضرار الحَرب قبل اشتدادها، وذلك أن فرنسا وإنكلترا عرضتا عَلى النمسا أن تتحد معهما ضدّ روسيا إن لم تقبل روسيا الصُّلح قبل ختام السنة وتتعهد للدول الأربع بطلباتها وهي:

أولاً: عدم استئثار روسيا بحماية مسيحي الدّولة العُثمَانِيّة وحماية ولايتي الافلاق والبغدان.

ثانياً: حرية الملاحة لجميع الدّول في نهر الطونه.

ثالثا: تعديل المعاهدات المختصة بالمرور في ضائق الآستانة وخصوصا معاهدة سنة ١٨٤١.

رابعا: وضع قاعدة جديدة لتوازن القوى في البحر الأسود فتكون هذه المعاهدة الثلاثية الجَدِيدة نافذة المفعول.

ثمّ في ٢٨ ديسمبر اجتمع سفراء إنكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا عند وزير خارجية فيينا وقرروا إعطاءه المهلة المطلوبة وبذلك انتهت هذه السنة والآمال متجهة نحو الوصول إلى صلح، ثمّ هاجم الرُّوس العُثمَانِيّين ومن كانَ معهم من الجنود المصريَّة، في مدينة اوباتويا، فردهم عمر باشا القائد العُثمَانِيّ عَلى أعقابهم وكان النّصر بمجرد فضل الجُيُوش الإِسْلَامِيّة، وفي مارس توفي إمبراطور روسيا وخلفه ابنه اسكندر الثّاني.

وفي يناير سنة ١٨٥٥ أمضى فكتور عمانويل ملك البيمونتي بايطاليا معاهدة هجومية ودفاعية ضدّ روسيا، وأرسل إلى بلاد القرم جيشا مؤلفا من ثمانية عشر ألف مقاتل، وفي ٢٦ أغسطس انتصر المتحدون في واقعة تراكيتو وأخلى الرُّوس مدينة سباستوبول بعد أن احرقوها عن آخرها، واحتلتها الجُيُوش المتحدة، أو بالأحرى احتلوا أطلالها، وبعد ذلك سارت الجُيُوش المتحدة نحو مدينة قلبرون فاحتلوها، وفي اليَوْم التّالي هدم الرُّوس قلاع مدينة اوتشاكوف وأخلوها قاصدين داخليَّة البلاد، ولولا ابتداء فصل الشتاء الّذي يأتي مبكرا بتلك البلاد، لما وجدت روسيا من الجُيُوش ما يكفي لإيقاف أعدائها عن المدينة كيف المقدّسة لديهم، وفي أثناء سنة ١٨٥٥ أطلقت سفن فرنسا وإنكلترا قنابلها عَلى عدّة ثغور في بحر بلطيق وعطلت التجارة الرُّوسية بالمرة، وكذلك حاصرت مدخل البحر الأبيض الشمالي ومنعت المراكب التجاريَّة من الدخول فيه بالكلية، وبعد ذلك لم تحصل وقائع حربية مهمة بل دخلت المسألة في دور سياسي لتحقق اسكندر الثّاني عدم الفوز خُصُوصَاً وان النمسا قد أظهرت له

العداوة جهارا بعد سقوط سباستوبول وانضمت مملكة السويد إلى التَّحالف الأوروبي ضدها، وانعقد مؤتمر جديد في فيينا في شهر فبراير سنة ١٨٥٥، وتظاهرت باقي الدّول ضدها خُصُوصَاً مملكة السويد الّتي كانت تستعمل معها روسيا طرق التهديد والوعيد للحصول عَلى بعض امتيازات تختص بالصيد عَلى شواطئ النرويج، فأبرمت مع فرنسا وإنكلترا معاهدة هجومية ودفاعية ضدّ روسيا في ٢٠ نوفمبر سنة١٨٥٢ وأعلنتها رسميا لجميع الدّول، وبذلك تحققت روسيا انه صار من المستحيل عليها الانتصار عَلى جميع هذه القوى المتألبة ضدها ومالت إلى السلم قلبا وقالبا منتظرة اقل مفاتحة من الدّول الغربيّة فتلبيها بالقبول، وفي أواخر سنة ١٨٥٥، عرضت النمسا أن يرسل إلى روسيا بلاغا نهَائِيَّاً بطلبات الدّول الأصلية مع ما سبق عرضه من الاقتراحات أثناء المؤتمر الّذي انعقد أخيرا بمدينة فيينا في ابريل سنة ١٨٥٥، وان لم تجب روسيا جميع هذه الاقتراحات يستأنف القِتَال في ربيع سنة ١٨٥٦ بكل شدة وصرامة وتنضم إلى الجُيُوش المحاربة جُيُوش النمسا ومملكة السويد والنرويج، فأقرت الدّول عَلى ذلك وقبلت روسيا هذه الإقتراحات الأكثر تأثيرا عَلى نفوذها مما رفضته في السابق، وبعد محادثات طويلة تمَّ الاتفاق عَلى أن ينعقد مؤتمر سلام جديد في مدينة باريس لتقرير السلم نهَائِيَّاً سنة ١٨٥٦ واختار لرئاسته وزير خارجية فرنسا وفيه أمضيت جميع بنود معاهدة باريس الشهيرة الّتي أوصلت نابليون الثّالث إلى أوج فخاره وأعادت لفرنسا سابق مجدها، إذ أنها لم تشترك في مثل هذه الحَرب من عهد نابليون الأوّل وحفظت للدولة العُثْمَانِيّة أملاكها من غوائل روسيا، وتبين فيما بعد أن الدّول الأوروبية دافعت عن الكعكة والغنيمة الّتي ستتقاسمها فيما بعد!!

ومما زاد في أحوال الدّولة العُثْمَانِيّة ارتباكا، تدخل الدّول في الشؤون الداخليَّة ومنعها الدّولة العُثْمَانِيّة من محاربة الثائرين، بتهديدها بقطع العلائق السّياسيّة ونزول سفرائهم إلى مراكبهم بل وإرسال بعض السفن الحَربية لتقرير مطالب الثائرين، كما أرسلت فرنسا وروسيا مراكبها في سنة ١٨٥٨ إلى سواحل الجبل الأسود لمنع الجُيُوش العُثْمَانِيّة من الدخول بهذا القطر ومعاقبة أميره عَلى مساعدة الثائرين في البوسنة والهرسك، ومن هذا يتضح جليا أن الدّولة كانت في أحرج المواقف لعدم وجود مخلص لها أو صديق بين جميع الدّول المسيحية المتألبة عليها سياسيّاً لإضعافها وعرقلة جميع

مساعيها الإصلاحية في داخل بلادها، وتدخل تلك الدّول في أمورها الداخليَّة المحضة، حتَّى خيل للمتأمل أن سفراء الدّول بالآستانة صاروا شركاء لوزراء الدّولة في جميع الأعمال في تلك الفترة.

وفي أوائل سنة ١٨٥٨ توفي الصدر الأعظم رشيد باشا، وخلفه في هذا المنصب الخطير خُصُوصَاً في هذه الظّروف السّياسيّ الشهير عالي باشا وولى فؤاد باشا وزيرا للأشغال الخارجيّة وكان كلّ منهما عَلى جانب عظيم من الحذق في الأعمال السّياسيّة وعالما بمقاصد أوروبّا السيئة نحو الدّولة الإِسْلَاميّة الوحيدة فعملا عَلى تسوية جميع المسائل الداخليَّة بحكمة وسداد رأي، حتَّى لم يدعا لسفراء الدّول حقا في التدخل، إذ لم يمض طويل زمن حتَّى عادت السكينة إلى بلاد البوسنة والهرسك، لوعد أهاليها بإصلاح أحوالهم، وكذلك انهيا مسألة الجبل الأسود بتحديد الحدود بمعرفة لجنة مشكلة من أربعة أعضاء (فرنسي وروسي وعُثْمَانِيّ وجبلي) وقبلا قرار هذه اللجنة مع إجحافه بحقوق السلطنة، لكن لما كانَ السكون وانتظام الأحوال.

ثمّ حصلت الحَرب بين الموارنة والدروز ١٨٦٠ وأدت إلى تدخل الجيش الفرنسي في لبنان، وبعد خروج الجُيُوش الفرنسية من بيروت بعشرين يوما توفي السُّلطَان عبد المجيد خان في يونيو سنة ١٨٦١، وكانت مدّة حكمه ٢٢ سنة ونصف وفي يوم موته بويع بالخِلافَة لأخيه.

(٣٢) - السُّلطَان الغازي عبد العزيز خان (١٨٦١- ١٨٨٦م):

وقد جرت في عهده جملة من الإصلاحات الداخليَّة منها:

** وضع مجلة الأحكام العدلية **والقوانين الّتي أجازت للأجانب امتلاك العقارات وكافة الحقوق العينية والتصرف فيها بجميع المالك العُثْمَانِيّة بعد أن كانت ممنوعة عنهم كلية وذلك في سنة ١٢٨٥ الموافقة سنة ١٨٦٩.**

** ومنها وضع مجلة الأحكام الشَّرعيَّة ليعمل بها في المحاكم النّظامية الّتي أنشئت وكان جاريا إصلاحها، وكان وضع هذه المجلة بمعرفة لجنة من أشهر متشرعي ذلك العصر من العُلَماء والقانُونيّين والإداريين في الدّولة العُثْمَانِيّة.

وبعد الحوادث الّتي مر ذكرها اقتنع السُّلطَان أن تحالف الدّول الأوربية مع الدّولة في حرب القرم وما بعدها لم تكن نتيجة إلا إضعافها بالتدخل في شؤونها الداخليَّة ومساعدة الطوائف المسيحية الخاضعة لها عَلى الانشقاق عنها وبث روح الفتن والفساد في ممالكها تحت غطاء الحريَّة ونشر العلوم، وأن كلّ ذلك يعود بالنفع عَلى روسيا جارتها القوية وعدوتها القديمة، لاسيما وقد عدَّل الدّول بعد الحَرب الفرنسية الألمانية أهمّ بنود معاهدة باريس الّتي أبرمت بعد حرب القرم لحفظ التوازن في البحر الأسود وعدم مراعاتها عقب إبرامها في حق ولايتي الأفلاق والبغدان، فلهذه الاسباب اعتقد السُّلطَان أن الأولى والأنجح لسياسة الدّولة هو التباعد عن الدّول الغربيّة والتَّحالف مع روسيا، وعضده في هذا الفكر الصدر الأعظم محمود نديم باشا، فأكثر السُّلطَان من الاجتماع مع سفير روسيا بالآستانة، والمتواتر وان لم تثبته أوراق رسمية أنهما كانا يسعيان لوضع أساس معاهدة هجومية ودفاعية يكون من أهمّ بنودها الاختصاص بجميع بلاد الشّرق وأن تتبع الولايات الإِسْلَاميّة الّتي يغلب فيها العنصر الإِسْلَاميّ للدولة العلية الإِسْلَاميّة، وضم جميع الأقاليم المسيحية أو الّتي يسود فيها هذا العنصر للدولة الرُّوسية ولما شاع هذا المشروع، لم يرق للدول الأوروبية الّتي لها مصالح في الشّرق، وخصوصا إنكلترا، فاخذ عمالهم وسفراؤهم الظَّاهِرون والسريون يعملون حتَّى اقنعوا الوزراء بوجوب عزله وصادفت مساعيهم أذنا صاغية عند بعض العُلَماء لما خالج صدورهم من عدم الميل للسلطان بسبب فسوقه العَلنيّ وزيارته معرض باريس وحضوره المسارح والمراقص، فقد كانَ خليفة (عكروتا) كما يدعو أمثاله أهل الشّام.

و أصدر شيخ الإِسْلَام فتوى بوجوب خلعه هذا نصها: (إذا كانَ زيد الّذي هو أمير المُؤمِنِين مختل الشعور وليس له إلمام في الأمور السّياسيّة وما برح ينفق الأموال الميرية في مصارفه النّفسانية، في درجة لا طاقة للملك والملة عَلى تحملها، وقد اخل بالأمور الدّينيّة والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة، وكان بقاؤه مضرا بها فهل يصح خلعه ؟: الجواب: يصح، كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه).

وخلع في ٣١ مايو ١٨٧٦ م، ثمّ حصلت المبايعة للسلطان الجَدِيد مراد خان الخامس من جميع الحاضرين عَلى الأسلوب المتبع.

(٣٣) - السُّلطَان مراد الخامس (مايو١٨٨٦- أغسطس ١٨٨٦ م):

هو ابن السُّلطَان عبد المجيد خان ارتقى منصب الخِلافَة في ٣١ مايو ١٨٧٦ وقيل أنه كانَ متعلما متثقفا بالثقافات الغربيّة، مقتنعا بالمساواة بين جميع أصناف رعيته، ولكنه زُعم أنه ظهرت عليه علامات الاضطراب العصبي عقب توليته بنحو أسبوع ثمّ ازدادت شيئا فشيئا، وكان الصدر الأعظم يخفي هذا الأمر عن العموم، لكن ذاع خبره لعدم إجراء الاحتفال بتسليمه السّيف السلطاني في جامع أبي أيوب الأنصاري، حسب العادة، ولعدم مقابلته قناصل الدّول ليقدموا إليه أوراق تجديد تعيينهم لدى حكومته، وأخيرا لما اشتد عليه الحال استدعى الوزراء الطبيب ليدز ورف النمساوي الشهير بمداواة الأمراض العقليَّة، فحضر وبعد أن فحصه ولازمه عدّة أيّام متفرسا كلّ ما يبدو منه من الأقوال والإشارات، واستعلم عن عاداته وكيفِيَّة معيشته قَالَ بتعسر برئه من هذا المرض، فتشاور الوزراء في الأمر ثمّ عرضوا عَلى أخيه عبد الحميد أفندي أن تسلم إليه مقاليد الأحكام حيث حكم الأطباء بعدم لياقة أخيه السُّلطَان مراد لإدارة مهامها، واجتمعوا في يوم الأربعاء ١٠ شعبان سنة ١٢٩٣ ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٦ وقرروا بوجوب المبايعة لمولانا السُّلطَان عبد الحميد خان الثّاني، واستفتوا مولانا شيخ الإِسْلَام في الأمر فأفتى بوجوب عزله وهذه نص الفتوى: (إذا جنَّ إمام المُسلِمِين جنونا مطبقا ففات المقصود من الإمامة، فهل يصح حلّ الإمامة من عهدته ؟ الجواب: يصح والله اعلم، كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه).

أقول: ويجب النَّظر بعين الشك إلى ما يرويه المؤرخون عن تلك المَرحَلَة الّتي سيطر فيها الماسون عَلى أمور الدّولة العُثمَانِيّة الداخليَّة والخارجيّة، بدءا من مرحلة ما بعد السُّلطَان عبد المجيد والله أعلم بتفاصيل هذه الواقعة، وشهودها من الطبيب النمساوي، إلى آخر من تولاها.

(٣٤) - السُّلطَان الغازي عبد الحميد خان الثّاني (١٨٨٦- ١٩٠٩ م):

تزايدت ضغوط المفسدين عَلى السُّلطَان من أجل إلزامه بالدستور الّذي كانَ أهمّ أهدافه مساواة المُسلِمِين بالرعايا من اليَهُوْد والنّصَارى، وتمكن الفساد باستلام مدحت باشا الصدارة سنة ١٨٧٦ وكان من أشد المنادين بهذه الإصلاحات.

والحقيقة – كما أشرت آنفا – فإنه يجب النَّظر بعين الريبة والتدقيق لمعظم ما كتب عن تاريخ الدّولة العُثمَانِيّة خلال القرن الأخير من حياتها، لأن الماسون واليَهُوْد كانوا قد تغلغلوا في الجيش وعموم دوائر الدّولة، ولم يتيسر لي الإطلاع عَلى مصادر تفصيلية عن تاريخ تلك المَرحَلَة، ويُستنتج مما بلغنا عن مؤامراتهم عَلى السُّلطَان عبد الحميد الّذي انقلبوا عليه، أن تلك الدسائس كانت قد بدأت قبل عهده بعدة عقود، منذُ زاد نفوذ القناصل الأوربيين، وازداد تعلق الطّبقة الجَدِيدة من السّياسيّين والضُّبّاط، وحتى بعض السّلاطين بالنموذج الأوربي للحضارة والسّياسة، ونهش الماسون واليَهُوْد في بنية الدّولة، إلى أن آلت لإسقاطها عَلى يد ربيب يهود الدونمة المدعو (أتاتورك)!

- ولنتأمل فيما كتب فريد بك المحامي (صاحب مصدرنا الأساسي (كتاب تاريخ الدّولة العُثمَانِيّة)، ويبدو أنه مصري من أصل تركي، وقد نشر كتابه سنة ١٩٠٩ فيما يبدو والله اعلم، وكتابه يؤيد(جَمعيَّة الإتحاد والترقي) الماسونية، الّتي أشرفت عَلى خلع السُّلطَان عبد الحميد، فقد كتب يقول:

الدستور العُثمَانِيّ والنهضة الوطنيّة والإصلاحات في الدّولة العُثمَانِيّة:

(توفي السُّلطَان سليمان القانُونيّ سنة ١٥٦٦ م والدّولة العلية في إبَّان مجدها وأوج عظمتها وكانت ممالكها تحد شرقا بالحدود الهندية وغربا بالمحيط الأطلنطي وكانت أوروبّا ترهب سطوته وتخشى قوته، فخلفه من بعده ملوك لم يتعقبوا خطواته ولم ينهجوا منهجه لاسيما وقد تألبت عليها الدّول الأوروبية واختلفت عليها الفتن الداخليَّة، فبدأت في الانحطاط وانسلخت منها أجزاء كثيرة، وكانت أحيانا تنحط إلى أن تولى الخِلافَة السُّلطَان سليم الثّالث سنة ١٧٨٩، والبلاد في اختلال والأحكام في ضعف والإنكِشَارِيّة قابضون عَلى زمام الأمور يولون من شاؤوا من السّلاطين، ويخلعون من شاؤوا ويقتلون من لم يسر وفق أهوائهم وأغراضهم، والبلاد في فوضى كادت تمزق شملها، فهاجه حب الإصلاح وصرح بميله إلى تنظيم الجند عَلى النمط الحديث وتسليحهم بالأَسْلِحة الحديثة الاختراع فلم يوافق

ذلك الإنكِشَارِيّة فبطشوا به فمات والإصلاح في مهده، {**وانتبه لمديح الكاتب فإن السُّلطَان سليم هو أول من جاهر بالفسوق وبعملية التغريب وخلع بفتوى من المفتي**}.

عَلى أن الفكرة رسخت في أذهان العُثمَانِيّين فتلقاها السُّلطَان محمود وعمد إلى الإصلاح من الوجهة الإدارية والعسكريّة فبدد جند الإنكِشَارِيّة واحل محلهم جيشا منظما واخذ يبعث بمنشورات الإصلاح إلى الولاة والحكام ولكنه توفي ولم يتمم من فروع الإصلاح إلا تنظيم الجند تنظيما غير تام، وكانت فكرة الإصلاح قد سرت بين فئة من رجال الدّولة فقاموا يبثونها عَلى عهد السُّلطَان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز وأعظمهم شأنا وأعلاهم يدا مصطفى رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا، فلما توفي السُّلطَان محمود وخلفه السُّلطَان عبد المجيد، نشر خط الكلخانة المشهور سنة ١٨٣٩ م أي في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هجرية، فكانت له ضجة اهتزت لها أوروبّا **واخذ رجال الدّولة منذُ إصدار ذلك الخط الهمايوني ينظمون القوانين الخاصّة لكل فرع من فروع القضاء**، ثمّ تألفت لجنة جمعت أعاظم الأساتذة العُثمَانِيّين فألفوا المجلة الشَّرعيَّة الّتي صدرت الإِرادَة الشاهانية من السُّلطَان عبد العزيز عام ١٢٨٩ هجرية بالسير حسب نصوصها وسن قانون الأراضي سنة ١٢٧٤ هجرية وقانون الطابُو سنة ١٢٧٥ هجرية وقانون الجزاء سنة ١٢٧٤ هـ **وكل هذه القوانين مقتبسة من القوانين الفرنسية مع مراعاة نصوص الشّريعة الإِسْلَاميّة** (!!) ثمّ وضع قانون التّابعية (الجنسية) العُثمَانِيّة وتنظيم المحاكم الشَّرعيَّة!والمحاكم النّظامية والمحاكم التجاريَّة{**وهي قوانين وضعِيَّة**} ونظامات الإدارة الملكية، ونظام إدارة الولايات، ونظام شورى الدّولة، ووضعوا نظاما للمعارف، ونظاما للمطبوعات، ونظامات أُخرى للمطابع والطبع وحقوق التأليف والترجمة، ونظامات للرسومات وآخر للمعادن وغيره للطرق والمعابر وغير ذلك مما يقتضيه سير الحضارة ويلائم حالة الأُمّة، وبالجملة فإنهم لم يتركوا شيئا من لوازم إدارة الدّولة حتَّى دونوا له قانونا، فمجموع هذه القوانين والنّظامات كانَ معروفا في بلاد الدّولة العلية **بالدستور**.

{وبالطبع فقد كانت مبارزة الله تَعَالَى بالحَرب بالتَّشريع من دونه أول بوادر البوار والخسران وتألب الأَعدَاء، فإنه:

﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت]

ومع ذلك فكان الحكم مطلقا وإِرادَة السُّلطَان فوق كلّ قانون، وفي المدة الوجيزة الّتي جلس فيها السُّلطَان مراد عَلى سرير الملك كانَ **مدحت باشا** وحزبه الحر قد انتهى من إعداد القانون الأساسي وترتيب نظام مجلس المبعوثين، {ومدحت باشا هذا هو رأس الأفعى الماسونية كما سيأتي تعريفه وبيانه}

القانون الأساسي والسلطان عبد الحميد:

خلع السُّلطَان مراد سنة ١٢٩٣ هجرية الموافق ١٨٧٦ م وجلس السُّلطَان عبد الحميد عَلى عرش الخِلافَة وكان قد وعد **رئيس الأحرار مدحت باشا** قبل جلوسه عَلى العرش بمنح القانون الأساسي وإمتاع الأُمّة العُثمَانِيّة بالحريَّة، إلا أن عبد الحميد اظهر حين جلوسه علامات دلت عَلى إخلافه وعده، فمن ذلك انه جمع أعداء الأحرار وأضداد القانون الأساسي وعينهم في السراي لتقوية مركزه، مع انه وعد مدحت باشا بتعيين الشاعر العُثمَانِيّ الكبير نامق كمال بك زعيم الانقلاب، وضياء باشا الأديب السّياسيّ الشهير، مشيرا فاخلف وعده، كما انه كانَ يسعى جهده لاستمالة الرَّأي العام إليه فكان يخدع الأهالي، إلا أن الأحرار لم ينخدعوا واستعدوا للمناضلة في سبيل القانون الأساسي، وكانت الدّولة في ذلك الوقت تحارب الصّرب فهزمتها واستولى العُثمَانِيّون عَلى قلعة اكسناج ووضعت شروطا قاسية عليهم، ولكن هذه الدّول رفضت هذه الشُّرُوط وطلبت من البَاب العالي إبقاء الصّرب عَلى ما كانت عليه قبل الحَرب ومنح البوسنة والهرسك الّتي كانت ثائرة أيضا إدارة مستقلة مع منح البلغار مثلها، فكان ذلك سببا لطمع الصّربيين فقرروا محاربة الدّولة ونظم جُيُوشهم المهندسون الرُّوس.

ولكن كانَ الانهزام نصيبهم فاستولى العُثمَانِيّون عَلى الكسناج وبلغراد وساروا نحو العاصمة بلغراد فاستنجد أمير الصّرب بروسيا فأمر قيصرها سفيره في الآستانة بتقديم بلاغ شديد اللهجة إلى البَاب العالي، وقرر بعد ذلك عقد مؤتمر في الآستانة للنظر في أمر البلقان، وبالجملة فقد كانَ مركز الدّولة العلية حرجا للغالية لأن أوروبّا كلها تألبت عليها وكان يشتم من بلاغ سفير روسيا رائحة الحَرب، فقرر الوكلاء إذ ذاك منح القانون الأساسي للتخلص من هذه الغوائل، واقتنع السُّلطَان عبد

الحميد بوجوب تنفيذه لأنه كان من المستحيل قبول طلبات أوروبّا، ولاتقاء الأخطار الّتي تنجم من رفض تلك الطلبات كانَ الواجب إجراء بعض الإصلاح الّذي لا تتمكن أوروبّا من انتقاده هو تنفيذ القانون الأساسي.

{وانتبه لضغوط أوربّا لفرض الماسون، والدستور الوضعي عَلى الدّولة العُثمَانِيّة، إذ يتابع فريد المحامي فيقول:}

وفي ذلك الوقت تعين مدحت باشا صدرا أعظما، وذلك لأن الدّول الأوروبية كلها تثق به، لعلمها أنه رئيس الأحرار وواضع القانون الأساسي، وقرر السُّلطَان عبد الحميد تعيين مدحت باشا كي ينظر في مسألة (المؤتمر الأوروبي) الّذي قررت الدّول عقده في الآستانة، فكان أول ما قام به مدحت باشا هو إنهاء المنازعات بين الدّولة وبين الصّرب والجبل الأسود وبلغاريا، وفي ٢٤ ديسمبر ١٨٧٧ اجتمع الوكلاء والعُلَماء والأمراء وغيرهم في البَاب العالي ثمّ اقبل مدحت باشا وقرأ الإِرادَة الشاهانية الّتي منحت الأُمّة العُثمَانِيّة الدستور والحريَّة.

على أنه لم يكد ينتظم مجلس المبعوثين وينظر في شؤون الدّولة حتَّى صدرت الإِرادَة الشاهانية بفضه فتقوضت كلّ أركان ذلك البناء وابتليت الأُمّة بطور استبداد جديد لم تعهد نظيره حتَّى في عصور الظُّلمات، هدم السُّلطَان عبد الحميد ما بناه الأحرار ولكن رغما من ذلك لم تمت الفكرة في رؤوس العُثمَانِيّين فان هذا الجسم عَلى قوته الكامنة بل عَلى ضعفه الظَّاهِر لم يقو عَلى تحمل أذى الحكومة الحميدية بما انتابته من ضروب الظُّلم لاسيما وألوية الحُكُومَات الدستورية قد انتشرت من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق وكواكب الحريَّة قد سطعت في كلّ مكان.

فبدأ الأحرار يعملون ليل نهار حتَّى انتصروا ذلك الانتصار الباهر عام ١٩٠٨ فنالت الأُمّة العُثمَانِيّة الدستور بجِهَاد جيشها الباسل وانتشرت الفكرة الوطنيّة من عهد **مدحت باشا** وساعد عَلى انتشارها قصائد الشاعر العظيم **نامق كمال بك** الّذي أدركه الموت في سجن ماغوسه، وألف **نيازي بك** أول عِصَابة في رسنة، وسار عَلى إثره **أنور بك** و**رائف بك**، و**حسن بك**، و**صلاح الدّين بك** .

أما إدارة الحركة فكانت في سلانيك والجَمعيَّة العمومية للاتحاد والترقي في باريس وكان الجميع يجتهدون لنشر الأفكار الحرة والمبادئ الدستورية، ومما ساعدهم عَلى نشر أفكارهم انه لم يكن بينهم خائن فقويت حركتهم واتسعت حتَّى أصبح لا يمكن بقاؤها تحت طي الخفاء، وكانت لجنة الاتحاد والترقي وقفت مقدما عَلى القوى الّتي يمكنها أن ترتكن عليها فوجدتها كافية وهذه القوى مؤلفة من الفيلقين الثّاني والثّالث المعسكريّن في مناستر واسكوب وأدرنه وأزمير، ومن الفيلق الرَّابع المُعَسْكَر في أرض روم، فكان من المستحيل عَلى الحكومة الحميدية إرسال الفيلق الأوّل المُعَسْكَر في الآستانة لمحاربة الدستوريين لأنه لا يمكن تجريد العاصمة من الجند، ومع ذلك فكان أغلب الضُّبَّاط منضمين إلى الدستوريين، وكان جنود الفيلق الثّاني والثّالث أكثر من غيرهما فبدأ الدستوريون يؤلفون عِصَابات وطنيّة لمقاومة الحكومة إذا حاولت عرقلة مساعيهم فقامت عِصَابة نيازي بك ثمّ ظهرت عِصَابة أنور بك ورائف بك وحسن بك وغيرهم.

وانتهى الدستوريون من وضع الخطة في أواخر شهر يونيو سنة ١٩٠٨ فأرسلت الحكومة الحميدية شمسي باشا لاقتفاء أثر عِصَابة نيازي بك، ولكنه قتل قبل أن يبدأ في مهمته، وأرسلت أيضا من أزمير ثلاثين فرقة من فرق الرديف فانضمت إلى الدستوريين وقوت صفوفهم وفي يوم ٢١ و٢٢ و٢٣ يوليو أرسل الدستوريون التلغرافات إلى الصدر الأعظم من سالونيك ومناستر واسكوب وسيريس، هددوا فيها الآستانة بالزَّحف عليها إذا لم يعلن الدستور، فلما وصلت هذه التلغرافات إلى السُّلطَان عبد الحميد أصدر الإرادَة الشاهانية بمنح الدستور والقانون الأساسي.

الحادثة الإرتجاعية وخلع عبد الحميد:

تفرق شمل المستبدين منذُ إعلان الدستور وازداد النفور بينهم وبين لجنة الاتحاد والترقي فأخذوا يفكرون في اجتثاث أصول الفساد.

فشجعوا أولاًالجرائد عَلى الكتابة ضدّ الجَمعيَّة ثمّ قامت حامية الآستانة بإيعاز من أركان السراي ولخصوا مطالبهم في شكل ديني كي ينضم إليهم أهالي الآستانة وها هيَ مطالبهم:

١ - إحياء الشّريعة.

٢- عزل الصدر الأعظم وناظري الحَربية والبحرية.

٣ - طرد أحمد رضا بك وحسين جاهد بك وجاويد بك ورحمي بك وطلعت وإسماعيل حقي بك...الخ من المجلس.

٤- عزل محمود مختار باشا لأنه لم يشترك معهم.

٥- العفو عنهم.

فعقد مجلس المبعوثين اجتماعا فوق العادة ومع أن عدد الأعضاء لم يتجاوز الخمسين فإنهم قرروا إجابة مطالب الثوار وانتخبوا وفدا منهم ليبلغ السُّلطَان قرارهم فتعين إذ ذاك توفيق باشا صدرا أعظم وادهم باشا ناظرا للحربية وقرر العفو عن الجنود فبدأ أولئك يطلقون البنادق احتفالا وكان يبلغ عدد أولئك ثلاثين ألفا واجتمع المجلس مرّة أُخرى بعدها فقرر قبول استقالة الرَّئيس أحمد رضا بك وانقلبت لهجة الجرائد انقلابا إجباريا فباتت تتكلم عن السُّلطَان عبد الحميد كما كانت تتكلم عنه أيّام الاستبداد وكانت الحالة كذلك في الآستانة، فوردت الأنباء بمجيء الجنود من (الرُّوم ايلي) لحماية الدستور ومجلس المبعوثين، ثمّ حاصر جيش الحريَّة الآستانة فأوفد المبعوثون وفدا لمقابلته، ودخل الجيش تحت قيادة محمود شوكت باشا الآستانة وحاصر يلديز وحدثت هناك موقعة كبيرة انتهت بتسليم حامية يلديز ولكن السُّلطَان عبد الحميد استمر عَلى المُقاوَمة فقرر جيش الحريَّة أن يحمل الحملة الأخيرة فأطلقت القنابل عَلى حامية البَاب العالي والنادي العسكريّ واستولت عليهما ثمّ قبضت عَلى الكثيرين من أنصار الحكم القديم الّذين أثاروا الفتن ومن بينهم مراد بك الداغستاني، واعدم الجواسيس رميا بالرصاص، ويقدر عدد القتلى ١٢٠٠ قتيل وحاصرت الجنود الدستورية بعدها قشلاقات(مُعَسْكَرَات) اسكودار فاستولت عليها ولم يبق إذ ذاك أي خطر عَلى القانون الأساسي فعاد أعضاء البرلمان إلى الآستانة واجتمعت الجَمعيَّة العمومية لتتداول في أمر السُّلطَان عبد الحميد، وكانت النَّتِيجَة عزل السُّلطَان عبد الحميد وتولية السُّلطَان رشاد مكانه.

وتم يوم ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ تتويج السُّلطَان رشاد باسم السُّلطَان محمّد الخامس وبالجملة فان أنصار الاستبداد أثاروا فتنتهم الأخيرة فوقع الدستور في أزمة شديدة وتشتت شمل عشاقه وحماته، وترقب الملأ أن يعيد السُّلطَان عبد الحميد ما فعله مع الدستور الأوّل، ولكن كانت الرّوح الدستورية قد قويت في قلوب العُثمَانِيّين وارتكزت عَلى قوة الجند فاحتمل أنصار الدستور تلك الضربة بالصّبر والثّبات وتجدد النزاع الطبيعي بين الاستبداد والحريَّة وانتهى بخلع السُّلطَان عبد الحميد.

(...)إلا أن عبد الحميد الّذي طبع عَلى الاستبداد لم يرقه أن يرى أمته متمتعة بالحريَّة راقية أوج الكمالات منظّمة أمورها بنفسها مقيمة العدل فسولت له نفسه إحداث تلك الفتنة الارتجاعية لتقويض صروح الإدارة الدستورية ولولا أن أدرك الآستانة في ذلك الوقت بطل الحريَّة وقائد جيش الفدائيين محمود شوكت باشا، وبطلا الحريَّة نيازي بك وأنور بك لتم له ما أراده ولذهبت أتعاب **حزب الاتحاد والترقي الّذي جاهد في سبيل الحريَّة ثلاثين عاماً** أدراج الرّياح.

واجتمع المجلس العمومي اجتماعا سريا وخلع عبد الحميد بموجب فتوى من شيخ الإِسْلَام هذا نصها: (إذا اعتاد زيد الّذي هو إمام المُسلِمِين أن يرفع من الكتب الشَّرعيَّة بعض المسائل المهمة الشَّرعيَّة وان يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها وان يبذر ويسرف في بيت المال ويتصرف فيه بغير مسوغ شَرعِيّ وان يقتل الرعية ويحبسهم وينفيهم ويغربهم بغير سبب شَرعِيّ، وسائر أنواع المظالم ثمّ ادعى انه تاب وعاهد الله وحلف انه يصلح حاله ثمّ حنث وأحدث فتنة عظيمة جعلت أمور المُسلِمِين كلها مختلة، وأصر عَلى المقاتلة وتمكن منعة المُسلِمِين من إزالة تغلب زيد المذكور ووردت أخبار متوالية من جوانب بلاد المُسلِمِين أنهم يعتبرونه مخلوعا وأصبح بقاؤه محقق الضرر وزواله محتمل الصلاح فهل يجب احد الأمرين خلعه أو تكليفه بالتنازل عن الإمامة والسلطنة عَلى حسب ما يختاره أهل الحلّ والعقد وأولي الأمر من هذين الوجهين، الجواب: يجب. **كتبه الفقير السيد محمّد ضياء الدّين عفى عنه**).

فلما قرئت هذه الفتوى الجليلة عَلى الأعيان والمبعوثين سألهم سعيد باشا رئيس الأعيان الّذي كانَ يرأس الجلسة أتختارون خلعه أم تكليفه بالتنازل، فأجابوا بصوت واحد الخلع، الخلع.

وهذه ترجمة قرار هذا المجلس العمومي المُؤلّف من الأعيان والمبعوثين: يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ و١٤ نيسان سنة ١٣٢٥ / ٢٧ ابريل ١٩٠٩ م (قرئت الفتوى الشَّرعيَّة الموقع عليها بتوقيع شيخ الإِسْلَام محمّد ضياء الدّين أفندي في المجلس العمومي المُؤلّف من المبعوثين والأعيان، ورجح بالاتفاق وجه الخلع الّذي هو أحد الوجهين المخير بينهما، فاسقط السُّلطَان عبد الحميد خان من الخِلافَة الإِسْلَاميّة والسلطنة العُثْمَانِيّة، واصعد ولي العهد محمّد رشاد أفندي باسم السُّلطَان محمّد خان الخامس إلى مقام الخِلافَة والسلطنة.

[انتهى كلام فريد بك، وينتهي هنا التلخيص من كتابه بتصرف كبير.]

ولكن الحقيقة كانت غير ذلك الّذي زعمه محامي الإتحاد والترقي هٰذا، فقد كانت باختصار أن:

اليَهُوْد ومسألة فِلَسطِين وتناهب الدّول الاستعماريّة للعالم الإِسْلَاميّ كانت السبب الأساسي وراء خلع السُّلطَان عبد الحميد:

فقد كتب الشَّيْخ عبدالله عزام يقول في كتابه الهام جدا: (خط التّحول التّاريخي):

إن معظم الأحداث الكبرى الّتي جرت في المنطقة الإِسْلَاميّة – العربيَّة خاصّة – كانت ترمي إلى الهدف الكبير الّذي وضعه هرتزل ومن ورائه اليَهُوْد نصب أعينهم وهو الوصول إلى أرض الميعاد كانَ أمام اليَهُوْد عقبة كأداء لا يمكن تجاوزها وهي الدّولة العُثْمَانِيّة وعلى رأسها السُّلطَان عبد الحميد الثّاني الّذي حكم بين (١٨٧٦-١٩٠٩)

حاول اليَهُوْد أولاً إغراء السُّلطَان الصّالح عبد الحميد، فالسلطان عبد الحميد وصل إلى الخِلافَة في وقت كادت الماسونية تأخذ بخناق الدّولة حيث تمكن **مدحت باشا – أبو الأحرار كما يسمونه – وبعبارة أدق في نظرنا (أبو الماسونية آنذاك)** أقول تمكن أن يخلع خليفتين ويقتل السُّلطَان عبد العزيز عم السُّلطَان عبد الحميد، واشترط عَلى السُّلطَان عبد الحميد قبل أن يأتي إلى الحكم أن يعلن الدستور "أي الدستور العلماني الغربيّ الّذي يتساوى فيه اليَهُوْد والنّصَارى مع المُسلِمِين – وكان السُّلطَان عبد الحميد شخصية داهية ذكية معتزة بربها فقبل، **وبعد أن وصل إلى الحكم ألقى القبض عَلى مدحت باشا وأودعه السّجن في الطائف وأخيرا قتل مدحت في السّجن بطريقة ذكية مما أثار سخط العالم الّذي تحركه**

الماسونية عَلى السُّلطَان عبد الحميد، إلا أن تلاميذ مدحت واصلوا التخطيط للانتقام من السُّلطَان عبد الحميد.

ولنرجع إلى هرتزل الّذي توجه إثر انتهاء مؤتمر بال سنة (١٨٩٧) لمقابلة السُّلطَان عبد الحميد وأخذ معه حاخام القُسطَنْطينيَّة (موسى ليفي) وعرضوا عَلى السُّلطَان عروضا منها:

١- إنشاء أسطول عُثمَانِيّ.

٢- دعم سياسة العُثمَانِيّين في العالم الخارجي.

٣- مساعدة اليَهُوْد للسلطان في تحسين أوضاعه المالية.

٤- إنشاء جامعة عُثمَانِيّة في القُدس.

قَالَ هرتزل " مثلا لو رضي مولانا وباع لنا الأراضي الّتي ليس لها مالكون في فِلَسطِين بالثَّمن الّذي يقدره" فغضب السُّلطَان وقال: (إن أراضي الوطن لا تباع، إن البلاد الّتي امتلكت بالدِّماء لا تباع إلا بالثَّمن نفسه)

ولم ييأس هرتزل وقابل السُّلطَان مرّة ثانية (١٩٠١) وفي هذه المرة عرضوا عَلى السُّلطَان نفسه (١٥٠) مائة وخمسين مليونا من الجنيهات الذهبية الإنجليزية فقال (إنكم لو دفعتم ملء الأرض ذهبا – فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الإِسْلَاميّة والأُمّة المحمّدية ما يزيد عَلى ثلاثين سنة، فلن أسود صحائف المُسلِمِين آبائي وأجدادي من السّلاطين والخُلَفَاء العُثمَانِيّين).

ولقد كانت المقابلة هذه المرة مع (قرة صو) المحامي اليَهُوْدي الماسوني الّذي أشرف عَلى محفل سالونيك.

ولقد نقلت بعض المصادر أن السُّلطَان صاح في وجه هرتزل (أخرج من وجهي يا سافل) وصاح بالحاجب الّذي أدخله قائلا (أما كنت تعلم ما يريده هذا الخنزير مني)

فطار هرتزل مع قرة صو إلى إيطاليا وأرسل (قرة صو) برقية إلى السُّلطَان.

(ستدفع الثَّمن هذه المقابلة من نفسك وعرشك).

يقول هرتزل في مذكراته: (**ونصحني السُّلطَان عبد الحميد بأن لا أتخذ أية خطوة أُخرى في هذا السبيل لأنه لا يستطيع أن يتخلى عن أي شبر واحد من أرض فِلَسطِين إذ هيَ ليست ملكا له، بل هيَ لأمته الإِسْلَاميّة الّتي قاتلت من أجلها وروت التربة بدماء أبنائها.... وقال عبد الحميد: إن عمل المبضع في بدني لا أهون علي من أن أرى فِلَسطِين تقتطع من امبرطوريتي، ثمّ قَالَ: وفر نقودك يا هرتزل فعندما يذهب عبد الحميد ستأخذون فِلَسطِين مجانا**).

وبعد هذا صمم اليَهُوْد عَلى الإطاحة بعبد الحميد: وفي سنة (١٩٠٤) فجروا عربة أمام المَسجِد الّذي يصلي فيه السُّلطَان صلاة الجمعة ونجاه الله من الموت وقتل كثير من النّاس.

وتكالب الماسون عَلى إقصائه، ودفعت الماسونية بعملائها إلى أن تصدروا المناصب العليا في الدّولة أمثال طلعت باشا، أنور باشا – وزير الحَربية – أرستيدي باشا – رومي أصبح وزيرا للنافعة، جمال باشا – حاكم الشّام – مصطفى كما باشا قائد جبهة الشّرق العربيّ في الحَرب العَالَمِيّة الأولى جاويد باشا (دافيد باشا) – وزير المالية.

حسين جاهد يالشين أحد أعضاء لجنة التوفيق الثّلاثة (أمريكي وفرنسي وتركي) بين العَرَب واليَهُوْد وأصبح السُّلطَان يجد نفسه يوما بعد يوم محاطا برجال اشترتهم الماسونية من خلال جَمعيَّة (الإتحاد والترقي) وأصبحت قبضته تخف تدريجيا حتَّى استطاعوا أن يجبروه عَلى إعلان الدستور، فأنشأ مجلس المبعوثان (مجلس النواب) الّذي دخله اليَهُوْدي والنّصراني والمسلم وجاء (قرة صو) إلى مجلس المبعوثان.

وكان إعلان الدستور نصرا للنصارى واليَهُوْد في كلّ الأرض حتَّى أهدى **جورجي زيدان النّصراني – دار الهلال – كتابه الإنقلاب العُثمَانِيّ إلى الأبطال!!**؟ الّذين أعلنوا الدستور سنة (١٩٠٨)، ثمّ استطاع الماسون أن يحركوا الجيش بقيادة محمود شوكت – العربيّ – وللأسف – واجتمع مجلس النواب لينتزعوا قرارا بالإطاحة بالسلطان، ولقد كانت أصابع ناحوم حاييم (حاخام القُسطَنْطينيَّة) بارزة في الأمر، وقدم كتاب الخلع إلى السُّلطَان عبد الحميد ثلاثة.

١- قره صو. ٢-أستيدي باشا. ٣- عارف حكمت الّذي كانت أمه خادمة في قصر السُّلطَان فأخذ السُّلطَان ابنها هذا – عارف – وأدخله في البحرية حتَّى أصبح ياورا في البحرية.

كانَ إقصاء السُّلطَان عبد الحميد عن الخِلافَة في نيسان سنة (١٩٠٩) وكانت هذه أكبر طعنة وجهت للإسلام، وفي تلك الليلة الّتي نزل فيها السُّلطَان عبد الحميد عن سدة الحكم نستطيع القول بأن:

الإِسْلَام الفعلي أزيل من الوجود والشهود وسقطت فِلَسطِين – حقيقية – في يد اليَهُوْد.

يقول أنور باشا – أحد أقطاب الماسونية والإنقلاب عَلى السُّلطَان عبد الحميد مخاطبا جمال باشا أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟

نحن لم نعرف السُّلطَان عبد الحميد فأصبحنا آله في يد الصّهيونيّة واشترتنا الماسونية العَالَمِيّة، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية فهذا ذنبنا الحقيقي.

ويقول برنارد لويس: (لقد تعاون الإخوة الماسون واليَهُوْد سرا عَلى إزالة السُّلطَان عبد الحميد لأنه كان معارضا قويا لليهود، إذ رفض بشدة إعطاء أي شبر أرض لليهود في فِلَسطِين)[١].

---

(١)(الذخائر العظام/ ص: ٩٢١)



تركيا بعد السُّلطَان عبد الحميد:

سقط السُّلطَان المظلوم عبد الحميد بفعل الماسونية اليَهُوْدية، وأصبحت تركيا تسير من قبل (جَمعيَّة تركيا الفتاة، وجَمعيَّة الاتحاد والترقي) الّتي أضحت لعبة بيد الماسونية، فقد كانت القوميّة التركية الّتي يدعو إليها حزب الإتحاد والترقي بيد اليَهُوْد

وهكذا توالت النكبات عَلى تركيا، الخِلافَة ضعيفة تلعب بها جَمعيَّة الاتحاد والترقي – الدعاة القوميون – وهم علمانيون لا متدينون، والمحافل الماسونية تنتشر انتشار النار في الهشيم، والديون تتراكم، ومن وراء ذلك كله الأصابع اليَهُوْدية الّتي صممت الإطاحة بتركيا لتصل إلى أرض الميعاد.

(٣٥) - السُّلطَان محمّد رشاد خان الخامس (١٩٠٩- ١٩٢٤م):

تمت تولية السُّلطَان رشاد وتم يوم ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ وتوج السُّلطَان رشاد باسم السُّلطَان محمّد الخامس.

وكان قد قضى اغلب عمره في قصر زنجيرلي كوي، إلى حين حدوث الانقلاب العُثْمَانِيّ عَلى السُّلطَان عبد الحميد.

وقد بقي السُّلطَان رشاد حبيسا في قصره فيما كانَ العسكريّون والسّياسيّون من جَمعيَّة الإتحاد والترقي يلعبون بمصير الخِلافَة.

وقد ورط هَؤُلَاءِ المجرمون الخِلافَة العُثْمَانِيّة في عهده بدخول الحَرب العَالَمِيّة الأولى إلى جانب ألمانيا ضدّ الحلفاء، وكان ولي عهده الأمير وحيد الدّين، وقد توفي السُّلطَان محمّد الخامس قبل نهاية الحَرب سنة ١٩١٨.



(٣٦) - السُّلطَان محمّد السَّادس (وحيد الدّين) (١٩١٨-١٩٢٤):

وقد خلف السُّلطَان محمّد الخامس، وبقي كذلك حبيس قصره، فيما كانَ الحلفاء يسيطرون عَلى مقدرات الخِلافَة ويقطعون أوصالها إربا بإشراف الإنكليز، ومؤامرات اليَهُوْد، وتنفيذ الماسون، حيث أبرزت المؤامرات كما سنرى، **مصطفى كمال أتاتورك**، وخرجت تركيا محطمة من الحَرب العَالَمِيّة الأولى

وتقاسمت الدّول الكبرى ورثة الرجل المريض! كما كانوا يطلقون عَلى تركيا، واستراحت أوروبّا من هذا الغول الرهيب الّذي كانَ يقض مضاجعها لقرون طويلة.

وجاء مصطفى كمال بعد هزيمته في جبهته في الشّرق العربيّ وبرزت شخصيته كقائد عسكريّ من خلال بعض الإشتباكات العسكريّة المسرحيَّة مع اليونان، وانطلقت الأقلام لتبرزه.

وفعلا رتبت لدول الكبرى (ولاسيما بَرِيطَانيَا) مع مصطفى كمال واشترطت عليه شروطا في معاهدة لوان (١٩٢٢) حيث كانَ يمثله فيها عصمت إينونو، فاشترط عليه كرز ون – وزير الخارجيّة بَرِيطَانيَا – آنذاك – شروطا أربعة وهي:

إسقاط الخِلافَة في تركيا.

سحق أية محاولة لإعادة الخِلافَة.

محاربة الشعائر الإِسْلَاميّة.

اتخاذ قانون غربي للحياة في تركيا بدل الشّريعة الإِسْلَاميّة، وقبل مصطفى كما بهذه الشُّرُوط وانسحبت دول الحلفاء من تركيا وعندما وقف مجلس العموم البريطاني في وجه كرزون الّذي وافق عَلى سحب جُيُوش الحلفاء من تركيا، قائلين ستعود تركيا مرّة أُخرى لاحتلال أوروبّا فقال: اطمئنوا.

(لن تقوم لتركيا قائمة بعد أن جردناها من الإِسْلَام والخِلافَة).

وتمسح مصطفى كمال أولاًبمسوح الرهبان، وتظهر صورة مصطفى كمال وهو يلبس ثياب العُلَماء في عيد الأضحى ويحمل السبحة الطويلة ويحث النّاس عَلى الشعائر الإِسْلَام ومرت الأيّام وجمع مصطفى كمال العُلَماء واستشارهم بفصل الدّين عن الدّولة (كالكنيسة) واستنكر العُلَماء هذه الخطة فطبق مسحا بالنواصي والأعناق وقتل من العُلَماء مقتلة كبيرة. وأعلن إسقاط الخِلافَة سنة (١٩٢٤) وناح النّاس عليها، وتداعى النّاس لينصبوا لهم خليفة ولو كانَ الخَليفَة هو ملك مصر – ومع هذا رفضت بَرِيطَانيَا – أن يعود هذا الإسم المجرد صورة نظريَّة مصطنعة، وبذلك كانَ السُّلطَان (محمّد السَّادس) آخر الخُلَفَاء العُثمَانِيّين وآخر من سمي خليفة في تاريخ الإِسْلَام والمُسلِمين حتَّى الآن، حيث لم تقم وإلى يومنا هذا خلافة إسلاميّة، وهكذا وصلت جَمعيَّة الإتحاد والترقي إلى الحكم واستراحت من

الغول الرهيب الّذي طالما أقض مضجعها وأرق أجفانها (عبد الحميد) وأصبحت تركيا الإِسْلَاميّة دمية في يد اليَهُوْدية تحركها كيف شاءت وأنى أرادت، وأصبحت مقاطعاتها حمى مستباحا للذئاب الغربيّة من أعداء الإِسْلَام، وأصبح هذه المارد الجبار (الدّولة العُثْمَانِيّة) يؤكل شلوا شلوا.

فابتلع الغرب أولاًدول البلقان النمسا والمجر والبوسنة والهرسك في تشرين الأوّل سنة (١٩٠٨) (أي بعد تسلم الإتحاد والترقي زمام الأمور)، وبعد إعلان الدستور بشهرين فقط، **وانفصلت بلغاريا، واعتدت إيطاليا عَلى ليبيا في خريف سنة (١٩١١) ثمّ نشبت الحَرب البلقانية سنة (١٩١٢)**، وفي هذه السَنَوات القليلة فقدت الدّولة العُثْمَانِيّة جميع ولاياتها في أوربّا (ماعدا تراقيا الشرقية)، وفقدت ذلك الجزء من ليبيا الّذي يتألف من ولايتي طرابلس الغرب وبني غازي – وقد انسحبت تركيا من ليبيا بمؤامرة خيانة مكشوفة لا تخفي عَلى كلّ ذي عينين، ولا يفوتنا أن نذكر أن اليَهُوْد الإيطاليين هم المحافل الماسونية في سالونيك، وفي بيوت هَؤُلَاءِ اليَهُوْد الإيطاليين كانت نعقد اجتماعات جَمعيَّة الإتحاد والترقي، فليس كبيرا أن تعطي جَمعيَّة الإتحاد والترقي ليبيا هدية متواضعة إلى إيطاليا كرد جميل عَلى صنيعهم السابق الكبير.

{ولا أنسى أن أضيف عَلى سرد الشَّيْخ الشّهِيد خبر دعوة حكومة القذافي لرئيس الكنيست وهو يهودي ليبي لزيارة ليبيا بدعوة رسمية في – نوفمبر ٢٠٠٤– بعد أن فتح أتاتورك ليبيا (القذافي) أبوابها مشرعة للأمريكان والأوربيين واليَهُوْد، وسلمهم سلاحها الثقيل طواعية عَلى ظهر السفن إلى المعارض الأمريكيّة قبل ذلك بعدة أشهر!!}.

وفضلا عن هذه الخسارة **فقدت كريت**، وكانت ميزانية تركيا قد ناءت بأعباء النفقات العسكريّة.

وبدأت محاربة الشعائر في تركيا، فمنع الأذان باللغة العربيَّة، ومنع اللباس الشَّرعيّ، ومزق رجال الأمن لدى مصطفى كمال ثياب النِّسَاء في الشَّوارع، وحرم غطاء الرأس بالنسبة للنساء، ومنعت الكوفية والعقال (لأن العَرَب يلبسونها) بالنسبة للرجال، وفرض لبس القبعة بالنسبة للرجال ومنع قراءة القرآن بالعربيَّة، وأمر بترجمته إلى التركية، وحول كمال مسجد أيا صوفيا إلى متحف، وأقفرت

المساجد وخلت المحاريب، وصوحت المآذن، وافتقد النّاس الشَّبَاب من طريق الإِسْلَام، وأصبح اللقاء عَلَى كتاب الله في المَسجِد جريمة يحاكم عليها القانون، واختلف من المساجد حلقات العلم ودُروس الفقه، وتوارى العُلَماء أمامه تحت التراب قتلا أو في بيوتهم، وتقدم السفهاء، وتكلمت الرويبضات كما جاء في الحديث:

* وعن أبي هريرة مرفوعا: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ، وَالْبُخْلُ، وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنَ الخَائِن، وَيَهْلِكَ الْوُعُولُ، وَتَظْهَرَ التَّحُوتُ» قَالُوا: يَا رَسُول اللهِّ، وَمَا الْوُعُولُ وَالتَّحُوتُ؟ قَالَ: «الْوُعُولُ: وجُوهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ، وَالتَّحُوتُ: الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ»[١].

* وفي الحديث الآخر الصَّحِيح الّذي رواه الطبراني عن عوف بن مالك مرفوعا:

«أَخَافُ عَلَيْكُمْ سِتًّا: إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ، وَسَفْكُ الدِّمَاءِ، وَبَيْعُ الْحُكْمِ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَنَشْوٌ يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ، وَكَثْرَةُ الشُّرَطِ»[٢].

وبقى مصطفى كمال يواصل الحَرب عَلَى الإِسْلَام حتَّى نهاية حياته وتركيا تتحطم في جميع الميادين وتتراجع في كلّ مضمار.

****

(١) رواه الحاكم (٨٦٤٤) وابن حبان (٦٨٤٤) من حديث سعيد عن أبي هريرة ﷺ، وضعفه الأرنؤوط، وقال الألباني: صحيح لغيره (الصحيحة ٣٢١١).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٠٥) وأحمد (٢٣٩٧٠) وصححه الأرنؤوط في تحقيقه، و الألباني في الجامع الصغير (٢١٦).

أهمّ الأسباب الداخليَّة المباشرة الّتي أدت إلى سقوط الخِلافَة

أولاً: انتشار الدعوات القوميّة:

وخاصة (دعوة القوميّة التركية (الطورانية)، والقومية العربيَّة، وأشراف الماسون واليَهُوْد عَلى إحيائها وإذكاء نار التعصب والفرقة بين أتباع القوميتين الرَّئيسيتين المكونتين للدولة العُثمانِيّة.

القوميّة التركية (الطورانية):

لقد بذرت البذور الأولى للقومية التركية في داخل الأكاديمية العسكريّة في إسطنبول مع الأساتذة العسكريّين الألمان الّذين وفدوا إلى الكلية ليدربوا الأتراك الّذين كانوا بحاجة إلى جيش قوي مدرب عَلى وسائل القوّة الحديثة وأساليب القِتَال العسكريّة، خاصّة وأن تركيا تقاتل العالم بأسره يرميها عن قوس واحدة، فقد وصلت بعثة عسكريّة ألمانية سنة (١٨٨٣) يرأسها الكولونيل (فون درجولسن) وبقي يعمل قرابة ثلاث عشرة سنة تمت خلالها بذرة القوميّة.

وأما العامل الثّاني لنشوء القوميّة الطورانية هو: هِجرَة اللاجئين المجريين والبولنديين إلى تركيا بعد فشل ثورتهم سنة (١٨٤٨)، واعتنق هَؤُلَاءِ الإِسْلَام وأصبحوا من الطّبقة المتنفذة في الدّولة، ومن هَؤُلَاءِ (قسطنطين بورزيكي)، وقد سمى نفسه بعد ذلك مصطفى جلال الدّين باشا، فلقد كانَ هذا الرجل هو رأس الأفعى القوميّة الّتي نقلت سمها إلى عقول ونفوس الأتراك، يقول برنارد لويس:

(ولقد عمل بورزيسكي عَلى نقل القوميّة البولونية ووضعها في قالب تركي، وساعده عَلى هذا العمل ما عرضه من أعمال المستشرقين الغربيّين الباحثين في الشئون التركية، وكان لها تأثيرا هام في تقدير التّاريخ التركي القديم، والاعتقاد بالهويّة المميزة).

ولا يفوتنا أن نعود فنذكر بأن جَمعيَّة الإتحاد والترقي كلهم ماسون (يهودية عالميّة)، وأن يهود سالونيك هم اليد المحركة لهذه الجَمعيَّة وهم داخلون فيها، ونعود مرّة أُخرى فنذكر بكلام ستون

وتسون: (**إن الحقيقة البارزة في تكوين جَمعيَّة الإتحاد والترقي أنها غير تركية وغير إسلاميّة**) فأطاحت بعبد الحميد وبتركيا وبالإِسْلَام.

ولقد كانَ لهذه الدّعوة إلى القوميّة التركية أثر سيء انعكس في نفوس الشّعوب الإِسْلَاميّة الّتي تخضع للسيادة العُثْمَانِيّة، و بدؤوا يطالبون بالاستقلال ويشكلون الجَمعِيّات السرية لمحاربة تركيا، خاصّة بعد السُّلُوك المشين الغريب الّذي سارت عليه جَمعيَّة الإتحاد والترقي، وعلى رأس هذه الشّعوب العَرَب الّذين اتخذوا من هذا السُّلُوك مبررا للوقوف بجانب بَرِيطَانيَة ضدّ الأتراك في الثَّورة العربيَّة الكبرى بقيادة الشريف حسين، وكان لها من النتائج الوخيمة عَلى العالم الإِسْلَاميّ.

فقد كتب ستون وستون يقول:

(إن الحقيقة البارزة في تكوين جَمعيَّة الإتحاد والترقي أنها غير تركية وغير إسلاميّة، فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضوا واحد من اصل تركي صاف، فأنور باشا هو ابن رجل بولندي مرتد وكان جاويد من الطَّائِفَة اليَهُوْدية المعروفة (دونمة)، وكراسو من اليَهُوْد الأسبان القاطنين في مدينة سالونيك، وكان طلعت باشا من أصل غجري اعتنق الإِسْلَام دينا، وأما أحمد رضا أحد زعمائهم في تلك الفترة فكان نصفه غجريا إلى جانب كونه من أتباع مدرسة كونت الفلسفية).

ويضيف ستون وتسون قائلا إن أصحاب العقول المحركة وراء الحركة كانوا يهودا أو مُسلِمِين من أصل يهودي، وأما العون المالي فكان يجيئهم عن طريق (الدونمة) ويهود سالونيك الأثرياء، كما أنه كانت تأتيهم معونات مالية من الرأسمالية الدّولية – أو الشبيهة بالدّولية – من فينا وبودبست وبرلين من باريس ولندن).

ويقول هربرت أبري:

(كانَ يهود سالونيكا يهوديا ويعرفون (بالدونمة) – أي المرتدّون – شركاء الثَّورة التركية الحقيقيين، وهَؤُلَاءِ هم من العرق اليَهُوْدي، ولكن معتقدهم قد لا يكون يهوديا أصلا، والاعتقاد الشائع بين النّاس هو: أنهم مسلمون بالاسم، وأما بالفعل فإنهم من أتباع توراة موسى، وفي تلك الفترة الّتي نحن بصددها لم يعرف أحد من النّاس شيئا عنهم، سوى قلة من العُلَماء المختصين بدراسة الشّرق الأدنى،

ولم يكن أحد من النّاس يجرؤ أن يتنبأ أن هذه اليَهُوْدية المعروفة (بالدونمة) ستلعب دورا رئيسيا في ثورة كانَ لها نتائج خطيرة في سيرة التّاريخ).

يقول توينبي:

(إن الضُّبَّاط في تركيا الحميدية هيَ الطّبقة الوحيدة الّتي استطاعت أن تفتح نافذة فكريّة دائمة تنفذ عن طريقها التّأثيرات الغربيّة في سنة (١٩٠٨) وبعد ثلاثين عاماً من حكم استبدادي مظلم كانَ الجيل التركي الجَدِيد من العسكريّين هو رأس الحَربة لهجوم الليبرالية الغربيّة عَلى تركيا).

وثيقة السفير البريطاني في استانبول (لاروز) سنة ١٩١٠ حول العلاقة بين جَمعيَّة الإتحاد والترقي وبين اليَهُوْد والماسونية:

هذه الوثيقة السرية هيَ أصلا رسالة سرية جدا أرسلها السفير البريطاني في القُسطَنْطينيَّة (السّير جيرار ولاوزر) بتاريخ (٢٩/ ٥/ ١٩١٠م) إلى وزير الخارجيّة بَرِيطَانيَا (السّير ش. هارونج) وتحوي معلومات دقيقة حول العلاقة بين (جَمعيَّة الإتحاد والترقي) واليَهُوْد والماسونية.

وهذه الوثيقة السرية كُشف عنها النقاب في بَرِيطَانيَا حديثا، وقد نشرتها مجلة (المجتمع الكويتية) ابتداء من (٢٥/ ١٢/ ١٩٧٨م) في الإِعداد (٤٢٩, ٤٢٥) نقلا عن مجلة آفاق العِرَاقيَّة، ونقتطف منها الأجزاء الأهم:

[– في مدينة (سالونيك) { مدينة يونانية كانت آنذاك تحت الحكم العُثمَانِيّ } مائة وأربعون ألف نسمة، منهم ثمانون ألف نسمة يهودي من أصل أسباني (أي هربوا من أسبانيا) (٢٠,٠٠٠) يهودي من سبط (لآوي) أو من اليَهُوْد المتظاهرين بالإِسْلَام والّذين يدعون (يهود الدونمة).

– ومعظم اليَهُوْد الإسبان يتمتعون بالجنسية الإيطالية، وهم ماسونية ينتمون إلى المحافل الإيطالية، فهم لذلك يتمتعون بالحصانة الممنوحة للأجانب في الدّولة العُثمَانِيّة ضدّ الملاحقة والتفتيش.

– أسس اليَهُوْدي (قره صو) قبل بضعة أعوام في سالونيك – بالتّعاون مع الماسونية الإيطالية – محفل (ماسيدونيا روزيتا)، وأقنع رجال تركيا الفتاة ضباطا ومدنيين بالإنتماء إلى الماسونية، وهدفه فرض النفوذ اليَهُوْدي عَلى الأوضاع الجَدِيدة في تركيا.

يظهر أن المخططين لحركة تركيا الفتاة في سالونيك كانوا بالدرجة الأولى من اليَهُوْد.

بعد ثورة (١٩٠٨م) بقليل أصبح من المعروف بأن عددا كبيرا من قاداتها كانوا من الماسونية.

جميع اليَهُوْد عَلى الإطلاق كانوا مؤيدين متحمسين للعهد الجَدِيد.

أصبح كلّ اليَهُوْدي جاسوسا لجَمعيَّة الإتحاد والترقي.

بدأ النّاس يقولون: إن الحركة اليَهُوْدية أكثر منها تركية.

عينت إيطاليا اليَهُوْدي (بريموليفي) قنصلا عاماً في سالونيك وعينت الولايات المتحدة (أوسكار شتراوس) سفيرا لها في القُسطَنْطينيَّة، وكان شتراوس يهودي.

العقيد اليَهُوْدي الدونمه (رمزي بيك) كانَ قائد الأفواج الأربعة الّتي أرسلت خصيصا من سالونيك إلى القُسطَنْطينيَّة وقد عين رئيسا لأركان حرب السُّلطَان (محمّد الخامس)، وعندما خلع السُّلطَان (عبد الحميد) واعتقل في سالونيك عين أخ لرمزي بيك مشرفا عَلى السُّلطَان في سجنه.

أعلن المؤتمر الصّهيونيّ التّاسع المنعقد في هاسبورج في شهر كانون الأوّل سنة (١٩٠٩م) أن إنقسام اليَهُوْد إلى صهيونيين، ودعاة للهِجرَة إلى مناطق أُخرى غير فِلَسطِين، قد انتهى بفضل (معجزة الثَّورة التركية) بمعنى أن فِلَسطِين أصبحت مضمونة بلا شك.

بعد خلع عبد الحميد أُعلنت الأحكام العرفية لمدة سنتين، وكان معظم الضُّبَّاط في المحاكم العرفية ماسونيين.

مدير المطبوعات في الدّولة يهودي من سالونيك وله سلطة إيقاف أي جريدة.

وكالة الأنباء التلغرافية – الّتي تقدم رأي الاتحاديين في الأحداث الداخليَّة والخارجيّة – مديرها يهودي من بغداد.

رئيس الفرع الرَّئيسي لجَمعيَّة الإتحاد والترقي في القُسطَنْطينيَّة يهودي من سالونيك.

مديرية الأمن العام في الدّولة بيد ماسوني من سلانيك.

في مقدونيا والقُسطَنْطينيَّة ظهر خلال العام الماضي (١٩٠٩م) إثنتا عشر محفلا ماسونيا جديدا.

أُفهم الموظفون وغيرهم – من ذوي المناصب المهمة – أن مناصبهم ومواردهم رزقهم تتوقف عَلى دخولهم في المحافل الماسونية.

لكي تشدد الجَمعيَّة قبضتها عَلى الجيش أدخل عدد كبير من الضُّبَّاط – وخاصة من ذوي الرتب الصغيرة – في محفل ماسوني يسمى (ريسنا) بلد (نيازي بيك)، ويرأس المحفل أخوه النقيب (عثمان فهمي بك).

دخل في الماسونية معظم نواب الجَمعيَّة في مجلس المبعوثان والأعيان في المحفل الّذي يسمى (الدستور) وكان من كبار رؤسائه (طلعت بيك).

نواب المعارضة وخاصة العَرَب بدؤوا ينشئون لهم محافل خاصّة بهم مثل (محفل التآخي العُثمَانِيّ) (أصدقاء الحريَّة) أو ينضمون إلى المحفل القائمة.

طائفة البكطاشية تفشت بينهم الماسونية.

في المدة الّتي بين (١٩٠٩م- ١٩١٠م) أنشئت المحافل الماسونية التّالية: (الوفاء الشرقي، نهضة بيزنيطة، الأصدقاء الحميمون للإتحاد والترقي، الحقيقة، الوطن النهضة، وفرع من محفل (نهضة مقدونيا)، الفجر)، ويبدوا أن جميع هذه المحافل الماسونية – مثل شبكة المحافل الماسونية في سالونيك ومقدونيا – كانَ يقودها أو يخطط لها اليَهُوْد.

الأمير المصري سعيد حليم وأخوه الأمير عباس حليم والأمير عزيز حسن ماسونييون.

إدريس بيك راغب – رئيس المحفل المصري الأعظم – هو المؤسس والمهيمن عَلى عدد من المحافل الماسونية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان.

عدد كبير من الرُّوم الكاثوليك في لبنان ماسونييون.

محمّد أورفي باشا أسس عددا من المحافل الماسونية في مصر والقُدس وجنوب سوريا

يوسف بيك السكاكيني من زعماء الماسون.

الزعيم الوطني المصري (محمّد فريد) ماسوني كبير عين ممثلا في مصر لمحفل الشّرق العُثمَانِيّ الأعظم واقيمت حفلة التنصيب في محافل ماسوني في (طنطا).

(حاييم ناحوم) حاخام الطَّائِفَة اليَهُوْدية الأكبر الجَدِيد في تركيا كانَ زميل دراسة لعدد من أعضاء جَمعيَّة أعضاء الإتحاد والترقي البارزين.

(طلعت وجاويد) يمثلان قمة الماسونية في تركيا، وطبعا جاويد يهودي.

ومنذ أن أصبح طلعت وزيرا للداخليَّة – قبل حوالي سنة – عمل عَلى نشر شبكة الماسونية في جميع مناطق الدّولة، وأخذ يسند إلى الماسونيين الوظائف الكبرى في الأقاليم.

وقال (لاوزر): **يتبين من هذا أن الحكومة الخفية لتركيا إنما هيَ محفل الشّرق الأعظم الماسوني وعلى رأسه الأستاذ الأعظم (طلعت بيك).**

الماسونية تمد نشاطها من تركيا إلى إيران، وجَمعيَّة الإتحاد والترقي الماسونية وراء الإنقلاب الّذي وقع في إيران ويدور الحديث الآن حول بدء بإنشاء محفل الشّرق الماسوني في إيران، و(فرح الله خان) القائم بأعمال السفارة الإيرانية الجَدِيدة في القُسطَنْطينيَّة انضم إلى الماسونية حديثا.

يهتم اليَهُوْد أعظم الاهتمام بالاحتفاظ بنفوذهم المطلق في مجلس وزراء تركيا الجَدِيدة.

يهتم اليَهُوْد أعظم الاهتمام بإيقاد شعلة الفرقة والخصام بين الأتراك وبين خصوم اليَهُوْد المحتلين.

الممولون اليَهُوْد يرحبون بتقديم القروض للعهد الجَدِيد في تركيا مقابل مكاسب اقتصاديَّة.

لليهود نفوذ هائل في الصحافة الأوربية.

اليَهُوْد يسعون إلى تحقيق أهداف إسرائيل العليا في المستقبل.

قد أحكم اليَهُوْد سيطرتهم عَلى هَؤُلَاءِ الأتراك الشبان.

اليَهُوْد يمولون جريدة (تركيا الفتاة) وعددا أخر من الجرائد في القُسطَنْطينيَّة.

الممولون الأوروبيون – ومعظمهم من اليَهُوْد – يزودون تركيا الآن بالمبالغ المطلوبة.

جَمعيَّة الإتحاد والترقي الماسونية تشجع الثّوريّين اليَهُوْد والأرمن عَلى تفجير القلاقل والإضطرابات والتوازن في روسيا القيصرية.

أعضاء جَمعيَّة الإتحاد والترقي يقلدون الثَّورة الفرنسية في أساليبها بتوجيه من اليَهُوْد.

اليَهُوْد يزينون للأتراك الإلتقاء مع الهنغاريين (المجر) بدافع القوميّة الطورانية، لأن المجريين من أصل طوراني، وجميع هذه المعلومات حصلنا عليها من ماسونيين محليين في سرية تامة.] أهـ.انتهت وثيقة السفير البريطاني (لاوزر) الّتي كتبها سنة (١٩١٠م)

(نقلا عن كتاب (الذخائر/ ٧٣٨- ٧٤٠). للشيخ عبدالله عزام رحمه الله).

ثانياً: الثَّورة العربيَّة الكبرى:

ووقوف الشريف حين إلى جانب بَرِيطَانيَا في الحَرب العَالَمِيّة الأولى ضدّ الخِلافَة العُثمَانِيّة، بعد أن خدعه الإنكليز وأوهموه بأنهم سيساعدونه عَلى إقامة خلافة عربيَّة في جَزِيرَة العَرَب والشّام والعراق.

وقد كانَ الشريف حسين يتلمس المناسبة للتخلص من الحكم التركي، خاصّة وأنه أحس أن الاتحاديين سنة (١٩١٤) يريدون التّخلّص منه، وكان عبدالله بن الشريف حسين {جد (الملك حسين)الهالك، والد (الملك عبدالله) الحالي سلسل عمالة الإنكليز والخيانات المتتالية}.

وكان عبدالله بن حسين آنذاك نائبا في البرلمان التركي، وقد اتصل بكتشنر (المعتمد البريطاني في مصر) ورونالد ستورز المستشار الشرقي في دار الاعتماد البريطاني، وأطلعه عَلى النفور الشديد بين أبيه وبين الأتراك، وسأله عن إمكانية وقوف بَرِيطَانيَا بجانب الشريف فيما إذا أعلن الشريف الحَرب عَلى تركيا، إلا أنه لم يلق أي تشجيع منهما، وقال كتشنر: ليس من المحتمل أن تقف بَرِيطَانيَا بجانب أبيك.

(وكان الأمير عبدالله نفسه عضوا في إحدى الجَمعِيّات السرية، وكان مؤمنا بفوائد التفاهم الإنجليزي العربيّ متحمسا له) ونشبت الحَرب الكبرى في آب سنة (١٩١٤)، وكان عبدالله متحمسا لإعلان الحَرب عَلى تركيا، بينما كانَ أخوه الأمير فيصل يرى الوقوف معها.

وفي سنة (١٩١٥) زار فيصل دمشق واستانبول، وفي دمشق انضم إلى جَمعيَّة (العربيَّة الفتاة) وأقسم عَلى نصرتها.

وأعلن الشريف الحَرب عَلى تركيا يوم الإثنين (٥) حزيران سنة (١٩١٦)، (وسبحان ربي! كانت هزيمة العَرَب في (٥) حزيران يوم الإثنين سنة ١٩٦٧)!!!

ومن جانب قبر حمزة بن عبد المطلب ﵁ بالمدينة أعلن الحَرب بعد أو وعدته بَرِيطَانيَا باستقلال بلاد العَرَب وبتتويجه ملكا عليها، وكان كتشنر قد أصبح وزيرا للحربية البريطانيَّة، واستلم مكماهون معتمدا بَرِيطَانيَا في مصر، وحدثت الكاتبات المعروفة بينه وبين مكماهون (مراسلات حسين - مكماهون)، ووعدوه بملك البلاد العربيَّة بعد استقلالها.

واندفع الشريف حسين بكل طاقته يؤجج نار الحمية العربيَّة ضدّ الأتراك، وهُزم الأتراك، وحصلت اتفاقية (سايكس بيكو) لتقسيم البلاد العربيَّة بين بَرِيطَانيَا وفرنسا، وأعطيت فسلطين لليهود بوعد بلفور ١٩١٧، وكان الجزء الجميل للشريف حسين أن نفته بَرِيطَانيَا ست سَنَوات وسلبت ملكه!! ولقد كانت الصدمة عنيفة لأعِصَاب الشريف حتَّى داهمه الفالج وذاب جسده حسرة وألما، وكان يصب جام غضبه طيلة بقية حياته عَلى مكماهون ولويد جورج - الوزير البريطاني المعروف.

يقول جورج أنطونيوس:

(لقد زرته قبل موته بأشهر سنة (١٩٣١م)، وقد قلصه الفالج وابيض وجهه الوسيم من شحوب الموت، فقال لي: الإنجليز يا ولدي قوم شرفاء في أقوالهم وأفعالهم، في سراء والضراء: شرفاء! ماعادا صاحب السعادة الموقر الهمام لويد جورج فهو أشبه بالبهلوان وبالثعلب، أقول: ثعلب، حاشا مقامك رحم الله صاحب السعادة كتشنر!!).

كانت هذه النَّتِيجَة الأسيفة الأليمة للتعاون مع الإنجليز، وصدق الله العظيم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [آل عمران]

ولقد حذر بعض الصادقين العقلاء الشريف حسين من مغبة غدر الإنجليز ومن هذه الفاجعة المتوقعة، فد كتب **(الأمير أرسلان) إلى الشريف عندما بلغه عزم لغزو سوريا مع جُيُوش الحلفاء قائلا: (أتقاتل العَرَب بالعرب أيها الأمير؟! حتَّى تكون ثمرة دماء قاتلهم ومقتولهم استيلاء إنجلترا عَلى الجَزِيرَة العَرَب وفرنسا عَلى سوريا واليَهُوْد عَلى فِلَسطِين ؟!).**

يقول لورنس في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة): (لقد كنت أعلم أنّنا إذا كسبنا الحَرب إن عهودنا للعرب ستصبح أوراقا ميتة، ولو كانت ناصحا شريفا للعرب لنصحتهم بالعودة إلى بيوتهم، لقد كانَ قادة الحركة العربيَّة يفهمون السّياسة الخارجيّة فهما عشائريا بدويا، وكانت بَرِيطَانيَا والفرنسيون يقومون بمناورات جريئة اعتمادا عَلى سذاجة العَرَب وضعفهم وبساطة قلوبهم وتفكيرهم، ولهم ثقة بالعدو، إنني أكثر فخرا أن الدَّم الإنجليزي لم يسفك في المعارك الثلاثين الّتي خضتها، لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوي في نظري موت إنجليزي واحد)!!

ويقول وايزمان: (لقد قدم لنا لورنس خدمات جليلة).

وهذا هو لجاسوس لورنس المشهور الّذي كانوا يسمونه – (لورنس العَرَب) ويلقبونه: (ملك العَرَب غير المتوج)!!

مقارنة بين القوميّة الطورانية والقومية العربيَّة:

لقد التفت القوميّة الطورانية (التركية) والعربيَّة عَلى أشياء أهمّها:

أن الغرض من كلّ منهما هو القضاء عَلى تركيا المسلمة، وعلى السُّلطَان عبد الحميد بالذات.

لقد بدأت القوميتان في وقت واحد تقريبا وإن كانت القوميّة العربيَّة تقدمت قليلا عَلى الطورانية.

القوميتان علمانيتان اتفقا عَلى استبعاد الإِسْلَام عن الحياة.

إن كلا من القوميتين نشأتا في محاضن أجنبية فالقومية العربيّ نشأت في المحاضن الأمريكيّة وفي الجامعة الأمريكيّة، بينما الطورانية نشأت في المحافل الماسونية اليَهُوْدية الّتي يشرف عليها اليَهُوْد الأسبان والبولنديون الإيطاليون.

إن الرواد الأوائل لكل من الدعوتين لم يكونوا مُسلِمِين أصلا ولا من الجنس الّذي يدعون إلى قوميته! فمثلا (بورزيكي) الّذي سمى نفسه مصطفى جلال الدّين – بولندي الأصل – عمل عَلى نقل القوميّة البولندية وصبها في قالب تركي، ومنذ تأسيس جَمعيَّة الإتحاد والترقي، لم يظهر بين زعمائها وقادتها واحد من أصل تركي صاف! فأنور باشا بولندي مرتد، وجاويد من الطَّائِفَة اليَهُوْدية (دونمة)،

وكراسو (من اليَهُوْد الأسبان) في سالونيك، وطلعت باشا من أصل غجري، وأما أحمد رضا فنصفه شركسي ونصفه مجري ومتأثر بالفيلسوف (كونت)!

و الرواد الأوائل للقومية العربيَّة كانوا جمعيا من غير المُسلِمِين! من بطرس البستاني، وناصيف وابنه إبراهيم اليازجي، والشدياق، وأديب إسحق، ونقاش، وشميل، وتقلا وصروف، وزيدان، ونمر، ومشاقة، كلّ هَؤُلَاءِ عَلى الإطلاق من النّصَارى!! ثمّ جاء القرن العشرون وكان من قادتهم: زكي الأرسوزي (نصيري تركماني)، وميشيل عفلق (نصراني) زوجته يهودية! وهما قائدا حزب البعث، وأنطون سعادة وجورج عبد المسيح، من قادة الحزب القومي السّوري، نصرانييان!وجورج حبش – من قادة القوميين العَرَب كذلك!!

يقول الكاردينال بريتولي للبابا: (إن المسيحية في الشّرق هيَ الّتي زرعت الحركات الثّوريّة وحركات التَّغير، وإن أسماء مثل **ميشيل** عفلق، و**أنطوان** سعادة، و**جورج** حبش قد تفسر لك ما أعنيه)!!

إن الأصابع الماسونية– اليَهُوْدية – كانت تحرك طلائع الحركتين، فالخمسة الأوائل الّذين أنشأوا (**جمعيَّة بيروت السرية**) كلهم من الماسون، وكذلك الّذين نادوا بالقومية الطورانية هم من الماسون.

تأثرت القوميّة العربيَّة بالنَّظريات الأمريكيّة، وتأثرت الطورانية بالثَّورة الفرنسية، يقول فيليب حتَّى – أحد مؤرخي وفلاسفة القوميّة العربيَّة! –: (**كانَ من نتاج الاحتكاك بين العقليَّة السوريّة والنتاج الفكريّ الغربيّ أن تولدت مبادئ القوميّة العربيَّة الشّاملة، واستمدت وحيها بالأكثر من النَّظريَّات الأمريكيّة، بخلاف القوميّة التركية الّتي جاءت متأخرة عن العربيَّة والَّتي استمدت إلهامها من مبادئ الثَّورة الفرنسية**).

كانت الأصابع اليَهُوْدية بارزة في القوميّة التركية، لا يزال اليَهُوْد يحرصون عَلى ربط العَرَب بقوميتهم.

يقول (**أبا إيبان**) – **الّذي كانَ وزير خارجية إسرائيل** – في محاضرة له في جامعة برنستون الأمريكيّة: (**يحاول بعض الزعماء العَرَب أن يتعرف عَلى نسبة المد الإِسْلَاميّ بعد الهزيمة الأخيرة**

(١٩٦٧)، وفي ذلك الخطر الحقيقي عَلى إسرائيل، ولذا كانَ من أولى واجباتنا أن نبقي العرَب عَلى يقين راسخ بنسبهم القومي لا الإِسْلَاميّ)[١].

****

(١) (الذخائر ج١/ ٨٩٣- ٨٩٥).

مصطفى كمال يحطم تركيا ويلغي الخِلافَة

ولد (أتاتورك) سنة (١٨٨٠) في مدينة سالونيك وهي – كما مر معنا – (مدينة يونانية – يهودية) حيث يقطنها (١٤٠) ألف منهم (٨٠) ألفا من اليَهُوْد الإسبان و(٢٠) ألفا من يهود الدونمة (أي المتظاهرين الإِسْلَام).

ينسب مصطفى كمال رسميا إلى (علي رضا) وأمه (زبيدة) وتحيط شكوك كثيفة حول نسبه، فمصطفى لا يعترف بأبيه (علي رضا) ويقال: إن أصل أبويه من ألبانيا.

ولقد راجع مصطفى كمال دائرة النفوس في (سالونيك) وأسقط قيد الأبوة عنه.

ويقال أن زبيدة حملت به سفاحا من شخص اسمه (أبدو مسن آغا) لأنها كانت تعمل في أحد مواخير سالونيك، فولد أتاتورك لا يعلم اسم جده لأمه ولا لأبيه.

التحق بمدرسة دينية، ثمّ ألحقته أمه بمدرسة عصرية ثمّ دخل المدرسة الحَربية في سالونيك سنة (١٨٩٣م) وبعد أربع سَنَوات تخرج من المدرسة الابتدائية العسكريّة الثانوية في (موناستر) بالبلقان حيث كانت الفتنة متأججة عَلى الخِلافَة.

وبمعونة أصحابه نقل إلى سالونيك في صيف سنة (١٩٠٧م) وعين في دائرة أركان الجيش الثّالث، وهناك دخل في جَمعيَّة الإتحاد والترقي فوجد فيها منافسين أقوى منه مثل أنور باشا، وطلعت بيك فحصل بينه وبينهم نزاع، وفي سنة (١٩٠٨م) قام الإنقلاب العُثْمَانِيّ عَلى السُّلطَان عبد الحميد من أجل إعلان الدستور (للتسوية بين اليَهُوْد والنّصَارى والمُسلِمين) ونجحت الحركة ولم يشترك مصطفى كمال فيها.

وفي هذا العام نفسه سنة (١٩٠٨م) أرسل إلى (طرابلس الغرب في ليبيا) لإبعاده، ثمّ رجع واشترك مع حركة (محمود شوكت) سنة (١٩٠٩م) لإسقاط السُّلطَان عبد الحميد، وكان آنذاك أحد ضباط الأركان وليس رئيسا للأركان.

وفي سنة (١٩١٠م) أُرسل إلى فرنسا لحضور مناورات عسكريّة، وبعد أن رجع من فرنسا عين مشرفا عَلى مدرسة الضُّبَّاط فامتلأ حقدا عَلى الإتحاد يين لتجاهلهم إياه فنقلوه قائدا لفرقة المشاة الثَّامنة والثلاثين في سالونيك.

ثمّ أغارت إيطاليا عَلى ليبيا فأُرسل مصطفى ورقي إلى درجة بكباش

ثمّ أرسلوه إلى الشّام سنة (١٩١٧م) وكان قد وصل إلى رتبة لواء أي باشا وصار مساعدا لقائد الجيش الثّاني، **ثمّ عين قائدا لجبهة فِلَسطِين:**

وفي فِلَسطِين تمت الصفقة مع (اللنبي) القائد الإنجليزي الّذي احتل فِلَسطِين، واتفق الإنجليز مع مصطفى كمال عَلى الانسحاب، ليدخل اللنبي بردا وسلاما، وليضرب الجُيُوش التركية الأربعة ضربة قاصمة بعد أن ارتد اللنبي خائبا من أبواب السلط بعد أن هزمه جمال باشا قائد الجيش الرَّابع.

وكانت نتيجة هذه الخيانة تحطيم تركيا إلى الأبد، وأما نتيجة المَعْرَكة فكانت كارثة:

كانَ عدد الأسرى يقرب من مائة ألف جندي عدا القتلى برصاص الدروز والأرمن.

وبعد انتصار اللنبي حضر إلى اسطنبول فطلب من الدّولة التركية المهزومة أن تعين مصطفى كمال قائدا للجيش السَّادس قرب الموصل حيث النفوذ الإنجليزي ومنطقة البترول لحماية مصالح الإنجليز وأمنهم هناك.

وكان مصطفى كمال بعد الهزيمة الكبرى الّتي كبدها تركيا، وبعد رجوعه كانَ عَلى صلة بالقس المشهور (FRID) فرد الّذي كانَ رئيسا للاستخبارات الإنجليزية في تركيا.

و كانَ مصطفى كمال عَلى صلة وثيقة بالسلطان وحيد الدّين (محمّد السَّادس)، وذلك لأنه عين في ربيع سنة (١٩١٨م) مرافقا عسكريّاً له، وكان آنذاك وليا للعهد، وأظهر مصطفى كمال آنذاك لوحيد الدّين كراهيته للإتحاد والترقي، وأبدى صلاحا وحرصا عَلى مصلحة تركيا، وسرعان ما أصبح الاثنان صديقين حميمين، وغدا مصطفى جنديا للأمير وأمينا لسره.

وفي أثناء الحَرب مات السُّلطَان محمّد رشاد (الخامس) وتولى وحيد الدّين الخِلافَة، فقرب مصطفى كمال ورفع من مكانته.

ثمّ جرت مسرحيات انتصارات مصطفى كمال السَّاحقَة في الأناضول وخاصة في سقاريا أفيون، أزمير الّتي جعلت من مصطفى كمال خارقة من الخوارق تغني بمدحها الشعراء حتَّى قَالَ أحمد شوقي:

اللهُ أكبَرَ كم في الفتح من عجبٍ يا خالد الترك جدد خالد العَرَب

لقد تمت المسرحيَّة بهذا الإخراج الساحر الّذي يأخذ بالألباب، ولقد شدد الإنجليز في فرض الشُّرُوط عَلى الخَليفَة ليبدو عاجزا ضعيفا وتساهلت مع مصطفى كمال ليظهر بطلا فريدا.

ثمّ تظاهر الحلفاء بالعطف عَلى الخَليفَة والسخط عَلى مصطفى كمال، فقد احتل الإنجليز القُسطَنْطينيَّة في (١٦) مارس سنة (١٩٢٠م) وطلب الحلفاء من الأهليين إطاعة الأوامر الّتي تصدر إليهم من الخَليفَة مما أدى إلى ازدياد النقمة عليه، وفي المقابل تمَّ الجلاء عن (أسكى شهر) والمحاصرة من قبل مصطفى كمال وعن (قونية) بدون حصول أدنى اشتباكات وتنظف الأناضول من القوَّات الحليفة والنّاس مبهورون بهذه الانتصارات.

وفي نفس المدة تخرج فتوى من شيخ الإِسْلَام تصف مصطفى كمال وجماعته بالكفر فيزداد سخط النّاس عَلى السطان والمفتي.

وبمعاهدات سرية واتفاقات خفية مع أتاتورك يقرر الحلفاء الجلاء عن استانبول

المخطط التدميري:

إن هذه المخطط يكشف الصلة الوثيقة المبكرة بين مصطفى كمال وبين الإنجليز والحلفاء، ويبين لك بوضوح سر إبراز مصطفى كمال وانسحاب جُيُوش الحلفاء.

وقد كشف عن هذه الوثيقة صديقه الحميم وأمين سره (مظهر مفيد قنصوه) في مذكراته فيقول: وفي (٧/ ٧/ ١٩١٩) قرب الفجر وفي أرضروم بالأناضول أسر إلي مصطفى كمال وأكد كثيرا في وجوب كتمان السر وقال: هذا الدفتر سيبقي سرا حتَّى النهاية بيني وبينك وبين ثريا (شوكة ثريا ايدمير).

وبعد أن أكدنا له حفظ السر قَالَ: إذن فسجل التّاريخ أولا... قَالَ فسجلت التّاريخ (٧/ ٨) تموز سنة (١٩١٩م) قرب الفجر بعد أن رأى أنني سجلت التّاريخ عَلى الصفحة قَالَ: حسنا أكتب ثمّ تابع

أولا: ستكون الجمهوريّة هيَ شكل الحكومة بعد الانتصار، هذه واحدة.

ثانيا: سيؤخذ التدبير اللازم بحق السُّلطَان والعائلة المالكية عندما يحين الوقت المناسب.

ثالثا: سيرفع الستر عن النِّسَاء.

رابعا: سيلغي الطربوش وسنلبس القبعة مثل سائر الأمم المتمدنة.

قَالَ مظهر مفيد: هنا سقط القلم من يدي بدون إِرادَة، تطلعت إليه كانَ يتطلع إلي قَالَ لي: لماذا توقفت، قلت له: أرجو أن لا تؤاخذني يا باشا إذا قلت لك بأن لك جانبا خياليا، قَالَ لي ضاحكا: سيكون الزَّمن هو الحكم في هٰذا، أما أنت فاكتب، استمررت في الكتابة.

خامسا: سنأخذ الأحرف اللاتينية... يكفي يا باشا يكفي.

ثمّ نفذ البرنامج التدميري، وبعد أن نفذ بعضه، لمح مظهر مفيد فقال له: يا عزيزي السيد مظهر مفيد ما هو رقم الفقرة الّتي وصلنا إليها ؟ هل تلقي نظرة عَلى دفترة ملاحظاتك؟

وفي (٣) مارس سنة (١٩٢٤م) ألغيت الخِلافَة:

إذ تقدم أتاتورك بمرسوم يقضي:

**** إلغاء الخِلافَة وفصل الدّين عن الدّولة، وبإلغاء المحاكم العتيقة وقوانينها، حيث يجب أن تستبدل بها محاكم وقوانين عصرية.**

**** مدراس رجال الدّين يجب أن تخلي مكانها لمدارس حكومية غير دينية.**

وأقرت الجَمعيَّة الوطنيّة القانون بلا مناقشة، وبعد يومين حشد مصطفى كمال أمراء العهد القديم وأميراته ورحلوا إلى خارج البلاد، وكان قبلها بيوم أصدر قرارا بطرد الخَليفَة.

لقد اقتلع مصطفى كمال هذا الصرح الشّامخ من الجُذُور، هذا الصرح الّذي بقي منارا للمسلمين في أرض تركيا لمدة خمسة قرون، وفرق الرّاية الإِسْلَاميّة الّتي يأوي إليها المُسلِمِين منذُ أربعة عشر قرنا،

وتشتت النّاس متفرقين عي سبل شتّى كالغنم في الليلة الشاتية، وأصبحت الذئاب تنهش من هذه الفئام المتفرقة، كلّ يسن سلاحه ويمتشق حسامه ليذبح من شاء وكيف شاء.

وبقى أتاتورك وفيا للإنكليز حتّى الموت إذ أنه صمم وهو عَلى فراش الموت أن يوصي برئاسة الجمهوريّة إلى السفير البريطاني (بيرس لورين).

وثيقة يوصي بها مصطفى كمال لسفير بَرِيطَانيَا لورين برئاسة تركيا:

وقد نقلتها ننقلها بنصها الحرفي جريدة الأهرام الّتي قامت بنقلها من جريدة صندي تايمز في يوم الخميس (١٦) ذي القعدة (١٣٨٧هـ) المصادف (١٥) فبراير(١٩٦٨) تحت عنوان (كمال أتاتورك يستدعي سفير بَرِيطَانيَا ليخلفه في رئاسة الجمهوريّة التركية).

نشرت (صندي تايمز) أغرب صفحات التّاريخ الدبلوماسي بعنوان: (كيف يرفض رجلنا أن يحكم تركيا ؟) قالت الصحيفة:

أنه في نوفمبر (١٩٣٨) كانَ (كمال أتاتورك) رئيس تركيا يرقد عَلى فراش الموت وعلى امتداد (١٥) سنة حاول أتاتورك بدكتاتورية صارمة أن يجرجر تركيا رغم أنفها ويدخلها إلى القرن العِشرين، ومنع لبس الطربوش والحجاب وحطم سلطان الدّين وأدخل نظام اللغة التركية بالحروف اللاتينية.

وعندما رقد أتاتورك عَلى فراش الموت، كانَ يخشى ألا يجد شخصا يخلفه يكون قادرا عَلى استمرار هذا العمل الّذي بدأه، فاستدعى السفير (بيرسي لورين) السفير البريطاني إلى قصر الرياسة في استانبول، أما ما دار بينهما فقد ظل سرا أكثر من ثلاثين عاماً وها هو اليَوْم يكشف النقاب عه عَلى يد (بيرز ديكسون) عن حياة والده (بيرسون ديسكون) فقد كانَ بين أوراق (ديسكون) برقية بعث بها (بيرسي لورين) إلى اللورد هاليفاكس) وزير الخارجيّة وربما كانت هذه البرقية أغرب وثيقة في التّاريخ البريطاني المعاصر عَلى الإطلاق، ففيها يروي (لورين) تفاصيل مقابلته غير المألوفة مع الديكتاتور المحتضر، وها هيَ الوثيقة:

[عندما وصلت وجدت صاحب الفخامة يجلس عَلى فراشه تسنده بعض الوسائد ويحط به طبيب وممرضات، وما أن دخلت حتَّى صرف الطبيب والممرضتين قائلا إنه سيضرب الجرس إذا احتاج لهم، وعندئذ بدأ فخامته يتحدث ببطء ولكن بعناية شديدة، وقال لي: إنه أرسل في طلبي لأنه يريد أن يطلب مني طلبا عاجلا راجيا أن أعطيه جوابي عليه بطريقة قاطعة.

ثمّ قَالَ السفير: لقد كانت صداقتي ونصيحتي إليه هيَ الوحيدة الّتي كانَ يحفل بها ويقدرها أكثر من أية نصيحة أُخرى، لأنها كانت ثابتة لا تتغير، وكان هذا هو السبب الّذي جعله يستشرني في مناسبات متعددة، بحرية تامة كما لو كنت وزيرا في مجلس الوزراء التركي، ثمّ قَالَ: وقد كانَ من سلطاته (كرئيس للجمهوريّة) أن يختار خليفة له قبل وفاته، وقد كانَ أخلص رغبة له أن أخلفه في منصب الرَّئيس، ومن ثمّ فقد كانَ يريد أن يعرف رد فعلي عَلى الاقتراح]،

ثمّ بعد التَّفكير العميق اعتذر السفير وشكر العميل الّذي ظهر عليه التأثر، ومال بظهره إلى الوسائد.

تقييم موجز لدولة الخِلافَة العُثمَانِيّة

يمكن تقسيم مرحلة الدّولة العُثمَانِيّة إلى ثلاثة أطوار:

١- **طور القوّة:** ويمتد من تأسيسها إلى نهاية عهد السُّلطَان الغازي مصطفى خان الثّالث (١٧٧٤م)، وقد كانَ أوج الدّولة العُثمَانِيّة في عهد السُّلطَان سليم الأوّل وابنه سليمان القانُونيّ (١٥١٢-١٥٦٦م).

٢- **طور الضّعف والتراجع:** وابتدأ منذُ عهد السُّلطَان عبد الحميد خان الأوّل (١٧٧٤م) حيث دفعت السلطنة الجزية للمرة الأولى في حياتها، لروسيا (١٧٧٧م)، وأقرت بجملة من الإمتيازات لنصارى الدّولة العُثمَانِيّة وصلاحيات تدخل الأجانب في شؤونها إلى نهاية عهد عبد المجيد خان (١٨٦١م).

٣- **طور الإنهيار ومؤامرات اليَهُوْد والماسون وسقوط الدّولة العُثمَانِيّة:** ويبدأ منذُ عهد السُّلطَان عبد العزيز خان (١٨٦١م) الّذي عزله المفتي لفسوقه، وينتهي بخلع السُّلطَان عبد الحميد (١٩٠٩م)، ثمّ استلام الماسون، ثمّ إسقاط أتاتورك للخلافة العُثمَانِيّة وإلغائها حيث ختمت بالسلطان محمّد السَّادس سنة ١٩٢٤.

أسماء الخُلَفَاء العُثمَانِيّين ومدة حكمهم:

أولاً- طور القوّة:

- **(١) - السُّلطَان عثمان مؤسس الدّولة العُثمَانِيّة (١٣٠٠- ١٣١٧م)**
- **(٢) - السُّلطَان الغازي أورخان الأوّل(١٣١٧- ١٣٦٠م)**
- **(٣) - السُّلطَان الغازي مراد خان الأوّل (١٣٦٠-١٣٨٩م)، قتل في حرب الصّرب**
- **(٤) - السُّلطَان الغازي بايزيد خان الأوّل(١٣٨٩- ١٤٠٢م)، قتل أسيرا بيد تيمورلنك.**
- **(٥) - السُّلطَان محمّد جلبي الغازي (١٤١٠-١٤٢١)**
- **(٦) - السُّلطَان مراد خان الثّاني (١٤٢١ -١٤٥١م)**

- (٧) – السُّلطَان الغازي محمّد الثّاني فاتح القُسطَنْطينيَّة (١٤٥١ – م)
- (٨) – السُّلطَان الغازي بايزيد خان الثّاني(١٤٨١ – ١٥١٢م). خلعه الإنكِشَارِيّة.
- (٩) – السُّلطَان سليم الأوّل الغازي (١٥١٢ – ١٥٢٠م)
- (١٠) – السُّلطَان الغازي سليمان خان الأوّل القانُونيّ (١٥٢٠ – ١٥٦٦)
- (١١) – السُّلطَان الغازي سليم خان الثّاني(١٥٦٦ –١٥٧٧م)
- (١٢) – السُّلطَان الغازي مراد خان الثّالث (١٥٧٤ –١٥٩٥م)
- (١٣) – السُّلطَان الغازي محمّد خان الثّالث (١٩٩٥ – ١٦٠٣م)
- (١٤) – السُّلطَان الغازي احمد خان الأوّل (١٦٠٣ – ١٦١٧م)
- (١٥) – السُّلطَان مصطفى خان الأوّل (١٦١٧ – ١٦١٨م)..عزله المفتي والإنكِشَارِيّة.
- (١٦) – السُّلطَان عثمان خان الثّاني (١٦١٨ – ١٦٢٢ م)....عزله الإنكِشَارِيّة وقتلوه.
- (١٧) – السُّلطَان الغازي مراد خان الرَّابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠م):
- (١٨) – السُّلطَان الغازي ابراهيم خان الأوّل (١٦٤٠ – ١٦٤٨م): خلع وقتل.
- (١٩) – السُّلطَان الغازي محمّد خان الرَّابع (١٦٤٨ – ١٦٨٧م): عزله المفتي.
- (٢٠) – السُّلطَان الغازي سليمان خان الثّاني (١٦٨٧ – ١٦٩١ م)
- (٢١) – السُّلطَان الغازي احمد خان الثّاني (١٦٩١ – ١٦٩٥م)
- (٢٢) – السُّلطَان الغازي مصطفى خان الثّاني (١٦٩٥ – ١٧٠٣م): عزله الإنكِشَارِيّة.
- (٢٣)– السُّلطَان الغازي احمد خان الثّالث (١٧٠٣ – ١٧٣٠م): ..عزله الإنكِشَارِيّة.
- (٢٤) – السُّلطَان الغازي محمود خان الأوّل (١٧٣٠ – ١٧٥٤م)
- (٢٥) – السُّلطَان الغازي عثمان خان الثّاني (١٧٥٤ – ١٧٥٧ م)
- (٢٦) – السُّلطَان الغازي مصطفى خان الثّالث (١٧٥٧ – ١٧٧٤م).

ثانياً - طور الضّعف:

- (٢٧) - السُّلطَان الغازي عبد الحميد خان الأوّل (١٧٧٤ - ١٧٨٩ م)
- (٢٨) - السُّلطَان الغازي سليم خان الثّالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧م): عزله المفتي.
- (٢٩) - السُّلطَان الغازي مصطفى خان الرَّابع (١٨٠٧ - ١٨٠٨م).....خلع وحجز.
- (٣٠) - السُّلطَان الغازي محمود خان الثّاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩م)
- (٣١) - السُّلطَان الغازي عبد المجيد خان (١٨٣٩ - ١٨٦١م).

ثالثا – طور الإنهيار والموت:

- (٣٢) - السُّلطَان الغازي عبد العزيز خان (١٨٦١ - ١٨٨٦م) عزله المفتي.
- (٣٣) - السُّلطَان مراد الخامس (مايو١٨٨٦ - أغسطس ١٨٨٦ م): عزله المتآمرون.
- (٣٤) - السُّلطَان الغازي عبد الحميد خان الثّاني (١٨٨٦ - ١٩٠٩ م): عزله المتآمرون بدسائس اليَهُوْد.
- (٣٥) - السُّلطَان محمّد رشاد خان الخامس (١٩٠٩ - ١٩٢٤م).
- (٣٦) – السُّلطَان محمّد السّادس (وحيد الدّين) (١٩١٨–١٩٢٤): أسقطه الماسون بتخطيط اليَهُوْد والإنكليز والأوربيين، وتنفيذ أتاتورك. وهو آخر الخُلَفَاء العُثمَانِيّين.

وبه انتهى مسمّى الخِلافَة الّذي استمر زهاء ثلاثة عشر قرنا ونصف القرن.

أولاً: المناحي الإيجابية في دولة الخِلافَة العُثمَانِيّة:

إبتداءا يجب أن نلفت النَّظر إلى أن معظم المراجع التارِيخِيَّة المعاصرة الّتي أرخت للعُثمَانِيّين، قد ظلمت هذه الدّولة المجيدة، وزورت تاريخها وتاريخ المُسلِمِين في أيّامها، وذلك لأن معظم كتاب التّاريخ بعدها من المستشرقين، وتلاميذهم من ذراري المُسلِمِين بما فيهم الأتراك والعرب كانوا حاقدين عليها، حيث ينتمي معظم كتاب السّياسة والتّاريخ المعاصرين من المنسوبين للمسلمين هم من العلمانيين، والقوميين، وقد تولى أتاتورك وأتباعه إلى اليَوْم الحجر عَلى وثائق كثيرة هامة من أرشيف الدّولة العُثمَانِيّة، وخاصة عن المَرحَلَة الأخيرة من تاريخها والَّتي تولى فيها الماسون إسقاط الدّولة.

وأذكر أنّنا درسنا في بلادنا العربيَّة منذُ الطفولة في المدارس الابتدائية ثمّ ما تلا ذلك من مراحل الدّراسة شيئا من تاريخ تلك المَرحَلَة تحت عنوان (الإحتلال العُثمَانِيّ)!!

ولما درست في قسم التّاريخ من جامعة بيروت دراستنا المناهج - الّتي وضعها التربويون والكتاب بحسب أهواء فراعنة بلادنا من عملاء اليَهُوْد والنّصارى –درسونا تاريخ الّذين تآمروا لإسقاطها وتعاونوا مع الكفّار من الإنكليز وحلفائهم، من القوميين والماسون العَرَب، ومعظمهم من نصارى الشّام، عَلى أنهم أبطال القوميّة العربيَّة، وشهداء الإستقلال!! كما قدمت لنا الّذين قادهم لورنس الجاسوس الإنكليزي عَلى أنهم قادة الثَّورة العربيَّة الكبرى عَلى الإحتلال العُثمَانِيّ!

ومن هنا نقول أنه يجب أن تقرأ تلك التّاريخات بعين الإتهام، ومنهج التمحيص، لتميز حقيقة ما كانَ في تلك الدّولة من سلبيات – سأذكر لاحقا أهمّها – عما هو افتراءات وتزوير من وضع المستشرقين وعملائهم من المرتدّين العلمانيين.

فإذا ما جئنا إلى إيجابيات دولة الخِلافَة العُثمَانِيّة.

فيأتي في طليعتها الحفاظ عَلى مسمّى الخِلافَة الإِسْلَاميّة، وحمل مشعل حماية المُسلِمِين ضدّ هجمات أعدائهم، وتوحيد معظم ممالكهم الرَّئيسيَّة في دولة واحدة قوية، بعد أن كانت الخِلافَة قد تحولت لمسمي رمزي في مصر حيث كانَ الخَليفَة لا يسيطر حتَّى عَلى قصره في ظل سلطان دولة المماليك منذُ

سقوط بغداد، بل حتَّى قبل ذلك عندما كانَ القادة الأتراك يسيطرون عَلى مقدرات ما بقي من الخِلافَة في بغداد فيما كانت عشرات الممالك والإمارات المستقلة تتقاسم رقعة العالم العربيّ والإِسْلَاميّ.

وأما الفضيلة الثّانية لها، فهي إنهاء دولة الرُّوم البيزنطيين، وتردد أصداء الأذان في عاصمة ملكهم (القُسطَنْطينيَّة)، الّتي صار اسمها مدينة الإِسْلَام (إسلام بول)، والَّتي انبعثت منها رايات الفتح والجِهَاد لتُدخل الإِسْلَام إلى ربوع أوربّا الشرقية بكاملها (اليونان وبلغاريا، ورومانيا والمجر، وبلاد الصّرب والبوسنة والهرسك، فمدت دولة الإِسْلَام إلى بلاد البلقان بكاملها، ووصلت كما رأينا تفصيلا إلى وسط النمسا، وشمال إيطاليا، وملكت جزر المتوسط بكاملها، وأخذت الجزية والضرائب من معظم عظماء ملوك أوربّا في حينها.

أما ثالث فضائلهم فلقد اعتبر العُثْمَانِيّون أنفسهم حماة المُسلِمِين، واعتبر الخَليفَة العُثْمَانِيّ واجب حمايتهم مسؤولية في عنقه، فدافع عن شواطئ شمال إفريقيا من ليبيا وحتى مراكش، وأرسل الجيش والمدد، برئاسة وزير حربيته حتَّى إلى بلاد ما وراء النهر ليدافع عن بخارى وترمذ وطشقند!! وردت هجمات الصفويين عن العراق وشرق الأناضول، وبلاد القفقاس، وطردت البرتغاليين من شواطئ البحر الأحمر وبحر العَرَب وبحر الهند.

لقد وصلت الدّولة العُثْمَانِيّة إلى أوج من الحضارة والسّيطرة والقوة إلى مستوى لم تصل له دولة إسلاميّة في تاريخها، لقد تمكن العُثْمَانِيّون من دك أسوار القُسطَنْطينيَّة بقنابل تزن أكثر من ٢٠٠٠(كيلو غرام) وترميها من الشاطئ الآسيوي لمسافة ٢ كيلو متر!! وذلك أواسط القرن الخامس عشر! وجابت أساطيل العُثْمَانِيّين البحر المتوسط وما حوله من البحار، وكانت تهاجم أساطيل الأوربيين وموانئهم أحيانا بأكثر من ألف سفينة محملة بالمدافع الثقيلة! حتَّى استطاع خليفتها العُثْمَانِيّ (السُّلطَان عبد المجيد) في القرن الثَّامن عشر أن يسمي البحر الأبيض المتوسط: (بحيرة عُثْمَانِيّة)، فلما سأله أحد الصحفيين الإنجليز مستغربا ذلك الاسم قائلا: (إذا كنت تعتبر المتوسط بحيرة عُثْمَانِيّة! إذن ماذا تدعون البحر الأسود الّذي تحيط مملكتكم وجُيُوشكم به ؟ فأجابه مبتسما: ذاك مسبح قصري عَلى شوطئ إسلام بول!)

أما البحر الأحمر فقد اعتبره الأتراك العُثمَانِيّون حملة مشعل الإِسْلَام (بحر الحرم)، وجعلوه محرما عَلى السفن الصّليبيّة حتَّى التجاريَّة المدنيّة، كي لا يمر صليب من أمام مدينة جدة، فيدنس الماء الّذي يلمس شواطئها وهي في الحرم!! اللهُ أكبَر.. جدة هذه..الّتي أطلقت البوارج الأمريكيّة تحت رعاية آل سعود اليَوْم صواريخ كروز منها عَلى أفغانستان وبغداد من، (بحر الحرم) أي البحر الأحمر، من شواطئها الّتي عمرها آل سعود بالملاهي ومرافق الفسوق، وسبحان مقلب الأحوال.

ولقد كانت الهويّة الإِسْلَاميّة لراية العُثمَانِيّين ظاهرة، رغم ما اعتراهم من البِدَع والإنحرافات كما سنذكر لاحقا، وكانوا معظمين لشعائر الله، مهتمين بحماية الحرمين، والإنفاق عَلى خدمتهما، وحراسة سبيل الحجيج، كما نشروا المساجد في كلّ الأصقاع الّتي وصلها سلطانهم، وأوقفوا الأوقاف، وبنوا التكايا ومنشآت الخدمات المختلفة، وما تزال آثارهم بطابعها المعماري التركي بارزة شاهدة في مشارق بلاد المُسلِمِين ومغاربها.

وفي الوقت الّذي كانت أوربّا الشرقية مسرح معظم مواجهاتهم مع أوربّا كما رأينا، ازدهرت الحياة الاقتصاديَّة والتجاريَّة والصناعية تبعا لقوتهم وما فرضوه من الأمن والاستقرار، و صارت استانبول عاصمة الدُّنيَا تليها في ذلك عواصم مصر والشّام والحجاز، وموانئ جَزِيرَة العَرَب وشمال إفريقيا، وتحركت قوافل التجارة عَلى الطرق التجاريَّة القديمة (طريق التوابل، وطريق الحرير)، ونقلت البضائع من وإلى تلك العواصم، لتنقلها سفن المُسلِمِين إلى شواطئ المتوسط، وحتى إلى موانئ أوربّا.

ثانيا: المناحي السلبية في دولة الخِلافَة العُثمَانِيّة:

إن أول سلبية تذكر لسلاطين بني عثمان الأتراك هيَ أن تسلل التَّشريع الوضعي إلى نظام الحكم، عَلى وجه التَّشريع والتقنين والحكم بغير ما أنزل الله، قد حصلت في زمانهم ولأول مرّة في تاريخ الإِسْلَام والمُسلِمين، في حين كانَ ذلك قبلا من بعض فساق ملوك وأمراء المُسلِمِين وبعض خلفائهم، عَلى وجه الاحتيال والتهرب والمراوغة، ولم يتجرأ أحد أن ينتقل للتشريع والتقنين، إلى زمان العُثمَانِيّين، وقد بدأ هذا كما رأينا زمن سليمان القانُونيّ، بل منذُ أيّام الفاتح بشيء قليل إن صح ما روي في ذلك،

وتطور بعد ذلك مع تسلل الضّعف والإعجاب والافتتان بأوربّا لكثرة احتكاكهم بها، مما فتح باب التغريب وضياع الهويّة، وإفساد النُّخبَة الّتي تولت في النهاية إسقاط الدّولة.

ويشترك سلاطين بني عثمان مع من سبقهم من خُلَفَاء وملوك وأمراء الدّول والممالك الإِسْلَاميّة السَّابقة بمعظم السلبيات الّتي طبعت قصور الحكم منذُ تحول نظام الحكم من الخِلافَة إلى الملك عضوض ثمّ الملك جبري، ومن ذلك:

الصِّرَاع عَلى الملك بين الأبناء والإخوة، وكثرة القتل والخلع بين الإخوة ومن التف حمل كلّ واحد منهم من حاشية السوء، إلا أن سلاطين العُثْمَانِيّين زادوا عَلى ذلك رذيلة لم يسبقهم إليها أحد من المتصارعين عَلى الملك في تاريخ المُسلِمِين ؛ إلا وهي بدعة قتل إخوة السُّلطَان عند توليه، واجتثاثهم جميعا حتَّى الرضع!! وذلك بدعوى تلافي فتنة منافسة الخَليفَة عَلى الملك مما يفسد الدّولة ويضعفها أمام أعدائها! وقد وجد السّلاطين بحسب ما ذكر بعض المؤرخين من بعض شياطين الإنس من يفتيهم أن لهذا حجة في قوله تَعَالَى ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [البقرة: ١٩١] فهم يرتكبون قتل الإخوة خوف فتنة الخلاف والفرقة!!

تدخل الأمهات الأجنبيّات في صراعات القصر، وزاد الطين بلة أن العديدات منهن كن من بنات ملوك الكفّار أو من صفيات السبايا بين روسية وصربية وإيطالية، اللواتي عملن لصالح بلادهن وزاحمن إخوة أولادهن عَلى ولاية العهد.

البذخ والترف والاستكثار من القصور والفرش والرياش، والمطابخ والحمامات الملكية، ولقد تيسر لي أن أزور بعض تلك الآثار في استانبول حيث يرى الناظر العجب العجاب من بقايا آثارهم الّتي سرق أنفسها في العهد الأتاتوركي.

الأثرة وظلم الرعايا وكثرة المكوس والضرائب الّتي فرضها الضامنون لمهمات جمع الضرائب والمتصدرون لشؤون العامّة، وقد زاد هذا في أواخر الدّولة بتحولها إلى النّظام الإقطاعي، حيث أقطع السُّلطَان (الباشاوات) و(البيكاوات) الأراضي، فملكوها بمن عليها من الزراع والفلاحين وساموا النّاس خسفا وظلما سارت بأخباره الركبان.

وصار مادة للمسلسلات والأفلام فيما تتالى من أيّام حتَّى وصلت إلى (غوار الطوشة!).

ولقد كانَ للمرحلة العُثمَانِيّة سلبيات خاصّة بها فوق ما اشتركوا به مع غيرهم، من السلبيات آنفة الذكر، ومن ذلك:

أن اتجاههم الحضاري كانَ أحاديا وتجلى بالمنحى العسكريّ، ولم يولوا المناحي الأخرى للتقدم الحضاري في مجال العلوم الإِسْلَاميّة والتطبيقية، ومجالات الفكر والأدب، أهمية، فطبع العالم الإِسْلَاميّ بالجهل والتخلف فمنذ القرن السبع عشر فيما كانت أوربّا تشهد التّحول الكبير في ثوراتها الفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيَّة، والصناعية، مما أوجد هوة حَضَاريَّة بين الشّرق والغرب ساهمت في انتقال راية الحضارة البشرية من شرقنا إلى غربهم.

التخلف الدّيني، والتقوقع والتعصب المذهبي (إذ حكم الأتراك وتعصبوا لمذهب الإِمَام أبي حنيفة رحمه الله)، في حين أنهم حكموا رقعة إسلاميّة تتعدد مذاهبها الأصيلة في المُسلِمِين، كما شهدت مرحلتهم، تشجيعا للتصوف ومدارس الدراويش، فقد كانَ سلاطين العُثْمَانِيّين، وشيوخ السّلاطين من الصوفية، وقد ساعدت أجواء التخلف والفقر والظُّلم الّتي طبعت تلك الفترة النّاس عَلى الاندفاع وراء الطرقية الصوفية فرارا من واقعهم المرير، وزادت الصوفية الأُمّة جهلا عَلى تخلف ولاسيما في ثلثها الأخير.

العنصرية التركية، والّتي وجدت منذُ البداية، حيث تولى الأتراك معظم المناصب الهامة، والغريب أن الإهمال للعنصر العربيّ، والعناصر العرقية المشرقية الأخرى كانَ ملحوظا في حين تمكن بعض المُسلِمِين من البلاد الغربيّة المفتوحة أن يجدوا فسحة في المناصب، وقد أوجد هذا هوة بين العُثْمَانِيّين والمكون الأساسي للأمة الإِسْلَاميّة عددا وأهمية وهم العَرَب، وقد زادت حدة هذه الظَّاهِرة في الطور الأخير من الخِلافَة العُثْمَانِيّة عندما وجدت الفكرة القوميّة – بعد الثَّورة الفرنسية – طريقها إلى المفتونين من الترك والعرب عَلى حد سواء، وبرزت القوميّة الطورانية (التركية) بحدة، وتسلم جبابرتها من الماسون واليَهُوْد مقاليد الأمور، فأوجدوا المبرر للمتآمرين من ماسون العَرَب، ومن المغرر

بهم من المثقفين، ومن الطامعين بالملك، أن يرفعوا نعرتهم القوميّة العربيَّة أيضا، وكان هذا أكبر المعاول الّتي هدمت صرح الخِلافَة.

وهكذا تجمعت السلبيات رغم ما أسلفنا من الإيجابيات العظيمة لترسم النَّتِيجَة المحتومة بقدر الله، ويمكن تلخيص مجمل أسباب السُّقوط بالنقاط التّالية باختصار.

ثالثا: الأسباب العامّة لانهيار الدّولة العُثمَانِيّة:

دخول التَّشريع الوضعي عَلى الشّريعة الإِسْلَاميّة بدعوى التقين والتَّنظِيم وهبوب رياح التغريب جراء الإعجاب ببهارج الحضارة الغربيّة، وهذا من أهمّ أسباب ضياع المُسلِمِين قديما وحديثا.

الترف والبذخ في حياة السّلاطين، ولقصور الحاشية، ورجال الأجهزة الحُكُوميّة وكبار طبقات المجتمع وهو ثاني أهمّ أسباب انهيار الممالك والدّول.

الظُّلم والطّغيان والنّظام الاستبدادي الفَرديِّ الفئوي القومي، وكثرة المكوس عَلى الرعية، وتفشي النّظام الإقطاعي بأسوأ صوره وسيئاته، وتفشي الطبقية في المجتمع، وهو ثالث أهمّ أسباب الزوال والبوار.

الجمود الفكريّ والفقهي والدّيني، والتقوقع المذهبي، والاتجاه الأحادي العسكريّ للحضارة العُثْمَانِيّة عَلى حساب المناحي الحَضَاريَّة الأخرى.

تدخل قناصل وسفارات الدّول الأجنبيّة في شؤون البيت العالي (ديوان الخِلافَة) ودعم الأقليات لاسيما النّصرانية للعبث بوحدة الدّولة.

طغيان الشعور القومي لدى الأتراك، واعتماد سياسة التتريك والتميز العنصري وقمع القوميات ولاسيما في البلاد العربيَّة.

سيطرة يهود الدونمة والماسون عَلى إدارة الدّولة في الثلث الأخير من حياة الدّول العُثْمَانِيّة ولاسيما القرن الأخير.

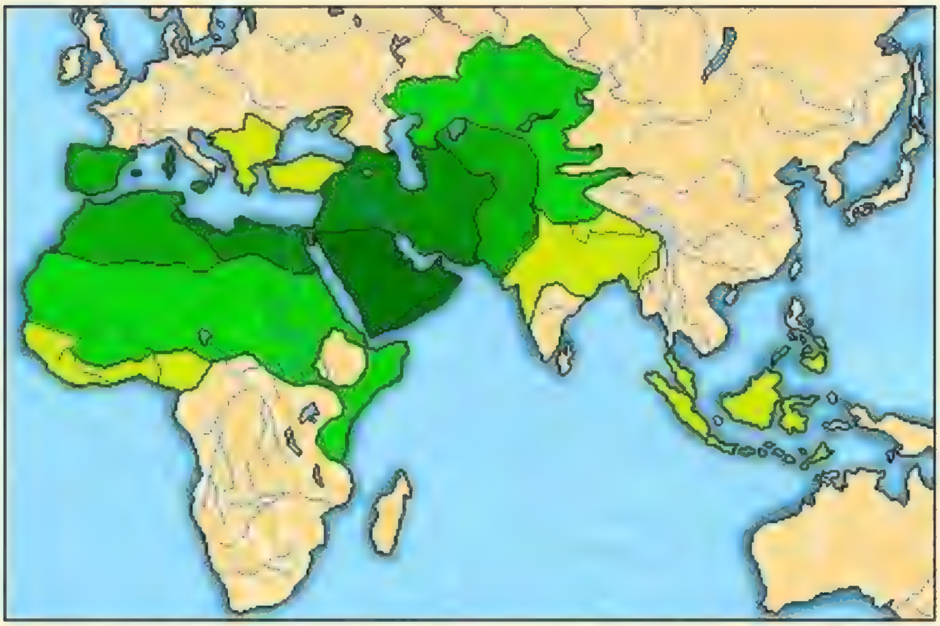
تفشي روح الشّعوبية والقومية لدى العَرَب وغيرهم كرد فعل عَلَى سياسة التمييز التركي، والاتجاه لمقاومة الخِلافَة العُثْمَانِيّة، ومحاربتها ومعاونة الإنكليز عليها!

افتتان نخبة الطّبقة السّياسيّة، والعسكريّة، والثّقافيَّة والفكريّة في الدّولة العُثْمَانِيّة عامة بالحضارة الغربيّة، وسعيهم لتقليدها، وفقدان روح العزة الإِسْلَامِيّة .

وأخيرا: السبب الخارجي:

وهو تآمر الدّول الأوربية وخاصة الإنكليز والرُّوس والفرنسيين والطليان وغيرهم، وتعاونهم مع اليَهُوْد وإصرارهم عَلَى إسقاط الدّولة العُثْمَانِيّة وتحالفهم ضدها، من أجل إيصال اليَهُوْد إلى فِلَسطِين، وتقاسم الأوربيين ولاسيما تلك الدّول الثّلاثة لإرثها، وتقطيع أوصال العالم الإِسْلَامِيّ والعربي وابتلاعه.

مراحل انتشار الإسلام في العالم



العصر النبوي ٢هـ - ١١هـ/٦٢٤ - ٦٣٢م
عصر الراشدين ١١هـ - ٤١هـ/ ٦٣٢ - ٦٦١م
العصر الأموي ٤١هـ - ١٣٢هـ/٦٦١ - ٧٤٩م
العصر العباسي ١٣٢ - ٦٥٦هـ/ ٧٤٩ - ١٢٥٨م
على أيدي غير العباسيين ٦٥٦ - .. هـ / ١٢٥٨ - .. م

استعراض لأحوال دول وممالك العالم العربيّ والإِسْلَاميّ منذ انهيار الخِلافَة العُثمَانِيّة

(منذ ١٢١٤هـ - ١٨٠٠م وإلى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م)

أعتقد أنه حتَّى تكتمل الفائدة ويتحقق الغرض المقصود، من سرد خُلاصة التّاريخ الإِسْلَاميّ في مقدمة بحث غرضه التأسيس لدعوة مقاومة إسلاميّة عالميّة، يقودها طلائع واعية مستوعبة لعقيدتها الجهاديّة، فاهمة لمعطيات واقعها، مدركة لدروس تاريخها، أن من المفيد أن نختم هذا الفَصل التّاريخي بخلاصة تاريخ ما حلّ ببلدان العالم العربيّ والإِسْلَاميّ بعد انفراط عقد الخِلافَة، وهو ما يصطلح عليه بالتّاريخ الحديث

للعرب والمُسلِمين، ورغم أن أكثر تلك الأحداث المأسوية قد حلّ بالمُسلِمين بعد انفراط عقد الخِلافَة العُثْمَانِيّة وتناهب الغرب الأوربي وروسيا لتركتها وذلك بعد سقوطها الرسمي بعد الحَرب العَالَمِيّة الثّانية وخسارتها إلى جانب ألمانيا لتلك الحَرب.

إلا أن تلك الأحداث الّتي تعتبر الجولة الثّانية من الحملات الصّليبيّة، كانت قد بدأت قبل ذلك حيث قضمت البلاد الأوربية الاستعماريّة ما استطاعت من بلدان المُسلِمين في الأطراف البعيدة للعالم الإِسْلَاميّ وقد بدأ ذلك منذُ القرن السَّادس عشر، إلا أنه يمكن التّاريخ لبدايته الجدية منذُ حملة نابليون عَلى مصر سنة ١٧٩٨ ميلادية، وهو التّاريخ الّذي يوافق بدايات الضّعف والتقهقر في الخِلافَة العُثْمَانِيّة كما رأينا آنفا.

ونظرا لعدم تمكني من المراجع المعاصرة وأنا أخط هذا البحث في مرحلة المخابئ، حيث لا تتوفر لي الكتب اللازمة، ونظرا لعدم توفر المراجع الّتي كنت أتمناها ولاسيما كتاب (موسوعة التّاريخ الإِسْلَاميّ) للأستاذ المؤرخ العبقري محمود شاكر رحمه الله حيث أرخ لسائر بلاد المُسلِمين منذُ انطلاق دولة الإِسْلَام وإلى مطلع الثمانينات من القرن العِشرين، وغيره من الكتب التارِيخِيَّة المتخصصة في التّاريخ السّياسيّ المعاصر، فلذلك ستكون هذه الفقرة موجزة أعتمد في جلها عَلى ما علق في ذاكرتي مما

قرأت أو درست، أو مما عشته وشهدته من تاريخنا خلال هذا الربع الأخير من القرن العِشرين، وهي صفحات ربما يكون من الأفضل أن نصفها بأنها قاسية مريرة حتَّى نفر من وصفها بأنها سوداء، ولو قلنا ذلك لما عدونا الواقع.

وإن كنت أعتقد أنه سواد ليل أذن بالرحيل إن شاء الله، حيث ألمح انبعاث طلائع من الشَّبَاب المُجَاهد الظَّاهِرين عَلى الحقّ، ينسجون بأشلائهم خيوط الفجر ليشرق صباحه المنير قريباً- إن شاء الله – في سماء عالمنا العربيّ والإِسْلَاميّ الكبير.

وما هذا السهر الدؤوب الّذي أستعين الله عليه في كتابة هذا البحث الكبير منذُ ثلاثة سنين، ونحن في مرحلة الخوف والتنقل والاختفاء هذه، إلا مساهمة متواضعة في حياكة حصة متواضعة في نسيج ذلك الفجر العظيم المنشود، القادم لا محالة بإذن الله.

وأسأل الله الإخلاص والقبول، وخاتمة بالشَّهَادة في سبيل الله، بعد أن نشهد إطلال إشراقاته الأولى لننعم بدفئ وضياء ذلك النور، بعد أن تطاولت علينا عقود ذلك الليل البهيم شديد الظُّلمة قاسي الصقيع.

وسأسرد خُلاصة ذلك التّاريخ الحديث عَلى قسمين، بلاد العالم العربيّ، ثمّ أهمّ بلاد العالم الإِسْلَاميّ، وسأبدأ بالعالم العربيّ مسلسلا الدّول من المشرق إلى المغرب، ومن آسيا إلى إفريقيا، فقد تفتت العالم العربيّ إلى اثنتين وعشرين دولة! قابلة للزيادة هذه الأيّام بحسب بَرَامج جورج بوش! وتجاوز عدد الدّول الإِسْلَاميّة خمسا وخمسين دولة!! وليس هذا لدخول مزيد من الدّول في الإِسْلَام بالطبع، وإنما لتقسيم قصعته عَلى مائدة المُستَعمرين شذر مذر!

أولاً: العالم العربيّ:

العراق:

كانَ العراق ولاية عُثمَانِيّة منذُ عام (٩٢٢هـ - ١٥١٦م) وحتى (١٣٣٥هـ - ١٩١٧م)، وتنافست عَلى احتلاله ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، فبعد تحقيق الوحدة الألمانية، اتجهت ألمانيا إلى سياسة

التوسع شرقا عَلى حساب الدّولة العُثمَانِيّة المنهارة، ويتضح ذلك في مشروعها الخاص بمد سكة حديد برلين – بغداد.

وقد أدركت بَرِيطَانيَا خطورة النفوذ الألماني فتصدت لمواجهته نظرا لتهديده الوجود البريطاني في الخليج.

ولما اندلعت الحَرب العَالَمِيّة الأولى سنة (١٣٣٢هـ – ١٩١٤م) بدأت القوّات البريطانيَّة تتحرك من الهند لاحتلال العراق منتهزة فرصة انضمام الدّولة العُثمَانِيّة إلى ألمانيا، ونجحت هذه الجُيُوش في الاستيلاء عَلى الفاو والبصرة وسيطرت تدريجيا عَلى جنوب العراق سنة (١٣٣٣هـ ١٩١٥م)، وفي سنة (١٣٣٥هـ – ١٩١٧) احتلت بغداد والموصل وأعلنت بَرِيطَانيَا نهاية تبعية العراق للدولة العُثمَانِيّة.

وفي مؤتمر (سان ريمو) سنة (١٣٣٨هـ – ١٩٢٠م) تقرر وضع العراق تحت الحماية البريطانيَّة.

أما عن تطور الحركة الوطنيّة العِرَاقيَّة، فقد بدأت من قبل أعضاء (جَمعيَّة العهد) الّذين عقدوا اجتماعا بدمشق أعلنوا فيه استقلال العراق واتحاده مع سوريا سياسيّاً واقتصاديا كما قاموا بتحركات عسكريّة عَلى الحدود السوريّة العِرَاقيَّة.

ولبى العراقيون في الداخل نداء المُقاوَمة وقاموا بثورة سنة (١٣٣٧هـ – ١٩٢٠م) الّتي امتدت من الموصل إلى البصرة وشارك فيها سائر القبائل والطوائف ولم يبق في أيدي الإنجليز سوى البصرة وبغداد والموصل.

وكانت بَرِيطَانيَا قد توجت الأمير فيصل بن الشريف حسين ملكا عَلى العراق وذلك في عام (١٣٣٩هـ – ١٩٣٠م) فعمل عَلى تحقيق الاستقلال عن طريق المفاوضات وعقدت معاهدة (١٣٥٠هـ –١٩٣٢م) فحصلت العراق بمقتضاها عَلى بعض المكاسب منها قبول العراق عضوا في عصبة الأمم سنة (١٣٥٠هـ – ١٩٣٢م).

وعندما قامت الحَرب العَالَمِيّة الثّانية سنة (١٣٧٥هـ – ١٩٣٩م) رأت بَرِيطَانيَا الفرصة سانحة لتستفيد من امتيازات معاهدة (١٣٤٨هـ – ١٩٣٠م) وذلك باستعمال قواعد المواصلات العِرَاقيَّة

وبعض القواعد العسكريّة مما جعل الوضع بالعراق يزداد توترا إلى أن انفجر بثورة رشيد عالي الكيلاني سنة (١٣٥٩هـ - ١٩٤١م) بالعراق.

وتفجر الصِّرَاع العسكريّ بين الإنجليز والعراقيين الّذي انتهى بهرب رشيد عالي الكيلاني خارج العراق كما نجحت بَرِيطَانيَا في استمالة الأمير عبد الإله ونوري السَّعيد لتنفيذ مخططاتها في دعم نفوذها بالعراق.

وفي سنة (١٣٦٤هـ - ١٩٤٤م) جرى تشكيل خمسة أحزاب عراقية تبنى بعضها معارضة السّياسة البريطانيَّة في العراق لكن استطاعت بَرِيطَانيَا حلها.

وفي (٨/ ٥/ ١٣٧٤هـ - ٥إبريل سنة ١٩٥٥م) أعلن قيام (حلف بغداد) بين العراق وتركيا ثمّ انضمت إليه بَرِيطَانيَا وإيران وباكستان والولايات المتحدة الأمريكيّة، فكان ذلك نوعا من عزل العراق وبعض البلدان العربيَّة عن التّيار العربيّ التحرري الّذي راج آنذاك.

ولمُوَاجَهة الحلف تشكلت لجنة وطنيّة من القوى القوميّة والشُّيُوعِيّة تصدت لقيادة الحركة الوطنيّة، وانتهت جهودها إلى تفجير ثورة (١٠/ ٧/ ١٣٧٧هـ - ١٤يوليو سنة ١٩٥٨م) الّتي أطاحت بالنّظام الملكي وأعلنت الجمهوريّة.

سنة (١٩٦٥) استولى (حزب البعث العربيّ الاشتراكي) عَلى السّلطة عبر الإنقلاب في العراق، ونصب (أحمد حسن البكر) رئيسا للعراق، وبعد ثلاث سَنَوات تمكن رجل حزب البعث النافذ (صدام حسين) نائب الرَّئيس البكر من إزاحته بهدوء وتولى رئاسة العراق، وابتدأ عهده بتصفية كافّة مراكز القوى في الحزب والدّولة بالبطش والإعدامات الدموية، حتَّى سيطر بمفرده عَلى الحكم كواحد من أقوى رؤساء الأنظمة العربيَّة الديكتاتورية وأكثرهم بطشا وجبروتا، وقد تميزت فترة حزب البعث في العراق - كما في سوريا - بتصفية كافّة الاتجاهات السّياسيّة الأخرى، واتبعت نهجا علمانيا إلحاديا يساريا مواليا لموسكو، وقد حارب صدام البعث الإِسْلَام والإِسْلَاميّين وبطش بهم وسار بالعراق عَلى طريق الكفر والظُّلم والطّغيان، ولكن الّذي يحسب لصدام أنه سعى لبناء دولة قوية متطورة علميا وتكنولوجيا، وأسس جيشا قويا كثير العدد موفور العتاد، وطور الصناعات العسكريّة ولاسيما

الصاروخية، بل طمح لأن يمتلك القدرات النووية، وشهد العراق في عهده الديكتاتوري الدموي نهضة عمرانية وازدهارا اقتصاديا مستفيدا من الموارد النفطية الهائلة للعراق.

وبعد الثَّورة الشيعيّة الخمينية الّتي أطاحت بشاه إيران، تبنت إيران مبدأ تصدير الثَّورة للدول العربيَّة والإِسْلَاميّة، وحركت القوى الشيعيّة الّتي كانَ صدام قد اضطهدها كغيرها بقسوة، فبطش صدام بالشّيعة ونكل بهم بوحشية، واستغلت أمريكا الحال بين الجارتين القويتين ونجحت في إشعال حرب ضروس بينهما اتهمت كلّ دولة فيها الأخرى بالتسبب في بدء الحَرب الّتي استمرت من (١٩٧٩) وإلى (١٩٨٧) ودمرت موارد البلدين، ولكن العراق خرج بتجربة عسكريّة كبيرة وطور جيشه، واستغلت أمريكا النزعة التوسعية لدى صدام، واستدرجته السفيرة الأمريكيّة وزينت له احتلال الكويت، فتورط في حرب الخليج الثّانية واحتل الكويت بسهولة سنة ١٩٩٠م، وبذلك بلع صدام الطعم الّذي وضعته له أمريكا ليكون عذرها الواهي للتواجد الاستعماريّ في المنطقة، وهكذا زحفت أمريكا مع جُيُوش حلفائها بنحو مليون جندي لتحرير الكويت وإنقاذ أصدقائها من حُكَّام الخليج كما ادعت وادعى أولئك الحكَّام الخونة، وأسفرت الحَرب سنة ١٩٩١ عن تدمير الجيش العراقي، وتركيع حُكَّام الخليج وابتزاز مخزونهم المالي في بنوك أمريكا، ووضع الأمريكان قدمهم في المنطقة، وفرضت أمريكا حصارا ظالما عَلى الشعب العراقي بحجة احتواء نظام صدام، وعبر ١٣ سنة من الحصار الوحشي قتل أكثر من مليون ونصف من الأطفال لانعدام الغذاء والدَّواء عدا ما هلك من الرّجال والنِّسَاء، فضلا عن الحَرب الّتي قتل فيها أكثر من ٣٠٠ ألف عسكريّ ومدني تحت القصف الأمريكيّ الوحشي! وبعد أن تأكدت أمريكا من انهيار العراق ونظامه، نفذت الحلقة الثّانية من البرنامج اليَهُوْدي الصّليبيّ واحتلت العراق كاملا بشكل مكشوف في حرب الخليج الثّالثة الّتي أسمتها حرب تحرير العراق وذلك بعد أن سهل لها ذلك لفيف من المعارضين العراقيين الّذين ربتهم أمريكا وبريطانيا عبر سَنَوات الحصار وكان في طليعتهم القوى الشيعيّة الّتي تمركزت في إيران بالإضافة لقوى أُخرى، حيث أوصل صدام الشّيعة والقوى الأخرى ببطشه إلى الاستعداد للتعاون مع الشّيطان للإطاحة به، وتداخلت المسائل السّياسيّة المتشابكة - وليس هنا محل استقصائها - لتكون بداية

البرنامج الاستعماريّ الكبير الّذي تجتاح به أمريكا وحليفتها بَرِيطَانيَا الشّرق الأوسط برمته من بوابة العراق، بعد أن احتلت أفغانستان وفرضت نفسها كقوة استعماريّة إمبراطورية جديدة عَلى العالم بأسره، وهكذا سقط نظام صدام وحكم البعث الّذي استمر زهاء ٣٥ سنة، لتتولى هذه الأيّام حكومة عميلة معينة من قبل أمريكا حكم العراق الّذي يعيث فيه فسادا أكثر من ١٥٠ ألف جندي أمريكي، ونحو ٥٠ ألف جندي بريطاني عدى جُيُوش بقية الحلفاء الصّليبيّين.

سوريا:

بقيت سوريا خاضعة للحكم العُثْمَانِيّ نحو ٤٠٠ سنة، ومع تهلهل أحوال الدّولة العُثْمَانِيّة بدأت بذور العمل التّحرّك القومي العربيّ في سوريا من جراء دسائس تلاميذ المستشرقين الصّليبيّين، ومعظمهم من النّصَارى، حيث لاقت أفكارهم رواجا نتيجة سياسة (التتريك) الّتي اتبعها الماسون الّذين استولوا عَلى الدّولة العُثْمَانِيّة في أواخر عهدها، وقد بدأ النَّشَاط القومي في صور جمعيات ثقافية الطابع داخل سوريا وخارجها نذكر منها جَمعيَّة النهضة العربيَّة الّتي أسست في دمشق سنة (١٣٢٤هـ -١٩٠٦م) وجَمعيَّة العربيَّة الفتاة الّتي أسست سنة (١٣٢٩هـ - ١٩١١م) في باريس وانتقلت لدمشق وبقيت بها حتَّى سنة (١٣٣٧هـ - ١٩٢٠م)، ثمّ عقد في باريس المؤتمر العربيّ الأوّل سنة (١٣٣١هـ -١٩١٣م) والّذي مثل اتحادا عربيا ضمن إطار القوميّة العربيَّة.

أعقب هذا المؤتمر محاولة الأتراك للتقرب من العَرَب، واستجاب لهم العَرَب في محاولة لصد أخطار المطامع الأوروبية، لكن حركتي (التتريك) و(القوميّة العربيَّة) كانتا تمضيان قدما، ولم يكن من المستطاع التوفيق بين قوميتين في نطاق دولة واحدة، ومنذ ذلك الوقت حدث انفصام بين الأمتين وساد سوء الظن، وعندما قامت الحَرب العَالَمِيّة الأولى سنة (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م) دخلت تركيا الحَرب إلى جانب ألمانيا؛ وهنا قامت ما يعرف بالثّورة العربيَّة الكبرى عَلى تركيا، حيث قادها الأمير حسين بن علي والي الحجاز ضدّ الأتراك، حيث خدعه البريطانيون فتحالف معهم، واشترك معه أهل الشّام،

وانتهت الحَرب العَالَمِيّة بهزيمة ألمانيا وحلفائها، وانتصار بَرِيطَانيَا وفرنسا اللتان قسمتا المنطقة فيما بينهما بموجب اتفاقية سيكس – بيكو، ووعد بلفور الّذي منح فِلَسطِين لليهود.

وفي عام (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) عين المؤتمر السّوري العام فيصل بن الحسين ملكا عَلى سوريا، وفي نفس السنة صدرت قرارات مؤتمر سان ريمو الّذي كانَ من بين قراراته أن توضع سوريا تحت الانتداب الفرنسي، ووجهت فرنسا إنذارا للملك فيصل تطلب منه قبول الانتداب الفرنسي وتسريح الجيش السّوري خلال ٤٨ ساعة.

وقبل انتهاء الإنذار زحفت القوّات الفرنسية إلى دمشق ؛ فأعلن الملك فيصل الجِهَاد ؛ وهاج الشعب والتف حول حكومته والتقى الجيش الفرنسي بالجيش السّوري والمتطوعين بقيادة وزير الدّفاع يوسف العظمة في معركة ميسلون البطولية في يونيو (١٣٣٨هـ -١٩٢٠م) ولكنها انتهت بانتصار الجيش الفرنسي ليحتل دمشق ومن ثمّ سائر المدن السوريّة.

وعلى إثر ذلك غادر الملك فيصل دمشق وسيطر الفرنسيون عَلى البلاد سيطرة كاملة، واتبعت فرنسا سياسة طائفة فقسمت سوريا إلى أربع دويلات هيَ: دمشق، وحلب، ودولة العلويين، ودولة الدروز.

ولم يستسلم السوريون لهذه التدابير ؛ فقامت بعض حركات الْمُقاوَمة، وفي سنة (١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م) ثار الدروز عَلى الفرنسيين ثمّ امتدت الثَّورة إلى حماة ودمشق، وانتصر الثوار في عدّة معارك لكن الفرنسيين قمعوها بوحشية.

وأمام ضغوط الثوار وافقت فرنسا عَلى تشكيل حكومة وطنيّة بدمشق حاولت عن طريق المفاوضات عقد معاهدة تنص عَلى تكوين جيش وطني وإصدار دستور للبلاد، لكن المقيم الفرنسي عمل عَلى حلّ الحكومة سنة (١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م).

شكلت فرنسا حكومة عقدت معها معاهدة سنة (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م)، ثمّ اعترفت فرنسا بمنح سوريا استقلالا مشروطا.

ولما قامت الحَرب العَالَمِيّة الثّانية سنة (١٣٥٧هـ / ١٩٣٩م) أعادت فرنسا الحكم العسكريّ في سوريا، وأدى استمرار المُقاوَمة الوطنيّة والتنافس البريطاني الفرنسي إلى إجبار فرنسا عَلى منح سوريا الاستقلال سنة (١٣٥٩هـ / ١٩٤١م)، مع بقاء قوّاتها فيها.

وفي سنة (١٣٦١هـ / ١٩٤٣م) تمّ انتخاب (شكري القوتلي) رئيسا للجمهوريّة السوريّة المستقلة ثمّ اضطرت فرنسا إلى سحب قوتها من سوريا سنة (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م) ليكتمل تحريرها واستقلالها.

بعد الإستقلال قامت في سوريا سلسلة من الانقلابات العسكريّة بمؤامرات وتخطيط ودعم من السفارة الأمريكيّة في دمشق، وفي سنة ١٩٥٨ قامت الوحدة بين مصر وسوريا في عهد جمال عبد النّاصر، ثمّ انفصلت سوريا عن مصر، بانقلاب عسكريّ بعد ثلاث سَنَوات عَلى الوحدة! ثمّ جاء الدَّور عَلى (حزب البعث العربيّ الاشتراكي) ليقوم بانقلاب ٨ آذار ١٩٦٣. وكان جل قيادات الحزب من الطوائف غير الإِسْلَاميّة، فكانوا من النّصَارى والدروز والإسماعيلية والنصيرية، وقد أعلن البعثيون الكفر والإلحاد وحرب الإِسْلَام بلا خفاء ولا مواربة، كما انفردوا بالسلطة وبطشوا بالقوى السّياسيّة الإِسْلَاميّة والقومية واليسارية الأخرى، ثمّ انقسموا عَلى بعضهم، وأعدم بعضهم بعضا، وقام انقلاب سنة ١٩٦٥ عَلى الرَّئيس (أمين الحافظ) ذي الأصل السني، ليزداد نفوذ النصيرية والدروز في الحكم، وفي ٥ حزيران من سنة ١٩٦٧ خسرت سوريا ومصر الحَرب مع إسرائيل وهزمتا هزيمة مُنكرة، واحتلت إسرائيل مرتفعات الجولان من غير قتال، حيث تولى وزير دفاع سوريا آنذاك (حافظ الأسد) بيع الجولان لإسرائيل واشتهرت قصة الفضيحة دوليا وإقليميا، ومن ثمّ كوفئ حافظ الأسد والنصيرية بتسليمهم مقاليد الحكم في سوريا بدعم من القوى العَالَمِيّة والصّهيونيّة، وكان ذلك بعد آخر الانقلابات في سوريا، وهو ما سمي بالحركة التصحيحية، يقصدون تصحيح مسار حزب البعث!

ومنذ ذلك الوقت تحكم الطَّائِفَة النصيرية سوريا حكما طائفيا استبداديا.

حكم حافظ أسد سوريا خلال (١٩٧٠ – ١٩٩٨)، حكما عسكريّاً استخباراتيا بقبضة من حديد، وبطش بكل همسة معارضة لحكمه من أي هوية سياسيّة كانت، وضعف نفوذ البعثيين المرتدّين المنحدرين من أصول الطَّائِفَة السنية الّتي تشكل ٨٠٪ من سكان سوريا، وسارت البلاد في دروب الكفر والإلحاد والعلمنة بوتيرة متسارعة، كما دب الفساد والرشوة في كافّة مفاصل الحياة السّياسيّ والإدارية والقضائية والاقتصاديَّة، وذاق الشعب فيها ألوان العذاب!

قامت في سوريا ثورة إسلاميّة مسلحة عَلى نظام حافظ أسد بقيادة الشَّيْخ مروان حديد، وامتدت أحداثها من (١٩٧٣) إلى (١٩٨٣)، ولاقت انتشارا في صفوف المُسلِمِين السنة، ولكن النّظام بطش بالشعب بقسوة وبكافة ألوان الإِسْلَاميّين ولاسيما بالجهاديّين، وبالإخوان المُسلِمِين، وامتد عدوانه لكل ما يمت للإسلام بصلة، حتَّى دوهمت المساجد ومزقت المصاحف، وقتل المصلون، وفي فبراير ١٩٨٢ بلغت الثَّورة أوجها وتركزت في مدينة حماة، فقام النّظام النصيري البعثي بدك المدينة بالمدافع والطائرات وقتل أكثر من (٥٠ ألف مسلم) خلال ١٤ يوما! وسط صمت إعلامي دولي مريب عجيب، وتابعت الحكومة الاعتقالات الّتي كانت قد اشتدت منذُ ١٩٧٩ وأعدم في السّجون أكثر من ٢٥ ألف مسلم في حملات إعدام ومجازر منظّمة! دفن أصحابها في مقابر جماعية، وانتهت الثَّورة (راجع كتاب الثَّورة الإِسْلَاميّة الجهاديّة في سوريا، وكتاب المُسلِمُون والنصيرية في بلاد الشّام – للمؤلف).

أراد حافظ الأسد تولية ابنه باسل لخلافته في رئاسة الجمهوريّة، ورتب ذلك مع أمريكا والقوى الإقليمية، وفي طليعتها إسرائيل، ولكن باسل هلك فجأة في حادثة سيارة كما قيل، فرتب استخلاف ابنه بشار عَلى عجل مع نفس القوى، وحضرت وزيرة خارجية أمريكا، اليَهُوْدية الشمطاء (أولبريت) إلى دمشق وأشرفت عَلى تصويت البرلمان السّوري عَلى تعديل الدستور بالإجماع خلال ٤٠ دقيقة، وعلى نقل ولاية العهد لبشار الّذي مازال يحكم سوريا عبر أجهزة الإستخبارات الّتي أَسَّسَها أبوه إلى اليَوْم.

لبنان:

كانت لبنان جُزءاً من بلاد الشّام الّتي كانت ولاية عُثمانِيّة، ولما تقاسمت بَرِيطَانيَا وفرنسا الشّرق الأوسط، خرجت لبنان في حصة فرنسا باعتبارها جُزءاً من سوريا، ولكن فرنسا أعطت لبنان وضعا خاصا لوجود طائفة مسيحية كبيرة فيه، أرادت فرنسا الاعتماد عليها في نفوذها في المنطقة، ولما قسمت فرنسا سوريا إلى عدّة دويلات، كانت لبنان إحدى لك الدويلات، فوضعت لبنان تحت الانتداب الفرنسي تطبيقا لمعاهدة (سان ريمو) وبدأ الجنرال غورو إعادة تقسيم سوريا ولبنان، وفي أغسطس سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠) صدر قرار بإعلان قيام دولة لبنان، كما أعلن استقلالها عن سوريا، ثمّ اقتطعت فرنسا أجزاء من الأقاليم المجاورة لإقليم لبنان وألحقتها به وأسمته (دولة لبنان الكبير!!)، علما أن هذا (الُّبنان الكبير)!! بلغت مساحته بعد ما الحقّ به (١٠ آلف كم مربع فقط)!

ثمّ قام الفرنسيون باستغلال لبنان، وعمدوا إلى تمزيق شمل المواطنين والدس بينهم لتمكين أقدامهم في البلاد، لكن بعض اللبنانيين لم يستكينوا لفرنسا فقامت بعض الثورات من حين لآخر ؛ ومن أشهرها ما حصل في سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) ثورة جبل عامل الّتي أخمدها الفرنسيون، ولكن الفرنسيين اعتمدوا عَلى ولاء النّصَارى الموارنة لبسط نفوذهم.

ثمّ توالت الثورات وتلاقت مع ثورات سوريا خاصّة في ثورة عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م) في جبل الدروز، ثمّ حكم الفرنسيون بعد ذلك لبنان حكما مباشرا وإن أوجدوا مجلسا تمثيليا – حتَّى عام (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م) حيث أعطوا البلاد دستورا، وتم انتخاب رئيس للجمهوريّة اللبنانية هو شارل دبَّاس الّذي بقى حتَّى وفاته سنة (١٣٥٠هـ/ ١٩٣٢م).

وفي سنة (١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م) تمَّ تعيين حبيب باشا السعد رئيسا جديدا ثمّ تبعه عام (١٩٣٦م) إميل أده، وفي سنة (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م) تمَّ الاتفاق بين فرنسا واللبنانيين عَلى أن يكون رئيس الجمهوريّة، مارونيا ورئيس الوزراء مسلما سنيا.

وعندما قامت الحَرب العَالَمِيّة الثّانية عبثت السُّلطات الفرنسية بالنّظام السّياسيّ والإداري في لبنان، وعملت عَلى انتشار الفساد في البلاد.

وفي سنة (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م) تقدم الشَّيْخ محمّد توفيق خالد مفتي المُسلِمِين إلى المفوض السامي بعدة مطالب لتحقيق الإستقلال الشّامل والاعتراف بسيادة لبنان ووحدته مع سوريا، بينما تقدم بطرس عويضة زعيم الطَّائِفَة المارونية بمطالب تهدف إلى تحقيق الاستقلال والسيادة، وتوطيد العلاقات مع سوريا، ووضع دستور للبلاد.

وفي سنة (١٣٦١هـ/ ١٩٤٣م) تشكلت حكومة تمثل الطوائف الرَّئيسيَّة في لبنان وهي: (الموارنة، والسنة، والشّيعة، والرُّوم الأرثوذكس، والرُّوم الكاثوليك، والدروز) معبرة في ذلك عن شكل من الوحدة الوطنيّة وكان رئيس الجمهوريّة (بشارة الخوري). ثمّ أعطت فرنسا لبنان الاستقلال سنة (١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م) وتم جلاء القوَّات الفرنسية عن لبنان سنة (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م).

استمر الاضطراب الطائفي في دويلة لبنان الإصطناعية! وانفجرت الحَرب الأهلية بين الموارنة والطوائف الإِسْلَاميّة والملحقة بالإِسْلَاميّة والقومية سنة ١٩٥٨، وسكنت الأحداث لتنفجر ثانية سنة ١٩٧٥ بين تحالف النّصَارى الموارنة المدعومة من إسرائيل علنيا، والقوى القوميّة والإِسْلَاميّة والفلسطينيين المقيمين في لبنان، ودخل النّظام النصيري بإجازة أمريكية في الحَرب بين الأطراف، ونفذ الجيش السّوري بالتّعاون مع الطيران الإسرائيلي مذبحة مخيم تل الزعتر الفلسطيني وقتل زهاء ٥٠ ألف نسمة في تلك المذبحة! ثمّ أحدث النصيرية مذبحة أُخرى في المُسلِمِين في طرابلس شمال لبنان، ونمت قوة الطَّائِفَة الشيعيّة والنصيرية اللبنانية خلال تلك الحَرب بدعم من سوريا وإيران، ودمرت الحَرب الأهلية لبنان وهلك زهاء مأتي ألف من مختلف الطوائف، ثمّ تدخلت إسرائيل علنيا وزحفت جُيُوشها برئاسة شارون آنذاك واحتلت بيروت! ونفذت مجازر مهولة في الفلسطينيين في سنة ١٩٨٢ وخاصة فيما عرف بمذابح صبرا وشاتيلا، وأجبرت المنظمات الفلسطينية عَلى الرحيل من لبنان.

ثمّ عقد مؤتمر القمة العربيَّة في الطائف وأرسى دعائم اتفاق هش، أطلق فيه يد سوريا في لبنان بإجازة أمريكية إسرائيلية، والآن وبعد احتلال العراق، تغير البرنامج الأمريكيّ الصّهيونيّ حيث تعيد أمريكا ترتيب خريطة المنطقة، لتطالب سوريا برفع يدها عن لبنان، حيث يبدوا أن الطوائف وعلى

رأسها الموازنة سيلعبون دورا جديدا في برنامج بوش لإعادة تقسيم ما قسمته سيكس بيكو ورسمها من جديد وإعادة تقسيمها وتركيبها تحت المجهر.

فِلَسطِين:

لفلسطين منزلة كبرى عند المُسلِمين نظرا لوجود بيت المَقْدِس ثاني الحرمين وأولى القبلتين، وقد اتفق الشريف حسين بن علي مع بَرِيطَانيَا عَلى أن تكون فِلَسطِين ضمن الدّولة العربيَّة الكبرى الّتي وعدوه بها قبل الحَرب العَالَمِيّة الأولى، لكن بَرِيطَانيَا كانت تريد ضمها إلى إمبراطوريتها لإعطائها لليهود بموجب وعد بلفور سنة الصادر سنة (١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م) والّذي تعهدت فيه بَرِيطَانيَا بتبني قرار المؤتمر الصّهيونيّ الأوّل سنة (١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م) بأن تكون فِلَسطِين وطنا قوميا لليهود.

انتهت الحَرب العَالَمِيّة الأولى بانتصار الحلفاء – ومنهم بَرِيطَانيَا – وتم وضع فِلَسطِين تحت الانتداب البريطاني سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م)، في مؤتمر سان ريمو، وتنكرت بَرِيطَانيَا لوعودها للعرب بالاستقلال بينما التزمت بوعدها للصهاينة بالوطن لليهود في فِلَسطِين، وخلال فترة الانتداب من (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) – (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م) مكنت بَرِيطَانيَا الصهاينة من امتلاك الأراضي، وفتحت أبواب فِلَسطِين لاستقبال يهود العالم، فرفعت عدد اليَهُوْد الأصليين الّذي كانَ ١٥ ألف نسمة من السّكّان اليَهُوْد الأصليين، إلى مئات الآلاف قبل سنة ١٩٤٨، وجعلت اللغة العبرية لغة رسمية، وسمحت لهم بتكوين فرق عسكريّة، بينما اتبعت خُطّة من شأنها التضييق عَلى العَرَب.

خلال تلك الفترة قامت ثورات شعبيَّة فلسطينية وأبرزها ثورات (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠) (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م) (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م) فكان الحاج أمين الحسيني مفتي القُدس أبرز القادة في تلك الفترة، وكنوع من التهدئة طرحت بَرِيطَانيَا مشروع تقسيم فِلَسطِين لثلاث مناطق: يهودية، وعربيَّة، وبريطانية، رفض الفلسطينيون هذا التقسيم واندلعت الثورات من جديد.

وكانت ثورة (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م) الّتي قادها الشّهِيد عز الدّين القسام أشدها ولكن بَرِيطَانيَا أجهضتها بتوسط من بعض زعماء العَرَب ولاسيما الأمير فيصل بن عبد العزيز ملك السّعُودِيّة!

واضطرت بَرِيطَانيَا عام (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م) للتخلي عن الفكرة، وبعد الحَرب العَالَمِيّة الثّانية تراجعت بَرِيطَانيَا إلى دولة من الدرجة الثّانية، وبرزت الولايات المتحدة الأمريكيّة لتصبح إحدى القوتين الأعظم في العالم؛ وركز اليَهُوْد جهودهم لاستمالة الولايات المتحدة، وأثبت الرَّئيس الأمريكيّ ترومان للصهيونية أن الولايات المتحدة حليف أفضل حين مارس ضغطا عَلى بَرِيطَانيَا كانت نتيجته السماح بدخول ١٠٠ ألف يهودي إلى فِلَسطِين وهي العمليّة الّتي جعلت بَرِيطَانيَا تعجل بتدويل القضية وبتحويلها إلى الأمم المتحدة عام (١٩٤٧م).

وأوصت اللجنة الخاصّة للأمم المتحدة بشأن فِلَسطِين بقسيمها إلى دولتين إحداهما عربيَّة والأخرى يهودية مع تدويل القُدس وجرى التصويت عَلى ذلك وقامت بذلك دولة إسرائيل عام (١٩٤٨م) وانسحبت بَرِيطَانيَا من فِلَسطِين بعد أن سلمت الصهاينة كلّ مقوّمات الدّولة إداريا وعسكريّاً، وبعد أن مكنتهم من السّيطرة عَلى مساحات من أرض تزيد عَلى المساحات الّتي حددها تقسيم الأمم المتحدة، وفي (٧/ ٧/ ١٣٦٧هـ) (١٥ مايو سنة ١٩٤٨م) جرى إعلان قيام دولة إسرائيل وواصلت المنظمات الصّهيونيّة غاراتها للتوسع عَلى حساب المناطق الّتي يسكنها العَرَب.

أدى إلى ذلك القيام الحَرب الأولى بين العَرَب وإسرائيل سنة (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م) الّتي انتهت بهزيمة الجُيُوش العربيَّة بفعل خيانات الرؤساء والملوك العَرَب ولاسيما في الدّول المجاورة والسّعُودِيّة، وتأكد قيام دولة إسرائيل، واستولى اليَهُوْد عَلى مزيد من الأراضي بحيث لم يبق من فِلَسطِين سوى الضفة الغربيّة الّتي وضعت تحت الحكم الأردني وقطاع غزة الّذي وضع تحت الحكم المصري، وفي سنة (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م) كانَ اعتداء إسرائيل عَلى غزة وسيناء بالتواطؤ مع إنجلترا وفرنسا الّذي انتهى بتوسيع دولة إسرائيل وضم أراضٍ جديدة إليها بعد مذابح شنيعة ضدّ عرب فِلَسطِين.

وفي عام (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م) كانَ إعلان قيام (منظّمة التحرير الفلسطينية) الّتي أسست جيشا فلسطينيا نجح في إلحاق بعض الخسائر بإسرائيل في الداخل وفي خارج حدودها مع لبنان والأردن، وفي عام (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م) اندلعت الحَرب بين العَرَب وإسرائيل للمرة الثّانية وخسر عَلى أثرها

العَرَب الجولان والضفة الغربيّة وقطاع غزة وشبه جَزِيرَة سيناء الّتي احتلتها إسرائيل، نتيجة خيانة النّظام السّوري، واختراق الإستخبارات الإسرائيلية لقيادات جيش عبد النّاصر من الزناة الماجنين!

وفي عام (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م) قامت حرب أكتوبر حيث انتصرت الجُيُوش العربيَّة عَلى إسرائيل، لكنها لم تستطيع تحرير تلك المناطق المحتلة نظرا لتدخل الولايات المتحدة ووقوفها إلى جانب إسرائيل ولخيانة الرَّئيس السادات الّذي أوقف الهجوم، وتكرار النّظام السّوري لخياناته المألوفة.

وبعد أن تحصلت منظّمة التحرير الفلسطينية، عَلى كونها المثل الشَّرعيّ والوحيد للقضية الفلسطينية، بدأت بسلسلة مفاوضات سرية وعلنية مع إسرائيل برعاية من الأنظمة العربيَّة الخَائِنة، وإشراف دولي، من أجل إنهاء الصِّرَاع العربيّ الإسرائيلي، وقد بدأ ذلك من اتفاقيات كامب ديفد بين مصر وإسرائيل والفلسطينيين برعاية أمريكية سنة ١٩٨٠، ثمّ حصلت قفزة استسلامية في مؤتمر مدريد للسلام (١٩٩١) والّذي تبعه اتفاقيات أوسلو بين المنظّمة ولإسرائيل، ثمّ تتابعت المؤتمرات والمؤامرات، بإشراف أمريكي وتعاون من الأنظمة العربيَّة، ومنظّمة المؤتمر الإِسْلَاميّ الّتي تضم الدّول (ذات الشّعوب الإِسْلَاميّة)، إلى أن تولى بوش وضع ما سمي بـ (خارطة الطّريق) لتسوية القضية الفلسطينية سنة ٢٠٠٢، ولإقامة دولة شكلية للفلسطينيين في غضون سنة ٢٠٠٥ولكن إسرائيل مازالت تتملص وتتابع مسلسل القتل والمجازر في الفلسطينيين، وأمريكا مازالت تزداد علنية في انحيازها، فيما يبدو مخططا مكشوفا لتهجير ما تبقى من الفلسطينيين، وهدم المَسجِد الأقصى وإقامة الهيكل المزعوم عَلى أنقاضه.

وقد انفجرت الإنتفاضة الفلسطينية ضدّ اليَهُوْد في سنة ٢٠٠٠ وانتقلت للعمل المُسلّح وبرزت المنظمات الجهاديّة الإِسْلَاميّة لتملأ فراغ السَّاحَة بعد انكشاف إفلاس الخط اليساري القومي العلماني وخيانته لقضية المُسلِمِين، وعجزه، وتشهد هذه الأيّام صدامات عنيفة بين قوى الجِهَاد الفلسطينية واليَهُوْد، فيما تتابع السّلطة الفلسطينية بعد هلاك عرفات تعفنها وتفسخاتها بقيادة الخونة من أمثال محمود عباس (أبو مازن) المرشح لإطلاق رصاصة الرحمة عَلى قضية فِلَسطِين هذه الأيّام.

الأردن:

كانت الأردن جُزءاً من ولاية الشّام عبر التّاريخ الإِسْلَاميّ، ولكنها بدأت تاريخها كدولة مستقلة منذُ عام (١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م) بموجب اتفاقية سيكس بيكو الّتي جعلتها في حصة الإنكليز، فرسمت حدوده عَلى الرقعة الجغرافيّة الممتدة شرق نهر الأردن ما بين السّعُودِيّة والعراق وسوريا، وقد كانت الأردن متصرفية تتبع سوريا في العصر العُثْمَانِيّ، ووفق اتفاقية سان ريمو وضع شرق الأردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني، ثمّ قررت بَرِيطَانيَا فصل شرق الأردن عن فِلَسطِين، وعينوا عليها الأمير عبدالله بن الشريف حسين عَلى أن يكون حكمه مستقلا إداريا و(مستنيرا)! برأي مندوب بريطاني يقيم في عمان.

وفي سنة (١٣٤٦هـ /١٩٢٧م) عقدت معاهدة أردنية - بَرِيطَانيَة اعترفت بَرِيطَانيَا فيها باستقلال شرق الأردن شكليا، وتكون حكم فيها ملكي مطلق، ثمّ عدلت سنة (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م) بحيث حصلت المملكة عَلى قدر من السيادة والاستقلال، وخلال الحَرب العَالَمِيّة الثّانية وقف الأردن إلى جانب الحلفاء، وشاركت القوّات الحَربية الأردنية في المجهود الحَربي ثمّ أعلنت بَرِيطَانيَا إنهاء انتدابها للأردن، في (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م) وتم إعلان قيام (المملكة الأردنية الهاشمية)، وبويع الأمير عبدالله ملكا دستوريا عَلى البلاد.

في عام (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م) انفجرت الحَرب بين العَرَب واليَهُوْد وكان الملك عبدالله هو القائد الأعلى للجُيُوش العربيَّة! ولكن الضابط الإنكليزي (غلوب باشا) كانَ القائد الفعلي!!!! وهكذا انتهت الحَرب بالنكبة واستيلاء اليَهُوْد عَلى قسم من الأراضي، وقيام إسرائيل، وفي عام (١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م) أعلن الملك عبدالله ضمّ الضفة الغربيّة من فِلَسطِين إلى الأردن وذلك بعد قيام دولة إسرائيل.

وفي عام (١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م) قتل الملك عبدالله وتبعه ابنه الملك طلال الّذي قام في سنة (١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م) بوضع دستور يساير الواقع الجَدِيد، ولكنهم أعلنوا اختلاله العقلي، وخلفه في سنة (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م) ابنه الملك حسين بن طلال.

استمر حسين في الحكم لأكثر من ٤٦ سنة! وكان داهية محنكا، وعميلا خائنا ماهرا، أجاد اللعب عَلى متناقضات المنطقة وعرف بمِالأته للإنكليز الّذين صنعوا العرش الأردني ثمّ للأمريكان الّذين ورثوا النفوذ في المنطقة، كما أن اتصالاته القديمة جدا باليَهُوْد الصهاينة كانت شبه معلنة، وقد تولى كشفها بنفسه وأعلن قدمها وأنها تعود لأيّام صداقته مع بنغوريون مؤسس إسرائيل!

تتمتع الأردن باقتصاد ضحل جدا، فهي بلد صحراوي قليل الموارد وتعتمد في استمراريتها عَلى المساعدات الإقليمية والدّولية، ويتكون ثلثي السّكّان من الفلسطينيين المهجرين إبَّان الحُرُوب المتتالية في فِلَسطِين، ولذلك فالتوازن السّياسيّ الداخلي فيها حرج، وقد فقد توازنه سنة ١٩٧٠ حيث وقع القِتَال بين الفلسطينيين والنّظام الأردني وراح ضحيته أكثر من عشرين ألف فلسطيني! وأخرجت المنظمات الفلسطينية من الأردن ليستقر معظمها في لبنان، حيث أخرجت كما رأينا بعد الحَرب الأهلية المجازر سنة ١٩٨٢.

وقع الحسين معاهدة صلح مع إسرائيل أقام علاقات دبلوماسية معها ورفرف العلم الإسرائيلي في سماء عمان جهارا نهارا فوق رؤوس شعبها ذي الأغلبية الفلسطينية!

هلك الحسين إثر إصابته بالسرطان سنة ١٩٩٨-على ما أذكر - وتولت أمريكا تغيير ولاية العهد، فأبعدت أخاه وولي عهده لعشرات السنين، وولت ابنه (الملك عبدالله الحالي) الّذي قضى معظم حياته في بَرِيطَانيَا، ليتابع سياسة أبيه، فتوطدت علاقاته وزياراته لإسرائيل، وعندما غزت أمريكا العراق واحتلته، قدمت حكومة الأردن لأمريكا خدمات لوجيستية هامة، وتحركت القوّات الأمريكيّة من الأراضي والأجواء الأردنية، بعد مناورات مشتركة مع الجيش الأردني، وترتكز البَرَامج الأمريكيّة الإسرائيلية اليَوْم في انطلاقتها الشّاملة في المنطقة اليَوْم إقتصاديا وثقافياً وسياسيّاً، عَلى ما يقدمه النّظام الأردني من خدمات خيانية جليلة للأعداء.

وفيما كنت أضع اللمسات الأخيرة عَلى الكتاب، أوردت الأنباء خبرا طريفا يذكرنا بأيّام المماليك ودول الطوائف! حيث أعلن الملك عبدالله عزل أخيه حمزة عن ولاية العهد، وتولية ابنه البالغ من

العمر ٩ سَنَوات، وتهافتت الشخصيات الأردنية لإعلان إشادتها بهذا الإنجاز الشَّرعيّ! والعظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل عَلى زمان المهازل الّذي نعيشه!!

بلاد الحرمين المسماة بـ (السّعُودِيّة!!):

خلال المَرحَلَة العُثْمَانِيّة كانت البلاد المعروفة باسم (السّعُودِيّة) اليَوْم مكونة من أجزاء شبه مستقلة، أهمّها نجد، ولم تخضع عمليا للحكم العُثْمَانِيّ، والحجاز الّتي حكمها الأشراف وتبعوا فيها العُثْمَانِيّين وكانوا تحت حمايتهم ورعايتهم، والشمال المتاخم للشام والعراق، وكان يخضع لحكم آل الرَّشِيد بتوكيل من العُثْمَانِيّين أيضا.

وقد مر قيام الدّولة السّعُودِيّة الحالية منذُ القرن الثَّامن عشر الميلادي بثلاثة أدوار:

الدَّور الأوّل: الدّولة السّعُودِيّة الأولى:

ويبدأ من سنة (١١٥٧ هـ - ١٧٤٤م) وهي السنة الّتي هاجر فيها الداعية الشَّيْخ (محمّد بن عبد الوهاب) إلى بلدة الدرعية وعقد الاتفاق بينه وبين أميرها الإِمَام (محمّد بن سعود عَلى النّصرة والتّعاون عَلى نشر الدّعوة، ويعتبر الأمير الإِمَام سعود بن محمّد بن مقرن (١٧٢٥م-١٧٦٥م) مؤسس الدّولة السّعُودِيّة الأولى، ثمّ انتشر صدى الدّعوة الوهابية في أنحاء الجَزِيرَة،

توفي الأمير محمّد بن سعود سنة (١١٧٨هـ/ ١٧٦٥م) فبويع عَلى الإمامة ابنه الأمير عبد العزيز ابن محمّد، فوسع دولتهم ووصل في الجنوب إلى وادي الدواسر وفي الشمال إلى السماوة في شرق العراق، وقد اغتيل الإِمَام عبد العزيز بن محمّد سنة (١٢٢٨هـ / ١٨١٣م) وكان قد عين ابنه سعودا خلفا له فبايع النّاس سعود عَلى الإمامة، فتمكن سنة (١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م) من فتح مكّة والقضاء عَلى نفوذ الأشراف في الحجاز.

ولم ترض الدّولة العُثْمَانِيّة عن ضياع سلطانها عَلى الحجاز، ثمّ إن النَّشَاط المتزايد للحركة السّلفيّة في نواحي العراق زاد من مخاوف العُثْمَانِيّين، وبعد أن استنجد الشريف غالب بالعُثْمَانِيّين كلف السُّلطَان محمود الثّاني وإليه عَلى مصر (محمّد عَلى باشا) باستعادة الحجاز فاستولى عَلى مكّة والطائف.

الحملة المصريَّة الثَّانية:

ثمّ خرج محمّد عَلى بنفسه إلى الحجاز سنة (١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م) واستطاع تمكين سلطانه في مكّة والمدينة والطائف ودخل تهامة وعسير، وفي تلك الأثناء توفي الإِمَام سعود بن عبد العزيز وخلفه ابنه عبدالله سنة (١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م) ثمّ أعد محمّد علي حملة قوية جديدة جعل عليها ابنه إبراهيم باشا فتقدم إبراهيم باشا نحو واستولى عَلى الدرعية عاصمة السّعُودِيّين بعد حصار طويل وقتال مرير، ووقع الصُّلح بينهما وذهب الإِمَام عبدالله إلى مصر مع من بقي من أنصاره لتوقيع الصُّلح مع محمّد علي واستطاعت قوَّات محمّد عَلى أن تمد نفوذها إلى منطقة القطيف.

وينتهي الدَّور الأوّل أو الدّولة السّعُودِيّة الأولى باستسلام الإِمَام عبدالله سنة (١٨١٨م).

الدَّور الثّاني أو الدّولة السّعُودِيّة الثّانية:

يبدأ عندما استطاع الأمير مشاري بن سعود الكبير الهرب من مصر، ثمّ بويع إماما سنة (١٢٣٥هـ/ ١٢٣٦هـ) (١٨١٩م/ ١٨٢٠م)، وأقام تركي بن عبدالله بن محمّد بن سعود والّذي كانَ قد لاذ بالفرار عند تسليم الدرعية – أميرا عَلى الرِّيَاض ثمّ خلف الأمير تركي ابنه الأمير فيصل بن تركي سنة (١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) واستمر في كفاحه مع منافسي بيته من ناحية، ومع المصريين من ناحية أُخرى.

وكان الإِمَام فيصل بن تركي قد أعطى إمارة حائل لأحد رجاله الّذين ساعدوه في القضاء عَلى قاتل والده تركي، وهو عبدالله بن الرَّشِيد الّذي سيكون مؤسسا لإمارة بيت الرَّشِيد، ويقسم عهد فيصل بن تركي إلى دورين: الأوّل يبدأ بتوليه الإمارة بعد مقتل والده (١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) وهو دور الفتن والاضطرابات، وينتهي بتسليم فيصل لخورشيد باشا والي مصر عَلى نجد والحجاز بعد تسع سنين من المُقاوَمة – حيث أخذه إلى مصر وولى مكانه عمه خالد ابن سعود جاء يحكم نجدا حكما عصريا، فنفر منه أهل نجد، وعدوه أجنبيا، ثمّ أجمعوا عَلى خلعه فخلعوه بعد أن قاوموا سنتين، ثمّ تولى الإمارة بعده عبدالله بن ثنيان بن إبراهيم بن ثنيان بن سعود سنة (١٢٥٧هـ/ ١٨٤٢م) ولكن

حكمه لم يدم فقد كانَ محمّد علي قد أطلق سراح الإِمَام فيصل بن تركي فبايعه أهل نجد سنة (١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م) واستمر في الدَّور الثّاني أربعا وعشرون سنة فبسط سيادته عَلى الشطر الأكبر في شبه الجَزِيرَة فدانت له الأحساء والقطيف ووادي الدواسر وعسير والجبيل والقصيم، وبوفاته سنة (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م) ينتهي الدَّور السّعُودِيّ الثّاني أو الدّولة السّعُودِيّة الثّانية حيث تنازع أبناء فيصل بن تركي الملك، وكانت الدّولة العُثمَانِيّة قد أنهكت أهل نجد بحملاتها المتعددة، واستمر الخلاف بين سعود وعبدالله ومحمّد أبناء فيصل، ولكن في سنة (١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م) توفي الإِمَام بن فيصل وتولى الإمامة بعده أخوه عبد الرَّحمٰن، واستطاع أن يعيد أخاه الكبير عبدالله ويصالحه، وبايع أخاه عبدالله ولكن أبناء سعود انشقوا عن العائلة، وكان آل رشيد إلى ذالك الحين في طاعة آل سعود.

ولكن في سنة (١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م) حدثت وقعة الحمادة والَّتي أدت إلى استيلاء ابن رشيد عَلى نجد وأخذه للإمام عبدالله وأخيه عبد الرَّحمٰن سجينين إلى حائل مع عشرة آخرين من آل سعود، وأقام سالم بن السبهان أميرا عَلى الرِّيَاض والّذي قام بقتل أبناء سعود محمّد وسعدا وعبدالله وأجلى أهلهم إلى حائل.

وفي سنة (١٣٠٨هـ/ ١٨٨٩م) مرض الإِمَام عبدالله ؛ فأذن له وأخيه عبد الرَّحمٰن بأن يعودا إلى الرِّيَاض ؛ ولكن الإِمَام عبدالله مات في نفس السنة، وبويع أخوه عبد الرَّحمٰن بالإمامة، ثمّ استولى ابن الرَّشِيد عَلى نجد، فأخرج عبد الرَّحمٰن حريمه وأولاده فارتحلوا منها إلى الأحساء ثمّ إلى قطر وأخيرا إلى الكويت حيث بقوا فيها إلى أن فتح ابنه عبد العزيز الرِّيَاض وأقام الدّولة السّعُودِيّة الثّالثة.

الدَّور الثّالث- الدّولة السّعُودِيّة الثّالثة:

كانت بَرِيطَانيَا قد بسطت سلطانها في الكويت كما سيأتي، وكانت أطماعها تمتد للسيطرة عَلى جَزِيرَة العَرَب وبلاد الحرمين، ولكنها بمعرفتها الواقعية لمكانة بلاد الحرمين في نفوس المُسلِمِين، ونفرتهم من وجود قوّات أجنبية فيها، عمدت إلى احتلالها بصورة غير مباشرة، وذلك بتولية أسرة مالكة تابعة لها فيها، وهذا ما فعلته بعد دراسة في تاريخ المنطقة والقوى القبلية فيها.

وقد نصح حاكم الكويت التَّابع للإنكليز (مبارك الصباح) البريطانيين باعتماد عبد الرَّحْمٰن بن فيصل آل سعود - الَّذي كانَ لاجئا عنده - لهذه المهمة، وبعد اجتماع المندوب البريطاني بعبد الرَّحْمٰن آل سعود، أقنعه عبد الرَّحْمٰن بأن كبر سنه لا يناسب المهمة، وقدم له ولده (عبد العزيز) ليقوم بالبرنامج البريطاني، وأعجب المندوب بعبد العزيز الَّذي كانَ في العِشرين من عمره، وتوسم فيه القدرة والنجابة، ومن تلك النقطة يبدأ تاريخ الدّولة السّعُودِيّة الثّالثة والَّتي مازالت مستمرة إلى يومنا هٰذا، أخزاهم الله وأهلكهم.

زودت بَرِيطَانيَا عبد العزيز بالذهب اللازم وبالمستشارين وبخبير عسكريّ يساعده في إعداد قوَّاته، وقام بحلته الأولى سنة ١٩٠١م تحت دعوى استعادة ملك آبائه، ولكنه مُنيَ بفشل ذريع، وعاد للكويت.

وبعد تدارس الأمر قرر عبد العزيز أن يعاود الكرة ولكن تحت دعوى إحياء دعوة الشَّيْخ محمّد بن عبد الوهاب وأن يتستر تحت هذه الدّعوة الدّينيّة المحبوبة من أهل نجد، وفعلا لاقت دعواه التأييد من النّاس وتمكن عبد العزيز سنة (١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م) من العودة إلى نجد والاستيلاء عَلى الرِّيَاض وإعلان نفسه أميرا، وبدأ بإزالة كلّ أثر لسلطان بني رشيد في حائل،

ثمّ بدأ عبد العزيز بجمع أنصار الدّعوة الوهابية وكون منهم ما عرف باسم **(إخوان من طاع الله)**، وكانت أشبه بميليشيا مسلحة من الُمجَاهدين العقائديين الّذين عرفوا بالبأس وشدة الأيمان. وتوسعت قوَّات عبد العزيز فتحرك بهمة ونشاط وأثبت كفاءته ودهاءه،

ثمّ فتح القصيم سنة (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م) بعد انتصارين حاسمين في(البكرية والشنانة) وتم الانتصار النّهائيّ عَلى ابن رشيد في موقعة (روضة مهنا) بالقرب من مدينة بريدة في سنة (١٣٣٤هـ/ ١٩١٣م) وبذلك انتهى حكم الأتراك للأحساء والّذي دام ٤٢سنة.

وبعد الحَرب العَالَمِيّة الأولى، لقب عبد العزيز بسلطان نجد وملحقاتها.

وكان لبريطانيا في تلك الأوقات عميل آخر يعمل في منطقة الحجاز مع الأشراف هو العميل الشهير (لورنس العَرَب)، وكان قد خدع الشريف حسين - كما مر معنا - بأنهم سيساعدوه عَلى قيام

خلافة عربيَّة في الجَزِيرَة العربيَّة والشّام والعراق إن هو حارب الخِلافَة العُثْمَانِيّة إلى جانبهم، وهو ما فعله تحت اسم الثَّورة العربيَّة الكبرى، ثمّ خدعته بَرِيطَانيَا وقسمت مملكة أحلامه بينها وبين فرنسا، وأصبح عَلى البريطانيين أن يختاروا لجَزِيرَة العَرَب أحد العميلين (عبد العزيز) و(الشريف حسين)، وبعد مداولات ومشاورات، وقع خيار وزارة المُستَعمرات البريطانيَّة عَلى أتعس التعيسين، فاختاروا عبد العزيز، ونفوا المخدوع الآخر ليقضي بقية حياته ويموت منفيا في قبرص!

وبعد ذلك أرسل حملتين إلى الحجاز واستولى عليها وصار لقبه (ملك الحجاز وسلطان النجد وملحقاتها، وكان عزم الإنكليز معقودا عَلى تمليك السُّلطَان عبد العزيز جميع أجزاء الجَزِيرَة العربيَّة فاستطاع أن يدخل عسيرا ونجران في حدود مملكته، وفي عام (١٣٥٠هـ/ ١٩٣٢م) أصدر الملك عبد العزيز مرسوما وحد به أجزاء المملكة الحجازية والسلطنة النجدية والإمارات الأخرى وأسماها البريطانيون هذا الإسم المُنكر العجيب باسم أسرة عميلهم فولدت الدّولة الّتي سميت (**المملكة العربيَّة السّعُودِيّة**)!

كانَ إخوان من طاع الله قد صدقوا دعاوى ابن سعود الدِّينيّة، وهموا بالاستمرار بنشر دعوة التّوحيد في الجوار نحو العراق والكويت واليمن والشّام، ولكن البرنامج البريطاني كانَ غير ذلك، ولم يرد الإنكليز من دعوة التّوحيد إلا ستارا لبرنامجهم في تمليك آل عبد العزيز أل سعود المنطقة الّتي رسموا حدودها، فبدأت النفرة بين عبد العزيز و(إخوان من طاع الله) الّذين كانوا وقود قيام ملكه! كما أنكر الإخوان عَلى عبد العزيز عدو أشياء منها تسميه بالسلطان صاحب الجلالة، ومنها كثرة مستشاريه الإنكليز والتزامه مشورتهم، ومنها ما لاحظوه من بدء تسلل النكهة العصرية لنظامه، وآل الأمر للحرب بين عبد العزيز والإخوان، فساعده الإنكليز بضرب تجمعاتهم بالطائرات، وزحف بمن والاه من القبائل والأعوان فقضى عليهم في الموقعة الشهيرة باسم (**موقعة السّبِيْلَة**) فذبح دعاة التّوحيد وقتل أكثرهم، وتفرق من بقي حيا في القرى والقفار، وبعد السبيلة طار المستشارون الإنكليز فرحا ورموا (كوفياتهم العربيَّة في الهواء استعلنوا بملابسهم وهويتهم.

بعد ذلك أبرم عبد العزيز مع الإنكليز معاهدة تلتزم بموجبها حكومة جلالة الملكة اليزبيت بحصر ملك السّعُودِيّة في عبد العزيز وذريته من بعده، عَلى أن لا يبرم أمرا ولا قرارا سياسيّاً إلا بمشورتهم، ووقع المندوب البريطاني والملك عبد العزيز بذلك وثيقة نشرت من قريب فيما نشلا من وثائق وزارة الخارجيّة البريطانيَّة، وتناولتها الكتب ووسائل الإعلام! كما اشتهرت وثيقة أُخرى اعترف فيها عبد العزيز بحق اليَهُوْد في فِلَسطِين، حيث ساعدهم ولده ووزير خارجيته (فيصل) عَلى إجهاض الثَّورة الكبرى ضدّ المُهَاجِرين اليَهُوْد سنة (١٩٣٦) كما مر ذكر ذلك في الفَصل الأوّل، ثمّ ظهر النّفط وتناهبته الشركات البريطانيَّة، ثمّ الأمريكيّة.

وبعد الحَرب العَالَمِيّة الثّانية، وبروز أمريكا كقوة عظمى، وتراجع حجم ودور بَرِيطَانيَا نسبيا، ورثت أمريكا السّيطرة عَلى معظم المُستَعمرات البريطانيَّة بعد أن غابت عنها الشّمس وحتى القمر وصارت ذيلا لأمريكا!

وبدهائه أدرك عبد العزيز التّحولات الدّولية، واجتمع بالرَّئيس (اليَهُوْدي) روزفلت عَلى ظهر بارجة حربية أمريكية، وتعهدت له أمريكا ولورثته بما تعهدت به بَرِيطَانيَا، كما تعهد لهم وذريته بما كانَ قد تعهد للإنكليز من قبل من الوَلَاء والطاعة والعمالة، وهو ما حصل وما يزال يحصل مما شهدنا في هذه الأيّام النحسات الأخيرة! وفي عام (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م) توفي الملك عبد العزيز.

ثمّ خلف الملك سعود أباه سنة (١٩٥٣) وبايعته الأسرة والعُلَماء، ولكن سعود اقتنع بالأفكار القوميّة الّتي ازدهرت في بلاد العَرَب آنذاك، كما استعلن بأفكاره العصرية وسلوكياته الفاسقة المجاهرة، فاجتمعت الأسباب عَلى خلعه، وما قامت به الأسرة والعُلَماء، فخلع سنة (١٩٦٤م)، وخرج أبناؤه ليقيموا في الغرب، ولتصبح بناته وأحفاده مادة لمجلات أخبار الجنس والخلاعة والبذخ الفاجر مما نهبوه من حصتهم من أموال المُسلِمِين، حتَّى نشرت بعض المجلات صورة لبعض أولاد بناته من السفاح والزنا.

ثمّ تولى الحكم الملك (فيصل بن عبد العزيز) الّذي استمر حكمه إلى عام (١٩٧٥م)،

ويعد الملك فيصل مؤسس السّعُودِيّة الحديثة، ومؤسس العلمانيّة فيها، فقد شهدت المملكة في عصره طفرة النّفط، وتدفقت الأموال الطائلة عَلى خزينته، ولكونه قد عمل وزير خارجية لأبيه أكثر عمره، فقد كانَ محنكا متمرسا بالسياسات الدّولية، وقد شهدت البلاد في عهده ثراء وعمرانا، وتطويرا في التّعليم، وأنشأ الإذاعة والتلفزيون السّعُودِيّ عَلى الأسس العصرية وما فيها من الفسوق والعصيان والموسيقى وتكشف النِّسَاء والفتن، ولما ثار عَلى ذلك بعض الأمراء من أولاد إخوته ممن فيهم بعض النخوة والصلاح قمعهم وقتل زعيمهم، ولكي يكبح جماح العُلَماء الوهابيين ورئيسهم العالم الصّالح- كما نحسبه - (محمّد بن ابراهيم آل الشَّيْخ)، تفتقت عبقرية فيصل عن تقنين المؤسسة الدّينيّة فنشأت في عهده فروع المؤسسة الدّينيّة الرَّسميَّة، وعلى رأسها هيئة كبار العُلَماء، ولجان الفتوى والدّعوة والإرشاد، وهيئة القضاء الأعلى، وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، إلى آخر تلك الهيئات، ومن أجل الدَّور العَالَمِيّ الّذي ستلعبه السّعُودِيّة لمكانة الحرمين فيها ولقدراتها المالية، ولكي ينافس عبد النّاصر الّذي سعى لتزعم العَرَب، وأنشأ لذلك المؤسسات والإذاعات، تفتقت عبقرية السّعُودِيّين بمشورة أسيادهم عن إنشاء مؤسسات دينية عالميّة لزرع مشروع الهيمنة الروحية عَلى العالم الإِسْلَاميّ، فأنشئت: (رابطة العالم الإِسْلَاميّ) و(الندوة العَالَمِيّة للشباب الإِسْلَاميّ) و(الهلال الأحمر السّعُودِيّ) و(هيئة الإغاثة العَالَمِيّة).

وبنيت المؤسسات الدّينيّة في الداخل عَلى طريقة هيكل الـ (فاتيكان) وجعل عَلى رأسها ما يشبه الـ (بابا)، فاستحدث منصب مفتي الدِّيَار، ورئيس هيئة كبار العُلَماء، وصرفت المليارات في هذه المؤسسات داخليا وخارجيا لفرض حضورها الإعلاميّ وإثبات هيبتها في الداخل والخارج ونجحوا في ذلك لأسباب كثيرة، منها أن أكثر العاملين في تلك المؤسسات كانَ من الصادقين المخلصين الصّالحين، الّذين رأوا الآثار القريبة المنظورة لأعمال البر والخير، ولم يدركوا أهداف ون أوجدها وأهداف أسيادهم.

وفي أخر عهد ه شهد فيصل - كما يقول بعض النّاس - تحولا نحو النخوة والصلاح، وصار يأمل في استرداد القُدس، وحاولت المملكة في عهده لعب دور أساسي في السياسات العربيَّة والإقليمية

والدّولية، دخل الملك فيصل في حرب مع التّيار القومي واليساري في العالم العربيّ، ومثلت السّعُودِيّة طليعة ما سمي بـ (الرجعية العربيَّة)، أو التّيار(اليميني العربيّ) الموالي لأمريكا والغرب، في مُوَاجَهة قوى اليسار الاشتراكي والقومي والشُّيُوعِيّ العربيّ، الّذي تزعمه عبد النّاصر، والبعثيون في سوريا والعراق وأمثالهم، ودخل فيصل مع مصر عبد النّاصر في حرب بالوكالة عَلى أرض اليمن حيث دعمت السّعُودِيّة الإماميين ودعم عبد النّاصر الجمهوريّين.

وفي حرب ١٩٧٣ بين العَرَب وإسرائيل، قرر العَرَب استعمال سلاح النّفط ضدّ إسرائيل وأعوانها في الغرب، فنفذ الملك فيصل قرار حظر النّفط عن الغرب، فارتبك الاقتصاد العَالَمِيّ، وظهر أثر هذا السّلاح الاقتصاديّ الخطير، وقررت أمريكا قتل الملك فيصل، كما وضعت سياسات بعيدة المدى لإحتلال الخليج والسّيطرة عَلى منابع النّفط عسكريّاً وهو ما ينفذ منذُ ١٩٩٠م، وفعلا استطاعت أمريكا تجنيد أحد أولاد أخوة فيصل، وكان من أحد الأمراء المتسكعين في مواخير أربا وأمريكا من الزناة الخمارين، وما أكثرهم في آل سعود وأشباههم، في الأسر الحاكمة في عالمنا الإِسْلَاميّ المنكوب، فتسلل لقصر عمه واغتاله، وهكذا قُتل فيصل وانتهى عهده، والله أعلم بحاله وعلى أي حال ونية لاقى ربه.

ثمّ تولى الحكم بعد وفاة الملك فيصل أخوه خالد بن عبد العزيز، وبويع لأخيه فهد بولاية العهد من بعده، واستمرت المملكة في عهده عَلى النهج التبعي لأمريكا والغرب، وبلغت النهضة العمرانية والتحديث في عهده ذروتها في مختلف المجالات.

وخلال حكم خالد كانَ الحاكم الفعلي هو فهد ولي العهد، ثمّ توفي خالد فجأة، وقيل أنه مات مسموما، ليحل الأعور الدَّجّال مكانه ويتولى كبر الكفر والعمالة عَلى أرض الحرمين.

وبعد وفاة الملك خالد، تولى الحكم الملك فهد بن عبد العزيز الّذي كانَ مشهورا بمجونه وفسقه ولياليه الحمراء في منتجعات أوربّا وأمريكا الراقية المعدة لأمثاله من أغنياء الداعرين، كما اشتهر كواحد من أكبر المقامرين في صالات القمار في أوربّا وأمريكا، حتَّى كتبت عنه إحدى الصّحف البريطانيَّة تحت

عنوان: (الأمير الّذي خسر ستة ملايين باوند وخرج يضحك!!) وذلك عندما خسر في إحدى صالات لندن ما يعادل عشرة ملايين دولار! وصورته الصحافة مبتسما، لم تهزه تلك النازلة، لا بارك الله فيه.

تولى فهد والصّحوة الإِسْلَاميّة في المملكة تعيش عصرها الذهبي، بعد أن صارت المملكة ملجأ للإسلاميين الفارين من الحُكُومَات العسكريّة المجرمة في مختلف بلاد العالم العربيّ والإِسْلَاميّ، ولاسيما من مصر ثمّ سوريا حيث خاض الإخوان المُسلِمُون وما انشق عنهم من التَّنظِيمات الجهاديّة مواجهات مسلحة، وأدى لجوء كبار الإِسْلَاميّين إلى السّعُودِيّة إلى تمازج صحوتها السّلفيّة الوهابية بالأفكار الحَركيّة السّياسيّة والجهاديّة الإِسْلَاميّة الوافدة من مصر والشّام وغيرها، وكانت سياسة السّعُودِيّة استيعاب تلك الظَّاهِرة باعتبار الهويّة الّتي ترفعها ولظروفها الخاصّة.

ثمّ تبنت المملكة بإيعاز من أمريكا دعم الجِهَاد الأفغاني، وفتحت البَاب عَلى مصراعيه لمن أراد النَّفِير بماله وبنفسه، وأدى هذا لارتياد عشرات الآلف من السّعُودِيّين لأفغانستان وتأثرهم بالأفكار الجهاديّة المعاصرة الّتي بنيت عَلى مسائل الحاكِمِيَّة، وأدى كلّ هذا إلى تطور الصّحوة الإِسْلَاميّة في المملكة في تلك الفترة، في نفس الوقت الّذي فتح فيه فهد البَاب عَلى مصراعيه لتيار الحداثة والعلمنة، وأدى هذا إلى حالة من الفرز في المجتمع السّعُودِيّ بين هذه التّيارات، بالإضافة للتيار الدّيني الرسمي المتحالف مع الملكية الديكتاتورية المطلقة، وما يزال هذا الصِّرَاع عَلى أشده إلى اليَوْم بين هذه التّيارات الثّلاثة.

وبعد غزو العراق للكويت وتهديده السّعُودِيّة، كما برمجت أمريكا مع صدام واستدرجته لذلك، حضرت القوّات الأمريكيّة والمتحالفة معها وضربت بجرانها في السّعُودِيّة وما حولها من إمارات النّفط، وأدى هذا لحالة غليان في السّعُودِيّة بعد عودة الجهاديّين من أفغانستان إلى قواعدهم سالمين، مما أدى لطرح فكرة جِهَاد الحكومة السّعُودِيّة والخروج عليها لعمالتها للأمريكان ولتفشى التَّشريعات الوضعِيَّة في قوانينها، ونتيجة تراكم مختلف مظاهر الفساد نشأت دعوات إصلاحية سياسيّة سلمية عديدة بين إسلاميّة وعلمانية، وبدأت الأوضاع السّياسيّة في مملكة فهد تضطرب منذُ مطلع التسعينات،

ليصل الأمر إلى ذروته بخروج الشَّيْخ أُسَامَة بن لادن عَلى الحكومة ودعوته لجِهَادها بعد أن أطلق شعار **(إخراج المشركين من جَزِيرَة العَرَب)**.

وبعد أحداث سِبتَمبر ٢٠٠١ التي نفذها استشهاد يون سعوديون في معظمهم، وبعد احتلال أمريكا للعراق، وتواجدها الكثيف في المنطقة، كشرت أمريكا عن أنيابها وكشفت عن بَرَامجها الّتي من ضمنها إحداث تغييرات في الأوضاع في السّعُودِيّة، مما وضع مستقبل الأسرة السّعُودِيّة منذُ سنة ٢٠٠٣ عَلى كف العفريت الأمريكيّ، وصدق رسول الله ﷺ، «مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا بِبَاطِلٍ لِيَدْحَضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا فَقَدْ بَرِئَ مِنْ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ»(١).وقال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩﴾ [الأنعام]

وفي مطلع سنة ٢٠٠٤ تفجرت أحداث ثورة جهاديّة مسلحة تستهدف الأمريكان والتواجد الغربيّ في السّعُودِيّة، كما تستهدف الأسرة الحاكمة وأجهزتها الأمنيّة عَلى حد سواء، لتصبح السّعُودِيّة ميدانا جديدا للمُوَاجَهة المكشوفة بين المُسلِمِين وطليعتهم الجهاديّة وصحوتهم الإِسْلَاميّة وبين أمريكا وحلفائها وطليعتهم من قوى الرِّدَّة والنِّفَاق من حُكَّام العالم العربيّ والإِسْلَاميّ، حيث تأتي الأسرة الحاكمة في السّعُودِيّة ومؤسستها الدّينيّة الرَّسميَّة في طليعة هذه الجبهة من المرتدّين والمُنَافِقين.

ويحتاج التّاريخ للدولة السّعُودِيّة المعاصرة وعلماءها المنافقون، في عهد عبد العزيز وذريته إلى مجلدات كبيرة متخصصة تسجل تاريخهم الأسود وما ألحقوه من المصائب بأمة محمّد ﷺ، محليا، وعلى الصعيد العربيّ والإِسْلَاميّ والدّولي، فقد قام ملوك هذه الأسرة الّذين بلغوا خلال القرن العِشرين (١٩٠١- ٢٠٠٤) زهاء (٧٠٠٠) أمير، وكونوا قبيلة (يأجوج ومأجوج) مصغرة محليَّة في جَزِيرَة العَرَب وبلاد الحرمين، فأذلوا العِبَاد وأظهروا في الأرض الفساد، وإذا كانَ يأجوج ومأجوج سيشربون الفرات وبحيرة طبريا كما في الآثار، فقد شرب يأجوج ومأجوج آل سعود، بحيرة نفط الجَزِيرَة، وضخوها في شرايين اليَهُوْد والنّصَارى، وقاموا بكل أشكال حرب الله ورسوله والمُؤمِنِين.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط: (٢٩٤٤) وأبو نعيم في الحلية، وأورده الألباني في الصحيحة (١٠٢٠).

فعلى صعيد المملكة الّتي أسموها باسم من خلَّفهم، دسوا التَّشريعات الوضعِيَّة في ثنايا قوانينهم، وضربوا بعرض الحائط بكل ما راجعهم فيه بعض علمائهم الصّالحين من أمثال محمّد بن ابراهيم الّذي كتب فيهم وفي أمثالهم (رسالة تحكيم القوانين) وأفتى وحكم كما كثير ممن عاصره من علماء الجَزِيرَة بكفر من حكم القوانين الوضعِيَّة، أو خلطها بالشّريعة الإِسْلَاميّة، كما شهدت سياساتهم الداخليَّة والخارجيّة مُوالاة مطلقة للغرب ولاسيما لأمريكا، إلى أن ظهر هذا منهم جليا في معاونتهم والقتال معهم وتقديم الخدمات العسكريّة وغيرها لهم في الحُرُوب الأمريكيّة الأخيرة في المنطقة، وأما عَلى صعيد قتل وسجن الّذين يأمرون بالقسط من النّاس فحدث ولا حرج عن جرائمهم، وأما فسادهم وفسوقهم وهدرهم لأموال المُسلِمِين في مغامراتهم الفاسقة عَلى موائد الخمور والقمار، ومواخير المترفين، فقد صاروا مادة للإعلام، ويكفي أن نورد خبرا نشرته إحدى الصّحف الّتي تعنى بأخبار الأغنياء في العالم، حيث قالت أن مصروف الأمير سلطان اليومي، (وانتبه: اليومي!) هو ٣ مليون دولار! وأما فهد فهو الأمير الّذي خسر ١٠ مليون دولار وخرج يضحك، قبحهم الله! وما زال يدفع – بحسب ما تواتر من أخباره في وسائل الإعلام والكتب – شيكات الابتزاز للعديد من المومسات ومضيفات الطيران، والغانيات من عميلات أجهزة الاستخبارات اللواتي قضى في أحضانهن أيّام شبابه، فأخذت له الصُّور التذكارية سرا، ليدفع ثمنها ابتزازا في المواقف والسياسات الداخليَّة والخارجيّة للمملكة، وليسدد للمومسات حقوق التقاعد والشَّيْخوخة!

كما دعم ملوك السّعُودِيّة المتوالين عَلى الحكم، بمئات ملايين الدّولارات كلّ طاغوت من طواغيت بلاد العَرَب والمُسلِمين اهتز عرشه في مُوَاجَهة المُجَاهدين له، فساندوا النصيرية إبَّان الجِهَاد في سوريا، وساندوا حكومة الجَزَائِر في مُوَاجَهة المُسلِمِين، وساندوا الشُّيُوعِيّين في اليمن في حربهم مع الشماليين، وساندوا النّصَارى الموارنة ضدّ المُسلِمِين والفلسطينيين في الحَرب الأهلية في لبنان، وساندوا حتَّى (الديكتاتور ماركوس) في الفلبين ضدّ المُسلِمِين، وساندوا (بوتين) ضدّ المُجَاهدين الشِّيشَان، ودعموا حكومة الهند وهي تذبح المُسلِمِين في كشمير وآسام، ومولوا حرب أمريكا ضدّ الطّالِبَان، وقائمة جرائمهم العلنية فضلا عن السرية تطول.

وأما جريمتهم الكبرى في تبديد مليارات المليارات من أموال النّفط، فمن يتأملها يتملكه الجزع والقهر، فالسّعُودِيّون أكبر بلد منتج للنفط في التّاريخ، إذ تصدر المملكة أكثر من ١٠ مليون برميل يوميا، عدا الصادرات الأخرى وموارد الترانزيت، أي ما يربو عَلى نصف مليار دولار يوميا كلما أشرقت الشّمس وغربت، ومعظم هذه الموارد تصب في بنوك اليَهُوْد والصّليبيّين، وتدفع منها السّعُودِيّة فواتير طائلة في تنفيذ السياسات الأمريكيّة، وهذا بحث يطول، والمنشور منه في الكتب والمُؤلّفات كثير جدا لمن أراد استقصاءه، ويكفي أن نذكر أن من آخر ما تسرب للإعلام خبر دفعهم رشوة مالية كبيرة للحكومة الأسبانية في عهد (أثنار) لكي تتحالف مع بوش في غزوه لإحتلال العراق سنة ٢٠٠٤، والله أعلم بكمية المبالغ! فتأمل، فقاتلهم الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الكويت:

كانت منطقة الكويت تعرف باسم " القرين"، أما " الكويت" فهو تصغير لكلمة "كوت" وهي منطقة مجاورة لها، وهي ميناء صغير بناه (محمّد بن عريعر) زعيم قبيلة بني خالد الّتي كانت تسيطر عَلى المنطقة.

بدأ تاريخ الكويت الحديث بهِجرَة **" آل الصباح"** من نجد، حيث اتفقوا مع بني خالد عَلى إدارة شئون البلاد إدارة مشتركة، لكن آل الصباح استقلوا بحكم الكويت سنة (١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م)، وترأسهم الأمير (صباح الجابر) الّذي لقب بصباح الأوّل.

وحصل خلفه (الشَّيْخ عبدالله المبارك)عام (١٢٩٢هـ ١٨٧٦م) عَلى لقب قائم مقام في المنطقة من الأتراك العُثمَانِيّين، ثمّ تولى بعد ذلك الشَّيْخ (مبارك بن صباح الثّاني) الحكم خلال (١٣١٣هـ - ١٣٣٤/ ١٨٩٦م-١٩١٧م).

وقد رأى الشَّيْخ مبارك كي يحفظ الملك في أسرته بدعم من بَرِيطَانيَا، أن يوقع معاهدة حماية مع بَرِيطَانيَا عام (١٣١٦هـ/ ١٨٩٩م)، وأصبحت بَرِيطَانيَا بعد هذه المعاهدة مسؤولة عن علاقات الكويت الخارجيّة!

وفي سنة (١٩١٥م) توفي الشَّيْخ (مبارك الصباح) الّذي يلقبه المبشرون والمنصرون الأوربيون في كتبهم بلقب (مبارك العظيم)، ويثنون عَلى خدماته في تسهيل دخول النَّشَاط التنصيري إلى جَزِيرَة العَرَب ومنطقة الخليج العربيّ! كما يثني عليه الإنكليز كواحد من أخلص أعوانهم ومستشاريهم، وقد أسلفنا أنه كانَ وراء اقتراح آل سعود وجبارهم عبد العزيز لمهمة السّيطرة عَلى بلاد الحرمين ونجد وتوابعها ضمن البرنامج الإنكليزي للسيطرة عَلى جَزِيرَة الإِسْلَام والمُسلِمين، وتكفيه هذه مفخرة موبقة بالإضافة لخدماته الجليلة بوضع الكويت تحت الحماية البريطانيَّة ليحافظ عَلى حكمه، وتسليمهم قرارات البلاد الخارجيّة وسياستها الداخليَّة، ودعمه للمنصرين.

وفي سنة (١٩٢١م) تولى (الشَّيْخ أحمد الجابر) الحكم وشهدت فترة حكمه التنقيب عن البترول وتصدير أول شحنة من النّفط الكويتي سنة (١٩٤٦م)، وكذلك نظمت في زمنه الإدارات الحُكُوميّة المختلفة، وتم استقدام البعثات التّعليميّة، ودخل النفوذ الأمريكيّ إلى جانب النفوذ البريطاني.

ثمّ خلف (الشَّيْخ أحمد الجابر) ابن عمه (عبدالله السالم الصباح) عام (١٩٥٠م) وقد أحدث في الكويت انتفاضة اجتماعيَّة وثقافية وسياسيّة، وفي عهده أعلن استقلال الكويت في (يونيو ١٩٦١م) لتنضم للجامعة العربيَّة والأمم المتحدة سنة (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م).

ثمّ خلفه الأمير الحالي (جابر الصباح)، وفي عهده صارت الكويت أفسد دول الخليج العربيّ في مجالات الدّين والأخلاق والسياسات العلمانيّة، حتَّى صار الدّين والشّريعة مادة للهزء والسخرية في صحفها الرَّسميَّة، حتَّى أعلن فيها عن تولى كويت متنصر مرتد رتبة في الكنيسة، وحتى حكمت محكمة عَلى كاتبة كويتية تنقصت من الذات الإلهية، بغرامة ١٠٠ دينار كويتي والسّجن شهرا مع وقف التنفيذ!! – تَعَالَى الله عن جحود الجاحدين.

وأما تحول الكويت لقاعدة أمريكية حقيقية، وممرا ومرتكزا لعبور القوَّات الأمريكيّة لإحتلال المنطقة، فأشهر من أن نضيع الصفحات في شرحه هنا، فقد منحت الكويت القوَّات الأمريكيّة والبريطانيَّة ٦٠٪ من أراضيها كقاعدة عسكريّة للمناورات للهجوم لاحتلال العراق سنة ٢٠٠٣، والتفاصيل مشهورة، وأما دعم حكومتها كما حكومة السّعُودِيّة وكافة دول الخليج بالأموال الطائلة

لحرب الإِسْلَام والمُسلِمين، فمشهور، ويكفي أن نورد مثالا عَلى ذلك مما يحضرني من الذاكرة ما اشتهر من دعم الكويت لحكومة موسكو الشُّيُوعِيّة بـ (٤ مليار دولار) فيما كانَ المُجَاهدون الأفغان يدقون أبواب كابل قبيل سقوطها سنة ١٩٩٢ وكان الإفلاس يهدد الجيش الأحمر بالإنحلال.

قطر:

تقع شبه جَزِيرَة قطر داخل الخليج العربيّ، وعاصمتها "الدوحة" وهي منطقة غنية بالبترول والغاز، وكانت قطر جُزءاً من ساحل الخليج العربيّ الّذي كانَ يسمى البحرين، وفي عام (١٣٦٠هـ/ ١٨٤٢م) عين الشَّيْخ محمّد خليفة (أحد رؤساء القبائل) واليا عَلى قطر فحاول أن يستقل عن آل خليفة، واشتبك معهم في قتال هزم فيه، وعاد آل خليفة لحكم قطر.

تنازع السّعُودِيّون مع آل خليفة عَلى حكم قطر، واشتبكوا معهم في قتال عنيف انتهى لصالح السّعُودِيّين الّذي أصبحوا يحكمون قطر، وكان أول المبايعين محمّد بن ثاني الّذي تولى زعامة قبيلته ؛ ومنذ ذلك الحين ظهر آل ثاني في قطر، وحاول الشَّيْخ محمّد بعد ذلك الانفصال عن حكم آل خليفة والانفراد بالحكم فجرت معارك بين الطّرفين، انتهت عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م).

على أن محاولة الشَّيْخ محمّد أثمرت في عهد ابنه قاسم الّذي اعتبر مؤسس إمارة آل ثاني المستقلة تحت سيادة الخِلافَة العُثمَانِيّة في قطر ؛ إذ إنه وحد قطر واستقل عن البحرين،

ثمّ تولى بعده ابنه الشَّيْخ عبدالله من (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م) إلى (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م).

و في عهد الشَّيْخ عبدالله فقدت قطر سيادتها واستقلالها وأصبحت تحت الحماية البريطانيَّة كجاراتها، وعقدت معاهدة حماية سنة (١٣٣٤هـ ١٩١٦م) وفي فترة حكمه تمَّ اكتشاف البترول في قطر، ثمّ توفي الشَّيْخ عبدالله، وخلفه ابنه الشَّيْخ علي من (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م) إلى (١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م) وانسحبت بعد ذلك بَرِيطَانيَا من الخليج لتعلن قطر استقلالها عام (١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م)، حيث دخلت كليا في النفوذ الأمريكيّ كما حصل لجيرانها.

وفي سنة (١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م) قام الشَّيْخ خليفة بن حمد آل ثاني بالاستيلاء عَلى السّلطة في البلاد، وأعطتها بَرِيطَانيَا الاستقلال عن الحماية البريطانيَّة، وتحسنت أحولها الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة مستفيدة من ثروة النّفط الّذي بدأ إنتاجه وتصديره منذُ عام (١٩٤٩م).

ثمّ ظهر الغاز في قطر وصارت من أولى الدّول المصدرة له في العالم، ثمّ عزل أمير قطر الحالي أباه أواخر التِّسعينيَّات وتولى السّلطة، وبدأت قطر في عهده تحاول لعب دور إقليمي في المنطقة، وتناوئ السياسات السّعُودِيّة، وتشهد تحولات سياسيّة تطويرية جريئة مقارنة بنظم الحكم الشمولية في الخليج العربيّ، وكان من أنجح سياساتها تلك، إنشاء قناة الجَزِيرَة الفضائية الجريئة المشهورة ذائعة الصيت.

وفي حرب احتلال العراق سنة ٢٠٠٣، نقلت أمريكا كما هو معروف قيادة جُيُوشها قوَّاتها الّتي تتحرك فيما تسميه منطقة العمليَّات الوسطى إلى الدوحة في قطر، وهي القيادة المسؤولة عن زهاء مليون جندي في المنطقة الممتدة من وسط آسيا إلى المغرب الأقصى، وقد أدارت أمريكا من قاعدة (السيلية) قرب الدوحة عمليَّات القصف الجوي والصاروخي والحَرب الإلكترونية، ثمّ الإحتلال البري للعراق والّذي زحف من خلال أراضي الكويت، كما كانَ فيها المركز الإعلاميّ للقوَّات الأمريكيّة أثناء الحَرب، و﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

البحرين:

هيَ مجموعة جزر تقع في الخليج العربيّ بين شبه جَزِيرَة قطر وساحل الأحساء، وتحتوي عَلى إحدى عشرة جَزِيرَة أكبرها جَزِيرَة البحرين، وكانت من قبل تعرف باسم جَزِيرَة "أوال" حكمها آل خليفة من قبيلة العتوب، وقد وطدوا علاقتهم بآل سعود ضدّ العُثمَانِيّين.

ثمّ توطد مركز بَرِيطَانيَا في البحرين بعد الحَرب العَالَمِيّة الثّانية، ففي سنة (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م) أصبحت البحرين قاعدة للاستعمار البريطاني في الخليج.

ثمّ أعلنت بَرِيطَانيَا سنة (١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م) استقلال البحرين وصدر قرار بتسميتها " دولة البحرين " في عهد عيسى بن سلمان أمير البحرين، ثمّ توفي أمير البحرين وخلفه ولده حمد بن عيسى،

وفي سنة ٢٠٠٢ قرر هذا (الحمد) تحويل البحرين إلى مملكة! وسن دستورا وأعطى بعض الحريات، ولقب نفسه بصاحب العظمة ملك مملكة البحرين! (العظَمة بفتح الظاء دفعا للحرج! مع استحقاقه للسكون عَلى ظائه بجدارة) علما أن مملكة عظمته لا تزيد مساحتها عن ٦٠٠ كم مربع، أي ما يزيد قليلا عن مساحة ملعب كولف متوسط، ولله في خلقه شؤون.

وقد حول الأمريكان البحرين إلى ماخور لاستجمام واستراحة عساكرهم المحاربين في المنطقة حيث، نقلوا إلى هناك فرق من العاهرات من دول أوربّا الشرقية ومختلف الدّول الحليفة ومنها بعض العربيَّة! إبَّان حرب تحرير الكويت، وحرب تحرير العراق، وما ننتظره من تحريرات تالية، والله أعلم، ببركات أصحاب العَظْمة والجلْلالة والسيادة والمعالي، وعلمائهم المنفوخين من أصحاب السماحة، قبحهم الله.

الإمارات العربيَّة المتحدة:

تقع هذه الدّولة عَلى طرف الجَزِيرَة العربيَّة الشرقي محاذية للخليج العربيّ وخليج عمان لتشمل سبع إمارات هيَ: - أبو ظبي، ودبي، والشارقة، وأم القوين، وعجمان، ورأس الخيمة، والفجيرة، وقد سادت قبيلة القواسم هذه المناطق، وقامت بنشاط بحري ضخم ؛ إذا سيطرت عَلى الملاحة في الخليج في عهد زعيمها رحمة بن مطر القاسمي عام (١١٥٩هـ/ ١٧٤٧م)، وقد نجحت في هزيمة البرتغاليين، وامتد نفوذها، في المنطقة.

ثمّ تمكنت بَرِيطَانيَا بعد حملات من القضاء عَلى القواسم، وعقدت معاهدة مع شيوخ الإمارات، وبموجب ذلك صار المقيم السّياسيّ البريطاني يدير شئون (الإمارات المتصالحة) كما أسموها، من مركزه في إيران منذُ عام (١٨٢٣م) وحتَّى عام (١٩٣٤م)، ثمّ انتقل المقيم السّياسيّ للبحرين عام (١٩٤٨م) وعين أول ضابط سياسي بريطاني مقيما سياسيّاً في الشارقة.

ثمّ أنشئت هناك عام (١٩٥٣م) دار الاعتماد البريطاني، وانتقلت لدبي عام (١٩٥٤م)، وفي عام (١٩٦٨م) أعلنت الحكومة البريطانيَّة انسحابها من منطقة الخليج في مواعد لا يتجاوز (١٩٧١م)،

وبدأت مساعي توحيد الإمارات في دولة واحدة، وفي نفس العام (١٩٦٨م) اتفق الشَّيْخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبو ظبي مع الشَّيْخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبي، وبحث معه اتحاد الإمارتين، تمَّ دعوة الإمارات السبع الأخرى والبحرين وقطر للاجتماع في دبي، وانبثقت من هذا الاجتماع الاتفاقية المعروفة باتفاقية دبي، وتم اختيار الشَّيْخ زايد رئيسا للمجلس الأعلى للاتحاد.

لكن الخلاف دب بين الأمراء حول وضع الدستور، وفي سنة (١٩٧١م) تمَّ التوصل إلى صيغة اتحاد سباعي يضم إمارات الساحل العماني، وأعلن مولد " **دولة الإمارات العربيَّة المتحدة** " سنة (١٩٧١م) الّتي ضمت ست إمارات هيَ: أبو ظبي، ودبي، والشارقة، وعجمان، وأم القوين، والفجيرة، ثمّ انضمت بعد ذلك إمارة رأس الخيمة (١٩٧٢م) إلى الدّولة الجَدِيدة الّتي كونتها بَرِيطَانيَا واعترفت بها، كما وافقت الجَمعيَّة العمومية للأمم المتحدة عَلى قبولها عضوا فيها، فيما نأت البحرين وقطر بنفسها عن الاتحاد الوليد.

يبلغ عدد سكان الإمارات رغم كبر مساحتها النسبية زهاء ٢٥٠ ألف مواطن فقط، ويقيم فيها منذُ عشرات السنين زهاء مليون هندي معظمهم من الهندوس، بالإضافة لمليون آخر من الأجانب فيهم جالية فلبينية نصرانية كبيرة، وعدد كبير من الأوربيين ولاسيما البريطانيين، وتعتبر الإمارات مركزا لنشاط المنظمات التنصيرية في المنطقة بأسرها، كما أصبحت بعد دخول النفوذ الأمريكيّ قاعدة جوية وبحرية رئيسيَّة للقوَّات الأمريكيّة والبريطانيَّة المحالفة لها، وصارت دبي إحدى أكبر العواصم التجاريَّة العَالَمِيّة، ووكرا للفساد والمجون والدعارة عَلى المستوى العَالَمِيّ، كما صارت مقرا رئيسيا لإدارة مُكَافحَة الإرهَاب، وفيها مكاتب أمنيّة أمريكية رئيسيَّة يديرها الأمريكان والبريطانيون بالتّعاون مع بعض الإستخبارات العربيَّة ولاسيما المصريَّة ذات الخبرات الواسعة في حرب الإِسْلَاميّين، كما أن القيادة العليا لجيش الإمارات الصغير هم من البريطانيين، والرتب المتوسطة من المرتزقة الباكستانيين، والدُّنيَا من متطوعين شتّى! ويرأسهم بعض الجنرالات الفخريين من أبناء الأسرة الأميرية!

عُمان:

تقع عمان في الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه جَزِيرَة العَرَب، وتعد معقلا للخوارج الإباضية الّذي أسسوا بها دولة منذُ أواخر العصر الأموي.

وقد تعرضت عمان للخطر البرتغالي، فتصدى العُثمَانِيّون لمواجهتهم، كما تعرضت لتنافس تركي فارسي نظرا لأهمية موقعها الإستراتيجي، لكن ضعف العُثمَانِيّين والبرتغاليين فتح البَاب للنفوذ البريطاني والفرنسي، وفي عهد السُّلطَان سعيد بن تيمور، تمكن من إقرار وحدة عمان بضم واحدة "البوريمي" بمساعدة بَرِيطَانيَا سنة (١٩٥٤م) ثمّ تولى الحكم السُّلطَان قابوس بن سعيد عام (١٩٧٠م) بعد أن قتل أباه واستولى عَلى السّلطة، وقد شهدت البلاد في عهده نهضة سياسيّة واقتصاديَّة، وفي عهده دخلت سلطنة عمان الجامعة العربيَّة وهيئة الأمم المتحدة بعد استقلالها، وتعتبر عمان أحد أهمّ القواعد العسكريّة البريطانيَّة والأمريكيّة في المنطقة.

اليمن:

لم يخضع اليمن خضوعا كليا لحكم الدّولة العُثمَانِيّة، وفشلت كلّ الحملات الّتي نفذت من أجل تحويله إلى إدارة عُثمَانِيّة، نظرا لحصانة الطبيعة والتفاف أهله عَلى الأئمة الزيدية في صنعاء.

وقد قامت الأسر الزيدية بالحكم في اليمن من سنة (١٥٠٦م) في العاصمة صنعاء، وخلال تلك الفترة حدث صِرَاع طويل بين الأتراك والأسرة الزيدية، وفي القرن التّاسع عشر الميلادي اقتصر نفوذ العُثمَانِيّين عَلى تهامة وجنوبي اليمن وصنعاء وما حولها.

واستمر الحال إلى أن حصلت هدنة بين العُثمَانِيّين واليمنيين، وعرفت باتفاقية (الدعان) وأثناء ذلك كانَ الإنجليز يحاولون تثبيت قدمهم في عدن وتوسيع رقعة نفوذهم؛ وبعد الحَرب العَالَمِيّة الأولى وخسارة تركيا تعهد العُثمَانِيّون بالجلاء عن بلاد العَرَب – ومنها اليمن – فاستولى الإِمَام يحيى حميد الدّين عَلى الملك واستقل بالبلاد سنة (١٩٢٣م) واعترف العُثمَانِيّون باستقلال اليمن، وظل الصِّرَاع في اليمن ضدّ بَرِيطَانيَا إلى أن أبرمت معاهدة سنة (١٩٣٤م) الّتي اعترفت فيها بَرِيطَانيَا باستقلال اليمن.

ولكنها أبقت مشكلة الحدود في الجنوب، وهكذا بقى النزاع قائما، وبقيت بَرِيطَانيَا موجودة في الجنوب العربيّ في عدن، وكررت بَرِيطَانيَا هجومها عَلى اليمن سنة (١٩٥٦م)، وفي (١٩٥٧م) ثار عبدالله بن الزير عَلى الإِمَام يحيي وتمكن من اغتياله واستولى عَلى الحكم في صنعاء، ولكن الإِمَام أحمد بن يحي نجح في هزيمته واسترداد الحكم.

وفي مارس سنة (١٩٥٥م) قام انقلاب ضدّ الإِمَام أحمد، لكنه فشل.

وفي سِبتَمبر سنة (١٩٦٢م) تفجرت الثَّورة الّتي قادها عبدالله السلال باليمن بمساعدة من مصر، ونجحت في إعلان نظام الجمهوريّة في اليمن الشمالي.

وكانت بَرِيطَانيَا قد انسحبت من عدن وسلمت الحكم فيها للشيوعيين، فاستقلوا في اليمن الجنوبي، وحاربوا الإِسْلَام والمُسلِمين، و استعلنوا بالإلحاد وهدموا المساجد وقتلوا العُلَماء، ثمّ سلطهم الله عَلى بعضهم فأفنوا بعضهم في حرب ضروس خلال مدّة قصيرة.

وكان قد تولى الحكم في اليمن الشمالي (الجاويش) علي عبدالله صالح، وما زال في السّلطة إلى الآن، وقد تمكن بدهائه من الإمساك بزمام الأمور، ثمّ استغل ضعف الجنوبيين، وسن حرب الوحدة بالتّعاون مع الإِسْلَاميّين وقبائل الشمال، وتوحدت اليمن بعامته سنة ١٩٩٣.

ثمّ بدأ عبدالله صالح سياسة التقرب من أمريكا، وتحجيم الإِسْلَاميّين وقمع كلّ أشكال مناوئيه، وبعد أحداث سِبتَمبر تحالف صالح علانية مع أمريكا في حملاتها لمُكَافحَة الإِرهَاب، وشن حملات تصفية عَلى الجهاديّين، وخاض الجيش اليمني عددا من المعارك الطاحنة لإخراجهم من حصونهم القبلية – نيابة عن أمريكا – حيث الحقّ بالجهاديّين خسائر كبيرة، وما تزال الأحداث متكررة جارية في اليمن إلى الآن.

لتذكرنا بكل مرارة بما قاله شاعرها البردوني وكأنه يصف البلاد ورئيسها ومن امتطى من كبار شيوخها وعلمائها عندما قَالَ يعارض بائية أبي تمام:

ماذا أُحدثُ عن صنعاءَ يا وطني ... مليحةٌ عاشقاها السلُّ والجربُ
ماذا تَرى يا أبا تمامْ ؟ هلْ كذبتْ ... أحسابنا؟ أمْ تناسى عرقهُ الذهبُ

تَأبى الرُؤوسُ العَوالي نارَ نخوتها   إذا امتطاها إلى أسيادِهِ الذنبُ

وما زال الأمل بالله أن يبعث من اليمن ببركة دعاء حبيبه المصطفى ﷺ، من يشبهون جند المعتصم الّذين وصفهم البردوني في نفس قصيدته فقال:

سُتونَ ألفاً كآسادِ الشَّرى انطلقتْ وللمنجمِ قالتْ: أنّنا الشهبُ

ولا يحتاج الأمرُ ستون ألفا، وأسأل الله أي يسلط عَلى (الجاويش) من شباب الإِسْلَام من يشفي بهم صدور قوم مؤمنين، وما ذلك عَلى الله بعزيز.

مصر:

تنافست إنجلترا وفرنسا لاحتلال مصر أواخر القرن الثَّامن عشر، نظرا لموقعها الإستراتيجي واهتمت بها بَرِيطَانيَا خاصّة، لوقوعها في طريق مُستَعمراتها في آسيا.

ولذلك أرسلت بَرِيطَانيَا أسطولا تمكن من هزيمة الفرنسيين - بعد احتلالهم مصر بحملة نابليون سنة (١٢١٢هـ - ١٧٩٨م) - في معركة أبي قير البحرية سنة (١٢١٢هـ - ١٧٩٨)، وبعد جلاء الفرنسيين عن مصر سنة (١٨٠١م)، أرسلت بَرِيطَانيَا أسطولا لغزو مصر عن طريق رشيد سنة (١٢١٢هـ - ١٨٠٧م)، لكن مقاومة أهلها أدت إلى فشل هذا الغزو.

كانَ (محمّد علي) قد نجح بذكائه في التسلق عَلى أكتاف الحركة الشعبيَّة، واستطاع أن يقنع النّاس به فاتخذ العُثْمَانِيّون قرار بتعيينه واليا عَلى مصر، ونجح في الاستقلال بمصر سنة (١٢١٩هـ-١٨٠٥م) ثمّ أذعن السُّلطَان سليم الثّالث وأصدر فرمانا بتعيينه سنة (١٨٠٦م)، وكون جيشا حديثا، وأنفذ البعثات إلى فرنسا لتي أيدته ودست العملاء في مستشاريه في شتّى الميادين ولاسيما في مجال التّعليم والغزو الفكريّ الإستشراقي، فتأسست العلمانيّة ومدارس الضلال العربيَّة المعاصرة في عهده، وكانت بوابة البلاء عَلى مصر والعالم العربيّ كله، كما سنرى في الفَصل التّالي.

وقد قام محمّد علي بحملات عسكريّة ناجحة في السُّودَان وشبه الجَزِيرَة العربيَّة والشّام وبلاد اليونان، لكن تحالف الدّول الأوروبية خاف من طموحاته، فوضعوا له حدا، أدى إلى فقدانه أحلامه

الإمبراطورية بعد هزيمته في معركة نوارين البحرية سنة (١٢٤٢/ ١٨٢٧م) مع البريطانيين، وإرغامه عَلى الانسحاب من كلّ الأقاليم الّتي استولى عليها ما عدا مصر وفق مؤتمر لندن سنة (١٢٥٥هـ / ١٨٤٠م).

ومع ذلك نجح محمّد علي في تأسيس أسرة حاكمة في مصر إذ تولاها بعد وفاته عباس الأوّل، ثمّ سعيد باشا، ثمّ الخديوي إسماعيل، ثمّ الخديوي عباس، وصولا إلى الملك فاروق أخر حُكَّام الأسرة، الّتي انتهت بقيام ثورة يوليو سنة (١٢٧١هـ/ ١٩٥٢م) الّتي تزعمها الرَّئيس جمال عبد النّاصر ورفاقه الّذين عرفوا بالضُّبَّاط الأحرار، وانتهى الأمر بالملك الفاروق منفيا في إيطاليا حيث عملت أسرته في الدعارة!

وتجدر الإشارة إلى أنه في عهد الخديوي إسماعيل تعاظم النفوذ الفرنسي في مصر، والّذي كانَ من مظاهره حصول (فرديناند ديليسبس) عَلى امتياز حفر قناة السويس لتوصيل البحر الأحمر بالبحر المتوسط، وكلف حفر القناة وافتتاحها مصر أرواحا كثير من المصريين وأموالا طائلة، فوقعت الدّولة تحت طائلة الديون، الأمر الّذي أدى إلى تدخل إنجلترا وفرنسا ونجاحهما في الإشراف عَلى الشؤون المالية في مصر عن طريق (صندوق الدّين)، وتشكيل لجنة ثنائية فرنسية إنجليزية لضمان تحصيل الديون.

وكانت فرنسا وبريطانيا قد عقدتا اتفاقا وديا سنة (١٨٠١م) جلت بمقتضاه فرنسا عن مصر وتخلت عن أطماعها الاستعماريّة في إخضاع مصر لسيطرتها.

وانتهزت بَرِيطَانيَا فرصة قيام الثَّورة العرابية بقيادة أحمد عرابي ضدّ الخديوي توفيق لتحقيق هدفها في احتلال مصر.

فأرسلت بَرِيطَانيَا حملة عَلى مصر سنة (١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م)، ونجحت في الاستيلاء عَلى الإسكندرية، ثمّ هزمت العرابيين عند التل الكبير، ثمّ احتلت القاهرة وقضت نهائِيًّا عَلى الثَّورة العرابية، ولكن حركة المُقاوَمة السّياسيّة ضدّ الإنجليز استمرت بعد ذلك بزعامة مصطفى كمال الّذي حاول استغلال عداء فرنسا لبريطانيا وندد بالإنجليز في المحافل الدّولية خُصُوصَاً بعد أن اقترفوا

جريمة مذبحة دنشواي سنة (١٣٢٣هـ - ١٩٠٦م) كما أسس الحزب الوطني سنة (١٣٢٤هـ / ١٩٠٧)، وكان قد أصدر صحيفة اللواء سنة (١٣١٨هـ/ ١٩٠١م) الّتي فجرت الحركة الوطنيّة في مصر ضدّ الإنجليز.

وفي سنة (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) قامت ثورة كبرى ضدّ الإنجليز بزعامة سعد زغلول مطالبة بالاستقلال وإلغاء الحماية البريطانيَّة عَلى مصر الّتي فرضها الإنجليز سنة (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م).

وبعد فشل الثَّورة لجأ المصريون إلى أسلوب المفاوضات لتحقيق الاستقلال، ثمّ عقد مصطفى النحاس معاهدة مع بَرِيطَانيَا سنة (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م) فحققت لمصر استقلالا غير تام.

وظلت إنجلترا تتعاون مع القصر والملك فاروق وأحزاب الأقلية الّتي شكلت حُكُومَات ضعيفة نجم عن سياستها مزيدا من الفساد، ثمّ قامت حركة الضُّبَّاط الأحرار بزعامة جمال عبد النّاصر بثورة (٢٣يوليو سنة ١٩٥٢م).

وكانت قد نشأت في مصر أواخر العشرينات حركة إسلاميّة كانَ لها بالغ الأثر عَلى مسار الأحداث في مصر والعالم العربيّ عموما، وهي حركة الإخوان المُسلِمِين الّتي أَسَّسَها الشَّيْخ حسن البنا، الّذي وضع أسس حركته الّتي كانت تهدف إلى إعادة الخِلافَة الإِسْلَاميّة وتصحيح أوضاع المُسلِمِين والدّعوة إلى العود إلى تحكيم الشّريعة الإِسْلَاميّة والدّفاع عن قضايا المُسلِمِين، وما لبثت الحركة أن دخلت في صِرَاع مع القصر، والنفوذ البريطاني، وقد انتشرت الحركة مابين (١٩٢٨) ونهاية الأربعينات انتشارا واسعا في مصر، وامتدت إلى بلاد الشّام وغيرها، وتوجف الإنكليز منها شرا، ولاسيما بعد مساهمات مُجَاهدي الإخوان في مصر وسوريا في حرب اليَهُوْد سنة (١٩٤٨)، ثمّ تآمر الإنكليز والملك فاروق عَلى الحركة، فأودع المُجَاهدون العائدون من فِلَسطِين في السّجون، واغتيل الإِمَام حسن البنا رحمه الله تَعَالَى وغفر له، ثمّ كانَ للتنظيم الخاص (السري) الّذي أنشأه دور في مقاومة الإنكليز في منطقة قناة السويس، ثمّ اتفق الإخوان مع الضُّبَّاط الأحرار عَلى إسقاط الملك فاروق، ونجح انقلاب الضُّبَّاط الأحرار في سنة ١٩٥٨، وتولى اللواء نجيب رئاسة الدّولة، ثمّ انتقلت الرئاسة لجمال عبد النّاصر الّذي تنكر للإخوان وانقلب عليهم وأودع قياداتهم في السّجون سنة ١٩٥٤، وأعدم

بعضهم من أبطال مقاومة الإنكليز، ثمّ أعلن عبد النّاصر تأميم قناة السويس وحصلت الحَرب الّتي دعيت بالعدوان الثلاثي عَلى مصر سنة ١٩٥٦، واشتركت فيها بَرِيطَانيَا وفرنسا وإسرائيل، ووفرت هذه الحَرب لعبد النّاصر الدعاية الكافية لدعوته الحماسية للقومية العربيَّة، والوحدة العربيَّة، والأفكار الإشتراكية، والدعوات التحررية الّتي نادى بها، وكانت كثير من بلاد العالم العربيّ تشهد حركات تحررية تحمل تلك الأفكار، كما كانَ لعبد النّاصر تحركا دوليا، مع بعض الزعماء العَالَمِيّين، ولاسيما دعوة تجمع دول عدم الانحياز إلى جانب الزعيم اليوغوسلافي الشُّيُوعِيّ (تيتو)، والزعيم الهندي (نهرو)، والإندونيسي (سوكارنو) حيث عقد في بلاده مؤتمر باندونغ (١٩٥٤)، وكانت تلك الأفكار ميالة للإتحاد السوفييتي فيما عرف بسياسة الحياد الإيجابي في الصِّرَاع الأمريكيّ السُّوفيتيّ، وقصة عبد النّاصر تطول وهي مرحلة مهمة في تاريخ مصر والعالم العربيّ، وليس هنا محل استقصائها، وسرت أفكار عبد النّاصر ودعاياته في العالم العربيّ الّذي كانت تروج فيه دعوة القوميّة العربيَّة وتنشأ الأحزاب السّياسيّة المختلفة عَلى أساسها، وفي سنة ١٩٥٨ توصل القوميون العَرَب في سوريا وعبد النّاصر إلى إعلان الوحدة الّتي طبلت لها الجماهير وزمرت، ثمّ انفصمت الوحدة خلال ٣ سَنَوات، وقد حكم عبد النّاصر مصر حكما استبداديا فرعونيا، وأنشأ لذلك أجهزة أمنيّة واستخباراتية استباحت دماء العِبَاد وأعراضهم وحرماتهم، وقد نشرت عشرات الكتب والدراسات عن تلك الحقبة السوداء بما يغني عن الشواهد هنا.

وقد بطش (الزعيم الملهم) كما أسموه بكل معارض له، وكان للحركة الإِسْلَاميّة وخاصة الإخوان المُسلِمُون النصيب الأوفر من ذاك البطش الّذي بلغ ذروته سنة ١٩٦٥، إذ أعلن عبد النّاصر الحَرب عليهم خلال زيارة له لموسكو، وافتخر بأنه أدخل السّجن (١٧ ألف) رجل منهم في ليلة واحدة! ثمّ أعدم كوكبة من خيرة أبناء مصر كانَ عَلى رأسهم الشّهِيد المعلم الأستاذ سيد قطب، رَحِمَهُ اللهُ وجمعنا به في عليين، ودخل عشرات الألوف من الإخوان سجون عبد النّاصر منذُ ١٩٥٤ عَلى مراحل، ولم يخرج أكثرهم إلا في عهد خلفه السادات أواسط السَّبعينيَّات!

وخلال حكم عبد النّاصر، عم الفساد أجهزة الدّولة وانتشرت الخلاعة والمجون ولاسيما في قيادات الجيش وأجهزة الإستخبارات، وتمكن الموساد الإسرائيلي من زرع العملاء في قيادات الجيش الّذي غرق قادته وقادة الأمن في الدعارة والانحلال، وفي صبيحة الخامس من حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧، كانت مصر عَلى موعد مع نتائج تلك الحقبة الّتي عبد فيها أكثرهم الرجل الوثن، وخلال أقل من نصف ساعة وفيما كانَ كبار قادة وضباط الجيش المصري يغطون في نومهم بعد ليلة حمراء قضوها زناة مخمورين، كانَ الطيران الإسرائيلي يدمر سلاح الطيران المصري وهو في مطاراته عَلى الأرض، وهكذا تُركت القوّات البرية المصريَّة تحت رحمة الطيران الإسرائيلي الّذي نفذ فيها مجازر مروعة، لتنجلي معركة الأيّام الستة عن احتلال اليَهُوْد لصحراء سيناء وصولا إلى ضفة قناة السويس، فيما تكفل البعثيون والنصيريون في الجبهة السوريّة ببيع مرتفعات الجولان لإسرائيل، وتولى حافظ الأسد – كما مر معنا إعلان سقوط الجبهات والانسحاب الكيفي منها قبل وصول اليَهُوْد إليها بأربع وعشرين ساعة، ثمّ مرر عبد النّاصر وعباده مسرحيَّة استقالته بعد الهزيمة، وخرج الغوغاء إلى الشَّوارع هاتفين بحياته وبقائه في السّلطة، وبعد سنتين من الهزيمة توفي عبد النّاصر سنة ١٩٦٩، وبعد وفاته نشرت الكثير من الكتب عنه بين من ذهب به مذهب التقديس، إذ انتشر ما عرف بالأحزاب النّاصرية في مصر والعالم العربيّ، وذهب البعض إلى الاعتقاد بما نشره بعض المتقاعدين من الإستخبارات الأمريكيّة وغيرها، حيث أثبتوا أنه كانَ عميلا للاستخبارات الأمريكيّة وأنه نفذ برنامجا معدا معهم منذُ البداية وإلى النهاية، ومن أشهر تلك الكتب كتاب (لعبة الأمم) لمؤلفه (كوبلاند) الّذي فصَّل في تلك الفرضية الّتي رفضها محبوه واعتبروها دعاية صهيونية! ومهما يكن من أمر التكهنات، فالوقائع الّتي لا مجال للمماراة فيها أنه كانَ طاغوتا جبارا ملحدا في دين الله، ذاقت مصر وأبناؤها في عهده الويلات، وتركها بعده قاعا صفصفا من الفقر والفساد، وانتشار الفسوق والعصيان والأفكار الضالة المارقة.

ثمّ خلفه في السّلطة (أنور السادات)، وسرعان ما اتجه اتجاها معاكسا، فنهج نهجا أمريكيا وأسمى سياسته (سياسة الانفتاح)، فنمت الرأسمالية في عهده وتقلصت العلاقات مع الإتحاد السوفييتي، ولمُوَاجَهة المد اليساري الّذي نمى نموا سرطانيا في عهد سلفه الهالك، اتبع السادات

سياسات كانَ منها إطلاق المجال للحركات الإِسْلَاميّة، فأفرج عن الإخوان المُسلِمِين وسمح للدعوة الإِسْلَاميّة بالنمو في الجامعات، وسرعان ما ملأ الإِسْلَاميّون الجامعات والنقابات المهنية والعلمية، واكتسحوا الشارع المصري، فبدأ بكبح جماحهم.

وفي سنة ١٩٨٠ فاجأ السادات العالم بطرحه فكرة الصُّلح مع إسرائيل وتطبيع العلاقات تحت ذريعة بناء مصر وتنميتها في جو السلم، وأتبع ذلك بزيارته الشهيرة لإسرائيل والقُدس، وعاد ليجد المارد المسلم الّذي أطلقه من (قمقم) عبد النّاصر بانتظاره في القاهرة، ثمّ أتبع خطواته السريعة باتفاقيات كامب ديفيد الشهيرة، وعرضته وسائل الإعلام يصافح مناحيم بيغن جزار مذابح (دير ياسين الشهيرة)، وبموجب تلك الاتفاقيات، ردت إسرائيل صحراء سيناء لمصر بحيث تبقى تحت سيطرتها عمليا، ورفرف العلم الإسرائيلي في سماء القاهرة عَلى ضفاف النيل فوق أول سفارة لدولة إسرائيل في العالم العربيّ، فحمل عليه العُلَماء والخطباء الشرفاء، فألقاهم في السّجون، وأعلن الحَرب عَلى الإِسْلَاميّين سنة (١٩٨١)، وزج قادتهم في السّجون، وتحدى الخلق معلنا أنه ألقاهم في السّجون كالكلاب!

وبعيد ذلك قيض الله له من أسود الإِسْلَام من ألقاه تحت الكراسي صريعا كالكلب حقيقة لا مجازا، إذ قتله المُجَاهدون من تنظيمي الجماعة الإِسْلَاميّة والجِهَاد في حادثة المنصة الشهير، وهو في يوم عزه واستعراض قوَّاته، إذ أنه كانَ قد خرج عَلى قومه في زينته في استعراض عسكريّ كبير، فخسف الله به، وأرسله جند الله ليلحق بسلفه الفرعون ويكون لمن خلفه آية.

ثمّ خلفه الفرعون الحالي نائبه (حسني مبارك) لا بارك الله فيه، فأكمل المشوار الّذي رسمته أمريكا وسار في سياسات التطبيع مع اليَهُوْد قدما، ومازال يحكم مصر بالحديد والنار وقبضة الأجهزة الأمنيّة، وقوانين الطوارئ العرفية منذُ ١٩٨١ وإلى اليَوْم حيث يرتب مع الأمريكان توريث عرش الفرعونية لولده جمال مبارك!

وقد شهد عهد مبارك حربا ضروسا من النّظام المصري عَلى الإِسْلَاميّين، وتصدت له الجماعات الجهاديّة ودخلت في صِرَاع مرير لم يضع أوزاره إلا من قريب بعد أن نجحت أجهزة الأمن بفضل

سياسات التصفية والبطش، وبتعاون علماء السّلاطين أخزاهم الله معه، فأجهض الجِهَاد، وخلا الجو لمبارك ورهطه يبيضون ويصفرون في أنحاء أرض الكنانة.

واليوم تعتبر مصر أحد أعمدة السياسات الأمريكيّة الصّهيونيّة في المنطقة، ومستند الأنظمة العربيَّة والإِسْلَاميّة في كفاح الإِسْلَاميّين أمنيّاً وفكريا.

ورغم ذلك مازالت أمريكا تلوح ببَرَامجها الّتي تستهدف مصر بالتقسيم والتهديد بعد أن تغلغل عملاؤها في مختلف مناحي حياة المصريين.

السُّودَان:

نجح محمّد علي باشا حاكم مصر في إرسال عدّة حملات إلى السُّودَان بقيادة أصغر أبنائه إسماعيل كامل سنة (١٨١٩م/ ١٨٢١م) وتمكنت هذه الحملات من ضمّ السُّودَان إلى مصر وتحقيق وحدة وادي النيل، فلما استولت بَرِيطَانيَا عَلى مصر سنة (١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م) خططت لفصل السُّودَان عن مصر والوصول إلى منابع النيل.

وعندما قامت الثَّورة المهدية في السُّودَان بزعامة السيد محمّد أحمد المهدي، طلبت بَرِيطَانيَا من مصر سحب قوَّاتها من السُّودَان وأرسلت حملة بقيادة (غوردون) لكن الثوار هزموه وقتلوه بالخرطوم سنة (١٣٠٢هـ -١٨٨٥م) وفي سنة (١٣١٣هـ -١٨٩٦م) أرسلت بَرِيطَانيَا حملة (كتشنر) إلى السُّودَان واستعانت بجهود عساكر مصريين! ونجحت الحملة في هزيمة الثوار المهديين سنة (١٣١٥هـ - ١٨٩٨م) بعد الاستيلاء عَلى أم درمان وبذلك تحقق لبريطانيا ضمّ السُّودَان إلى إمبراطوريتها.

واتفقت بَرِيطَانيَا والحكومة العميلة لها في مصر سنة (١٣١٦هـ - ١٨٩٩م) عَلى حكم السُّودَان حكما ثنائيا رغم احتجاجات الوطنيين المصريين وأخذت بَرِيطَانيَا في إثارة الصِّرَاع بين المصريين والسُّودَانيين لكنها لم تنجح، إذ بعد قيام ثورة سنة (١٣٣٧هـ - ١٩١٩م) في مصر قامت ثورة في السُّودَان بزعامة (عبد القادر ود حبوبة) تطالب بجلاء بَرِيطَانيَا عن وادي النيل.

وبرغم قضاء بَرِيطَانيَا عَلى الثَّورة تصاعدت الحركة الوطنيّة في السُّودَان، ففي عام (١٣٤٠هـ - ١٩٢٢) تشكلت جَمعيَّة الإتحاد السُّودَاني وجَمعيَّة اللواء الأبيض، وأخذتا تعملان سرا لطرد بَرِيطَانيَا وتحقيق وحدة مصر والسُّودَان.

لكن الحركة الوطنيّة السُّودَانية ظلت تقاوم الوجود البريطاني، وتشكل حزب الأُمّة بزعامة المهدي، والحزب الوطني الاتحادي بزعامة الأزهري ليقودا النضال ضدّ بَرِيطَانيَا، وبعد قيام ثورة يوليو في مصر سنة (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م) وعقد اتفاقية الجلاء سنة (١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م) اتفقت مصر وبريطانيا عَلى ترك الخيار للسودانيين لتقرير مصيرهم ؛ فاختاروا الإستقلال الّذي تمَّ عام (١٩٥٦م) وقامت دولة وفق النّظام الجمهوريّ اعترفت بها جامعة الدّول العربيَّة وهيئة الأمم المتحدة.

وتتالت الحُكُومَات المدنيّة والعسكريّة عَلى السُّودَان، إلى أن تسلم الحكم جعفر النميري بانقلاب عسكريّ، وفي عهده نمت الحركة الإِسْلَاميّة الّتي كانَ أبرزها حركة (الجبهة القوميّة الإِسْلَاميّة السُّودَانية) الّتي تزعمها حسن الترابي، وقامت عَلى أسس الإخوان المُسلِمين ثمّ فصلها الترابي مستقلا لها بفكر جديد يرتكز إلى أفكاره واجتهاداته الحَركيّة والفقهيّة الخاصّة، ثمّ تحالف الترابي والنميري عَلى أساس تحكيم الشّريعة في السُّودَان، ثمّ رتب الترابي انقلابا عسكريّاً أطاح بالنميري وجاء بحكم ما عرف بثورة الإنقاذ من الضُّبَّاط المنتمين للترابي بزعامة الرَّئيس (عمر البشير)، ثمّ وقع الطلاق بين الترابي وتلاميذه الضُّبَّاط فاعتقلوا شيخهم مرات، حيث تحول للمعارضة!

وقد حاول البشير ورفاقه النهوض بالسُّودَان، وتطبيق الشّريعة، ولكن المؤامرات الأمريكيّة أنهكتهم بدعم حركات التمرد المُسلّحة جنوب السُّودَان وشرقه ثمّ في غربه مؤخرا، وآل الأمر بزمرة البشير لاختيار سياسة الرُّضُوخ لأمريكا وطلباتها الّتي لم تنتهي، فطردوا الجهاديّين، ثمّ طردوا بن لادن، ثمّ وقعوا اتفاقيات مهينة مع النّصَارى الجنوبيين، ثمّ افتتحوا مكاتب معلنة لـ (FBI) وعقدوا الاتفاقيات الأمنيّة لمُكَافحَة الإرهَاب، وبلغ بهم الأمر أن يسلموا بض المُجَاهدين المطاردين من قبل نظام ليبيا لحكومة القذافي وهم يعلمون أنهم يسلمونهم للإعدام، كما سلموا عددا من الإخوة السّعُودِيّين لأجهزة أمن بلدهم سنة ٢٠٠٤، ورغم التنازلات اللامتناهية، مازالت الحكومة الأمريكيّة

تطارد حكومة السُّودَان بالتهديد والوعيد، إلى أن بلغ الأمر هذه الأيّام بإعلان أمريكا والدّول الغربيّة ومنها بَرِيطَانيَا وفرنسا وغيرها التدخل المباشر السّياسيّ والعسكريّ في غرب السُّودَان، بدعوى المنازعات القبلية في إقليم دارفور، في مخطط مكشوف لتقسيم السُّودَان، لتثبت سياسة المداهنة والتنازلات أنها لا تسفر إلا عن افتراس الوحش للثور الأسود بعد أن أكل الثور الأبيض فيما كانَ ينظر إليه ويخذله، وسبحان الديان فكما تدين تدان، وإن في ذلك لعبرة لأولي الألباب، إن كانَ ثمّ هناك بقية منهم.

ليبيا:

بعد تحقيق الوحدة الإيطالية سنة (١٢٨٥هـ/ ١٨٧٠م) تطلعت إيطاليا إلى المشاركة في حركة الاستعمار الأوروبي، ونظرا لقربها من ليبيا فقد اعتبرتها مجالا حيويا، لذلك هاجر الكثيرون من الإيطاليين إلى ليبيا، وشكلوا جالية أخذت تنشر الثّقافة واللغة الإيطالية في البلاد وتمهد للنفوذ السّياسيّ والاقتصادي الإيطالي.

ثمّ مهدت إيطاليا لاحتلال ليبيا بعد موافقة القوى الدّولية مثل إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا عَلى طموحاتها، فأرسلت حملة احتلت طرابلس وبنغازي بعد إخفاق الحامية العُثْمَانِيّة في القِتَال سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، وقدر للأقاليم الأخرى السُّقوط في يد الغُزَاة سنة (١٩١٢م)، أما مدينة أجدابية فسقطت سنة (١٩٢٣م)، كما سقطت فزان سنة (١٩٢٨م).

وفي سنة (١٩٢٩م) أصدر موسوليني مرسوما بتوحيد برقة وطرابلس في ولاية واحدة، كما احتلت قوَّاته واحة الكفرة سنة (١٩٣٠م).

ولما قامت حركة الجِهَاد ضدّ إيطاليا، قمعتها بوحشية وقوة، فاستنفرت المُسلِمِين في الدّولة العُثْمَانِيّة والعالم العربيّ، وأخذ المتطوعون يتدفقون عَلى ليبيا بقيادة عزيز المصري وأنور باشا، كما قام السنوسيون (وهم حركة دينية صوفية جهاديّة) في إقليم برقة بدور هام في الجِهَاد وضيق الثوار الخناق عَلى الإيطاليين، وشدوا من أزر الحاميات العُثْمَانِيّة في ليبيا.

وبعد إخفاق الدّولة العُثمَانِيّة في حربها مع إيطاليا في البلقان، خضعت لمطالب إيطاليا بسحب قوَّاتها نهَائِيَّاً من برقة وطرابلس.

فتصدى السنوسيون لمقاومة الاحتلال، واتبعوا أسلوب الغارات الخاطفة (حرب العِصَابات) وكادوا ينتصرون عَلى الإيطاليين لولا دعم بَرِيطَانيَا عسكريّاً واستمالتها أحمد السنوسي الّذي غادر ليبيا إلى الآستانة سنة (١٩١٨م).

وفي سنة (١٩٢٠م) عقدت إيطاليا معاهدة مع محمّد إدريس السنوسي، اتفق فيها الطّرفان عَلى إنهاء الحَرب واعترف السنوسي بسيادة إيطاليا عَلى برقة، كما اعترفت له إيطاليا بالسيادة عَلى الأراضي الّتي كانت تحت نفوذه.

ومع ذلك واصلت الحركة الوطنيّة النضال خُصُوصَاً بعد وصول موسوليني إلى الحكم في إيطاليا سنة (١٩٢٢م)، فقد أعلن أن ليبيا إيطالية وألغى جميع الاتفاقات السَّابقة.

ثمّ قاد المُجَاهد الشَّيْخ الشّهيد عمر المختار رَحِمَهُ الله حركة النضال متبعا أسلوب الحَرب الخاطفة، مما أنهك الجُيُوش الإيطالية، لكن إيطاليا أرسلت قوَّات جديدة إلى ليبيا ونجحت بعد عناء وخسائر كبيرة في الإيقاع بالثوار، وقبض عَلى عمر المختار وشنق شهيداً – كما نحسبه- سنة (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م).

ولما قامت الحَرب العَالَمِيّة الثّانية وانضمت إيطاليا إلى ألمانيا، عاد محمّد إدريس السنوسي إلى ليبيا بصحبة قوَّات بَرِيطَانيَة تمكنت من تحرير ليبيا سنة (١٩٤٣م) بعد هزيمة قوَّات المحور، وأصبح الوضع ممهدا لاستقلال ليبيا، والّذي أعلن في عام (١٩٥١م)، وقام بذلك النّظام الملكي في ليبيا.

وفي سنة (١٩٦٨) قام العقيد القذافي بانقلاب عسكريّ (يعتقد أنه رتبه مع المخابرات البريطانيَّة)، واستولى عَلى السّلطة في ليبيا وما زال فيها حتَّى الآن وأطلق عَلى ليبيا اسم الجمهوريّة الشعبيَّة العربيَّة الليبية العظمى.

وقد اشتهر العقيد بمزاجه المتقلب، وحكمه الديكتاتوري الدموي القمعي، كما اشتهر بمغامراته العسكريّة والسّياسيّة في الجوار، وفي القضايا الإقليمية، مما أنهك اقتصاد ليبيا وكبد جيشها الصغير العدد نظرا لقلة عدد سكانها خسائر فادحة، ثمّ سولت للقذافي شياطينه أن يخرج عَلى العالم بنظريات

سياسيّة عجيبة، فأظهر كتابا نسب تأليه لنفسه ودعاه الكتاب الأخضر، وزعم أنه النَّظريَّة الثّالثة للحكم بين النهج الاشتراكي والديمقراطي، والكتاب مزيج من الغرائب والتفا هات والكفر والضلال والسماجة الّتي تثير الغثيان، وقد قرأت أكثره بالجهد والعناء وكثير من الصّبر رغم صغره، وعجبت من قدرة كاتبه عَلى جمع ذاك القدر من السخافة والبلادة والحقارة.

ثمّ استعلن القذافي بالكفر والآراء الدّينيّة الشاذة، فأنكر السنة، وحذف بعض الكلمات من القرآن، وشرع وفنن وافترى عَلى الله الكذب، واتخذ من بعض الغانيات حرسا شخصيا له، وله غرائب وتفاهات يطول لها الخطاب تذكر بصرعات الحاكم بأمر الله الفاطمي العبيدي الزنديق الأحمق صاحب العجائب.

وقد قامت عَلى القذافي انقلابات عديدة كادت تطيح به لولا تدخل الإستخبارات الأمريكيّة والبريطانيَّة لإنقاذه رغم دعاويه الثّوريّة، كما قامت في ليبيا حركة جهاديّة ضده سنة ١٩٨٩ فقمعها بقسوة ودموية، ثمّ قامت حركة جهاديّة أواسط التِّسعينيَّات تمكن من القضاء عليها أيضا، وملأ سجون ليبيا بخيرة الشَّبَاب المسلم وأطلق عليهم لقب الزنادقة!

- قاتله الله - وقد زاود القذافي طوال سني حكمه العجاف عَلى الدُّنيَا بشعارات العروبة والإشتراكية والوحدوية، إلا أنه طلع عَلى الأُمّة مؤخرا بدعاويه الإفريقية وعزمه عَلى الانسلاخ عن العالم العربيّ والانسحاب من الجامعة العربيَّة.

ثمّ لبس قميصا عجيبا مزينا بصور بعض الرؤساء الأفارقة، وصور رؤوس تشبه الغوريلات، ثمّ أعلن مؤخرا انبطاحا كاملا للسياسات الأمريكيّة والغربيّة، فسلم جميع مخزون بلاده الإستراتيجي من الصواريخ وبدايات مشروع الأبحاث النووية وزعم أنه مخزون ليبيا من أَسْلِحة الدمار الشّامل، وصار بوش يضرب به المثل كنموذج يحتذى يريد من رؤساء العَرَب والعالم الإِسْلَاميّ وغيره اقتفاء أثره.

وتقوم ليبيا هذه الأيّام بدفع التعويضات الهائلة لكل دولة أوربية تزعم أنها تعرضت لعمل إرهابيّ كانَ مدعوما من ليبيا، حيث يعلن الساسة الأوربيون عودة العلاقات مع ليبيا، كما أعلن بوش

أنه راض عن ليبيا، وأعلن موافقته عَلى أن تستأنف شركات النهب الاستعماريّ نهب بترول ليبيا كمكافأة للقذافي عَلى استخذائه المهين قبحه الله.

تونس:

دخلت تونس سنة (٩٨٠هـ/ ١٥٧٣م) تحت حكم العُثْمَانِيّين كغيرها من البلاد العربيَّة الّتي سبقتها، وبقى فيها الأتراك زهاء ٣٠٠ سنة، ونظرا لضعف الدّولة العُثْمَانِيّة، فقد تنافست كلّ من فرنسا وإيطاليا لاحتلال تونس، لكن فرنسا نجحت في مد نفوذها من خلال عقد معاهدة ودية مع باي تونس سنة (١٢٤٥هـ/ ١٨٣٠م) حصلت بمقتضاها عَلى امتيازات تجاريَّة داخل تونس.

كما استطاعت فرنسا أن تحول دون تدخل بَرِيطَانيَا في أمور تونس بأن اتفقت معها عَلى أن تطلق إنجلترا يدها في قبرص مقابل عدم منافسة إنجلترا لفرنسا في تونس.

وانتهزت فرنسا فرصة عبور قبيلة تونسية إلى الجَزَائِر، وأرسلت جيشا إلى تونس تمكن من هزيمة الباي محمّد الصادق سنة (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) وأرغمته عَلى توقيع معاهدة يعترف فيها بتحويل تونس إلى محمية فرنسية.

ثمّ اندلعت حركة الجِهَاد والمُقاوَمة الإِسْلَاميّة والوطنيّة التونسية سنة (١٨٨١م) بتكوين حركة " الجامعة الإِسْلَاميّة " الّتي لجأت إلى التنديد بالاحتلال وإثارة المشاعر الوطنيّة من منطلقات إسلاميّة وتحرك بعض العُلَماء من علماء مسجد الزَّيتونة للدعوة للجِهَاد، وبالفعل تحرك الثوار من مراكز التَّجَمُّعات القبلية في الجنوب، وامتدت الثَّورة إلى مدن القيروان وسوسة وقابس وزغوان وصفاقس، وتمكن الثوار من السّيطرة التَّامَّة عَلى جنوب البلاد لكن فرنسا اتبعت أسلوب وحشيا في قمع الثَّورة والتنكيل بالثوار، وفي سنة (١٩٠٨م) " تأسس حزب تونس الفتاة " الّذي طالب بالدستور والتحم رجاله في معارك مع الفرنسيين سنة (١٩١١م) لكن فرنسا قمعتهم بوحشية.

وفي مارس سنة (١٩٢٠م) تأسس " الحزب الحر الدستوري التونسي" الّذي تمكن من الاستيلاء عَلى قيادة النضال ضدّ الاستعمار الفرنسي دعائيا وسياسيّاً واجتماعيا، واستطاع تجنيد المثقفين والعمال،

حيث أبرمت فرنسا معه اتفاقية استقلال تونس سنة (١٩٥٦م)، وبذلك سلمت تونس لعميلها الماكر (الحبيب بورقيبة) الّذي استطاع خداع العُلَماء، بهوية إسلاميّة مزيفة، ثمّ استعلن بهويته العلمانيّة المارقة لما تمكن من الأمر، وجاهر بمحاربة التّشريع الإِسْلَاميّ والسير بتونس بسرعة في طريق التغريب ونشر الفسوق ومسح الهويّة الدّينيّة.

وفي مطلع الثمانينات هبت رياح الصّحوة الإِسْلَاميّة عَلى تونس من المشرق، وأسس عدد من الدعاة (حركة الإتجاه الإِسْلَاميّ) بزعامة الشَّيْخ راشد الغنوشي، ودخلت الحركة معترك المنافسة السّياسيّة السّلميّة، ولكن بورقيبة قمع الحركة وسجن شيوخها واستطاع تقسيم قيادتها واستمالة بعضهم، ثمّ دخلت الحركة الإنتخابات العامّة أواسط الثّمانينيّات، وفازت بأكثرية أدهشت الأوساط المختلفة وضربت لها أجهزة الإنذار في أوربّا ولاسيما فرنسا، فقعت الحركة، تابعت عملها السّياسيّ، وكانت تعد لانقلاب عسكريّ مفاجئ، ولكن البرنامج كشف.

ثمّ رتب وزير داخليتها آنذاك (زين العابدين بن علي) انقلابا أيضا عَلى عجل بالترتيب مع الأمريكان تفاديا لنجاح انقلاب الإِسْلَاميّين، واستولى بذلك عَلى السّلطة، وخسف بالإِسْلَاميّين وغيرهم وحكم تونس حكما ديكتاتوريا متابعا مسار تغريب هذا البلد الإِسْلَاميّ العريق، وتشردت الحركة الإِسْلَاميّة وقياداتها في البلاد الأوربية، وطورد مؤيدوهم شر مطاردة، وصارت تونس إحدى ركائز السّياسة الأمريكيّة الاستعماريّة في العالم العربيّ، ثمّ أجرى فرعون تونس في أوكتوبر ٢٠٠٤ انتخابات هزلية لتجديد ولايته ففاز بـ ٩٦ , ٩٥٪ في مشهد ديمقراطي يثير الغثيان.

الجَزَائِر:

حكمت الدّولة العُثْمَانِيّة الجَزَائِر مثل باقي الدّول العربيَّة الأخرى، واستمر حكمهم زهاء ٣٠٠سنة، وقد مر الحكم العُثْمَانِيّ للجزائر بعدة بمراحل بدءا من عصر (البالارباي) من عام (١٥٤٦م) إلى (الدايان)عام (١٠٨١هـ/ ١٦٧١م) والّذي انتهي عام (١٩٣٠)، وفي نفس الوقت

كانت فرنسا تطمع في احتلال الجَزَائِر الاستراتيجي، خُصُوصَاً وأنها كانت تتمتع بامتيازات تجاريَّة فيها منذُ القرن السَّادس عشر.

وفي سنة (١٣١٥هـ-١٨٠١م) وقعت فرنسا مع الجَزَائِر معاهدة تنص عَلى حرية التجارة بين الطَّرفين، وعجلت باحتلال الجَزَائِر لتحول دون تغلغل النفوذ البريطاني فيها، ومن أجل ذلك عقدت معاهدة سرية مع روسيا سنة (١٢٢٣هـ / ١٨٠٨م) حظيت فيها فرنسا بموافقة روسيا عَلى احتلال الجَزَائِر.

لكن انشغالها بمشكلاتها الأوروبية أجل الغزو حتَّى سنة (١٢٤٥/ ١٨٣٠م)، ثمّ تذرعت فرنسا بمسألة تافهة مؤداها إهانة الداي حسين لقنصلها حين صفعه بمنشته عَلى وجهه لتتخذ من الحادثة ذريعة للغزو والإحتلال.

و بالفعل أرسلت فرنسا أسطولها الّذي حاصر سواحل الجَزَائِر مدّة ثلاثة أعوام.

وفي عام (١٢٤٥هـ/ ١٨٣٠م) انتهزت فرنسا ضعف الدّولة العُثْمَانِيّة وأرسلت حملة عسكريّة نجحت في الاستيلاء عَلى الجَزَائِر سنة (١٢٤٥هـ/ ١٨٣٠م) بعد طرد الحامية العُثْمَانِيّة منها، ثمّ تطورت حركة المُقَاوَمة الجَزَائِرية المناهضة للاحتلال بزعامة الأمير عبد القادر الجَزَائِري الّذي التفت حوله القبائل وبايعته في وهران سنة (١٨٣٢م)، كما أيده رجال الصوفية واتفق الجميع عَلى الجِهَاد.

ومن مدينة " المُعَسْكَر " في غرب الجَزَائِر أخذ الأمير عبد القادر، يغير عَلى الأراضي الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي بعد أن فرض نفوذه عَلى الأقاليم الغربيّة من البلاد، وقد انتصر الثوار عَلى جُيُوش فرنسا في " معركة المقطع " سنة (١٢٥٠هـ/ ١٨٣٥م)، ثمّ لجأ إلى حرب العِصَابات، وتمكن من إنزال هزائم متوالية بالفرنسيين، وفي مايو سنة (١٢٥٢هـ/ ١٨٣٧م) عقد الفرنسيون معاهدة مع الأمير عبد القادر هيَ " معاهدة تافنا " وفيها اعترفت فرنسا بسيادة الأمير عبد القادر عَلى غربي الجَزَائِر، كما اعترف هو بسلطة فرنسا عَلى الأراضي الّتي احتلتها، واستفاد الأمير من المعاهدة الّتي أتاحت له تنظيم قوَّاته وتحصين المدن والثغور، كما اهتم بتنظيم شؤون دولته، ولما أخلت فرنسا بشروط المعاهدة

وهاجمت الثوار، تمكن الأمير عبد القادر من الاستيلاء عَلى المناطق المحيطة بمدينة الجَزَائِر سنة (١٢٥٥هـ/ ١٨٤٠م).

فكان رد الفعل الفرنسي في الإغارة عَلى مدن غربي الجَزَائِر، فاستولت عَلى تلمسان ومستغانم وغيرها من المدن في إقليم وهران، فاضطر الأمير عبد القادر إلى الهرب إلى الصَّحرَاء، وانتهى مصيره بالقبض عليه وسجنه في الجَزَائِر سنة (١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م) ثمّ سمح له الفرنسيون بالخروج من الجَزَائِر، فتوجه إلى دمشق لتكون منفى له، وظل بها حتَّى وفاته (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م).

ثمّ اتبعت فرنسا سياسة توطين الفرنسيين في الجَزَائِر بعد نزع أملاك الأهالي وأراضيهم، وعمدت إلى إثارة الفرقة بين العَرَب والبربر في محاولة لطبع البلاد بالطابع الفرنسي وإلغاء هويتها العربيَّة الإِسْلَاميّة.

ثمّ قيض الله للجزائر رجلا فذا هو الشَّيْخ (عبد الحميد بن باديس)، الّذي أسس (جَمعيَّة العُلَماء المُسلِمِين)، الّتي حفظت بأعمالها التربَويّة والعلمية هوية الجَزَائِر الإِسْلَاميّة وعروبتها، وكونت الجيل الّذي حمل لواء الثَّورة الكبرى الّتي انطلقت سنة (١٩٥٤)، والَّتي استمرت إلى أن تحقق الإستقلال سنة (١٩٦٣)، بعد أن دفعت الجَزَائِر أكثر من مليون نسمة من الضحايا والشّهداء.

ولكن الّذي حصل أن فرنسا بدهائها، بعد أن أيقنت أن استقرارها في الجَزَائِر مستحيل، وأن الإستقلال لابد حاصل، اختارت العمل عَلى أن يكون الأمر من بعدها لثلة من التَّنظِيمات والأحزاب الّتي كانَ روادها قد تربوا عَلى الأفكار الوافدة من أوربّا ولاسيما من التّيارات القوميّة والاشتراكية والليبرالية الغربيّة، والَّتي كانت قد كونت بمجموعها ما عرف باسم (جبهة التحرير الوطني) الّتي بدأ نفوذ الإِسْلَاميّين فيها يتضاءل مع الوقت، وهكذا حددت فرنسا من سيخلفها عَلى الجَزَائِر، وقيدتهم ببنود اتفاقية (إيفيان)، وقال الرَّئيس الفرنسي ديغول أيّامها:

(يريدون استقلال الجَزَائِر؟ حسنا! سنعطيهم إياها ونستردها بعد ثلاثين سنة!).

واستقلت الجَزَائِر، وآلت رآستها إلى (هواري بومدين)، وكان قوميا عربيا، ويساريا قريباً من الفكر الشُّيُوعِيّ، وسارت الجَزَائِر في عهده الطَّاغوتي البوليسي إلى الإفلاس والهاوية. وازداد نفوذ

العسكر من أعضاء (حزب جبهة التحرير الوطني) الّذين كانَ العديد منهم يحمل الجنسية الفرنسية، وأصبح هذا الحزب منذُ ذلك الوقت حزب السّلطة الحاكمة الأوحد، وتولى هذا التّيار الّذي عرف (بالتّيار الفرانكفوني) مهمة حرب الإِسْلَام وتصفية الإِسْلَاميّين في الجَزَائِر.

وبعد هلاك بومدين خلفه الرَّئيس (الشاذلي بن جديد)، واستمر (حزب جبهة التحرير) في سياسة الحزب الواحد، وزاد الشاذلي عَلَى سيئات سلفه سياسة العودة إلى أحضان فرنسا، حيث كانَ بومدين عربيا ويساريا قوميا معاديا لفرنسا، وهكذا ازداد نفوذ التّيار الفرانكفوني وكبار العسكر المتنفذين.

وازدادت أحوال الجَزَائِر سوءا وإفلاسا رغم أنها واحدة من كبريات الدّول المصدرة للنفط والغاز في العالم.

وفي مطلع السَّبعينيَّات، نهض الشَّيْخ (مصطفى بويعلي)، يطالب حكومة الشاذلي بوقف زحف الفساد، وبالعودة بالبلاد إلى أصالتها الإِسْلَاميّة ويذكرهم بمبادئ ثورة ١٩٥٤التي رفعت شعار الإِسْلَام والجِهَاد، حيث كانَ الشَّيْخ أحد المُجَاهدين الّذين شاركوا فيها، ثمّ ما لبث الشَّيْخ (بويعلي) أن أعلن الجِهَاد وأسس (حركة الدّولة الإِسْلَاميّة)، وحمل السّلاح وصعد الجبال في ثلة من أنصاره يجاهدون النّظام الجَزَائِري، ثمّ تمكنت الحكومة في سنة ١٩٧٦ من قتله رحمه الله، واعتقلت العديد من أنصاره وساقتهم إلى السّجون.

وفي أواخر الثمانينات بلغت الأزمة الاقتصاديَّة في الجَزَائِر مداها، وانفجر الشعب الجَزَائِري في ثورة تظاهرات عامة عرفت بـ(مظاهرات الخبز)، وأدرك النّظام الجَزَائِري ورئيسه الشاذلي أنه لابد من إحداث تغير جذري في الأوضاع، فأعلن الشاذلي سنة (١٩٨٨) سلسلة من الإصلاحات الشّاملة كانَ من أهمّها، إنهاء سياسة الحزب الواحد، وإطلاق المسار الديمقراطي وحرية تشكيل الأحزاب السّياسيّة.

وهكذا أقبل الجَزَائِريون بحماس عَلَى تشكيل الأحزاب وإنشاء الصّحف، وازدهرت الحركة السّياسيّة، وكان في طليعة الّذين تحركوا بحماس في هذه الفسحة من الحريَّة، مختلف مكوّنات الصّحوة

الإِسْلَاميّة في الجَزَائِر والَّتي كانت تشهد ازدهارا مكبوتا منذُ أواسط السَّبعينيَّات، شأنها في ذلك شأن باقي البلاد العربيَّة والإِسْلَاميّة الّتي كانت تشهد صَحوَة إسلاميّة عارمة، بعد أن بدأ يتبدى إفلاس سراب الأفكار القوميّة واليسارية الّتي ازدهرت خلال الخمسينيات والستينيات.

وهكذا أعلن الشاذلي عن إجراء انتخابات بلدية (١٩٨٨)، تتبعها انتخابات برلمانية سنة (١٩٨٩) من أجل بدء المسار الديمقراطي في الجَزَائِر، وبدأت الأحزاب المتنوعة استعدادها لخوض تلك التَّجربة.

تكونت السَّاحَة السّياسيّة في الجَزَائِر إبَّان الإنتخابات سنة (١٩٨٩) من ثلاث محور، هيَ:

١- حزب السّلطة وهو حزب (جبهة التحرير الوطني)، الّذي حكم الجَزَائِر منذُ الإستقلال بطريقة بوليسية وانفرد بالسلطة ربع قرن من الزَّمن.

٢- قوى الصّحوة الإِسْلَاميّة.

٣- الأحزاب العلمانيّة الّتي شكلت آنذاك.

وكانت الجبهة الإِسْلَاميّة للإنقاذ أقوى التكتلات الإِسْلَاميّة وتزعمها الشَّيْخ (عباسي مدني)، وبرز إلى جانبه الشَّيْخ (علي بلحاج)، أحد دعاة التّيار السلفي، وتكونت الجبهة من خليط من مدارس الصّحوة وقياداتها والتَّنظِيمات الإِسْلَاميّة والدعاة المستقلين، بالإضافة لقواعد عريضة من عوام المُسلِمِين الّذين آمنوا بعموميات مشروع الإِسْلَام السّياسيّ، وأما القوى العلمانيّة الناشئة بعد حرية الأحزاب:

فقد تعددت تلك القوى والأحزاب، بعد أن أطلقت الحريات، ولكن أبرز تلك القوى بحسب ما أثبتته الإنتخابات التّالية كانت:

- أولا: حزب جبهة القوى الإشتراكية: وهو حزب ينتشر في منطقة القبائل ويحمل فكرا غربيا ليبراليا، وقد تزعمه) آيت أحمد)، وقد سير المظاهرات بعد فوز الإنقاذ يبدد بها ويخوف الحكومة والغرب من زحف الأصوليَّة.

- ثانيا: حزب التجمع من أجل الثّقافة والدِّيمقراطيَّة: وهو حزب شديد العداء للإسلاميين ينادي بالحلّ الإستئصالي لهم، وقد وتزعمه (سعيد سعدي).

- ثالثا: الحزب الشُّيُوعِيّ: وتزعمته (لويزا حنون)، تبنت الطرح الديمقراطي.

ومع انصرام الإنتخابات البلدية، تبين أن الجهة الإِسْلَاميّة للإنقاذ، قد سحقت أقوى الأحزاب السّياسيّة العلمانيّة في الجَزَائِر، وهو حزب السّلطة! (حزب جبهة التحرير الوطني)، وأن الأحزاب العلمانيّة حديثة التشكيل لم تحصل إلا عَلى الفتات.

وتولت بذلك جبهة الإنقاذ معظم بلديات الجَزَائِر، وبدأ عناصرها في خدمة النّاس بروح طيبة وإخلاص افتقدتها الجَزَائِر منذُ عهود طويلة، مما رفع في أسهم الجبهة شعبيا وأهلها للنصر التّالي، وهو الإنتخابات التَّشريعية (البرلمانية)، وتمخض الدَّور الأوّل فيها عن فوز الجبهة بأغلبية ساحقة من دورها الأوّل، وبدا أن ذلك سيمكنها خلال الشوط الثّاني من الدَّورة الإكمالية من الأغلبية السَّاحقَة، الّتي تأهلها لتشكيل الحكومة منفردة، والترشح بذلك لرئاسة الدّولة!!

وضربت نواقيس الخطر في مشارق الأرض ومغاربها، وأعلنت الدّول الصّليبيّة الكبرى عن استعدادها للتدخل لقطع الطّريق عَلى الإِسْلَاميّين من الوصول للسلطة، بل صرح (فرانسوا ميتران)، الرَّئيس الفرنسي في حينها، أن فرنسا عَلى استعداد للتدخل العسكريّ للحيلولة دون وصول الإِسْلَاميّين للسلطة، وكان الحلّ الوحيد أمامهم هو إحداث إنقلاب عسكريّ مدعوم من قبل الغرب ولاسيما فرنسا لقطع الطّريق عَلى الإِسْلَاميّين من أن يصلوا لحكم الجَزَائِر.

وحصل الإنقلاب، وجاء العسكر بجنرال سابق هو (محمّد بوضياف) ليتولى رآسة الدّولة، واعتقلت قيادات الجبهة الإِسْلَاميّة للإنقاذ وأودعت السّجون، وقمعت المظاهرات بالعنف، وفتح النّظام العسكريّ الّذي استولى عَلى السّلطة وسحق الدِّيمقراطيَّة بدعم من الغرب المنافق، فتح العديد من السّجون الصحراوية لعشرات آلاف المعتقلين من الإِسْلَاميّين، وكان هذا سبب بداية الإنتفاضة الجهاديّة المعاصرة في الجَزَائِر، وبداية لفصل دموي فيها لم تنته ذيوله إلى الآن، فصل كبد ذلك البلد الحبيب إلى الآن زهاء ربع مليون ضحية من المُسلِمِين الأبرياء، ورحبت فرنسا والغرب بالانقلابيين

الّذين خططوا لهم ودعموهم، لينقضوا معهم عَلى نتائج هذه الكذبة الكبرى الّتي يسمونها (ديمقراطية)،[وقد كتبت في تفاصيل هذه الأحداث كتابا فيه تفصيل عنها بعنوان (شهادتي في أحداث الجِهَاد في الجَزَائِر ١٩٨٩- ١٩٩٦) لمن أراد استزادة في التفاصيل].

ويرأس الجَزَائِر حاليا الرَّئيس (عبد العزيز بوتفليقة)، وقد فاز بتأييد شعبي كاسح في الإنتخابات الرئاسية، معتمدا عَلى مشروع مصالحة وطنيّة تبناه لإنهاء إرهاصات تلك الأحداث، وقد بناه عَلى مشروع قانون (الوئام المدني) الّذي طرحه سلفه والّذي يقضي بالعفو عن المُسلّحين الّذين يسلمون أنفسهم للسلطات.

وتشهد الجَزَائِر الّتي عرفت بروابطها المتينة مع فرنسا، في عهد بوتفليقة، تزايدا في روابطها مع أمريكا، الّتي اعتبرتها من الحلفاء المفضلين لديها في مُكَافحَة الإرهَاب، حيث يعلن بوش رضاه بين الحين والآخر عن سياسات بوتفليقة في تصفية التّيارات الأصوليَّة وحصارها، وما تزال أحداث الجَزَائِر مستمرة وإن كانت حدتها قد خفت بعد القضاء عَلى الجماعات المُسلّحة الّتي انحرف كثير منها عن جادة الصواب بفعل اختراق المخابرات لها ووقعت في استهداف الأبرياء مما أفقدها شعبيتها وأوردها دروب الهزيمة والتشرذم، وأسأل الله أن يقيض لهذا البلد الحبيب أمر رشد يعز فيه أهل طاعته ويذل فيه أهل معصيته، إنه عَلى ذلك قدير.

المغرب:

ظلت مراكش مستقلة عن العُثمَانِيّين وإن قامت بينهما علاقات التّعاون وتبادل المنافع بين حين وآخر، وكذلك بقيت مناهضة لأطماع أسبانيا والبرتغال حتَّى أوائل القرن العِشرين، وبعد احتلال فرنسا الجَزَائِر سنة (١٨٣٠م) وتونس (١٨٨١م) توجهت بأنظارها نحو المغرب الأقصى الّذي كانت تحكمه دولة الأشراف العلويين، وفي نفس الوقت كانت أسبانيا تطمع في احتلال البلاد، وأما فرنسا فقد عقدت مع إنجلترا " الاتفاق الودي" سنة (١٩٠٤م) الّذي أتاح لها موافقة بَرِيطَانيَا عَلى احتلال المغرب الأقصى.

وفي مؤتمر الجَزِيرَة سنة (١٩٠٦م) تقرر إقامة نظام دولي خاص في طنجة، كما تقرر إطلاق يد أسبانيا وفرنسا لبث نفوذها في المغرب، وبينما نجحت أسبانيا في الاستيلاء عَلى منطقة "الريف" في الشمال، وجهت فرنسا حملة عَلى المغرب الأقصى سنة (١٩٠٧م) مقابل إطلاق فرنسا يد إنجلترا للعمل في مصر، فاحتلت مدينتي الدار البيضاء و"وجدة"، ثمّ استولت عَلى مدينة فاس سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م).

وفي سنة (١٩١٢م) أرغمت فرنسا السُّلطَان عبد الحفيظ عَلى توقيع معاهدة الحماية عَلى البلاد، ولما احتجت أسبانيا عَلى ذلك جرت مفاوضات بينها وبين فرنسا، انتهت بتوقيع معاهدة تقسيم المغرب إلى منطقتين منفصلين: إحداهما لفرنسا، والأخرى لأسبانيا، بينما تظل طنجة منطقة دولية.

ثمّ عملت فرنسا عَلى محو شخصية المغرب العربيَّة الإِسْلَاميّة بفضل جهود ممثلها في المغرب "الجنرال ليوتي" المقيم العام الّذي جمع في يده السُّلطَان السّياسيّة والعسكريّة والإدارية والمالية، والّذي سمح للمهاجرين الفرنسيين بالاستيطان في المغرب الأقصى، واندلعت حركت الجِهَاد والمُقاوَمة الوطنيّة عَلى إثر ذلك فقامت ثورة في فاس سنة (١٩١٢م) ما لبثت أن انتشرت في المناطق المجاورة، فقمعتها فرنسا بوحشية وقسوة.

ثمّ قامت ثورة أُخرى من قبل قبائل البربر وسكان الشاوية وضرب الثوار الحصار حول فاس، لكن «ليوتي» استخدم المدفعية في ضرب الثوار وإفشال الحصار.

ثمّ تركزت المُقاوَمة في منطقة الأطلس المتوسط ونجح الثوار في الاستيلاء عَلى مراكش وأغادير سنة (١٩١٢م)، لكن الفرنسيين قمعوا الثَّورة واستولوا عَلى المدينتين وأمنوا المواصلات بين فاس ومكناس والرِّبَاط.

عندئذ اعتصم الثوار بالجبال وحققوا الاستقلال بها حتَّى عام (١٩٣٤م).

أما عن المُقاوَمة الوطنيّة في منطقة الريف فقد قادها عبد الكريم الخطابي سنة (١٩٢١م) وظلت مستقلة حتَّى سنة (١٩٢٦م).

وقد انتصر الثوار في عدّة معارك مثل «أبران» و «إغرين» عَلى الأسبان وتمكنوا من هزيمتهم وقتل قائدهم في معركة «أنوال» الشهيرة الّتي هزم فيها الخطابي جُيُوش خمس دول أوربية من الفرنسيين والأسبان ومن عاونهم، وقتل الآلاف منهم وأسر عشرة آلاف من الجنود فيهم زهاء ١٠٠ جنرال و٥ ماريشالات.

وبويع الخطابي من قبل الثوار ليكون «أمير الريف» فحكم الشّريعة الإِسْلَاميّة وأرسل الشّرطة والقضاة والفقهاء يعلمون النّاس دينهم في قراهم المتناثرة وسط الجبال، وأدركت فرنسا خطر انتصارات الخطابي فتدخلت بمساعدة الأسبان، ونجحت القوَّات الفرنسية بمساعدة البحرية الأسبانية في هزيمة الثوار، وضرب الطيران الإسباني القرى والسّكّان بالغازات السامة!! وهُزم الخطابي ونفي إلى فرنسا، ولكن أعوانه هربوا به في الطّريق، ولجأ إلى مصر حيث ظل فيها هذا الشَّيْخ البطل إلى حين وفاته سنة (١٩٦٣م)، رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة، ومع ذلك استمرت الْمُقاوَمة ضدّ الفرنسيين والأسبان، ففي عام (١٩٣٤م) تشكل أول تنظيم سياسي في المغرب باسم «كتلة العمل الوطني المغربية» من أجل تحرير البلاد، ثمّ تأسس «الحزب الوطني» وازدادت الحركة الوطنيّة اشتعالا بتولي محمّد بن يوسف الحكم وتأييده للثوار ومساعدتهم، كما تأسس «حزب الاستقلال» سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م) واندلعت حركة الْمُقاوَمة في كلّ أرجاء المغرب، وفي سنة (١٩٤٧م) خطب السُّلطَان محمّد بن يوسف في طنجة خطبة حماسية طالب فيها بالحريَّة والسيادة ووحدة البلاد، الأمر الّذي ألهب حماس الثوار الّذين ظلوا يتعاونون مع السُّلطَان حتَّى نال المغرب استقلاله ووحدته سنة (١٩٥٦م).

ثمّ حكم المغرب بعد ذلك الملك الحسن الثّاني بن محمّد الخامس، مدّة طويلة، وكان فرعونا ظالما وديكتاتورا طاغية، فقتل كلّ من ناوأه من كلّ اتجاه ومشرب من الإِسْلَاميّين وحتى الشُّيُوعِيّين وما بينهما من الأفكار، وملأ سجونه الشهيرة المرعبة بالسّجناء الّذين قضى الكثيرون منهم تحت سياط الجلادين وأجهزة التعذيب المستوردة من أوربّا! كما أحاط الملك نفسه بأجهزة أمنيّة كثيرة ومجرمة، وسيَّج ملكه بطبقة كثيفة من علماء السُّلطَان وفقهاء القصر من المغاربة الّذين يركعون ويسجدون له

بدعوى سجود الملائكة لآدم عليه السلام! بل استورد الملك علماء السُّلطَان من أصقاع الدُّنيَا من بلاد العَرَب والعجم، واشتهرت المغرب في عهده بالفقر والبطالة والفساد وانتشار المخدرات والدعارة والمجون والانحلال الاجتماعي في كثير من طبقات النّاس، وكان الملك في طليعة الزناة المشاهير والفاسدين المعروفين حتَّى قيل أن الممثلة الفرنسية الشهيرة (بريجيت باردو) ذكرت خبر لياليها الحمراء معه في مذكراتها! كما حاز الملك (الخنفوس) - كما كانَ يسميه (الشَّيْخ عبد الحميد كشك) رحمه الله - عَلى عدّة جوائز من دور الأزياء العَالِمِيّة كملك للأناقة!! فيما يموت أكثر شعبه من الفاقة والعوز، ويرمي شبابه بأنفسهم في براثن الموت في مراكب الهِجرَة غير الشَّرعيَّة بحثا عن العمل في شواطئ أوربّا! ولكن صَحوَة إسلاميّة متعددة المشارب من الصوفية إلى السّلفيّة إلى الجهاديّة، إلى السّياسيّة وقفت لذلك الفساد بالمرصاد، ولاقت من الملك العنت والبطش والتضييق بحسب جدية مواجهتها له.

ثمّ هلك الملك سنة ٢٠٠٢، ليخلفه الملك الحالي (محمّد السَّادس) نسخة عفنة عن أبيه، حيث دخلت المغرب في فلك أمريكا أيضا كغيرها وصارت أجهزة أمنها كتيبة في الهجمة الأمريكيّة لحرب المُسلِمِين فيما عرف بمُكَافحَة الإرهَاب، أسأل الله له ولأمثاله من فراعنة بلاد المُسلِمِين دعوة سيدنا نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح]

موريتانيا:

تقع جنوب المملكة المغربية الحالية وقد دخلها الإِسْلَام بعد فتح العَرَب بلاد المغرب أواخر القرن الأوّل الهجريّ، وأطلقوا عَلى المنطقة اسم (شنقيط) وكانت هذه المنطقة تتبع الدّول المغربية مثل دولة الموحدين ودولة الحفصيين ودولة السعديين والدّولة العلوية.

تعرضت المنطقة لغارات البرتغاليين الّذين أسسوا بها مراكز لتجارة الصمغ والذهب والرقيق، ثمّ تلاهم الأسبان بعد قرنين ثمّ تلاهم الفرنسيون فالهولنديون.

وفي سنة (١٩٠١م) أرسلت فرنسا حملة لاحتلال البلاد أقنع قائدها الأمراء المحليين بطلب الحماية الفرنسية، ولما احتلت فرنسا مراكش – المملكة المغربية حاليا – خضعت البلاد جميعها للاحتلال الفرنسي الّذي أطلق عليها اسم (موريتانيا).

واتبع الفرنسيون سياسة التفرقة بين المُسلِمِين البيض والزنوج وحاربوا اللغة العربيَّة وحاولوا نشر الثّقافة الفرنسية، لكن حركة الجِهَاد المُقاوَمة للاحتلال تفجرت عام (١٩٠٨م)، واستمرت حتَّى عام (١٩٣٤م) مطالبة بالاستقلال.

ثمّ تشكل حزبان أساسيان تصديا للاستعمار الفرنسي هما، (حزب الاتحاد الوطني) و(حزب منظّمة الشَّبَاب) ثمّ اندمجا في حزب واحد سنة (١٩٤٨م) هو (حزب التفاهم الموريتاني) ثمّ انشق عَلى نفسه، وأخيرا ثمّ الاتحاد سنة (١٩٥٨م) تحت اسم (حزب التجمع الموريتاني) الّذي تبنى قضية التحرير والاستقلال.

وفي عهد (ديجول) أصدر لهم دستورا قبلته موريتانيا مرغمة وأصبحت بمقتضاه عضوا في الجامعة الفرنسية، وفي سنة (١٩٥٩م) فاز حزب التجمع الموريتاني في الانتخابات وشكل رئيسه المختار ولد داده الوزارة وأصبح الحزب الحاكم في البلاد.

ثمّ نشأ حزب جديد يدعو إلى الاستقلال التام والانضمام إلى المغرب هو (حزب النهضة)، وفي سنة (١٩٦٠م) أحرزت موريتانيا استقلالها وأصبحت عضوا في الأمم المتحدة كما قبلت عضوا في الجامعة العربيَّة سنة (١٩٧٣م).

وفي سنة (١٩٧٨م)، قام انقلاب في موريتانيا بزعامة محمّد السالك ولكنه لم يستمر في الحكم طويلا فقد أطاح انقلاب آخر به، ثمّ لحقته عدّة انقلابات أدت إلى عدم استقرار أحوال البلاد خُصُوصَاً بعد تعرضها لمشكلات اقتصاديَّة وسياسيّة مع جارتها (السنغال).

وآل الأمر أخيرا عبر انقلاب عسكريّ منذُ نحو عشرين سنة إلى الرَّئيس الحالي (معاوية ولد سيدي أحمد الطايع)، فحكم البلاد حكما عسكريّاً استخباراتيا، وأوصلها لقعر الأزَمَات والفقر والفساد، ولكن القفزة الجَدِيدة الّتي أحدثها هذا الطَّاغوت هيَ الانفتاح عَلى أمريكا وإسرائيل، حتَّى

وصل الأمر به لإقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع تل أبيب، وافتتح سفارة للعدو الصّهيونيّ في نواكشوط العاصمة!

وقد قامت عليه عدّة انتفاضات شعبيَّة وانقلابات عسكريّة قمعها كلها بالحديد والنار، ومازال يجثم عَلى صدور المُسلِمِين في موريتانيا قبحه الله وأهلكه وأمثاله من فراعنة بلاد المُسلِمِين.

اريتريا:

ليس تحت يدي الآن ما يكفيني من المعلومات لكتابة ملخص واف عن هذا الإقليم المسلم، ولكن الّذي أذكره من معلوماتي العامّة، أنها كانت تخضع للاحتلال الإثيوبي (الحبشة)، منذُ زمن بعيد، وقد ذاق المُسلِمُون في عهد إمبراطورها (هيلا سي لاسي) صنوف العذاب، وقامت فيها منذُ عشرات السنين ثورات جهاديّة للتخلص من حكم الأحباش وتحصيل الاستقلال عنهم، ثمّ حصل انقلاب شيوعي في إثيوبيا، ولكن اريتريا بقيت تعاني نفس البلاء تحت حكمهم واستمرت الثورات الجهاديّة المُسلّحة.

ثمّ تسللت المنظمات التنصيرية إلى إثيوبيا وأنشأت أجهزة الإستخبارات المختلفة كيانات ثورية وسياسيّة تقوم عَلى عقائد علمانية ويسارية ونصرانية، تطالب أيضا باستقلال إثيوبيا، وتقاتل الأحباش، وقد لاقى الثوار الإرتريون مختلف أشكال الدّعم من البلاد والأنظمة العربيَّة، إلى أن تحقق استقلالها، ولكن الحكم آل فيها إلى المدعو (أسياسي أفورقي) فقلب ظهر المجن للعرب وتنكر لعروبة إريتريا بل ولإسلاميتها، واتبع سياسة انفتاح عَلى الغرب وعلى إسرائيل الّتي كثفت حضورها في البحر الأحمر مقابل سواحل الحرم المكي، وتحكمه بمضيق باب المندب! وتابع المُجَاهدون المُسلِمُون قتالهم ولكن ضدّ حكومة بلادهم هذه المرة، وفي إريتريا اليَوْم عدد من المنظمات الإِسْلَاميّة المُسلّحة العاملة في ظروف صعبة من العزلة والعوز، حتَّى صارت قضية شبه منسية من العَرَب والمُسلِمين فيما تعيث المنظمات التنصيرية والموساد الإسرائيلي فيها فسادا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الصّومال وجيبوتي:

وتحتل موقعا استراتيجيا يعرف بالقرن الإفريقي في مقابلة سواحل اليمن وجَزِيرَة العَرَب، وقد هاجرت إليها منذُ أزمنة سحيقة قبائل العَرَب واختلطت بالأفارقة، وكانت عَلى علاقة تجاريَّة بالعرب منذُ عصور ما قبل الإِسْلَام، وبعد ظهور الإِسْلَام، واستمرت هذه العلاقات، ثمّ وهاجرت قبائل عربيَّة في القرن الرَّابع الهجريّ إلى شرقي إفريقية وأسست مدنا تجاريَّة مثل مقديشو وبراوة ونقلت معها الإِسْلَام والحضارة العربيَّة، واختلط العَرَب بسكان السواحل من قبائل البانتو فامتزجت الدِّماء وتكون الشعب السواحلي الّذي يتكلم اللغة الساحلية، ثمّ خضعت المنطقة للاستعمار البرتغالي بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصّالح سنة (١٤٩٨م)، ولما استقر العُثمَانِيّون في عدن أغاروا عَلى البرتغاليين بمساعدة العناصر العربيَّة، ففي سنة (١٥٨٦م) تمكنوا من إلحاق مقديشو بالدّولة العُثمَانِيّة.

ولما قامت (دولة اليعاربة) في عُمان أرسلت أسطولا بحريا إلى ساحل إفريقية الشرقي سنة (١٦٩٨م) تمكن من بسط سيادة العمانيين عَلى البلاد باستثناء مُستَعمرة موزنبيق.

وفي عهد دولة بوسعيد العمانية سقطت (ملبسة) في يد السُّلطَان سعيد بن سلطان سنة (١٨٣٧م)، بل إنه نقل عاصمته من مسقط إلى زنجبار.

ونظرا لقيام الصِّرَاع بين أفراد أسرة البوسعيديين تدخلت بَرِيطَانيَا في شؤون الصّومال، كما تدخلت فرنسا، وبريطانيا وإثيوبيا وكينيا لدعم نفوذهم في البلاد.

ثمّ تمكنت فرنسا من وضع يدها عَلى منطقة قريبة من مضيق باب المندب عرفت بالصّومال الفرنسي، وكذلك إنجلترا عَلى منطقة أُخرى عرفت بالصّومال البريطاني وإيطاليا عَلى ثالثة عرفت بـالصّومال الإيطالي.

ثمّ اندلعت الحركة الوطنيّة الصّومالية أواخر القرن التّاسع عشر وأرغمت بَرِيطَانيَا عَلى إخلاء المناطق الداخليَّة من الصّومال البريطاني.

ثمّ تعاظمت حركة المُقاوَمة ضدّ الفرنسيين والبريطانيين والإيطاليين مطالبة باستقلال الصّومال وتحقيق وحدته.

وقد تحقق تحرير الصّومال الإيطالي سنة (١٩٦٠م) بعد صدور قرار هيئة الأمم المتحدة سنة (١٩٥٩م) كما تحقق تحرير الصّومال البريطاني في نفس العام ثمّ اتحد الإقليمان في جمهوريّة واحدة عرفت باسم (جمهوريّة الصّومال) سنة (١٩٦٠م) أما الصّومال الفرنسي فلم يحرز الاستقلال إلا في عام (١٩٧٧م)، وتسمى باسم (جهورية جيبوتي).

والتحقت الدّولتان بالجامعة العربيَّة.

قد حكم الصّومال لفترة طويلة طاغوت عنيد هو (محمّد سياد بري)، ولكنه لما هلك أواخر الثَّمانينيَّات، تفتت الصّومال في صِرَاع قبلي نظرا لتجذر الصِّرَاع القبلي فيها وتعقده وتشابكه، مما أتاح المجال مطلع التِّسعينيَّات للتدخل الأمريكيّ، فرست البوارج الأمريكيّة عَلى شواطئ الصّومال، ولكنها سرعان ما غاصت في رمالها وأوحالها، وتصدت لها القبائل والمُجَاهدون، وبدأت نذر فيتنام صومالية تلوح أمام الأمريكان، ففروا عَلى عجل لا يلوون عَلى شيء ومل زال الصّومال متفتتا في حالة استقرار حرج يندلع فيه القِتَال بين الفينة والأخرى.

ثانياً: أحوال بعض دول العالم الإسلاَميّ:

تركيا:

حكم مصطفى كمال أتاتورك لتركيا (١٩٢٤- ١٩٣٨):

يكاد المتتابع لتاريخ مصطفى كمال، يجزم أن هذه الرجل حكم تركيا وحده حكما مطلقا لا ينازعه فيه أحد، حكما دكتاتوريا يقوم عَلى السحق والإبادة والدِّماء والأشلاء.

فقد أعلن الجمهوريّة بعد مؤامرة حاكها مع أصحابه وكان يرى وجوب اقتلاع سيطرة الدّين من تركيا، ثمّ ألغى الخِلافَة وأقر قانونا يقضي اعتبار كلّ معارضة للجمهوريّة وكل ميل إلى السُّلطَان المخلوع خيانة يعاقب عليها بالموت.

وفي (٣) مارس سنة (١٩٢٤م) تقدم بمشروع إلغاء الخِلافَة وطرد الخَليفَة، وفصل الدّين عن الدّولة وإلغاء المحاكم الدّينيّة العتيقة وقوانينها ليحل محلها محاكم وقوانين عصرية، وإلغاء المدارس الدّينيّة ليحل مكانها مدارس حكومية علمانية.

وفي اليَوْم الثّاني أصدر أمرا بطرد الخَليفَة وجميع الأمراء والأميرات من تركيا ورحِّلوا خارج البلاد.

بعد أن تخلص من خصومه واصل تدميره للإسلام والبلاد، ففرض القبعة – الّتي كانت رمز الكفر في نظر الأتراك – فعارضها الأتراك، فنصب لهم المشانق في ميادين المدن.

ثمّ استورد القوانين الوضعِيَّة الأوروبية، فاستدعى الخبراء ليضعوا القوانين الجنائية والمدنيّة والتجاريَّة المأخوذة من القوانين الإيطالية والسويسرية والألمانية.

ثمّ ألغى الحروف العربيَّة الّتي يكتب بها الأتراك والّتي كتب بها التراث الإِسْلَاميّ كله من فقه وحديث وتفسير وتاريخ، وأرغمهم عَلى الكتابة بالأحرف اللاتينية حتَّى يفصلهم نهَائِيًّا عن دينهم وتراثهم.وحددوا يوما ليعاقب بعده كلّ من لم يتقن الحروف اللاتينية من حرمان وظيفة، وتجريد جنسية وطرد من البلاد وسجن.

ثمّ منع تعدد الزوجات، وقرر المساواة بين الرّجال والنِّسَاء في جميع الحقوق والواجبات والمواريث، وأنشأ مدارس الفنون للشباب والشابات، ومدارس لتعليم الرقص الشرقي والغربيّ، ومنع الحجاب وأخرج المرأة من بيتها وأدخلها في مناصب الدّولة، وأنشأ المسارح المختلطة، وشجع الحفلات الراقصة.

حول المسجدين العظيمين – أيا صوفيا، ومسجد الفاتح – إلى متحفين، ونصب تماثيله في كلّ مكان.

ألزم النّاس الأذان باللغة التركية، وألزمهم تلاوة القرآن الكريم باللغة التركية لا بالعربيَّة، وسمع مرّة أذان الفجر من مسجد مجاور فأمر بهدم المئذنة.

أدخل التقويم الجريجوري الغربيّ محل التقويم الهجريّ، وألغى عيد الفطر والأضحى، وجعل يوم الأحد العطلة الأسبوعية بدل الجمعة، منع الحجّ، ومن الحجاب.

وخلاصة القول لقد كانَ يحكم وكأنه ليس في تركيا أحد.

كانَ يقول: أنا تركيا وتركيا هيَ أنا، أنا رئتها الّتي تتنفس بها، فكل محاولة لتدميري هيَ محاولة لتدمير تركيا.

وهكذا استمر يدمر تركيا ويمسح عن وجهها هذا الدّين – الّذي رفعها – لتحكم خمسة قرون متتالية أراض لا تغيب عنها الشّمس، وواصل تدميره لكل الأعمدة الّتي أقيم عليها صرح هذه الدّولة المسلمة الشّامخ إلى أن أصبحت تركيا في ذيل قافلة الرقيق في كلّ مناحي الحياة.

وقد قامت ضدّ أتاتورك عدّة ثورات أهمها ثورة الصوفية النقشبندية سنة ١٩٢٤م، ثمّ سنة ١٩٣٠م ولكنه قمعهم بقسوة، كما قاومه الصوفيون من الطَّريقة التيجانية، وحركة سعيد النور سي بالطرق السّلميّة والدّعوة، فقمعهم أيضا، ثمّ تفرد في الحكم.

ثمّ أصيب أتاتورك بمرض الكبد بسبب الخمر وضعفت ذاكرته وأصيب بالأمراض الجنسية المختلفة. وفي أثناء مرض الموت استدعى أتاتورك السفير البريطاني (لورين) ليوصي له برئاسة الجمهوريّة التركية كما سبق!!!

ويحدث الأتراك عن العذاب الّذي كانَ يعاني منه أثناء مرضه العجب، وكان يصيح صياحا يخترق شرفات القصر الّذي يقيم فيه (دولة باغجة) في القُسطَنْطينيَّة.

وأصبح جلدا عَلى عظم، وسقطت أسنانه، وأوصى أن لا يصلى عليه صلاة الجنازة، وفي نوفمبر سنة (١٩٣٨م) رحل أتاتورك من الدُّنيَا ملعونا في السّماء والأرض.

بعد أن دمر تركيا الإِسْلَام، ومزق الأسرة، وحطم الأخلاق، وداس القيم، وانتهك الشعائر وحول المساجد إلى مخازن للحبوب.

يقول عرفان أوركا: (إن أتاتورك قد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجه إلى الدّين وكان يعتقد من صغره أن لا حاجة إلى الله، وكان يقول: إن قوة العقل والإِرادَة تتغلبان عَلى قوة الإله، وكان في آخر عهده يرفع قبضته ويشير إلى السّماء ساخرا مهددا)[1].

تركيا بعد أتاتورك (١٩٣٨- ٢٠٠٤م)

١. مات أتاتورك بعد أن خلف تركيا فقرا بلقعا، وكانت أعماله محط أنظار الغرب، فعض عَلى إنجازاته التدميرية بالنواجذ وجيء بنائبه عصمت إينونو ليصبح رئيسا للجمهوريّة، فاعترف بإسرائيل سنة (١٩٤٨م)، وبدأت أمريكا بزرع القواعد العسكريّة فيها.

٢. ثمّ أراد الغرب أن يسبر غور التَّجربة الكمالية في الشعب التركي، فأجبروا عصمت إينونو عَلى إنشاء الأحزاب السّياسيّة، فاختار إينونو (جلال بايار) وكلفه بتشكيل الحزب المعارض والحزب الديمقراطي، وكان يساعد جلال بيار عدنان مندريس فأصبح عدنان قطب الرحى في الحزب.

٣. ثمّ دخلت تركيا حلف شمال الأطلسي سنة ١٩٥٠وانتشرت فيها القواعد الأمريكيّة، وصارت تحت النفوذ الأمريكيّ واليَهُوْدي

(١) عن كتاب الذخائر (ص٧٤٠-٧٤٤).

٤. ويشاء الله أن تحصل في هذه الفترة حادثة عجيبة لعدنان مندريس فبينما كانَ ذات مرّة يركب طائرة توقف أحد محركاتها وأعلن الربان حالة الخطر، فعاهد مندريس ربه لئن أنجيتني لأعيدن الإِسْلَام إلى تركيا، واحترقت الطائرة وكان الشخص الوحيد الّذي نجا منها هو مندريس.

٥. دخل الحزب الديمقراطي سنة (١٩٥٠م) الإنتخابات ببرنامج عجيب توقعت له كلّ الدراسات الأمريكيّة الفشل المطلق.

كانَ البرنامج لا يتضمن أكثر من عودة الأذان باللغة العربيَّة، والسماح للأتراك بالحج، وإعادة إنشاء وتدريس الدّين بالمدارس، وإلغاء تدخل الدّولة في لباس المرأة.

وقد بنى دعايته الانتخابية عَلى أساس العودة التدريجية إلى الإِسْلَام كمصدر أساسي لقوة الشعب التركي المتدين.

كانت النَّتِيجَة مذهلة، سقط حزب أتاتورك إلى اثنين وثلاثين نائبا، وفاز الحزب الديمقراطي بثلاثمائة وثمانية عشر مقعدا، وكانت دهشة اليَهُوْدية العَالِمَيّة الماسونية عظيمة حين اكتسح مندريس خليفة أتاتورك، ويومها صاح إينونو قائلا: لقد انتصر عدنان مندريس بدعايته الدّينيّة.

وتسلم عدنان مندريس مقاليد الحكم رئيسا للوزراء، وجلال بايار رئيسا للجمهوريّة، وشرع لتوه ينفذ وعوده الّتي بذلها للشعب أثناء عمليَّة الإنتخابات.

واستجاب مندريس لمطالب الشعب فعقد أول جلسة بمجلس الوزراء في غرة رمضان، وقدم للشعب هدية الشهر الكريم: (الأذان بالعربيَّة وحرية اللبس وحرية التدريس الدّين وبدأ بتعمير المساجد).

وجاءت انتخابات عام (١٩٥٤م) وهبط نواب حزب أتاتورك إلى (٢٤) نائبا، وسمح بتعليم اللغة العربيَّة، وقراءة القرآن وتدريسه في جميع المدارس حتَّى الثانوية وإنشاء عشرة آلاف مسجد، وأنشأ اثنين وعشرين معهدا في الأناضول لتخريج الوعاظ والخطباء وأساتذة الدّين، وسمح بإصدار

مجلات وكتب تدعو إلى التمسك بالإِسْلَام والسير عَلى هديه، وأخلى المساجد الّتي كانت الحكومة السَّابقة تستعملها مخازن للحبوب وأعادها أماكن للعبادة.

وتقارب مندريس مع العَرَب ضدّ إسرائيل، وفرض الرقابة عَلى الأدوية والبضائع الّتي تصنع في إسرائيل وطرد السفير الإسرائيلي سنة (١٩٥٦م)، وفتح (٢٥) ألف مدرسة لتحفيظ القرآن.

تحركت اليَهُوْدية العَالَمِيّة ضدّ مندريس، وحركت أمريكا والدّول الغربيّة الماسونية في الجيش، فقام الجنرال الماسوني (جمال جو رسل) سنة (١٩٦٠م) بانقلاب وشنق عدنان مندريس وفطين زورلو، وحسن بلكثاني.

وكتب الصحفي اليَهُوْدي سامي كوهين: لقد كانَ السبب المباشر الّذي قاد مندريس إلى حبل المشنقة سياسته القاضية بالتقارب مع العالم الإِسْلَاميّ والجفاء والفتور التدريجي في علاقتنا مع إسرائيل، ثمّ ضرب حزب العدالة.

١- في سنة (١٩٦٥م) أجريت انتخابات مرّة أُخرى ربح فيها حزب العدالة بأغلبية ساحقة، وكان رئيسه سليمان ديميريل، وقال إينونو: أنا لم يهزمني ديميريل، بل هزمتني جماعة النور الإِسْلَاميّة الصوفية، أتباع الشَّيْخ سعيد نورسي.

وحصل حزب العدالة عَلى (٢٦٣) مقعدا من (٤٥٠) مقعدا وضاعف ديميريل مدارس الأئمة إلى (٧٢) ومدارس تحفيظ القرآن إلى اثنتي عشر ألف مدرسة وتقرب للعرب وفترت علاقاته مع إسرائيل، واشترك بالمظاهرة الإِسْلَاميّة ضدّ إسرائيل في الرِّبَاط فتحركت أمريكا ومن ورائها اليَهُوْدية العَالَمِيّة وحركت الجيش وجاء الإنقلاب العسكريّ الّذي نحي فيه ديميريل عن الحكم، ولكن لم يعدم بسبب أنه ماسوني.

٢- و تزداد الديون عَلى تركيا يوما بعد يوم، بالأضعاف إلى أن نسبة التضخم بلغت (٤٢٪ - ٦٠٪) سنة (١٩٧٠م والبطالة (٢٠٪) والديون كانت سنة (١٩٧٠م) (٢١) مليار دولار، وفي سنة (١٩٧٩م) أصبحت (١٧) مليار).

واستسلمت الحكومة للبنك الدّولي وخفضت قيمة الليرة التركية إلى (٨) مرات وفي سنة (١٩٨٠م) ارتفعت نسبة الربا إلى (٣٠٪) أعلى نسبه في العالم.

٣- ظهر حزب السَّلامة الوطني الإِسْلَاميّ سنة (١٩٧٢م) الّذي كانَ يقوده الدكتور (نجم الدّين أربكان) الحاصل عَلى دكتوراه من جامعة ألمانية، والتف كثير من الشَّبَاب التركي حول هذا الحزب، ووقف الحزب ضدّ الغرب الصّليبيّ بزعامة أمريكا، فطالب بالخروج من حلف الأطلسي وتحرير تركيا من القواعد الأمريكيّة، ووقف ضدّ إسرائيل، واليَهُوْد وعارض انضمام تركيا إلى السوق الأوروبية المشتركة، وطالب بإرسال كتائب من الجيش التركي لمساعدة المُجَاهدين الأفغان، كما أرسلت الحكومة جيشا يحارب مع أمريكا في كوريا.

٤- وفي سنة (١٩٧٢م) دخل المَعْرَكة الإنتخابية وفاز باثنين وأربعين مقعدا، وشارك في الحكم مع حزب الشعب الّذي يرأسه أجاويد، وشرط أربكان أن يكون هو النائب لرئيس الوزراء وأن يكون له ثمانية من الوزراء في الحكومة التركية.

٥- وفي هذه السنة غزت تركيا قبرص لحماية المُسلِمِين الأتراك من فتك القبارصة اليونانيين النّصَارى، ولعب أربكان دورا مهما في قرار التدخل.

٦- وبدأ الحزب يحاول إعادة تربية الأتراك عَلى الإِسْلَام، ففتح أبوب الحجّ للشعب فبلغ عدد الحجاج (١٥٠) ألف سنويا، وهذا رقم خيالي بالنسبة لما سبق، رغم أن عدد السّكّان كانَ زهاء خمسين مليون نسمة! وافتتح الحزب (٣٠٠٠) مركز للتعليم في القرى و(٣٠٠٠) مدرسة لإعداد الأئمة والخطباء، ووضع خُطّة لإنشاء جامعة إسلاميّة، والتحق بمدارس الأئمة والخطباء ما يقرب من مائتي ألف طالب، وطالب الحزب بجعل العطلة الرَّسميَّة يوم الجمعة بدل الأحد، وإجراء عقود الزواج حسب الشّريعة وبتعليم القرآن واللغة العربيَّة في المدارس، وسيطر الحزب عَلى الإتحاد العام لطلبة تركيا.

وفي (٧/ ٩/ ١٩٨٠م) عمل الحزب مظاهرة تحت شعار يوم إنقاذ القُدس، وحرق العلم الإسرائيلي وطالب بإقامة دولة إسلاميّة وحكم الشّريعة الإِسْلَاميّة، وهنا حركت أمريكا الجيش التركي وأقام كنعان إيفرين بالإنقلاب الأمريكيّ في (١٢/ ٩/ ١٩٨٠).

كما صرح بعض المسؤولين الأمريكيّين، أن هناك مخاوف متزايدة من حكم إسلامي وبصورة تتعارض مع خط الزعيم التركي (أتاتورك) الّذي أرسى دعائم الدّولة العلمانيّة في تركيا، فالانقلاب التركي أنقذ تركيا من أن تتحول من دولة علمانية إلى دولة تحكمها التقاليد الدّينيّة الإِسْلَاميّة، ومدح واينبرغر إفرين وزمرته وأعطوا تركيا سبعمائة وثلاثة مليون دولار.

واعتقل إفرين أربكان ورجال حزب السَّلامة وافتتح عهده بوضع إكليل من الزهور عَلى قبر أتاتورك، واعتبر إيفرين وحكومته عام (١٩٨١) هو عام أتاتورك.

منع إفرين الملتحين من البقاء في الجامعات خاصّة أكاديمية (سكا ريا) ومنع الحجاب.

٧- في (٢٤) إبريل سنة (١٩٨١م) مثل نجم الدّين أربكان زعيم حزب السَّلامة الوطني هو وثلاثون من أعضاء الحزب أمام محكمة عرفية عسكريّة، وقد قرأ المدعي العام العسكريّ لائحة الإتهام، أما الجرائم الّتي جاءت في لائحة الإتهام فهي:

أ. العمل عَلى استبدال مبادئ الدّولة القانُونيّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسّياسيّة بمبادئ تقوم عَلى أساس الإِسْلَام.

ب. قيام عدد من المنظمات الشَّبَابية والطلابية والعمالية والمهنية والمرخصة والمرتبطة سرا بالحزب والَّتي تعمل عَلى تطبيق الشّريعة الإِسْلَاميّة في تركيا.

ج. اجتماعات الحزب وهتافات تكشف أهدافه، ومن هذه الهتافات (محمّد قائدنا)، (سنحطم الأصنام ونقيم دولة الإِسْلَاميّة)، ومن لافتاته ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة]

د. ترديدهم لذكر الله في اجتماعاتهم وتذكيرهم الأُمّة بأنها حاربت خلال تاريخها من أجل الإِسْلَام لا من أجل أشخاص أو أبطال.

هـ. إصرار أربكان عَلى افتتاح مدارس تعليم القرآن في كلّ قرية وإصراره عَلى فتح مسجد أيا صوفيا.

و. هاجم معاهدة لوزان وتغيير الحروف العربيَّة واستبدال القوانين، وختم حديثه بأن تركيا اليَوْم جمهوريّة ملحدة.

ز. طالب الحزب بأن تكون الجمعة يوم العطلة الرَّسميَّة وأن يكون الزواج شرعيا، وقد طلبت النيابة العامّة بسجن أربكان وإخوانه (١٤- ٣٦) عاماً.

تركيا بعد حكم الإنقلاب العسكريّ:

في مطلع التسعينات قبل العسكر بإعادة الدِّيمقراطيَّة وانتخب تورغوت أوزال لرئاسة الوزراء، ثمّ نجح في انتخابات رئاسة الجمهوريّة وحقق إصلاحات اقتصاديَّة مشهودة.

وفي ١٩٩٦ خاض حزب السَّلامة الإنتخابات تحت اسم (حزب الرفاه)، وحاز عَلى أعلى الأصوات إذ حصل لوحده نسبة ٢٢٪ من الأصوات، فقامت الدُّنيَا، واستلم أربكان رئاسة الوزراء، وتعرض لضغوط دولية اضطر تحتها لتوقيع عدد من المعاهدات مع إسرائيل، ولم يرض العسكر والعلمانيون عنه مع ذلك، وحكمت عليه المحكمة الدستورية بحل الحزب ومنعه وكبار وعاونيه من مزاولة السّياسة وحل حزب الرفاه.

وفي سنة ٢٠٠٣ عاد بعض الإِسْلَاميّين من بقايا الرفاه وغيرهم لتشكيل حزب يتبنى خطا علمانيا إسلاميا معتدلا جدا جدا في نظر الغرب بقيادة، (رجب طيب أردوغان) الّذي كانَ من تلاميذ أربكان وكان واليا لبلدية استانبول، وكان رجلا ذائع الصيت مشتهرا بنزاهته وخدماته، وفاز الحزب الّذي حمل اسم (حزب العدالة والتنمية) بـ(٣٦٪) من الأصوات بالانتخابات!! فرضخ العلمانيون للنتيجة واعترفت أوربّا بنزاهتها، وشكلوا حكومة ما تزال تتعرض للضغط والابتزاز من أمريكا والغرب، وتقوم بتنازلات شرعيّة ومبدئية كثيرة، ولكن يشهد لها أنها استعصت عَلى الأمريكان ولم تقدم كلّ الخدمات العسكريّة المطلوبة منها، ولم تسمح للأمريكان بالمرور برا إلى شمال العراق من تركيا، وكان

موقفا مشرفا (نسبيا) قياسا بما فعله خونة الحكَّام العَرَب أثناء وبعد احتلال العراق، وتشهد تركيا تجاذبا اجتماعيا وسياسيّاً كبيرا بين الإِسْلَاميّة المتأصلة والعلمانيّة المتفشية، ويجب أن نذكر هنا أن الحكومة الحالية تقدم لأمريكا خدمات كبيرة في مجالات مُكَافحَة الإِرهَاب ومطاردة الجهاديّين من أتراك وغيرهم مما جعل تركيا هدفا لعمليَّات بعض التَّنظِيمات الجهاديّة.

باكستان:

تقع باكستان في شبه القارة الهندية ويبلغ تعداد سكانها اليَوْم زهاء ١٤٠ مليون نسمة، وقد دخل الإِسْلَام في الهند إبَّان عصر الخِلافَة الأموية، واستطاع العبّاسيون استرداد النفوذ الإِسْلَاميّ بالهند خلال العصر العبّاسي الأوّل بعد ثورة الهندوس ضدّ المُسلِمِين، كما شهدت الهند قيام دول إسلاميّة متتالية مثل الدّولة الغزنوية الّتي استطاع مؤسسها محمود الغزنوي أن يتوسع في شبه القارة الهندية عَلى حساب الهندوس، وبذل جهودا جبارة تابعتها بعد ذلك الدّولة الغورية من أجل نشر الإِسْلَام، كما تلتها دول أُخرى مثل دولة المغول الّتي أحرزت شهرة كبيرة في الفن والعمارة الإِسْلَاميّة والتجارة، وعم الإِسْلَام وحكم ثلثي القارة الهندية.

وفي أواخر عهد الدّولة المغولية تعرضت البلاد للغزو الأجنبيّ من قبل البرتغاليين والفرنسيين والإنجليز.

وأسس الإنجليز شركة الهند الشرقية البريطانيَّة منذُ مطلع القرن السَّادس عشر الميلادي سنة (١٠٠٩هـ)، فناهضت النفوذ البرتغالي في الهند وفتحت المجال أمام احتلال الإنجليز لبعض أقاليم الهند.

اتبع الإنجليز سياسة إثارة الهندوس ضدّ المُسلِمِين، وتمثل رد الفعل في ظهور حركات إسلاميّة تناهض بَرِيطَانيَا، لكن الإنجليز قمعوا الثوار بوحشية وقسوة، وأعلنوا أن (الهند مُستَعمرة بَرِيطَانيَة) عَلى إثر ذلك اندلعت حركات الجِهَاد الإِسْلَاميّة والمُقاوَمة الوطنيّة، ثمّ بدأ التّيار الإِسْلَاميّ ينشط عَلى يد بعض العُلَماء والمفكرين من أمثال محمّد إقبال ومن السّياسيّين مثل محمّد عَلى جناح اللذين وطالبوا

بتحرير المُسلِمِين في الهند، وفي سنة (١٣٢٤هـ) تأسس (حزب الرابطة الإِسْلَاميّة) الّذي أنشأ جامعة إسلاميّة في (دكا).

وخلال الحَرب العَالِميّة الأولى قام (غاندي) بمناهضة الاحتلال البريطاني سلميا، كما قام محمّد علي جناح بدعوة إسلاميّة تدعو إلى العنف من أجل تحرير البلاد بدلا من سياسة غاندي المسالمة.

وفي سنة (١٣٤٧هـ) قرر زعماء المُسلِمِين بقيادة محمّد علي جناح المطالبة بنظام اتحادي يمنح المُسلِمِين في الهند حكما ذاتيا، فرفضه حزب المؤتمر الهندي بزعامة غاندي.

وفي سنة (١٣٤٩هـ) طالبت (الرابطة إسلاميّة) بقيادة محمّد إقبال بتأسيس دولة إسلاميّة في الهند برئاسة محمّد علي جناح.

وفي سنة (١٣٥٦هـ) أعلن محمّد علي جناح تمسكه بتأسيس دولة إسلاميّة منفصلة في الهند أطلق عليها لأول مرّة اسم (باكستان).

تلت ذلك فترة صراعات دموية بين المُسلِمِين والهندوس، صمد المُسلِمُون خلالها وظلوا متمسكين بمطالبهم حتَّى وافقت بَرِيطَانيَا عَلى استقلال الهند سنة (١٣٦٦هـ)(١٩٤٧) واعترفت بدولة باكستان في نفس العام.

ويعتقد أن جناح كانَ عميلا لبريطانيا، وهو من أصل إسماعيلي باطني، وما لبثت زوجته وأسرته أن تنصرت وقد أقام الباكستان عَلى أصول إنكليزية دستوريا وسياسيّاً.

انضمت باكستان إلى هيئة الأمم المتحدة في منتصف شوال سنة (١٣٦٦هـ) وكان محمّد علي جناح أول رئيس لها، وبعد وفاته سنة (١٣٦٧هـ) خلفه (الخوجا) نظام الدّين الّذي أعلن تطبيق الشّريعة الإِسْلَاميّة، ولكن ذلك لم يطبق.

وفي سنة (١٣٧٦هـ) وضع أول دستور لباكستان عَلى أسس التَّشريعات الإنكليزية المتناقضة جملة وتفصيلا مع الشّريعة الإِسْلَاميّة، وبمقتضاه أصبحت (جمهوريّة دستورية)، وكانت عاصمتها مدينة (كراتشي)، وتولى (إسكندر ميرزا) رئاسة الجمهوريّة ثمّ تنازل عنها للقائد العسكريّ (محمّد أيوب خان).

وفي سنة (١٣٨٥هـ) وقعت الحَرب بين الهند وباكستان حول إقليم كشمير ذي الغالبيّة المسلمة، وهزمت الأخيرة فتنازل أيوب خان عن رئاسة الجمهوريّة لقائد الجيش (الجنرال يحي خان) سنة (١٣٨٩هـ).

وفي سنة (١٣٩٠هـ ١٩٧١م) أجريت الانتخابات وفاز فيها (حزب عوامي) برئاسة (مجيب الرَّحمٰن) الّذي عارض (حزب الشعب) بقيادة (ذو الفقار علي بوتو) وعبر هذا الصِّرَاع عن صِرَاع أعنف بين (باكستان الشرقية) و(باكستان الغربيّة) وفي سنة (١٣٩١هـ ١٩٧٢) أعلنت باكستان الشرقية استقلالها فقامت الحَرب الأهلية الّتي انتهت بإعلان رئيس حزب الشعب ذو الفقار علي بوتو رئيسا لجمهوريّة باكستان الغربيّة، بعد انفصال باكستان الشرقية الّتي تكونت بها دولة (بنغلاديش).

وفي سنة (١٣٩٧هـ) قام انقلاب عسكريّ بقيادة (الجنرال ضياء الحقّ) عَلى حكم ذو الفقار علي بوتو الّذي أعدم فيما بعد.

وعمل ضياء الحقّ عَلى تحكيم الشّريعة تدريجيا، وقدم خدمات كبيرة للمُجَاهدين الأفغان، وخضعت باكستان في عهده للنفوذ الأمريكيّ، ولكن المطالب الأمريكيّة وتدخلها في شؤون الباكستان والأفغان كانت كبيرة، ولم ينفذها ضياء الحقّ كليا، فقد كانَ الرجل تحت تأثير قناعاته القوميّة وعاطفته الإِسْلَاميّة، فاغتالته أمريكا وتولت أسرة بوتو (ابنته بنظير بوتو، وابنه مرتضى بوتو) تنفيذ العمليّة، بإشراف السفارة الأمريكيّة ثمّ عاد الحكم إلى حزب الشعب الّذي تترأسه (بنظير بوتو) رئيسة وزراء باكستان، ثمّ خسرت الانتخابات أمام حزب جديد نشأ باسم (الرابطة الإِسْلَاميّة) وتزعمه (نواز شريف)، ورغم أن الباكستان خضعت كليا للسياسات الأمريكيّة في عهد بنظير وشريف، إلا أن أمريكا كانت تحتاج لحاكم عسكريّ عميل وقوي ينفذ سياساتها في باكستان وأفغانستان بشكل ديكتاتوري، فرتبت لانقلاب عسكريّ عَلى نواز شريف، أوصل الجنرال (برويز مشرف) للسلطة سنة ١٩٩٧، ومنذ ذلك الوقت تحكم أمريكا باكستان حكما شبه مباشر.

وفي سنة ٢٠٠١ قام مشرف بالمهمة الرَّئيسيَّة الّتي جاء من أجلها، واعتمدت أمريكا عليه بشكل كلي في إسقاط نظام طالبان، وتصفية المُجَاهدين العَرَب، والباكستانيين، ومُجَاهدي وسط آسيا في مذبحة مروعة (راجع التفاصيل في كتاب – باكستان مشرف –المشكلة والحلّ والفريضة المتعينة).

ثمّ أجرى مشرف انتخابات صورية مزورة عين بها نفسه رئيسا دستوريا! ثمّ أجرى مسرحيَّة أُخرى جاء بها ببعض الأحزاب للبرلمان، واشترك الإِسْلَاميّون في هذه المسرحيَّة!!

يتابع مشرف اليَوْم خدماته الجليلة لأمريكا في اجتثاث الإِسْلَام من باكستان، وسط ذهول وعجز من تيارات العُلَماء والإِسْلَاميّين الّذين ضرب غالبيتهم فالج القعود أو عمى البصيرة، رغم قوتهم وكثرتهم، فقد أعلن مشرف يوم توليه السّلطة أن قدوته هو أتاتورك محطم الخِلافَة في تركيا وماسح الإِسْلَام منها، وما تزال باكستان تعيش تبعات هذا المخطط، والله المُستَعان.

إيران:

إيران كلمة مشتقة من اسم الشّعوب الآرية الّتي هاجرت إلى الإقليم الواقع شرق العراق وحتى الحدود الغربيّة لبلاد التركستان في العصور القديمة.

وقد أطلقت كلمة (بلاد فارس) عَلى هذا الإقليم في العصر الإِسْلَاميّ، وقد أقام المغول (دولة الإيليخانين) في إيران الّتي ظلت تحكم معظم أقاليمها حتَّى قيام الدّولة الصفوية الشيعيّة سنة (٩٠٦هـ) الّتي يعد قيامها بداية لتاريخ إيران الحديث.

وكان مؤسس هذه الدّولة هو الشّاه إسماعيل الصفوي الّذي استطاع أن يوحد البلاد ويقيم دولة عَلى المذهب الشيعيّ الاثني عشري.

وقد دخلت الدّولة الصفوية في صِرَاع مع الدّولة العُثْمَانِيّة السنية، وانتهى الأمر بهزيمة الصفويين في معركة «جالديران» سنة (٩٣٠هـ).

ومن أشهر حُكَّام الدّولة الصفوية طهماسب ابن الشّاه إسماعيل الّذي رفض الاعتراف بالتبعية للعُثْمَانِيّين، فحاربوه ودخلوا بغداد ثمّ تبريز عاصمة الصفويين سنة (٩٤١هـ).

وبعد موته خلفه ابنه الشّاه عباس الكبير الّذي شهد حكمه تدخل بَرِيطَانيَا في شؤون إيران ونجح في استرداد بغداد وتبريز من العُثمَانِيّين، كما أسس مدينة عرفت باسمه هيَ «بندر عباس» صارت قاعدة تجاريَّة هامة.

ولما ضعفت الدّولة الصفوية ارتقى عرش إيران قائد من قوادهم هو «نادر شاه» سنة (١١٤٩هـ) الّذي انتصر عَلى العُثمَانِيّين، وطرد الرُّوس من بعض المدن إيران الّتي استولوا عليها من قبل، كما توسع شرقا حتَّى بخارى وأفغانستان وهاجم دولة المغول في الهند وخرب عاصمتهم «دهلي».

وبعد مقتله سنة (١١٦٣هـ) استقلت الكثير من الأقاليم عن إيران كبلاد الأفغان وجورجيا وسيطرت روسيا عَلى تركستان وحلت الفوضى والقلاقل بإيران، وظل الحال كذلك حتَّى قيام الدّولة القاجارية سنة (١١٩٣هـ)، ومؤسس هذه الدّولة في إيران هو «أقا محمّد خان» الّذي استطاع القضاء عَلى الفتن وأعاد وحدة إيران.

وفي عهد خلفه «فتح شاه» صارت إيران ميدانا للصراع الدّولي بين فرنسا وروسيا وبريطانيا، إذا استولى الرُّوس عَلى بعض الأقاليم الشمالية من إيران، كما حصلت بَرِيطَانيَا عَلى امتيازات تجاريَّة، كما استولت عَلى بعض الأراضي في شرق إيران وضمتها إلى الهند.

وفي عهد «ناصر شاه» جرى اقتباس بعض مظاهر الحضارة الأوروبية، و اتبع خلفه الشّاه مظهر الدّين الّذي تولى سنة (١٣١٤هـ) سياسة الأخذ بالحضارة الأوروبية، وبفعل ضغط المعارضة الوطنيّة أصدر دستورا للبلاد سنة (١٣٢٤هـ).

ولما قامت الحَرب العَالَمِيّة الأولى أصبحت إيران ميدانا للصراع الدّولي بين ألمانيا وتركيا من جهة وروسيا وإنجلترا من جهة ثانية، وبعد انتهاء الحَرب عقدت معاهدة بين إيران وبريطانيا اعترفت فيها الأخيرة باستقلال إيران.

وفي سنة (١٣٤٠هـ / ١٩٢٢) قام أحد الضُّبَّاط وهو «رضا بهلوي» بانقلاب عسكريّ، وتحررت إيران من الرُّوس والبريطانيين.

و سار رضا بهلوي عَلى نهج كما أتاتورك في تركيا، فاتجه إلى سياسة «التغريب» فأدخل النظم الغربيّة الحديثة كما ألغى الامتيازات الأجنبيّة، وأسس جامعة طهران سنة (١٣٥٤هـ).

ولما قامت الحَرب العَالَمِيّة الثّانية التزم رضا بهلوي موقف الحياد، لكن تآمر الحلفاء أدى إلى هجوم روسي إنجليزي تؤيده الولايات المتحدة عَلى إيران، وتم خلع رضا بهلوي سنة (١٣٦٣هـ/ ١٩٤٥) وخلفه محمّد رضا بهلوي.

أعلن محمّد رضا بهلوي الحَرب عَلى دول المحور، وقدم الحلفاء مقابل ذلك مساعدات اقتصاديَّة وعسكريّة إلى إيران، ثمّ دخلت إيران في النفوذ الأمريكيّ والبريطاني تماما، وصار الشّاه شرطيهم في منطقة الخليج.

وبعد الحَرب تعاون الرُّوس مع «حزب توده» الشُّيُوعِيّ لإحداث المتاعب في وجه الشّاه، لكن في سنة (١٣٦٥هـ) تحسنت العلاقات مع روسيا وتم توقيع معاهدة سنة (١٣٦٥هـ) انسحب الرُّوس بمقتضاها من شمال إيران.

أما بَرِيطَانيَا فقد حصلت عَلى امتيازات التنقيب عن البترول في إيران، كما حصلت عَلى امتيازات تجاريَّة للإيرانيين وفق اتفاقية عقدت سنة (١٣٦٧هـ)، ورفع (محمّد مصدق) لواء المعارضة ضدّ الشّاه والإنجليز، وأقر المجلس النيابي تأميم صناعة النّفط، واستعان الشّاه بالجنرال زاهدي وأسند إليه رئاسة الوزراء، ونجح في إخماد الحركة الوطنيّة، وقبض عَلى محمّد مصدق وحكم عليه بالإعدام.

حمل «حزب توده» الشُّيُوعِيّ لواء المعارضة، ونجح الشّاه في قمعه، كما قمع حركة فدائيان إسلام" ذات التوجه السّياسيّ الإِسْلَاميّ الشيعيّ، وولدت أحزاب معارضة عديدة، وفي سنة (١٣٧٥هـ) انضمت إيران إلى «حلف بغداد» الموالي للغرب وخصوصا الولايات المتحدة، فأثار ذلك الاتحاد السُّوفيتيّ.

حاول الشّاه تحت هذه الظّروف القيام بالإصلاحات السّياسيّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، فألغى الإقطاع، وأصدر قانون الإنتخابات، وعمل عَلى استرضاء العمال عن طريق مشاركتهم في الأرباح، ونشر الثّقافة الغربيّة في البلاد.

ومع ذلك ازدادت المعارضة الوطنيّة والإِسْلَاميّة الّتي استطاع (الخميني) أحد رجال الدّين الشّيعة تزعمها وهكذا أطاحت الثَّورة الإِسْلَاميّة الشيعيّة سنة (١٣٩٨هـ / ١٩٧٩) بزعامة «الخميني» بالنّظام الملكي وأعلنت قيام الجمهوريّة الإِسْلَاميّة في إيران، وما تزال تحكم إيران إلى اليَوْم.

أفغانستان:

وتقع في قلب وسط آسيا، وعاصمتها «كابول» وتحيط بها باكستان شرقا وجنوبا، وتحدها إيران غربا وبلاد تركستان الغربيّة شمالا.

وكان لهذا الإقليم الّذي اعتنق سكانه الإِسْلَام في العصر الأموي، دور هام في التّاريخ والحضارة الإِسْلَاميّة، وقد عرب بتعدد عناصر سكانه من عرب وترك وفرس ومغول، كما تعددت لغاته من عربيَّة وتركية وفارسية فضلا عن «لغة البشتو» الأفغانية.

وقد تأسس بها عدّة دول إسلاميّة في العصر العبّاسي منها الدّولة السامانية والطّاهرية والصفارية، كما قامت الدّولة الغزنوية بهذا الإقليم ونجحت في نشر الإِسْلَام في كثير من أقاليم بلاد الهند.

ثمّ تعرضت أفغانستان للغزو المغولي، ووقعت تحت حكم «التيموريين» وقد شهدت في عهدهم ازدهارا حضاريا وعمرانيا وفكريا، ثمّ اجتاحتها الدّولة الصفوية، لكن أحد القادة الأفغان وهو «أحمد خان» استطاع أن ينفصل عنها ويؤسس حكما مستقلا سنة (١١٥٣هـ)، وقد عرفت هذه الدّولة لأول مرّة في التّاريخ باسم «الدّولة الأفغانية» الّتي كانت «قندهار» عاصمة لها.

وفي عهد ابنه «تيمور شاه» نقلت العاصمة إلى «كابول» وامتد نفوذ دولته إلى الهند بعد الانتصار عَلى «المهراتا» في معركة «باني بت».

بوفاة تيمور شاه ضعفت الدّولة الأفغانية، ونجح السيخ في الهند في انتزاع الكثير من ولاياتها الهندية.

وفي عهد «زمان شاه» الّذي خلف والده تيمور شاه سنة (١٢٠٧هـ) شب الصِّرَاع بين أفراد الأسرة الحاكمة، وحاول استرداد أمجاد دولته بعد أن صفا الجو له، فاصطدم بالإنجليز في الهند لذلك تآمروا عليه وأيدوا أخاه محمود شاه الّذي تولى الحكم بدلا منه، وفي عهده شب الصِّرَاع بين أفراد الأسرة الحاكم حتَّى ظفر «دوست محمّد» بالحكم ولقب نفسه بلقب «أمير كابول» دون أن يلقب بالشاه أو الملك لا هو ولا أحد من خلفائه.

ثمّ تنافست بَرِيطَانيَا وروسيا للاستيلاء عَلى أفغانستان ونجحت بَرِيطَانيَا في احتلالها سنة (١٢٥٥هـ)، لكن عودة «دوست محمّد» إلى الحكم أتاحت له طرد الإنجليز سنة (١٢٥٧هـ) وأرغمهم عَلى الاعتراف بسيادته عَلى بلاده.

وفي سنة (١٢٨٠هـ) توفي دوست محمّد وخلفه ابنه «شير علي» وفي عهده حاولت بَرِيطَانيَا بسط نفوذها عَلى بلاد الأفغان فاستعان بالرُّوس، وقامت الحَرب الأفغانية الثّانية سنة (١٢٩٥هـ) بين شير علي وبريطانيا الّتي انتهت بهزيمته ووقوع بلاده فريسة الاحتلال البريطاني.

لكن حركات الجِهَاد ومقاومة القبائل الأفغانية اندلعت ضدّ الإنجليز في عهد عبد الرَّحمٰن حفيد دوست محمّد، وتدخلت روسيا في الصِّرَاع الّذي انتهى بعقد معاهدة بطرسبورج سنة (١٣٢٥هـ) الّتي كانَ من أهمّ شروطها الاعتراف باستقلال أفغانستان واحترام سيادتها.

وفي عهد خلفه «أمان الله خان» عاد النفوذ البريطاني إلى أفغانستان مرّة أُخرى، فاندلعت الحَرب الأفغانية الثّالثة بين الطّرفين سنة (١٣٣٩هـ - ١٩٢١) وتمكن الأفغان من هزيمة الإنجليز هزيمة مُنكرة واضطروهم إلى الاعتراف باستقلالهم مرّة أُخرى.

وفي عهد أمان الله خان، جرت محاولة الاتجاه نحو العلمنة والأخذ بالنظم الغربيّة عَلى طريقة مصطفى كما أتاتورك، فاندلعت الثَّورة الشعبيَّة الإِسْلَاميّة بقيادة العُلَماء، وتنازل أمان الله خان عن الحكم لأخيه عناية الله عام (١٣٤٨هـ)، ونجح أحد قطاع الطرق ويسمى «باجه السقا» في الاستيلاء عَلى كابول وأعلن نفسه ملكا عَلى بلاد الأفغان باسم «حبيب الله غازي».

وعاد القائد (محمّد نادر شاه) ابن عم الملك المخلوع إلى البلاد واستولى عَلى السّلطة وأعلن نفسه ملكا عَلى أفغانستان، وفي عهده تأسس الحزب الديمقراطي ذي الميول الشُّيُوعِيّة سنة (١٣٥١هـ).

وبعد وفاته تولى ابنه الملك «محمّد ظاهر شاه» فنهض بالجيش، وحاول إنشاء نظام دستوري ونشر التّعليم، ووثق علاقاته بالدّول الإِسْلَاميّة واتبع سياسات الانفتاح عَلى الغرب وكان كثير التردد عَلى إيطاليا ودول أوربّا.

وبدأ التنافس الرُّوسي الأمريكيّ في أفغانستان، وتعاظم الخطر الرُّوسي، وحاول الشُّيُوعِيّون قلب نظام الحكم متعاونين مع السردار (محمّد داوود) ابن عم الملك ونجحوا في القيام بانقلاب سنة (١٣٩٣هـ) ألغى الملكية وأعلن قيام الجمهوريّة، وحكم البلاد بطريقة دموية بالغة القسوة فقتل آلاف النّاس!

ثمّ نجح الشُّيُوعِيّون في إحداث انقلاب عسكريّ جديد سنة (١٣٩٨هـ/ ١٩٨٠م) بزعامة «محمّد نور تراقي»، فقتل آلاف النّاس خلال أيّام! وأعدم ٢٩ ولدا من أبناء داوود أمام عينيه، ثمّ ختم به وأعدمه رميا بالرصاص!!! فذاق داوود ما أذاق النّاس من القهر والقتل! ثمّ نهج تراقي نهج الشُّيُوعِيّة الحمراء.

فاندلعت المُقاوَمة وحركات الجِهَاد الّتي اتخذت طابع الجِهَاد الإِسْلَاميّ ضدّ الحكومة الشُّيُوعِيّة، وتدخل الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة في «المسألة الأفغانية»، فقام السوفيت بإعداد انقلاب آخر بزعامة «بابراك كارمل» المؤزر بالقوّات السوفييتية الّتي تدخلت مباشرة في عمليّة غزو مكشوفة سنة ١٩٧٩ م.

وانطلقت أحزاب المُجَاهدين تواجه روسيا وتلقت دعما إسلاميا وعالميا، مما أدى لهزيمة الرُّوس هزيمة مُنكرة فانسحب الرُّوس سنة ١٩٨٩، وكانت هزيمتهم في أفغانستان إيذانا بانهيار الإتحاد السوفييتي وتفككه وتفكك حلف وارسو العَالَمِيّ.

ثمّ تمكن المُجَاهدون من إسقاط الحكم الشُّيُوعِيّ خُصُوصَاً بعد انهيار الإتحاد السوفييتي سنة ١٩٩٠م وسقوط الشُّيُوعِيّة العَالَمِيّة وزوالها.

لكن فتنة الصِّرَاع بين الفصائل المختلفة من المُجَاهدين أوقع البلاد في حُرُوب أهلية مابين (١٩٩٢-١٩٩٦)، بتدبير من أمريكا وبعض الدّول الأوربية، والإِسْلَاميّة وعلى رأسها باكستان والسّعُودِيّة، وراح ضحية هذه الحَرب زهاء ٤٠ ألف مسلم فيهم خيرة المُجَاهدين.

ثمّ ولدت حركة طالبان في قندهار أواخر سنة ١٩٩٣، بزعامة الملا محمّد عمر، وتمكنت من إقامة إمارة إسلاميّة أعلنت الحكم بالشّريعة الإِسْلَاميّة بعد دخولها كابل سنة ١٩٩٦، وصارت أفغانستان ملجأ للحركات الجهاديّة العربيَّة والإِسْلَاميّة، ودخل طالبان في صِرَاع مرير مع تحالف أحزاب الشمال من الأوزبك والفرسوان والهزارة الشّيعة، وتدخلت القوى الدّولية والإقليمية مرّة أُخرى.

إلى أن غزت أمريكا أفغانستان بمعاونة باكستان والسّعُودِيّة ودول الخليج وبعض الدّول الأوربية وإيران! بعد أحداث سِبتَمبر الشهيرة، وأسقطت إمارة طالبان في ديسمبر ٢٠٠١ وما تزال القوى الإِسْلَاميّة المتعددة، والطّالِبَان يخوضون غمار الجِهَاد من جديد ضدّ القوّات الأمريكيّة وحلفائها إلى الآن.

راجع كتاب (طالبان وأفغانستان ومعركة الإِسْلَام اليَوْم - ١) للمؤلف، وستأتي تفاصيل لاحقة متعلقة بهذا الموضوع في الفصول القادمة إن شاء الله.

دول وسط آسيا (تركستان):

تقع تركستان (بلاد الأتراك) في أسيا الوسطى وتحدها من الشّرق الصين ومنغوليا، ومن الغرب قزوين ونهر أورال، ومن الجنوب التبت وكشمير وباكستان وأفغانستان وإيران، ومن الشمال منغوليا وسيبيريا، وكان يتقاسمها بالاحتلال كلّ من الاتحاد السُّوفيتيّ السابق والصين الشعبيَّة، بموجب معاهدات عديدة بدأت بمعاهدة «برشينك» في أغسطس ١٦٨٩ م، وانتهت بمعاهدة «سانت بتروسبورغ» في فبراير ١٩٨١م.

ويعرف الجزء الغربيّ الّذي كانَ يحتله الاتحاد السوفييتي بتركستان الغربيّة ويتألف من خمس دول تبلغ مساحتها مجتمعة زهاء ٥ مليون كم مربع! أما الجزء الشرقي الّذي احتلته الصين الشعبيَّة فيعرف

بتركستان الشرقية (سيانغ يانغ) كما أسماه الصينيون بعد احتلاله، وتبلغ مساحته زهاء (٧٥٠ ١, ٧٣٤) كم مربع.

الغزو الرُّوسي لبلاد آسيا الوسطى الإسْلَاميّة ومراحله:

- كانَ الرُّوس أمة وثنية ثمّ دخلوا النّصرانية سنة ٣٧٨هـ أي ٩٨٨م.
- بعد فتح القُسطَنْطينيَّة من قبل العُثْمَانِيّين سنة (٨٥٧ هـ/ ١٤٥٢م) فر قساوستها إلى روسيا وصار الرُّوس يمثلون الكنيسة الشرقية ويحملون لواء الصّليبيّة في آسيا.
- ظهر إيفان الثّالث سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠ ميلادية، وبدأ حُرُوبه ضدّ التّتار المُسلِمِين وأبعدهم عن موسكو.
- خلفه حفيده (إيفان الرهيب) الّذي اكتسح بلاد التّتار المُسلِمِين واستولى عَلى حوض نهر الفولغا وفرض النّصرانية عَلى التّتار فيها أو الهِجرَة.
- فرض إيفان النّصرانية عَلى بلاد المُسلِمِين البشكير، فاستخفى أهلها بالإِسْلَام نحو ٣٠٠سنة وأعلن أحفادهم الإِسْلَام عام ١٩٠٥ عَلى عهد القيصر الّذي أعطى الحريات الدّينيّة.
- انتزع إيفان سيبيريا من المُسلِمِين عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م، ثمّ احتل بلاد القفقاس الّتي كانت تابعة للعُثْمَانِيّين مستفيداً من نزاعهم مع الشّيعة الصفويين في إيران.
- اعترف شاه إيران (نادر شاه) للروس بالسّيطرة عَلى بلاد القفقاس عام ١٨١٣م وأعلن أهل القفقاس الجِهَاد ضدّ الرُّوس بقيادة شعب الداغستان وذلك ١٧٢٢ - ١٨٥٩ م، فحاربوا الرُّوس ١٣٧ سنة حتَّى خضعت القفقاس، ثمّ انطلق الرُّوس إلى وسط آسيا بعد أن رأوا صعوبة الانتشار في أوربّا، فقرر اسكندر الثّاني قيصر روسيا عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م أن وسط آسيا هو مجال التوسع الرُّوسي واتجهت القوّات القيصرية إلى وسط آسيا اعتباراً من ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م.
- احتل الرُّوس **طشقند عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م**، وتوالى بعد ذلك سقوط المدن والخانيات وهي (الإمارات الصغيرة).

- فسقطت **سمرقند** ١٨٦٨م، ثمّ **بخارى** ١٨٧٣م، ثمّ **خوارزم** ١٨٧٤م، وواجه الرُّوس مقاومة شديدة في **خوقند**، فدكوا المدينة وأحدثوا بها مذبحة رهيبة سنة ١٨٧٦م، ثمّ سقطت **مرو وبلاد التركمان** بعد مقاومة عنيفة من ١٨٧٣ م إلى ١٨٧٤ م، **وأتم الرُّوس السّيطرة عَلَى بلاد التركستان سنة ١٩٠٠م** وأصبحت حاضنة للإدارة العسكريّة الرُّوسية الّتي اتبعت فيها سياسة الستار الحديدي وحاولوا تنصير المُسلِمِين.
- كانَ تحرك الرُّوس وسقوط المُسلِمِين سريعاً، وذلك رغم المُقاوَمة الباسلة نتيجة عوامل عديدة أهمّها النزاع القومي والفرقة العرقية بين أكثر من مئة عرق وجنس قومي يكونون نسيج المنطقة الإثني! وكذلك التخلف وتدني مستوى التّعليم والتسليح بين المُسلِمِين، وكذلك ضعف الدّولة العُثْمَانِيّة في استنابول وترهلها وعدم قدرتها عَلَى نجدة للمسلمين كما مر في تاريخها تلك الفترة.
- فرض الرُّوس القياصرة سياسة البطش وفرضوا التخلف والجهل عَلَى البلاد ليسهل احتلالها.
- دبت الفوضى في دولة القياصرة مدّة ربع قرن من (١٩٠٥– ١٩٢٨) واتسعت حركات التمرد السّياسيّة الّتي أسفرت عن الثَّورة البلشفية بعد هزيمة القياصرة أمام اليابان وانهيار هيبتهم سنة ١٩٠٤م ونتيجة كثرة الفساد الإداري والاقتصادي وسوء الإدارة في الأقاليم.
- بدأت الثَّورة البلشفية بحركة عمالية في مدينة بتروغراد في آذار سنة ١٩١٧م وعاد لينين (اليَهُوْدي) من سويسرا يحمل مبادئ الشُّيُوعِيّة الّتي نادى بها ماركس (اليَهُوْدي) أيضا، وتسلم السّلطة ونادى الأقليات في الاتحاد السُّوفيتيّ لمساعدته مقابل إنصاف الأعراق والأديان بوعود كاذبة جذابة خص المُسلِمِين بقدر كبير منها واستحثهم حتَّى انضم كثير من المُسلِمِين إلى ثورة البلشفيك سعياً منهم للثأر من طغيان القياصرة.
- ورغم بوادر خيانة الرُّوس البلشفيك للمسلمين سيطرت حالة التشرذم والتفكك عليهم **وسعى كثير من رجال الدّين المُسلِمِين والعُلَماء في الوقوف مع البلشفيك والسُّلطات الرُّوسية وجروا وراءهم عوام المُسلِمِين إلى الكفر والضلال والاحتلال!**

- استمر لينين في سياسة الخداع ووجه نداءات استعطاف وتعاضد مع المُسلِمِين وانزل وثائق وبيانات استحثت المُسلِمِين العُثمَانِيّين والإيرانيين ضدّ القياصرة وأرفق ذلك ببعض السياسات المنفتحة مع المُسلِمِين مثل تسليم بعض الأوقاف والآثار الإِسْلَاميّة لإدارتهم الدّينيّة.
- مع ذلك لم يكن انخداع المُسلِمِين بلينين كاملاً، فقد لاقت قوّاته مقاومة شرسة ولاسيما في بلاد التركستان وأوزبكستان ووادي فرغانة.
- حصلت ثورة أهلية إسلاميّة عارمة في منطقة الأورال وسيبيريا فهزموا الجيش الأحمر واستقرت تلك الثَّورة في وادي فرغانة وحاول العُثمَانِيّون مساعدتهم واستمرت تلك المُقاوَمة من ١٩١٨-١٩٢٨م.
- **بعد انهيار المُقاوَمة دبت الفرقة والفساد في أوساط كثير من المُسلِمِين التركستان والأوزبك وانضم كثير منهم للأحزاب والجَمعِيّات والمؤسسة الشُّيُوعِيّة والاشتراكية وحاول كثير من رجال الدّين المُسلِمِين التوفيق بين الشُّيُوعِيّة والإِسْلَام والماركسية ولم يحل هذا دون حصول سياسة تصفية المُسلِمِين عَلى عهد لينين ثمّ ستالين حتَّى قضوا عَلى من ناصرهم من المُسلِمِين.**
- خلف ستالين لينين واستمرت سياسة البطش الّذي صار معلناً لاسيما بعد انتهاء الحَرب العَالَمِيّة الثّانية الّتي أبلى بها المُسلِمُون الرازحون تحت احتلال الاتحاد السُّوفيتيّ بلاءً عظيماً، ووقفت كثير من قيادات المُسلِمِين الدّينيّة بصلابة مع الاتحاد السُّوفيتيّ وموسكو وستالين ضدّ الألمان في الحَرب الثّانية!!
- استطاع ستالين أن يخدع كثير من القيادات الدّينيّة الإِسْلَاميّة المنافقة من أعلى ممثلي الإفتاء ووصولا إلى كثير من عوام المُسلِمِين، وبعد انتهاء الحَرب العَالَمِيّة شن ستالين حرب إبادة عَلى المُسلِمِين في القفقاس وجهوريات وسط آسيا وبلغ ضحاياه أكثر من ٢٠ مليون مسلم، نقل الملايين منهم ليموتوا في صحراء سيبيريا الجليدية حتَّى أكلوا جثث موتاهم! ثمّ استمرت هذه السّياسة بعده في عهود خروتشوف ثمّ خلفه بريجينيف ومن تلاهم، حتَّى تفكك الاتحاد السُّوفيتيّ

بفضل الله ثمّ بفضل الجِهَاد الأفغاني ووقوف الأُمّة الإِسْلَاميّة وطليعتها المُجَاهدة وقفة الدّين والشرف في أفغانستان وذلك بهزيمتهم وانتهاء دولتهم سنة ١٩٩٠ م، ولله الحمد.

- وصل غورباتشوف إلى الحكم بعد حركة الإصلاح (البروستريكا)، وتفكك الاتحاد السُّوفيتيّ وزالت الشُّيُوعِيّة واستقلت شكلياً جمهوريّات وسط آسيا، وربطتها روسيا معها بإدارة عسكريّة وتواجد عسكريّ فعلي لاسيما عَلى الحدود وخصوصاً في طاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان.
- ثمّ أنشئ بإشراف أمريكي رابطة دول وسط آسيا لمقاومة الإِسْلَام الزاحف من أفغانستان.
- وعلى جبهة القفقاس ذاق الرُّوس هزيمة مُنكرة عَلى يد الشِّيشَان ما بين ١٩٩٤ و١٩٩٧، وأعقب ذلك استقلال الشِّيشَان ثمّ احتلالها مرّة أُخرى وتهجير أكثر أهلها، وما يزال الجِهَاد فيها جاريا إلى الآن، وتلوح بوادر انتقال الثَّورة إلى الداغستان ثمّ سائر القفقاس لتلتقي مع أوار النار المضطرمة تحت الرماد أيضاً في منطقة ما وراء النهر ووسط آسيا قريباً إن شاء الله.

واقع جمهوريّات آسيا الوسطى والمسلمون بعد تفكك الاتحاد السُّوفيتيّ:

تكون الاتحاد السُّوفيتيّ البائد قبل تفككه من خمسة عشر جمهوريّة اتحادية رئيسيَّة وبلغ عدد سكانه مجتمعاً نحو ٢٨٦ مليون نسمة، وشغل مساحة إجمالية قدرها ٢٢ مليون كم٢، وكانت نسبة عدد السّكّان المُسلِمِين فيه نحو ٧٥ مليون نسمة.

والمطلع عَلى نسبة المُسلِمِين في تلك الجمهوريّات في أسيا الوسطى يندهش من الاكتشاف أن أكثر من نصف مساحته قائمة أصلاً عَلى الجمهوريّات الإِسْلَاميّة الأصل، وأن معظم عواصمه الرَّئيسيَّة كانت حواضر إسلاميّة قبل مائة سنة فقط، وأن ذلك امتد لأكثر من ألف سنة، فسبحان الله، ولعلّ الإحصائيات الرَّسميَّة التّالية تبرز هذا وهي إحصائيات ذات دلالات سياسيّة وعسكريّة مستقبلية بعيدة المدى.

فجمهوريّات الاتحاد السُّوفيتيّ البائد حسب أهميتها ونسبة المُسلِمِين فيها هيَ عَلى الشّكل التّالي[1]:

أولاً: جمهوريّة روسيا الاتحادية:

عاصمتها موسكو، مساحتها نحو ١٠ مليون كم٢، عدد سكانها نحو ١٤٣مليون نسمة ونسبة المُسلِمِين فيها تتراوح ما بين ١٠– ٢٥ ٪ من السّكّان.

ويتبع جمهوريّة روسيا الاتحادية عدّة جمهوريّات تقع في حوض الفولغا وهي:

١– **جمهوريّة بشكيريا**: عاصمتها (أوفا)، عدد سكانها ٥ , ٤ مليون نسمة، نسبة المُسلِمِين فيها ٥٦٪.

٢– **تتارستان**: عاصمتها (قازان) سكانها ٥ , ٤ مليون نسمة، نسبه المُسلِمِين فيها ٥٠٪.

٣– **مورد يفيا**: (شار نسك) ١٥ , ١ مليون، نسبة المُسلِمِين ٥٥٪.

٤– **ماري**: (يوشكارا اولا) ١، ١٥ مليون نسبة المُسلِمِين ٥٢٪

٥– **أورنبرغ**: (ألوينبرغ شكالوف) ٢٥٠ ألف نسمة نسبة المُسلِمِين ٥٠٪.

٦– **أدمورت**: (أجنسيك) ١,٨٥٠ مليون نسمة نسبة المُسلِمِين ٥٢٪.

ويتبع جمهوريّة روسيا الاتحادية خمس جمهوريّات ذات حكم ذاتي تقع شمال القفقاس وهي:

١– داغستان: عاصمتها (محج قلعة) وعدد سكانها ٣٥ , ٢ مليون، نسبة المُسلِمِين ٦٠٪.

٢– كبا رداي بلكار: عاصمتها(نالجيك ٧٦٠ ألف نسمة، نسبة المُسلِمِين ٥٥٪.

٣– جمهوريّة قار شاي شركس: عاصمتها شركس، ٤٥٠ ألف نسمة، المُسلِمِين ٦٠٪.

٤– أو ستينيا الشمالية: عاصمتها (اردجونيكرزي) مليون نسمة، المُسلِمِين ٥٥٪.

٥– الشِّيشَان أنجوش: عاصمتها (جروزني) سكانها ٧٣ , ١ مليون المُسلِمِين ٦٦٪.

٦– جمهوريّة الأديجا: عاصمتها (ماي كوب) ٥٤٠ ألف نسمة، المُسلِمِين ٥٠٪.

٧– جمهوريّة سيبيريا: عاصمتها (أو مسك) ٢٥ مليون نسمة نسبة المُسلِمِين ٢٥٪.

---

(١) (أخذت الإحصائيات من رسالة ماجستير مقدمة للجامعة الإِسْلَاميّة المنورة عن أحوال المُسلِمِين في وسط آسيا) [المؤلف].

هذا عن جمهوريّة روسيا الاتحادية ذاتها، ثمّ نأتي إلى الجمهوريّات الّتي استقلت:

ثانياً: جمهوريّة روسيا البيضاء: عاصمتها (مسنك) مليون نسمة نسبة المُسلِمِين غير محددة.

ثالثاً: جمهوريّة أوكرانيا: عاصمتها (كييف) وعدد سكانها ٥١ مليون نسمة بها في ذلك سكان ولاية القرم (وعددهم ٧ مليون) ونسبة المُسلِمِين فيها ٧١٪!!!

رابعاً: جهورية لا تفيا: عاصمتها (ميلنوس) وسكانها ٢,٥ مليون نسبة المُسلِمِين غير معروفة.

خامساً: جمهوريّة استونيا: عاصمتها (نازلين) سكانها ١,١٥ مليون نسمة، نسبة المُسلِمِين غير معروفة.

سادساً: جمهوريّة مولدا فيا: عاصمتها (كشينوف) عدد سكانها ٤ مليون نسمة نسبة المُسلِمِين ٥٪.

سابعاً: جمهوريّة ليتوانيا: عاصمتها (ريجا) سكانها ٣,٥ مليون نسمة وفيها ١٨٠٠٠ مسلم.

ثامناً: جمهوريّة أرمينيا: عاصمتها (باريفان) وسكانها ٣,٣ مليون نسمة نسبة المُسلِمِين فيها ١٧٪.

ويتبعها جمهوريّة نخجيفان بحكم ذاتي وسكانها ٣٠٠ ألف نسمة عاصمتها ناجوان ونسبة المُسلِمِين ٩٥٪.

تاسعاً: جمهوريّة جورجيا: وعاصمتها (تفليس) وسكانها ٣,٥ مليون نسمة نسبة المُسلِمِين فيها ١٩٪ وتتبع جورجيا كلّ من:

جمهوريّة أبجازيا: عاصمتها (سوقوم) وسكانها ٧٥٠ ألف نسمة نسبة المُسلِمِين فيها ١٩٪.

جمهوريّة أجاريا: عاصمتها (باطوم) وسكانها ٤٥٠ ألف نسمة نسبة المُسلِمِين فيها ٤٠٪.

عاشراً: جمهوريّة أذربيجان: عاصمتها باكو وعدد سكانها ٧,٢٧ مليون نسمة، نسبة المُسلِمِين فيها ٨٢٪ أكثرهم من الشّيعة.

ثمّ جمهوريّات آسيا الوسطى الإِسْلَاميّة وهي:

أحد عشر: جمهوريّة أوزبكستان: مساحتها ٤٤٧,٤٠٠ كم٢، عاصمتها (طشقند) عدد سكانها ٢٥ مليون نسمة، نسبة المُسلِمِين فيها ٨٨٪ من السّكّان.

إثنى عشر: جمهوريّة طاجيكستان: عاصمتها (دوشنبيه). وسكانها ٥,٥مليون نسمة نسبة المُسلِمِين فيها ٨٠٪.

ثلاث عشر: جمهوريّة قيرغيزستان: وعاصمتها (بتشكيك) وسكانها ٥ مليون نسمة، نسبة المُسلِمِين ٧٣٪.

أربعة عشر: جمهوريّة تركمانستان: عاصمتها عشق أباد، سكانها ٤ مليون، نسبة الإِسْلَام فيهم ٨٦٪.

خمسة عشر: جمهوريّة كازاخستان: وعاصمتها(المآتا)، وسكانها ١٧ مليون نسبة المُسلِمِين ٥٢٪.

وقد استقلت الجمهوريّات الأربعة عشر عن الاتحاد السُّوفيتيّ الّذي لم يبقى منه إلا روسيا الاتحادية.

وخلاصة أحوال المُسلِمِين في آسيا الوسطى بعد رحيل السّيطرة الرُّوسية:

١- استمرار العلاقات الأمنيّة والعسكريّة مع الجيش والأمن الرُّوسي لاسيما عَلى الحدود مع أفغانستان.

٢- ارتباط الدّول الخمسة بإشراف روسي أمريكي في حلف دول وسط آسيا وهو حلف أمني عسكريّ لمُوَاجَهة مد الجِهَاد والإِسْلَام القادم من أفغانستان.

٣- حلول الاحتلال والنفوذ الأمريكيّ اليَهُوْدي الغربيّ وما يتبع ذلك من سيطرة اقتصاديَّة وثقافية وحركات تبشير وتنصير مكان النفوذ الرُّوسي الشُّيُوعِيّ السابق.

٤- تحول الكوادر والأحزاب والشخصيات الشُّيُوعِيّة الأساسيّة إلى العمالة للأمريكان تحت مسميات جديدة قومية ووطنيّة وديمقراطية.

٥- استمرار سياسة العداء للإسلام وبشكل سافر عَلى يد المرتدّين والشُّيُوعِيّين من أبناء المُسلِمِين في البلد بعد أن كانت هذه المهمة موكلة للاستعمار الصّليبيّ الرُّوسي، وبذلك شنت هذه الحُكُومَات حرباً مكشوفة عَلى الحركات والدّعوة والنَّشَاطات الإِسْلَاميّة المختلفة كالمدارس ودور التحفيظ ومظاهر الالتزام، فطاردت بشكل خاص التوجّهات الجهاديّة كما في عموم بلاد الإِسْلَام تحت مسمّى مُكَافحَة الإرهَاب

٦- في طاجيكستان وصلت المُوَاجَهة مع الإِسْلَاميّين لحد الصدام المُسلّح وتمكنت الحكومة من تدجين الحركة الإِسْلَاميّة الأساسيّة فيها وهي حركة النهضة فيما تستمر أجزاء من الحركة ذات التوجه الجهاديّ مسيطرة عَلى مناطق وأجزاء من طاجيكستان.

٧- في أوزبكستان ومع ميلاد بوادر جهاديّة وصلت لحد التخطيط لقتل رئيس الدّولة وتنفيذ بعض الأعمال الجهاديّة العسكريّة حصلت موجة من الاعتقالات تلتها محاكم صدرت فيها أحكام ظالمة بالإعدام عَلى بعض المُجَاهدين وبالسّجن عَلى عشرات آخرين، وأثبتت هذه المُوَاجَهة الدّعم والتّعاون الأمني الإقليمي عَلى مستوى الدّول الخمسة والدّولي بإشراف أمريكي حيث اعتقل العديد من هَؤُلَاءِ المتهمين من دول متعددة وسلموا لحكومة أوزبكستان فوراً وذلك بفعل التّعاون المباشر بين دول المنطقة وروسيا والأمريكان والنّظام الدّولي، خوفا من قفزة يحققها جِهَاد المُسلِمِين إلى آسيا الوسطى بعد الانتصار الزاهر الّذي حققوه في أفغانستان وأدى لقيام نواه حقيقية لدولة الإِسْلَام المرتقبة ونهضة المُسلِمِين العائدة المنشودة إن شاء الله.

٨- قيرغيزستان: جرت المناورات العسكريّة ضدّ الإِرهَاب والخوف من الهجوم المفترض لطالبان! رغم تشتت طالبان واختفائها وذلك أواسط سنة ٢٠٠٤ م.

٩- تركمانستان: منعت بناء المساجد الجَدِيدة وطباعة القرآن، ومنعت اللحى والحجاب، وأمرت الحكومة بكتابة هلوسات رئيس تركمانستان – في كتاب كتبه –على جدران المساجد إلى جانب القرآن أو عوضا عنه!

تركستان الشرقية المحتلة من قبل الصين (١):

فتحت تركستان الشرقية أول مرّة عَلى يد القائد المُجَاهد قتيبة بن مسلم حيث دخل إلى «كاشغر» وذلك في عهد الخَليفَة الأموي الوليد بن عبد الملك عام (٩٦ هـ/ ٧١٥ م)

---

(١) [هذه التفصيلات كتبها الشّهِيد الأمير حسن أبو محمد التركستاني في كابل سنة ٢٠٠٠ لتلحق برسالة – المُسلِمُون في آسيا الوسطىٰ ومعركة الإِسْلَام القادمة – للمؤلف].

وفي نهاية العصر الأموي وبداية العصر العبّاسي الأوّل في القرن الثّالث للهِجرَة أسلم الخاقان سلطان الترك «ستوق بوغراخان» وسمى نفسه عبد الكريم، وتبعه في الإِسْلَام أبناؤه وكبار رجال دولته، ومنذ ذلك اليَوْم أصبح الإِسْلَام دينا رسميا للدولة، وبقيت تركستان دولة إسلاميّة مستقلة حوالي تسعة قرون، ومنذ ذلك الحين جميع أهلها مسلمون.

الاحتلال الصيني لتركستان الشرقية:

في القرون الثَّامن عشر الميلادي وقعت أجزاء كثيرة من العالم الإِسْلَاميّ فريسة للاستعمار الأوروبي والآسيوي، ففي أسيا اتفق المُستَعمران الرُّوسي والصيني عَلى تقسيم أرض المُسلِمِين الأتراك من خلال عدّة معاهدات، وسقط هذا الجزء المسلم في يد الصين بعد أن لقي (٠٠٠. ٢٠٠. ١) تركستاني مسلم حتفهم، ونفي (٢٢٠٠٠) عائلة تركية إلى داخل الصين ليذوبوا في شعوب الصين!

الاستقلال التركستاني:

ثار المُسلِمُون في تركستان الشرقية ضدّ الاستعمار الصيني والاضطهاد البوذي سبعة ثورة كبيرة عارمة، أثمر آخرها عام ١٨٦٣ م عن تحرير تركستان الشرقية من الحكم الصيني وتكوين مملكة مستقلة في القرن التّاسع عشر الميلادي، تشكلت حُكُومَات محليَّة في خمس مناطق، وانضوت جميعها تحت حكم " أتاليق غازي يعقوب بك " الّذي منحه السُّلطَان العُثمَانِيّ لقب أمير المُسلِمِين، وكان أتاليق رجلا جيدا أنشأ المساجد والمدارس الإِسْلَاميّة، ومازال عدد منها موجودا حتَّى الآن، ولكن الأطماع الاستعماريّة لروسيا والصين تجددت، وبالفعل استولت القوّات الصينية عَلى تركستان الشرقية في عام ١٨٧٨ م، وصدر مرسوم في ١٨ نوفمبر ١٨٨٤ م بجعل تركستان الشرقية مقاطعة، وتسميتها «سنكيانج» أي المُستَعمرة الجَدِيدة وجعل «أورومتشي» عاصمة لها.

الاستقلال الثّاني لتركستان الشرقية:

استمرت ثورات التركستانيين ضدّ الاستعمار الصيني، وقتل الكثير من المُسلِمِين في سبيل خلاصهم وخلاص بلادهم من الحكم الصيني البوذي، وكانت الحكومة الصينية تقمع تلك

الانتفاضات بكل وحشية وقسوة، وكلما زادت في اضطهادهم وعنفها تجد في أهلها الإصرار، حتَّى تمكن أحد أصحاب الاتجاهات الدّينيّة وهو " ثابت داموللا " من تحرير البلاد وتشكيل جمهوريّة تركستان الشرقية في كاشغر في نوفمبر ١٩٣٣ م.

ولكن الوالي الصيني (شنغ شي تساي) قضى عَلى الثوار وجمهوريّتهم في شهر يوليو ١٩٣٤ م بمساعدة روسيا الخائفة من وجود هذه الدّولة الفتية المسلمة في جوارها.

الحكم الصيني الشُّيُوعِيّ في تركستان الشرقية:

في عام ١٩٤٩ م أعلن قائد الجيش الصيني في تركستان الشرقية استسلام البلاد وخضوعها لرأس الكفر والإلحاد في الصين " ماوتسي تونغ " زعيم الحزب الشُّيُوعِيّ الصيني، ودخلت القوَّات الصينية الشُّيُوعِيّة تركستان الشرقية في أكتوبر ١٩٤٩ م، وبذلك بدأ عهد جديد من الإِرهَاب والظُّلم في تاريخ تركستان الشرقية المسلمة.

مرحلة ما بعد ماوتسي تونغ:

تتميز هذه الفترة بتحول الشُّيُوعِيّين من تطبيق سياسة الإِرهَاب المكشوف إلى ممارسة سياسة تطبيق الشُّيُوعِيّة العلمية و(التصيين) الثقافي، ومن أبرز هذه الممارسات:

أولا: التضييق في ممارسة الشعائر الدّينيّة والحيلولة دون انتشار تعاليم الإِسْلَام وذلك لقطع صلة الأجيال الجَدِيدة بهويتهم الإِسْلَاميّة.

ثانيا: منع أفراد الشعب التركستاني من ممارسة حقوقهم الإنسانية المشروعة كالتّعليم وحرية التعبير إلى جانب الاعتداء بالمطاردة والاعتقال بل والقتل.

ثالثا: مصادرة ثروات تركستان الشرقية وحرمان أهلها الأصليين من خيرات بلادهم، وفرض حياة الفقر والعوز عليهم وإهمال التنمية الاقتصاديَّة في البلاد.

رابعا: خداع العالم بإقامة حكم ذاتي صوري لتركستان الشرقية يديره الصينيون من وراء الستار، وينفذه الموظفون التركستانيون العملاء التَّابعون لهم.

خامسا: إغراق تركستان الشرقية بالمُهَاجِرين الصينيين وإحلالهم في أماكن سكن وعمل أهل البلد الأصليين.

سادسا: القيام بتنفيذ التفجيرات النووية في الأراضي التركستانية مما نتج عنه إفساد البيئة بالسموم ونشر الأمراض بين أفراد الشعب التركساني.

سابعا: إجبار أفراد الشعب التركستاني المسلم عَلى تنفيذ سياسة تحديد النسل، وممارسة أقصى العقوبات مع المخالفين لهذه السّياسة.

ثامنا: تشجيع الزواج بين التركستانيين والصينيين.

وما يزال المُسلِمُون إلى اليَوْم يرزحون تحت هذا الحيف والجور والظُّلم، مما جعل بعضهم يحملون السّلاح ضدّ الحكومة الصينية الّتي تطاردهم بضراوة، وقد لجأ بعضهم سنة ١٩٩٧ إلى طالبان، وأعادوا إنشاء الحزب الإِسْلَاميّ التركستاني، وقد قتل الكثير منهم إبَّان الغزو الأمريكيّ لأفغانستان مدافعين عن الإمارة الإِسْلَاميّة سنة ٢٠٠١، ثمّ قتل الجيش الباكستاني في مناطق سرحد الحدودية أميرهم (حسن أبو محمّد التركستاني) مع رهط من رفاقه في شهر ١١/ ٢٠٠٣، رحمهم الله تَعَالَى وتقبلهم في الغُرَباء الفرارين بدينهم، وجمعنا بهم في عليين.

إندونيسيا:

وهى أكبر الدّول الإِسْلَاميّة في تعداد السّكّان، إذ يبلغ عدد سكانها ما يزيد عَلى ٢٠٠ مليون نسمة، ويعتنق الإِسْلَام منهم حوالي (٩٢٪) من عدد السّكّان، وقد انتشر الإِسْلَام فيها عن طريق التجارة وحل محل الوثنية والبوذية، وتضم إندونيسيا مجموعة من الجزر الواقعية في جنوب شرق آسيا وأكبرها سومطرة، وجاوة، وبورنيو، وسيليبس، وتيمور، وجزائر الملوك، وغينيا الجَدِيدة، وشبه جَزِيرَة الملايو.

ونظرا لأهمية موقعها الإستراتيجي تعرضت للتنافس الاستعماريّ البرتغالي والهولندي والإنجليزي والأسباني والأمريكيّ، وكانت البرتغال سباقة إلى احتلال اندونيسيا، وقد اتبع

البرتغاليون سياسة التبشير الّتي حولت بعض إلى المسيحية، ثمّ آلت إندونيسيا لحكم الأسبان الّذين ورثو إمبراطورية البرتغال.

ثمّ استولى الهولنديون عَلى البلاد سنة (١٠٠٥هـ) وأقاموا شركة الهند الشرقية الهولندية سنة (١٠١١هـ) الّتي اتخذت من (جاكرتا) مقرا لها.

وفي سنة (١٢٢٦هـ)، استولت بَرِيطَانيًا عَلى البلاد ثمّ تقاسمت حكمها مع هولندا بموجب اتفاق بينهما عقد سنة (١٢٢٩هـ).

اندلعت مقاومة سكان إندونيسيا ضدّ الاستعمار بزعامة الأمير عبد الفتاح الّذي شكل جيشا من الفدائيين وبنى أسطولا قويا أثار المتاعب في وجه الهولنديين.

وفي القرن الثّالث عشر لم تتوقف المُقاوَمة فاندلعت حرب طويلة كبدت الهولنديين خسائر فادحة.

تأسست عدّة أحزاب إندونيسية بعد الحَرب العَالَمِيّة الأولى مثل (الجَمعيَّة المحمّدية) وحزب (شركت إسلام) و(الجَمعيَّة العائشية) الخاصّة بالسيدات، و(حزب جاوة الفتاة) و(جَمعيَّة اتحاد علماء المُسلِمِين) وغيرها ومعظمها ذات طابع إسلامي جهاديّ، ثمّ تبلورت هذه الجَمعِيّات والأحزاب في حزبين رئيسين هما (حزب القمصان الخضراء) وحزب (القمصان الحمراء)، كانَ الحزب الأوّل يلجأ إلى أسلوب المفاوضات لتحقيق الاستقلال أما الحزب الآخر فقد اتخذ أسلوب الجِهَاد المُسلّح وتحول إلى (حزب شيوعي) وخلال الفترة ما بين الحَربين تأسس (حزب إندونيسيا العظمى) و(الحزب الوطني) بزعامة سوكارنو اللذان نجحا في إرغام هولندا عَلى تخفيف سياسة العنف والابتزاز الاقتصاديّ.

ولما قامت الحَرب العَالَمِيّة الثّانية استولت اليابان عَلى إندونيسيا سنة (١٣٦١هـ) فاندلعت حركة المُقاوَمة الوطنيّة برئاسة أحمد سوكارنو ومحمّد حتا، كما تأسس حزب إسلامي يسمى (حزب الله) واشترك الجميع في مُوَاجَهة الاحتلال الياباني.

ولما انتهت الحَرب أعلنت اليابان استقلال إندونيسيا سنة (١٣٦٤هـ) وبعد انسحاب اليابان اشتركت إنجلترا وهولندا في حملة عَلى إندونيسيا تمكنت من الاستيلاء عَلى بعض الجهات والمدن الهامة في سومطرة وجاوة، ومع استمرار النضال أرغمتها عَلى الاعتراف باستقلال إندونيسيا وفق اتفاقية عقدت سنة (١٣٦٦هـ) لكن هولندا لجأت مرّة أُخرى إلى غزو البلاد سنة (١٣٦٨هـ) وألغت اتفاقية سنة (١٣٦٦هـ)، ونتيجة للضغط الدّولي جرى عقد مؤتمر لاهاي سنة (١٣٦٩هـ) الّذي أسفرت عن إنهاء الاستعمار الهولندي.

ثمّ حدث صِرَاع بين الأحزاب ذات الميول الشُّيُوعِيّة والأخرى الإِسْلَاميّة وأسفر الصِّرَاع عن انقسام إندونيسيا إلى حكومتين إحداهما سوفيتية ومركزها (ماديون) والأخرى وطنيّة ومركزها (جاكرتا)، ثمّ اتحدت الدّولتان سنة (١٣٦٩هـ) تحت اسم (جمهوريّة إندونيسيا) برئاسة أحمد سوكارنو.

قام انقلاب شيوعي سنة (١٣٨٥هـ)، لكن وزير الدّفاع كلف الجنرال (سوهارتو) بمُوَاجَهة الانقلاب الّذي أيده أحمد سوكارنو.

وتحت ضغط القوى الوطنيّة الإِسْلَاميّة أرغم سوكارنو عَلى التنازل عن الحكم سنة (١٣٨٦هـ - ١٩٦٨) وتولى الجنرال سوهارتو رئاسة الجمهوريّة.

ثمّ تدهورت أحوال البلاد بسبب فساد سوهارتو وأسرته، وحصلت اضطرابات كثيرة، وأدت إلى اعتماد الإصلاحات السّياسيّة والانتخابات الّتي تنازعنها أحزاب علمانية وشخصيات مدنيّة وعسكريّة، وما تزال هذه أحوالها إلى اليَوْم، حيث آلت رئاسة الجمهوريّة في الإنتخابات الأخيرة ٢٠٠٤ إلى جنرال عسكريّ تعهد في خطاب فوزه بمُكَافحَة الإرهَاب بالتّعاون مع أمريكا وأستراليا!!

تعرضت البلاد وما تزال لحركة تنصير قوية منذُ مئات السنين، وقد اشتدت خلال القرن الأخير، وقد قرأت في بعض التقارير الإحصائية لبعض المؤسسات الإِسْلَاميّة السّعُودِيّة سنة ١٩٩٢أن عدد الّذين تنصروا في أند ونسيا يبلغ زهاء ٣٠ مليون نسمة!

ونظرا لكبر البلاد وتطورها الصناعي وانتشار الصّحوة الإِسْلَاميّة القوية فيها، تتعرض إندونيسيا لمؤامرات لتقسيمها، وقد نجحت الدّول الأوربية بدعم حركات النّصَارى الّذين نصروهم عبر سنين الإحتلال ثمّ الإستقلال، بفصل تيمور الشرقية عن إندونيسيا، وتشهد جزر الملوك أعمال قتال بين المُسلِمِين والنّصَارى الّذين قاموا بأعمال وحشية، فأحرقوا البيوت، وصوروا بعضهم وهم يأكلون لحوم القتلى من المُسلِمِين نيئة ومشوية! وقد انتعشت مؤخرا في إندونيسيا وماليزيا وتايلاند وما جاورها من دول شرق آسيا صَحوَة إسلاميّة قوية تحولت للجِهَاد والمُوَاجَهة للمصالح الأمريكيّة والغربيّة والأسترالية، مما جعل تلك البلاد هدفا للحملات الأمريكيّة المسعورة تحت دعاوى مُكَافحَة الإِرهَاب، أن الله إخواننا ونصرهم.

ماليزيا:

مملكة إسلاميّة معاصرة تضم شبه جَزِيرَة من الملا يو وشمال جَزِيرَة بورنيو وتتألف من ثلاثة عشرة ولاية، وقد انتشر الإِسْلَام في ماليزيا عن طريق التجارة، ففي عام (٦٧٥هـ) أسلم ملكها باسم (سلطان محمّد شاه) وتبعه رعاياه وكانت البلاد من قبل قد تعرضت للاستعمار البرتغالي عام (٩١٨هـ) ثمّ حلّ محله الاستعمار الهولندي سنة (١٠٥١هـ).

وفي سنة (١٢٠١هـ) وقعت البلاد تحت الحكم البريطاني وفي سنة (١٣٦٠هـ -١٩٤٠) اجتاحت اليابان البلاد، ثمّ انسحبت منها بعد الحَرب العَالَمِيّة الأولى وعاد الاستعمار البريطاني الّذي أقام اتحادا بين المحميات البريطانيَّة في الملايو.

وفي سنة (١٣٧٥هـ) صدر الدستور وتألفت جبهة ائتلاف برئاسة (تنكو عبد الرَّحمٰن) استطاعت أن تحصل عَلى الاستقلال سنة (١٣٧٦هـ).

وفي عام (١٣٨٣هـ) تأسس اتحاد يضم الملايو وسنغافورة وشمال بورنيو عرف باسم (اتحاد ماليزيا) وفي عام (١٣٨٥هـ) خرجت سنغافورة عن دولة الاتحاد.

قامت نهضة معاصرة في ماليزيا متأثرة بالنموذج الياباني، فتحولت إلى دولة صناعية مزدهرة، وتشهد ماليزيا صَحوَة إسلاميّة وجهاديّة واعدة هذه الأيّام فتح الله عليهم.

ونكتفي بهذه النماذج من الدّول العربيَّة والإِسْلَاميّة، فالقصة متكررة، وبسيطة، وخلاصتها:

احتلال الدّول الأوربية وغيرها لبلاد المُسلِمِين بالتدريج منذُ القرن السَّابع عشر، وتصاعد ذلك بعد انهيار الدّولة العُثمَانِيّة، ثمّ قيام حركات مقاومة وجِهَاد لذلك الإحتلال، ثمّ نشوء أحزاب علمانية وقوميو ويسارية، استولت عَلى جهود الجِهَاد، ورتب المُستَعمرون لهم استلام الحكم بعد الإستقلال، فحاربوا الإِسْلَام ونهبوا البلاد وأذلوا العِبَاد لصالح أسيادهم، ثمّ ورث الرُّوس والأمريكان النفوذ الإستعمار، واستمرت المأساة وازدادت ضراوة.

ثمّ لما انفردت أمريكا بالسّيطرة عَلى العالم منذُ ١٩٩٠م، سيطرت عَلى أولئك الحكَّام وأخضعتهم، وبعد إحداث سِبتَمبر ٢٠٠١م، ازدادت الكارثة، وتحولت لكابوس عَلى المُسلِمِين جراء تحالف أولئك الحكَّام المرتدّين مع أمريكا ضدّ شعوبهم عامة والمُسلِمين الملتزمين خاصّة، تحت دعوى مُكَافحَة الإِرهَاب، حيث أعلنت أمريكا بقيادة جورج بوش الحملات الصّليبيّة اليَهُوْدية الجَدِيدة مفتتحة ذلك باحتلال أفغانستان ثمّ العراق، حيث تستعد للمراحل التّالية فيما يجاورها.

وبعد ما مر من الاستعراض السريع لأهم محطات التّاريخ الإِسْلَاميّ، وأهم الممالك والدّول الّتي قامت عبر ذلك التّاريخ، وقبل أن نزدلف إلي الفَصل التّالي الّذي سندرس فيه دراسة تحليلية محطات الصِّرَاع مع الرُّوم، وملامح ذلك الصِّرَاع، ومعادلات القوى فيه، وذلك من أجل البحث عن مسببات النّصر والهزيمة في مراحل ذلك الصِّرَاع، نرى من المفيد بل الضَّروري أن نعرض قبل ذلك لفكرة سريعة عن تاريخ هَؤُلَاءِ الرُّوم، والمحطات الرَّئيسيَّة للدول والممالك الّتي حملت رايتهم عبر التّاريخ، وإلى أيّامنا هذه، وكذلك عن خُلاصة مسار صِرَاع المُسلِمِين مع الرُّوم منذُ البعثة النّبويّة وإلى أيّامنا هذه.

لأن أهمّ المعلومات اللازمة لنا بعد معرفتنا بأنفسنا وتاريخنا ومحطات نصرنا وهزائمنا وأسباب ذلك، أن نعرف ما يمكن من مثل ذلك عن عدونا، لنعرف نقاط ضعفه وقوته وندرس تاريخ صراعنا معه، ومعطيات وأسباب النّصر عليه بإذن الله.

****

نبذة سريعة وموجزة عن تاريخ الرّوم (١)

(٦٠٠ قبل الميلاد – ٢٠٠٤ ميلادية)

بدأ تجمع قبائل الرُّومان القدماء في السهول الشرقية لشبه الجَزِيرَة الإيطالية، وهناك بنوا النواة القديمة لمدينة روما، خلال القرن السَّادس قبل الميلاد.

ونتيجة لضيق السهول الزراعية من حولها، خاضت تلك القبائل داخل شبه الجَزِيرَة صراعا داميا عَلى موارد الرزق، مما أكسبها مراسا في القِتَال ودفعها للانتشار خارج الجَزِيرَة والتمدد برا في أوروبّا وبحرا عَلى طول سواحل البحر المتوسط.

ورث الرُّومان عن اليونان حضارتهم الّتي انهارت، وورثوا معظم مكوّناتها، فورثوا دينها وآلهتها، كما ورثوا فلسفة اليونان ونظامهم السّياسيّ والاجتماعي الّذي يقوم عَلى نظام الطبقات (الأشراف ـ العبيد ـ العامّة)، كما طوروا نظامهم الديمقراطي واخذوا عنه أسس حضارتهم الّتي تعتبر امتدادا لحضارات اليونان من حيث الخصائص العامّة.

ولكونهم نشؤوا عَلى سواحل البحر، بنى الرُّومان الأوائل أسطولا تجاريا جابوا به موانئ المتوسط شرقا وغربا، وسرعان ما أغرت القوّة والأطماع ملوك الرُّومان الأوائل لبناء أسطول عسكريّ قوي يسيطرون به شيئا فشيئا عَلى سواحل ذلك البحر الّذي عرف لاحقا ببحر الرُّوم، حيث غزت جُيُوشهم برا وبحرا كامل البلاد الّتي حوله، لينشئوا مع الوقت إمبراطورية استعماريّة عتيدة ضمت كامل أوروبّا وبلاد اليونان وغرب بلاد الأناضول وبلاد الشّام ومصر وشمال أفريقيا، ووصل سلطانهم إلى القرن الإفريقي وبلاد الحبشة.

(١) لا تتوفر لي الآن – في عزلتي الحالية – أية مصادر لإعطاء هٰذا العنوان الكبير حقه علميا. وما كتبته هو حصيلة ما تبقىٰ في ذاكرتي مما درسته في منهج قسم التاريخ في جامعة بيروت العربيَّة، وما تراكم عندي من المعلومات والثّقافة العامّة. ولعلي أوفي الفقرة حقها في طبعة تالية إن يسر الله وأعان وكان في العمر والعزم بقية والله المستعان [المؤلف].

بهذا التمدد أصبح الرُّومان عَلَى تماس وصراع مع الإمبراطورية القوية الأخرى في الشّرق وهي (فارس)، حيث كانت الأناضول (تركيا) وحدود الشّام عَلَى العراق مسرح صِرَاع طويل ومرير بين الإمبراطوريتين استمر إلى قيام الحضارة الإِسْلَاميّة الّتي أزالتهما معا عن المشرق.

كما ذكرنا فقد بقي الرُّوم عَلَى دينهم الوثني إلى أن جاء المسيح ﵇ بدين النّصرانية، وتولى أحبار اليَهُوْد تحريض الحاكم الرُّوماني في فِلَسطِين عليه وعلى أتباعه، وسعوا في قتله وغدروا به، فرفعه الله تَعَالَى:

﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧﴾ [النساء]

فطاردوا أتباعه عَلَى مدى أكثر من قرنين من الزَّمن، تولى أحبار اليَهُوْد خلالها تحريف الدّين الجَدِيد، وساح أتباع المسيح ﵇ وحواريوه وتلاميذهم في الأرض مطاردين، وأقام لهم الرُّومان المذابح في كلّ مكان فروا إليه، كما جاء ذكر بعض ذلك في القرآن الكريم في قصة أصحاب الأخدود وأصحاب الكهف، واستمر ذلك إلى أن بلغ أوجه في عصر الإمبراطور(دقليديانوس) الّذي بطش بالنّصَارى بطشا شديدا حتَّى، سمي عصره في التّاريخ المسيحي بعصر الشّهداء، وهو الإمبراطور الّذي خرج في عهده أصحاب الكهف أواخر القرن الثّالث الميلادي والله أعلم.

وشيئا فشيئا ازداد أتباع النّصرانية في أنحاء الإمبراطورية الرُّومانية، وخلف الإمبراطور (قسطنطين) سلفه (دقليديانوس)، وكانت زوجة قسطنطين نصرانية، فاعترف بالديانة النّصرانية ديانة رسمية ثانية إلى جانب الوثنية، وهدأت مطاردة النّصَارى، ثمّ ما لبث قسطنطين أن تنصر وزالت الوثنية لتصبح النّصرانية دين الرُّومان منذُ مطلع القرن الرَّابع الميلادي وإلى اليَوْم.

لما تبنى قسطنطين النّصرانية، وجدها مشتتة عَلَى مذاهب كثيرة، نتيجة انتشار الحواريين وسرية أتباعهم وخلط الأحبار، فطلب إليهم أن يجمعوا الأناجيل الكثيرة ويختصروها في كتاب واحد تعتمده الإمبراطورية، فانعقد المجمع النّصراني الأوّل حيث وجد الأحبار والرهبان أمامهم زهاء أربعمائة إنجيل مختلفة الروايات يعود أقربها تاريخيا إلى المسيح إلى نحو مأتي سنة بعد رفعه ﵇ واعتقادهم

بصلبه، وذلك نتيجة البطش وتناقل أحبار النّصَارى روايات الإنجيل مشافهة خوفا من كتابتها خشية الرُّومان، فلما كتبت بعد قرنين من رفع المسيح أو أكثر، حوت كثيرا من الخلط نتيجة دس الرواة وتقادم العهد وهذا هو السبب الأساسي في تحريف الإنجيل، الّذي تتابعت عمليَّة تحريفه من قبل رجال الكنيسة زمن الرُّومان وبعده، وهكذا خرج المجمع الكنسي الأوّل بأربعة أناجيل معتمدة هيَ أناجيل (لوقا، ويوحنا، ومتى، مرقص).

كانَ (بطرس) أحد كبار أحبار اليَهُوْد المعادين لدين المسيح وأتباعه حيث تولى تعذيب من قدر عليه بالتّعاون مع الحاكم الرُّوماني في فِلَسطِين، ثمّ زعم أنه تنصر وأن لديه تكليفا ببناء الكنيسة الكبرى عَلى صخرة روما فذهب إلى هناك وأقام الكنيسة الّتي تطورت لتكون الفاتيكان وتصبح مقر باباوات النّصَارى إلى اليَوْم، وإلى بطرس هذا يعود تشويه وتحريف كثير من عقائد النّصَارى (وخاصة في المذهب الكاثوليكي) وهكذا أصبحت مذاهب النّصرانية خليطا من تعاليم المسيح والأصول اليَهُوْدية وما بقي من أثار الوثنية الرُّومانية الإغريقية الأصل، حيث سادة عَقِيْدَة التثليث، والأقانيم الثّلاثة (الأب والابن والروح القُدس) كما يدجل النّصَارى ويفترون عَلى الله الكذب، سُبحَانَهُ وتَعَالَى عما يشركون.

وتبنى النّصَارى عَقِيْدَة صلب المسيح، وأقاموا دينهم عَلى هذه الفرية الكبرى، ثمّ سيطر المذهب الكاثوليكي الّذي تولى أصحابه برئاسة بابا روما ودعم إمبراطورها مطاردة باقي المذاهب النّصرانية الّتي لم تؤمن بألوهية المسيح وغير ذلك من الأباطيل، وبطشت بهم بأقسى أساليب البطش وأنهت وجودهم.

الأمر المهم الثّاني الّذي فعله قسطنطين بعد إدخال النّصرانية وتوحيد الأناجيل، أنه بنى مدينة القُسطَنْطينيَّة، في مكان اختاره في إحدى رحلاته في منطقة القرن الذهبي عَلى مضيق البوسفور الّذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة، وهي مدينة إسلام بول (اسطنبول) اليَوْم، واتخذها قسطنطين عاصمة ثانية للامبراطورية بعد روما وكان ذلك بداية انقسام الرُّوم إلى شرقيين وغربيين وكان انقساما سياسيّاً وحتى مذهبيا.

بعد موت قسطنطين خلفه إمبراطور آخر رأى اتساع الإمبراطورية الرُّومانية الّتي شملت كامل أوروبّا وضفاف البحر الأسود ومعظم الأناضول وبلاد الشّام ووادي النيل والحبشة وشمال إفريقيا، فرأى تقسيمها إداريا إلى أربعة أقسام لكل قسم منها حاكم مستقل الإدارة، وبعد موت الإمبراطور تحول هذا التقسيم إلى ولايتين شرقيتين عاصمتهما القُسطَنْطينيَّة تضمان شرق أوروبّا وشرق وجنوب المتوسط وغربيتان تشملان معظم أوروبّا الغربيّة وعاصمتهما روما.

أواخر القرن الرَّابع الميلادي حصلت هجرات بشرية واسعة من وسط آسيا باتجاه غربها، فتدافعت القبائل وأجلى بعضها بعضا عن أراضيها، مما دفع بكثير منها إلى العبور إلى شمال شرق أوروبّا، وعرف ذلك بغزوات البرابرة الّذين نزلوا إلى شمال أووربا من جهة الدّول الإسكندنافية، وكان من أبرز تلك القبائل، قبائل الجرمان والألمان والتشيك والسلاف والغال والقوط والآلان والهون والوندال، وامتازت تلك القبائل بالبأس والوحشية في هجماتها ذات الطابع البربري، ولم تعرف تلك الشّعوب الوثنية الرعوية من أوجه الحضارة إلا القِتَال والتدمير.

أتعبت تلك الغزوات وأعمال السلب والنهب الّتي مارسها البرابرة عَلى شمال شرق الإمبراطورية الرُّومانية الأباطرة واستنزفت كثيرا من قوتهم فيما كانوا منهمكين في صراعهم التّاريخي مع الفرس في المشرق، واضطر إمبراطور الرُّوم إلى أن يعرض عَلى تلك القبائل أن تستوطن شمال شرق أوروبّا، ويكون لها حقوق السكن والزراعة والصيد شمال نهر الدانوب، لعله يستريح من هجماتهم، فاستقروا فترة ثمّ ما لبثوا أن اتخذوا من هذه المنطقة منطلقا للهجوم عَلى غرب أوروبّا.

وبرز (أتيلا) زعيم قبائل الهون الشرس، الّذي قاد جُيُوشا جرارة بلغ أن يهجم في بعض معاركة بربع مليون فارس! وكان شعار رايته خنجرا مغروسا في الأرض كتب تحته: (الأرض الّتي تطؤها خيلي لا ينبت فيها العشب)!

وأسفرت هجماته في النهاية عن سقوط روما أواسط القرن الخامس الميلادي وبالتالي اندفعت قبائل البرابرة لتستوطن غرب أوروبّا ولتستقر كلّ منها في ناحية من نواحيها مكونة الأساس القديم للدول الأوروبية القوميّة الحالية، فسكن **الغال** فرنسا وسموا بالفرنجة، وسكن **الجرمان والألمان**

حوض الرّاين (ألمانيا)، وسكن **الآلان** (إيطاليا)، وسكن **القوط** (أسبانيا)، وسكن **الوندال** جنوبها وإليهم نسبت أرضهم باسم (وندالوس) يعني أرض الوندال، والّتي صارت مع الوقت (الأندلس).

ومع الوقت اختلطت هذه الشّعوب بالرُّومان وشعوب تلك البلاد الأصلية، وتزاوجت معها ثمّ تنصرت، وقام لتلك الدّول ملوك وحضارات مستقلة، وتبع الجميع روما وبابا الفاتيكان كمركز للإشعاع الدّيني لكل أوروبّا، فيما بقي شرق أوروبّا موحدا حيث يقوم قيصر الرُّوم بحكمها ويسيطر عَلَى قسم من الأناضول وبلاد الشّام ومصر والحبشة وأجزاء من شمال أفريقيا حيث صار للروم الشرقيين الّذين سموا (البيزنطيين)، صار لهم مذهبهم المستقل وكنيستهم الـ(أرثوذوكسية)، وتحولت بعض الممالك في أوروبّا إلى الحجم الإمبراطوري كألمانيا وفرنسا وأسبانيا، فيما قامت ممالك أُخرى في إيطاليا والبرتغال وإنجلترا عَلَى النّظام الإقطاعي حيث تحالف الملك والنبلاء والكنيسة خلال تلك العصور الوسطى.

وهكذا بعث رسول الله ﷺ سنة ٦١٠ ميلادية، وكانت هذه أحوال النّظام الدّولي آنذاك، الفرس في العراق وإيران وحوض قزوين وأجزاء من أفغانستان والسند، والرُّوم البيزنطيين وملوك أوروبّا يتقاسمون الغرب وحوض المتوسط، وقامت دولت الإِسْلَام وتحققت نبوءته ﷺ حيث أخبر فيما روي عنه: «فَارِسُ نَطْحَةٌ أَوْ نَطْحَتَانِ ثُمَّ لَا فَارِسَ بَعْدَهَا أَبَدًا وَالرُّومُ ذَاتُ الْقُرُونِ أَصْحَابُ بَحْرٍ وَصَخْرٍ كُلَّمَا ذَهَبَ قَرْنٌ خَلَفَ قَرْنٌ مَكَانَهُ، هَيْهَاتَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ هُمْ أَصْحَابُكُمْ مَا كَانَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ»[1].

فزحفت جُيُوش الْمُسلِمِين لتدخل فارس بمكوّناتها في حضارة الإِسْلَام، ولتنتزع من ملك الرُّوم كامل مُستَعمراتهم شرق وجنوب المتوسط، وليؤول النّظام الدّولي كما بينا في الفَصل السابق، صراعا بين الْمُسلِمِين والرُّوم.

خلال القرن الحادي عشر والثّاني عشر الميلادي أغرى ضعف الْمُسلِمِين الرُّوم، وبتشجيع من بابا الفاتيكان الّذي التقت نداءاته مع مصالح ملوك أوربّا الاقتصاديَّة ومشاكلهم الداخليَّة وفيما بينهم،

(١) رواه ابن أبي الشّيبة في مصنّفه (١٩٣٤٢)، وابن حمّاد في الفتن (١٣٤٦)، وقال الألباني: رجاله ثقات لكنه مرسل وعليه فهو ضعيف (الضعيفة – ٣٩٩٩).

انطلقت الحملات الصّليبيّة الأولى من أوربّا الغربيّة، وساهم فيها ملوك أوربّا وعلى رأسهم ملوك إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وعاونهم قيصر القُسطَنْطينيَّة بالعتاد وبالأسطول البحري.

استمرت الحُرُوب الصّليبيّة نحو قرنيين ونيف، ولم تنقطع خلالها الحُرُوب الداخليَّة بين الممالك الأوربية، وكذلك الصِّرَاعات الدامية بين نبلاء أوربّا وأمراء الإقطاعيات وبين ملوكها، وكذلك بين الملوك والباباوات المتعاقبين، وكذلك بين الرُّوم الشرقيين ومن جاورهم من ممالك أوربّا الشرقية، وباندحار الحملات الصّليبيّة كما سنبين في الفقرات اللاحقة من هذا الفَصل، عادت جُيُوش أوربّا من المشرق تحمل معها روح الحضارة الإِسْلَاميّة وعلومها الإنسانية والعلمية، وخلاصة ما حفظته من حضارات الشّرق الّتي صهرتها حضارت الإِسْلَام ونقلت خلاصتها، كحضارات الهند وفارس والتركستان وتخوم الصين.

وخلال تلك العصور الوسطى (من القرن الخامس، وإلى القرن الخامس عشر الميلادية) كانت أوربّا تغط في حال من التخلف والجهل، وظلمات صِرَاع الملوك وأمراء الإقطاع وهيمنة الكنيسة المتحالفة معهم، والَّتي تولت إغراق النّاس في ظلمات الجهل والجَاهِليَّة، وكانت ممالك أوربّا عَلى تماس حضاري مع ممالك المُسلِمِين في الأندلس، وكان أبناء الملوك وكبار النبلاء يقصدون عاصمتها قرطبة وجامعاتها ومكتباتها للدراسة وطلب العلم.

وبقي الحال هكذا إلى أن استطاع الأتراك العُثمَانِيّون إسقاط القُسطَنْطينيَّة عام ١٤٥٣ ميلادية، لتنتهي العصور الوسطى ويبدأ العصر الحديث في أوربّا، وبعد ذلك بقليل تمكن ملوك أسبانيا النّصَارى مدعومين من ملوك أوربّا من إسقاط آخر ممالك المُسلِمِين في الأندلس(غرناطة) سنة ١٤٩٢م، وكذلك ورثوا خُلاصة حضارتها، وأدت هذه العوامل إلى نهضة الممالك الأوروبية ودولها القوميّة.

وفي نفس الوقت مطلع القرن الخامس عشر أيضا، ابتدأ انطلاق روسيا القيصرية شرقا لتسيطر عَلى النصف الشمالي لقارة آسيا(خلال القرون الثّلاثة التّالية)، وتنضم إلى نادي الدّول الأوربية الصّليبيّة الكبرى، ولتدخل في حُرُوب صليبيّة طاحنة مع الدّولة العُثمَانِيّة فيما بعد كما رأينا.

خلال القرون الخامس عشر والسَّادس عشر والسَّابع عشر وإلى منتصف الثَّامن عشر، سيطرت الدّولة العُثمَانِيّة عَلى البحر المتوسط وعلى الشّرق، وتوغلت في شرق أوربّا واستولت عَلى ممالكها وعلى مخلفات الإمبراطورية الرُّومانية البيزنطية وتوغلت غربا في بلاد البلقان، لتقف منذُ القرن السَّابع عشر وإلى أواسط القرن الثَّامن عشر عَلى أسوار فينا عاصمة النمسا، وهناك اتحدت جهود ملوك أوربّا والفاتيكان لوقف هذا الزَّحف الإِسْلَاميّ، حيث بدأ العد التنازلي للإمبراطورية العُثمَانِيّة خلال النصف الثّاني من القرن الثَّامن عشر، ولينطلق نجم الحضارة الأوربية الحديثة (الرُّوم المعاصرون)، بعد أن أفل نجم المُسلِمِين.

وخلال القرن الخامس عشر ونتيجة لما عانت شعوب أوربّا من سيطرة بابا الفاتيكان والمذهب الكاثوليكي، قامت حركات إصلاحية ولدت في ألمانيا وانتشرت في أوربّا وأدت إلى ظهور مذهب نصراني جديد هو المذهب (البروتستانتي) الّذي حمل كثيرا من المؤثرات اليَهُوْدية التوراتية، ثمّ ما لبث أن لاقى رواجا في بَرِيطَانيَا وانتقل منها ليستقر في الولايات المتحدة بعد ذلك، وبذلك انقسمت أوربّا عَلى ثلاثة مذاهب رئيسيَّة توزعت الأغلبية جغرافيا فيها بحيث ساد المذهب (الأرثوذوكسي) في روسيا وشرق أوربّا، وساد المذهب (الكاثوليكي) وسط أوربّا وغربها وانتشر المذهب (البروتستانتي) في بَرِيطَانيَا والولايات المتحدة.

أدت الثَّورة الصناعية والعلمية لنهضة أوربّا، وأدت الثَّورة الفرنسية أواخر القرن الثَّامن عشر إلى يقظة شعوب أوربّا ونهضتها، وكانت حركة الكشوف الاستعماريّة الّتي انطلقت من أوربّا منذُ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي بمباركة البابا قد أسفرت عن قيام إمبراطوريات بحرية استعماريّة كبرى عَلى رأسها: البرتغال – أسبانيا- بَرِيطَانيَا- فرنسا- هولندا....

وخلال القرن الثَّامن عشر شهدت أوربّا ثورات عديدة، وانهار النّظام الإقطاعي، وتكونت (البرجوازية)، لينهض النّظام الصناعي الرأسمالي مكان الإقطاع، وقامت معارك كبرى بين الملوك والنبلاء أسفرت عن توحيد إمارات مبعثرة وتكوين دول اتحادية، مثل حُرُوب توحيد إيطاليا وألمانيا

خلال القرن التّاسع عشر، وبدأت ترتسم معالم خارطة أوربّا ودولها القوميّة بالشكل القريب من شكلها الحالي.

وخلال القرن الثَّامن عشر والتاسع عشر دخلت الإمبراطوريات الكبرى الأوربية حُرُوبا استعماريّة عديدة فيما بينها في داخل أوربّا وفي المُستَعمرات البعيدة وراء البحار، من أمريكا الشمالية والجنوبية إلى إفريقيا إلى جنوب وجنوب غرب آسيا وفي الجزر النائية في المحيطات، وأسفرت تلك المعارك عن اندحار أسبانيا والبرتغال، واستيلاء البريطانيين والفرنسيين عَلى معظم مُستَعمراتها لتصبح الدّولتان الأقوى في أوربّا الّتي صارت حضارتها الغربيّة الوريثة الطبيعيّة لحضارة الرُّوم.

وبوصول الإمبراطورية العُثْمَانِيّة لما أسلفنا من أسباب الضّعف، دخلت في حالة الاحتضار ودعيت في عرف السّياسة الدّولية آنذاك بـ(الرجل المريض)، وبدأت أوربّا الاستعماريّة، تتآمر عَلى تقاسمها، وتسن سكاكينها لتقسيم وابتلاع أشلائها، ودخل اليَهُوْد عَلى خط المؤامرة في هذه المَرحَلَة ليتولوا الدسائس، ويستولوا عَلى الجملة العصبية للروم الجدد (أوربّا وأمريكا)، وذلك بسيطرتهم عَلى عالم السّياسة والمال والفكر الإعلام والدعارة والجاسوسية!

أهمّ أسباب نهضة أوربّا واسترجاعها لواء الحضارة وقيام الحضارة الغربيّة وانطلاقتها الاستعماريّة منذُ مطلع القرن السَّادس عشر- باختصار-

الحملات الصّليبيّة عَلى المشرق ونقل خُلاصة التراث الحضاري الإِسْلَاميّ وما حفظته من حضارات المشرق في فارس والهند ووسط آسيا والإفادة من كلّ ذلك، ونشاط حركة الترجمة العلمية ودراسة أسباب الهزيمة في الحُرُوب الصّليبيّة، (منذ القرن الثّالث عشر).

سقوط القُسطَنْطينيَّة وهِجرَة العُلَماء والمكتبات وإرث الحضارة الرُّومانية إلى أوربّا، (خلال القرن الخامس عشر).

سقوط الأندلس ونهب مكتباتها الزاهرة وإكمال ما حصلوه من الحملات الصّليبيّة من وراثة مكوّنات الحضارة العربيَّة الإِسْلَاميّة، (منذ القرن السَّادس عشر).

الكشوف الجغرافيّة وتطور الأساطيل الأوربية وعودة فوائد ذلك من أرباح التجارة ولاسيما بعد اكتشاف رأس الرجاء الصّالح وتحويل طريق التجارة عن بلاد المُسلِمِين، وما جنوه من كنوز البلاد المفتوحة لاسيما العالم الجَدِيد (القارة الأمريكيّة) منذُ القرن السَّادس عشر).

اكتشاف البخار وتطوير السفن والقاطرات واكتشاف البارود والمتفجرات وتطوير الأَسْلِحة (منذ القرن السَّابع عشر).

الثَّورة الفرنسية نهايات القرن ١٨ عَلى الملكية وحلفها المقدّس مع الكنيسة وانطلاق الأفكار السّياسيّة والنهضة القوميّة الّتي أدت إلى سقوط النّظام الإقطاعي وتوحد الدّول القوميّة الكبرى كألمانيا وإيطاليا وفرنسا عَلى حساب الإمارات الصغيرة.

الثَّورة عَلى الكنيسة والتفلت من تحجرها وانطلاق العالم التجريبي والحريَّة الفكريّة بعد الثَّورة الفرنسية عَلى الملوك والكنيسة.

الثَّورة الصناعية في القرنين الـ (١٨) والـ (١٩) وثورة المخترعات العلمية وتطوير الآلة الصناعية المدنيّة والعسكريّة.

الرّوح العسكريّة والتوجه الإستعمار للغزو والفتوح والتَّضحِيَة وبذل الجهود في مختلف أقطار الأرض تحت قيادة ملوك مغامرين تواقين للمجد والثراء والتوسع.

وهكذا ولّدت هذه العوامل دولا استعماريّة قوية كانَ في طليعتها روسيا القيصرية الّتي اجتاحت جُيُوشها وسيطرت أكثر من نصف قارة آسيا، وبريطانيا الّتي شكلت إمبراطورية احتوت الصين والهند ومعظم أمريكا الشمالية ودول كثيرة أُخرى في آسيا وأفريقيا حتَّى أطلقوا عليها اسم (الإمبراطورية الّتي لا تغيب عنها الشّمس)، وفرنسا الّتي تليها في الانتشار والاتساع وكذلك أسبانيا الإمبراطورية والبرتغال اللتان كانتا سباقتان للانتشار الاستعماريّ ودول أُخرى كهولندا وبلجيكا وإيطاليا.

خلال القرن التّاسع عشر بدأت حُرُوب الإستقلال في أمريكا الشمالية وأسفرت الثَّورة الّتي قادها (جورج واشنطن) عن قيام الولايات المتحدة الأمريكيّة الّتي تكونت بعد الحُرُوب الأهلية التّالية لتنضم إلى جانب روسيا القيصرية ودول أوربّا الغربيّة إلى نادي الدّول الكبرى.

أدى الصِّرَاع الأوربي – الأوربي عَلى السياسات الأوربية وعلى الغنائم الاستعماريّة إلى اشتعال الحَرب العَالَمِيّة الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، الّتي ذهب ضحيتها زهاء ستة ملايين إنسان! الّتي كانَ من نتائجها انهيار الإمبراطورية العُثمَانِيّة، حيث رسمت بَرِيطَانيَا وفرنسا خُطّة تقاسم تركتها، وامتدت لتصبح أكبر دولتين استعماريّتين، في التّاريخ ولاسيما بَرِيطَانيَا الّتي صارت إمبراطورية لا تغيب عنها الشّمس.

وهكذا انطلقت أوربّا بعد الحَرب العَالَمِيّة الأولى في الموجة الرَّئيسيَّة من الحملات الصّليبيّة الثّانية عَلى العالم الإِسْلَامِيّ، والَّتي يمكن التّاريخ لها عمليا منذُ حملة نابليون عَلى مصر عام ١٧٩٨، رغم أن زحف الصّليبيّين عَلى أطراف العالم الإِسْلَامِيّ كانَ قد بدأ منذُ مطلع القرن السَّادس عشر حيث احتلت البرتغال وأسبانيا وفرنسا وبريطانيا وهولندا كثيرا من المُستَعمرات في أطراف العالم الإِسْلَامِيّ، ولكن ذروة الحملات كانت بعد اتفاقية سيكس – بيكو سنة ١٩١٧ م، بين فرنسا وبريطانيا.

أدى الصِّرَاع الاستعماريّ بين الدّول الأوربية ذاتها وظهور ألمانيا النازية وتكوينها محورا مناوئا للدول الأوربية بالتّعاون مع إيطاليا واليابان إلى نشوب الحَرب العَالَمِيّة الثّانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، وأدت هذه الحَرب الّتي حصدت زهاء من ٨٢ مليون إنسان إلى تحطيم البنى الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة للدول الاستعماريّة الأوربية وأعادت رسم خارطة أوربّا بشكلها الحالي تقريبا، كما أدت إلى ضمور الدّول الأوربية وبروز الإتحاد السوفييتي الّذي ورث روسيا القيصرية وأقام دولة شيوعية تحكم إرثها من موسكو، بعد الثَّورة البلشفية الشُّيُوعِيّة سنة ١٩١٧ م، وكذلك بروز الولايات المتحدة الأمريكيّة كأكبر دولتين من دول الرُّوم تسيطران عَلى مقدرات العالم، وورثت هاتان الدّولتان معظم الإرث الاستعماريّ الهام للدول الأوربية، وورثتا بذلك راية الرُّوم المعاصرين بصورة رئيسيَّة.

كما أسلفنا قام النّظام الدّولي الجَدِيد بعيد الحَرب العَالَمِيّة الثّانية وتقاسم الإتحاد السُّوفيتيّ بشكل رئيسي والولايات المتحدة وما تبقى من دول أوربّا القوية ؛ فرنسا وبريطانيا سيادة العالم مدّة نصف قرن.

إنهار الإتحاد السُّوفيتيّ بعد ورطته في أفغانستان وانفردت الولايات المتحدة الأمريكيّة الّتي نضجت قوتها العسكريّة لتصبح أقوى من مجموع أقوى ٩ دول عظمى عسكريّاً تليها في قائمة الدّول القوية كما تقول الدراسات الاستراتيجيّة، ولينضم اقتصادها ليكون أعلى اقتصاد قوي في الأرض، لتصبح بقدراتها العلمية والتكنولوجية وتعدادها الّذي ناهز ٣٠٠ مليون نسمة، وريثة حضارة الرُّومان كما أعلن قادتها، وهذه حقيقة.

وهرعت بَرِيطَانيَا (الدّولة الاستعماريّة العجوز المنحلة) لتدخل في فلكها بحكم وحدة اللغة والمذهب (البروتستنتي)، والتّاريخ المشترك، وصارت بقية الدّول الأوربية تابعة لها عبر حلف النّاتو، الّذي بدأ يلحق به معظم مكوّنات حلف وارسو من دول أوربّا الشرقية وحتى روسيا ذاتها، لتتحد جهود الرُّوم في الحملات الصّليبيّة الثّالثة عَلى العالم الإِسْلَاميّ بقيادة أمريكا الّتي انطلقت منذُ إعلان قيام النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد عام ١٩٩٠م وبلغت مداها منذُ نهاية القرن العِشرين ومطلع الألفية الميلادية الثّالثة، وهي أيّامنا هذه، حيث تولت أمريكا وحلفاؤها وذيولها المنافقون أن يملؤوا الأرض جورا وظلما.

السّيطرة اليَهُوْدية عَلى الرُّوم المعاصرين (الإتحاد السوفييتي البائد – أوربّا– أمريكا):

(١) - تسلط اليَهُوْد عَلى الإتحاد السوفييتي البائد وروسيا الحالية:

- الثَّورة البلشفية واليَهُوْد:

الثَّورة البلشفية يهودية التَّفكير والتخطيط والتّمويل والتنفيذ، ففيلسوفها ومفكرها هو ماركس، حفيد حاخام اليَهُوْدي (مردخاي ماركس)، وكذلك لينين، الّذي حول كلمات ماركس إلى واقع ثورة، وأمد الحركة الشُّيُوعِيّة بمؤلفاته هو يهودي كذلك.

جاء في قرار بني بيرث (أبناء العهد اليَهُوْدية) سنة (١٩٣٩) مايلي: (لقد نشرنا روح الثّوريّة التحريرية الكاذبة بين شعوب الغير، لإقناعهم بالتخطي عن أديانهم بل بالشّعوب بالخجل من

الإعلان عن تعاليم هذه الأديان، ونجحنا في إقناع كثيرين بالإعلان جهارا عن إلحادهم الكلي وعدم الإيمان بخالق البتة، وأغويناهم بالتفاخر بكونهم أحفاد القرود – نظريَّة داروين –، ثمّ قدمنا لهم عقائد يستحيل عليهم سبر أغوارها الحقيقيَّة: الشُّيُوعِيّة والفوضوية الّتي تخدم مصالحنا وأهدافنا.

وأما التّمويل فهو يهودي كما مر.

وكان (يح بروكلن) الحي الشرقي من نيويورك مسرحا لتخطيط للثورة، يتولاه (تروتسكي) ولا زال هذا الحي هو مركز التخطيط اليَهُوْدي العَالَمِيّ لتدمير البشرية.

وقد صدر في الأسبوع الأوّل للثورة قرار ذو شقين بحق اليَهُوْد:

- يعتبر عداء اليَهُوْد عداء للجنس السامي يعاقب عليه قانُونيّا.
- الاعتراف بحق اليَهُوْد في أنشاء وطن قومي في فِلَسطِين.

– المكتب السّياسيّ الأوّل للثورة البلشفية:

مكون من سبعة أشخاص خمسة من اليَهُوْد لأبوين وهم:

لينين: يهودي، وزوجته (تربسكايا) يهودية.

تروتسكي: يهودي.

كامينيف: يهودي.

سوكولنكوف: يهودي.

زينونيف: يهودي.

أما ستالين فزوجته يهودية اسمها (روزاكاجا نوفتش).

يبنوف: روسي وليس يهوديا، وهو الوحيد.

– الدّولة الّتي شكلها لينين سنة (١٩١٨م).

وهذه أول حكومة بعد الثَّورة:

الجهة	العدد الكلي	اليَهُوْد
الوزراء	٢٢	١٧
إدارة الحَرب	٤٣	٣٤
لجنة الشئون الداخليَّة	٦٤	٤٥
لجنة الشئون الخارجيّة	١٧	١٣
لجنة الصحافة	٤٢	٤١
مجموع كبار الموظفين	٥٣٢	٤٢٥

أي أن نسبة الموظفين (٨٠٪) من اليَهُوْد.

ولعلّ القارئ الكريم يحسب أن هذا كانَ في بداية الثَّورة، إلا أن الأمر استمر حتَّى يومنا هذا ففي سنة (١٩٦٥م) كتبت الكاتبة السُّوفيتيّة (نينا اليكسيفا): (عدد اليَهُوْد في الإتحاد السُّوفيتيّ لا يزيد عن واحد في المئة، وكلنهم يمثلون ستين في المائة من هيئة التدريس في المعاهد العليا والجامعات، وثمانين في المائة من مسؤولية التوجيه العقائدي في الحزب السّياسة الخارجيّة، وإن نائب رئيس الوزراء ورئيس المجلس الاقتصاديّ في الوسفيات يهودي)[(١)].

(٢) - مؤتمر يالطة سنة (١٩٤٥م) وتسلط اليَهُوْد عَلى الدّول العظمى:

إثر الحَرب الثّانية اجتمع الأقطاب الثّلاثة (روزفلت، ستالين، تشرشل) وقرروا: محو النازية وتقسيم ألمانيا إلى مناطق احتلال بين الحلفاء، وتصفية الإمبراطورية اليابانية، وتشكيل حُكُومَات ديمقراطية في أوروبّا الشرقية، ودرسوا المذكرة الصّهيونيّة الّتي تتضمن:

- أن يفرض عَلى ألمانيا تعويضات قدرها (٥ مليارات) دولار توزع عَلى اليَهُوْد المتضررين في أوربّا والّذين نزحوا إلى أمريكا وفلسطين.

---

(١) (الذخائر ج١/ ٩٧١-٩٧٣)

- رفع جميع القيود عن الهِجرَة اليَهُوْدية إلى فِلَسطِين.
- منح اليَهُوْد المساعدات لإنشاء كيانهم السّياسيّ.

أما الأقطاب الثّلاثة فيهم يهود إما نسبا وإما ميولا وعاطفة.

فروزفلت: يهودي منحدر من أسرة يهودية اسمها (روزنبرغ)، ثمّ تحولت إلى روزفلت، وهاجرت من أسبانيا إلى أمريكا، وكان جده (كلينتون روزفلت) أحد ثلاثة كونوا لجنة لجمع الأموال لماركس وإنجليز لإخراج البيان الشُّيُوعِيّ، وقد قدم اليَهُوْد إلى الرَّئيس الأمريكيّ روزفلت ميدالية ذهبية مكتوب عليه:

(الرفاهية والحكمة لفرنكلين روزفلت نبينا الجَدِيد الّذي سيعيدنا إلى الأرض الميعاد).

أما ستالين: فهو يهودي نسبا، وزوجته يهودية اسمها (روزاكاجان فتش)، وقد بقيت هذه الحسناء اليَهُوْدية مع أسرتها تدير الإتحاد السُّوفيتيّ قرابة ثلاثة عقود حكم فيها ستالين، وقد كانَ (لازاركاجانوفتش) شقيق روزا مسيطرا عَلى ستالين ومولوتوف].

{ **وأما تشرشل** فهو من أخلص المتحمسين للفكرة الصّهيونيّة }[1].

(٣) - تسلط اليَهُوْد عَلى أوربّا:

كنت أمتلك في أرشيفي بعض المعلومات الإحصائية والدراسات حول هذا الموضوع، ولكني فقدتها في لندن بسبب هجرتي السريعة منها إلى أفغانستان، ثمّ فقدت القسم الآخر في أفغانستان إبَّان سقوطها.

ولكن خُلاصة ما أتذكره من ذلك هو السّيطرة الهائلة للوبيات اليَهُوْدية والصّهيونيّة عَلى عالم السّياسة والصحافة والإعلام والبنوك والمؤسسات الاقتصاديَّة في أوربّا عموما.

فمما أذكر عَلى سبيل المثال:

---

(١) (الذخائر ج١/ ٩٨١)

- نشرت مجلة (المشاهد السّياسيّ) وتصدرها الـ (BBC) في أحد أعدادها سنة ١٩٩٦، دراسة عن قوة اللوبي اليَهُوْدي في الحزبين البريطانيين الرَّئيسيين (حزب المحافظين) و(حزب العمال)، وخلصت إلى نتيجة، أن اليَهُوْد يسيطرون عَلَى الحزبين بدرجة متقاربة ومدهشة، وتحيرت في السّؤال: من سيدعم اليَهُوْد في الإنتخابات بين الحزبين ؟! وكنت أمتلك المجلة في أرشيفي، وفيها تقرير إحصائي مهم.

- ولما كنت أدرس في فرنسا سنة (١٩٨٥) عقدت المنظمات والجَمعِيّات اليَهُوْدية مؤتمرا تحت شعار (سنة ٢٠٠٠- فرنسا يهودية!) وكان بالفرنسية: **L an 2000 La France est juif**.

ونشرت الصّحف دراسات عن انتشار اليَهُوْد في مختلف مؤسسات الدّولة فكانت إحصائية مدهشة! وقد قام حزب الجبهة الوطنيّة اليميني القومي الفرنسي المتطرف ضدّ اليَهُوْد والعرب والأجانب بنشر معلومات خطيرة عن هذا التغلغل اليَهُوْدي.

وقل مثل ذلك عن كلّ بلد آخر ويمكن تحصيل هذه المعلومات لمن أراد استزادة من الإنترنيت، ويكفي أن نرى مواقف الإتحاد الأوربي ومنها إعلانه المنظمات الفلسطينية ومنها حماس منظمات إرهابية، رغم اعتراف أوربّا بحق مقاومة الإحتلال، والشواهد كثيرة، رغم أن الشّعوب الأوربية بدأت تعلن تبرمها بهذا الوضع، حتَّى أعلنت إحصائية رسمية للاتحاد الأوربي أن زهاء ٦٠٪ من الشعب الأوربي يرى إسرائيل هيَ الخطر الأوّل عَلَى السَّلام العَالَمِيّ، مما أثار ردة فعل عنيفة في أوساط اليَهُوْد الأوربيين وإسرائيل.

(٤) - تسلط اليَهُوْد عَلَى أمريكا المعاصرة، وظاهرة المسيحيين المتهودين (الكنيسة الإنجيلية) و(المحافظون الجدد):

اكتشفت أمريكا سنة ١٤٩٢ميلادية، ولما بدأت أخبار خيرات العالم الجَدِيد تصل إلى مسامع النّاس في أوربّا، صارت عَلَى مر ثلاث عقود تلت مهوى أفئدة المغامرين، والمنشقين والمطاردين في أوربّا، كما أصبحت منفى للمجرمين والمنفيين.

وأدرك اليَهُوْد الّذين كانوا يعانون في أوربّا من الظُّلم والاحتقار من النّصَارى، أهمية هذا العالم الجَدِيد بل اعتقد بعضهم أنها أرض الميعاد الّتي بشروا بها في كتبهم القديمة.

ولما ظهرت مناجم الذهب والثّروات الطائلة تحركت حاسة الشم والنهم لدى اليَهُوْد وبدؤوا بِهجرَة كثيفة نحو العالم الجَدِيد، وسرعان ما شكلوا جالية كبيرة وعملوا في مجالهم التّاريخي، المال والربا.

ولما استقلت أمريكا وبدأت تتكون الولايات المتحدة الأمريكيّة كانَ بعضهم قد حاز نفوذا في مجالات البنوك ورؤوس الأموال، والأعمال المصرفية، حتَّى تخوف وتنبأ أحد أوائل الرؤساء الأمريكان وهو (؟؟)، من نفوذ هذه الشرذمة وحذر منهم، وقال في وثيقة ما تزال محفوظة في مكتبة الكونغرس محذرا قومه منهم، بأنه يتوقع إلاّ يكبح جماح هذه الفئة ويحال بينها وبين طموحاتها وجشعها فإنه يتوقع إن يأتي عَلى أمته الأمريكيّة زمان يتحكم فيهم هَؤُلَاءِ ويملكون أقوّاتهم، وكنت أحتفظ بصورة عن مقولته تلك وهي شهيرة.

وفعلا آل الأمر إلى ماحذر منه، فقد لعب اليَهُوْد دورا ماليا بارزا في تمويل الدّول في الحَرب العَالمِيّة الأولى، ثمّ الثّانية، ودخلوا في تمويل نهضة التصنيع في أوربّا وأمريكا، ولم ينصرم القرن التّاسع عشر إلا واليَهُوْد يحتكرون تجارة المال والأعمال ولأعمال المصرفية في أوربّا وأمريكا، وصار لهم لوبي يتحكم بحملات الإنتخابات الأمريكيّة، والأوربية، وسيطروا عَلى قطاع الإعلام والصحافة في أمريكا كما أوربّا، وسيطروا عَلى صناعة السينما وعالم هوليود، ودسوا حسناواتهم ليكونوا عشيقات أو زوجات لكبار الشخصيات السّياسيّة والاقتصاديَّة! وقامت لهم الجَمعِيّات والمنظمات، وبلغ تعداد الجالية اليَهُوْدية في أمريكا أكثر من ثمانية مليون نسمة يقطن أكثرهم قلب الولايات المتحدة الاقتصاديّ (مدينة نيويورك) الّتي تعتبر من عواصم اليَهُوْد في العالم، ثمّ دخل اليَهُوْد وأبناء اليَهُوْديات مجال السّياسة بأنفسهم وصار منهم النواب في الكونغرس ومجلس الشُّيُوخ والوزراء وحتى الرؤساء!

ونظرا لاعتناق الغالبيّة من نصارى أمريكا المذهب البروتستانتي، الّذي يرتكز عَلى تفسيرات العهد القديم (التوراة) والكتب والأدبيات اليَهُوْدية، ولدت مدارس مذهبية جديدة تعتبر حب اليَهُوْد والعمل عَلى إعادة مجدهم لإسرائيل من أقرب القربات الدّينيّة.

وتطورت هذه المذاهب والجَمعِيّات وصار لها وسائلها الإعلاميَّة الكثيرة من مئات محطات الراديو والقنوات التلفزيونية والجرائد والمجلات، والكتاب ومراكز الدراسات والدّعوة...إلخ،

ثمّ ظهرت الكنيسة (الإنجيلية) وكان من أبرز معتقدات وجوب دعم إسرائيل كواجب ديني، والاعتقاد بأن معركة عالميّة ستقوم في سهل (هرمجدون) شمال فِلَسطِين بين اليَهُوْد المدعومين من ملوك النّصَارى، وبين المُسلِمِين، وأنها ستكون معارك يفنى فيها ملايين البشر، وهي مقدمة لعودة المسيح نزوله من السّماء لإنقاذ المُؤمِنِين به، واعتقد هَؤُلَاءِ أن نهايات القرن العِشرين أو أوائل القرن الحالي هيَ موعد لهذا الحدث، وكان الكثيرون من الساسة الأمريكان من اعتقد بهذه الطلاسم منهم الرَّئيس ريغان نفسه! وقد كتبت كتب عدّة حول هذا الموضوع وترجم بعضها للعربيَّة، (وللشيخ سفر الحوالي دراسات وكتب قيمة في هذا الموضوع لمن أراد استزادة).

ولذلك تلقت إسرائيل دعما لا متناهيا من أمريكا خلال الربع الأخير من القرن الماضي وما زالت، ثمّ ظهرت نهايات القرن الماضي في أمريكا مدرسة دينية سياسيّة ألعن في معتقداتها، أطلقوا عَلى أنفسهم (المحافظون الجدد)، وكان منهم إدارة الرَّئيس بوش الأب، وإدارة الحالية والرَّئيس الحالي جورج بوش الابن نفسه.

ويقيم هَؤُلَاءِ مذهبهم كذلك عَلى الأساطير التوراتية ووجوب إعادة بناء الهيكل ومملكة إسرائيل وأن الله يبارك أمريكا لقيامها بهذه المهمة، بالإضافة للأحلام الإمبراطورية في توسع أمريكا، وسيطرتهم عَلى الشّرق الأوسط متحالفين مع اليَهُوْد، وعلى سيادة حضارة العرق الأبيض، وضرورة إفناء الأعراق الأخرى، وتبنوا نظَريَّات (**صِرَاع الحضارات**) وأن الأرض لا تتسع لحضارتين، وأن عَلى **حضارة العرق الأبيض: النّصرانية الدّين، الدِّيمقراطيَّة السّياسة، الرأسمالية الاقتصاد، الإباحية الأخلاق والثّقافة**، أن تسحق الحضارات الأخرى وتخضعها وتفرض عليها دينها وثقافتها ونظامها،

بل إن المحافظين الجدد هَؤُلَاءِ والّذين يمكن تسميتهم بالصّليبيّين المتهودين، أعلنوا اتخاذهم من الإِسْلَام والمُسلِمين عدوهم الأوّل، وأعلنوا الصدام مع حضارتهم كقدر محتوم، بل قَالَ أحد كبرائهم: (نحن ورثة حضارة الرُّوم، وأعداؤها في التّاريخ أعداؤنا في الحاضر)، وصرح جورج بوش بأن حربه الحالية في الشّرق الأوسط حرب صليبيّة، ثمّ اعتذر وقال أنها زلة لسان، ثمّ زلّها الخبيث عدّة مرات متتالية! وقام أحد كبراء جنرالاته من القساوسة العاملين في التوجيه بالنيل من الإِسْلَام ومن رسول الإِسْلَام ﷺ بأسلوب يتماشى مع حقارة ذلك الجنرال الملعون، والشواهد تحتاج كتابا مفردا، وهي مشتهرة،

وهكذا سيطر اليَهُوْد عَلى الإدارة الحالية سيطرة تامة، وصار اليَهُوْد وأبناء وأزواج اليَهُوْديات وتلاميذهم أغلبية في مجلس الشُّيُوخ، والكونغرس، والحكومة، والمؤسسات، وصارت حربنا مع إسرائيل هيَ عمليا حرب مع أمريكا، أهلكهم الله.

هذا بإيجاز مختصر تاريخ الرُّوم منذُ نشأتهم وإلى يومنا هذا والّذي استمر زهاء ٢٥٠٠ سنة حتَّى الآن وسيستمر إلى أن تقوم السَّاعة عَلى شرار الخلق، ويكون الرُّوم حينها أكثر النّاس، كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصّلاة والسَّلام .

****

تطور النّظام الدّولي وخلاصة الصِّرَاع بين المُسلمين والرُّوم

(٨هـ - ١٤٢٥هـ)(٦٢٩ م - ٢٠٠٤ م)

عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قَالَ: «ثمّ يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»(١).

وعن رسول الله ﷺ أنه قَالَ: «فَارِسُ نَطْحَةٌ أَوْ نَطْحَتَانِ ثُمَّ لَا فَارِسَ بَعْدَهَا أَبَدًا وَالرُّومُ ذَاتُ الْقُرُونِ أَصْحَابُ بَحْرٍ وَصَخْرٍ كُلَّمَا ذَهَبَ قَرْنٌ خَلَفَ قَرْنٌ مَكَانَهُ، هَيْهَاتَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ هُمْ أَصْحَابُكُمْ مَا كَانَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ»(٢).

و عنه ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَلَيْكُمُ الرُّومُ، وَإِنَّمَا هَلَكَتُهُمْ مَعَ السَّاعَةِ»(٣).

لو أردنا أن نلخص صراعات الحضارة الإِسْلَاميّة وحُرُوبها مع أعدائها عبر التّاريخ منذُ قامت وإلى يومنا هٰذا، نجدها تثبت ما جاء في إخباره ﷺ بكل جلاء، فقد كانت مراحل الصِّرَاع عَلى الشّكل التّالي:

الصِّرَاع مع الرُّوم خلال الدّولة النّبويّة:

كانَ توجيه الرَّسُول ﷺ للمسلمين لِجهَاد الرُّوم (بني الأصفر)، هو الأساس لما تمَّ بعد ذلك، من استمرار لهذا الصِّرَاع الأزلي، وقد كانَ فاتحة ذلك كما رأينا في مؤتة (٨هـ - ٦٢٩ م) بعد غدرهم برسول

(١) رواه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٢٢٣٩٧) وحسنه الأرنؤوط، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥٨).

(٢) رواه ابن أبي الشّيبة في مصنّفه (١٩٣٤٢)، وابن حمّاد في الفتن (١٣٤٦)، وقال الألباني: رجاله ثقات لكنه مرسل وعليه فهو ضعيف (الضعيفة – ٣٩٩٩).

(٣) رواه أحمد (١٨٠٢٣) وضعفه الأرنؤوط، والألباني في (الضعيفة-٢٧٨٤).

رسول الله، ﷺ، ثمّ تبوك، ثمّ تجهيز رسول الله ﷺ، لجيش أُسَامَة لغزو الرُّوم، وإشرافه بنفسه الشريفة عليه، إلى آخر رمق في حياته، حيث كانَ من آخر كلامه الشريف كما جاء في الآثار الشريفة: «أنفذوا بعث أُسَامَة.. لعن الله من تخلف عنه»[1]..ومنذ ذلك الحين ما تزال رحى هذه المُوَاجَهة الأزلية دائرة.

الصِّرَاع مع الرُّوم في دولة الخُلَفَاء الرّاشدين:

يتبين مما سبق، أن الصِّرَاع مع الرُّوم، كانَ احد شقي الجهد الأساسي للمُوَاجَهة في زمن الرّاشدين، وبعد زوال فارس ودخولها في الحضارة الإِسْلَاميّة خلال عهد عمر وعهد عثمان رضي الله عنهما، صارت المُوَاجَهة مع الرُّوم هيَ المحور الأساسي، حيث تميزت المُوَاجَهة الإِسْلَاميّة بالطابع الهجومي، وكما رأينا ذلك تفصيلا في فصل التّاريخ، فقد انتزع المُسلِمُون خلال مدّة وجيزة من الرُّوم؛ بلاد الشّام ومصر، ومعظم ممتلكات الرُّوم البيزنطيين في شمال إفريقيا، وهددوا عاصمة الرُّوم (القُسطَنْطينيَّة) ذاتها في ولاية عثمان ﷺ، بل دخلوا الأندلس عَلى الرُّوم الغربيّين، وإن لم يمكثوا فيها.

الصِّرَاع مع الرُّوم في العصر الأموي:

وكما فصلنا في فصول سابقة أن الصِّرَاع مع الرُّوم كانَ هو المحور الأساسي لحُرُوب الدّولة الإِسْلَاميّة إلى جنب حركتهم شرقا في بلاد السند (باكستان) وكرمان (بلوشستان)، سجستان (إيران)، وخراسان (أفغانستان)، وبلاد ما وراء النهر (وسط آسيا)، وتميز الصِّرَاع آنذاك بأنه طور هجومي، واستطاع فيه المُسلِمُون انتزاع كامل شمال إفريقيا من الدّولة البيزنطية، وانتزاع الأندلس من ملول (القوط)، ودخلوا بلاد الفرنجة (الغال) وهي فرنسا فدخلوا مدنها تولوز وليون وبوردو، حيث توقف الزَّحف عند مدينة (تور) شمال غرب فرنسا!!

---

(١) أورده الألباني في الضعيفة (٤٩٧٢) وقال منكر.

وهكذا شمل الصِّرَاع الرُّوم الشرقيين (البيزنطيـيـن) والغربيّين (ممالك غرب أوربّا)، كما استولى المُسلِمُون خلالها عَلى بعض جزر المتوسط، وحاصروا القُسطَنْطينيَّة عدّة مرات، ولم يكن للروم مبادرات هجومية مهمة خلال المَرحَلَة الأموية، وكان أهمّ ذلك:

- **غارات الجراجمة (المردة):**

أغار الجراجمة عَلى الثُّغُور الإِسْلَاميّة في عهد عبد الملك بن مروان سنة ٧٠هـ بتحريض من الرُّوم، مهتبلين انشغاله بحرب ابن الزبير وقمع الفتن الّتي ثارت في عهده، وقد عالجهم عبد الملك بالمال، فقد فاوض الإمبراطور البيزنطي جوستنيان الثّاني عَلى أن يدفع له ألف دينار كلّ أسبوع، عَلى أن يتخلى عن مساعدتهم في غاراتهم.

- **غارات الرُّوم البحرية:**

أغار الأسطول البيزنطي عَلى الأسطول العربيّ سنة ١٢٩هـ وهزمه، وتمكن الأسطول البيزنطي من الاستيلاء عَلى قبرص.

وخلال هذه الفترة دخل المُسلِمُون في صِرَاع مع الترك الوثنيين في وسط آسيا، وواصل القائد الفاتح (قتيبة بن مسلم) حتَّى فتح أفغانستان وبلاد ما وراء النهر وتركستان الغربيّة والشرقية ووصل إلى تخوم الصين مضيفا إلى رقعة الدّولة الإِسْلَاميّة نحو (٥ مليون) كيلومتر مربع، فيما كانَ نظراؤه يتقدمون في فتح بلاد السند وشمال الهند، لتصل الدّولة الإِسْلَاميّة خلال الخِلافَة الأموية لأقصى اتساعها عبر الفتوح.

الدّولة العبّاسيّة والصِّرَاع مع الرُّوم:

أولاً: الصِّرَاع مع الرُّوم خلال المَرحَلَة العبّاسيّة الأولى (مرحلة القوّة):

كما رأينا تفصيلا، فقد كانَ الصِّرَاع مع الرُّوم هو المحور الأساسي، وشبه الوحيد خلال تلك الفترة، وقد كانَ في بدايته هجوميا عبر نظام الصوائف والشواتي، ثمّ تحول دفاعيا بشكل شبه كامل

تقريبا، وكثرت غارات الرُّوم عَلى خط الدّفاع الطويل معهم، والممتد من تخوم الجَزِيرَة شرق الأناضول وإلى شمال الشّام وصولا إلى أنطاكية والبحر المتوسط شمال غرب الشّام.

وكان من أهمّ الغارات الّتي تعرضت لها الدّولة خلال تلك الفترة:

* غارات الخزر مع جموع من الترك عَلى أرمينية سنة ١٤٧هـ وسبيهم المُسلِمين وأهل الذمة وتخريبهم مدينة تفليس (عاصمة جورجيا اليَوْم)، ثمّ غارتهم ثانية سنة ١٨٣هـ.

* غارات قراصنة البحر (الميذ) عَلى البصرة سنة ١٤٨هـ وسنة ١٤٩هـ وسنة ١٥٣هـ وسنة ١٧٨هـ وسنة ١٧٩هـ وسنة ٢٢٥هـ وسنة ٢٢٧هـ وسنة ٢٣١هـ.

* وغارتهم عَلى جدة سنة ١٥١هـ.

* غارات الرُّوم بمراكبهم عَلى دمياط (مصر) سنة ٢٣٨هـ.

أما الرُّوم الغربيّون (ممالك أوربّا الغربيّة) فقد كانت الهدنة هيَ طبيعة العلاقة معهم، وقد تحولت لعلاقات حسنة أحيانا كما كانَ بين الرَّشِيد وشارلمان مللك بلاد الغال (فرنسا الحالية) حتَّى تبادلوا الهدايا.

ثانياً: صِرَاع العبّاسيين والدّول الإِسْلَاميّة المستقلة مع الرُّوم منذُ العصر العبّاسي الثّاني، وإلى قيام الدّولة العُثمَانِيّة (٢٤٧هـ - ٩٢٢هـ):

لم يتوقف الصِّرَاع مع الرُّوم بشقيهم، الشرقي (الرُّوم البيزنطيين)، والغربيّ (ممالك أوربّا المسيحية)، وكما أسلفنا فقد غلب عليه منذُ انصرام العصر الذهبي للدولة العبّاسيّة، الطابع الدّفاعي، إلا في حالات قليلة، والحقيقة أنه مع ضعف الخِلافَة المركزية لبني العبّاس في بغداد، تصدت الدّول المستقلة، كما مر معنا في ثنايا مختصر تاريخها لشرف مهمة الجِهَاد، دفعا وطلبا، وحماية الحوزة والدّفاع عن ديار المُسلِمين وأنفسهم وأعراضهم.

فوجدنا السلاجقة في بلاد الري والأناضول، يجاهدون الرُّوم البيزنطيين بضراوة، وكذلك فعل الحمدانيون، في شمال غرب بلاد الشّام. ولما قامت الدّولة الأتابكية، قام الزنكيون بجِهَاد الصّليبيّن

الّذين قدموا من ممالك أوربّا، ولم يأل قيصر القُسطَنْطينيَّة في دعمهم عَلى مدى قرنين من الزّمان، فلما قامت دولة الأيوبيين ورثوا من أولاد عمومتهم

الزنكيين مهمة الشرف تلك، فلما ورث المماليك حكم مصر والشّام، ورثوا معها إتمام المهمة الشريفة، ونظفوا بلاد الشّام من دنس الصّليبيّين نهَائِيًّا، فيما كانَ السلاجقة مستمرين بجِهَاد الرُّوم في آسيا الصغرى، حتَّى قام العُثمَانِيّون من أحفادهم وحملوا شرف الرّاية الّتي كانت ما تزال خفاقة يحملها الملوك والأمراء المختلفون رغم ما اعتورهم من فسوق وصراع عَلى الملك، وقد مر معنا ذكر طرف منها.

أما في مغرب بلاد المُسلِمِين، فما زال الأمر كذلك كما رأينا، فقد قام الأغالبة، والموحدون، والمرابطون، وغيرهم مت ملوك وأمراء ممالك المغرب الأقصى بالدّفاع عن الإِسْلَام والمُسلِمين، كلما سولت للروم – بشقيهم – أنفسهم أن يهاجموا ديار الإِسْلَام، وأما في دولة الأندلس، فما فتئت غبار الحَرب معقودة بين المُسلِمِين، ونصارى أسبانيا المدعومين من ملوك أوربّا، إلى أن استطاعوا في النهاية أن يديلوا دولة الإِسْلَام هناك بعد أن دبت الفرقة والضلال، والتّعاون مع النّصَارى في ملوك الطوائف، عندما استباحوا أن يستنصروا بهم عَلى بعضهم، فسلطهم الله عليهم وادالوا دولتهم.

وهذا استمرت السنة مضطردة، إلى أن تسلم راية جِهَاد الرُّوم، الدّولة العُثمَانِيّة الإِسْلَاميّة الناشئة الّتي كانت تدك حصون القُسطَنْطينيَّة في مشرق المُسلِمِين، فيما كانَ الرُّوم الغربيّون يدكون حصون غرناطة في مغربها عَلى شواطئ الأطلسي، لتبتدئ حقبة جديدة من هذا الصِّرَاع الأزلي بيننا وبين الرُّوم.

الدّولة العُثمَانِيّة والصِّرَاع مع الرُّوم:

ثمّ ولدت الدّولة العُثمَانِيّة من أحفاد السلاجقة الأتراك، في الأناضول، وتمكن السُّلطَان محمّد الفاتح من دك أسوار القُسطَنْطينيَّة بمدافع زنة قذائفها يصل إلى (٣ طن) سنه (١٤٥٢) م! بعد أن نهضت الدّولة العُثمَانِيّة نهضة وازت وفاقت نهضة الرُّوم البيزنطيين ودول أوربّا المتطورة آنذاك.

وشكل سقوط القُسطَنْطينيَّة زلزالا عَلى مستوى التّاريخ، حتَّى اعتبره المؤرخون نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، وحق لهم، فقد كانَ هذا سببا في انسياح العُثمَانِيّـين في الفتوح شمالا وجنوبا وغربا، ونهضتهم حتَّى وصلت دولة الإِسْلَام تحت راياتهم إلى الحجم الإمبراطوري وأعادت توحيد أجزاءها تحت خليفة واحد، بعد أن نقل العُثمَانِيّون الخِلافَة إليهم وجعلوا مركزها القُسطَنْطينيَّة الّتي غدا اسمها (إسلام بول) أي مدينة الإِسْلَام تلك الّتي صار اسمها فيما بعد (إسطنبول).

كما كانَ بداية نهضة الدّول الأوربية وما تلا ذلك من الثَّورة الصناعية والثورات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، وبذلك ولدت دول أوربية حديثة ذات بأس، حيث تولت الصِّرَاع مع دولة الإِسْلَام آنذاك وهي الخِلافَة العُثمَانِيّة.

وقد انساحت جُيُوش العُثمَانِيّـين تفتح بلاد اليونان وسواحل البحر الأسود والبلقان ودول شرق أوربّا، حتَّى وصلت إلى أسوار (فيينا) عاصمة النمسا، أواخر القرن السَّابع عشر حيث توقفت، وبدأت أوربّا هجومها الصّليبيّ المعاكس الثّاني.

وفيما كانَ الأتراك ينساحون في أوربّا وآسيا بعد فتح القُسطَنْطينيَّة عام ١٤٥٢، كانت جُيُوش النّصَارى تحاصر آخر ممالك المُسلِمين في الأندلس، لتسقط آخر معاقل الإِسْلَام في أوربّا الغربيّة (غرناطة) سنة ١٤٩٣، وليتأجج الصِّرَاع بين العُثمَانِيّين ودول أوربّا الاستعماريّة، الّتي حملت مشعل حضارة الرُّومان الصّليبيّن بعد الإمبراطورية البيزنطية الرُّومانية من القُسطَنْطينيَّة، وهكذا استمر الصِّرَاع بين الإِسْلَام والرُّوم طيلة فترة الخِلافَة العُثمَانِيّة، إلى أن تمكنت الدّول الأوربية من إسقاطها وإعلان ذلك عام ١٩٢٤، حيث تقاسمت الدّول الاستعماريّة إرثها، وهو مجموع بلاد العالم العربيّ والإِسْلَاميّ، فيما تقاسمت من دول العالم.

العالم الإِسْلَاميّ بعد سقوط الخِلافَة العُثمَانِيّة والصِّرَاع مع الرُّوم:

لم يتوقف صِرَاع المُسلِمين مع الرُّوم بغياب المُسلِمين كقوة سياسيّة عن المسرح الدّولي بسقوط العُثمَانِيّـين، لقد استمر صِرَاع الإِسْلَام ممثلا بالشّعوب الإِسْلَاميّة وحركاته الجهاديّة والتحررية ضدّ

قوى دول أوربّا الاستعماريّة في كافّة بلدانه، ففي أقصى مشرق المُسلِمِين، انساحت جُيُوش الرُّوس لتسقط العواصم الإِسْلَاميّة في آسيا، فاستولت قوّاتهم عَلى بلاد البشكير وتتارستان والقرم وشرق البحر الأسود وسيبيريا والقفقاس، ثمّ زحفوا عَلى جمهوريّات وسط آسيا وأسقطوا عواصمها الكبرى بعد مقاومة ضارية وخسائر مليونية، وسقطت تركمانستان وأوزبكستان وكازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان، وعواصم الإِسْلَام الشهيرة مرو / بخارى / ترمذ / طشقند، ما بين مطلع القرن ١٦ وعام ١٩٠٤ حيث استقرت جُيُوش روسيا القيصرية عَلى ضفاف نهر جيحون الّذي يشكل حدودها مع أفغانستان، الّتي كانت في مجال النفوذ الإنكليزي.

وبعد أن استولت دول أوربّا عَلى بلاد العالم العربيّ والإِسْلَاميّ في آسيا وأفريقيا استمر المُسلِمُون في صراعهم مع الرُّوم الجدد متمثـلين بالدّول الاستعماريّة الكبرى وعلى رأسها بَرِيطَانيَا وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا وهولندا والبرتغال وبلجيكا، وغيرها، حيث تقاسمت هذه الدّول احتلال العالم، وكان نصيب الأسد فيها لبريطانيا ثمّ فرنسا، حيث قسمت وزارتا المُستَعمرات في (باريس / لندن) إرث الدّولة العُثمَانِيّة، وخاصة بلاد العالم العربيّ، فيما عرف بمؤامرة أو اتفاقية (سيكس ـ بيكو) الّتي أبرمت سنة ١٩١٩، ولتُـدخل بَرِيطَانيَا في الصِّرَاع مع المُسلِمِين عاملا جديدا هم اليَهُوْد، بَاطِلاق الوزير البريطاني (بلفور) وعده المشؤوم، بجعل فِلَسطِين وطنا قوميا لليهود، وهكذا رزحت بلاد الهند والسند (باكستان) وأفغانستان وإيران وجنوب شرق آسيا وكثير من الدّول الإِسْلَاميّة، وفيها الجَزِيرَة العربيَّة والسُّودَان ومصر والعراق والأردن وفلسطين، تحت الإحتلال الإنجليزي، ورزحت كلّ من سوريا وفيها لبنان وتونس والجَزَائِر وأجزاء من المغرب وقسم من القرن الأفريقي تحت الإحتلال الفرنسي، وأخذت أسبانيا أجزاء من المغرب وموريتانيا وبعض البلاد الأفريقية كما أخذت إيطاليا ليبيا وأجزاء من القرن الأفريقي.

وكانت أغلب بلاد وسط أفريقيا الإِسْلَاميّة قد سقطت تحت احتلال تلك الدّول الأوربية قبل ذلك، وكانت حصة الأسد فيها لفرنسا كما سقطت جزائر المحيط الهندي والهادي من الفلبين إلى إندونيسيا إلى سنغافورة إلى تيلاند وماليزيا وبورما وبنجلادش، تحت احتلالها أيضا قبل ذلك، وقد

شكلت المَرحَلَة الاستعماريّة تلك ميدانا للصراع بين الشّعوب الإِسْلَاميّة والرُّوم ممثلين بدول أوربّا الاستعماريّة، ولم تخف الدّول الاستعماريّة اليَهُوْدية الرُّومانية الرّوح الصّليبيّة في حركتها الاستعماريّة تلك وقد ظهرت في كثير من تصريحاتهم، ومن ذلك: أن القائد البريطاني (اللورد اللنبي) لما ركز علمه ذي الصّليبيّن فوق جبل الزَّيتون في بيت المَقْدِس صرخ قائلا: (الآن انتهت الحُرُوب الصّليبيّة)، بروح الثأر لهزيمة أجداده عَلى يد صلاح الدّين الأيوبي، أما (غورو) الجنرال الفرنسي فقد كانَ من باكورة أعماله أن زار قبر صلاح الدّين وضربه بالسيف وكسر قطعة حجر منه ما تزال محفوظة في المتحف الحَربي بدمشق، ليقول له: (ها قد عدنا يا صلاح الدّين)، أما الإيطاليون فقد كانَ نشيدهم العسكريّ أيّام احتلال ليبيا، ينضح بالأحقاد الصّليبيّة ويفتخر بذهاب الجند لقتل المُسلِمِين، والأمثلة كثيرة عَلى الرّوح الصّليبيّة لحركة الإستعمار الحديث .

الصِّرَاع بين الرُّوم أنفسهم بعد غياب المُسلِمِين عن مسرح القوى الدّولية وتحولهم إلى غنائم استعماريّة:

وهكذا تغير شكل النّظام الدّولي ليصبح مجال الصِّرَاع فيه بين الرُّوم أنفسهم عَلى الغنائم الاستعماريّة والسياسات الأوربية، مما أشعل حربين عالمتين مدمرتين، استمرت الأولى مابين (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وأزهقت فيها أوربّا زهاء ٩ ملايين نفس، وتمكنت ألمانيا فيها من جر الدّولة العُثمَانِيّة الّتي تولى زمام أمورها (الماسون) ويهود الدونمة فجرتها إلى دخول الحَرب إلى جانبها، مما برر تقاسم أشلائها بخسارة ألمانيا الحَرب وكذلك حليفتها الدّولة العُثمَانِيّة المتهاوتة.

ثمّ اشتعلت الحَرب العَالَمِيّة الثّانية ما بين (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) لتزهق أوربّا بالإضافة إلى روسيا وأمريكا زهاء ٨٢ مليون نفس بشرية ولتسفر تلك الحَرب عن تدمير بنية أوربّا التحتية، اقتصاديا واجتماعيا، لتسمح بميلاد قوتين عظيمتين استعماريّتين جديدتين عَلى وجه الأرض هما (روسيا / أمريكا) حيث تسابقت دول أوربّا لتنتمي إلى حلف إحدى هاتين الدّولتين فدخلت دول شرق أوربّا مع الإتحاد السُّوفيتيّ مكونة حلف وارسو بزعامة موسكو، ولتدخل معظم دول أوربّا الغربيّة في حلف

أمريكا مكونة حلف النّاتو بزعامة واشنطن ولتبدأ مرحلة جديدة من مراحل النّظام الدّولي يقوم فيها الصِّرَاع بين هذين القطبين حيث لم يعد للمسلمين وجود عَلى المسرح الدّولي كقوة تمثل طرفا، لأَنّهم صاروا في قصعة الغنائم، تتـناهبهم تلك الدّول وتديرهم في فلكها عَلى دأب أجدادهم من الغساسنة والمناذرة.

النّظام العَالَمِيّ الحديث وقيام الإمبراطوريتان السوفييتية والأمريكيّة وصراعهما عَلى النفوذ:

كما أسلفنا أدت الحَرب العَالَمِيّة الثّانية إلى دمار أوربّا وتقهقر دولها الاستعماريّة عن مرتبة الصدارة، وبروز قوتين عظيمتين هما الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكيّة، ومن ثمّ دخلت دول أوربّا الشرقية كشبه مُستَعمرات للإتحاد السوفييتي لتشكيل حلف وارسو وما يسمى بالمُعَسْكَر الشرقي، ولتدخل أوربّا الغربيّة وعلى رأسها بَرِيطَانيَا وفرنسا في حلف أمريكا وتكون حلف النّاتو أو المُعَسْكَر الغربيّ، وقد أسفرت الحَرب العَالَمِيّة الثّانية عام ١٩٤٥ عن إعادة رسم ميزان القوى في العالم عَلى هذا الأساس، وأُنشأت عصبة الأمم المتحدة من الدّول الكبرى لوضع أساس لنظام دولي عالمي جديد في حينها، ثمّ تعدلت لتقوم هيئة الأمم المتحدة، ونهضت الصين كقوة اقتصاديَّة ونووية وبشرية وفرضت نفسها في مصاف الدّول العظمى، لتكوّن مع أمريكا والإتحاد السُّوفيتيّ وفرنسا وبريطانيا الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن، المؤسسة الأهم المنبثقة عن هيئة الأمم المتحدة.

وبدأت الحَرب الباردة بين القطبين في مجالات التجسس وسباق التسلح وصراع النفوذ في إلحاق أكبر قدر ممكن من دول العالم الثّالث تلك في فلك هذا الحلف أو ذاك.

وكانت الثَّورة البلشفية الشُّيُوعِيّة قد قامت في روسيا سنة ١٩١٧ وحل الإتحاد السوفييتي بفلسفته اللينينية الماركسية محل روسيا القيصرية، ودعم الإتحاد السوفييتي بعيد الحَرب العَالَمِيّة الثّانية حركات التحرر في البلدان الّتي لم تكن قد استقلت عن الدّول المُستَعمرة خلال الثورات الّتي قامت عليها في مرحلة ما بين الحَربين، كما انتشر الفكر الإشتراكي والشُّيُوعِيّ في كثير من الدّول وحمل مبدأ

الثَّورة عَلى الدكتاتوريات المدعومة من قبل الدّول الاستعماريّة لاسيما أمريكا ودول أوربّا الغربيّة، ودعم الإتحاد السوفييتي تلك الحركات وأدى الصِّرَاع عَلى النفوذ بين أمريكا والإتحاد السُّوفيتيّ إلى قيام نظام الحُرُوب بالوكالة بدعم الرُّوس السوفييت لتلك الحركات.

وقد أدت حُرُوب الوكالة وصراعات النفوذ إلى اكتساح السوفييت لمعظم دول العالم الثّالث ولاسيما في كثير من دول إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وقد رسخ السوفييت أقدامهم في بلاد عربيَّة مهمة مثل العراق وسوريا ومصر واليمن الجنوبي وليبيا والجَزَائِر والقرن الأفريقي.

وقد قامت تبعا لذلك عدّة حُرُوب بالوكالة تقاتلت فيها دول متعددة أو حتَّى شعوب دولة واحدة في صِرَاع النفوذ هٰذا، كتلك الّتي قامت في كوريا والفيتنام والقرن الأفريقي واليمن الشمالي والجنوبي ولبنان وكذلك العديد من دول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

كما لعبت الدّولتان عَلى حبل الصِّرَاع العربيّ الإسرائيلي بالدعم السافر من قبل أمريكا لإسرائيل وتمثيل السوفييت دور دعم الجانب العربيّ، والملاحظ أن كثيرا من تلك الحُرُوب والثورات قد ضيقت مجالات النفوذ الأمريكيّ حتَّى يمكن القول أن حصيلة جولات الملاكمة تلك بين أمريكا والسوفييت الرُّوس قد أبرزت تفوق الرُّوس بالنقاط في معظم تلك الجولات، إلى أن ارتكب الرُّوس في نشوة الظفر والتقدم تلك غلطتهم التارِيخِيَّة القاتلة فأقدموا عَلى احتلال أفغانستان عام ١٩٧٩ بصورة شبه مكشوفة إثر سلسلة انقلابات شيوعية مدعومة من قبلهم عَلى الملكية فيها منذُ عام ١٩٦٥، وهكذا حققوا في قفزة استراتيجية نصف الطّريق إلى الحلم القيصري بوصولهم إلى المياه الدافئة في الخليج العربيّ إذا لم يبق بينهم وبينه من فاصل إلا مثلث بلوشستان الباكستاني الإيراني بمسافة لا تزيد عن ٥٠٠ كيلومتر.

وبدا وكأن أمريكا قد قبلت الأمر الواقع وسلمت ولم تبد حراكا يذكر رغم صفارات الإنذار باقتراب الخصم اللدود إلى منابع النّفط الّتي يتحكم من يسيطر عليها باقتصاديات العالم الرَّئيسيَّة، ولم يتوقع أحد المفاجأة الّتي حصلت وقلبت وجه العالم بل ذهبت به إلى مرحلة تارِيخِيَّة جديدة عصفت بكل ثوابته القديمة.

هزيمة روسيا في أفغانستان وانهيار الإتحاد السوفييتي، وقيام النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد بزعامة أمريكا كقطب أوحد ينفرد بمقدرات السّياسة والاقتصاد في العالم:

لم يدر في خلد أحد من صناع السّياسة وعباقرة العسكريّة وأفذاذ المفكرين أنه يمكن لشعب يشغل المرتبة الرَّابعة في قائمة أفقر شعوب العالم، يمكن له أن يصمد لأقوى قوة عسكريّة في الأرض ومتاخمة له بحدود يزيد طولها عَلَى ١٠٠٠ كيلومتر توفر له إمدادا لوجيستيا نموذجيا ومباشرا، ولكن شاء الله أن تتحقق المعجزة، فقد صمد الأفغان لعملاء الرُّوس من حكامهم منذُ عام ١٩٦٥ إلى ١٩٧٩ مما سبب الإطاحة بالانقلابات الواحد تلو لآخر، ثمّ صمدوا للغزو المباشر والمُوَاجَهة العسكريّة الشرسة مع الآلة العسكريّة السَّاحقَة للجيش الأحمر ثلاث سَنَوات (١٩٧٩ ـ ١٩٨٢) حتَّى اقتنعت الإدارة الأمريكيّة وحلفاءها في النّاتو بأن هناك فرصة تارِيخِيَّة لتحطيم الجيش الأحمر السوفييتي عَلَى قمم وسفوح الهندوكوش بصورة أسوأ كثيرا مما فُعل بالجيش الأمريكيّ في فيتـنام، فقرر الكونغرس سنة ١٩٨٢ تبني الجِهَاد الأفغاني وركوب موجته.

وأدى الإذن الأمريكيّ بدعمه والأمر بذلك لحلفائهم الأوربيـين وأذيالهم من دول العالم الإِسْلَاميّ، ولاسيما دولا رئيسيَّة مثل الباكستان الّتي تزيد حدودها مع أفغانستان عن ٢٢٠٠ كيلومتر والسّعُودِيّة الّتي تتمتع بنفوذ المرجعية والحرمين عَلَى المُسلِمِين، ومصر ذات الوزن الإستراتيجي في العالم العربيّ والإِسْلَاميّ، وسواها من الدّول إلى فتحت أبواب كافّة أنواع الدّعم بالمال والسّلاح للجِهَاد الأفغاني، فقد ساهمت أمريكا وحلفاؤها الأوربيون بحصص مالية كبيرة وألزمت دول الخليج ولاسيما السّعُودِيّة بدفع حصص كبيرة من الدّعم، وانفتح البَاب أمام كلّ من أراد من المُسلِمِين دعم الجِهَاد الأفغاني، وفتحت الباكستان سفاراتها أمام من يريد الذهاب إلى هناك، وخفضت بعض شركات الطيران العربيَّة قيمة تذاكر السفر أمام من يريد الجِهَاد! فقد كانَ ثمة إجازة من أمريكا، واستفادت الحركات الإِسْلَاميّة ولاسيما الجهاديّة من الفرصة فتواجدت في السَّاحَة وخاضت معركة نصرة المُسلِمِين، بالمختصر؛ لقد قدر الله أن تتوفر كلّ الظّروف للانتصار المذهل، وليس هنا مقام

التّاريخ لهذه التَّجربة الفريدة في تاريخ المُسلِمِين بل والعالم في حيثياتها وما نتج عنها، وهو موضوع مهم جدا يحتاج أسفارا خاصّة به، ولكن المتعلق بموضوعنا هنا أن نقول أن النزاع بين الجيش الأحمر السوفييتي وحلف وارسو برمته وبين المُسلِمِين عَلى أرض أفغانستان، أسفر عن نصر مذهل أجبر الرُّوس عَلى جر أذيال الخيبة والهزيمة والانسحاب من أفغانستان بعد عشر سَنَوات، أي عام ١٩٨٩ متكبدين عشرات آلاف القتلى والجرحى وتاركين وراءهم أشلاء أكثر من ٥٠,٠٠٠ آلية عسكريّة فضلا عن حطام مئات الطائرات.

وهكذا ربحت أمريكا آخر جولة في الحَرب بالوكالة مع السوفييت بالضربة القاضية حيث قام المُسلِمُون بلكم الإتحاد السوفييتي تلك اللكمة! وكانت الحصيلة لصالح أمريكا، وكانت نقطة البداية لانهيار المُعَسْكَر الشرقي وانفراد أمريكا بالسّيطرة عَلى العالم وتمكنها من إعلان النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد.

وتدحرجت الكرة بسرعة إذ أُجبر الرُّوس عَلى إعلان تفكك الإتحاد السوفييتي، وحل حلف وارسو وإزالة جدار برلين بين الألمانيتين، وسرعان ما استقلت الجمهوريّات المتعددة عن روسيا وسقطت الأنظمة الشُّيُوعِيّة في دول أوربّا الشرقية تباعا كأحجار الدومينو، وقام محلها أنظمة سارعت للارتماء عَلى أعتاب القوّة العظمى الوحيدة في العالم أمريكا.

وهكذا تغيرت معطيات النّظام الدّولي ليقوم عَلى أنقاضه مرحلة جديدة يمكن التّاريخ لبدايتها بـ ١٩٩٠م موعدا لانطلاق ما سمي بـ (النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد).

واجتمع (غورباتشوف) الّذي أِشرف عَلى حلّ الإتحاد السوفييتي بـ (مرغريت تاتشر) رئيسة وزراء بَرِيطَانيَا آنذاك بالرَّئيس الأمريكيّ (ريغان)، ليعلنوا أن الإِسْلَام وحضارته وشعوبه هم العدوّ المقبل للحضارة الغربيّة، وطرحت فكرة توسيع حلف النّاتو ليشمل روسيا ودول أوربّا الشرقية، أي دمج (وارسو) في (النّاتو) عمليا ولما سُئل عن جدوى ومعنى بقاء حلف النّاتو بعد زوال المُعَسْكَر الشرقي، ولم لا يحول لحلف اقتصادي وثقافي؟ أجاب القائمون عليه بأن هناك ضرورة لتقويته وتوسيعه لمُوَاجَهة الخطر القادم والمتمثل بالإِسْلَام والأصوليَّة الإِسْلَاميّة، ثمّ خلف (كلينتون)(ريغان) ليعلن انطلاق حملات مُكَافحَة الإِرهَاب الإِسْلَاميّ، وبدأت أمريكا رسم سياسات العالم والتدخل في

مصائر شعوبه ودوله، ومن أبرز الآثار الّتي نتجت عن قيام النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد عَلى العالم العربيّ والإِسْلَاميّ ما يلي:

استدراج أمريكا للعراق لغزو الكويت وتزعم أمريكا وبريطانيا ودول النّاتو لحلف دولي من ٣١ دولة، حيث أُلزمت بعض الدّول العربيَّة والإِسْلَاميّة بالدخول في غزو العراق والخليج، حتَّى وصل الحشد إلى ما يقارب المليون جندي! كانَ نصفهم من الأمريكان وشكل الإنجليز ٢٠٪ منهم فيما شارك النّاتو فيه بكامل الأعباء والمسؤوليات، وأسفرت الغزوة الّتي كانت باكورة الحملات الصّليبيّة الجَدِيدة عَلى العالم الإِسْلَاميّ ـ كما صرح بذلك أكثر من مسؤول أمريكي ـ أسفرت عن تثبيت أمريكا لأقدامها في الخليج واحتلاله عمليا.

وكشفت كثير من الدراسات عن هذا البرنامج وهو احتلال منابع النّفط والطاقة بشكل مكشوف، كانَ قد خطط له منذُ أوائل السَّبعينيَّات أيّام الرَّئيس (كارتر) وشكلت قوّات التدخل السريع الأمريكيّة (المارينز) خصيصا له، وهكذا بدأ برنامج الصّليبيّين الجدد باجتياح الشّرق الأوسط والعالم الإِسْلَاميّ.

إلزام الدّول العربيَّة المعنية والفلسطينيين والعالم العربيّ والإِسْلَاميّ من ورائهم بتوقيع اتفاقيات السَّلام والتطبيع مع اليَهُوْد وبدأ البرنامج الصّهيونيّ بالسير نحو طرد الفلسطينيين والسّيطرة عَلى المنطقة عبر برنامج التطبيع الثقافي والإقتصادي والسّياسيّ والاجتماعي مع اليَهُوْد.

انطلاق ما يسمى بحملات مُكَافحَة الإِرهَاب ضدّ الحركات الجهاديّة والأصوليَّة الإِسْلَاميّة، الّتي تطورت لتكون حملات ضدّ كافّة الصّحوة الإِسْلَاميّة ووصلت في عهد (بوش) الّذي تلا (كلينتون) لتكون حملات إبادة أو تركيع لكافة المُسلِمِين، وهكذا بدأت مؤامرة تصفية مكتسبات الجِهَاد الأفغاني وانطلقت حُرُوب الإبادة ضدّ المُسلِمِين في البوسنة والشِّيشَان، وانطلقت الحُكُومَات العربيَّة والإِسْلَاميّة بتنفيذ ما أوكل إليها من تصفية قواعد وتنظيمات الصّحوة الإِسْلَاميّة والجهاديّة بكاملها في كلّ مكان.

وهكذا أعيد المُسلِمُون قسرا إلى مسرح الصِّرَاع مع الرُّوم بعد أن أسفر صِرَاع الرُّوم فيما بينهم خلال مرحلة الحَرب العَالَمِيّة الأولى إلى الثّانية ثمّ مرحلة الحَرب الباردة عن حسم المنافسة لصالح أمريكا الّتي سارعت بَرِيطَانيَا بالدخول في ركابها وانجرت دول أوربّا النّاتو من كانَ راغبا منها ومن كانَ راهبا للسعي خلفها في إدارة هذا النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد.

آخر الحلقات في صراعنا مع الرُّوم: (صِرَاع المُسلِمِين مع أمريكا وحلفائها) حاليا:

أحداث الحادي عشر من سِبتَمبر ٢٠٠١، واحتلال أمريكا للعراق، واشتعال الحَرب الصّليبيّة ضدّ المُسلِمِين بقيادة أمريكا ورئيسها الحالي جوج بوش منذُ مطلع القرن ٢١:

انتهت ولاية (كلينتون)، وأسفرت الإنتخابات الأمريكيّة عام ٢٠٠٠ عن فوز (جورج Wبوش) إبن الرَّئيس الأمريكيّ (جورج بوش) الأب الّذي انطلق النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد والحملات الصّليبيّة في عهده، واستطاع حفنة من رجال أبيه ومن بعض المتطرفين المسيحيين المتصهينين، ممن يطلقون عَلى أنفسهم اسم (**المحافظون الجدد**) الانضمام إليه لتشكيل الإدارة الأمريكيّة الجَدِيدة، وتسابق القادة والسّياسيّون والمفكرون والمنظرون منهم إلى إعلان مبادئهم وتطلعاتهم وأفكارهم، ولم يستحوا منها، فاستعلن أحدهم بالقول: (إن الأمريكان هم ورثة الإمبراطورية الرُّومانية وأن أعداءها في التّاريخ هم أعداءها في الحاضر والمستقبل)، ولم يخف بوش فيما بعد قوله (بأنه يقود حملة صليبيّة عَلى المُسلِمِين)، ولم يعد موضوع أولوية دعم إسرائيل واحتلال منابع النّفط وزيادة رقعة مكاتب مُكَافحَة الإرهَاب في عواصم دول العالم ولاسيما العربيَّة والإِسْلَاميّة سرا، وانطلقت أمريكا في سياسة تحجيم أوربّا ودول العالم الرَّئيسيَّة واتخذت الإدارة من مشروع مُكَافحَة الإرهَاب عالميا برنامجا لتصفية الحركات الإِسْلَاميّة وجر الحُكُومَات العربيَّة والإِسْلَاميّة إليه طوعا وكرها.

وكانت حركة طلاب العلوم الشّرعيَّة في أفغانستان أو ما يسمى بـ(حركة طالبان) قد استطاعت إنهاء الحَرب الأهلية وهزيمة الأحزاب المتصارعة في أفغانستان ووضعت حدا لانتشار الفساد في الأرض، وأقامت نظاما للحكم بالشّريعة الإِسْلَاميّة، وأعلنت قيام إمارة أفغانستان الإِسْلَاميّة،

ودخلت كابول سنة ١٩٩٦ وأعلن الملا محمّد عمر أميرا للمؤمنين فيها، واستطاعت إلى عام ٢٠٠٠ ترسيخ أقدامها وحكمها في أفغانستان والسّيطرة عَلى نحو ٩٤ ٪ من مساحتها.

ولما كانت حملات مُكَافحَة الإِرهَاب قد ضيّقت أقطار الأرض عَلى كثير من شباب الحركات الجهاديّة، وكثير من الشَّبَاب المسلم خاصّة من البلاد العربيَّة ووسط آسيا، أصبحت الإمارة الإِسْلَاميّة في أفغانستان ملاذا ومهجرا لكثير من كوادر وشباب تلك الحركات، فأصبح تدمير الإمارة الإِسْلَاميّة وإخراج هذه النُّخبَة المهاجرة المُجَاهدة الّذين سموا (الأفغان العَرَب) منها، وابتدأت أمريكا ذلك بسلسلة من إجراءات الحصار السّياسيّ والإقتصادي والتشويه الإعلاميّ والمواجهات الأمنيّة.

وفي صبيحة ١١ سِبتَمبر ٢٠٠١، تمكن ١٩ شابا من المُجَاهدين التَّابعين لتنظيم القَاعِدَة الّذي يتزعمه الشَّيْخ المُجَاهد (أُسَامَة بن لادن)، تمكنوا من اختطاف عدد من الطائرات والدخول بها في عمليَّات استشهادية في واشنطن ونيويورك فدمروا أبراج مركز التجارة العَالَمِيّة، وجانبا من مبنى الـ (بنتاغون) مقر وزارة الدّفاع الأمريكيّة مما أسفر عن مقتل وجرح عدّة آلاف من الأمريكيّـين.

ومع أن هذه العمليَّات شكلت تصعيدا كبيرا بعد عدد من العمليَّات الأخرى الأصغر حجما ضدّ الأهداف الأمريكيّة الّتي قام بها تنظيم القَاعِدَة أو غيره من التَّنظِيمات بسبب موجة الاعتداءات الأمريكيّة عَلى المُسلِمِين ودعمهم لليهود في فِلَسطِين ولكافة أعداء الإِسْلَام، إلا أن وسائل الإعلام الأمريكيّة والدّولية استطاعت تصوير ما تلا ذلك الحدث من ردود أفعال أمريكا الوحشية الطَّاغية، وإطلاق حرب عالميّة لمُكَافحَة الإِرهَاب ومحاربة المُسلِمِين عَلى كلّ صعيد، استطاعت تصوير ذلك عَلى أنه رد فعل مبرر بسبب هجمات الإِرهَاب الإِسْلَاميّ عَلى أمريكا وأمنها القومي.

وابتدأ بوش حربه العَالَمِيّة عَلى الإِرهَاب، وكان من ذلك:

شن حرب إعلاميَّة عارمة من أجل شحن الأجواء وتهيئتها، بتصوير المُسلِمِين عموما والصّحوة الإِسْلَاميّة والجهاديّين خُصُوصَاً عَلى أنهم الخطر المحدق بالبشرية، والتضخيم من حجم هذا العدوّ وإمكاناته حتَّى وصل إلى الزعم بأن الجهاديّين يمتلكون أَسْلِحة الدمار الشّامل، وأحدث تكنولوجيات العصر، وعشرات آلاف المقاتلين المدربين المنتشرين في عشرات البلدان، ودمجت أمريكا

كلّ ذلك تحت مسمّى (القَاعِدَة) الّذي صنع الأعلام الأمريكيّ من اسمها (بعبعا) مخيفا يجب محاربته، حيث أدخلت تحت هذا المسمى كلّ جهد إسلامي في مواجهتها، بل كلّ من أرادت سحقه في حملتها، وبهذا بررت أمريكا كلّ ما تلا ذلك من عدوان وإجراءات، وبررا زحفها في حملة احتلال عَلى الشّرق الأوسط والعالم الإِسْلَاميّ.

الهجوم عَلى الإمارة الإِسْلَاميّة في أفغانستان وإسقاط حكومة طالبان وتدمير البنية التحتية للمُجَاهدين الأفغان العَرَب وغير العَرَب فيها.

إطلاق حملة مُكَافحَة الإِرهَاب وإلزام كافّة الدّول بها، وعقد عشرات المؤتمرات من أجل ذلك، ورفع بوش شعار جده قابيل (لأقتلنك)! وأطلق مقولة (من لم يكن مع أمريكا في حربها مع الإِرهَاب فهو ضدها) ولم يترك أي هامش للحياد.

أطلق بوش يد أجهزته الأمنيّة من الـ CIA والـ FBI وسواها، وما تبعها من أجهزة أمن من باقي دول العالم الّتي أدخلها طوعا أو كرها في حملة بربرية من القتل والأسر والتنكيل والتّشريد وإقامة المعتقلات الّتي فاقت معتقلات النازية في إجراءاتها ضاربا بعرض الحائط بكل نداءات الهيئات الدّولية والأمريكيّة المعنية بحقوق الإنسان.

في شهر مارس ٢٠٠٣ فرغت أمريكا من إعداد الأجواء السّياسيّة والإعلاميَّة عَلى مدى عام ونصف من التهويل من أجل تضخيم إمكانية العراق ونظام صدام حسين، بامتلاكهم لأَسْلِحة الدمار الشّامل، واخترعت وهما آخر هو علاقة (صدام حسين) بـ (القَاعِدَة)، وصنعت خوفا من تسرب أَسْلِحة الدمار الشّامل (الموهومة) من العراق إلى القَاعِدَة والإِرهَابيين، بناء عَلى هذه العلاقة (الموهومة)، فزحفت جُيُوش أمريكا وحليفتها بَرِيطَانيَا بنحو ٣٠٠,٠٠٠ جندي مدجج بأرقى ما وصلت إليه التكنولوجية العسكريّة عبر التّاريخ، وهاجمت العراق انطلاقا من أراضي عدد من الدّول العربيَّة والإِسْلَاميّة وعلى رأسها الكويت وقطر والسّعُودِيّة والأردن ومصر وباكستان وتركيا، وعلى مدى عشرين يوما دكت الطائرات والصواريخ الأهداف المدنيّة والعسكريّة ثمّ أعلنت في أول شهر يوليو انتهاء عمليَّاتها واحتلال العراق، وسارع مجلس الأمن الدّولي بكامل أعضائه لإضفاء الشَّرعيَّة

عَلى هذا الإحتلال بعد أن تخلت روسيا وفرنسا وألمانيا عن معارضتها المتعثرة للحرب ودخلت في الفلك الأمريكيّ.

يهيئ بوش الأجواء الآن هو وكبار رجال إدارته وإعلامه للقفز نحو الخطوة التّالية، سوريا وربما إيران ويلوح بتقسيم السّعُودِيّة والاستيلاء عَلى مصر، وليس هنا محل استعراض تاريخ يجب كتابته وتحليله بكل دقة وأمانة نحو أجيال المُسلِمِين القادمة، إلا أن الأهداف المعلنة بلا حياء من قبل بوش وإدارته قد أعلنت بلا خفاء وهي:

تغيير خارطة الشّرق الأوسط السّياسيّة بتبديل بعض الأنظمة وإعادة رسم ملامح وجودها.

تغيير خارطة الشّرق الأوسط جغرافيا بتقسيم دول وإنشاء أُخرى وتوسيع البعض وقضم أطراف أُخرى.

إعادة رسم معالم الثّقافة والمكوّنات الحَضَاريَّة والدّينيّة العَرَب والمُسلِمين وتبديل مكوّناتها بما يضمن انسجامها مع أفكار المُستَعمر والقضاء عَلى كلّ بذور النهضة والمُقاوَمة.

العمل عَلى ربط منطقة الشّرق الأوسط بالاقتصاد الأمريكيّ عبر اتفاقيات للشراكة الاقتصاديَّة والتبادل التجاري تدخل إسرائيل في صلبه ويحول شعوب المنطقة إلى عبيد مستهلكة للإنتاج الأمريكيّ وإدارة الصّهيونيّة.

احتلال العراق لأجل غير مسمّى والسّيطرة بذلك عَلى أكبر احتياط نفطي في العالم فضلا عما تسيطر عليه من نفط الخليج ووسط أسيا بما يضمن لأمريكا أن تمسك بشريان الاقتصاد العَالَمِيّ وتتحكم بدول أوربّا وروسيا وشرق آسيا والصين.

فرض المشروع الصّهيونيّ لدولة إسرائيل الّتي أصبحت تمتلك الجيش الوحيد وليس الأقوى فقط في المنطقة بعد أن فككت أمريكا جيش مصر ودمرت جيش العراق ووضعت لسوريا برنامج إلغاء جيشها وعدم تحديثه وإلغاء التَّجنيد الإلزامي فيه مما يخفض عدده إلى الحد اللازم لحفظ الأمن الداخلي فقط.

وهكذا عاد شعار (لأقتلنك) ليرفع من جديد عَلى يد هولاكو القرن الحادي والعشرين: (مستر بوش!) وحملته الصّليبيّة اليَهُوْدية الأمريكيّة البريطانيَّة الجَدِيدة.

وليستمر الصِّرَاع بكل جلاء بين الإِسْلَام والمُسلِمين وخصومه الرُّوم الجدد كما كانَ عبر ١٤ قرنا، تماما كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصّلاة والسَّلام، صراعا أبديا أزليا مع الرُّوم، وسيستمر كذلك إلى قيام السَّاعة.

خُلاصة النّظام الدّولي، وصراع المُسلِمين مع الرُّوم عبر التّاريخ الإسْلامي.

المَرحَلَة وتاريخها	أطراف الصِّرَاع	ملاحظات
المَرحَلَة النّبويّة بعد قيام دولة المدينة: ١ هـ - ١١ هـ	المُسلِمُون × مشركي جَزِيرَة العَرَب المُسلِمُون × الرُّوم	عم الإِسْلَام جَزِيرَة العَرَب بعد عام الوفود مؤتة ـ تبوك ـ بعث أُسَامَة رضي الله عنه
خلافة أبي بكر الصّديق رضي الله عنه: ١١ هـ - ١٣ هـ	المُسلِمُون × المرتدّين في الجَزِيرَة المُسلِمُون × الفرس المُسلِمُون × الرُّوم	تثبيت الإِسْلَام في الجَزِيرَة بداية فتوح العراق فتح الأردن وجنوب فِلَسطِين
خلافة عمر رضي الله عنه: ١٣ هـ - ٢٥ هـ	المُسلِمُون × الفرس المُسلِمُون × الرُّوم	فتح العراق وفارس (القادسية ـ نهاوند) فتح الشّام ومصر
خلافة عثمان رضي الله عنه: ٢٥ هـ - ٣٣ هـ	المُسلِمُون × الفرس المُسلِمُون × الرُّوم	زوال فارس ودخولها في الحضارة الإِسْلَاميّة فتح شمال إفريقيا ودخول الأندلس وبعض جزر المتوسط
خلافة علي رضي الله عنه: ٣٣ هـ - ٤٠ هـ	الفتنة الكبرى المُسلِمُون × الرُّوم	لا حول ولا قوة إلا بالله هدنة مؤقتة
الخِلَافَة الأموية: ٤١ هـ - ١٣٢ هـ	المُسلِمُون × الترك وسط آسيا المُسلِمُون × الرُّوم	فتح تركستان والسند وما وراء النهر تثبيت الفتح في شمال إفريقيا والأندلس وفتح بعض جزر المتوسط
الخِلَافَة العبّاسيّة: ١٣٢هـ -٦٥٦هـ	المُسلِمُون × الرُّوم المُسلِمُون × التّتار	مواجهات العبّاسيين مع الرُّوم البيزنطيين ـ هدنة مع الرُّوم الغربيّين (ملوك أوربّا) ـ المُسلِمُون في الأندلس × الرُّوم الغربيّين
دول الطوائف الإِسْلَاميّة: ٦٥٦ هـ - ١٤٥٢م	المُسلِمُون × الرُّوم	المُسلِمُون × الصّليبيّين والبيزنطيين في الشّام ـ المُسلِمُون في الأندلس × ملوك أسبانيا وأوربّا

الدّولة العُثمانيّة: ١٤٥٢م - ١٩٢٤ م	المُسلِمُون × الرُّوم	الصِّرَاع بين الدّولة العُثمانيّة والدّول الأوربية خلال مرحلة الفتح ثمّ مرحلة السُّقوط
المُسلِمُون تحت الإحتلال خلال ما بين الحَربين: ١٩١٤ م - ١٩٤٥	الرُّوم × الرُّوم المُسلِمُون × الرُّوم	أوربّا × أوربّا الحَرب العَالَمِيّة الأولى والثّانية المُسلِمُون يجاهدون الإحتلال
المُسلِمُون تحت حكم نواب الإستعمار: ١٩٤٥ م - ١٩٩٠م	الرُّوم × الرُّوم المُسلِمُون × المرتدّين نواب الرُّوم	الحَرب الباردة: روسيا × أمريكا الحكّام المرتدّين × الصّحوة الإسْلَاميّة
النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد: ١٩٩٠ م - ؟؟٢٠ م	أمريكا × كلّ البشرية! المُسلِمُون × الرُّوم بقيادة أمريكا	نظام القطب الأوحد والسّيطرة الأمريكيّة عَلى الأرض. الحركات الجهاديّة × أمريكا وحلفائها



فهرس

الفصل الثالث

﴿ جُذُور النّظام الدّولي ومسار الصِّرَاع من قابيل إلى جورج بوش ﴾ ٢٨٦

بدايات الصِّرَاع ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ : ٢٨٦

محطات من تاريخ الصِّرَاع وجُذُوره من خلال قصص الأنبياء وأتباعهم:...............................٢٨٨

عبر وملاحظات: ٢٩٠

عدم إمكانية عيش قوى الخير والشر في مكان واحد: ٢٩٠

إن الشر لا يندفع بالمواعظ وتحريك الضمير وإنما بمقاومته وقطع دابره: ٢٩١

الصِّرَاع بين الحقّ والبَاطِل أزلي، وأعداء الحقّ هم الملأ المستكبرون من الحاشية والأعوان وكهنة السُّلطَان: ٢٩٣

إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ولا رابطة بين مؤمن وكافر: ٢٩٥

نمو التَّجَمُّعات البشرية وقيام الممالك وقيام النموذج الفرعوني المتكرر (حاكم.كاهن.أعوان): ٢٩٦

* قيام النموذج الفرعوني ومثلث السّلطة: (الحاكم– الكاهن – الأعوان): ٢٩٧

* النموذج الفرعوني من خلال نصوص القرآن:... ٣٠٤

* وهكذا جاء دور السحرة وعلماء الفرعون:... ٣٠٥

* وأما الجند وصغار الأعوان:... ٣٠٩

نشوء الممالك وزوالها ونظريَّة ابن خلدون في قيام الحضارات، ونظريَّة تويني في تنقلها بين المشرق والمغرب: ٣١١

الحضارات والنّظام الدّولي القديم إلى ظهور الإِسْلَام: ٣١٤

أهمية معرفة التّاريخ: ٣١٦

النّظام الدّولي زمن البعثة النّبويّة (صِرَاع الفرس والرُّوم): ٣١٧

خُلاصة تاريخ الدّول والممالك في التّاريخ العربيّ والإِسْلَاميّ منذ قيام الدّولة النّبويّة وإلى أيّامنا هذه.. ٣٢٠

الدّولة النّبويّة (١-١١هـ) ٣٢١

وقعة بدر (٢ هـ): ٣٢١
نقض اليَهُوْد عهد النبيّ: ٣٢٢
وقعة أحد (٣ هـ): ٣٢٢
اليَهُوْد يحاولون اغتيال النبيّ ﷺ: ٣٢٣
وقعة الخندق (٥هـ): ٣٢٣
صلح الحديبية (٦هـ): ٣٢٥
غزو المدن اليَهُوْدية: ٣٢٦
عمرة القضاء (٧ هـ): ٣٢٦
الرَّسُول ﷺ يوجه رسائل إلى ملوك وأمراء الدّول المجاورة: ٣٢٧
الرَّسُول ﷺ يجهز حملة انتقام لقتل سفيره الحارث بن عمرو: وقعة مؤتة: ٣٢٧
فتح مكّة (٨ هـ): ٣٢٨
غزو ثقيف وهوازن (٨ هـ): ٣٢٩
المسيرة النّبويّة لقتال الرُّوم: غزو تبوك ودومة الجندل (٩ هـ): ٣٢٩
إقبال وفود القبائل العربيَّة إلى المدينة وإعلان إسلامها: ٣٣٠
إنذار من بقي عَلى الشرك من العَرَب (٩ هـ): ٣٣٠
حجة الوداع (١٠ هـ): ٣٣٠
ظهور حركة الرِّدَّة: ٣٣١
مرض الرَّسُول ﷺ ووفاته (١١ هـ): ٣٣١

الدّولة الإسْلاميّة في عهد الخُلَفَاء الرّاشدين(١١-٤١هـ) ٣٣٢
مدّة خلافة الخُلَفَاء الرّاشدين وأعمارهم: ٣٣٢
خلافة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه (١١- ١٣ هـ): ٣٣٢
خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣- ٢٣ هـ): ٣٣٣
خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٣- ٣٦ هـ): ٣٣٤
خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣٦- ٤٠ هـ): ٣٣٥
خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما (٤٠-٤١ هـ): ٣٣٦
الفتوحات الإسْلاميّة في عهد الخُلَفَاء الرّاشدين: ٣٣٦

الدّولة الإسْلاميّة في عهد الخِلافَة الأموية (٤١-١٣٢هـ) ٣٣٩

مدّة خلافة الخُلَفَاء الأمويون وأعمارهم ٦٦١ -٧٥٠ م: ٣٤١
الفتوحات في عهد بني أمية: ٣٤٢
أسباب سقوط الدّولة الأموية: ٣٤٧
تقييم عهد بني أمية: ٣٥٠
ظاهرة علماء السُّلطَان في العصر الأموي: ٣٥٣
الدّولة الإسْلَاميّة أيّام الخِلافَة العبّاسيّة(١٣٢-٦٥٦هـ) ٣٥٤
انتقال الخِلافَة إلى بني العبّاس: ٣٥٤
الفتوحات في عهد الدّولة العبّاسيّة: ٣٥٨
تقييم العصر العبّاسي الأوّل: ٣٦١
ظاهرة علماء السُّلطَان في العصر العبّاسي الأوّل: ٣٦٤
العصر العبّاسي الثّاني: ٣٦٩
السمات الّتي يتميز بها العصر العبّاسي الثّاني: ٣٧٠
الطور الثّالث من الخِلافَة العبّاسيّة: ٣٨٣
السمات المميزة للعصر العبّاسي الثّالث: ٣٨٣
أهمّ الدّول المستقلة منذُ قيام العصر العبّاسي وإلى قيام الدّولة العُثْمَانِيّة: ٣٨٤
(أ) – في المشرق والعراق والشّام ومصر: ٣٨٤
١- الدّولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٨هـ/ ٨٦٨-٩١١م): ٣٨٤
٢- الدّولة الطّولونيّة (٢٥٦- ٢٩٢ هـ/ ٨٧٠-٩٠٥ م): ٣٨٤
٣-الدّولة السّامانيّة (٢٦١-٣٨٩هـ/ ٨٧٤-٩٩٨م): ٣٨٥
٤- الدّولة الحمدانيّة (٢٩٢-٣٩٢هـ/ ٩٠٤-١٠٠٢م): ٣٨٥
٦ - الدّولة الإخشيدية (٣٢٣- ٣٥٨هـ/ ٩٣٥-٩٦٩ م): ٣٨٨
٧- الدّولة البويهية (٣٣٤-٤٤٧ هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م): ٣٨٨
٨- الدّولة الغزنوية (٣٦٦-٥٥٥هـ/ ٩٧٦-١١٦٠م): ٣٨٩

٩- دولة السلاجقة (٤٣١-٥٩٠هـ/ ١٠٤٠-١١٩٤ م): ٣٨٩
١٠ - الدّولة الغورية (٤٣٩-٦١٢هـ/ ١٠٤٨-١٢١٥ م): ٣٩٢
١١- الدّولة الخوارزمية (٤٧٠- ٦٢٨هـ/ ١٠٤٨- ١٢٥٨م): ٣٩٣
١٢- الدّولة الأرتقية (٤٩٩- ٥٢١ هـ/ ١٠٧٧- ١١٢١ م): ٣٩٣
١٣- الدّولة الأتابكية (٥١٦- ٥٧٩هـ/ ١١٢٢ - ١١٧١م): ٣٩٤
١٣- الدّولة الأيوبية (٥٦٧ - ٦٤٨هـ/ ١١٧١ - ١٢٥٠ م): ٣٩٤
١٥- دولة المماليك (٦٤٨ - ٩٢٢هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧ م): ٣٩٥
١٦- الخِلافَة العبّاسيّة (الرمزيّة) في مصر (٦٥٦-٩٢٢ هـ/ ١٢٥٨- ١٥١٧م): ٣٩٩
(ب) - الدّول الّتي استقلت في جَزِيرَة العَرَب زمن العبّاسيين: ٤٠٠
١٧- الدّولة الإباضية في عمان (١٧٦هـ/ ٧٩٢م): ٤٠٠
١٨- دولة القرامطة - البحرين - (٢٩٦- ٣٩٨ هـ/ ٩٠٩- ١٠٠٨م): ٤٠١
١٩- دولة بني نجاح في (زبيد - اليمن) (٤٢١-٥٥٤ هـ/ ١٠٣٠ ١١٦٠ م): ٤٠١
٢٠ - الدّولة الصليحية (صنعاء - اليمن) (٤٥٠- ٦٤٧هـ/ ١٠٥٨ - م): ٤٠٢
٢١- دولة بني رسول (اليمن) (٦٢٦- ٨٢٦ هـ/ ١٢٢٩ -١٤٢٣ م): ٤٠٢
(ج)- الدّول الّتي استقلت في إفريقية: ٤٠٢
٢٢- الدّولة المدارية (١٤٠- ٢٩٧هـ/ ٧٥٧-٩٠٩ م): ٤٠٢
٢٣- الدّولة الرّستميّة (١٦٢- ٢٩٦هـ/ ٧٧٩- ٩٠٨ م): ٤٠٣
٢٤ - دولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ/ ٧٨٨-٩٨٥ م): ٤٠٣
٢٥- الدّولة الأغلبية (١٨٤-٢٩٦ هـ/ ٨٠٠-٩٠٩ م): ٤٠٣
٢٦- دولة المرابطين (٤٥٣ - ٥٤١هـ/ ١٠٦٢- ١١٤٧ م): ٤٠٤
٢٧- الموحدون (٥٤١- ٦٦٨هـ/ ١١٤٧- ١٢٧٠ م): ٤٠٥
٢٨- دولة بني مرين (٦٦٨- ٨٧٥هـ/ ١٢٧٠- ١٤٧٠ م): ٤٠٦
٢٩- دولة بني زيان من بني عبد الواد (٦٣٣-٩٦٢هـ/ ١٢٣٥ - ١٥٥٥ م): ٤٠٧
(د) الدّولة الإِسْلَاميّة في الأندلس: ٤٠٨

٣١- دولة الأمويين في الأندلس (٩٢- ٨٩٧هـ/ ٧١٣- ١٤٥٢م): ٤٠٨
١- عبد الرَّحمٰن الداخل (١٣٨- ١٧٢هـ): ٤٠٨
٢- هشام بن عبد الرَّحمٰن الداخل (١٧٢- ١٨٠ هـ): ٤٠٨
٣- الحكم بن هشام (١٨٠- ٢٠٦ هـ): ٤٠٩
٤- عبد الرَّحمٰن (الثّاني) بن الحكم (٢٠٦- ٢٣٨هـ): ٤٠٩
٥- محمّد (الأوّل) بن عبد الرَّحمٰن (٢٣٨-٢٧٣ هـ): ٤٠٩
٦- المنذر بن محمّد (٢٧٣-٢٧٥ هـ): ٤٠٩
٧- عبدالله بن محمّد (٢٧٥- ٣٠٠هـ): ٤١٠
٨- خليفة الأندلس عبد الرَّحمٰن النّاصر (٣٠٠-٣٥٠): ٤١٠
٩- المستنصر بالله الحكم بن عبد الرَّحمٰن النّاصر (٣٥٠- ٣٦٦هـ): ٤١٠
١٠- هشام بن الحكم (٣٦٦هـ): ٤١١
الدّولة العامرية: ٤١١
عودة الخِلافَة إلى بني أمية (محمّد المهدي وسليمان المستعين): ٤١٢
قيام دولة بني حمود في قرطبة: ٤١٢
عودة الحكم إلى بني أمية: ٤١٣
قيام دولة بني جهور في قرطبة: ٤١٣
دولة المرابطين في الأندلس: ٤١٣
نهاية دولة الموحدين في الأندلس: ٤١٤
تاريخ سقوط أهمّ المدن الأندلسية: ٤١٦
أعمار الدّول الإِسْلَاميّة ٤١٨
أعمار الدّول الإِسْلَاميّة المستقلة، بحسب تسلسل تاريخ قيامها: ٤١٩
أسباب انهيار الخِلافَة الإِسْلَاميّة: ٤٢١
أولاً- تحول نظام الخِلافَة إلى النّظام الملكي الوراثي: ٤٢١

ثانياً – الزواج من الإماء وتدخلهن في شؤون الحكم وولاية العهد: ٤٢٤
ثالثا – تجنيد الموالي: ٤٢٦
رابعا: حياة الترف والسرف: ٤٢٦
و من أسباب وعوامل تتابع انهيار الدّول الإِسْلَاميّة: ٤٢٨
١– ارتقاء ملوك صغار سدة الملك: ٤٢٨
٢– الصِّرَاع عَلى الملك: ٤٣٢
أ- ففي دولة السلاجقة: ٤٣٢
ب- وفي الدّولة الفاطميّة: ٤٣٣
ج-وفي الدّولة الأيوبية: ٤٣٦
د- وفي دولة المماليك البحرية: ٤٣٩
هـ- وفي دولة المرابطين: ٤٤١
و- دولة الموحدين ٤٤٢
ز- وفي دول الشمال الإفريقي: ٤٤٣
٣– الانصراف إلى اللهو والمجون: ٤٤٣
أثر ما تقدم من الأسباب في حياة المجتمع الإِسْلَاميّ: ٤٤٧
١ – في الحياة السّياسيّة: تفرقت الكلمة وطمع الأَعدَاء: ٤٤٧
٢ – في الحياة الاقتصاديَّة: ٤٤٨
٣ – في الحياة الاجتماعيَّة: ٤٤٩
ضعف الوازع الإيماني وأثره في انهيار الدّولة الإِسْلَاميّة: ٤٥٣
تفشي ظاهرة علماء السُّلطَان خلال المَرحَلَة العبّاسيّة: ٤٥٥
الغزو الخارجي للعالم الإِسْلَاميّ ٤٥٧
أولا- النورمانديون يخرجون المُسلِمِين من جنوب إيطاليا وصقلية: ٤٥٧
ثانياً - الحُرُوب الصّليبيّة: أسبابها وعواملها: ٤٥٨
الحملة الصّليبيّة الأولى (٤٩١هـ/ ١٠٩٧ م): ٤٥٩

الحملة الصّليبيّة الثّانية (٥٣٩هـ/ ١١٤٥ م): ٤٦٠
الحملة الصّليبيّة الثّالثة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م): ٤٦١
الحملة الصّليبيّة الرّابعة (٥٩٥هـ/ ١١٩٨ م): ٤٦١
** حملة الأطفال (٦٠٨هـ/ ١٢١٢ م): ٤٦٢
الحملة الصّليبيّة الخامسة (٦١٤هـ/ ١٢١٢ م): ٤٦٢
الحملة الصّليبيّة السّادسة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨ م): ٤٦٢
الحملة الصّليبيّة السّابعة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م): ٤٦٤
** محاولة صليبيّة لغزو مصر من إفريقية: ٤٦٥
ثالثا- اجتياح التّتار (المغول) للعالم الإسْلَاميّ: ٤٦٥
خُلاصة أحوال المُسلِمِين إبَّان اجتياح التّتار بحسب رواية ابن كثير رحمه الله: ٤٦٧
ولاية الملك المظفر قطز: ٤٩٢
وقعة عين جالوت ٢٧ رمضان ٦٥٨هـ: ٤٩٥
ذكر سلطنة الملك الظَّاهِر وهو الأسد الضاري بيبرس البندقداري: ٤٩٧
تعليقات وملاحظات سريعة عَلى مسار التّاريخ الإسْلَاميّ منذُ بني أمية وإلى قيام الدّولة العُثمَانِيّة: ٥٠٢
الدّولة الإسْلَاميّة في عهد الخِلافَة العُثمَانِيّة ٥١٢
(١) - السُلطَان عثمان مؤسس الدّولة العُثمَانِيّة (١٣٠٠-١٣١٧م): ٥١٣
(٢) - السُلطَان الغازي أورخان الأوّل(١٣١٧- ١٣٦٠م): ٥١٣
تأسيس الجيش العُثمَانِيّ المُحترف (الإنكِشَارِيّة): ٥١٤
(٣) - السُلطَان الغازي مراد خان الأوّل (١٣٦٠-١٣٨٩م): ٥١٥
(٤) - السُلطَان الغازي بايزيد خان الأوّل (١٣٨٩-١٤٠٢م): ٥١٦
إغارة تيمورلنك عَلى آسيا الصغرى: ٥١٧
(٥) - السُلطَان محمّد جلبي الغازي (١٤١٠-١٤٢١): ٥١٧
(٦) - السُلطَان مراد خان الثّاني (١٤٢١ –١٤٥١م): ٥١٨
(٧) - السُلطَان الغازي محمّد الثّاني فاتح القُسطَنْطينيَّة (١٤٥١- م): ٥١٨
فتح القُسطَنْطينيَّة (٨٥٧ هـ – ١٤٥٣م): ٥١٩

فتح جزائر اليونان ومدينة أوترانت: ٥٢٢
(٨) - السُّلطَان الغازي بايزيد خان الثّاني(١٤٨١- ١٥١٢م): ٥٢٢
(٩) - السُّلطَان سليم الأوّل الغازي (١٥١٢- ١٥٢٠م): ٥٢٣
فتح مصر وانتقال الخِلافَة إلى العُثمَانِيّين: ٥٢٤
(١٠) - السُّلطَان الغازي سليمان خان الأوّل القانُونيّ (١٥٢٠- ١٥٦٦): ٥٢٦
ابتداء الحُرُوب مع النّمسا وحصار عاصمتها (فيينا): ٥٢٧
حصار جَزِيرَة مالطة: ٥٣٥
الفتن داخل بيت السُّلطَان سليمان: ٥٣٥
أسباب بداية انحطاط الدّولة العُثمَانِيّة: ٥٣٦
(١١) - السُّلطَان الغازي سليم خان الثّاني(١٥٦٦-١٥٧٧م): ٥٣٧
فتح جَزِيرَة قبرص: ٥٣٨
(١٢) - السُّلطَان الغازي مراد خان الثّالث (١٥٧٤-١٥٩٥م): ٥٣٩
وصول نفوذ العُثمَانِيّين إلى مراكش: ٥٤٠
(١٣) - السُّلطَان الغازي محمّد خان الثّالث (١٩٩٥- ١٦٠٣م): ٥٤١
(١٤) - السُّلطَان الغازي أحمد خان الأوّل (١٦٠٣- ١٦١٧م): ٥٤٢
(١٥) - السُّلطَان مصطفى خان الأوّل (١٦١٧- ١٦١٨م): ٥٤٣
(١٦) - السُّلطَان عثمان خان الثّاني (١٦١٨- ١٦٢٢ م): ٥٤٣
(١٧) - السُّلطَان الغازي مراد خان الرَّابع (١٦٢٣- ١٦٤٠م): ٥٤٥
(١٨) - السُّلطَان الغازي ابراهيم خان الأوّل (١٦٤٠-١٦٤٨م): ٥٤٥
(١٩) - السُّلطَان الغازي محمّد خان الرَّابع (١٦٤٨- ١٦٨٧م): ٥٤٦
حصار مدينة فيينا من جديد: ٥٤٧
(٢٠) - السُّلطَان الغازي سليمان خان الثّاني (١٦٨٧- ١٦٩١ م): ٥٤٩
(٢١) - السُّلطَان الغازي احمد خان الثّاني (١٦٩١- ١٦٩٥م): ٥٤٩
(٢٢) - السُّلطَان الغازي مصطفى خان الثّاني (١٦٩٥-١٧٠٣م): ٥٥٠
(٢٣) - السُّلطَان الغازي أحمد خان الثّالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠م): ٥٥١
(٢٤) - السُّلطَان الغازي محمود خان الأوّل (١٧٣٠- ١٧٥٤م): ٥٥٢
(٢٥) - السُّلطَان الغازي عثمان خان الثّاني (١٧٥٤- ١٧٥٧ م): ٥٥٥
(٢٦) - السُّلطَان الغازي مصطفى خان الثّالث (١٧٥٧- ١٧٧٤م): ٥٥٥

وصية قيصر روسيا بطرس الأكبر لخلفائه: ٥٥٧
(٢٧) - السُّلطَان الغازي عبد الحميد خان الأوّل (١٧٧٤- ١٧٨٩ م): ٥٦١
استيلاء روسيا عَلى بلاد القرم: ٥٦٦
(٢٨) - السُّلطَان الغازي سليم خان الثّالث (١٧٨٩- ١٨٠٧م): ٥٦٦
الفتن الداخليَّة بسبب توجهات السُّلطَان الغربيّة: ٥٧٠
(٢٩) - السُّلطَان الغازي مصطفى خان الرَّابع (١٨٠٧- ١٨٠٨م): ٥٧٣
(٣٠) - السُّلطَان الغازي محمود خان الثّاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩م): ٥٧٤
تدخل الدّول الأوربية في شؤون الدّولة العُثمَانِيّة: ٥٧٥
واقعة ناورين: ٥٧٦
(٣١) - السُّلطَان الغازي عبد المجيد خان (١٨٣٩- ١٨٦١م): ٥٧٩
حرب القرم وأسبابها: ٥٨٤
(٣٢) - السُّلطَان الغازي عبد العزيز خان (١٨٦١- ١٨٨٦م): ٥٨٩
(٣٣) - السُّلطَان مراد الخامس (مايو١٨٨٦- أغسطس ١٨٨٦ م): ٥٩١
(٣٤) - السُّلطَان الغازي عبد الحميد خان الثّاني (١٨٨٦- ١٩٠٩ م): ٥٩١
الدستور العُثمَانِيّ والنهضة الوطنيّة والإصلاحات في الدّولة العُثمَانِيّة: ٥٩٢
القانون الأساسي والسلطان عبد الحميد: ٥٩٤
الحادثة الإرتجاعية وخلع عبد الحميد: ٥٩٦
تركيا بعد السُّلطَان عبد الحميد: ٦٠٣
(٣٥) - السُّلطَان محمّد رشاد خان الخامس (١٩٠٩- ١٩٢٤م): ٦٠٣
(٣٦) - السُّلطَان محمّد السَّادس (وحيد الدّين) (١٩١٨-١٩٢٤): ٦٠٤
***أهمّ الأسباب الداخليَّة المباشرة الّتي أدت إلى سقوط الخِلافَة* ٦٠٨**
أولاً: انتشار الدعوات القوميّة: ٦٠٨
القوميّة التركية (الطورانية): ٦٠٨
ثانياً: الثَّورة العربيَّة الكبرى: ٦١٤
مقارنة بين القوميّة الطورانية والقومية العربيَّة: ٦١٦

مصطفى كمال يحطم تركيا ويلغي الخِلافَة ٦١٩

المخطط التدميري: ٦٢١

وفي (٣) مارس سنة (١٩٢٤م) ألغيت الخِلافَة: ٦٢٢

وثيقة يوصي بها مصطفى كمال لسفير بَرِيطَانيَا لورين برئاسة تركيا: ٦٢٣

تقييم موجز للدولة الخِلافَة العُثمَانِيّة ٦٢٥

أسماء الخُلَفَاء العُثمَانِيّين ومدة حكمهم: ٦٢٥

أولاً- طور القوّة: ٦٢٥

ثانياً - طور الضّعف: ٦٢٧

ثالثا - طور الإنهيار والموت: ٦٢٧

أولاً: المناحي الإيجابية في دولة الخِلافَة العُثمَانِيّة: ٦٢٨

ثانيا: المناحي السلبية في دولة الخِلافَة العُثمَانِيّة: ٦٣٠

ثالثا: الأسباب العامّة لانهيار الدّولة العُثمَانِيّة: ٦٣٣

وأخيرا: السبب الخارجي: ٦٣٤

استعراض لأحوال دول وممالك العالم العربيّ والإِسْلَاميّ منذ انهيار الخِلافَة العُثمَانِيّة ٦٣٥

أولاً: العالم العربيّ: ٦٣٦

العراق: ٦٣٦

سوريا: ٦٤٠

لبنان: ٦٤٤

فِلَسطِين: ٦٤٦

الأردن: ٦٤٩

بلاد الحرمين المسماة بـ (السّعُودِيّة!!): ٦٥١

الدَّور الأوّل: الدّولة السّعُودِيّة الأولى: ٦٥١

الدَّور الثّاني أو الدّولة السّعُودِيّة الثّانية: ٦٥٢

الدَّور الثّالث- الدّولة السّعُودِيّة الثّالثة: ٦٥٣
الكويت: ٦٦٢
قطر: ٦٦٤
البحرين: ٦٦٥
الإمارات العربيّة المتحدة: ٦٦٦
عُمان: ٦٦٨
اليمن: ٦٦٨
مصر: ٦٧٠
السُّودَان: ٦٧٦
ليبيا: ٦٧٨
تونس: ٦٨١
الجَزَائِر: ٦٨٢
المغرب: ٦٨٨
موريتانيا: ٦٩١
اريتريا: ٦٩٣
الصّومال وجيبوتي: ٦٩٤
ثانياً: أحوال بعض دول العالم الإسْلَاميّ: ٦٩٦
تركيا: ٦٩٦
حكم مصطفى كمال أتاتورك لتركيا (١٩٢٤- ١٩٣٨): ٦٩٦
تركيا بعد أتاتورك (١٩٣٨- ٢٠٠٤م) ٦٩٨
تركيا بعد حكم الإنقلاب العسكريّ: ٧٠٣
باكستان: ٧٠٤
إيران: ٧٠٧
أفغانستان: ٧١٠
دول وسط آسيا (تركستان): ٧١٣
الغزو الرُّوسي لبلاد آسيا الوسطى الإسْلَاميّة ومراحله: ٧١٤

جمهوريّات آسيا الوسطى والمسلمون بعد تفكك الاتحاد السُّوفيتيّ:....... ٧١٧
وخلاصة أحوال المُسلِمِين في آسيا الوسطى بعد رحيل السّيطرة الرُّوسية:................................ ٧٢٠
تركستان الشرقية المحتلة من قبل الصين:... ٧٢١
إندونيسيا: ٧٢٤
ماليزيا:... ٧٢٧

نبذة سريعة وموجزة عن تاريخ الرُّوم ٧٣٠

أهمّ أسباب نهضة أوربّا واسترجاعها لواء الحضارة منذُ مطلع القرن السَّادس عشر- باختصار- ٧٣٧
السّيطرة اليَهُوْدية عَلى الرُّوم المعاصرين (الإتحاد السوفييتي البائد – أوربّا– أمريكا): ٧٤٠
(١) - تسلط اليَهُوْد عَلى الإتحاد السوفييتي البائد وروسيا الحالية: ٧٤٠
– الثَّورة البلشفية واليَهُوْد: ٧٤٠
– المكتب السّياسيّ الأوّل للثورة البلشفية: ٧٤١
– الدّولة الّتي شكلها لينين سنة (١٩١٨م). ٧٤١
(٢) - مؤتمر يالطة سنة (١٩٤٥م) وتسلط اليَهُوْد عَلى الدّول العظمى:.................................. ٧٤٢
(٣) - تسلط اليَهُوْد عَلى أوربّا: ٧٤٣
(٤) - تسلط اليَهُوْد عَلى أمريكا ، وظاهرة المسيحيين المتهودين (الكنيسة الإنجيلية) و(المحافظون الجدد): . ٧٤٤

تطور النّظام الدّولي وخلاصة الصِّرَاع بين المُسلِمِين والرُّوم ٧٤٨

الصِّرَاع مع الرُّوم خلال الدّولة النّبويّة: ٧٤٨
الصِّرَاع مع الرُّوم في دولة الخُلَفَاء الرّاشدين:... ٧٤٩
الصِّرَاع مع الرُّوم في العصر الأموي: ٧٤٩
الدّولة العبّاسيّة والصِّرَاع مع الرُّوم: ٧٥٠
الدّولة العُثمَانِيّة والصِّرَاع مع الرُّوم: ٧٥٢
العالم الإِسْلَاميّ بعد سقوط الخِلافَة العُثمَانِيّة والصِّرَاع مع الرُّوم: ٧٥٣

الصِّرَاع بين الرُّوم أنفسهم بعد غياب المُسلِمِين عن مسرح القوى الدّولية وتحولهم إلى غنائم استعماريّة: .٧٥٥

النّظام العَالَمِيّ الحديث وقيام الإمبراطوريتان السوفييتية والأمريكيّة وصراعهما عَلى النفوذ: ٧٥٦

هزيمة روسيا في أفغانستان وانهيار الإتحاد السوفييتي، وقيام النّظام العَالَمِيّ الجَدِيد بزعامة أمريكا كقطب أوحد ينفرد بمقدرات السّياسة والاقتصاد في العالم:..٧٥٨

آخر الحلقات في صراعنا مع الرُّوم: (صِرَاع المُسلِمِين مع أمريكا وحلفائها) حاليا: ٧٦١

خُلاصة النّظام الدّولي، وصراع المُسلِمِين مع الرُّوم عبر التّاريخ الإِسْلَامِيّ. ٧٦٦

يتبع في الفصل الرابع ...